الحياة الاجتماعية في بغداد

تاريخها - أسوارها - بيوتها - حماماتها - مقاهيها مساجدها - تكاياها - مجالسها وطوائفها

(١٢٤٧-١٣٣٦هـ/١٨٣١-١٩١٧م)





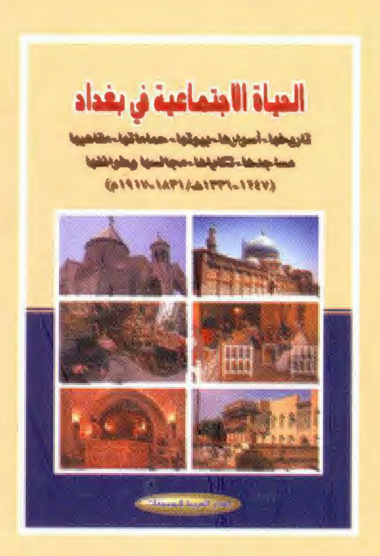



الدار العربية للموسوعات

أ. د. فردوس عبد الرحمن كريم اللامي

الحياة الاجتماعية في بغداد





ISBN 978-614-424-267-4
9 786144 242674

الحياة الاجتماعية في بغداد

تاريخها - أسوارها - بيوتها - حماماتها - مقاهيها

مساجدها - تكاياها - مجالسها وطوائفها

(١٢٤٧-١٣٣٦هـ/١٨٣١-١٩١٧م)

اسم الكتاب: الحياة الاجتماعية في بغداد: تاريخها - أسوارها - بيوتها - حماماتها مقاهيها - مساجدها - تكاياها - مجالسها وطوائفها (١٢٤٧-١٣٣٦هـ/ ١٨٣١-١٩١٧م)

تأليف: أ. د. فردوس عبد الرحمن كريم اللامي

الطبعة الأولى: ٢٠١٧م - ١٤٣٨هـ

ISBN 978-614-424-267-4



الدار العربية للموسوعات

المدير العام: خالد العاني - KHALED AL ANI

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط١ - بيروت - لبنان
ص.ب: ٥١١ الحازمية - هاتف: ٩٥٢٥٩٤ ٥ ٠٠٩٦١ - ٩٥٥٦١٨ ٥ ٠٠٩٦١
فاكس: ٤٥٩٩٨٢ ٥ ٠٠٩٦١
هاتف نقال: ٣٨١٠٨١ ٧٦ ٠٠٩٦١ - ٣٨٨٣٦٣ ٣ ٠٠٩٦١ - ٥٢٥٠٦٦ ٣ ٠٠٩٦١
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

الحياة الاجتماعية في بغداد

تاريخها - أسوارها - بيوتها - حماماتها - مقاهيها
مساجدها - تكاياها - مجالسها وطوائفها
(١٢٤٧-١٣٣٦هـ/ ١٨٣١-١٩١٧م)

تأليف

أ. د. فردوس عبد الرحمن كريم اللامي

الدار العربية للموسوعات
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

لقد كثرت الدراسات والكتابات عن مدينة بغداد عاصمة للخلافة العباسية والعراق منذ تأسيسها سنة (١٤٥هـ-٧٦٢م) لحد الآن، كونها تحتل مكانة مرموقة في الوطن العربي والعالم الإسلامي، وتتمتع بخصائص جغرافية، وتاريخية، وسياسية، واقتصادية، واجتماعية، وثقافية، ودينية، نادراً ما تنافسها مدينة أخرى في تلك الخصائص والسمات قديماً وحديثاً... تنوعت عنها البحوث في مختلف الميادين العمرانية، والحضارية، والثقافية، والتخطيطية والهندسية، والآثارية.. وكانت مجالات الكتابة عنها وحولها تتجدد بتجدد الزمن، والمناسبات والإنجازات، والتطورات الحضارية، والسياسية... وقد أُريد لبعض أبواب الكتابة عنها ألا تقفل وتستمر، ما دامت بغداد رابضة على ضفاف دجلة، وما برح الإنسان البغدادي، والعراقي موجوداً يطاول الزمن في تطلعاته. وما انفك منقبو الحضارة الإنسانية المثابرين في تنقيباتهم لهم حصة لبغداد في تنقيباتهم، ودراساتهم... لقد وجدتُ في **الحياة الاجتماعية في بغداد بين عامي (١٨٣١-١٩١٧م)** ضالتي المنشودة، فكانت موضوعاً لبحثي، وهي حقبة اتسمت ببعض السمات المتميزة، مما جعلها مرحلة قائمة بذاتها في عرف دارسي الحقب الزمنية التاريخية ذات التأثيرات الواضحة في حياة المجتمع والدولة، فبدايتها سنة ١٨٣١م تعد نهاية لحكم المماليك في بغداد والعراق، ونهايتها سنة ١٩١٧م توافق الاحتلال البريطاني لبغداد والعراق ونهاية العهد العثماني فيه.

وقد شهدت بغداد خلال هذه العقود التسعة أحداثاً غاية في الأهمية تركت بصماتها الواضحة على الحياة الاجتماعية.. فقد تميز العهد العثماني الأخير بالعديد من التغيرات والإصلاحات الحضارية حتّمتها حركة الإصلاحات، والتنظيمات الحديثة التي بدأت تأخذ طريقها في مفاصل حياة الدولة العثمانية، وبرز عدد من الولاة، والوزراء، والقادة المتنورين والمتأثرين بمنطلقات الحضارة الأوروبية الحديثة.. أمثال مدحت باشا. وقد تولى عدد من ولاة الإصلاح ودعاة التغيير مناصبهم في بغداد فحرصوا على تحقيق عدد من المنجزات الحضارية مثل فتح المدارس، والمستشفيات، وتحسين وسائل النقل والاتصال، وإنشاء، بعض المعامل، والأخذ بوسائل نشر الثقافة، والوعي بإدخال المطابع، ونشر الكتب والصحف، وتقوية الاتصال بين بغداد وعاصمة الدولة العثمانية. وإدخال تغييرات في الوضع الإداري لمختلف المناطق، وبعض الأنظمة والقوانين والتشريعات الحديثة. وتنشيط الحياة الاقتصادية خاصة بعد فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩م، والمساهمة في شركات النقل البحري والنهري. وقد تسربت إلى بغداد مبادئ الوعي السياسي والاجتماعي، وظهر فيها عدد من الأحزاب، والجمعيات السياسية الوطنية والقومية، والعثمانية، ودعوات تحرير المرأة، والتوعية الدينية، ومحاربة البدع والخرافات، والاعتدال في نزعة التصوف التي بلغت الذروة في هذه الحقبة بسبب تشجيع الحكومة المركزية ورعايتها لها. وقد أخذ عدد سكان بغداد بالازدياد بسبب النمو السكاني والهجرة من داخل العراق وخارجه، طلباً للعمل والتجارة والأمان والاستقرار. ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه الدراسة ركزت على بغداد لأنها تمثل مركز الثقل في كثير من جوانب دراسة العراق في مختلف الاتجاهات والموضوعات الاجتماعية، ومنها تنطلق عناصر التأثير، والتطور، والتحديث، والإصلاح، وكل ما يصيب المجتمع العراقي من تغيرات لمكانتها المتميزة بين مدن العراق قديماً وحديثاً. وقد اقتضى منهج البحث اعتماد التحليل، والتعليل، والتوسع في الحديث عن بعض الجوانب.

وقد جاءت خطة البحث بتمهيد وخمسة فصول، ففي التمهيد تناولت عوامل نمو مدينة بغداد إذ توفر أكثر من عامل أثر في نموها. منها اقتصادي وسياسي وإداري واجتماعي وحضاري فأوضحت المعالم العمرانية فيها وكذلك الأعراف والتقاليد والقيم.. الخ.

أما الفصل الأول، فقد تضمن على نحو مسهب الفئات الاجتماعية وما يندرج تحت هذا العنوان من البحث لعدد السكان، وأوضاع المجتمع بصورة عامة، وأثر التطورات والتغيرات فيها ونتائجها عليها، ثم دراسة الفئات الاجتماعية مبينة نمو كل منها، وأسبابها وعلاقتها بغيرها من الفئات، وموقعها من الثروة الرئيسة في المجتمع. محاولة توضيح بعض الظواهر الاقتصادية، والسياسية، والثقافية، وتأثيرها على بعض الفئات دون غيرها. وغير ذلك من الموضوعات التي في ذكرها ضرورة ملحة لفهم المجتمع البغدادي وخاصة الفئة العاملة وما كانت تعانيه بسبب الأزمات السياسية والاقتصادية، ومدى تأثرهم بالتطورات والإصلاحات خلال العهد العثماني الأخير.

أما الفصل الثاني، فقد تناول دراسة طوائف السكان الرئيسة من **المسلمين، والنصارى واليهود**، وأثر حركة الإصلاحات والتنظيمات العثمانية على الأقليات الدينية، وما منحتهم من حقوق بينت ما تتمتع به تلك الأقليات من حريات واسعة في إقامة احتفالاتهم، ومناسباتهم وزياراتهم وممارسة أعمالهم، وتوليهم المناصب الإدارية لإدارة شؤون طوائفهم، وما تمتع به اليهود - نظراً للتطورات الاقتصادية - من مكانة مهمة في التجارة، والصيرفة. كما تناول حركة الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية، وأثرها على الطوائف المسيحية، والأسباب التي تقف وراء هذه النشاطات الهامة، كما وضح العلاقات الاجتماعية التي تربط بين الطوائف، والتي تميزت بالتعاون فيما بينهم بالرغم من اختلاف دياناتهم.

أما الفصل الثالث فقد خُصص لدراسة التنظيمات الاجتماعية للسكان، ومحاولة الكشف عن أثر التنظيمات على الحياة الاجتماعية في بغداد، وما تمثله من مصالح الفئات المختلفة علاوة على معالجة ظهور تنظيمات جديدة، وبدء اختفاء تنظيمات أخرى نظمت في العهود السابقة.

أما الفصل الرابع، فقد كُرِس لدراسة المظاهر الاجتماعية التي تعكس واقع المجتمع والخصائص المعيشية لكل فئة من فئاته، وكيفية تفاعلها مع بعضها موضحاً المظاهر الدينية والأدبية، والفنية، والرياضية، ثم مبيناً الحياة العامة التي يعيشها سكان المدينة من خلال الاهتمام بدراسة أعيادهم، ومناسباتهم، وزياراتهم، وطعامهم، وملبسهم، ومستوى معيشتهم، وعلاقاتهم الاجتماعية بصورة عامة، والأسرية بصورة خاصة. ودور المرأة إذ إن دراسة المظاهر الاجتماعية لم تكن سهلة لأن المؤرخين لم يتناولوها إلّا عرضاً لهذا كان الاعتماد في دراستها على ما كتبه الرحالة من وصف عادات الزواج والأفراح والمآتم، وعلى ما كتبه بعض الباحثين معتمدين على ذاكرة المسنين.

أما الفصل الخامس، فقد ركز على دراسة الخدمات الاجتماعية، والبلدية، والصحية والتعليمية، والتلغراف، والبريد، والأمن، مع بيان القوانين والأنظمة الصادرة بخصوص تلك الجوانب لمعرفة واجباتها، ومدى تطبيقاتها في المدينة، واستفادة الناس منها وخاصة أنها أنشئت كجزء من الإصلاحات التي طبقت في المدينة.

ولا بد من الإشارة إلى المصادر المعتمدة في هذه الدراسة حيث لا يخفى مقدار الصعوبة التي تواجه الباحث عند جمعه مواد بحثه في مجال التاريخ الاجتماعي بوجه عام لأن السمة الغالبة على تلك المصادر الاهتمام الشديد بالأحداث السياسية البحتة دون التعرض إلى النواحي الحضارية الأخرى إلّا نادراً، وباختصار شديد. وعلى الرغم من الإشارات المختصرة التي يتناول فيها المؤرخون الحياة الاجتماعية إلّا أنهم يجدون أنفسهم متراخين في

توضيح أثر حركة المجتمع الفعالة في تحريك الأحداث والتطورات السياسية، والحضارية، فيشيرون له إشارة سريعة. ولكن الباحث المتمكن يستطيع أن يلم بتلك الإشارات والأفكار، ويضمها إلى بعض فيخرج بنتائج واضحة.

فقد اعتمدت الدراسة على جملة من المصادر، والمراجع المتنوعة، والمتباينة في عرض الأحداث لذا حرصت على التعامل معها بروح موضوعية قائمة على التنقيب، والمقارنة وصولاً إلى النتيجة المنطقية. وتأتي في مقدمة هذه المصادر الوثائق العثمانية المنشورة وغير المنشورة فبالنسبة للوثائق غير المنشورة فقد تم الاعتماد على مصورات بعض الوثائق العثمانية من أرشيف رئاسة الوزراء في إسطنبول المحفوظة في مركز التوثيق الإعلامي ووزارة الثقافة والإعلام، وقد ضمت قيود الفرمانات، والأحكام الصادرة عن الديوان الهمايوني «رئاسة الوزراء» للأمور العامة كافة خلال المدة (٩٦١-١٣٢٣هـ). كما تم الاعتماد على عدد من السجلات اذنامة الخاصة بعقود الزواج، والطلاق المحفوظة في دار الكتب والوثائق والسجلات التجارية الموجودة بحوزة الأستاذ الدكتور عماد عبد السلام رؤوف نظراً لأهمية هذه الوثائق في توضيح بعض الجوانب الاجتماعية. أما بالنسبة للوثائق العثمانية المنشورة فتُعدّ السالنامات العثمانية المركزية أو تلك التي تصدر عن الولاية أهم تلك الوثائق وهي بمجموعها وثائق رسمية اعتادت الدولة العثمانية وإدارتها في إصدارها آنذاك للتعريف بالولاية وفيها معلومات وفيرة عن تاريخ الولاية، والإدارة، والموظفين، والأوضاع الإدارية والاجتماعية بالإضافة إلى الإحصاءات المهمة عن بعض الإدارات والميزانية العامة وأعداد السكان، وأنماط استيطانهم، وأعداد المرافق العامة في المدينة. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن المعلومات التاريخية، وكذلك الإحصاءات تكاد تكون مضطربة بعكس المعلومات الإدارية التي تمتاز بالدقة لذا تعاملنا معها بحذر شديد في هذه الجوانب. وقد اعتمد البحث على معظم السالنامات الخاصة بولاية بغداد تقريباً بالإضافة إلى بعض السالنامات العامة عن الدولة العثمانية. كما اعتمد البحث على بعض المصادر الوثائقية المنشورة التي

تناولت القوانين والأنظمة، والأحكام الصادرة من قبل الدولة العثمانية بمختلف الجوانب الإدارية والاقتصادية منذ صدور منشور خط شريف كولخانة سنة ١٨٣٩م، وهي مجموعة القوانين والتنظيمات العثمانية المنشورة في الدستور المترجم من قبل نوفل نعمة الله نوفل المجلد الأول في سنة (١٣٠١هـ-١٨٨٤م)، ودستور مجلد ثالث المطبوع سنة (١٢٩٣-١٨٧٩م)، ودستور مجلد رابع المطبوع سنة (١٢٩٩هـ-١٨٨٢م).

وقد كرست هذه الوثائق المنشورة لتوضيح الجوانب الإدارية لبعض مباحث الكتاب.

وقد شكلت المعلومات التي وردت في المخطوطات مصدراً في إمداد البحث بتصور شامل عن الولاة والأوضاع الإدارية والاقتصادية والاجتماعية في الولاية، وخاصة أن مؤلفي تلك المخطوطات كانوا معاصرين لتلك الأوضاع، مثل مخطوطة أخبار بغداد وما جاورها من البلاد التي هي بمثابة موسوعة مصغرة عن بغداد كما شملت وصف للمشاهد العمرانية والحضارية، والثقافية، والاجتماعية، والسياحية، والجغرافية، ومخطوطة مزارات بغداد التي تكمن أهميتها في إعطاء صورة عن المعتقدات، والعادات، والتقاليد الاجتماعية.

وتحتل الصحافة مكانة متميزة بين مصادر الرسالة الأصلية لما تحفل به من حقائق ضرورية لتوضيح العديد من الأمور التي وردت في الرسالة في إطاريها العام والخاص. وتكاد تكون جريدة الزوراء في مقدمة الصحف التي استندت عليها الرسالة إذ كانت المصدر الأساسي لبعض المباحث وقد احتوت على معلومات واسعة عن أوضاع المدينة وسكانها ونصوص القوانين والأنظمة، ومدى انعكاس التطورات، والتغيرات على المجتمع فقد وردت فيها أخبار لم ترد في أي مرجع تاريخي آخر وينطبق القول نفسه على جريدة الرقيب وصدى بابل الحافلتين بمعلومات فريدة، ونادرة ساعدت كثيراً في فهم العديد من جوانب الموضوع وقد أجرت الرسالة مسحاً شاملاً للصحافة

العراقية، وتجاوزت ذلك الإطار الزمني لها نفسها، وبحثت عن مذكرات المسنين من العادات، والتقاليد، والأعراف الاجتماعية، ومنها على سبيل الذكر جريدة البلاد، والشرق، والبلد، التي احتوت على مقالات عرضت على شكل حلقات في هذه الصحف عن العادات، والتقاليد، والعادات الاجتماعية، والأزمات السياسية والاقتصادية، وتأثيرها على المجتمع، والأزياء في القرن السابق.

وتكتسب المعلومات الواردة في بعض المؤلفات العربية والمترجمة أهمية كبيرة في كونها تعطي معلومات قيمة عن الحياة الاجتماعية لتلك المرحلة من خلال استعراض الحياة السياسية، والأزمات الاقتصادية بصورة غير مباشرة، وبعضها تناولت أسباب نمو بعض فئات المجتمع، وبعضها تناولت التراث الشعبي وفي مقدمة هذه المصادر مؤلفات علي الوردي وعباس العزاوي، وعبد الكريم العلاف، ومحمد رؤوف الشيخلي، وجعفر الخياط، وحنا بطاطو، وستيفن همسلي لونكريك، وعبد العزيز سليمان نوار، ومحمد سلمان حسن، وشارل عيساوي. كما اعتمدت الدراسة على العديد من الرسائل الجامعية غير المنشورة للأستاذ الدكتور عماد عبد السلام رؤوف المعنونة (**الحياة الاجتماعية في العراق أبّان عهد المماليك**) حيث تناولت التكوين الاجتماعي لسكان العراق، ومنها بغداد، والتنظيمات الاجتماعية فيها ومظاهر الحياة الاجتماعية بوجه عام. ورسالة عبد الرزاق النصيري «**دور المجددين في الحركة الفكرية والسياسية في العراق**» حيث تناول دور الفئات المثقفة في بدء تكونها في نهايات القرن التاسع عشر وحتى الثلاثينات من القرن العشرين. ورسالة عبد الكريم حسين عبد الشافي «**الاتجاهات الإصلاحية في بغداد**» وقد تناول فيها دور الأسر المثقفة في توجيه الحياة الاجتماعية في بغداد في أخريات العهد العثماني. إلى جانب عدد من الرسائل العلمية الأخرى.

ورفدت الرحلات الأجنبية في مباحث الكتاب بما قدمته من معلومات تتصل بشكل مباشر بالمظاهر الاجتماعية التي تغفلها عادة المصادر المحلية من أساليب معيشة، ونشاطات اجتماعية عامة، وأزياء... الخ. فضلاً عما وصفته

لحالة المدينة العمرانية، وما تشتمل عليه من أسواق، ومحلات، وطرق، وأزقة، ورسم خططها بدقة مما يفيد الدراسة في مجالات تطور المدينة، وتوسعها وتأتي في مقدمة الرحلات **رحلة جيمس بيلي فريزر الذي زار بغداد سنة ١٨٣٤م، ثم رحلة فيلكس جونز الذي وضع إحصاءات شبه متكاملة عن السكان، والأسواق، والمحلات، والمأكولات سنة ١٨٤٥م ورحلة جيري إلى بغداد سنة (١٨٧٧-١٨٧٨م) التي تضمنت وصفاً للمجتمع، والعادات، والمهن ورحلة الفرنسي كونيه الذي زار بغداد ١٨٩٢م وخصص فصلاً كاملاً عن مدينة بغداد** مقدماً فيه إحصاءات عن أعداد السكان وتناول فيه مختلف الجوانب الاجتماعية للمدينة وغيرها من الرحلات الأجنبية الأخرى المترجمة وغير المترجمة.

واعتمد الكتاب على عدد غير قليل من الدراسات والبحوث المنشورة في أمهات المجلات العلمية مثل مجلة لغة العرب، والمقتطف، والمشرق، والمورد الحافلات بمعلومات تاريخية اجتماعية ساهمت مساهمة جدية في تكوين بعض الصور في هذا الكتاب.

أرجو أن أكون قد وفقت إلى ما يرضي الله سبحانه وتعالى وقدمت ما يتناسب مع مكانة بغداد الحضارية، والعمرانية، ومجتمع بغداد العريق بالمجد والبطولة، والفضائل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تمهيد

مدينة بغداد وعوامل نموها



بغداد قديماً.

ولدت بغداد حاضرة للخلافة العباسية بحضارتها، وبثقافتها وبموقعها، وآثارها، وفنونها ومواردها، وأشارت الكثير من المصادر إلى المجد والازدهار الذي وصلت إليه بغداد، إلّا أن بوادر التدهور والانحطاط بدأت تنخر بالخلافة حتى سقوطها على يد المغول سنة (٦٥٦هـ-١٢٥٨م) إذ لم يتسبب احتلال المغول للمدينة بالدمار والتخريب وقتل العديد من الناس فحسب بل كان ضربة حاسمة أفقدت بغداد مركزها عاصمة للخلافة، ومركزاً للحكم

الإسلامي وبدأت احتلالات أجنبية تتوالى عليها[١] وقد ظلت بغداد منذ ذلك الحين تتقاذفها أمواج الحروب وتتناوبها أيادي الحكام الأجانب من احتلال لآخر زهاء أربعة قرون متتالية ولم تكن تلك القرون الأربعة ولا الثلاثة التي أعقبتها مجرد فترة احتلال، قدر ما كانت فترة سبات للمدينة وخراب للعمران، وعدم ثبات الأحوال فيها على وتيرة واحدة [٢] وعلى الرغم من بعض فترات الاستقرار والنمو إلّا أن السنين العصيبة لم تدع مجالاً لبغداد كي تستعيد ماضيها التليد فكانت توجه لها ضربة ما إن تستفيق من تأثيراتها حتى تتلقى ضربة أشد ولم تكن تلك الضربات مميتة لبغداد وحسب وإنما كانت تشلها تماماً لتعود فتسترجع أنفاسها وتستعيد نشاطها وتبدأ مسيرتها نحو النهوض مسجلة صفحة أخرى من صفحات تاريخها المليء بالكوارث، والطواعين، والاقتتال، والحرائق، وكان عاما ١٢٥٨ و١٨٣١م من أسوأ الأعوام التي مرت بها بغداد فقد مزق المغول بغداد سنة ١٢٥٨م واجتاحها الطاعون وأغرقها الفيضان وحاصرتها الجيوش وأصابتها المجاعة وسلبها الأوباش سنة ١٨٣١م[٣] آثاراً

---

(١) لسترنج كي، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: كوركيس عواد، بغداد، ١٩٥٤م، ص٥٤-٥٥؛ محمد فريد بك، تاريخ الدول العثمانية، مصر، ١٨٩١م، ط١، ص٣٩.

(٢) أحمد عبدالله البغدادي، عيون أخبار الأعيان مما مضى في سالف العصور والأزمان، د.ص.م، رقم المخطوط، ٩٣١١م، ص١٨٧؛ عبد العزيز سليمان النوار، تاريخ العراق الحديث القاهرة، ١٩٦٨م، ص٨؛ مرتضى نظمي زادة، كلشن خلفا، ترجمة: موسى كاظم، بغداد، ١٩٧٦م، ص١٩٩؛ ياسين خير الله العمري، زبدة الآثار الجليلة في الحوادث الأرضية، حققه د. عماد عبد السلام رؤوف، النجف، ١٩٧٤م، ص٦٩.

(٣) عباس بن السيد جواد البغدادي، نيل المراد في العراق وبغداد، د.ص.م. رقم ٩٠٩٣، ص٤٢٨-٤٣٠؛ خلاصة سفر المستر أنطوان كروفس د.ص.م. رقم ٤٠٩٣١، ص٣٣؛ الخط الهمايوني، وثيقة رقم E 22645 بتاريخ محرم سنة ١٢٤٧هـ، معهد القائد المؤسس؛ أحمد سوسة، فيضانات بغداد في التاريخ ج٢، بغداد، ١٩٦٥م، =



حرب المغول.



الجيش العثماني.

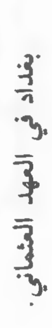
مروعة في بغداد وأضحت معظم المنازل في شرقي بغداد أطلالاً خربة وثلث الأراضي المحصورة داخل الأسوار خالية، بينما كان معظم الكرخ خراباً وكان في الأسوار القائمة على الجانبين فجوات كبيرة نفذت منها مياه الفيضان فأضحت المدينة في حالة يرثى لها إذا قورنت بما كانت عليه أيام الوباء، أصبحت بغداد بعد ذلك مدينة خربة مهجورة تمتلئ طرقاتها بجثث الموتى وتنتشر في أزقتها مياه الفيضان ويتجول في محلاتها اللصوص والسراق وتنتشر في هوائها روائح النتن والتفسخ فتهدمت منازلها، وأغلقت أسواقها وأزالت أغلب معالمها العمرانية وأصابتها المجاعة، ثم استفاقت بغداد من نكبتها سنة ١٨٣١م على وقع حوافر خيول جيش السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) الذي كان يحاصر المدينة لينقض عليها مما اسفر عن خروج داود باشا (١٨١٦-١٨٣١م) الذي كان سقوطه يعتبر نهاية عهد المماليك وعودة الحكم العثماني المباشر[١].



خيول جيش السلطان محمود الثاني.

= ص٣٦٧-٣٦٨؛ روبير مانتران، بغداد في آثار المستشرقين الفرنسيين، ترجمة: أكرم فاضل، مجلة المورد، المجلد ٨، العدد ٤، ١٩٧٩م، ص٤٨٣.

(١) جبرائيل حنوش أصغر، مختصر المستفاد في تاريخ بغداد، د.ص.م. رقم ١١٠٤، ص١٥٢؛ د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية في العراق (١٧٤٩-١٨٣١م)، أطروحة دكتوراه جامعة القاهرة، ١٩٧٥م، ص١٣؛ عبد العزيز نوار، المصدر السابق، ص٣٦.



بغداد في العهد العثماني.

وقد استعادت بغداد نشاطاتها بقرارات سياسية تمثلت في إصلاحات قام بها بعض الولاة المصلحين في ظروف توارى فيها طغيان البيئة، وغضبها إلى حين ولم تعد بغداد تأبه بالأحداث، ولا بمن يتولى سدة الحكم فيها فاعتادت دخول الغزاة وتغيير الحكام، فهذا قدرها «**ما عليها إلّا أن تنتظر حاكماً عادلاً يصلح ما أعوج من أمورها، فهنالك القليل من البلدان التي باركتها الطبيعة فوهبتها الموارد اللازمة لتحقيق الحياة الصالحة لمواطنيها**»[١].

مع أن بداية الإصلاحات ترتبط بولاية داود باشا إلّا أن الأحداث السياسية والكوارث حالت دون إكمال سياسة الإصلاح والتنوير التي أنتهجها فقد أسس معملاً لصنع المدافع والبنادق ومعملاً لصنع الأقمشة وغيرها إلّا أن طموحه لم يتحقق وذهبت آماله أدراج الرياح[٢].

اعتمد بعض الولاة اللاحقين سياسات إصلاحية فعندما جاء رشيد باشا الكوزلكلي (١٨٥٤-١٨٥٦م) إلى بغداد لم يجدها إلّا خربة وركاماً، فقام فاستورد عدداً من المكائن الخاصة بالحدادة (**تورنجي**) ووضعها في جانب الكرخ في محل يدعى بالحداد خانة (**دار الحدادة**) لإصلاح البواخر النهرية، وتركيب المكائن المستوردة[٣] وتأسيس خط للملاحة في نهر دجلة سنة ١٨٥٦م.

جاء بعده الوالي محمد نامق باشا (١٨٦١-١٨٦٧م) فأنشأ معملاً للنسيج (١٨٦٤م) لتجهيز القوات المسلحة بالملابس العسكرية، و(٥) معامل للبارود. وحسب ما يدعي الرحالة ويب (Webb) الذي زار بغداد أثناء ولايته أنه شاهد

(١) ستيفن همسلي لونكريك، العراق الحديث (١٩٠٠-١٩٥٠م)، ترجمة: سليم طه التكريتي، ج١، بغداد، ١٩٨٨م، ص١٣.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار، داود باشا والي بغداد، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٢٨٦.

(٣) صالح عبدالله سرية، تطور التعليم الصناعي في العراق، بغداد، ١٩٦٩م، ص٢١-٢٢؛ علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، بغداد، ١٩٧٣م، ص٢٤٣؛ عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، بغداد، ١٩٥٥م، ص٢٢٢.

سوقاً واسعة قد بنيت حديثاً ومستشفى صغيراً كان نظيفاً ومنظماً[١] وفي عهده تم أول اتصال بالعالم الخارجي عبر التلغراف الذي بدأ العمل فيه ١٨٥٨م، وفي سنة ١٨٦٥م تم إنجاز خط بين بغداد والبصرة[٢] غير أن الإصلاحات الجذرية بدأت فعلاً في زمن الوالي مدحت باشا بحيث ارتبط العصر الحديث لبغداد بولاية مدحت باشا (١٨٦٩-١٨٧٢م)[٣].



مدحت باشا.

لقد أدرك **مدحت باشا** منذ الوهلة الأولى أثر الصناعة في دعم قاعدة الاقتصاد وتطور المدينة، فوجه اهتمامه نحو الصناعة، ونحو التحسينات الإدارية والعمرانية، فوسع معمل النسيج الذي أنشأه نامق باشا والذي عرف

(١) F.C. Webb, Up The Tigris to Baghdad, London, 1870, p:32-38.

(٢) محمد سلمان حسن، التطور الاقتصادي في العراق، ج١، بيروت، ١٩٦٥م، ص٢٩٢؛ كاثلين لانكلي تصنيع العراق، ترجمة: محمد حامد الطائي، خطاب صكار العاني، بغداد، ١٩٦٣م، ص٤٦؛ نوري خليل البرازي، الصناعة ومشاريع التصنيع في العراق، (د.م.)، ١٩٧٧م، ص٣٨.

(٣) خالص الأشعب، مدينة بغداد ونموها وبنيتها وتخطيط.

بـ**(العبا خانة)**[1]. واستورد مكائن لطحن الحبوب ومضخة بخارية لرفع الماء وإيصاله إلى الدور وسقي البساتين، وأقام مخبز **(بالأكمة كخانة)** لصناعة الخبز والصمون، وإنشاء معامل لتنظيف القطن وآخر لتنظيف الرز[2] إضافة إلى معامل الأجر، وأوصل أول مطبعة حديثة وأصدر **جريدة الزوراء**، وإنشاء مدارس عسكرية وصناعية وإعدادية، وبنى مستشفى المجيدية[3] وكان



أوّل مطبعة حكومية تأسست في بغداد سنة ١٨٩١م.

(١) كاثلين لانكلي، المصدر السابق، ص٤٦.

(٢) عباس العزاوي، المصدر السابق، ج٧، ص٢٦٠، يوسف كمال بيك حتاتة، مذكرات مدحت باشا، مصر، ١٩١٣م، ص١٦٨-١٦٩.

(٣) عباس العزاوي، المصدر السابق، ج٧، ص١٧١؛ أنستاس ماري الكرملي، خلاصة تاريخ العراق، البصرة، ١٩١٩م، ص٢٧، محمد خليل النبهاني، التحفة النبهانية، القاهرة، ١٣٤٢هـ، ص٦٤-٦٦؛ الياهو دنكور ومحمد فهمي درويش، الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦م، ص١٧٩.

لمدحت باشا أثر في ازدهار المدينة صناعياً، شارك القطاع الخاص من الأهالي بالنشاط الصناعي فاستورد ياسين اليهودي سنة ١٨٨٨م طاحونة تجاريه، والملا عبد الرزاق ماكنة لتقشير الرز وطاحونة ومعملاً للدقيق والمعكرونة سنة ١٩٠٧م[(١)]، إضافة إلى زيادة معامل الطابوق فيذكر القنصل البريطاني أنه «**كان يوجد في بغداد سنة ١٨٨٩م (٢٥) كورة صغيرة وكبيرة تنتج الطابوق وهي تمثل تطوراً بالكم، والنوع معاً قياساً إلى ما كان موجوداً قبل هذا التاريخ**»[(٢)] ومعامل لزجاج القناديل والخزف، و(٥) معامل للبارود، ومعمل لصناعة المشروبات الروحية والمرطبات[(٣)]. وأنشا معمل للمسامير[(٤)].

إضافة إلى ذلك فهناك معامل الطابوق والطحين التي يشار إلى أنها كانت تعمل بوقود النفط[(٥)]، كما كان لارتباط بغداد بالسوق العالمية أثر في زيادة الصادرات فلهذا نشأت الشركات المصدرة مكابس لكبس الصوف، ومعامل لدباغة الجلود[(٦)] مما كان يمثل أول بوادر ظهور الصناعة الجديدة، وإذا كانت تلك التطورات قد أضافت أهمية لمركز المدينة فإن إدخال الترامواي كواسطة للنقل بين الكرخ وقضاء الكاظمية كان ثورة حضارية حقيقية حملت بذور الانتشار السكاني[(٧)] واستمرت المسيرة التطورية لتحديث المدينة إلّا أنها لم تكن بالوتيرة نفسها التي كانت على عهد مدحت باشا.

---

(١) جريدة الزوراء، العدد ٢١١٧، ١٧ محرم ١٣٢٥هـ؛ ج.ج لوريمر دليل الخليج، القسم الجغرافي (ج٣)، قطر، ص٩٩٤.

(٢) محمد سلمان حسن، المصدر السابق، ص٣٠٣، جريدة صدى بابل، العدد ٤٠، ١١ جمادى الأول (١٣٢٨هـ-١٩١٠م).

(٣) داود أفندي صليوة، بغداد، مجلة المقتطف، القاهرة، ج٦، تشرين الثاني١٨٨٠م، ص١٥٠.

(٤) صدى بابل، العدد ٣٤، ٢٨ ربيع الأول (١٣٢٨هـ-١٩١٠م).

(٥) الرقيب، العدد ٨، (١٢ صفر ١٣٢٧هـ/ ٤ مارس ١٩٠٩م)، السنة الأولى.

(٦) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٢٤٥.

(٧) جريدة الزوراء، العدد ١٥٥، ٥ ربيع الثاني ١٢٨٨هـ.

لقد كانت بغداد أكبر مركز تجاري بين ولايات العراق، إذ شكلت نقطة تقاطع الطرق التجارية المهمه للتجارة الداخلية، والخارجية، بتجارتها البرية، والنهرية **وأهم هذه الطرق هي: طريق بغداد - كرمنشاه، وطريق بغداد - الآستانة، وطريق بغداد - دمشق، وطريق بغداد - حلب إضافة إلى طرق تجارية برية مختلفة تربطها مع مناطق نجد، والكويت، والقطيف**، فكانت



طريق بغداد - حلب.

بغداد مخزناً لتوزيع جميع المنتجات المحلية والمستوردة[١]، وكانت تجارتها على نوعين داخلية وخارجية، وتتألف تجارتها الداخلية من نوعين هي تجارة المدينة الواحدة يباع من خلالها الناس القاطنون في داخل المدينة وأطرافها البضاعة التجارية، والنوع الثاني هي التي كانت تتم بين بغداد ومدن الولاية

(١) ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج٣، ص١٠٠٦-١٠٠٧.

الواقعة على طرق المواصلات البرية والنهرية بالرغم من ضيق هذه التجارة بسبب التباين الموجود في الأوزان والمكاييل والمقاييس، والرسوم المرتفعة المفروضة على البضائع التجارية، وانعدام الأمن في بعض لكثرة قطاع الطرق، وثورات العشائر مما أثر عليها(١).

أما التجارة الخارجية التي تمثلت في الصادرات والواردات، وتجارة ترانسيت **(المرور)** التي كانت تتم مع الأقاليم الإيرانية ومناطق الأناضول وبلاد الشام ونجد والسواحل الخليجية، وفي التجارة النهرية بين بغداد والبصرة لاستيراد البضائع من أوروبا والهند(٢).

وقد تعاظمت مكانة بغداد بوصفها محوراً للنشاطات التجارية في العقد السابع من القرن التاسع عشر نتيجة عوامل عديدة منها أتباع الحكومة العثمانية سياسة تجارية متمثلة بتخفيض الرسوم الكمركية على الصادرات (من ١٢٪ إلى ٨٪) سنة ١٨٦١م(٣)، وتأسيس دائرة الكمرك في بغداد(٤) وافتتاح دائرة البريد والتلغراف سنة ١٨٦٥م لتسهيل الاتصالات(٥) إضافة إلى تحديث وسائل

---

(١) السير وليس بدج، رحلات إلى العراق، ترجمة: فؤاد جميل، بغداد، ١٩٦٦م، ص٣٧٧-٣٧٩؛ محمد حسن سلمان المصدر السابق، ص٨٩.

(٢) محمد حسن سلمان، المصدر السابق، ص٨٩.

(٣) أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول، رقم الوثيقة ٤٦٢، تاريخها أوئل رمضان ١٢٧٨هـ، مركز التوثيق الإعلامي، وزارة الثقافة والأعلام، محمد حسن سلمان، المصدر السابق، ص٨٧.

(٤) يوسف رزق الله غنيمة، تجارة العراق قديماً وحديثاً، بغداد، ١٩٢٢م، ص١١٢؛ محمد حسن، المصدر السابق، ص٣٣.

(٥) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص١٥٢؛ جميل موسى النجار، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد (١٨٦٩-١٩١٧م)، القاهرة، ١٩٩١م، ص٥٧. يوسف رزق الله غنيمة، تجارة العراق قديماً وحديثاً، بغداد، ١٩٢٢م، ص١١٢؛ محمد حسن، المصدر السابق، ص٣٣.

المواصلات النهرية، فافتتحت الإدارة النهرية **(إدارة عمان - العثماني)**، سنة ١٨٦٧م لنقل الركاب والبضائع، وساهمت بريطانيا في هذا الجانب[١]، حيث أنشأت شركة للملاحة النهرية **(شركة لنج)** أخذت دورها في هذا المجال[٢] وكان لفتح قناة السويس سنة ١٨٦٩م أثر على اتساع وازدهار التجارة[٣]، إذ



حفل افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩م.

سهلت اتصال بغداد بأوروبا عن طريق ميناء البصرة بعد أن كانت معظم التجارة تنتقل عبر بغداد إلى موانئ البحر المتوسط ومن هناك إلى أوروبا فاختزل فتح القناة الطريق البحري، مما أدى إلى الازدياد المطلق والنسبي في قيمة البضائع المصدرة

(١) ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر الخياط، بغداد، ١٩٤٥م، ص٣٥٣.

(٢) محمد سلمان حسن، المصدر السابق، ص٣٤؛ لونكريك، أربعة قرون، ص٣٥٣؛ لمزيد من المعلومات عن بيت لنج. انظر:

Reader Builared, Brian and the Middle Third edition, London, 1964, p:42.

(٣) محمد سلمان حسن، المصدر نفسه، ص٣٥.

إلى أوروبا والهبوط السريع للتجارة مع أقطار الشرق الأوسط المجاورة، فصارت ثلاثة أرباع الصادرات تصرف في أسواق الدول الكبرى في أوروبا وأمريكا بينما الربع الباقي اقتصر تصريفه على أسواق البلدان المجاورة[١].

أما تجارة الاستيراد فقد شهدت نمواً كبيراً إذ ازدادت قيمة تجارة الاستيراد اثنتا عشرة مرّة خلال هذه الحقبة وكانت معظم المستوردات الأوروبية إلى بغداد يعاد تصديرها إلى الأقسام الشمالية الإيرانية[٢] مما يعني بقاء تجارة الترانسيت مزدهرة بعض الشيء[٣]، فتقدمت بغداد وتطورت. إن الازدهار التجاري قد تزايد فيها بصورة ملموسة[٤] الأمر الذي أكده بدج عند زيارته بغداد، **حيث قال: «بغداد كانت أسواقها تحتوي على (١٢٥) دكاناً ولها تجارة واسعة مع الهند وإيران والموصل وحلب والشام»**[٥].

وكان من نتيجة التوجهات التجارية الجديدة، واتساع عمليات النقل أن ازداد اهتمام الدول الأوروبية بتأسيس القناصل المختلفة لرعاية مصالحها في بغداد[٦]. فحتى السبعينات من القرن التاسع عشر، لم يكن هناك سوى قناصل بريطانية، فرنسية، إيرانية ولم يحل العقد الأول من القرن العشرين حتى كان هناك عدد من القناصل لدول مختلفة. كروسيا، والولايات المتحدة، وألمانيا، وبلجيكا، وإيطاليا، وأسبانيا[٧]، ورفعت بريطانيا درجة تمثيلها الدبلوماسي في

(١) محمد سلمان حسن، المصدر نفسه، ص٢٧٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٢١٧-٢١٨.

(٣) طارق نافع الحمداني، ملامح سياسية وحضارية في تاريخ العراق الحديث والمعاصر، لبنان، ١٩٨٩م، ص١٥٠.

(٤) W.B. Harkis, From Batum to Baghdad via tip, tarbis all pwesion Kurdistan, London, p:298.

(٥) وليس بدج، المصدر السابق، ص٧٢.

(٦) ج.ج لوريمر، دليل الخليج، التاريخي، ج٤، ص٢٥٢٢.

(٧) سالنامة دولت علية عثمانية، لسنة ١٣٠٦هـ، إسطنبول ١٣٢٣، ص١٠٨؛ ج.ج. لوريمر، دليل الخليج الجغرافي، ج٣، ص١٨٣-١٨٦، التاريخي، ج٤، ص٢٢٥٢.

بغداد إلى درجة مقيمية سنة ١٨٧٢م، بعد أن كانت معتمدية[١] وكان من عوامل تقدم التجارة افتتاح البنك الشاهي الإيراني في بغداد الذي لم يستمر طويلاً بسبب افتتاح البنك السلطاني العثماني سنة ١٨٩٣م وازداد عدد الشركات التجارية الأجنبية إضافة إلى نمو الشركات التي كانت موجودة في بغداد. فبدأ التأثير الغربي على حياة المدينة ومخططها من خلال الممثليات الدبلوماسية ورجال الأعمال والخبراء الأجانب[٢]، وكان لافتتاح دار الاعتماد البريطاني الجديدة سنة ١٩١٥م سبباً في تحرك المدينة نحو الجنوب من موقع السيد سلطان علي إلى الباب الشرقي، فشيدت مساكن أنيقة على ضفتي



سكة حديد بغداد - برلين.

النهر[٣]. وقبل اندلاع الحرب العالمية الأولى حدث تغير جوهري في بنية المدينة إذ كان لمشروع الألمان بمد **سكة حديد بغداد - برلين** الذي بدأ العمل به فعلاً بإنشاء عدد كبير من المرافق كالمخازن، ومراكز التصليح لخدمة الشركة صاحبة المشروع[٤] أثر في زيادة قيمة الأراضي في هذه

---

(١) ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج٤، ص٢٣٣٢.
(٢) خالص الأشعب، المصدر السابق، ص٣٣.
(٣) ريجارد كوك، بغداد مدينة السلام، ترجمة: مصطفى جواد، ج٢، بغداد، ١٩٦٧م، ص١٥٦.
(٤) كوتولوف، المصدر السابق، ص١٨٦.

المنطقة والاتجاه للسكن فيها[١]، كما قاموا بفتح طريق من الباب الشرقي إلى منطقة الأسواق وهو الطريق الذي تم تعريضه وتوسيعه بعدئذ ومده إلى باب المعظم على يد خليل باشا[٢] وكانت بغداد مركزاً إدارياً تركزت فيها معظم المؤسسات الإدارية الحكومية، وأجهزتها واتخذ مركزاً لقيادة الفيلق العسكري[٣] ومما تبع ذلك ارتباط مصالح عدد كبير من السكان بها فازدادت أهميتها الإدارية خصوصاً بعد تطبيق نظام الولايات سنة ١٨٧٠م من قبل مدحت



خليل باشا والي بغداد (١٩١٥-١٩١٧م)
وقائد الجيش العثماني في العراق.

---

(١) لمزيد من المعلومات، انظر: لؤي بحري، سكة حديد بغداد، دراسة في تطور دبلوماسية، قصة سكة حديد برلين - بغداد، ١٩٦٧م؛ مجلة لغة العرب، العدد ٢، (شعبان ١٣٣٠هـ/ آب ١٩١٢م)، ص٧٧.

(٢) جبرا إبراهيم جبرا وإحسان فتحي، بغداد بين الأمس واليوم، بغداد، ١٩٨٧م، ص١٣٠.

(٣) بغداد ولايت جليلة سنة مخصوص سالنامة در، يكرمنجي، دفعة در، سنة هجرية ١٣٢٤هـ/ رومية ١٣٢١-١٣٢٢، مطبعة ولاية طبع والمستند عثماني، ص١٤؛ محمد الهاشمي البغدادي، بغداد الحاضرة، مجلة المقتطف، المجلد الخمسون، أبريل ١٩١٧، ص٣٧٤.

باشا الذي كان بحق رائد حركة الإصلاح في بغداد[١] فزاد من أهمية مركزية بغداد باعتبارها مركزاً لولايات العراق، وخصصت الحكومة المركزية مبلغ (٢٥٠٠) ليرة في الخطة العراقية لانتشار المشاريع العمرانية[٢] أما على صعيد التنظيم الإداري فقد شكل أول مجلس إداري يشارك فيه الأهالي لإصلاح شؤون المدينة فاستمرت بغداد طيلة فترة تاريخها مركزاً إدارياً تنظيماً للفعاليات التجارية والإدارية بالدرجة الأولى والعصب الرئيس لديمومة حياة المدينة، واستمرارها ولا يمكن إغفال الدور الثقافي وما شهده العالم من نهضة علمية ثقافية كان لها تأثير على العثمانيين تمثلت بفكرة التنظيمات والإصلاحات التي انعكست على بغداد بأساليب عديدة كإنشاء المدارس الحكومية والأجنبية[٣] ومن نشاط البعثات التبشيرية، والقنصليات الأجنبية[٤]. التي أدت إلى ظهور فئة مثقفة أخذت تنادي بتطور المدينة على غرار الدول الأوروبية الأمر الذي كان له تأثير على نهوض المدينة. لقد كان لهذه الاعتبارات السوقية والاستراتيجية والثقافية والصناعية والإدارية أثر في نمو بغداد وتطورها.

---

(١) لمزيد من المعلومات، انظر: علي حيدر، مذكرات مدحت باشا، ترجمة: يوسف كمال حسن، مصر، ١٩١٣م؛ صديق الدملوجي، مدحت باشا، بغداد، ١٩٥٢م؛ قدري قلعجي، مدحت باشا أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين، بيروت، ١٩٥١م.

(٢) الأرشيف العثماني، أوراق يلدز، رقم الأوراق ٢٢٥٦، رقم القسم ١١٤، رقم الظرف ١٢٦، رقم الكاربون ١١، غير مؤرخة، مركز دراسات الخليج العربي، وزارة الثقافة والإعلام.

(٣) إبراهيم خليل أحمد، تطور التعليم الوطني في العراق (١٨٦٩-١٩٣٢م)، البصرة، ١٩٨٢م؛ عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني (١٦٣٨-١٩١٧م)، بغداد، ١٩٥٩م.

(٤) ستيفن هيمسلي لونكريك، تاريخ العراق، ج١، ص٢٣-٢٤.

الفصل الأول

معالم بغداد العمرانية



ساحة التحرير قبل بناء النصب والنفق.

يجب التعرف على حدود مدينة بغداد، ومحلاتها، وأزقتها، وحماماتها، وأسواقها وغيرها من المعالم العمرانية في المدينة، فالمدينة ظاهرة حضارية تتأثر بما هو سائد من أسلوب للحياة في المجتمع وتترتب علاقاتها المادية والمعنوية كمحصلة لتفاعل الفكر الإنساني مع البيئة التي اختارها الإنسان لممارسة نشاطاته وفعالياته الإنسانية، وهي لقاء بين وجود الإنسان وبين المكان الطبيعي بكل أبعاده ومكوناته لأن علاقة العمارة بالمجتمع علاقة تنظمها قواعد اجتماعية وسلوكية من جانب كما تؤثر عليها محددات بيئية من جانب آخر، وتتسم تفاعلات المدينة اليومية وبناؤها الاجتماعي ومعاييرها

المادية كلها بما هو نابع من روح الإسلام كنظام للحياة ونظرة للوجود، فتؤثر أحكام الشريعة بالمحددات المكانية في بعض جوانبها التنظيمية، ويتأثر بناء المدينة كذلك بالأحداث الاجتماعية والسياسية التي تتوالى عليها وما تتعرض له من تغيرات داخلية وأحداث خارجية، **وإليك التغيرات والتطورات العمرانية التي طرأت على المدينة خلال هذه الحقب:**

● حدودها:

منذ سقوط بغداد على أيدي المغول سنة ١٢٥٨م لم تتغير معالمها الخططية كثيراً فقد ظلت قائمة على ضفة نهر دجلة اليسرى. أما الجزء الذي بقي على الضفة اليمنى فلم يكن إلّا ضاحية من ضواحيها، وقد ظل الجزء الرئيس منها طوال القرون الوسطى والعصور الحديثة مسوراً بأسوار تهدمت واختفت كلها تقريباً بمرور الزمن.

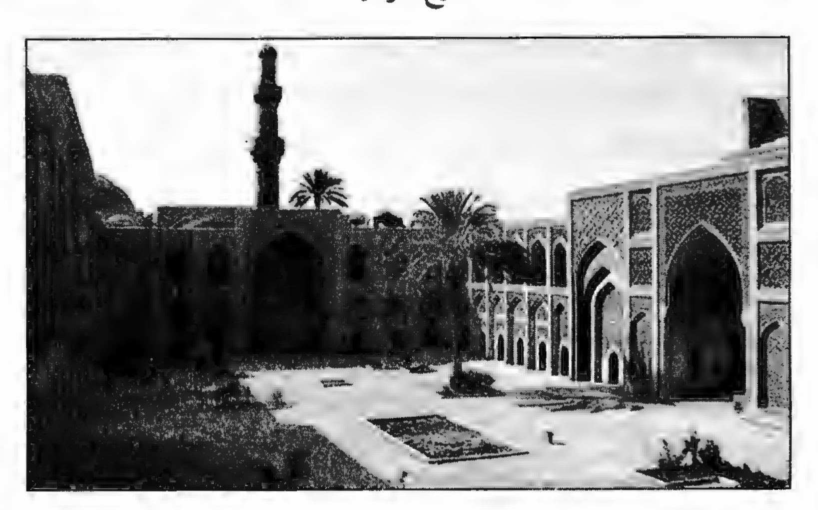
لقد وصف الكثير من الرحالة أو من زار بغداد خلال القرون الوسطى المدينة وصفاً دقيقاً فذكروا محلاتها، وأزقتها، ومعالمها العمرانية ولم تكن تختلف كثيراً بين وصف وآخر. فقد استولى الخراب على معظم أجزائها وظلت الأزقة ضيقة، والمحلات مستقلة منفصلة وأكثر بيوتها متهدمة، وفيها عدد من الأضرحة والقبور لبعض المشاهير المسلمين الذين دفنوا في بغداد، وبعض الآثار العباسية، والشواخص العمرانية كالمدرسة المستنصرية والمدرسة النظامية وجامع الخلفاء، وبعض قصور الخلفاء والأمراء. وجزء المدينة في الجانب الغربي لا يمكن أن يعد إلّا ضاحية، أو قرية تابعة فيها سوق، وخان، وبيوتها أكثر تهدماً، وخراباً من الجانب الشرقي الذي يتركز فيه العمران ومؤسسات الدولة والقلعة ويقع في هذا الجانب - الجانب الشرقي - الحي التجاري، ويرتبط جانباً المدينة بجسر أو جسرين على الأكثر ولعل أهم ما ميز المدينة كثرة جوامعها، ومساجدها، ومنائرها، مع عدد من القباب ذات الطراز السلجوقي[(١)] ففي سنة ١٧٦٤م وصف الرحالة نيبور بغداد وصفاً دقيقاً

---

(١) كليمان هوار، خطط بغداد، ترجمة: ناجي معروف، بغداد، ١٩٦١م، ص٨-١١؛ زكي =



شارع الرشيد.



المدرسة المستنصرية في بغداد.

حيث ذكر أنها مدينة تكثر فيها البساتين، وطرقها ضيقة جداً وأزقتها تغلق ليلاً، والدور فيها مبنية بالآجر المحروق ولها سراديب تحت الأرض(١).

لم تكن بغداد في القرن التاسع عشر سوى مدينة صغيرة تقع على جانبي نهر دجلة، يحتل الجانب الشرقي منها مساحة تقدر بطول (٣٢٦٠م٢) وعرض (٢٢٠٠م٢) ثلثها تقريباً أراضي شاغرة أو مغطاة ببساتين الكروم مع بعض الأنقاض والخرائب المنتشرة في أرجائها المختلفة وإلى الجنوب من المدينة كانت تنتشر أعداد كثيرة من أشجار النخيل التي تمتد مسافات بعيدة وكان النظام الإقليمي فيها واضحاً كل الوضوح(٢).

لقد وصف فريزر بغداد وصفاً دقيقاً سنة ١٨٣٤م: «قسم كبير من الأرض داخل السور غير مشغول بالأبنية وخاصة في الجهة الشمالية الشرقية وحتى في الأماكن التي توجد فيها الأبنية وخاصة محلات المدينة التي يكثر فيها السكان بالقرب من النهر نلاحظ وفرة من الأشجار بحيث يبدو منظر المدينة إذا نظرت إليه من أعلى بناء في المدينة وكأنه بستان كبير من النخيل، وشوارع المدينة ضيقة غير مبلطة، وهنالك في مختلف أجزاء البلدة عدة فسح **(فضوات)** مكشوفة يباع في البعض منها السلع أكبرها وأزهاها السوق القريبة من باب المعظم وهو ميدان المدينة الكبير وتعرض الخيل فيه للبيع وهو محاط بالمقاهي الممتلئة على الدوام وهذا الميدان يستعمل في ذات الوقت للاستعراض وتنفيذ أحكام الإعدام»(٣) لقد مثل هذا المركز محور النشاطات

= محمد حسن، الفنون الإسلامية في العصر الإسلامي، القاهرة، ١٩٤٠م، ص٨٤-٨٦.

(١) كارستن نيبور، رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر، ترجمة: محمود حسين أمين، بغداد، ١٩٦٥م، ص٢٠.

(٢) I.J. Germks, Euphrates and Tigris Gotha, 1875, p:27;

محمد رؤوف الشيخلي، مراحل الحياة في بغداد في الفترة المظلمة وما بعدها، الجزء الأول، البصرة، ١٩٧٢م، ص٤٩.

(٣) جيمس بيلي فريزر، رحلة فريزر إلى بغداد، ١٨٣٤م، ترجمة: جعفر الخياط، بغداد، ١٩٦٤م، ص٧١-٨٠.

الدينية، والحكومية، والتجارية فتركزت المباني الدينية والحكومية في وسط المدينة لما لها من أهمية معنوية تفوق أهمية النشاط الاقتصادي وتسمو عليه واحتل النشاط الاقتصادي مكاناً قريباً من تلك الأبنية ممثلاً بالسوق، والمباني التجارية التي تقل في قيمتها الرمزية عن قيمة المنشآت الدينية، والسياسية وبذلك اكتسب وسط المدينة ومركزها أهمية اجتماعية، وقيمة معنوية تفوق ما للأجزاء الأخرى في المدينة فهو مركز لكل النشاطات الدينية والسياسية والتجارية، وهو مكان لمنازل الصفوة الحاكمة والفئات العليا في المجتمع، وكانت في بغداد أحياء سكنية ذات مستويات مختلفة يمثل كل منها إقليماً مستقلاً بذاته يجمع تحت سقفه أفراد تربطهم علاقات اقتصادية أو تجمعهم اتجاهات اجتماعية أو عنصرية أو دينية متجانسة[١]، وقد ظل النمط العام للبيوت البغدادية محافظاً على طابعه الشرقي[٢] ولم يكن في المدينة بيوت فخمة سوى بضعة قصور في أطراف المدينة تعود لأفراد الفئة العليا في المجتمع بالرغم من أن تطور المدينة يسير ببطء. فلم ترد إشارات إلى أي أعمال عمرانية أو إصلاح لما تعرض فيها إلى التخريب. وصفها نيجهولت سنة ١٨٦٦م بقوله **«قد اضمحلت مدينة الخلفاء... وقد أصابتها قبل ذلك بنحو (٤٠) سنة كارثتان الأمر الذي نشر خراباً تعسر إصلاحه طوال تلك الحقبة»**[٣]. لكنه في عهد مدحت باشا، افتتحت بلديتان في هذا الجانب لتأخذ على عاتقها تنظيم المدينة من حيث تخطيط الأبنية، وفتح الشوارع وتبليطها، وإنشاء الأرصفة والاهتمام بنظافة المدينة[٤] مما أحدث نقلة نوعية في بنية المدينة واستمر بعد

---

(١) حسن الخياط، الأقاليم الوظيفية لمدينة بغداد الكبرى، مجلة الأستاذ، المجلد ١٣، العدد الأول والثاني، بغداد، ١٩٦٦م، ص٢٥٧.

(٢) خالص الأشعب، المؤثرات المناخية والاجتماعية وأثرها في تطور البيت العربي، ندوة العمارة والبيئة المناخية في العراق، مؤسسة البحث العلمي، ١٩٧٠م، ص٢-٤.

(٣) مير بصري، أهم الطرق إلى العراق قبل (١٠٠) عام للرحالة نيجهولت، جريدة البلد، العدد ٨٠٧، ٢٠ كانون الثاني ١٩٦٧م.

(٤) جميل موسى النجار، المصدر السابق، ص٢٥٥-٢٥٦.

ذلك تطوير المدينة فقد أنيرت دروبها وأزقتها بالفوانيس النفطية لأول مرة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر[١] وانشئت أول حديقة شعبية عامة في المجيدية، وأقيم جسر من القوارب بين الجانبين يكفي لمرور العربات سنة ١٩٠٢م[٢] كما أقام ناظم باشا سدة ترابية حول المدينة لتحميها من الفيضان سنة ١٩١١م.

ولقد أثرت بعض الخصائص على السمات البنائية للمدينة فكان لوسائل النقل البسيطة، ولعدم توفر وسائل نقل الماء وإسالة الماء أثر على الامتداد العمراني للمدينة، فقد تحكم نهر دجلة باتجاه العمران في بغداد، وحافظ على استطالة شكل المدينة ونمط نموها الخطي، لهذا حافظت المدينة على امتدادها العمراني بمحاذاة النهر متخذة شكلاً طويلاً مع امتداد النهر، إذ نرى التوسعات العمرانية بعد ذلك شملت الجانب الطولي وليس العرضي وعلى الرغم من أن الوالي مدحت باشا هدم أجزاء من سور المدينة لإفساح المجال للتوسع إلّا أن هذا لم يأت بفائدة فظلت المدينة على ما هي عليه رغم بعض التطورات.

أما الجانب الغربي من المدينة الذي يسمى الكرخ أو كما يسميه الأتراك **«قرش بكة»** وفي لهجة بغداد **«هذاك الجانب»**، فبعد أن كان موقعاً لقصور الخلافة العباسية غدت خراباً وقضي على أبنيتها، وقصورها بفعل الظروف التي مرت بها بغداد إضافة إلى الكوارث الطبيعية والأوبئة. وأصبح جانب الكرخ أقل مساحة من جانب الرصافة طوله (٢٤٠٠م^2) وعرضه (١٠٠٠م^2)[٣]، وصفه بعض الرحالة بأنه ضاحية يسكنها أبناء العشائر[٤] تابعة للجانب الشرقي لم ينل هذا الجانب الاهتمام إلّا في عهد مدحت باشا، ففتحت فيه أيضاً بلدية لتكون مسؤولة عن نظافة وتنظيم هذا الجانب من المدينة،

---

(١) جريدة الزوراء، العدد ٨٣٩، ٢ رجب ١٢٩٦هـ.

(٢) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، بغداد، ١٩٥٦م، ص١٤٣.

(٣) محمد رؤوف الشيخلي، المصدر السابق، ص٤٩.

(٤) A. Locher, Star and Crescent, Philadelphia, 1889, p:145.

وافتتح طريق الترامواي الذي يربط الكرخ بالكاظمية[١]. كما نصبت فيه ماكنة لنقل الماء سنة ١٨٩٢م[٢]، وبقيت الكرخ على حالها لم يطرأ عليها أي تغيير حتى العقود الأولى من القرن العشرين عندما كان مشروع سكة حديد بغداد – برلين يمتد إلى الجنوب منه، حيث بدأ الألمان ببناء المباني والمحلات لموظفي السكة ونظارها، وفي سنة ١٩١٤م بدأوا يحفرون ميناءً للبواخر النهرية التي تسير بين البصرة وبغداد على مقربة من المحطة وكانوا مسرعين في العمران والبناء[٣].



جسر من القوارب لمرور العربات سنة ١٩٠٢م.

(١) أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول، رقم الوثيقة ٤٣، تاريخها ٢٣ رجب ١٢٨٨هـ، ص١٦؛ مركز دراسات الخليج العربي، وزارة الثقافة والإعلام؛ الزوراء العدد ١٥٥، ٥ ربيع الثاني ١٢٨٨هـ، السنة الثالثة.

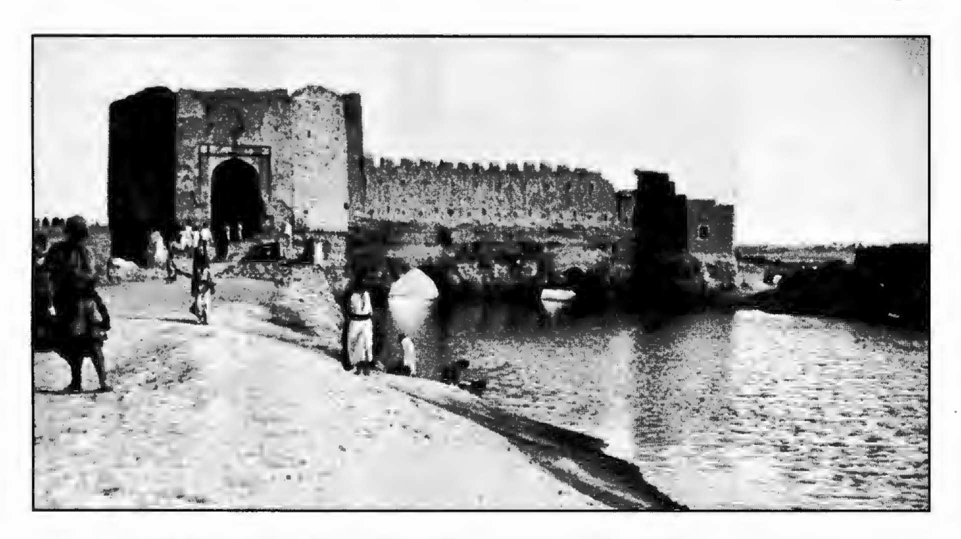
(٢) الزوراء، العدد ١٥١٩، ١٢ محرم ١٣١٠هـ

(٣) محمد الهاشمي البغدادي، المصدر السابق، ص٣٧٥.

أسوارها

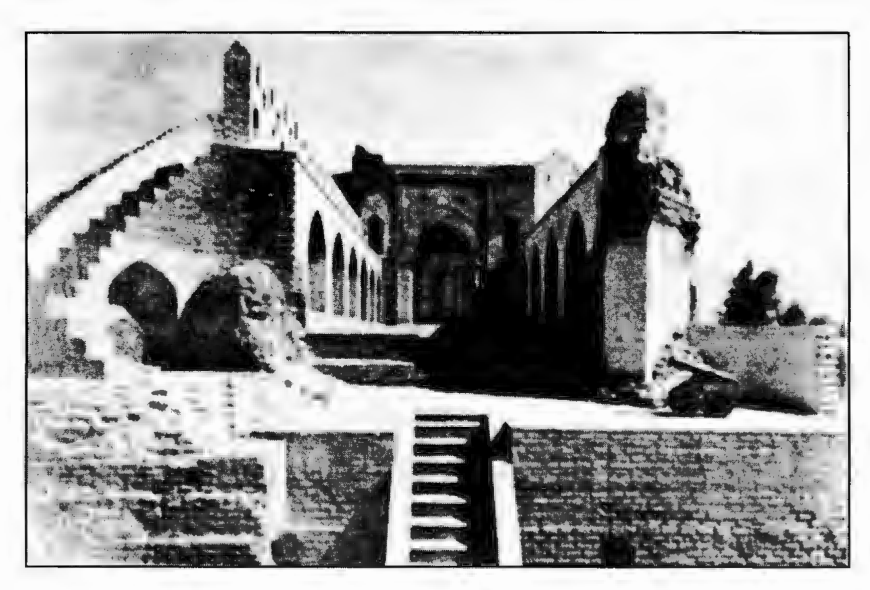
❶ أسوار بغداد الشرقية:

يتفق أغلب مؤرخي بغداد على أن الرصافة كانت محاطة منذ زمن الخلافة العباسية بأسوار متصلة تحيط بها من جهاتها الأربع وهي مبنية بالآجر يبلغ عرضها (٢,٥م) أما طولها فبلغ (٩٦٨٨م) وكان السور محاطاً بعدد من



جزء من سور بغداد والخندق المائي الذي كان يحيط بها سنة ١٩١٧م.

الأبراج الكبيرة، والصغيرة واختلف الرحالة في تقدير عددها ويمكن إرجاع هذا الاختلاف إلى انهيار عدد من الأبراج بفعل الظروف التي مرت على بغداد، **ويتخلل السور (٥) أبواب** الباب الأول القريب من القلعة ويسمى بـ(**باب المعظم**) لأنه يفضي إلى الطريق المؤدي إلى ضريح الإمام الأعظم، والثاني في أعلى السور الشرقي يسمى (**الباب الوسطاني أو أق قابو**) وإلى الجنوب من هذا يقع الباب الثالث (**باب الطلسم أو الحلبة**)، الذي أغلق بعد فتح مراد الرابع لبغداد ثم الباب الرابع الذي يقع في الجنوب الشرقي وسمي (**باب المظلم أو قرة قابي**) والباب الخامس (**صو قابي أي باب الشط**) الذي



الباب القديم الوسطاني سنة ١٩١٢م.



باب الطلسم.

يفضي إلى الجسر الذي يربط الرصافة بالكرخ[١].

تعرضت هذه الأسوار إلى الانهيار والتآكل بفعل الأحوال الطبيعية، أو بسبب الحروب وقد عنيت الحكومة العثمانية بترميم وإصلاح السور من وقت لآخر، ولكنه لم يرمم بعد سنة ١٨٣١م على الرغم مما تعرض له من الهدم بفعل الفيضان والحرب مع المماليك **فوصفه فريزر سنة ١٨٣٤م: «أما سور المدينة من كلا الجانبين فهو متهدم، ومتداع ولا تزال تظهر فيه الثغرات الكبيرة التي دخل منها ماء الفيضان»**[٢] وظل سور بغداد على وضعه حتى مجيء مدحت باشا عندما أمر بهدم الجزء الأعظم منه ما عدا أبوابه[٣] لغرض الاستفادة من آجره لإقامة بنايات حكومية وفسح المجال لتوسيع المدينة، ثم أمر بعد ذلك سري باشا سنة ١٨٨٧م بهدم ما بقي من السور ما عدا الأبواب[٤]، ويكتنف أسوار بغداد خندق يحيط بها من جهاتها الثلاث يتصل بنهر دجلة في بدايته شمالاً وفي نهايته جنوباً[٥] وقام رشيد باشا الكوزلكلي بهدم مسناة الخندق ثم بعد ذلك هدم مدحت باشا أكثر أقسامها ولما ولي سري باشا أمر بهدم ما تبقى من المسناة وفي سنة ١٩١٠م قام ناظم باشا بردم الخندق فزالت معالمه[٦].

---

(١) ناجي معروف، خطط بغداد، مجلة كلية الآداب، العدد الرابع، آب ١٩٦١م، ص٤٣-٤٥؛ مصطفى جواد، أحمد سوسة، دليل خارطة بغداد، ١٩٥٨م، ص٢١٥.

(٢) جيمس فريزر، المصدر السابق، ص١٣٠.

(٣) محمود شكري الألوسي، أخبار بغداد وما جاورها من البلاد، د. ص. م، رقم٦٢٨٧، ص١٠٤؛ عباس بن السيد جواد البغدادي، المصدر السابق، ص٤٣٨؛ الأرشيف العثماني بإسطنبول، أوراق يلدز، رقم الأوراق ٢٢٥٦، رقم القسم ١٤، رقم الظرف ١٢٦، رقم الكارتون ١١، غير مؤرخة، مركز التوثيق الإعلامي، وزارة الثقافة والإعلام.

(٤) ناجي معروف، المصدر السابق، ص٤٣؛ مصطفى جواد، المصدر السابق، ص٢٣٢.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية، ص٣٩٠.

(٦) صبري فارس الهيتي، تخطيط مدينة بغداد، مجلة المورد، العدد الرابع، المجلد =



الكرخ.



الرصافة سنة ١٩١٦م.

❷ أسوار بغداد الغربية:

تم تسوير بغداد الغربية في عهد سليمان باشا الكبير[١] بسور يبلغ طوله (٥٣٠١م)[٢] وعرضه (١,٥م). يتخلل السور أربعة أبواب الأول يقع في شمال السور يسمى **باب الكاظمين** لأن الخارج منه يتجه إلى الكاظمية والثاني يقع مقابل ضريح الشيخ معروف الكرخي فسمى **باب الشيخ** معروف والباب الثالث يسمى **باب الحلة** والرابع من أبواب السور **باب الكريعات** وهو يقع على ضفة نهر دجلة في نهاية السور من الجهة الجنوبية[٣] وجميع الأبواب كانت مفتوحة بوسط أبراج كبيرة يطلق عليها في اللغة التركية **(توابي أو طوبي)** وعلى الرغم من حداثة بناء السور إلّا أنه تعرض أيضاً إلى الهدم بسبب الفيضانات وعدم الاهتمام بترميمه أو تعميره، **فوصفه لوشر**: «**الجدران حول المدينة متدهورة جداً وأسوأ مما في الأماكن الأخرى**»[٤] وفي سنة ١٨٨٨م وصف بدج الوصف نفسه[٥] وفي آخر مسح أجراه رشيد الخوجة لمدينة بغداد نرى في الخريطة أن قسم السور قد زالت معالمه وخصوصاً في الجهة الشرقية[٦].

إن السبب في عدم اهتمام الحكومة العثمانية بالأسوار وتعميرها في هذه الفترة هو فقدان تلك الأسوار قيمتها العسكرية بسبب تطور وسائل الدفاع لدى

= الثامن، ١٩٧٩م، ص١٩.

(١) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٦، بغداد، ١٩٥٤م، ص٤٧-٤٨؛ رسول الكركوكلي، دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد، الزوراء، ترجمة: موسى كاظم نورس، بيروت، ب.ت، ص٢١٩؛ أبو طالب خان، رحلة أبي طالب خان إلى العراق، ترجمة: مصطفى جواد، بغداد، ١٩٦٩م، ص٣٦٧.

(٢) مصطفى جواد، المصدر السابق، ص٢١٥.

(٣) أحمد سوسة، أطلس بغداد، ١٩٥٢م، ص١٥؛ روبير مانتران، المصدر السابق، ص٤٨٤.

(٤) A. Locher. op., cit., p:9-143.

(٥) وليس بدج، المصدر السابق، ص٦٩.

(٦) أحمد سوسة، أطلس بغداد، ص١٦.

تلك الحكومة، ولم تعد الأسوار تلائم متطلبات العصر حيث شهد العالم توسع المدن فلذلك وجد بعض الولاة أنها تقف حاجزاً أمام توسع المدينة.

❸ قلعتها:

تشغل مربعاً كبيراً في ركن المدينة الشمالي الغربي يحيطها سور المدينة من شمالها[١]. وأما جوانبها الأخرى فمحاطة بسور فردي معزز بعدد من الأبراج، على كل برج مدفع، وبجانبها عدد من الأبراج الصغيرة ومزاغل لرمي رصاص البنادق، وهذا السور يفصلها عن أحياء المدينة نفسها.

تضم القلعة مجموعة من الأبنية والمرافق المهمة في المدينة إلّا أنها فقدت هذه الأهمية في العهد العثماني الأخير بسبب تدهور وتفسخ نظام الإنكشارية[٢]، وتحول الثقل العسكري والإداري إلى السراي فغدت القلعة مخزناً للذخيرة الحربية والمؤونة العسكرية وفيها دار لسك النقود وخزانة فقط[٣].



نهر دجلة ويظهر في الصورة سور بغداد.

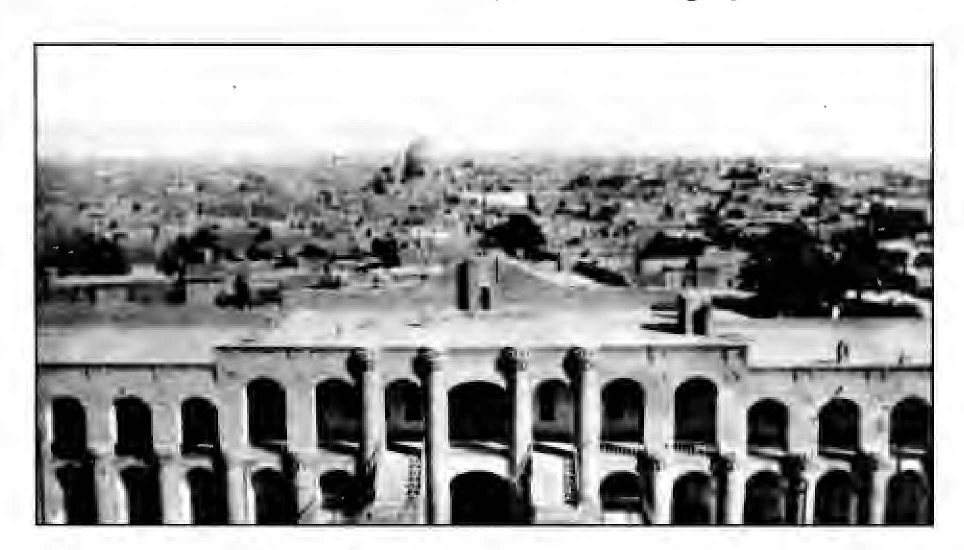
(١) محمد رؤوف الشيخلي، المصدر السابق، ص٥٥.

(٢) علاء نورس، أحوال بغداد في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بغداد، ١٩٨٩م، ص٤٤.

(٣) د. عماد عبد السلام رؤوف، المصدر السابق، ص٤٨؛ مصطفى جواد، دليل خارطة بغداد، ص٢١٤؛ ناجي معروف، المصدر السابق، ص٥٣.

السراي

زادت أهمية السراي في تلك الحقبة حتى غدا من أهم المؤسسات في المدينة على الإطلاق، يقع في الجهة الشمالية الغربية من المدينة جنوب القلعة على شاطئ دجلة يضم مجموعة من المباني الفخمة التي تميزت بسوء تنظيمها وتخطيطها، ويعود سبب هذا إلى الفترات الزمنية التي شيدت فيه الأبنية من القصور، ودوائر الحكومة مما كان له الأثر لأن يفقد السراي التنظيم والتخطيط كما وصفها الكثير من الرحالة الأجانب.



السراي الحكومي في بغداد سنة ١٩١٧م.

في سنة ١٨٢٠م قام الوالي داود باشا بإصلاح بناية البسراي، وافتتحها وسط احتفال عظيم[(١)]. ولكن كتب لهذا السراي الجميل الانهيار السريع بسبب كوارث سنة ١٨٣١م وخاصة فيضانات نهر دجلة التي وصفها كروفس بقوله:

---

(١) جيمس ريموند ولستيد، رحلتي إلى بغداد، ترجمة: سليم طه التكريتي، بغداد، ١٩٨٤م، ص٦٧-٦٨.

«أما السراي فهو كومة أنقاض»[(١)]، وبعد الاضطرابات التي حدثت في بغداد سنة ١٨٣٢م عندما هاجمت عشائر العقيل السراي وأحرقت بابه وأضرموا النار في القاعة الكبرى وتسربت النار من غرفة إلى أخرى وتهدم القسم الأعظم من السراي[(٢)].

وظل السراي بعد ذلك مدة طويلة في حال يرثى لها من التردي والإهمال حتى مجيء نامق باشا عندما أجرى بعض التعديلات على السراي من حيث بناؤها وتعميرها، لكن هذا ما كان ليعيد السراي إلى سابق عهده فوصفها الرحالة نيجهولت سنة ١٨٦٦م: **«لا تتميز إلّا بتوسعاتها الحديثة التي تفتقد الطراز والانتظام وعظمة الزخرفة»**[(٣)] أما جون أشر فيصفها في الفترة نفسها بأنها **«بناية كبيرة كئيبة يبدو فيها الإهمال»**[(٤)]، نستدل من هذا الوصف بأن اهتمام الولاة كان بزخرفة وتزيين قاعاتها بالأثاث والستائر النفيسة والسجاد الفاخر فقط دون الاهتمام بالمظهر العام.

وعندما جاء مدحت باشا اهتم كثيراً بالسراي فنظمه على الطراز الحديث بما أحدثه من أبنية جديدة لدوائر الحكومة، مستخدماً الآجر المستخرج من السور الذي أمر بنقله لغرض بنائها فوصفها وليم فوك سنة ١٨٧٤م **«ولم يكن بناء القصر فخماً إلّا أن موقعه على شاطئ النهر بديع وتلاصقه الثكنات ودار الصناعة، وقد بنيت قبل سنوات قليلة، بناها باشا سابق بناء واسعاً فخماً على**

---

(١) خلاصة سفر أنطوان كروفس، المصدر السابق، ص٣٦.

(٢) نجلة إسماعيل، سراي بغداد والقشلة، مجلة سومر، الجزء ١ و٢، مجلد ٣٤، ١٩٧٨م، ص٢٢٥؛

A. Locher, op., cit., p:146.

(٣) مير بصري، أهم وأطرف رحلة إلى العراق قبل (١٠٠) عام للرحالة نيجهولت، جريدة البلد، العدد ٨٠٧، ٢٠ كانون الثاني ١٩٦٧م.

(٤) جعفر الخياط، مشاهدات جون اشر في العراق، مجلة سومر، العدد ٢١، ١٩٦٥م، ص١٠٠.

الطراز الحديث في الهندسة المعمارية»[١]، وكان اهتمام مدحت باشا بالسراي كبيراً لأنه يمثل مركز ومقر الحكم والسلطة، حيث تتركز فيه جميع دوائر الحكومة وقصور الولاة ولم تجر بعد ذلك أي إصلاحات أو تجديد على السراي حتى سنة ١٩٠٩م عندما تم تجديد المدخل المعروف بالطاق أو الإيوان[٢].



طاق كسرى سنة ١٩١٦م.

(١) W. Fogg, Arabista Nints, Beiny Trees Through Egypt, Nreabic any Persian to Baghdad Tour, London, 1875, p:223.

(٢) نجلة إسماعيل، المصدر السابق، ص٢٢٧.

القشلة

وهي من الأبنية العسكرية التي شيدت مقراً للجنود وملاصقة للسراي في جانب الرصافة في العقد الرابع من القرن التاسع عشر[(١)]، وكانت البناية تتكون من طابق واحد. وفي عهد مدحت باشا بني طابق ثانٍ لها وبرج ساعة وسط الساحة الداخلية للقشلة لإيقاظ الجنود في الصباح مستخدماً الآجر



القشلة في بغداد.

المستخرج من السور الذي أمر بفتحه، وتشغل القشلة مساحة مستطيلة الشكل تمتد على الضفة الشرقية لنهر دجلة[(٢)] ولها مدخلان أحدهما وسط الضلع الشرقي، والآخر وسط الضلع الجنوبي، وقد دعمت هذه البناية من الداخل والخارج بالأبراج الموزعة على مسافات متساوية والتي ترتفع إلى

---

(١) أحمد سوسة، أطلس بغداد، ص١٥.

(٢) كراس حول القشلة، دائرة الآثار والتراث وزارة الثقافة والإعلام، ص٤. هناك =

طابق واحد فقط والأبراج الداخلية أسطوانية الشكل مندمجة بالجدران، تعلوها شرفات مسننة بارزة تحصر بينها حنايا وهذه الأبراج تتصدر الرواق الذي يتقدم الغرف في الطابق الأسفل الذي يفتح على الساحة الداخلية حيث يقوم هذا الرواق على هذه السلسلة من الأبراج، أما الأبراج الخارجية فمستطيلة الشكل تتوجها شرفات مسننة بارزة مستطيلة الشكل عقدت بينها حنايا مستطيلة أيضاً، وترتفع هذه الأبراج إلى طابق واحد، أما الطابق الثاني فهو يشكل سلسلة يتصدرها رواق مسقوف بسقف مسطح يفتح على الساحة الداخلية بسلسلة من النوافذ ومن الخارج تفتح الغرف على الشارع بسلسلة من النوافذ المستطيلة[١]، وفي وسط القشلة حديقة ذات أشجار باسقة. أما بناؤها فقد كان مزيجاً من تأثيرات محلية عراقية وتأثيرات تركية ذات أصل بيزنطي روماني، مما أكسبها جمالاً رائعاً فهي تمثل العمارة العثمانية في بغداد آنذاك أن تخطيط وطراز القشلة يشبه تخطيط البيت البغدادي ولكن على مساحة أوسع وغرف أكثر لخدمة الغرض الذي أنشأت من أجله وهو استيعاب الجند، وفعلاً فقد كانت تستوعب عدّة آلاف من الجنود. إضافة إلى أنها تضم سجناً للهاربين من الجندية وبضمنهم الذين يرتكبون الجرائم[٢].

= اختلاف حول زمن بناء القشلة والرأي الصواب كان في أربعينات القرن التاسع عشر لأن فليكس جونز أشار لها في خريطته التي رسمها سنة ١٨٤٦م؛

J.F. Jones, Selecting from the records of the Bombay Government, Bombas, 1857, p:319.

(١) كراس القشلة، ص٦-٧.

(٢) نجلة إسماعيل، المصدر السابق، ص٢٣٣.

المحلات

تتألف مدينة بغداد داخل السور من عدد كبير من المحلات التي توصف بأنها حلزونية الشكل ذات امتداد غير منتظم في نهايته، وتتكون كل محلة من شارع عريض نسبياً، وأزقة ضيقة تابعة له ومتصلة بها تعرف بالعقود[1]، والزقاق أشبه بالنفق الذي يمتاز بجوه الهادئ وظله الوفير، عرضها لا يتجاوز (٢م أو ٣,٥م) عند قاعدة المنازل[2]، وصفها أحد الرحالة «**بأن بغداد عبارة عن متاهة**



محلات بغداد.

(١) د. عماد عبد السلام رؤوف، المصدر السابق، ص٦٧.

(٢) جيمس ولستيد، المصدر السابق، ص٨٢.

من الأزقة والممرات»[١]. ويرجع ضيق الأزقة والتوائها إلى سوء التخطيط أو انعدامه في بعض الحالات، فبعد أن تهدم الكثير من الدور بسبب الفيضانات سنة ١٨٣١م شرع الناس لاختطاط مساكنهم حسب ما يشتهون[٢]، ويمكن إرجاعها إلى طريقة البناء في تلك الحقبة التي لم يكن هناك حاجة فيها لأزقة واسعة إضافة إلى أنها كانت تحميهم من أشعة الشمس المحرقة التي يتصف بها مناخ بغداد في فصل الصيف حيث يسير المارة في ظل البيوت القائمة على جانبي الأزقة الضيقة فلذلك كانوا يميلون إلى تلك الأزقة الضيقة[٣].

وتختلف المحلات من حيث السعة فأكبر المحلات يتكون من (١٤) عقداً وأصغرها من (٤) عقود، وتضم المحلة في الغالب جامعاً وحماماً وسوقاً ومقهى فضلاً عن وجود أصناف مختلفة من أهل الحرف داخل المحلة، فيختص كل عقد في المحلة بصنف معين من الحرف مما يولد حالة من الاكتفاء الذاتي في كثير من الأمور ولذلك نلاحظ طغيان اسم الصنف على اسم العقد، فعرفت الكثير من العقود باسم الأصناف التي اختصت بها ويرجع سبب تقارب أهل الصنف في عقد واحد إلى التنظيم النقابي، وما يتطلبه من تقارب منتسبي الصنف الواحد لضمان سهولة الاتصال بعضهم ببعض، ولغرض سهولة جمع الضرائب **ومن هذه العقود عقد المحاربة، وعقد الصابونجية، وعقد الحائكين، وعقد الخبازين، وعقد النجارين، وعقد السقائين، وعقد العلاوي، وعقد التبانة.. الخ**[٤].

ولم تكن ثمة قاعدة محددة تقسم المدينة على أساسها إلى محلات ففي الوقت الذي يقسم نيجهولت المدينة إلى (٤) أقسام وهي **محلة الميدان التركية**،

---

(١) جيمس فريزر، المصدر السابق، ص٨٠؛
W. B.Hirkis, op., cit., p:307; A. Locher, op., cit., p:145.

(٢) محمود شكري الألوسي، المصدر السابق، ص١١٨.

(٣) عبد الرزاق عباس حسين، نشأة مدن العراق وتطورها، بغداد، ١٩٧٧م، ص٤٣.

(٤) د. عماد عبد السلام رؤوف، المصدر السابق، ص٦٨.

ومحلات العرب والمسيحيين واليهود[١]، نرى بترمان يذكر أن المدينة تقسم إلى (١٨) محلة يشتمل عليها القسم الأيسر من نهر دجلة[٢]، **ويذكر أحد الباحثين عند حديثه عن بغداد في بداية القرن العشرين بأن محلاتها منقسمة إلى قسمين قسم سكنه رجال الدولة من مدنيين وعسكريين والتي تعرف بمحلات العصملي أي العثمانيين مثل محلة جديد حسن باشا، ومحلة حيدرخانة، أما القسم الثاني الذي يسكنه العراقيون فيعرف بمحلات العرب مثل محلة الفضل، والمهدية وغيرها**[٣]، ولكن بشكل تقريبي يمكن الاعتماد



منطقة الشواكة مقابل شارع النهر سنة ١٩١٦.

(١) مير بصري، أطرف وأهم رحلة إلى العراق قبل (١٠٠) عام، للرحالة نيجهولت، جريدة البلد، العدد ٨٠٧، ٢٠ كانون الثاني ١٩٦٧م.

(٢) سعاد هادي العمري، بغداد كما وصفها السواح الأجانب، بغداد، ١٩٥٤م، ص٤٧.

(٣) فخري الزبيدي، بغداد (من ١٩٠٠ حتى ١٩٣٤م)، ج١، بغداد، ١٩٩٠م، ص٤٧.

على تقسيم جونز لمحلات بغداد الذي حددها بـ(٥٨) محلة منها (٤٣) محلة في الجانب الشرقي، و(١٥) محلة في الجانب الغربي[١]، ثم بعد ذلك تقسيم الشيخلي محلات بغداد في بداية القرن العشرين، وعند مقارنة التقسيمين نلاحظ التغيرات التي حصلت خلال هذه الفترة على محلات بغداد، فدمجت بعض المحلات في محلة واحدة مثل محلة شاة قولي، ومحلة جامع الوزير في محلة واحدة تعرف بمحلة جديد حسن باشا وبعض العقود تحولت إلى محلات مثل **(عقد تبة الكرد)** تحول إلى محلة تبه الكرد، وعقد بني سعد تحول إلى محلة بني سعد وغيرها، إضافة إلى تغير أسماء الكثير من المحلات، وظهور محلات جديدة. ونستدل من هذه التغيرات التوسع في البناء والزيادة في السكان مما أدى إلى زيادة محلات بغداد بحيث وصل إلى (٨٣) محلة، (٦١) محلة في الجانب الرصافة و(٢٢) في جانب الكرخ[٢].

كانت المحلة تشكل الوحدة والتضامن الاجتماعي في بغداد، وتتجلى فيها العصبية المدنية[٣]. وهي تشبه العصبية القبلية، فتأثير النظام الاجتماعي القبلي في تركيب بعض المحلات السكنية يرجع إلى أن كل عشيرة تحتل محلة خاصة بها فتصبح كل محلة وحدة إدارية مستقلة أو شبه مدينة مما يسهل الإدارة، وجمع الضرائب من السكان وتكون كل جماعة مسؤولة بالإجماع عن منطقتها برعاية أحد الأشخاص البارزين[٤]، وقد عرفت بعض المحلات بأسماء العشائر أو الجماعات التي تسكنها، أو باسم أحد الأشخاص البارزين مثل **محلة العزة ومحلة آل أبي شبل، ومحلة المهدية،**

---

(١) على الرغم من أن بعض المحلات اعتبرها جونز عقود مثل محلة سبع أبكار ومحلة القاطرخانة،

J.F. Jones, op., cit., p:312.

(٢) محمد رؤوف الشيخلي، المصدر السابق، ص٧٢.

(٣) د. عماد عبد السلام رؤوف، المصدر السابق، ص٦٧.

(٤) عبد الرزاق عباس، المصدر السابق، ص٤٣.



الأعظمية جوهرة الرصافة.



منطقة باب الشيخ سنة ١٩١٧م.

ومحلة الطاطران، ومحلة الكولات، ومحلة الهيتاويين، والفناهرة، والدسابيل، والجعيفر، والتكارتة، والمشاهدة، والكريمات.

وبعض المحلات نسبت إلى المهنة والحرفة مثل **محلة الطوبجية، والدهانة، والشواكين وسوق الغزل، وصبابيغ الآل، وعلاوي الحلة أو نسبت المحلة إلى إمام أو جامع أو مرقد مثل إمام طه، وباب الشيخ، والفضل، والشيخ سراج الدين، والصدرية، وبنات الحسن، والست نفيسة، وجامع عطا،** وعرفت بعض المحلات بأسماء عسكرية لأنها كانت محلاً لها مثل **البارودية، والقرغول، وخان لاوند، وعقد القشلة،** وعرفت محلات أخرى بطبيعة أرضها مثل **محلة سبع أبكار، والسنك، ورأس الساقية، والجوبة، وحمام المالح،** وبعض المحلات نسبت إلى سوق أو قهوة أو خان أو تكية مثل **محلة قهوة شكر، وسوق حنون، ومحلة تحت التكية**[١].

لقد أسهم هذا الترتيب في تجانس المحلات السكنية من حيث الخصائص العرقية والثقافية ودرجة الامتداد القرابي، وعمل على تقارب أبناء المحلة الواحدة، وعزز ذلك وجود مسجد خاص وسوق ومقهى وحمام لكل محلة، وما اتسمت به المحلة من تجانس مهني ساعد على تقوية الصلات الاجتماعية بين أبناء المحلة القائمة على أساس روابط القرابة والدم. ويمكن القول إن تكامل مقومات الحياة داخل كل محلة دليل على الحياة غير الآمنة التي كان يعيشها المجتمع.

---

(١) لمزيد من المعلومات انظر: د. عماد عبد السلام رؤوف، معالم بغداد في القرون المتأخرة، بغداد، ٢٠٠٠م.

البيت البغدادي

أقيمت البيوت البغدادية وفقاً للظروف الطبيعية والمناخية، إضافة إلى العادات والتقاليد الاجتماعية والحياة الاقتصادية وهي تجسيد للواقع الذي يعيشه الفرد البغدادي، وتتميز البيوت البغدادية بوجه سنة بنظام تخطيطي، وخصائص إنشائية تكاد تكون متشابهة تتمثل بالمدخل والدهاليز، والفناء، والرواق، والمسقفات، والسراديب، والشناشيل، والسطوح(١).



بيوت الشناشيل البغدادية القديمة وطرازها الجميل.

البيت البغدادي محصور بين البيوت الأخرى من جهاتها الثلاث وليس له إلّا جهة، أو جهتان على الشارع العام، أو الزقاق الذي ليس له منفذ في كثير من

---

(١) لمزيد من المعلومات. انظر:

Oscar Reyther, Das Wihnhaus in Baghdad und Anderen Stadten des Irak, Berlin, 1910.

الأحيان[١] فمدخل البيت البغدادي سواء كان صغيراً أم كبيراً يتكون من باب خشبية ويفضي المدخل إلى الدهليز[٢] **(الرواق)** الذي يوصل ما بين الباب، وفناء البيت، والدهليز يختلف من حيث تصميمه من بيت لآخر فمنها ما يكون مربعاً، أو مستطيلاً، أو مثمن الشكل ولكن أكثر التصاميم شيوعاً هو المدخل المنكسر الذي هو صفة مميزة لعمارة البيوت وسبب تميزهم بهذا النوع من المداخل هو العادات، والتقاليد الاجتماعية، والظروف المناخية فهو أول ما يستقبل الداخل، ومنه تتفرع مداخل البيت وبواسطته يتم عزل الشارع عن الفناء والمحافظة على حرمة البيت، ومنع العابر الغريب من التطفل على ما يجري داخل الفناء كما أن الذي في داخل البيت لا يستطيع رؤية العابرين وأن الداخل إلى البيت قبل وصوله إلى الفناء لا بد وأن يغير الاتجاه مرة على الأقل وذلك لوقوع الباب الخارجي في إحدى جهتي البيت وهو بذلك يستغرق وقتاً حتى يدخل الفناء، إضافة إلى أهميته في المحافظة على نظافة البيت بمنع التيارات والغبار من التأثير على جو البيت فضلاً عن ذلك كله فإنه يوفر زيادة فرص الدفاع عن البيت إذا ما قامت مشاكل أو فتن داخلية أو خارجية[٣].

أما الفناء وهو نظام الساحة المكشوفة نحو السماء فهو من المميزات المعمارية[٤] البارزة في البيوت البغدادية، وعن طريقه يمكن تحقيق منظراً للفضاء ليلاً ونهاراً لأنه المنفذ المكشوف من الأعلى وهو المتنفس الوحيد

---

(١) شريف يوسف، البيت البغدادي القديم، مجلة التراث الشعبي، السنة السادسة، العدد السادس، ١٩٧٥م، ص١٠.

(٢) الدهليز: يعني معبر ما بين الباب والدار (المجاز)، محمود شكري الألوسي: أخبار بغداد وما جاورها من البلاد، ص١١٤.

(٣) لمزيد من المعلومات انظر: حميد محمد حسن، البيت البغدادي في العصر العثماني، رسالة ماجستير، قسم الآثار، الآداب، بغداد، ١٩٨٢م، ص٣٠٥-٣٠٦.

(٤) محمد مكية، الدور البغدادية والتراث السكني، بغداد عرض تاريخي مصور قامت بنشره نقابة المهندسين العراقية على نفقة مؤسسة كولبنتكيان، بغداد، ١٩٦٨م، ص٢٢٨؛ محمود شكري، الألوسي، أخبار بغداد، ص١١٤.

للهواء، والضوء، والمنظم الرئيس لدرجة حرارة البيت صيفاً وشتاءً فتنخفض درجة الحرارة أثناء الليل فيبرد الهواء في الفناء وعند النهار بعد ارتفاع درجة الحرارة يتوزع إلى الغرف والمرافق المحيطة بها، ويحافظ على برودة البيت إلى ساعات متأخرة من النهار وفي الشتاء يحصل الدفء وذلك يمنع التيارات الهوائية الباردة بعد غلق النوافذ والأبواب[١] لهذا فتحت جميع الغرف إلى داخل الفناء لأنه مصدر النور والهواء، وعن طريقه تحقق الإضاءة والتهوية الطبيعيتين[٢]، والفناء الجيد هو الذي يبنى على قياسات تقلص فترة وصول أشعة الشمس إليه[٣]، وأهمية الفناء لا تقتصر على الناحية المناخية بل هو



بيت بغدادي.

(١) توفيق حمد عبد الجواد، تاريخ العمارة والفنون الإسلامية، ج٣، بغداد، ١٩٨٠م، ص١٩١.

(٢) محمد مكية، المصدر السابق، ص٢٢٨.

(٣) معاذ ظافر الألوسي، المميزات البارزة في البيت العراقي، ص٣، مجلة العاملون في النفط، العدد ٣٦، السنة، ١٩٦٥م.

ساحة خدمات تمارس فيه وتنجز معظم خدمات البيت ومكان التجمع العائلي ولعب الأطفال ومكان نوم بعض الأسر التي تفتقر بيوتها إلى ستارة لذلك فقد أصبح مكاناً للنشاط المنزلي بكل جوانبه فهو فسحة الاجتماعات والحفلات، ومدار الحياة الاجتماعية والاقتصادية وذلك لأن كل بيت يعتبر وحدة بنائية منفصلة عن البيوت الأخرى وأسلوب بنائه مغلق من داخله والضياء والهواء يدخله من الفناء، وبيوت بغداد الكبيرة تشتمل على فناءين الخارجي يسمى البراني للضيافة، والداخلي يسمى الدخلاني أو الحرم لأنه كان مخصصاً لمعيشة النساء من أهل البيت وفي أغلب البيوت سواء كانت ذات فناء أم فناءين تتوسطهما حديقة صغيرة تعرف (**بقجة**)[١]، وتعتبر من مستلزمات البيوت الضرورية وأن وجودها في البيت فرضتها الظروف المناخية، **ويصف الرحالة وليستد الفناء بقوله: «يحتوي كل منزل على باحة داخلية في الوسط مفتوح إلى السماء، ومزين بشكل عام بشجيرة نخيل باسقة الطول في وسط حديقة صغيرة المساحة تعيش العائلة بأكملها في فناء الدار طوال اليوم»**[٢] فلهذا يعتبر الفناء الحجر الأساس في تصميم البيت وقد جعل الحياة غاية في الأمان[٣] وذلك لتوجيه فتحات البيت إلى الداخل دون الحاجة إلى فتح فتحات إلى الخارج سوى بعض الفتحات الصغيرة لتبديل الهواء[٤]، ولهذا نلاحظ جميع الرحالة يصفون بيوت بغداد بالجدر الصماء حيث لا يوجد أي شباك أو فتحات تطل على الزقاق أو الشارع سوى المدخل الرئيس والشناشيل فقط.

وبما أن معظم البيوت البغدادية تتألف من طابقين الطابق الأرضي الذي يطل على الفناء، والطابق العلوي الذي يعرف بـ(**الأرسي، عرسي أو عروسي**)،

---

(١) بقجة: وهي كلمة فارسية «لاباغ جة» أي بستان صغيرة وجمعها بقجات وبقج. جلال الحنفي، معجم اللغة العامية البغدادية، ج١، بغداد، ١٩٧٨م، ص٥٧٠.

(٢) وليستد، المصدر السابق، ص٨١.

(٣) خالص الأشعب، الأثر الوظيفي في طراز البيت العربي، الكتاب مجلة شهرية يصدرها اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين، العدد، ٨ آب ١٩٧٥م، ص٧٢.

(٤) معاذ ظافر الألوسي، المصدر السابق، ص٤؛ W. Harkis, op., cit., p:312.

والطابق الأرضي يتكون من صف من الغرف تفتح على الرواق أو الممر الذي يحيط بالفناء، ويستند السقف بواسطة أعمدة خشبية مزينة وبما أن سقف الطابق العلوي أكثر ارتفاعاً من الطابق الأرضي لغرض إبعاد أشعة الشمس المسلطة على الفناء إذ يبلغ ارتفاعه أكثر من (٤) أمتار مما جعل المعمار البغدادي يقسم غرف الطابق العلوي إلى قسمين يسمى القسم العلوي منها **(كفشكان)**، الذي كان يتخذ أما مخزناً للمواد الزائدة في البيت، أو يستخدم لمنام الخدم في الشتاء، أو يعطي لأفراد الأسرة وخاصة كبار السن منهم الذين يطلبون العزلة والهدوء[١] **ويوجد إضافة إلى الكفشكان البازلخ، والجامخانة، وغيرها في الطابق العلوي.**

ونتيجة لارتفاع درجات الحرارة في الصيف نجد ظاهرة بناء السراديب في البيوت البغدادية التي صممت بشكل يساعد على تلطيف الجو في أوقات ارتفاع الحرارة[٢] حيث يلجأ إليها الناس ظهراً للنوم فيها، ولحفظ المواد الغذائية[٣]، أما سطوح البيوت فهي بمستوى واحد أرضيته مبلطة بالآجر المربع أو مبلط بالطين الأحمر المخلوط بالتبن يحيط به من الخارج ستارة من الآجر على ارتفاع (١,٥م) يستخدمها الناس أماكن للنوم ليلاً في فصل الصيف[٤].

ومن العناصر المعمارية الأخرى التي لها أهمية خاصة في البيت البغدادي الإيوان وهو مكان متسع من البيت مرتفع البناء غير مسدود الوجه أي أنه قاعة مسقوفة بقبو مفتوح مقدمتها على بهو بعقد مقوس نصف دائري، أو مدبب، أو منفوخ، أو منبطح[٥]، ويستعمل لجلوس أفراد العائلة في أكثر أيام السنة،

---

(١) شريف يوسف، المصدر السابق، ص١٦.

(٢) I.J. Germks, op., cit., p:27.

(٣) محمود شكري الألوسي، المصدر السابق، ص١١٤؛ بغدادي أصيل، تقاليد أهل بغداد وعاداتهم، جريدة الشرق، ٢٩ تشرين الثاني ١٩٦٢م.

(٤) الزوراء، العدد٥٥٤، ٨ رجب ١٢٩٢هـ.

(٥) أحمد فكري، مساجد القاهرة ومدارسها، ج٢، بغداد، ١٩٦٥م، ص٨٧-٨٨.

وإقامة حفلات الزواج والختان، وتتلى فيه المنقبة النبوية في المناسبات، ويستقبلون فيه ضيوفهم[١].

وكان الإيوان رمز القدرة والمكانة، ولأن الناس يرغبون في إظهار بيوتهم بما يتناسب ومكانتهم الاجتماعية وقدرتهم المالية، لذا نجد بيوت الأغنياء والموسورين تتميز بتعدد الأواوين وفخامتها.

وأهم العناصر المعمارية التجميلية في البيت البغدادي الشناشيل[٢] التي وجدت كضرورة اجتماعية، ومناخية فالعادات والتقاليد الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك ومنها الحجاب المفروض على المرأة فغطت الشبابيك من الخارج بطبقة من الخشب المشبك فائدتها فسح المجال لمن في داخل البيت التطلع ومراقبة ما يجري في الشارع دون أن يراه أحد فمهمتها إذن المحافظة على حرمة البيت، ومنع الإشراف المتبادل في البيوت المتقابلة إضافة إلى حماية زجاج الشبابيك من الكسر، أما من الناحية المناخية فتصميمها يسمح بنفوذ كمية كافية من الضوء والهواء إلى داخل الغرفة التي تزين واجهتها الشناشيل ذات الزخارف الدقيقة محفورة ومخرمة تدعو إلى الإعجاب، وتدل على مهارة، وإتقان في صناعتها، وتمتاز الشناشيل بخفة وزنها وتنوع أشكالها[٣].

وتضم البيوت البغدادية المرافق الخدمية المهمة في البيت وهي المطبخ، والحمام، والمخزن واسطبلاً لربط الحيوانات[٤] وتتركز البيوت في جانب الرصافة في المنطقة المجاورة لسور المدينة الشمالية حيث المنشآت

(١) سعيد الديوه چي، البيت الموصلي، مجلة التراث الشعبي، العدد السادس، السنة السادسة، بغداد، ١٩٧٥م، ص٢٤.

(٢) شناشيل: كلمة فارسية مركبة من كلمتين (شاه) بمعنى الملك و(شين) بمعنى الجلوس، فيكون معناها جلوس الملك. محمد التونجي، المعجم الذهبي فارسي - عربي، إيران، ١٩٦٧م، ص٣٦٣.

(٣) حميد محمد حسن، المصدر السابق، ص٣٠٥-٣٠٦.

(٤) محمود شكري الألوسي، أخبار بغداد، ص١١٥.

الحكومية **(السراي)** ابتداء من دور الموظفين وقصور الأغنياء والقنصليات على نهر دجلة، حتى وسط وجنوب المدينة حيث مساكن الطبقة الوسطى والفقراء[١]. أما في جانب الكرخ فتتركز قصور الأغنياء أيضاً وقنصليات الألمان على نهر دجلة[٢] ثم تأتي بعد ذلك بيوت العامة من المجتمع البغدادي التي تتوزع على محلات الكرخ.

وهذا الطراز أكسب الأبنية البغدادية المشيدة في العصر العثماني طرازاً فريداً لعبت فيه البيئة والحضارة القديمة والخبرات المحلية دوراً كبيراً.



كان هذا قصر الملك علي (شقيق الملك فيصل الأول) على ضفة نهر دجلة.

(١) روبرمانتران، المصدر السابق، ص٤٨٤.

(٢) السيد محمود شكري الألوسي، أخبار بغداد، ص١١٣.

المنشآت الدينية

● المساجد والمشاهد:

كان للعامل الديني أثر كبير على الولاة العثمانيين الذين ربطوا الدين بالدولة وجعلوا الدين رائدهم الأول وما يدل على ذلك قيام بعض الولاة بتشييد الجوامع الكبرى ذات المظاهر الباذخة التي قرنت بأسمائهم وتعمير



أحد جوامع بغداد.

المساجد، والمشاهد القديمة، واشتركت نساء الولاة وبناتهم بإنشاء المساجد التي قرنت بأسمائهن[١] ولم يقتصر تشييد الجوامع والمساجد على الولاة العثمانيين ونسائهم فقط وإنما ساهمت الطبقة الموسرة من السكان بتشييد

(١) لمزيد من المعلومات انظر: محمود شكري الألوسي، مساجد بغداد وآثارها، =

الجوامع الكبرى والمساجد التي لم تكن تعرفها المدينة منذ زمن طويل على الرغم من أن هذا العهد لم يشهد بناء الجوامع الضخمة، واقتصر على بناء المساجد وترميم الجوامع.



مرقد الإمام موسى الكاظم سنة ١٩١٧م.

وكان للجوامع والمساجد قدسية كبيرة ومكانة مرموقة في نفوس الناس ولها دورها المؤثر في الحياة العامة وعلى الرغم من تركز أكثر الجوامع الكبرى ذات المظاهر الباذخة في الجانب الشرقي من بغداد وبخاصة في المنطقة الشمالية منها حيث يقع السراي وتحتشد الأسواق كان يوجد في كل محلة جامع أو مسجد[(١)]، لقد زخرت مدينة بغداد بالعديد من المساجد والجوامع

= تهذيب بهجة الأثري، بغداد، ١٣٤٦هـ، ص٧٥؛ د. عماد عبد السلام رؤوف، مساجد بغداد في أواخر العهد العثماني، مجلة الرسالة الإسلامية، السنة ١١، الأعداد ١١٧-١١٨، السنة (١٩٧٨-١٩٧٩م).

(١) د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، ص٥٨.

التي تعتبر مؤسسات دينية وثقافية واجتماعية فهي من الناحية الدينية مكان للتعبد وإقامة الشعائر الدينية كالصلاة وقراءة القرآن الكريم وكتب السنة والحديث وإقامة محافل الأذكار والمواليد النبوية، وهي من الناحية الثقافية اماكن لتدريس العلوم الإسلامية وتعليم القراءة والكتابة[١]، وهي من الناحية الاجتماعية منتدى ومراكز للاجتماعات العامة سواء في الأعياد الدينية، أو المناسبات الاجتماعية إضافة إلى أنها مأوى لمن لا يجد له مسكناً من الفقراء، والمسافرين، والمتعبدين بحسب حكم الشرع أسوة بمسجد الرسول (ﷺ) بالمدينة[٢] وكانت لها عمارتها المميزة التي تتناسب مع وظائفها فهي تتكون من مصلى شتوي، وصيفي، ومنارة، أو منارتين، وبعض الجوامع لها قبب مغطاة بالقاشاني المزجج ويعلو القبة هلال[٣]، ويحيط بالجامع عدد من الغرف الخاصة بخدام الجامع وبعضها خصصت لطلاب العلم وفيها محلات للوضوء والطهارة[٤].

وبما أن الجوامع هي مكان لأداء الصلاة والتعليم فإن كل جامع يحتوي على مدرسة وقد احتوت بعض الجوامع على أكثر من مدرسة واحدة مثل جامع السيد سلطان علي حيث تؤكد معظم المصادر التاريخية أن هذا الجامع احتوى على مدرستين[٥]، ولم تكن ظاهرة إنشاء المدارس في الجوامع التي بنيت في هذه الفترة، بل وجدنا بعض الولاة وبعض النساء أقاموا مدارس في المساجد التي أقيمت قبل عهدهم مثل مدرسة الأحمدية والمدرسة السليمانية ومعظم

---

(١) إبراهيم الدروبي، البغداديون أخبارهم ومجالسهم، بغداد، ١٩٥٨م، ص٢٨٤.

(٢) محمد الهاشمي البغدادي، المصدر السابق، ص٣٨٠.

(٣) أدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي، ج٢، القاهرة، ١٩٤٧م، ص١٢٢-١٢٣؛ A. Locher, op., cit., p:137

(٤) محمود شكري الألوسي، مساجد بغداد، ص٣٧، ٧٥.

(٥) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٣٦٠؛ أنستاس ماري الكرملي، مزارات بغداد، بحوزة الدكتور عماد عبد السلام رؤوف، ص٥٩.



أقدم منارة بغدادية مبنيّة منذ العصر العباسي
في العراق سنة ١٩١١م.



أحد مساجد بغداد القديمة.

المدارس القائمة في المساجد العثمانية تقوم بضمن مساجد الجامع، ويربط الجامع والمدرسة مساحة واسعة يحيط بها سور ما عدا مدرسة جامع الأحمدية حيث أقيمت في الزاوية الجنوبية من مبنى الجامع[1]. وإذا احتوى الجامع أو المسجد على مدرسة أم لم يحتو فقد كانت حلقات الدروس في أروقتها خلال الفترات الواقعة بين قيام الصلوات الخمس.

وكان الوازع الديني سبباً في ظهور نظام الأحباس المعروف بالأوقاف الذي دفع الولاة ونسائهم، وذوي اليسار من الناس إلى اتباع هذا النظام حيث ينتفع به في الصرف على هذه الأبنية وعمارتها، وإدامتها، وصيانتها، وتغطية نفقاتها من أجل أن تستمر في تقديم المراسيم الدينية الخاصة بها والخدمات الاجتماعية التي كانوا بأمس الحاجة لها، وكان لكل جامع إمام، وخطيب، ومؤذن، ومدرّس، وواعظ، وخادم، وهؤلاء جميعهم يأخذون رواتبهم من واردات وقفيات الجامع الذي ينتمون إليه.

وقد بلغ عدد الجوامع في بغداد (٤٩) جامعاً، و(٦٧) مسجداً[2] من غير بيوت الصلاة الصغيرة، بينما ورد عددها في سالنامة بغداد لعام ١٣٢٩هـ بـ(١٤٥) بين جامع ومسجد[3].

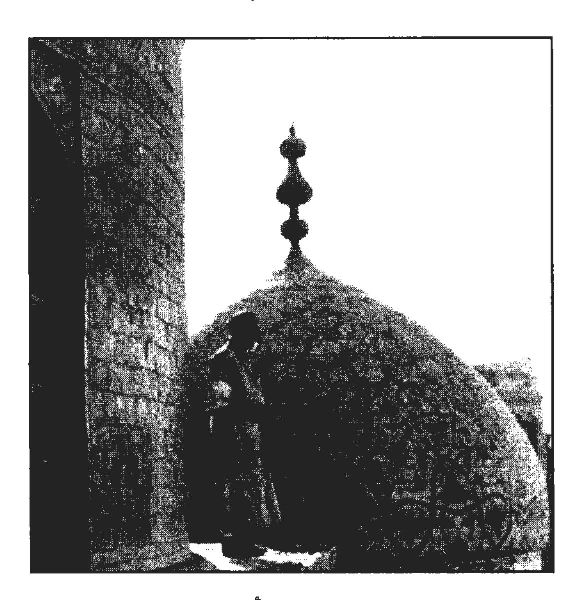
(١) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٣٠٠.

(٢) محمد أفندي درويش، المصدر السابق، ص١٤٩.

(٣) سالنامة ولاية بغداد لسنة ١٣٢٩هـ، بغداد شابندر مطبعة سند طبع أولنشدر، ص١٨٦.



أحد مساجد بغداد.



المؤذن يؤذن على سطح أحد مساجد بغداد.

التكايا

تعد التكايا[1] من المؤسسات الخيرية، والاجتماعية التي كانت مأوى للمنقطعين والفقراء من الصوفية، وأصحاب الطرق، ومنزلاً للعلماء، ومكاناً لممارسة التعبد، والخلوة والانقطاع، ومنتدى يجتمعون فيه، ويمارسون فيه شعائرهم الدينية كإقامة الأذكار والمواليد النبوية. معظم التكايا شيدت على



التكايا في بغداد قديماً.

غرار البيوت السكنية، أو أنها كانت بيوتاً سكنية أوصى أصحابها أن يدفنوا فيها بعد مماتهم وتصبح ربط لأصحاب الطرق الصوفية منها **تكية الشيخ عمر الرفاعي**.

---

(١) المعنى اللغوي لل(تكية): قيل أن تكية من فعل توكأ يقال توكأ على الشيء أي التحامل على العصا في المشي، ابن منظور، لسان العرب: ١/ ٢٠.

واتخذت بعض أضرحة الأولياء الصالحين والزهاد من المتصوفة تكايا لإقامة المتصوفة والفقراء وممارسة عباداتهم فيها كضريح الشيخ عبد القادر الكيلاني والشيخ عمر السهروردي والشيخ جنيد البغدادي وغيرهم.

واتخذت بعض المساجد بعد عمارتها، وإضافة وحدات بنائية خدمية وسكنية إليها تكايا منها جامع الإحسائي ببغداد الذي كان مسجداً، ومدرسة اتخذ تكية بعد أن سكنه الشيخ خالد النقشبندي[١].

وبصورة عامة كانت التكايا على هيئة مجمع معماري يعتمد على نظام الصحن المركزي المكشوف الذي تتوسطه حديقة صغيرة تتوزع حوله الوحدات البنائية السكنية والخدمية والدينية بطابق واحد، تضم مسجداً صغير شبه مستقل يشغل معظم الجانب الجنوبي من المبنى، وحجرات للسكن، ومطبخاً، وقاعات للدرس فضلاً عن وجود المدفن الذي كان يتخذ في إحدى الزوايا، أو أحد الحجرات[٢]، كما ألحقت ببعض التكايا مكاتب لتعليم الأولاد القراءة والكتابة وقراءة القرآن الكريم، وهي بهذا أصبحت أكثر شمولية وضخامة من المدرسة التي كانت ملازمة للمسجد.

وتفتقر التكايا البغدادية إلى وجود مأذنة حتى التي كانت في الأصل مسجداً، أو بني فيها مسجداً فيما بعد، وتفتقر التكايا إلى ماء سبيل خانة بل كان يعمل عوضاً عنه مجموعة من الحباب مملوءة بالماء توضع في جانب من الحديقة قريباً من المدخل الرئيس[٣]. فالتكايا ذات طراز معماري خاص يجمع

---

(١) حميد محمد حسن الدراجي، الربط والتكيا البغدادية في الفترة العثمانية، أطروحة دكتوراه كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٦م، ص٩٨.

(٢) عبد القادر الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، دمشق، ١٩٧٩م، ص٢١٦.

(٣) واتخذ في معظم التكايا البعيدة عن مجرى نهر دجلة أبار يستخدم مائها للوضوء والغسل وسقي الحديقة وفي حالات نادرة للشرب، حميد محمد حسن الدراجي، المصدر السابق، ص٢١٩.

بين المسجد، والمدرسة، والخان، والبيت، والضريح وهو أمر لم يعرف في المباني الدينية الأخرى.

وكان للتكايا أهمية دينية، وثقافية، واجتماعية كبيرة فلذلك ازداد اهتمام الولاة، وذوي اليسار من الناس بها فوقفت الأموال، والعقارات على هذه الأبنية للصرف عليها وصيانتها وتهيئتها لإقامة المتصوفة، وانعزالهم، وممارسة الشعائر الدينية الخاصة بها[١].

ويتألف أعضاء التكايا من الشيخ المسؤول، والموظفين، وخدم الرعاية المقيمين، والوافدين من المتصوفة، والمتنقلين عبر البلاد سعياً وراء المعرفة، ورغبة في العطاء ولإيواء الفقراء والمتعبدين، وإطعام الجميع، وإكسائهم وتصرف رواتب شهرية لهم، وتخصص لهم ما يحتاجون إليه من زيت المصابيح، وصابون التنظيف، وتوزع الحلوى عليهم كل جمعة، وخصصت لهم حجرات ليقيموا فيها، فبهذا تكون التكايا بمثابة أندية اجتماعية. وقد كان عددها (٢٠) تكية[٢] منها تكية المنديجي، أو المندلاوي، وتكية محمد بن حمزة، وتكية الشيخ حسن الطيار وغيرها.

مما تقدم يظهر لنا أهمية هذه المنشآت التي وجدت لخدمة الدين ونيل مرضاة الله، وقد سكنها عدد من الأولياء الصالحين، ودفن بعضهم فيما بعد مماتهم فأصبحت مراقد لهم يزورها الناس ويتبركون بها. وبطبيعة الحال كانت هذه المنشآت الدينية الخيرية إلى جانب المساجد من الأماكن التي يلتقي فيها المؤمنون يتعرفون على بعضهم يتم ذلك في أوقات الصلاة وإقامة الذكر فضلاً عن الخدمات التي تقدم لمستحقيها وهي كثيرة ومتنوعة.

---

(١) المصدر السابق، ص١٨٩.

(٢) سالنامة ولاية بغداد، لسنة ١٣٢٩هـ، ١٨٦.

الطرق والأزقة

تمتاز بغداد بشوارعها الضيقة المتعرجة الملتوية[1]، وأزقتها المفتوحة والمغلقة وسط المنازل العالية المتلاصقة تلاصقاً شديداً، والمتداخلة بشكل استدعى كثرة وجود الأزقة الضيقة والعقود المحدودة فوق



أزقة بغداد القديمة «دربونة» - منطقة الدهانة سنة ١٩١٠م.

---

(١) Muller, Simonis, Du Gaucase An Galf persions Larmenif Le Kurdistan Etue Mesopotam, Paris, 1892, p:455.

الطرق[١] التي لا يتجاوز عرض بعضها المترين أو الثلاثة أمتار ونصف فهي لا تسمح بمرور جملين أو شخصين على ظهور الخيل[٢] **ويرجع سبب هذا إلى عدّة عوامل:**

١ • أمنية إذ إن التواءها وضيقها يوفر الصفة الدفاعية للمدينة مما يساعد على صد الغارات وحصر الأعداء في أوقات الأزمات والأزقة المغلقة تسهل حصر الأعداء والسيطرة عليهم[٣] في حالة تعرضها إلى هجمات خارجية أو تمرد داخلي.

٢ • مناخية فهي توفر الظل عند المرور[٤] خلالها فضلاً عن ذلك لم يكن هناك حاجة لتوسيع الطرق والأزقة طالما أن الأسواق تتخلل المحلات السكنية فلم تكن هناك حاجة إلى استخدام وسائل النقل إلّا في حالة نقل الأحمال الثقيلة، وأن وسائط النقل المستخدمة في تلك الحقبة هي الحيوانات من الجمال والخيول والحمير، كما استخدمت العربات التي تجرها الخيول فيما بعد. لذا فقد تأثر نظام تخطيط الطرق بهذه الأبعاد من حيث تحديد عرض الطرق وحتى تحديد ارتفاع الشبابيك لأن ارتفاع حمولة حيوانات النقل تصل إلى (٣,٥) متر كحد أعلى فنسقت الطرق على هذا الأساس.

---

(١) محمد رؤوف المسعودي، مذكرات بغدادي، مجلة المورد، المجلد الثامن العدد الرابع، ١٩٧٩م، ص٥٥٧؛ محمود شكري الألوسي، أخبار بغداد، ص١١٨؛ الزوراء العدد ٢١٣، ٢٠ صفر ١٢٨٩هـ؛ W. Harkis, op., cit., p293.

(٢) أدموند كاندلر، بغداد سنة ١٩١٧م، ترجمة: محمد مظفر الأدهمي، مجلة المورد، المجلد الثامن، العدد الرابع، ١٩٧٩م، ص١٣٠؛

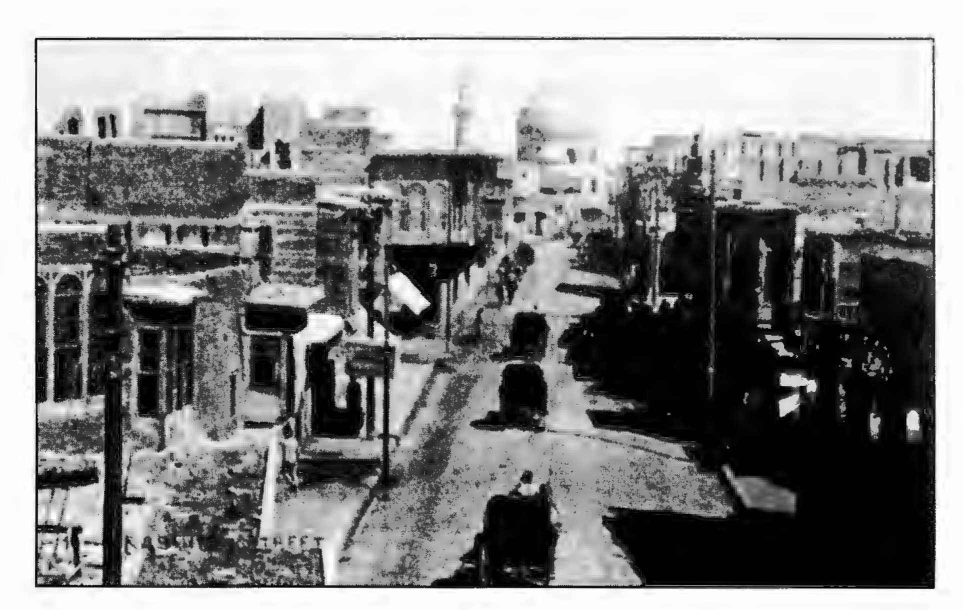
A. Locher, op., cit., p:143: W. Harkis, op., cit., p:307.

(٣) ولعل أرسطو طاليس قد أدرك هذا عندما عبر عنه بالقول «أن خطة الخطوط المسطحة قد تزيد من روعة المقام ولكنها غير عملية من وجهة نظر الدفاع».

(٤) عبد الرزاق عباس، المصدر السابق، ص٤٣.



أزقة بغداد وشناشيلها سنة ١٩١٧م.



شارع الرشيد «قلب بغداد النابض» سنة ١٩١٣م.

وصف الكثير من الرحّالة طرق بغداد بأنها غير جيدة وضيقة وملتوية ومنهم فريزر عندما قال: «تكون في الغالب عبارة عن أزقة ضيقة غير مبلطة وموحلة في الشتاء دون شك»[١] وكانت طرق بغداد ترابية[٢] غير مبلطة ما عدا طريق البلانجية الذي بلط في أواخر القرن الثامن عشر، وأصبح يعرف بـ(**عقد الصخر**) نسبة إلى رصفه به[٣]، والطريق الآخر الذي بلط في القرن التاسع عشر هو طريق القشلة المحاذي لسراي الحكومة، وقسم من سوق السورجية[٤]، أما باقي الطرق فهي ترابية مما يؤدي إلى عرقلة حركة انتقال الناس، والبضائع خاصة في فصل الشتاء حيث يتساقط، المطر فيحيل تلك الطرق إلى طبقات من الوحل، وتتجمع المياه وسطها مما يضطر الناس إلى الخوض فيه، وإن اشتد وتعاظم الوحل هناك حمالون يحملون الناس على ظهورهم من جانب لآخر لقاء مبالغ زهيدة[٥]. كانت الطرق، والمسالك المهمة التي تخرق النسيج المعماري للمحلات التقليدية من نهر دجلة نحو أبواب سور المدينة تتفرع في الغالب من الأسواق الرئيسة فتوسعت تلك الطرق التي غدت المحاور الرئيسة لطرق القوافل والنقل، ومن تلك الطرق التي تخترق مركز بغداد من نهر دجلة حتى باب الطلسم ومن الميدان حتى الباب الوسطاني، والطرق التي تنطلق من جهة نهر دجلة باتجاه السورين عند أبواب المدينة المذكورة سابقاً. ومن أطول الطرق في جانب الرصافة التي تميزت بقلة تعرجها، واستقامتها تقريباً هو الطريق الذي يبدأ من باب المعظم

(١) جيمس فريزر، المصدر السابق، ص٧٥.

(٢) H. V. Geere, Buile and Eupherates A Record of Discovery and Adventure Edinburgh, TXT Clark, 1904, p:104.

(٣) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص١٤.

(٤) عبد الرحمن السويدي، تاريخ حوادث بغداد والبصرة، تحقيق: د. عماد عبد السلام رؤوف، بغداد، ١٩٧٨م، ص٩٣، ١٠٠.

(٥) محمد رؤوف الشيخلي، المصدر السابق، ص٨٥.

وينتهي إلى الباب الشرقي موازياً للنهر وليس لهذا الشارع اسم خاص به بل لكل مسافة منه اسم تسمى به فشارع الميدان، ويصل به شارع السراي، ويصل به شارع جامع الوزير، ويليه شارع سوق الهرج فشارع اليمنجية، فشارع المصبغة فشارع القرية فشارع السيد سلطان علي المتصل بشارع الباب الشرقي. أما أهم الشوارع التي يقطعها عرضاً هو الشارع الذي يبدأ من رأس الجسر وينتهي عند مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني[١].

وظلت طرق بغداد على حالتها السيئة دون العناية بها، فلم ترصف بالآجر، أو الحجر أو تنظم شبكة لصرف مياه الأمطار، أو لتلك التي تتدفق من البيوت أحياناً، ولم توسع هذه الطرق، ما عدا افتتاح الجادة سنة ١٩١٦م، ويرجع فضل افتتاحها إلى القائد الألماني غولتز باشا فعند تجواله في شوارع بغداد وجدها لا تفي بحاجات نقل المهمات العسكرية، فتفاوض مع رئيس البلدية، وأحضروا مهندسين لوضع رسم، وفعلاً شرعوا بفتح الشارع وسموه **(خليل باشا جاده سي)** وبالرغم من بعض التوقفات افتتح في يوم ١٩ تشرين الأول ١٩١٦م مخترق المدينة من أولها إلى آخرها موازياً للنهر[٢]، أما طرق جانب الكرخ فجميعها تقطعها عرضاً منها الطريق الذي يبدأ من أول الجسر وينتهي بمسجد معروف الكرخي والطريق الآخر الذي أوله باب السيف ونهايته علاوي الحلة ما عدا الطريق الذي يبدأ من رأس الجسر وينتهي بباب الكاظم وهذا الطريق يقطعها طولياً[٣]. ونتيجة لوعورة هذا الطريق ومتاعبه إلى جانب عدد البغداديين الذين يذهبون إلى الكاظمية. وخطوة نحو التقدم، والازدهار أنشأ مدحت باشا سنة ١٨٧٠م خط الترام **(سكة حديد)** بين

---

(١) محمد الهاشمي البغدادي، المصدر السابق، ص٣٧٨؛ محمد الشيخلي، المصدر السابق، ص٥٣.

(٢) تاريخ فتح الجادة، مجلة الزنبقة، العدد ٧، ١ كانون الثاني ١٩٢٣م، ص١٩٨.

(٣) محمد الهاشمي البغدادي، المصدر السابق، ص٢٧٨.

مدينتين، وعرف **بالترامواي (الكاري)** الذي تجره الخيول[١].

وظلت تلك الطرق تعاني حتى السنوات الأخيرة من الحكم العثماني من الإهمال وعدم العناية مما جعل سير وسائط النقل المتطورة كالعربات، والسيارات أمراً عسيراً على الرغم من الجهود التي بذلها بعض الولاة في إصلاح بعض الطرق وفتح طرق جديدة.



الترامواي (الكاري).

(١) أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول، رقم الوثيقة ٤٣ تاريخها ٢٣ رجب ١٢٨٨هـ؛ دفتر ٢٦٣ رقم البحث ٢، مركز التوثيق الإعلامي، وزارة الثقافة والإعلام؛ عبد الكريم العلاف بغداد القديمة، بغداد، ١٩٦٠م، ص١٥؛ جميل الجبوري، وسائط النقل في بغداد القديمة، مجلة بغداد، العدد ٢٣، السنة ١٩٦٥م؛

Al. Qaysi, The Impact of Modernization on Iraq Society During the Ottoman Era, A Study of Intellectual Development in Iraq 1869-1917, A Dissertation Submitted in Partial Fuifillment of the requirements for the degree of ph.D. Michigan, 1958, p:44.

الأسواق

هي المراكز التجارية الرئيسة في المدينة التي تجري بواسطتها المعاملات التجارية بين تجار الجملة، والمفرد، وذوي الحرف، والمستهلكين، ومن المظاهر الحيوية التي اتسمت بها بغداد هو كثرة أسواقها.



سوق الهرج.

وقد اتخذت اعتبارات عديدة في تنظيم الأسواق:

١ • تركز الأسواق الأكثر أهمية في المدخل الرئيس للمدينة باعتبارها مركزاً لتجمع التجار، وأهل الريف، والوافدين من الأقطار البعيدة للتزود بما تنتجه المدينة وما يصل إليها من البضائع، والسلع[١]،

(١) طارق نافع الحمداني، المصدر السابق، ص١٥٥.

فلذلك كانت الأسواق تحيط بالميدان، والسراي، وتمتد جنوباً حتى وسط المدينة[١].

٢ • تنظيم الأسواق بشكل حلقات متتابعة وفقاً لأهميتها الاجتماعية والاقتصادية، فالأسواق المتخصصة ببيع الملابس، والصناعات الجلدية، والصياغة، والأثاث المنزلية، والسراجة تتركز بالقرب من السراي.

أما السلع الاستهلاكية والكماليات الأخرى مثل علاوي التمور، والخضر، والفواكه وأسواق المواعين، والعطارين فتتركز في الأزقة السوقية الخلفية لمواضع سوق السلع الأول. وتقع أسواق أصحاب الحرف بعد الأسواق التجارية حيث يكثر فيها الازدحام، مثل أسواق الصفارين، والحدادين، والحصران، والخياطين، وهناك حرف خصصت لها أماكن بعيدة عن المدينة إما لطبيعة السلع، أو لظروف أصحاب هذه الحرفة، كتلك التي تتطلب اتصالاً وثيقاً مع عالم الريف، أو تتطلب أماكن واسعة، ومفتوحة، أو تسبب إزعاجاً كبيراً للمواطنين المجاورين تقع في ضواحي المدينة مثل أسواق الماشية، والجزارين، والدباغين[٢].

ووفقاً لمبدأ التخصص كان لكل نوع من أنواع التجارة، أو الحرف سوقاً باسمها، فمن سوق السراي تتفرع مجموعة من الأسواق المتخصصة في ضروب التجارة المختلفة، مثل **سوق الجمبوقجية، وسوق التوتنجية، وسوق التحميس، وسوق الجوخجية، وسوق الصياغين وسوق الخفافين، وسوق الجايف، وسوق البزازين، وغيرها**[٣]. ويساعد هذا التخصص سهولة الإشراف

(١) د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، ص٥٥.

(٢) طارق نافع الحمداني، المصدر السابق، ص١٥٦ W. Harkis, op., cit., p:30.

(٣) بغدادي أصيل، بغداد منذ نصف قرن، جريدة الشرق، ٣٠ تشرين الثاني ١٩٦٢م؛ J. F. Jones, op., cit., p:334-335: W. Harkis, op., cit., p:303: H, Valentine, op., cit., p:103.



سوق الشورجة من أقدم أسواق بغداد.

عليها، وتسهيل مهمة المشتري الذي يستطيع أن ينتقي مما يحتاج إليه من السلع في وقت قصير لتقارب المحلات التي تعرض البضائع المتشابهة، فضلاً عن ذلك لا يستطيع التاجر أن يرفع سعر سلعته خشية المنافسة لها من نوع السلع نفسها[١]. وإذا أردنا أن نصف أسواق بغداد فهي أجزاء من الشوارع العامة التي تميزت بامتدادها، وفقرها إلى التخطيط المنظم، وسقوفها إما تكون معقودة بالطابوق ذات الأطواق العالية المزينة، أو مرفوعة بالقبب على أعمدة حجرية قوية[٢]، ومسقفة بالجملون المتخذ من الخشب المغطى بالبواري والحصران، والقصب الممزوج بالطين الأحمر، وهناك أسواق مسقفة بأغصان الأشجار وسعف النخيل[٣]، أو بالقماش الخشن المشدود بحبال متعارضة تمتد من سقف لآخر[٤] أو مسقفة بالصفيح[٥]، وتكون هذه الأسواق صغيرة ذات معقودات قصيرة مثل أسواق الفضل وقمر الدين، ورأس القرية، والصدرية[٦]. واعتمد الرحالة نيجهولت سقوف الأسواق أساساً لتقسيمها إلى عامرة، وخربة فيقول: «**يفضي الميدان إلى الأسواق وهي مختلفة البنيان منها العامر، والخراب، ومنها القديم الذي يتميز بأعمدته المزينة بالنقوش، وأقواسه الضخمة المزينة. ومنها التي تكون من أروقة بسيطة ذات سقوف من الخشب،**

(١) خليل حسن الزركاني، الأسواق في بغداد، أبحاث الندوة التي أقامها مركز إحياء التراث العلمي جامعة بغداد، ٢٢-٢٤ نيسان ١٩٩٠م، ص١٣٠.

(٢) محمود شكري الألوسي، أخبار بغداد، ص١١٦؛ محمود شبيب، مشاهدات أسير إنكليزي في بغداد، مجلة آفاق عربية العدد ٦، شباط ١٩٧٦م، ص٣٦-٤١.
Muller, op.,cit., p:455: H. Valentine, op., cit., p:104.

(٣) W. Harkis, op., cit., p:303.

(٤) جيمس وليستد، المصدر السابق، ص٧٧؛ صدى بابل، العدد ٣٧، (جمادى الأول ١٣٣٢هـ/ ٢١ أيار ١٩١٢م).

(٥) محمد الهاشمي البغدادي، مصدر سابق، ص٣٧٩. لغة العرب، ج٢، (شعبان ١٣٣٠هـ/ آب ١٩١٢م)، ص٧٥.

(٦) فخري الزبيدي، المصدر السابق، ص٣٩.



الأسواق الشعبية وسط بغداد.

وسعف النخيل»[١]. وكانت الأسواق المسقوفة مزودة بفتحات كافية لتوفير الضياء الكافي بأقل حرارة ممكنة لضمان حركة الهواء داخل الأسواق[٢]، وقد بلغ عدد الأسواق (٧٧) سوقاً دليلاً على النشاط التجاري في بغداد[٣]. أما المحال (**الحوانيت**) فهي مكونة من غرف صغيرة لا تزيد مساحة الواحد منها على (٨) أقدام وتكون واجهتها مفتوحة، وترتفع أرصفتها (٣) أقدام عن مستوى الشارع[٤] وقد بلغ عددها في مطلع القرن العشرين (٣٢٤٤) وكان معها (١٠) مغازات و(١٠) شكرخانة[٥].

وكانت أسواق بغداد تغص على الدوام بمختلف الأصناف من البضائع والسلع المحلية والمستوردة من الهند، وكشمير، وبريطانيا من الأقمشة، والملابس، والأصباغ، والزينات التطريزية، والسيوف، والبنادق، والأحذية، والعطور، وغيرها[٦] **فوصفها أحد الرحالة بقوله: «تعكس هذه المحلات منظراً شبيهاً بقوس قزح»**[٧]، ويوجد في بغداد أسواق مكشوفة أو فضوات، مثل علاوي الحبوب، وسوق الغزل، وسوق الماشية، وسوق الموسلين، وسوق الميدان، وهو من أكبرها، وأزهاها. وتمثل هذه الأسواق مجالاً رحباً للنشاطات التجارية تباع فيه بعض أنواع السلع. وتتركز هذه الأسواق في جانب الكرخ **فوصفتها مدام ديولافوا: «سياحتي قد انتهت بزيارة الميادين**

---

(١) مير بصري، أطرف وأهم رحلة إلى العراق قبل (١٠٠) عام للرحالة نيجهولت، جريدة البلد، العدد ٨٠٧، ٢٠ كانون الثاني ١٩٦٧م.

(٢) جعفر الخياط، مشاهدات جون أشر في العراق، ص١٠٢.

(٣) د. عماد عبد السلام رؤوف، معالم بغداد العراقية، ص٢٢٥.

(٤) جيمس وليستد، المصدر السابق، ص٧٧-٧٨؛ H. V. Geere, op., cit., p:104.

(٥) سالنامة ولاية بغداد لسنة ١٣١١هـ، ص٥٧.

(٦) وليستد، المصدر السابق، ص٧٩؛ جيمس فريزر، المصدر السابق، ص٧٨؛ H. V. Geere, op., cit., p:103; Flandin, Voyage en perse 1840-1841, Tome 2, Paris, 1851, p:495.

(٧) جيمس فريزر، المصدر السابق، ص٧٨.

الواسعة التي تباع فيها الحبوب وفي اعتقادي ليس ثمة منظر أبهى وأجمل من تلك الميادين»[١] وهناك أسواق تفتح يوم الجمعة فقط متخصصة ببيع الأثاث والأدوات القديمة[٢].

فكانت الأسواق مراكز لتجمع فئات كثيرة من السكان فهناك كثير من الأمور التي ترتبط بالحياة الاجتماعية يكون مصدرها السوق لأن الأسواق أحد المراكز الحضرية في المدينة، فإنها في الغالب تؤثر في نفوس القادمين إليها من الأطراف فإما أن تغير قسماً من طبائعهم الاجتماعية أو إنها تشجعهم على الهجرة من الريف إلى المدينة[٣]. ولم تكن الأسواق العديدة المتباينة في تلك المدن مراكز اقتصادية فحسب بل إنها كانت أيضاً مراكز اجتماعية إذ اتصفت بتلاصق حوانيتها وأمام كل حانوت مكان يشبه المصطبة يجلس عليه التاجر ومن يتردد عليه من العملاء والأصدقاء فهي لذلك أيضاً مراكز إعلامية لنقل الأخبار.



أسواق بغداد.

(١) ديولافوا، رحلة مدام ديولافوا، ترجمة: مير بصري، بغداد، ١٩٥٨م، ص١٢٠.

(٢) محمد الهاشمي البغدادي، المصدر السابق، ص١٢٠.

(٣) طارق نافع الحمداني، المصدر السابق، ص٤٠.



الخانات

الخان(1) هو المكان الخاص بإقامة التجار وحفظ أمتعتهم وبضائعهم وتوفير السكن للمسافرين وحمايتهم، ومكان للبيع تجري به المزايدات والمضاربات والاتفاقات التجارية، إضافة إلى أنه مكان خاص بالمكاريه وإيواء اللاجئين وأبناء السبيل وحفظ الأموال وبناءً على هذا فإن وظيفة الخان تجارية وسكنية، ولما كانت بغداد مركزاً تجارياً فقد تميزت بكثرة أسواقها فارتبطت الخانات بوجود الأسواق التي تركزت بالقرب منها فصمم كل جزء من الخان لكي يؤدي وظيفة معينة لها علاقة بتسهيل مهمة التجارة ومن يقوم بها(2)، ويفهم من مذكرات بعض من اجتاز بغداد من الأوروبيين في أوقات مختلفة بأن جميع القوافل التجارية التي كانت تقصد المدينة عليها أولاً أن تفرغ حمولتها في أحد مراكز الكمرك(3) ليستوفي منها الرسوم المقررة وبعدها توزع على الخانات كل حسب البضائع المخصصة له لحين تصريفها أو إعادة تصديرها بواسطة السفن أو الجمال إلى المدن الأخرى.

لهذا نتوقع كثرة الخانات وازدحامها في أغلب أيام السنة لكثرة القوافل التي تتدفق إلى المدينة كل يوم وهي مثقلة بالبضائع فقد كان عددها (٣٢) خاناً كما ذكرها جونز سنة ١٨٤٢م(4) وأوصل بعض الباحثين عددها في نهاية القرن التاسع عشر إلى (١١٨) خاناً(5)، وقد ورد في سالنامة بغداد سنة ١٣١٦هـ بأن

---

(١) الخان: لفظة فارسية معربة التي تعطي معنى البيت أو الموضع، بطرس البستاني، محيط المحيط، مجلد ١، بيروت، ١٨٧٠م، ص٦٠٩.

(٢) طارق نافع الحمداني، المصدر السابق، ص١٦٣.

(٣) الكمرك، لفظة لاتينية (Commercrum) بمعنى الضريبة، عبد اللطيف بندر وآخرون، المعجم التركي العربي، بغداد، ١٩٨١م، ج٢، ص١٢٦.

(٤) J. F. Jones, op., cit., p:312.

(٥) محمد رؤوف الشيخلي، المصدر السابق، ص٦٣.

عددها (٢٠٨) خانات[١]، بعضها خاص بالمكارية وإيواء الدواب وبعضها الآخر كان في الأسواق يشغلها التجار، وبإلقاء نظرة سريعة على خارطة المركز التجاري لمدينة بغداد، وبشكل خاص سوقي باب الآغا والشورجة نلاحظ أنها عبارة عن كتل بنائية متجاورة تفصل بينها أزقة ضيقة توزعت على جانبيها حوانيت صغيرة، هذا التخطيط جاء متناسباً مع ازدحام المدينة التي



الخان البغدادي قديماً.

تميزت بتلاصق مبانيها وضيق دروبها الفرعية وافتقارها للفسح الخالية، ويعود هذا التخطيط إلى المدن الإسلامية[٢] الذي تطور ليصبح قاعدة يستند إليها النسيج الحضري لمراكز المدن التجارية.

(١) سالنامة ولاية بغداد لسنة ١٣١٦هـ، بغداد ولايتي جليلة سند مخصوص سالنامة دفعة ١٤، سنة قمرية ١٣١٦، سنة شمسية ١٣١٤-١٣١٥، بغداد مطبعة ولايتي مطبعة سند أولمنشدر، ص٢٧٣.

(٢) محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، الكويت، ١٩٨٨م، ص٢٥٧.

تتكون الخانات من بنايات مربعة أو مستطيلة الشكل تتألف من طابقين يتوسطها صحن مركزي مكشوف[١] باستثناء خان مرجان الذي يعرف باسم خان الأورتمة بمعنى الخان المسقوف، وتتوزع حول الصحن الوحدات البنائية، والسكنية، والخدمية في جهاتها الأربع من أجل تسهيل عملية دخول، وخروج البضائع إلى الأسواق المحيطة بها. وقد خصص الطابق الأرضي وساحته كمرابط للحيوانات، أو أماكن لحفظ السلع والبضائع، أما الطابق الثاني فيستخدم لأغراض السكن، ومبيت التجار[٢]، وكانت خانات بغداد تفتقر إلى الخدمات الضرورية بسبب خلو غرفها من الأثاث إذ غالباً ما كانت تفرش بحصر القصب للتعويض عن تلك المستلزمات، وبذلك يضطر النزيل إلى جلب فرشه، وما يحتاجه من لوازم تعينه على الإقامة معه[٣]، ومن البديهي أن يكون للخان نظام يفرض من قبل الإدارة التي يشرف عليها عادة القيّم (**الكَيم**)[٤] الذي تسميه بعض المصادر العربية بالخاني أو الخانجي والذي يكون مسؤولاً عن سلامة التجار، وحماية البضائع، وفي بعض الأحيان يكون مسؤولاً عن حفظ الأموال خاصة في الخانات التي توفرت فيها أماكن لإنجاز بعض أعمال الصيرفة حيث يودع التجار أموالهم لدى الكَيم، ولا يتقاضى أجراً على إدارته للخان سوى ما يتكرم به النازلون في الخان له وعلى أن تدفع له قيمة

(١) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٣٩٤؛ محمد رؤوف الشيخلي، المصدر السابق، ص٥٦، ديولافوا، المصدر السابق، ص١١٣.

(٢) هاشم خضر الجنابي، التركيب الداخلي لمدينة الموصل القديمة، دراسة في جغرافية المدن، الموصل، ١٩٨٢م، ص١٨.

(٣) Goknil, Living Architecture Ottoman, London, (1966), p:179.

(٤) الكيم: وجاءت هذه اللفظة كاسم وظيفة على بعض الآثار العربية بدلالات مختلفة وأن كانت متقاربة من حيث المعنى خاصة في المؤسسات العامة كالمساجد والمدارس والمشاهد، ويكون مسؤول عن الخدمة فيها والمحافظة عليها حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار القديمة، ج٢، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٨٩٨.

الاحتياجات[١] التي يجهزهم بها وغير ذلك مما يحتاجونه، وكانت أكثر الخانات تتركز في جانب الرصافة أما الكرخ فيحتوي على عدد قليل[٢] منها وقد شهدت هذه الحقبة الزمنية ازدياد عدد الخانات بسبب نشاط الحركة التجارية ولقد شيد الكثير من الخانات من أجل البرّ والتقوى أي وقفاً على المباني العامة الدينية، والمساجد والمدارس، والمشاهد، وغيرها، لذلك فتحبس غلتها لتصرف على ترميم وتوفير المستلزمات الضرورية لها، والصرف على القائمين بأمرها، كما يحبس بعضها على العلماء، أو الفقراء والأيتام، أو المساكين، أو العاجزين عن الحج وتجهيز العروسات لأزواجهن، ومن أهم خانات بغداد، خان الباشا الكبير، وخان حسن باشا، وخان بغال، وخان الزرور، **(الدوكَمة)** وخان جغان، وغيرها من الخانات الأخرى[٣].



خان الفلوجة سنة ١٩١٤م.

(١) وليس بدج، المصدر السابق، ص١٢٣.
(٢) محمود شكري الألوسي، أخبار بغداد، ص١١٦.
(٣) د. عماد عبد السلام رؤوف، معالم بغداد العمرانية، ٢٢٧-٢٥٢.

المقاهي

كانت المقاهي مركزاً للتفاعل يرتادها الناس من وجوه شتى، وأنحاء مختلفة لقضاء وقتهم بالأحاديث الشيقة، والفكاهات الممتعة، والنكات المسلية، والالتقاء بالمعارف، والأصدقاء لمعرفة أخبار بعضهم للبعض،



كهوة عزاوي.

ويتبادلون وجهات النظر في أمورهم الخاصة والعامة حيث يجلسون لشرب الشاي والقهوة، ويدخنون السكاير، والناركيلة، ويلعبون لعب (**الدومينو المسلية، والمنقلة، والطاولي**)[1].

وتحتوي أغلبية المقاهي على «**قصه خون**» أي القصاص الذي كان يتميز بمكانة مرموقة في المقاهي حيث يجلس في محل مرتفع، ويقص على الناس

(١) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص٥٨.

القصص والأساطير بصوت جهوري مصحوب بالإيماءات والإشارات لتصوير الموقف الذي يتحدث عنه، فيتفاعل الناس مع القصة التي يرويها[١]. ويوجد في بعض المقاهي عازف الربابة إلى جانب القصة خون الذي يعزف بغناء العتابا والنايلة الشائع آنذاك في بغداد[٢].

أما المقاهي التي تنشأ بالقرب من الأسواق فهي أماكن لتجمع التجار وأصحاب الحرف ولالتقاء ذوي الحاجة من الناس، تناقش فيها أمور التجارة، والبيع، والشراء، والعقود التجارية، وغيرها من أمور اقتصادية، مثل مقهى المميز، ومقهى العنبار، ومقهى الجيوقجية ومقهى الدنكَجية، ومقهى الشط، ومقهى القصرية، ومقهى الباشا، ومقهى موشي، في جانب الرصافة ومقهى البيروتي، في جانب الكرخ[٣].

وحاول أصحاب المقاهي إضفاء كل جديد على مقاهيهم لكسب أكبر عدد من الرواد ففي سنة ١٩٠٤م فعندما دخل جهاز الحاكي (**الفوتوغراف**) في بغداد سارع أصحاب المقاهي لاقتنائه فانتشرت عادة سماع الأغاني أو التراتيل الدينية داخل المقاهي، ثم دخل بعد ذلك جهاز آخر متطور هو (**الغرامافون**)[٤]، وقد بلغ التنافس بين المقاهي أن اختصت بعض المقاهي ببعض الخصائص المميزة لجذب الرواد، مثل مقهى العزاوي الذي انفرد بعرض لعبة (**قره قوز**) **أي** (**خيال الظل**)[٥]، ومقهى التبّانة الذي تميز بوجود ممثل هزلي «**الأخباري**» الذي يقوم

---

(١) المصدر السابق، ص٦٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٦٣.

(٣) رؤوف الشيخلي، المصدر السابق، ص٧٨؛ صفاء الحيدري، مجالس بغداد القديمة، السنة الثانية العدد ٢٠، أغسطس ١٩٥٨م، ص١٣٤-١٣٥؛ أمين الميز، بغداد كما عرفتها، بغداد، ١٩٨٥م، ص١٠٢.

(٤) علي الوردي، المصدر السابق، ج٧، ص٢٥٧.

(٥) محمد رؤوف الشيخلي، المصدر السابق، ص١٠٤؛ عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص٨٧.

بتمثيليات هزلية مما يؤدي إلى جمهرة المتفرجين ليلاً، واستعراض سباق عراك الديكة في المقهى فيحتشد الناس حولها عند المبارزة، فتعلو الهتافات للديك الذي يفوز بهذا المضمار(١).

واختصت المقاهي بالطبقة الراقية من المجتمع لما تميزت به من تنظيم، وترتيب مثل مقهى كل وزير الذي تميز بأسلوبه الرائع في معاملة الزبائن، وتقديم الشُرب، والشاي ومقهى القرائخانة الذي تميز بترتيب مقاعده وباستطاعة رواده قراءة الجرائد التي تصدر في بغداد فضلاً عن الجرائد التركية لما يتميز به من هدوء، ومقهى الشط الذي يعتبر منتدى أدبياً أكثر منه مقهى تجرى فيه المناظرات الشعرية، والأدبية لما يرتاده من الشعراء، والأدباء، والعلماء، وهناك مقاهٍ ظهرت في ضواحي المدينة، وأصبحت متنزهات لتوفير الراحة لمرتاديها، ومن المقاهي ما تميزت بغرابتها لما يرتادها من رواد، وهي قهوة القلعة التي تضم هواة الطيور وجماعة كبيرة من الخرس، والبكم، وفيها زاوية تضم جماعة من هواة مناطحة الأكباش وزاوية أخرى تضم هواة مصارعة الديكة، فتضم المقهى جمعاً هائلاً من كل صنف من الناس وكل صنف يكلم بعضه بما اعتاد من الإشارة أو الكلام.

وهناك من المقاهي ما تميزت بغرابتها، ولطافتها في نفس الوقت مثل قهوة البلابل التي كان زوارها من صنف هواة البلابل، ولا يخرج حديثهم عن دائرة الكلام بالدواجن خاصة البلابل، وأنواعها، وطرق تربيتها، والتفاخر بأنواع البلابل التي حفظوا أنسابها، وقد يؤدي التفاخر إلى التنازع فيما بينهم(٢).

ازداد عدد المقاهي خلال هذه الحقبة ففي حين قدّرها جونز سنة ١٨٤٦م

---

(١) الشيخلي، المصدر السابق، ص١٠٣؛ عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص٦٢.

(٢) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٣٩٠-٤٩١.



مقاهي بغداد.



وللنرجيلة مكانتها في مقاهي بغداد.

حوالي (٩٦) مقهى في جانب الرصافة فقط[١]، نلاحظ أن عددها تجاوز الـ(٢١٠) مقهى كما ورد في سالنامة بغداد ١٣١٦هـ[٢]، وهذا هو عدد المقاهي المشهورة فقط أما واقع الحال فكان عددها أكبر من ذلك[٣].

وبعدما عرف البغداديون الشاي ظهرت أماكن شبيهة بالمقاهي لكنها أقل سعة عرفت (**بالچاي خانة**) تقدم الشاي إضافة إلى تقديم القهوة لذلك وجدت في كل محلة من محلات بغداد يجلس فيها أبناء المحلة الواحدة في مختلف الاختصاصات، والأصناف بعد صلاة العشاء مدّة ساعة أو ساعتين وبصورة عامة يزداد رواد المقاهي والچايخانات في الشتاء لأن الناس تفضل المقاهي القريبة من ضفاف نهر دجلة في فصل الصيف[٤].



مقهى بغدادي سنة ١٩١٦م.

(١) J. F. Jone, Jon, op., cit., p:312.

(٢) بغداد ولايتي جليلة سند مخصوص سالنامة دفعه ١٤، سنة قمرية ١٣١٦، سنة شمسية ١٣١٤-١٣١٥، بغداد ولايتي مطبعة، سند النشدر، ص٢٧٣.

(٣) لمزيد من المعلومات، انظر: د. عماد عبد السلام رؤوف، معالم بغداد العمرانية، ص٢٨٦.

(٤) بغدادي أصيل، بغداد منذ نصف قرن، الشرق، العدد ٦٥٠، ٣٠ تشرين الثاني ١٩٦٢م؛

H. V. Geere, op., cit., p:111.

الحمامات

لقد اكتسب الحمام بُعداً اجتماعياً من خلال تطوره إلى مؤسسة اجتماعية تؤدي وظيفة صحية، ودينية، فلا تخلو محلة من المحلات من وجود حمام، أو أكثر في بعض الأحيان لأن هناك ترابط وثيق بين الحمام، والمسجد، احتوت بغداد على عدد من الحمامات العامة والخاصة التي كان عددها (٣٨) حماماً



حمامات الرجال.

وهي عبارة عن دهاليز تؤدي إلى ساحة كبيرة يتوسطها حوض، على جوانبها دكّات يجلس عليها الرواد لينزعوا ملابسهم، ثم يدخلوا إلى ساحة أخرى، ومنها إلى الساحة الكبيرة حيث يوجد حوض كبير وعميق، **وللحمامات كرخان**[١] يستعمل لغرض تسخين الماء في الشتاء، ولكل حمام بئر، وعليه

---

(١) كرخان: كلمة فارسية معناها محل الجمر والرماد يستخدم فيها فضلات كوقود لها =

كَرد يجره بغل لجلب الماء من البئر، وسكبه في مخزن الحمام الكبير[(١)]، وتبنى الحمامات بالآجر والقار وتكسى أرضها بالنورة المجلولة بالرمال[(٢)]، وتميزت الحمامات بظلامها على الرغم من وجود فتحات مغطاة بالزجاج تعرف بـ**(عرقجين سماية)**[(٣)] فضلاً عن قناديل الشيرج **(زيت السمسم)** لأجل إنارة الحمام توضع في المحل الذي يزداد ظلاماً بكثافة بخار الماء.

يتألف العاملون في الحمام من صاحبه الذي يجلس عند الباب لأخذ الأجرة، وعامل، ومدلكين[(٤)]، وقد اهتم الناس كثيراً بالحمامات لأن الإسلام أولى الطهارة قسماً من عنايته[(٥)] كما أن نشأة الحمامات العامة جاء نتيجة لعدم توفر الماء في المساكن بصورة كافية إضافة إلى استعمالها بمثابة إجراء طبي للعلاج[(٦)].

عندما يدخل الشخص للاغتسال[(٧)]، وبعدما يدخل المنزع يأتي إليه عامل خاص يفرش له أزاراً على الدّكة ويعطيه أزاراً آخر ليتزر به، بعد أن يخلع

= وبعد تجمع الرماد الأسود المتراكم في الطمة يستخرج وينقل بواسطة الحمير ليباع ليستخدم في البناء بعد خلطه مع النورة، عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج١، بغداد، ١٩٦٦م، ص٩٧.

(١) بغدادي أصيل، من تقاليد أهل بغداد وعاداتهم، الشرق، العدد ٦٥٠، ٦ كانون الأول ١٩٦٢م.

(٢) مير بصري، أطرف وأهم رحلة إلى العراق للرحالة نيجهولت، جريدة البلد، العدد ٨٠٧، كانون الثاني ١٩٦٧م.

(٣) عرفت بهذا الاسم لأن عقادة سقف الحمام على شكل نصف دائرة مغطاة بالزجاج تشبه العرقجين، عزيز الحجية، بغداديات، ج١، ص٩٤.

(٤) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص٧١.

(٥) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٣٩٨.

(٦) طارق نافع الحمداني، المصدر السابق، ص٤٢.

(٧) يحمل الرجل معه بقجه تحتوي على المناشف التي يستخدمها أثناء الغسل والليفة والصابونة والملابس النظيفة، عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج١، ص٩٣.

ملابسه يأتيه بقبقاب فيدخل فناءً أصغر من الأول يسمى **(ما بين)** مرتب على شكل غرف صغيرة، ثم يدخل الحمام، وبعد أن يغتسل يترك الساحة الكبيرة إلى الساحة الوسطانية، وهنا يصفّق ليأتي إليه العامل بإزارين أحدهما يتزر به، والآخر يضعه على كتفه، ثم يجلس في مكانه ليقول له صاحب الحمام **(نعيماً)**، ثم تتوالى عليه كلمة نعيماً من الجالسين جنبه، وأمامه، وهنا يأتي



حمامات النساء.

العامل بإناء فيه ماء يصب على قدميه، وقدح فيه ماء يشربه، ويجلس قليلاً لينعش نفسه بشرب قدح من الدارسين[(١)]. ولا تختلف حمامات النساء عن ذلك ما عدا بقاءهن في الحمامات طوال اليوم المخصص لاستحمامهن[(٢)]،

(١) عزيز جاسم الحجية، المصدر السابق، ج١، ص٧٦.

(٢) يجلب النساء معهن أدوات استحمامهن، المفرش المطرز لفرشه على تخت الحمام للجلوس عليه بعد الاستحمام والبقجة وفيها زوج مناشف شامية والجتايات وقبقاب مكسو بالفضة وركية الحمام الفضية أو النحاسية وهي كروية الشكل تفتح من وسطها =

وبصورة عامة في الحمام يستخدم الحنة، والوسمة، لصبغ الشعر لكلا الجنسين، وتعتبر حمامات بغداد مراكز تجمع الناس في المناسبات الدينية، والاجتماعية فوجدت الحمامات الخاصة بالنساء، وأخرى بالرجال، وبعضها خصص يوماً للنساء ويوماً للرجال.

وفي بعض الأحيان تؤجر الحمامات للشخصيات فلا يدخل فيه، كل واحد ما دام هو فيه وتؤجر في الأعراس للرجال، وللنساء، وفي ولادة النساء، وختان الأطفال(١)، **ومن أشهر الحمامات حمام ينج علي، وحمام شامي، وحمام سوق الجديد، وحمام الباشا، وحمام الحيدر خانة(٢).**

= بقسمين متساويين يكون في القسم الأعلى منها عروة ماسكة لحملها ولها كلاب لإحكام غلقها عند الحمل منقوش نقشاً بديعاً يوضع داخلها مشط الخشب وحجر وكيس وليفة وعدد من قوالب صابون الرقي أبو الهيل ومما تريد وضعه لشعرها من الحنة والوسمة والديرم لتنظيف اسنانها عزيز جاسم الحجية، المصدر السابق، ج١، ص١٨-١٩.

(١) بغدادي أصيل، من تقاليد أهل بغداد وعاداتهم، الشرق، العدد ٦٥٠، ٦ كانون الأول ١٩٦٢م.

(٢) محمد الشيخلي، المصدر السابق، ص٦٥، د. عماد عبد السلام رؤوف، معالم بغداد العمرانية، ص٢٦٠.

الفصل الثاني

التركيب الاجتماعي لمدينة بغداد

وفئاتها الاجتماعية

كان المجتمع البغدادي بفئاته الاجتماعية المتباينة، وطاقاته البشرية المتنوعة الحجر الأساس لمدينة بغداد.

وسنتناول في هذا الفصل دراسة التركيب الاجتماعي في بغداد خلال هذه الحقبة التاريخية وبما أن المدينة تتبع في تطورها، ونموها مساراً مستقلاً في أكثر مظاهرها الحضارية عن مدن العراق الأخرى، لهذا نجد سماتها الاجتماعية المتميزة قد تشكلت حسب مراحل تطورها وظروفها الخاصة.

وأوضاع المدينة في هذه الحقبة مليئة بالتناقضات، ففي الوقت الذي نجدها مدينة الأموات سنة ١٨٣١م بسبب وباء الطاعون الفتاك الذي ظهر فيها، والفيضان الجارف، والمجاعة المؤلمة، نراها تعود بعد حين لتستفيق من جديد، وتبدأ مسيرة جديدة، وتستقطب أنواعاً عديدة من مظاهر العمران، وتمتد أطرافها باتجاهات شتى، فتولد مدينة آهلة بالسكان مكتظة بالعمران، تعمل بدورها على إعادة صياغة ذلك المكان الذي ما ينفك يخضع لتفاعلات، ومؤثرات جديدة لعل من أبرزها التنظيمات الجديدة، والنهضة الفكرية الحديثة، والتطورات الاقتصادية على أثر فتح قناة السويس، والإبداعات العلمية المتسارعة في مجالات المواصلات وغيرها. وكان التحديث على النمط الأوروبي قد أخذ طريقه إلى بغداد وذلك بفعل الولاة الذين يحملون أفكاراً تحررية لاحتكاكهم مع الغرب مثل رشيد باشا

الكوزلكي ونامق باشا ومن ثم المصلح مدحت باشا الذي وضع بغداد من خلال ما أدخله من إصلاحات على أعتاب مراحل تطورها. وكان السبب الثاني من خلال الممثليات التجارية والدبلوماسية ورجال الأعمال فأنشئت عدد من الأبنية على الطراز الحديث للسفارات الأمريكية، والألمانية، والإنكليزية، والروسية في القسم الجنوبي من جانب الرصافة[1]، إلى جانب إدخال نظام الاتصال



الرصافة.

الجديد، والبدء بإنشاء سكة حديد في الجانب الغربي، وإقامة المشاريع الصناعية، وبداية نشر الوعي القومي.

لقد كان من نتائج تلك العوامل مجتمعة أن شهدت بغداد تقدماً ملموساً في أكثر المجالات أفضل بكثير مما كان يحدث في القرون السابقة. وأثرت هذه

(١) لمزيد من المعلومات، انظر: خالص الأشعب، مدينة بغداد ونموها وبنيتها وتخطيطها، بغداد، ١٩٨٢م.

التطورات الحضارية المفاجئة على البنية الاجتماعية(١) بشتى شرائحها وفئاتها. ذلك أن مسيرة أي مجتمع لا تعرف الانقطاع فهي مسيرة متصلة متفاعلة يرتبط ماضيها بحاضرها، وبمستقبلها، واتصال مسيرة الزمن لا تعني تكرار أحداثه على نحو رتيب فكل فترة زمنية من حياة المجتمع هي نتيجة التفاعل بين ما ورثه من أوضاع، وبين ما يراه على حياته، ومسيرته من جديد في كل المجالات(٢).

لقد كان لتركز جميع الأنشطة، والفعاليات في بغداد أثر في استقطاب أجناس مختلفة من البشر مما كان له أثر بارز في تركيب المجتمع، وتنوع سكانه، وكان لذلك دور بارز في تكوّن ملامح بنيوية معقّدة بعض الشيء لكنها في الأخير تذوب في وحدة المجتمع البغدادي ذي الأصالة العربية الإسلامية، وقد تعودت عاصمة الخلافة العباسية منذ نشأتها على احتضان أجناس مختلفة من اللغات والأديان ولكنها سرعان ما كانت تتناثر وتتلاشى في فضاء بغداد العربي المتسامح(٣).... وكثير من الرحالة الذين زاروا بغداد أظهروا تعجبهم من هذا الخليط المتمازج. **يقول جيمس فيلكس: «تحتوي على خليط من السكان وليس هناك في العالم كله مزيج من عناصر البشر المقدرة فيها كما هو الحال فيها، ولا يمكن أن يسمع في مدينة أخرى ما سمع فيها من تعدد اللغات»(٤) ويذكر جون أشر: «أن السكان الذين صادفهم في الأسواق كانوا من**

(١) التطور لا يعني مجرد عمليات تراكمية بسيطة وإنما يشمل النمو والركود والتدهور وذلك حسب طبيعة العلاقات والتفاعل بين العنصرين البشري والطبيعي. كلايد كلكهون، الإنسان في المرآة، ترجمة: مصطفى شاكر سايم، بغداد، ١٩٦٤م، ص١٢١.

(٢) هند فتال عسكري، تاريخ المجتمع العراقي الحديث والمعاصر، مصر، ١٩٨٨م، ص٧١-٧٢.

(٣) حسين علي محفوظ، صورة بغداد في التراث، بحث لأمانة العاصمة بمناسبة انعقاد الدورة التاسعة للمجلس الإداري لمنظمة العواصم والمدن الإسلامية في بغداد، بغداد، ١٩٨٦م، ص٩.

(٤) J. F.Jones, op., cit., p:334.

عدة أجناس فقد كان هناك العربي، والتركي، والإيراني، والكرملي، والمسيحي، وحتى الإيطاليين»[١]. وسكن بغداد أقوام مختلفة من العرب، والترك، والكرد، والعجم، والقفقاس، والألبان، والإنكليز، والألمان، والهنود، والأفغان، هذا من حيث القومية، أما الأديان في بغداد فلم تكن أقل تنوعاً واختلافاً فهناك الإسلام، والمسيحية، واليهود، والسيخ.

وقد ظلت بغداد تستقبل المهاجرين من مختلف القوميات طول هذه الحقبة فمثلاً في سنة ١٩١٢م ورد خبر في مجلة لغة العرب مفاده قدوم جماعة من المهاجرين الروس المسلمين إلى بغداد للاستقرار فيها يتجاوز عددهم (١٥٠) شخصاً[٢]، ويمكن أن تفسر هذه الظاهرة بأن بغداد كانت على الدوام مدينة ذات صفة عالمية تتجاوز بيئتها المحدودة، وهذه العناصر والثقافات والحضارات كانت سرعان ما تنصهر في بوتقة بغداد الاجتماعية مكونة ملامح الشخصية البغدادية بسماتها المعروفة. وقد انعكس مجمل ذلك على ملامح الحياة الاجتماعية في المدينة وعلى النشاطات السكانية، والاقتصادية فيها، لأن المجتمع عانى من ظروف أوجدها تنوع المحيط، والمصلحة المذهبية والمادية، وضآلة التمازج الاجتماعي.

ولقد شهدت هذه المرحلة تزايد أعداد القبائل العربية المهاجرة إلى بغداد فكانت مصدر تعويض للمدينة عن نقص السكان الحاصل بسبب الكوارث التي ألمت بها[٣] على رأي أحد الباحثين، ففي الوقت الذي نجد فيه مجتمعاً

---

(١) جون أشر، مشاهدات جون أشر في العراق، ترجمة: جعفر الخياط، مجلة سومر، عدد ٢١، سنة ١٩٦٥م، ص١٠٢.

(٢) مجلة لغة العرب، ج٥، ذي القعدة/ ذي الحجة ١٣٣٠هـ/ تشرين الثاني ١٩١٢م، ص٢١٠.

(٣) حنا بطاطو، العراق: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، ترجمة: عفيف الرزاز، الكتاب الأول، مؤسسة الأبحاث العربية، ب.ت، ص٣٣.

متحضراً نجده في الوقت نفسه مجتمعاً متأثراً بالتركيب القبلي، وعلى الرغم من أن المهاجرين من العشائر كانوا ما إن يصلون إلى المدينة حتى يبدأوا بالتفاعل الطبيعي والتدريجي مع التأثيرات الحضارية ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن السكن في بغداد أو ممارسة نشاط مهني فيها أن الشخص قد اكتسب السمة البغدادية، فأصبح بغدادياً أصيلاً تهمه مصلحة المدينة، ويعمل وفقاً لسياقاتها الحضارية قدر ما يعني أن شخصاً ما قد تبغدد مظهرياً ولا زال دون استحداث عناصر البغددة بالكامل(١). وصار أهل المدينة تحت وطأة تباينات متناقضة بعضها تدفعهم نحو التمسك بالقيم البدوية التي ورثوها عن آبائهم والأخرى تدفعهم نحو التمسك بالقيم الحضارية التي بدأت تنتشر بينهم شيئاً فشيئاً(٢). وقد استوطنت هذه القبائل محلات غير تلك التي استوطنتها العناصر غير العربية فقسمت بغداد إلى محلات اعتمدت بالدرجة الأولى على أسس عنصرية أملاها التباين الاجتماعي والاقتصادي، والديني لهذه العناصر المختلفة(٣)، إذ استوطن الأتراك الأحياء الشمالية من المدينة، وانتشر اليهود في المنطقة التي تقع إلى الشمال من سوق الغزل والمسيح إلى غربه بينما توزع العرب والعجم في المحلات الباقية وفي جانب الكرخ(٤).

وقد كان لهذا الاختلاف انعكاس على أنماط سلوكيات أفراد المحلات الاجتماعية، وعلى اللهجة المحلية الخاصة، بل على الأمثال التي يتداولها الناس، والمفردات اللفظية التي تميز أحاديث سكان كل محلة من المحلات

---

(١) يعلق كلكهون على ذلك بقوله «تنتشر بعض العناصر الحضارية أسرع من غيرها بشكل غريب، فالأدوات المادية عموماً أسرع في انتشارها من الأفكار، وتتطلب الأفكار في انتشارها تغيرات أقوى في القيم الموجودة في المجتمع المستعير». كلكهون، المصدر السابق، ص١٠٤.

(٢) علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، بغداد، ١٩٦٥م، ص٢٦٠.

(٣) حنا بطاطو، المصدر السابق، ص٣٦.

(٤) حسن الخياط، الأقاليم الوظيفية، ص٢٥٦؛ J. F. Jones, op., cit., p:339.

الأخرى، وفي مجموعة من التعابير التي يمكن إدراكها بسهولة لمن يترعرع في واحدة من محلات المدينة[1]. مما يعني أن لكل محلة سماتها الاجتماعية المستمدة من طبيعة الأصول التي انحدرت منها. إلّا أن هذه المحلات بمجموعها، كانت تشكل تفاعلاً تساهم فيه تلك الأصول، من شأنه أن يكون وحدة اجتماعية متناسقة، وعلى الرغم من أن معظم تلك المحلات كانت مسوّرة بسور له أبواب تغلق ليلاً إلّا أن ذلك لم يمنع من قيام تعاون بناء بين سكان المحلات المذكورة، تعاون تجاوز التكتلات العنصرية، والقبلية، والمذهبية، فانعكس ذلك على التمازج بين السكان نتيجة الاستقرار المكاني الذي ألغى كثيراً من صور الانغلاق، والتقوقع وخصوصاً بين السكان المسلمين في أوائل القرن العشرين، وتضاءلت حالات التنافس نسبياً وتوسع مفهوم المحلة من معناه التقليدي الضيق القائم على أسس دينية، أو عشائرية، أو عنصرية إلى مفهوم أوسع استمد دعائمه من أسس مكانية تؤطرها مخاطر بيئية متشابهة، وابتداع عرف عام موحد لحماية المحلة الكبيرة يقوم على التعاون والتكاتف بدل الصراع، والتنافس دون أن تضحي المحلات أو الأطراف التقليدية بأعرافها ونواميسها الخاصة احتراماً لذلك العرف العام الذي صار يحمي الجميع فقد أدرك الجميع أنهم سواسية أمام الأخطار. **فنشأت أعراف، وعلاقات اجتماعية جديدة، وتحول الاعتزاز تدريجياً من اعتزاز بالمحلة التقليدية كونها تمثل مذهباً دينياً، أو تكتلاً عنصرياً، أو انتساباً دموياً، إلى الاعتزاز بالمحلة الكبرى كونها تمثل انتماءً مصيرياً مشتركاً دون أن يضمحل تأثير المحلة التقليدي على الفرد، أو الجماعة اضمحلالاً تاماً، وصار مقبولاً من الناحية الاجتماعية أن تتعاون المحلات المتجاورة فيما بينها دون أن تنسى انتماءاتها المذهبية، أو العشائرية، وصار مقبولاً أن تتعامل العوائل تعاملاً مباشراً دون أن يثير ذلك**

---

(١) علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع، ص١٧٨؛ رزوق عيسى، نظرة عامة في لغة بغداد العامية، مجلة لغة العرب، ج٢، (شعبان ١٣٢٩هـ/ آب ١٩١١م)، ص٦٩.

أسباب الصراع أو الاختلاف المذهبي مما يعني أن تلك المشاعر أصبحت أقل حدّة من ذي قبل[(١)].

ورغم تعددية مجتمع بغداد بأديانه، ومذاهبه، وأجناسه، نجد الوئام، والانسجام بين مختلف عناصر المجتمع، لقد أكّد عدد من الرحالة هذه الوحدة الاجتماعية منهم بدج عندما قال: «لا يحدث بينهم ما يعكر صفو الحياة والسلامة»[(٢)]، مما يعني أن سكان بغداد كانوا أكثر حلماً في طباعهم، ولم يحدث ما يعكر صفو هذا النظام والسكينة في البلاد، فهي كما قلنا سابقاً بوتقة انصهرت فيها جميع عناصر المجتمع، وسرعان ما اندمجت العناصر الجديدة داخل المجتمع مع العناصر القديمة مكونة منهم المجتمع البغدادي[(٣)]. ولكن مع هذا لم تكن طبيعة الحياة الاجتماعية، ولا نسَقية البناء الاجتماعي في ذلك المجتمع متوافقة مع متطلبات التطور، فالتطور يستلزم اتجاهات اجتماعية جديدة وقيماً وظيفية تساندها سلسلة كبيرة من التغيرات في العلاقات الاجتماعية والأنماط السلوكية في كل المؤسسات البنيوية الاقتصادية، والسياسية، والدينية، والعائلية للمجتمع.

لقد سيطرت على النظم السياسية والدينية في المدينة حالة من الجمود والاستقرار مكتسبة استقرارها في الغالب من جمود التقاليد الاجتماعية، وكانت قرارات الحكومة تتأثر بالاعتبارات الدينية، والتقاليد الأسرية التي تحكم الطوق على الحياة الاجتماعية، وتعتبر العادات، والأعراف الاجتماعية أكثر أهمية من القانون المكتوب في تنظيم علاقات الأفراد والجماعات[(٤)]. وكان على

---

(١) علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع، ص١٨٣.

(٢) وليس بدج، المصدر السابق، ص٧٢.

(٣) يقول ابن خلدون: «الإنسان ابن عوائده مألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه فالذي ألفه في الأحوال حتى صار خلقاً وملكه تنزل منزلة الطبيعة». ابن خلدون، المقدمة، ص١٢٥.

(٤) كلارك كير، الصناعة وأثرها في المجتمعات والأفراد، ترجمة: برهان دجاني، بيروت، ١٩٦٢م، ص١١٦.

المؤسسة العائلية مثلاً أن تتغير وتتخلى عن كثير من وظائفها الاقتصادية، والتربوية، والتعليمية إلى مؤسسات أخرى لم تكن مستعدة تمام الاستعداد لتأدية تلك الوظائف على النحو الذي كانت تقوم به العائلة، بل إن تناقص فعل الضبط الاجتماعي الذي كانت تمارسه العائلة على الأفراد قد سبب الكثير من المشكلات الاجتماعية، والأخلاقية فتغيرت الكثير من القيم، والمفاهيم الأخلاقية، التي كانت تعتمد بشكل من الأشكال على القيم العائلية الممتدة من القيم الدينية، فضعف الاتجاه نحو الدين، وتعاليمه، وضعفت الروابط غير الرسمية، وقل تأثيرها على الفرد، واستبدلت بضوابط رسمية كما ظهرت حالات من المفاسد مثل شرب الخمور، والرشوة، وغيرها من أعمال سلبية مؤثرة في المجتمع، ويبقى السؤال الأهم من ذلك كله كيف يمكن أن نستثمر كل تلك المعطيات عملياً في بناء نموذج اجتماعي لمدينة بغداد؟

لتحقيق بناء نموذجي دقيق من مكونات المجتمع البغدادي، يجب أن ندرسه على أساس البنية الفئوية ثم على أساس البنية الدينية، مع العلم أن البنية الفئوية، في بداية الحقبة التي ندرسها لم تتسم بالاستقرار من ناحية المبدأ نتيجة لعدد من العوامل، فقد كانت هناك حركات سريعة نسبياً لدخول الفئات والخروج منها[١]، فالكوارث التي تعرضت لها المدينة والتطورات الاقتصادية المفاجئة أدت إلى زيادة الأموال، وتضاعف عدد السكان، وكانت هناك تحولات مفاجئة جرت داخل هذه الفئات صعوداً، ونزولاً، ولم تكن هذه التحركات والتحولات تطال الأفراد والعائلات فحسب بل إنها كانت تطال مجموعات اجتماعية بكاملها مثل القضاء على المماليك، فبرزت عناصر جديدة للحكم، وتحولت العلاقات التجارية من محلية إلى ارتباطات بالسوق العالمية، مما أدى إلى ظهور فئة جديدة من التجار، واتساع مجال نشاطهم فشمل جوانب الحياة الاجتماعية، والثقافية إضافة إلى نشاط الإداريين ورجال

---

(١) حنا بطاطو، المصدر السابق، ص٢٢.

الدين وأن بعض العناصر الفئوية كانت تتقدم في ناحية، وتتراجع في ناحية أخرى، إضافة إلى ميل بعض المجموعات المنتمية إلى فئات معينة إلى أن تعيش في محلات خاصة بهم لانتماءات دينية وعرقية.

وبناءً على ما تقدم يمكن أن نقسم المجتمع البغدادي إلى فئتين اجتماعيتين فقط هما: الفئة العليا، التي لا تشكل إلّا نسبة قليلة من المجتمع وتضم الحكام والإداريين وعلماء الدين والوجهاء، والتجار والمتعلمين، إذ كانت هناك علاقة متينة ربطت بين التجار وجماعة علماء الدين التي شكلت فئة مستفيدة دعمت نظام الحكم وعملت على تبرير شرعيته وخاصة أن التشريعات القانونية والفقهية تنطلق منها وقد شغلوا أوضاعاً ومراكز اجتماعية في المؤسسات الحكومية والدينية والتعليمية مما ساهم في ترابط مصالح المؤسسة السياسية والدينية في ظهور تنظيم مؤسسة إدارية تشبه الإقطاع **(الإقطاع الإداري). والفئة الثانية عامة الناس والعاملين.**

وقبل الخوض في غمار الفئات الاجتماعية يجب إعطاء صورة تقريبية عن تزايد أعداد السكان، على الرغم من أن أول المشكلات التي تواجه كل من يتصدى لدراسة مدينة بغداد هي بسبب عدم توفر الإحصاءات السكانية الدقيقة، التي يمكن الاعتماد عليها ويصح ذلك على فترة موضوع البحث، حيث إن معظم الأرقام التي سوف نستعرضها عن سكان بغداد يعكس تباينها الكبير عدم دقتها في إعطاء صورة حقيقية، لأنها لا تعتمد الطرق الإحصائية العلمية في تسجيل السكان، وإنما اعتمدت على تخمينات الرحّالة الأجانب، أو التقديرات البريطانية في تقاريرها التجارية، فمثلاً الرحالة جيري خمن عدد سكان بغداد سنة ١٨٧٨م بـ(٨٠) ألف نسمة[١]، في الوقت الذي حدد لوشر عدد سكان بغداد سنة ١٨٨٩م بـ(٦٠) ألف نسمة[٢]، وفي سنة ١٨٩٢م يذكر

---

(١) G. Gears, Through Asiatic Turkey, London, 1878, p:130.

(٢) A. Locher, Shor and Crescent, Aetna Puthshing Co, 1889, p:139.

كوينيه أن عدد سكان بغداد يبلغ (١٤٥) ألف[١]، ويحدد هاركس عدد سكان بغداد سنة ١٨٩٥م بـ(١٠٠) ألف نسمة تقريباً[٢]، بينما يحدده كوبرا يحدده بين (٨٠-١٠٠) ألف نسمة تقريباً في السنة نفسها[٣].

وحتى التقديرات المستمدة من إحصاء السكان الذي أجرته الحكومة العثمانية في عهد مدحت باشا ونشر في جريدة الزوراء فقد اعتمد على التخمين ولا يمكن الاعتماد عليه، ففي الوقت الذي تبين أن عدد سكان بغداد الذكور فقط قد بلغ (٦٣,٢٧٣) ألف نسمة[٤]، نجد السالمانة العثمانية في عددها الصادر سنة (١٢٩٢هـ-١٨٧٥م) تبيّن أن عدد سكان بغداد قد بلغ (٢٨) ألف نسمة[٥]، وفي عددها الصادر سنة (١٣٠٩هـ-١٨٩١م) تذكر أن سكان بغداد قد بلغ (٦١,٠٧٣) ألف نسمة[٦]، وفي عددها الصادر سنة (١٣١٣هـ-١٨٩٥م) تبيّن أن عدد سكان بغداد بلغ (٦٨,٤٦٧) ألف نسمة[٧]، وفي عددها الصادر سنة (١٣٢٣هـ-١٩٠٥م) تذكر أن عدد سكان بغداد بلغ (٧٩,١٥٢) ألف نسمة[٨] مع العلم أن شيحا يقدر عدد سكان بغداد في السنة ذاتها بـ(١٥٠) ألف نسمة[٩]، وفي الإحصاء الذي أجراه ناظم باشا سنة ١٩١٠م قدر عدد سكان بغداد من الذكور فقط (٦٧,٣٦٣)[١٠]، مما جعلنا نشك في

---

(١) V. Ceninet, Laturanie Dasie, 3ed Tome, Paris, 1894, p:89.

(٢) W. B. Harkis, From Batum To Bagdad, Viatifins, London, 1895, p:299.

(٣) H. Swainson Cowper, Through Turkish Arab, London, 18, p:268.

(٤) جريدة الزوراء، العدد ٩، ٢ جمادى الأول ١٢٨١هـ.

(٥) سالنامة الدولة العثمانية، دفعة ١، ١٢٩٢هـ، ص١٢٩.

(٦) سالنامة بغداد، لسنة ١٣٠٩هـ، ص٢١٤.

(٧) سالنامة بغداد ولاية جليلة، دفعة ١٢، سنة ١٣١٣هـ، ص٣٢٠.

(٨) سالنامة بغداد، لسنة ١٣٢٣هـ، دفعة ١٩، ص١٩٠.

(٩) Habib Chiha, Province de Bagdad, neguib mtri-guerre, 1908, p:98.

(١٠) لغة العرب، ج١١، السنة الثالثة، (جمادى الثانية ١٣٣٢هـ/ أيار ١٩١٤م)، ص٦١٦.

صحة الإحصاءات الواردة في هذه السالنامات من زيادة إلى نقص في عدد السكان أو زيادة غير طبيعية.

ورد في بعض المجلات المصرية تقدير لعدد سكان بغداد، فقدرت مجلة المقتطف سكان بغداد بـ(٦٠) ألف نسمة سنة ١٨٨٠م[1]، وفي مجلة الهلال قدّر سكان بغداد سنة ١٨٩٢م بـ(١٤٩,٩٤١) ألف نسمة[2]، وأخيراً ورد إحصاء لنفوس بغداد في جريدة العرب في نهاية الحقبة التي نحن بصدد دراستها يعتمد على أساس المحلات إذ يستمد نفوسه من دفاتر المختارين المخصص لتوزيع الأطعمة فقدر عددهم بـ(١٥١,٤٨٤) ألف نسمة[3].

وقد حاول عدد من الباحثين استخدام الطرق الحسابية لإعطاء صورة منطقية لعدد السكان، استناداً إلى دراسة الخرائط المتوفرة فاعتمدت طريقة احتساب مساحة الرقعة المبنية لمدينة بغداد لكلا الجانبين والبالغة في جانب الرصافة (٢,٥٢٢,٥٠٠م^{2}) وفي جانب الكرخ (١,٨٤٠,٠٠٠م^{2}) ويطرح منها مجموع فضاءات الأزقة والشوارع.. والمساحات العامة والأبنية المندثرة، وقد بلغت في جانب الرصافة (٦٨,٩٪) وفي جانب الكرخ (٢٢,٩٪) تلي هذه الخطوة تقسيم المساحة المتبقية التي تمثل استعمال الوظيفة السكنية على مجموع الدور البالغة (١٨,٤٠٧)، والتي بلغت في الرصافة (١,٨٤١,٤٢٥) وفي الكرخ (٦١٣,٢٠٠) مما يجعل مساحة الدار حوالي (١٤٥,١م^{2}) وهي مساحة مقاربة لمساحة الدار في المدينة التقليدية، وبعد الطرح ظهر أن عدد الدور في جانب الرصافة بلغ (١٢,٦٨٢) وفي جانب الكرخ (٤٢١٥) فيضرب

---

(١) داود أفندي صليوة، بغداد، مجلة المقتطف، ج٥، تشرين الأول ١٨٨٠م، السنة الخامسة، ص١٤٩.

(٢) محمد أفندي درويش، بغداد وحالتها الحاضرة، مجلة الهلال، العدد الأول، سنة ١٨٩٣م، ص٥١١.

(٣) جريدة العرب، إحصاء لنفوس بغداد لسنة ١٩١٧م، العدد ١١٥، ١٣ كانون الأول ١٩١٧م.

كلاً من الرقمين بـ(٧,١٤) وهو معدل ساكني الدار الواحدة في مدينة بغداد فيظهر أن عدد سكان بغداد في جانب الرصافة قد بلغ (٩٠,٥٤٩) نسمة وفي جانب الكرخ (٣٠,٢٩٥) نسمة وهذا يعني أنه قد بلغ عدد سكان بغداد (١٢٠,٦٤٤) نسمة.

ولإيجاد حجم سكان المدينة لأي سنة ما بين (١٨٦٩-١٩١٧م) يتم استخدام القانون الرياضي الآتي:

ج = م (١+ع٠,٠)^{ن}.

ج = حجم السكان في سنة ن.

م = حجم السكان في السنة الأساس.

ن = عدد السنوات.

ع = معدل النمو السنوي.

ويتم استخراج معدل نمو السكان السنوي باتباع قانون معدل النمو الذي قدر بـ(٠,٠٠٨)، ثم يتبع الخطوات التالية لمعرفة سكان المدينة لسنة ١٩١٥م على سبيل المثال.

ج = ١٢٠,٦٤٤ (١+٠,٠٠٨)^{٤٦}.

ع = ١٧٤,٠٦٧ نسمة عدد السكان لسنة ١٩١٥م.

وبهذه الطريقة يمكن إعطاء أعداد منطقية لزيادة السكان بالرغم من اعتمادها أيضاً على تخمين المساحة المبنية، وعدد الدور، ولكنها توضح الزيادة بطرق عملية حسابية[(١)].

نستدل من هذا على صعوبة الحصول على رقم دقيق لعدد السكان في تلك الحقبة وذلك بسب الاعتماد على إحصاءات قائمة على التخمين، وبسبب

(١) عبد الإله ناصر الوائلي، الوظيفة التعليمية للجانب الغربي لمدينة بغداد الكبرى «دراسة في جغرافية المدن»، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، ١٩٨١م، ص٢٠-٢٣.

امتناع الناس عن إعطاء معلومات دقيقة خوفاً من التجنيد أو فرض ضرائب جديدة، إضافة إلى ممانعة أغلبية المجتمع من تسجيل نسائهم باعتبارها مخالفة للتقاليد والأعراف الاجتماعية.

ومع هذا توضح لنا هذه التخمينات زيادة في أعداد السكان فبعد أن كان عدد سكان بغداد لا يتجاوز (٢٠) ألف نسمة سنة ١٨٣١م ارتفع إلى (٤٠) ألف نسمة سنة ١٨٤٠م[١]، وإلى (٦٠) ألف نسمة سنة ١٨٥٣م[٢] وصل سنة ١٩١٧م إلى (١٨٥) ألف نسمة[٣]، مما يوضح لنا ارتفاع معدلات النمو السكاني بسبب تعرض المدينة لتوافد عدد من المهاجرين، وإلى التطورات التقنية الحديثة التي شهدتها بغداد، وإلى تحسن الواقع الصحي، وتقدم الرعاية الطبية وغيرها من أسباب حضارية أخرى.

• الفئات الاجتماعية:

١ الفئة العليا:

ضمت هذه الفئة كبار الموظفين والعسكريين الذين سوغت لهم مراكزهم السياسية وأوضاعهم المادية السكن في بغداد[٤]، يضاف إليهم علماء الدين المرتبطين بالفئة الأولى والذين يرون في السلطان حماية الإسلام، ورفع راية الجهاد، والتجار، والحرفيين الذين تعتبرهم الحكومة العثمانية القوة القادرة على نشر الأمن[٥] اللازم لنجاح أعمالهم، ولم تشكل هذه الفئة سوى نسبة قليلة

---

(١) The Rew. Southgate, Narrative of Atoup Thronit, Armenia, Kurdistan, Persia and Mesopotamia, New York, 1840, p:186.

(٢) J. F. Jones, op., cit., p:339.

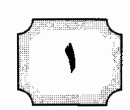
(٣) ريجارد كوك، بغداد مدينة السلام، ترجمة: مصطفى جواد وفؤاد جميل، ج٢، بغداد، ١٩٦٧م، ص٢٠٤.

(٤) ستيفن همسلي لونكريك، العراق الحديث من سنة (١٩٠٠-١٩٥٠م)، ترجمة: سليم طه التكريتي، ج١، بغداد، ١٩٨٨م، ص٣٣.

(٥) عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية =

من المجتمع ذكر منهم عبد الرحمن حلمي (٦٦) أسرة[(١)]، مع العلم أن فيلكس جونز يحدد عدد أسر المجتمع البغدادي عامة بـ(١٥) ألف تقريباً سنة ١٨٤٢م[(٢)]، وهي نسبة ضئيلة إذا ما قورنت بالنسبة لعامة المجتمع. وتركزت منطقة سكن هذه الفئة على العموم في مركز المدينة حيث تتوفر الخدمات المختلفة وشروط الأمن، والقرب من مراكز القيادة والتنظيمات الحكومية والدينية والتعليمية، فكان السكن في مركز المدينة يكسب قيمة اجتماعية ويدلل على المكانة العالية للأسرة.

ورغم أن هذه الفئة تمتلك صفات مشتركة في العديد من النواحي، إلّا أنها تألفت من عناصر متباينة في العرق والدين، وما تحمله من بصمات الحياة الاجتماعية من أشكال مختلفة. ولهذا سوف ندرس كل شريحة على حدة لكي يتسنى لنا معرفتها على نحو دقيق وتفصيل أكثر.



الفئة المتنفذة

تتكون من فئة حاكمة منعزلة عن بقية أجزاء المجتمع، ومتميزة عنه بامتيازاتها ونفوذها، وترتبط بالمجتمع بعلاقات هامشية، وسطحية في أغلب الأحوال بقصد الولاء للدولة ولنظامها وللشريعة.

تتألف من عوائل ترجع في أصولها إلى قوميات **تركية، أو ألبانية، أو قفقاسية كالجركس، واللاظ، والكرج، والداغستان**، وغيرهم من المماليك الذين أتوا بهم من بلاد قفقاسية، للتجنيد في القوات العسكرية وخدمة

= حكم مدحت باشا، القاهرة، ١٩٦٨م، ص١١.

(١) عبد الرحمن حلمي العباس السهروردي، تاريخ بيوتات بغداد في القرن الثالث عشر للهجرة، تحقيق: الدكتور عماد عبد السلام رؤوف، بغداد، ١٩٩٦م، ص١٥.

(٢) F. J. Jones, op., cit., p:339.

الولاة، إذ كانوا يأتون بهم وهم أطفال صغار ويدخلونهم مدارس خاصة أُنشئت في مباني سراي بغداد لتعليمهم القراءة، والكتابة، وركوب الخيل، والفنون الحربية، وتلقينهم دروساً دينية لإتقان الدين الإسلامي، وعلومه(١). فيصبح ولاؤهم للولاة والحكومة، مكونين قوة غريبة عن المجتمع مسيطرة على مراكز اتخاذ القرار السياسي وبمرور الزمن اندمجوا مع الفئات العليا من المجتمع عن طريق المصاهرة مع أسر عريقة لها مكانتها في المدينة، مما كان لهذا أثر كبير فيما بعد، لأنه بعد القضاء على قوة المماليك من قبل قوات السلطان بقيادة علي باشا رضا سنة ١٨٣١م. استطاع عدد من مماليك بغداد من الإفلات، وهو أمر لم يكن ليتحقق لولا الصلات الوثيقة التي تمت بين المماليك، وبين عدد كبير من البيوتات البغدادية لأن تصفيتهم جميعاً لم تكن سهلة ولأن ذلك سيطال أسراً مهمة عديدة لها نفوذ، وهو ما يمكن أن يشكل خطراً على الوضع الجديد(٢). بل إن الوالي علي باشا اعتمد على بعضهم في الحكم لمعرفتهم بشؤون الإدارة في المدينة، مثل محمد أسعد النائب وأحمد آغا الذي عينه في منصب الكتخذا(٣)، وبقاء العديد من نساء وأولاد المماليك، فلهذا نجد أن العديد من العائلات الإدارية ترجع أصولها إلى المماليك، مثل **آل النائب، والأورفلي، وآل الروزنامجي، وآل عارف آغا، وآل الجيبة جي، والكولة، والمميز، والتاتار من الأسرة المملوكية**(٤) وكثير من

(١) سليمان فائق، تاريخ المماليك الكولة مند في بغداد، ترجمة: محمد نجيب أرمنازي، بغداد، ١٩٦٦م، ص٤٥.

(٢) لمزيد من المعلومات، انظر: د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية في العراق/ (١٧٤٩-١٨٣١م)، أطروحة دكتوراه، الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٥م، ص١١٥.

(٣) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص١٧-٢٣.

(٤) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق ص٧٠-١١٩-١٣٢-٢١١؛ عبد الرحمن حلمي السهروردي، المصدر السابق، ص٤٠.

الأسر الإدارية المستقرة في بغداد سواء تركية أم البانية أم داغستانية وغيرها كان لها معرفة بشؤون المدينة أكثر من الولاة الدائمي التغيير مما أكسبهم مكانة اجتماعية كبيرة، إضافة إلى اتساع ممتلكاتهم التي تشمل العقارات والملكيات الزراعية داخل وخارج بغداد.

يقف على رأس هذه المسؤولية الوالي، وهو المسؤول الأول عن ضمان الاستقرار والأمن في المدينة، الذي يتم تعيينه من قبل الباب العالي بموجب فرمان سلطاني لتمثيل السلطان في الولاية، وتبعاً لسياسة الحكومة المركزية في عدم إبقاء الباشوات في مناصبهم مدة طويلة خوفاً من انفرادهم بالسلطة والتمرد عليهم[١] مما يكون مصدر تهديد لهم، وقد تصدّر للحكم في بغداد خلال هذه المرحلة من (١٨٣٠ حتى سنة ١٩١٧م) (٥١) والياً، كان بينهم (٨) ولاة تراوحت مدّة ولايتهم بين سنتين و(٨) سنوات، أما البقية فقد انحصرت ولايتهم بين بضعة أشهر وسنة واحدة فقط[٢]، مما يعني أن ولاة بغداد كانوا من عناصر مختلفة فبعضهم تركي الأصل أو ألباني أو غير ذلك، ومن أنماطٍ مختلفة من الرجال، فوجد بينهم الإداري والضابط العسكري، والقاضي، والفقيه، والطاعن في السن، والجاهل الذي لا يعرف كتابة اسمه، مما يعني اختلافاً في مميزاتهم، وصفاتهم. ففي الوقت الذي اتصف قسم منهم بالنزاهة كان بعضهم مرتشياً ووجد إلى جانب الزاهد والمتدين والمتصوف المشكك النشط والغيور على المصالح العامة والنظامي الصارم، والخامل، وضعيف الشخصية، وعرف قسم منهم الاهتمام بالأدب والثقافة العالية، والقسم الآخر اتجه إلى الخمر، وإقامة حفلات الرقص، والغناء[٣]، مما كان لهذا التغيير المستمر أثر سيئ على الإدارة في بغداد لأنه يحول دون القيام بأعمال إصلاحية، أو التعرف على أحوال المدينة،

---

(١) Habib Chiha, op., cit., p:57-59-63.

(٢) احتسبت بموجب المواد الواردة في د. عماد عبد السلام رؤوف، الأسر الحاكمة ورجال الإدارة والقضاء في العراق في القرون المتأخرة، بغداد، ١٩٩٢م، ص٨٢-٨٣-٨٤.

(٣) علي ظريف الأعظمي، مختصر تاريخ بغداد، بغداد، ١٩٢٦م، ص٢١٨؛ ستيفن =

وأهاليها. فما أن يكون الوالي الجديد قد تعرف على أحوال الولاية، وفكر، أو شرع ببعض الأعمال، والإصلاحات حتى تقوم الدولة بعزله[1] ورغم هذا التغيير إلّا أن هناك أكثر من صفة مشتركة تجمع بين ولاة بغداد، وتجعلهم يظهرون بخصائص متشابهة، فتميز معظم الولاة بالغطرسة، والقسوة، والتعصب لقوميتهم، وجمع الأموال من مصادر مختلفة، وبأي طريقة كانت، وما يتبع هذه الطرق من قسوة، وظلم إضافة إلى امتلاك العقارات، وأخذ الرشوة[2]، **وكثيراً ما انتقد الشعراء، والمثقفون هذه الحالة فكتب أبو الثناء الألوسي منتقِداً سياسة الحكام العثمانيين قائلاً**: «فلا تستغربوا علو سافل وارتفاع دنيء جاهل في أخلاق الزمان ملول وللباطل جولة ونزول»[3]، **وفي السياق نفسه علّق إبراهيم الطباطبائي قائلاً: «بلد بها يرتشي علانية والمرتشي هو حاكم البلد»**[4].

= لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر الخياط، بيروت، ١٩٤٢م، ص٣٦١؛ إبراهيم الوائلي، الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر، بغداد، ١٩٧٨م، ص١٧٩-١٨٠؛ بير دي فوصيل، الحياة في العراق منذ قرن (١٨١٤-١٩١٤م)، ترجمة: أكرم فاضل، بغداد، ١٩٦٨م، ص٩٠؛ ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج٤، قسم الترجمة في قطر، دوحة، ب.ت، ص٢٢٢٣؛

Friedrich Rosen, Oriental Memories of a German Diplomatist, London, 1930, p:203; J. A. Saldanha, Precis of Turkish Arabia Affairs, Part 1, p:41; A. Blunt, Bedouin Tribes of The Euphrates, Vol, 1, p:203; Gerrah Geary, op., cit., p:35.

(١) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص١٨٠؛ سليمان فائق، تاريخ المماليك، ص١٧٠؛

Habib Chiha, op., cit., p:58-59.

(٢) أنستاس الكرملي، خلاصة تاريخ العراق منذ نشوئه إلى يومنا هذا، البصرة، ١٩١٩م، ص٢٠٦-٢٠٧؛ سليمان فائق، تاريخ بغداد، ترجمة: موسى كاظم نورس، بغداد، ١٩٦٢م، ص١٦٩-١٧٠.

(٣) أبو الثناء الألوسي، مقامات ابن الألوسي، كربلاء، ١٢٧٣هـ، ص١٥.

(٤) إبراهيم الطباطبائي، ديوان الطباطبائي، صيدا، ١٣٣٢هـ، ص٩٧.

ونلمس مثل ذلك في كتابات عبد الغني الجميل، وعبد الغفار الأخرس، وغيرهم فكان معظم الولاة يعدّون بغداد منطقة نائية بعيدة عن مركز الحكم، وأنهم غرباء على لغتها وثقافتها، فلهذا كانوا يعتبرون تولي الولاية فيها بمثابة عقوبة موجهة لهم، ولخلق ظروف تلائم مطامعهم، ووضعهم الشاذ يبدأون بجمع الأموال[١]، وإرسالها إلى الجهات العليا لإرضائهم، والحصول على عطفهم، كما أن توقع النقل، أو الفصل منها عاجلاً، أم آجلاً يدفعهم إلى تكديس الأموال بخزانتهم للاستفادة منها مستقبلاً في تأمين متطلباتهم، وإرضاء رغباتهم في الحصول على مناصب أفضل، **ويذكر القنصل الفرنسي في بغداد دي فامير سنة ١٨٤٦م أمثلة على فساد الولاة بقوله:** «يسافر غداً إلى الآستانة أحد أنجال الوالي وهو يحمل في جعبته مبالغ ضخمة من النقود مخصصة لغرض كسب الأنصار إلى جانب والده الذي يخشى تدقيق تصرفاته القبيحة»[٢].

ويعلق أحد الباحثين على ارتشاء الولاة بوصفه الوالي رشيد باشا الكوزلكي فيقول: «كان رشيد باشا منصرفاً إلى تحصيل الدراهم وفكره مشغول بتدبير الحيل التي يسلب بها أموال العباد»[٣].

وقد اختلفت مهام الوالي الإدارية طول هذه الحقبة، والتي كانت تتحدد، وتتقلص من قبل الحكومة المركزية، ففي بداية الحقبة شملت مهامه الإشراف، والسيطرة على جميع الدوائر الرسمية بما فيها الدوائر العسكرية، والقضائية، والمالية. وتعيين الموظفين لها، فهو الممثل المحلي لكل إدارة العاصمة التي لها دوائر فرعية في بغداد، وله تطبيق الأنظمة، والقوانين وإقامة الدولة، وفرض الضرائب، وعلى عاتقه تقع إشاعة النظام، واستتباب الأمن، وعلى كاهله يرتكز عبء تنفيذ الأشغال العامة، وإدارة الأعمال

---

(١) A. Locher, op., cit., p:149.

(٢) بير دي فوصيل، المصدر السابق، ص٧٨.

(٣) عبد الكريم غرايبة، مقدمة في تاريخ العرب، بيروت، ١٩٨٤م، ص١٩٨.

الحكومية، والتعامل مع قناصل الدول الأجنبية، وشيوخ العشائر، ورؤساء الأقليات الدينية[١]، كما أنيطت به قيادة الفيلق السادس بعد إنشائه في بعض الأحيان[٢].

وفي أوائل الخمسينات من القرن التاسع عشر قامت الحكومة المركزية بتقليص صلاحيات الباشا تدريجياً عن طريق إصدار القوانين التي تنظم، وتحدد مهام مختلف الإدارة الحكومية، وإناطتها بموظفين مختصين، وتأسيس مجلس إدارة الإيالة للإسهام بعلاج المشاكل الإدارية الحكومية، ومراقبة أعمال الولاة[٣]. وقد حُددت صلاحيات الولاة أكثر بعد صدور نظام إدارة الولايات العمومية الصادرة سنة ١٨٧١م، فأُخضعت بعض الدوائر المختصة والنظارات التي يتبعها في العاصمة لإشراف وإدارة الوالي، ومن تلك الدوائر المختصّة التعليم، والصحة، والجمارك، والطابو، والأوقاف، والمحاكم، حيث كانت هذه الدوائر تتلقّى معظم الأوامر، والتعليمات من دوائرها المركزية في العاصمة، على أن الوالي كان له الحق في التحقيق في الشكاوى التي تقدم ضد أي دائرة من دوائر الدولة سواء تلك التي تحت إدارته وإشرافه المباشر، أم التي كانت تشاركه في إدارتها، والإشراف عليها دوائر الحكومة المركزية[٤]، وفي سنة ١٨٨٥م حددت صلاحيات الوالي على الدوائر المالية فأصدرت التعليمات التي تقضي بحصر شؤون الولاية المالية بـ(**الدفتردار**)[٥].

---

(١) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديثة، ترجمة: عفيفة البستاني، موسكو، ١٩٧١م، ص١٧١؛ محمد أنيس، «الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤-١٩١٤م»، القاهرة، ص٢١٤.

(٢) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص٨٩-١٢٦-١٣٣.

(٣) ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج٤، ص٢١٥.

(٤) انظر: جميل موسى النجار، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد، (١٨٦٩-١٩١٧م)، القاهرة، ١٩٩١م، ص١٦٣-١٦٤-١٧٥.

(٥) المصدر نفسه، ص١٧٨.

وفي العهد الدستوري قُلصت سلطات ولاة بغداد، فصار الوالي يطلب موافقة العاصمة على إجراء بعض الأعمال العامة الصغيرة، واستمر هذا حتى سنة ١٩١٣م عندما صدر قانون الولايات الذي لم يطبق في بغداد إلّا بشكل جزئي، وفي بعض جوانبه دون بعضها الآخر، فزاد هذا القانون من صلاحيات الوالي، واعتبره وكيلاً وممثلاً لكل نظارة حيث تقوم كل نظارة من نظارات الحكومة المركزية بإبلاغه بالأنظمة، والقوانين الخاصة بها ليقوم رؤساء دوائرها في الولاية بمراجعته للاطلاع عليها، وتنفيذ ما يؤمَر به الوالي بشأن تطبيقها، وأن جميع دوائر الولاية، وشعبها هي تحت تفتيش، ونظارة الوالي، وأوجب هذا القانون على قيادة فيالق الجيش الانقياد التام لأمر الولاة[١].

وكان باشوات بغداد يلتزمون مناصبهم ببدل مقطوع يُدفع للحكومة المركزية، فآخر ملتزمي الخطة البغدادية نجيب باشا الذي التزم منصبه ببدل قدره (٥٠) ألف كيس، أي أنهم كانوا يدفعون سنوياً مبلغاً مقطوعاً للدولة بهذا المقدار مقابل احتفاظهم بمناصبهم، ممّا كان سبباً في تفشي الرشوة على المستويات كافة. فأصدرت الحكومة المركزية قراراً لتحديد الرواتب للولاة سنة ١٨٣٩م، إلّا أن هذا الإجراء لم يطبق في بغداد إلّا في الخمسينات، فبلغ راتب الولاة خلال هذا العقد (٢٠) ألف قرش شهرياً[٢]، عدا المخصّصات الإضافية. ارتفع في العقد التالي ليصل إلى (٥٠) ألف قرش شهرياً[٣] وإلى (١٢٠) ألف قرش في الثمانينات إلى (١٣٠) ألف قرش في أوائل القرن العشرين[٤]. وبما أن تطبيق هذا الإجراء هو للحد من الرشوة، ولكن نجد أن

(١) المصدر السابق، ص١٧٢.

(٢) يعقوب سركيس، مباحث عراقية، القسم الأول، بغداد، ١٩٤٨م، ص٨٣؛ سعاد هادي العمري، المصدر السابق، ص١٠٥.

(٣) Habib Chiha, op., cit., p:159.

(٤) ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج٣، ص١٠٤٤؛ عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص٥٠-١٥٣.

مصطفى باشا قد عزل بسبب ارتشائه كهيته[١] وعاكف باشا استطاع جمع ما يقارب (٥٠) ألف جنيه عدا المجوهرات وهو رقم واضح المبالغة، لكنه يدل على كثرة ما استحصله من أموال، وأنواع أخرى من الثروة المتعددة خلال الثمانية أشهر مدة حكمه في بغداد[٢]، فرغم أن المستوى المعاشي في بغداد لا يحتاج إلّا إلى مبالغ قليلة للعيش فيها كانت الرواتب المخصّصة للولاة مرتفعة، **وقد ذكر أحد الرحّالة بقوله: «استطيع العيش هنا بمقدار ضئيل جداً»**[٣]، لكن جشع الولاة، وحبهم للأموال كان يدفعهم لجمع الأموال بمختلف وشتى الوسائل، والطرق. فبغداد كانت **(البقرة الحلوب)** لجميع الولاة تجمع الأموال منها ولكنها لم تُطور أو تُحسّن أوضاعها بقدر ما يؤخذ منها، لقد كانت الولاية فرصة مناسبة للاستمتاع بمختلف وسائل اللّهو، وممارسة جميع أسباب تحقيق المنفعة حتى ولو اقتضى ذلك خرق مبادئ الشريعة الإسلامية، والاعتداء على الحرمات، وحقوق المجتمع الذي تضمن الكثير من معاني الإساءة، **فكانت حياة الولاة بصورة عامة متميزة بالترف، والحياة الناعمة**[٤]، ومن الطبيعي جداً أن يعتادوا صرف وإنفاق الأموال التي لا يجتهد في الحصول عليها غير الصنّاع، والحرفيين، وسواهم من العامة المرهقين بالضرائب وسياط الولاة والجباة، ولم يشغلوا أنفسهم، أو يجهدوها بمشاكل المجتمع، واعتمدوا على بعض الشخصيات التي وصلت إلى المراكز العليا في الحكم نتيجة لما كانوا يقدمونه من أسباب المتعة غير

---

(١) جعفر الخياط، صورة من تاريخ العراق في العصور المظلمة، ج١، بغداد، ١٩٧١م، ص٣٤٠.

(٢) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص٣٤؛

Ann, Blunt, Bedouin Tribes of the Euphrates, vol.1, 1968, p:203.

(٣) The Han. William N. Bruce, with, SIR. A. Henry Layard, in two Volumes-vol.11. London, 1903, p:9.

(٤) William Loftus, Travels and Researches, London, 1857, p:11; G. Geary, op., cit., p:251.

البريئة في الإدارة لإرضاء رغبة الولاة، فلهذا كان الولاة يأخذون بآرائهم في كل صغيرة وكبيرة.

وعلى الرغم ممّا تميزت به هذه الشخصيات من ظلم، وتعسُّف وجور للناس في بغداد مثل عبد القادر الكَمركَي، والملّا علي الخصي لم يكن يهم الولاة ما عليه هذه الشخصيات من مميزات سيئة، سوى ما توفر لهم من أموال[١]. ولم يكن للولاة أي علاقة بالمجتمع، فاقتصرت على أعيان المدينة والشخصيات البارزة مما خلق حاجزاً بينه وبين المجتمع أو كان الوالي يقضي معظم وقته في السراي، إذ يجلس في غرفة استقبال مغطاة سقوفها، وجدرانها بمنحوتات خشبية مذهبة، ومزينة بالستائر، والسجاد الثمين، لإدارة شؤون الولاية مرتدياً الزي الرسمي للجنرال التركي بشكل دائم يحيط به عدد من **أعضاء البلاط، والجنود، والخدم، والعبيد**[٢]. أما أسرته أو حريم الباشا فيسكنون في منزل خاص في السراي، يحتوي على عدد قليل من الشبابيك المحجوبة بعناية، ويتم حراسة البوابة من قبل الحرس فيما يتولى العبيد والمخصيون والجواري من ذوي البشرة البيضاء، أو السوداء حراسة باب المنزل، والخدمة، والسيدات وجواريهن يخضعن لمراقبة الخدم، ولا يسمح لهن بالخروج سوى مرة، أو مرتين أسبوعياً، ولا يستمر ذلك أكثر من ساعة، أو ساعتين مع الحرص الشديد على حجابهن، وحراستهن بمجموعة كبيرة من الجواري، والعبيد الذين يرافقوهن باستمرار، ولا يسمح لهن بالخروج لأي عذر ما لم يرافقهن العبيد، وكانت النساء يتمتعن **بسعادة، ورفاهية، وترف،** وحتى خدمهن يعيشون حياة مريحة جداً، إذ ليس لهم واجبات سوى تلبيس سيداتهم، والغناء، والرقص، والضحك معهن، وسرد قصص الحب،

---

(١) جعفر الخياط، المصدر السابق، ص٥٨.

(٢) جيمس وليستد، المصدر السابق، ص٦٨؛

W. Fogg, op., cit., p:222; A. Locher, op., cit,, 149;

جيمس بيلي فريزر، المصدر السابق، ص١٣٨.

والحكايات الشعبية، وتربية الأطفال في الوقت الذي تتمتع فيه سيداتهن براحة على الأرائك الحديدية، متسليات **بجواهرهن أو يدخن النارجيلة**(١).

وهناك حدائق مخصصة لأسرة الوالي تقع بين باب المعظم، والضفة اليسرى لدجلة، فتمتلئ هذه الحدائق بأجمل الأزهار، والفواكه ويوجد في مدخلها منزل صيفي، أو رواق فيزور أفراد حريم الباشا الحدائق باستمرار، ولا يسمح لأي شخص آخر الدخول في هذه الحدائق، أثناء وجودهن، ويشكل الجزء النسائي من بيت الباشا في مناسبات كهذه موكباً مثيراً للفضول.



حدائق بغداد.

ويوجد لدى الولاة ضمن السراي إصطبل يحتوي على أجود أنواع الخيول(٢)، ويتظاهر الولاة بالطابع الديني السليم، الذي اجتهدوا في تأكيده من أجل خدمة هدفهم في الحكم، وفي كل يوم جمعة يخرج الوالي لأداء صلاة

(١) Locher, op., cit, p:148.

(٢) W. Fogg, op., cit., p:220; A. Locher, op., cit., p:180.

الجمعة في موكب كبير، تتألف مقدمته من الفرسان، وكبار الموظفين، يأتي بعده الوالي راكباً حصانه، فيتلوه الكَهية ثم الإمام، وعدد كبير من رجال الدين، وجميع الناس يقفون، ويترجل من كان راكباً عند مرور موكب الوالي[١]. ويأتي بعد الوالي في الأهمية كبار رجال الموظفين، وهم الكهية، أو الكتخدا[٢] الذي يساعد الوالي **(ووصف بأنه أمين لماله وعضو في عائلته)** أكثر من كونه من هيئة موظفيه الرسميين، وألغي هذا المنصب للفترة (من ١٨٨٠ حتى سنة ١٩٠٧م) إذ أعيد منصب معاون الوالي[٣]. ويأتي بعد الوالي الدفتردار وهو بمثابة وزير المالية يقوم بالإشراف على جميع الشؤون المالية، وقد مُنح سلطات واسعة بموجب قرار نظارتي الداخلية والمالية سنة ١٨٨٥م، وحدّ من إشراف الوالي وهيمنته عليه[٤]، ثم يأتي بعده مكتوبجي المسؤول عن جميع المكاتبات الرسمية، التي تجريها الولاية مع جميع الجهات[٥]، ومثل هؤلاء أركان الولاية إذ كانت لهم عضوية دائمة في مجلس إدارة الولاية[٦]، يأتي بعدهم في الأهمية رؤساء الدوائر الحكومية التي استحدث معظمها في عهد مدحت باشا، حيث شهد عهده عملية تأسيس، الدوائر الرسمية، وأجهزة الإدارة الحكومية، فاتخذت مجرى جذرياً، وعملياً، وطبقت التنظيمات والأنظمة بهمّة، وعزم فكانت قاعدة صلبة وأساساً قوياً لصرح

---

(١) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٢، بغداد ١٩٧١م، ص١٩٣.

(٢) عبد العزيز سلمان نوار، تاريخ العراق، ص٦٣؛ ستيفن لونكريك، أربعة قرون، ص٣٤٧.

(٣) جريدة الزوراء، العدد ٢٥٨، ٢٣ ربيع الآخر ١٢٨٩هـ؛ عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص١٥٥؛

Habib Chiha, op., cit., p:65.

(٤) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص٢٧٠-٢٧١.

(٥) سالنامات ولاية بغداد لسنة ١٢٩٢هـ، ص٤٩، ولسنة١٣٠٠هـ، ص٨٢-٨٥.

(٦) سالنامات ولاية بغداد لسنة ١٢٩٢هـ، ص١٤٢، ولسنة ١٣٢٥هـ، ص٧٨.

الإدارة الحكومية وكيانها[١]، وبما أن بغداد هي المركز الإداري في الولاية، تمركزت فيها معظم المؤسسات، والدوائر الحكومية، وأجهزتها، وهناك بعض الدوائر واللجان لا توجد إلّا في بغداد فقط، مثل دائرة قلم المكتوبجي، ولجنة سجل أحوال المأمورين[٢].

ولتطبيق المنهج الجديد في تحديث الجهاز الإداري، وتنفيذ المهام الموكلة إليه[٣]، كان لا بد من الاعتماد على عناصر واعية لتحقيق الأهداف الاعتيادية في الأقل، وهي النظام والتقدم، والمنفعة العامة، فظهرت مجموعة من الموظفين الأتراك الذين عرفوا بالأفندية، لارتدائهم الملابس الأوروبية مع ارتداء الطربوش فوق الرأس، وهو من مظاهر العصر الجديد، لكنهم لم يكونوا بالمستوى المطلوب لقيادة عملية الإدارة، فكانوا على مستوى محدود من العلم والثقافة، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها مدحت باشا لرفع مستوى كفاءتهم وتعليمهم، إلّا أنهم ظلوا ضعيفي الإدراك مستبدين بآرائهم، وكانوا غارقين في المجاملات الرسمية، ويصرون على التكلم باللغة التركية[٤]. ولا يتعاملون مع الناس إلّا بمقياس طبقتهم ويحتقرونهم، فكانوا بعيدين كل البعد عن روح الخدمة العامة، وعندما يجالسون الناس يتحدثون بالمصطلحات العلمية الحديثة، التي لا يفهمون عنها شيئاً، وباعتقادهم أن هذا يرفع من شأنهم، وقيمهم الاجتماعية، ولا يختلفون عن سابقيهم من الموظفين في فسادهم الإداري وأخذ الرشوة[٥].

---

(١) جميل موسى النجار، المصدر السابق، ص٨٤.

(٢) سالنامات ولاية بغداد لسنوات ١٣٠٢، ١٣١٤، ١٣١٩هـ.

(٣) ز. ي. هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، ترجمة: مصطفى الحسيني، بيروت، ١٩٧٣م، ص٤٩.

(٤) جورج كيرك، موجز تاريخ الشرق الأوسط من ظهور الإسلام حتى الوقت الحاضر، ترجمة: عمر الإسكندري، مراجعة سليم حسن، القاهرة، ١٩٥٧م، ص١٦٣.

(٥) ستيفن لونكريك، العراق الحديث، ج١، ص٦٨؛ علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، بغداد؛ ١٩٧٢م، ص٦-٧.

وبما أن التشكيلات الإدارية الجديدة، بحاجة إلى قوة عسكرية لتطبيقها، ولتكون ظهيراً أساسياً للإدارة المدنية الحكومية في الولاية، وشريكاً لها في أعمالها وواجباتها، فعندما أجرت الدولة العثمانية تعديلاً على فيالق جيشها النظامي سنة ١٨٤٨م تقرر إضافة فيلق جديد على أن تكون بغداد مقراً له، ويكون له قائد عام أعلى برتبة مشير، وأركان حرب، وأمراء، وقواد لوحداته المختلفة، وعدد كبير من الضباط والمراتب والجنود[١]، وكثيراً ما عين قادة الفيلق كولاة لإدارة الولاية، أو كولاة بالوكالة في بعض الأوقات التي يشغر فيها منصب الوالي، وكان معظم ضباط الفيلق من الغرباء عن البلاد ينتسبون إلى شتى الأمم والقوميات التي تألفت منها الدولة العثمانية، ووجد منهم من غير المسلمين وخاصة الأطباء والصيادلة والأطباء البيطريين[٢] وقد اتصف معظمهم بقلة الكفاءة، والفساد، وعدم الأمانة، فكانوا يأخذون الرشوة لإعفاء وتأجيل المكلفين بالتجنيد وبخاصة أبناء الأسر الموسرة منهم، من أداء الخدمة العسكرية وإنقاذ بعض المقبوض عليهم من الإعدام بسبب فرارهم من الخدمة العسكرية[٣]. **وكثيراً ما كان يفتخر قواد الجيش من قيامهم بحملات حربية غير حقيقية ليتقاضوا عنها الأموال المخصصة للحملة فتذكر مدام ديولافوا، ذلك: «سار الضباط الأتراك بجيش من بغداد إلى بعض الأصقاع وبعد ذلك أخبر الوالي بأنه أبيد بكامله وفعلوا هذه التغطية لما كادوا يتعرضون له من فضيحة بيع أسلحة كثيرة وهي عتاد جيش كامل والتصرف براتب جنده لا لشيء غير ذلك»**[٤]، فهذه حوادث توضح لنا مقدار الفساد،

---

(١) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص٢٠٠؛ جميل موسى النجار، المصدر السابق، ص٢٨٠.

(٢) سالنامة ولاية بغداد لسنة ١٣١٤هـ، ص٢٤٢-٢٤٣؛ ولسنة ١٣١٩هـ، ص١٣٦-١٣٨.

(٣) محمد طاهر العمري، تاريخ مقدرات العراق السياسية، بغداد، ١٩٢٥م، ص١٣٢-١٣٤؛ لونكريك، أربعة قرون، ص٣٧٧.

(٤) ديو لافوا، المصدر السابق، ص٨٣.

والأوضاع المتردّية التي كانت عليها هذه الفئة، ولا تقل عن ذلك قوات الأمن **(الجندرمة)** التي شكلت في عهد مدحت باشا، وقوات الشرطة التي شكلت في سنة ١٨٨٩م لحفظ الأمن في المدينة، إذ كانت السرقة والقتل منتشرة في المدينة.

ألقت هذه التشكيلات الإدارية، والعسكرية، والأمنية عبئاً ثقيلاً على المجتمع، فأرادت الدولة العثمانية أن تضاهي الدول الغربية في مضمار التقدم عن طريق إصدار التنظيمات الجديدة، والقضاء على الفساد الإداري، والرشوة إلّا أن هذه التنظيمات التي طبقت في عهد مدحت باشا، فشلت في تحقيق مبتغاها، ويرجع هذا لعدة أسباب منها خلق هيكل إداري وعسكري كبير أثقل كاهل الدولة بالرواتب التي يجب أن تدفعها إلى الموظفين، والعسكريين والتي كانت دائماً تتأخر في تسديدها لهم، فأخذ هؤلاء باتباع مختلف الأساليب، والطرق لابتزاز الأموال من الطبقة المعدمة[١]، إذ تميزوا بشراسة الطبيعة المستغلة التي لا تعرف مذهباً أو قومية إلّا مذهب الاستغلال والثراء. السبب الآخر هو سياسة الدولة العثمانية المرتبكة، وغير المستقرة، والمتحولة دائماً إذ يسودها سوء الظن، وتمتلئ بأساليب الوقيعة والدس وتحين الفرص، وتمثل ذلك في إبقاء الولاة، أو كبار الموظفين، والقادة العسكريين في مناصبهم مدة طويلة، مما كان له أثر سلبي لأن التغير المستمر يدفع إلى التفكير بالمصلحة الشخصية فقط، وتحقيق الأغراض لجمع المال للاستفادة منها مستقبلاً، كذلك يؤدي التغير إلى شل أيديَ الولاة عن إنجاز الأعمال العمرانية، والإصلاحية في البلاد، وكان التغيير في بعض الحالات يسبب النزاعات السياسية كما حدث في العهد الدستوري، إذ كان عندما يحدث النزاع بين الفئات المتصارعة على الحكم، وهي جمعية الاتحاد والترقي، وحزب الحرية والائتلاف فيتسلم الحكم أحد هذين الحزبين، يتم عزل الوالي

(١) ستيفن لونكريك، تاريخ العراق الحديث، ج١، ص٦٩؛ ستيفن لونكريك، أربعة قرون، ص٣٨٨-٣٨٩؛ علي الوردي، دراسة طبيعة المجتمع، ص١٣٤.

المحسوب على الفئة الخاسرة، ويتم تنصيب والٍ آخر من جماعتها مما يؤدي هذا إلى إرباك شديد في الإدارة، وسهولة التلاعب وأخذ الرشوة[١]، **وصف سليمان فائق الإدارة بما نصه**: «أشهد أنني قد رأيت بالعين ما فعلته الدولة، وما أوقعته من أضرار في البلاد بسبب حركة التنقلات السريعة بين رجالها المسؤولين»[٢] **ويعلق عباس العزاوي بقوله**: «يهدّم الوالي الجديد ما بناه سلفه ويسير بعكس منهجه»[٣].

وكذلك يمكن القول إن بعض الموظفين الأتراك المحليين كان لهم نفوذ أكثر من المسؤول العثماني الرئيس الدائم التغيير، وهذا يعود للمعرفة بالأوضاع، والممارسات المحلية، وإلى العلاقات الأوفق مع القوى الاجتماعية المحلية مما أدى إلى اعتماد مرؤوسيهم عليهم بشكل كامل مما أضعف من سلطاتهم أيضاً[٤].

ويمكن القول إن التنظيمات والقوانين لم تكن تهدف إلى مصلحة، وإنما إلى الحصول على أكبر نسبة ممكنة من الأموال لحاجتها المستمرة لاستنزاف الموارد المالية، ولإطالة أمد السيطرة السياسية والاقتصادية وهذه السياسة لم يتمكن معها أي والٍ من إصلاح أحوال الولاية، أو تعميرها، أو إنجاز المشاريع العامة التي تحتاج إلى أموال كثيرة[٥]، ولو أن الحكومة المركزية اتبعت الشدة مع المخالفين، لما كان هذا حالهم على الرغم من إرسالها لجان التفتيش بين الحين والآخر، وقيامها بفصلهم، إلا أننا نرى أن الحكومة بعد مدة تقوم بإرجاعهم إلى وظائف أعلى في حكومتهم مقابل مبالغ معينة من الأموال تدفع لهم كرشوة. أدرك الولاة والموظفين أن كفاءتهم تقاس بقدرتهم على

---

(١) جميل موسى النجار، المصدر السابق، ص١٨٢-١٨٣.

(٢) سليمان فائق، تاريخ بغداد، ص١٧٠.

(٣) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص١٨٠.

(٤) حنا بطاطو، المصدر السابق، ص٢٥٢.

(٥) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص٢٧٠.

جمع أكبر مبلغ من المال عن طريق الضرائب، والغرامات، والمصادرات، وإرساله إلى إسطنبول، أما في غير ذلك فيستطيع أن يجمع ثروة لنفسه بشتّى الوسائل، كذلك الموظفون الذين تحت يده فهم أحرار فيما يفعلون كل في نطاق وظيفته، فالموظف لا يهمه سوى إرضاء رئيسه وهو في ما عدا ذلك يستطيع أن يفعل ما يشاء[١].

وقد اتسع نقد سليمان فائق لذلك الوضع في الدولة العثمانية، لأنها نفسها التي مهدت السبيل لبعض المسؤولين أن يقبضوا، ويغتصبوا الأموال التي تجبى من السكان الفقراء فتسربت إلى جيوبهم لكي يبذّرونها في غير صالح الدولة والشعب.

وكانت عادة بيع المناصب الإدارية العليا شائعة في الحكومة العثمانية، فكانت تبذل مبالغ طائلة من المقتدرين، والميسورين للوصول إلى الوظائف الرفيعة، بغض النظر عما يتسم به طالب المركز من سوء الخلق، ورداءة السمعة، إذ كانت مسؤوليات الدولة سهلة التحول إلى يد من كان قادراً على دفع ثمن أكبر، مما يعني أن مسؤوليات الوظائف المهمة في الدولة آلت في بعض الأحيان إلى جماعة من محترفي أعمال السوء، ومن ثم فلم يكونوا أمناء مخلصين في القيام بواجبات المنصب الذي تبوأوه. **واجتهدوا في اقتناص المنافع الخاصة من مختلف المصادر سواء أكانت شرعية، أم غير شرعية، مما أضرَّ بكثير من المصالح العامة في المجتمع، يعلق على ذلك بطاطو بقوله:** «من المحتمل أن تكون صورة العائلات الإدارية المحلية صارت أكثر بياضاً في أعين عامة الشعب على النقيض من صورة الموظفين الذين صاروا يأتون من إسطنبول»[٢]. إذن فقد وصل من لم يكن كفوءاً ومع ذلك استطاع الحصول على منصب وظيفي لمجرد أنه كان مقتدراً على تمويل الخزائن الخاصة بمبلغ

(١) علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع، ص١٣١.

(٢) حنا بطاطو، المصدر السابق، ص٢٥١.

كبير من المال[١]، فقد كان السعي وراء المنفعة الخاصة يمثل نوعاً من السباق الجماعي، الذي يحمل بين طياته الكثير من المشاعر العدائية، والنوايا الخبيثة، مما ترتب على ذلك وصول بعض حثالة القوم إلى المراكز العليا في الحكم.

ومع هذا لم يخل مجتمع الولاة، وكبار الموظفين من نبضات إيجابية سجلها لنا التاريخ لعدد لا يتجاوز أصابع اليد عرفوا بنزاهتهم، وإخلاصهم، وإن كان وجودهم نشاز بين زملائهم[٢]، فقد ذكرت المصادر الوالي مدحت باشا، وما عرف عن إصلاحاته والوالي قدري باشا (١٨٧٨م) بأنه ذو كفاءة ونشاط، ونزاهة، وثقافة[٣] وسري باشا وما عرف به من اهتمام بالثقافة[٤]، واتصال بمثقفي بغداد وغيرهم. لقد حاول إصلاح شؤون الولاية والاهتمام بالرعية والقضاء على الفساد، والرشوة إلّا أن هذا كان يزول مع زوال هذا الشخص، وخير مثال على ذلك مدحت باشا فرغم محاولاته الإصلاحية، فإنه بعد عزله استمرت المساوئ تنخر بجسم الجهاز الإداري والعسكري.

يقطن معظم الموظفين، والعسكريين الأتراك في القسم الشمالي الشرقي من المدينة أي في محلة الميدان، والحيدر خانة بالقرب من السراي، ودوائرهم الحكومية[٥]، وكانت بيوتهم كبيرة، ومنظمة، وتحتوي على أجود، وأحسن أنواع الأثاث، إذ كانوا يحرصون على أن يظهروا بأبهى المظاهر الحضارية، فيحاولون أن يقلدوا الغرب في ترتيبهم للمنازل إذ كانوا يقتنون الأشياء الثمينة

---

(١) أبو الثناء الألوسي، غرائب الاغتراب ونزهة الألباب، بغداد، ١٣٢٧هـ، ص١٨٨.

(٢) علي الوردي، طبيعة المجتمع، ص١٣٤.

(٣) ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج٤، ص٢٢٢؛

G. Geary, op., cit., p:135; A. Blunt, op., cit., p:5.

(٤) محمد بهجت الأثري، محمود شكري الألوسي وآرائه اللغوية، القاهرة ١٩٥٨م، ص٧٤؛ علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٤٥-٤٦.

(٥) نيجهولت، العراق قبل (١٠٠) سنة، ترجمة: ميري البصري، جريدة البلد، العدد ٨٧٠، ٢٠ كانون الثاني ١٩٦٧م.

ذات الصنع الأجنبي، ولهم مكانة، ومنزلة اجتماعية متميزة، ولا يختلطون مع الناس، لقد تميز الأتراك بالتزمت في معاملتهم مع الآخرين، إذ كانت علاقاتهم مقتصرة فيما بينهم أو مع أعيان المدينة، والتجار، وحتى زواجهم لا يتم إلّا من داخل فئتهم أي **زواج الأتراك بالتركيات، والمماليك بالمماليك** وكانت هناك بعض المصاهرات مع عائلات بغدادية ذات نسب عريق مثل بيت الألوسي أو مع عائلات تجارية، أو ملاكين. وكان أبناؤهم يكملون دراستهم في إسطنبول على حسابهم الخاص، ومن وجد منهم في المدارس البغدادية فقد خصصت لهم غرف خاصة في المدارس لاستعمالهم الخاص يستريحون فيها ويتناولون وجبات طعامهم وقد تخرج الكثير من أبنائهم **أطباءً أو محامين، أو صيادلة، أو عسكريين**(١). أما نظرة المجتمع البغدادي لهذه الفئة، فلم تكن عموماً نظرة تعاطف، أو محبة لأنهم كانوا مصدر إيذاء للمجتمع.



فرآت فرمان الوالي ناظم باشا والي بغداد.

(١) حنا بطاطو، المصدر السابق، ص١٤٥-١٤٩؛ علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٢٦٢.

إن سيطرة الأتراك على مراكز اتخاذ القرار السياسي، والنشاطات الاجتماعية في المدينة، يعني ترسيخ احتكار السلطة، والقوة، والسياسة لعدة قرون عند جماعات عسكرية انعزلت عن بقية أفراد المجتمع. مما كان له أثر بالغ في تصدع البناء الاجتماعي، وفي تغلب الأنا الفردية والاهتمام بالمصالح الشخصية على نحن الجماعية. **لقد كانت العوائل الإدارية تنظر إلى المجتمع بأنه ينقسم إلى قسمين: وهم الحكام الأتراك، والمحكومون الرعية**، ومهمة القسم الثاني أن يعمل على خدمة القسم الأول ومَدَّه بما يحتاج إليه[1]. وحتى احتفالات هذه الفئة كانت خاصة بهم دون أن يكون للمجتمع البغدادي أي مساهمة فيها لأنها تتعلق عادة بمناسبات لا تعنيهم بشيء مثل عيد ميلاد، أو اعتلاء السلطان العثماني، أو مناسبة وصول ولاة جُدُد إلى الولاية، ويبدو أن الأتراك كانوا يبالغون كثيراً بالمظاهر الخارجية، وفي إجراء مراسيم، واحتفالات كبيرة لأجل أن يعطوا انطباعاً عن قوة، وعظمة مملكتهم، **وقد عبّر عن هذه الحالة الشاعر معروف الرصافي، فصوّر حياة آل عثمان التي تميزت بالجهل، وقضاء الوقت باللّهو، واللّعب الدائم فيقول:**

هم يعدون بالمئات ذكوراً — وإناثاً لهم قصور مثالة
تركوا السعي والتكسب في الـ — دنيا وعاشوا على الرعية عالة
يتجلى النعيم فيهم فتبكى — أعين السعي في نعيم البطالة
يأكلون اللباب من كد قوم — أعوزتهم سخينة من نخالة[2]

---

(١) محمد أنيس، المصدر السابق، ص١٤٩.

(٢) عز الدين، الاشتراكية والقومية أثرها في الأدب الحديث، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٨م، ص١٠٩.

٢

العلماء ورجال الدين

احتلت هذه الفئة قمة الهرم الاجتماعي، والديني في المدينة، فاشتهرت بعطائها العلمي والثقافي والأدبي، وتعاظم دورها كفئة فعالة ومؤثرة على نحو لم تشهده السنوات السابقة من قبل، فكانوا من أبرز الشرائح تأثيراً في الحياة الاجتماعية والثقافية.

استمدت نفوذها من الطابع الديني، الذي كان ثابتاً ومستقراً، واعتمدت في مكانتها إما لانحدارها من سلالة الرسول الأعظم (ﷺ) أو لجهودهم، أو لمعرفتها بالشريعة، وأصول الدين التي كانت في حينها أحد أكثر المؤهلات تأثيراً في المجتمع[(١)]، أو مرشدين للطرق الصوفية، أو شيوخ لتدريس القرآن، وكانوا القادة الروحيين للمجتمع البغدادي لما لهم من تأثير على الرأي العام في بغداد، وأداة الدعاية القوية التي تؤثر في نفوس الناس وقد وردت أسماء أشهر الأُسر العلمية في اللائحة الرسمية التي نشرت في سالنامة بغداد لسنة (١٣١٢هـ-١٨٩٤م) وهم **الكيلاني، الألوسي، وآل جميل، والحيدري، والسنوي**[(٢)].

أما عبد الرحمن حلمي فيذكر في مخطوطه أنه قد بلغ عدد الأسر العلمية (٢٨) أسرة[(٣)]. وكانت هذه الفئة جزءاً ملتحماً مع الفئة الحاكمة، فدعمت نظام الحكم، وعملت على تبرير شرعيته، خاصة وأن التشريعات القانونية، والفقهية تصدر عنها، فتأرجح تأثيرها بحسب درجة قربها وولائها، أو بعدها عن السلطة أولاً، وعلى فلسفة الوالي ونظرته إلى الحياة ثانياً، وقد أتاحت لهم التنظيمات

---

(١) حنا بطاطو، المصدر السابق، ص٢٧-٢٨.

(٢) سالنامة ولاية بغداد لسنة ١٣١٢هـ، ص١٨٥؛ لسنة ١٣٢٩هـ، ص٣١٧.

(٣) عبد الرحمن حلمي، المصدر السابق، ص٣٤.

الجديدة المساهمة في الإدارة عن طريق مجلس الإدارة والولاية فكان نائب قاضي الشرع من ضمن الأعضاء الدائمين، والمفتي من ضمن الأعضاء الاختياريين[١]، وقد اتخذت هذه الفئة الدعاوى الدينية وسيلة لمكاسب اجتماعية لم تكن تنالها دون مبررات فكرية وسياسية[٢].

وعند دراستنا للسيرة الذاتية لعلماء الدين البارزين في تلك المرحلة نستدل على أن معظم الأسر البغدادية التي اشتهرت بالعلم، وشغلت أرفع المناصب الدينية كانوا من خارج بغداد ذاتها، **فالأسرة الألوسية من بلدة آلوس[٣]، وأسرة الطبقجلي من حديثة، وأسرة السويدي من بلدة الدورة[٤]، والأسرة الحيدرية من المدينة المنورة[٥]، والبندينجي من بنديج، والفكيكي من المغرب[٦]، وأسرة الزهاوي من السليمانية، والرزبهاني من كركوك، وآل الوتري من المدينة المنورة[٧]، وآل جميل، وآل الواعظ، وبيت الرحبي من بلاد الشام[٨]، والقزويني من النجف، ورشيد الكروي من خانقين، وأسر أخرى**

(١) سالنامة ولاية بغداد للسنوات ١٢٩٠، ١٣١٤، ١٣١٧هـ.

(٢) د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، ص٣٢٣.

(٣) محمد بهجت الأثري، أعلام العراق، القاهرة، ١٣٤٥هـ، ص٧-٨؛ إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٢٦.

(٤) علي علاء الدين الألوسي، الدر المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر، بغداد ١٩٦٧م، ص١٧٠؛ إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٣٤؛ إبراهيم فصيح بن السيد صبغة الله بن الحيدري البغدادي، عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد، بغداد، ١٢٨٦هـ، ص٩٣؛ عبد الرحمن حلمي، المصدر السابق، ص٨٤.

(٥) إبراهيم الحيدري، المصدر السابق، ص١٢٢؛ إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٣٦.

(٦) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٦٤-١٦٨.

(٧) المصدر نفسه، ص٣٨-٧٨-١٣٩؛ إبراهيم الحيدري، المصدر السابق، ص٩٤.

(٨) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٣٢؛ إبراهيم الحيدري، المصدر السابق، ص٩٣.

ترجع في أصولها إلى قبائل عربية، مثل بيت النائب، وآل السنوي، وآل الشواف، وآل العمري، والغواص[١]. فكانوا مثالاً لأبناء القرى، والمدن التي جاؤوا منها، فالكثير منهم جاء إلى بغداد يحدوه الأمل، والطموح ليصل إلى ما وصل إليه أبناء جلدته من المراكز، والمواقع المهمة[٢]، فكان العلماء فئة مكونة من كل قطاعات المجتمع الريفي، والحضري ومن المستويات الاقتصادية كافة وجدوا في العلم مجالاً للارتقاء الاجتماعي، **وقد علّق الدروبي على ذلك بقوله**: «إن العلم رفع أقواماً كانوا في زوايا الأرض فأصبحوا من أطوادها وأوتارها وخلدوا مجداً علمياً وثقافياً وتراثاً أدبياً تعتز به الأمم وتفتخر به الشعوب»[٣].

استطاع عدد منهم أن يشغل أرفع المناصب الدينية، كالإفتاء، ونيابة المحكمة الشرعية وكان منهم الوعاظ، والأئمة، والخطباء في الجوامع الكبرى، ومنهم المدرسون في المدارس الدينية التي حفلت بها بغداد آنذاك، ويعد الإفتاء أرفع المناصب الدينية بعد القضاء، وكان بمنزلة المصباح الذي يستضاء به، ويتم عن طريق انتخاب شخص من قبل المدرسين الذين يختارون من يرونه صالحاً لهذا المنصب، بعد ذلك يرفع إلى والي بغداد، فيرسله إلى المشيخة الإسلامية، فتصدر الإرادة السنية بإسناد منصب الإفتاء إلى المرشح، وترسلها إلى ولاية بغداد، فتقام حفلة رسمية بحضور والي بغداد، وجميع العلماء، والأشراف، ويقرأ ديوان الولاية الإرادة السنية على الحاضرين، وتخلع على المفتي خلعة الإفتاء وهي خراجة **(جبة)** مقصّبة مع رتبة رئاسة العلماء مذهّبة[٤]، فكانت أزياؤه تختلف عن غيرهم من العلماء وهي الجبب المطرزة، والطرح المعتبرة، والدلق المتسعة من الفرجيات الطويلة الأكمام

(١) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٣٢-٣٩-٥٠-٦٣؛ إبراهيم الحيدري، المصدر السابق، ص٩٣.

(٢) علاء الدين الألوسي، المصدر السابق، ص٩.

(٣) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٢٩.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٦٧.

والطيالسة[١]، يتقاضون رواتبهم مع نوابهم من إدارة الأوقاف، أما بالنسبة للمدرسين، والأئمة والخطباء الذين تم تعيينهم من قبل إدارة الأوقاف في بغداد بعد إجراء الامتحان للمتقدمين لشغلها والوظائف الأخرى كوظيفة المؤذن، والقيم **(الكَيّم)** وخادم المسجد، فيكون تحقيقها باقتدار البنية أي اللياقة البدنية والصحية للمتقدم[٢]، وكانوا يتقاضون رواتبهم شهرياً من إدارة الأوقاف في بغداد[٣]، ويستثني النظام من هذه الشروط ما يخالفهما من شروط الواقفين التي تعتبر بعضها مجزياً إلى حد كبير، فالوظائف الكائنة في مؤسسات ذات أوقاف كثيرة غنية تعد مجالاً لتنافس العلماء، لأن بعض الواقفين كانوا يشترطون في وقفياتهم أعلم أهل بغداد، وهو شرط من شأنه أن يفتح المجال أمام علماء المدينة للتنافس على شغل أهم المناصب التعليمية في مدارسهم، إثباتاً لأهليتهم، وقابليتهم العلمية، والدينية، فالمدرسة المرجانية تشترط فيمن يتولى أوقافها أن يكون مفتي الحنفية، إذ كانت أوقاف هذه المدرسة تعد أمراً هاماً لمفتي المدينة، وكثيراً ما كانت تتسبب في حدوث النزاعات بين العلماء لتولي أوقافها[٤]، ويعكس لنا التنافس بين الأسرة الكيلانية والألوسية أهمية أوقاف المدرسة المرجانية، فكثيراً ما كان آل الكيلاني يدسون على أبي الثناء الألوسي عند الولاة وفعلاً نجحوا في عهد نجيب باشا عندما أمر بعزله سنة ١٨٤٧م[٥]، فكثيراً ما أدت هذه المنافسات إلى العداء بين العلماء.

ولم تقتصر مصادر ثروات كبار العلماء على الرواتب والأوقاف، بل كانت لأغلب الأسر العلمية الدينية الكبيرة في بغداد ملكيات عقارية، أو

(١) المصدر السابق، ص٣٦٦.

(٢) الدستور، ترجمة: نوفل أفندي نعمة الله نوفل، مراجعة خليل الخولي، م١، بيروت، ١٣٠١هـ، ص١٥٢.

(٣) جعفر الشيخ باقر آل محبوبة، ماضي النجف وحاضرها، ج١، النجف، ١٩٥٨م، ص٢٥٨.

(٤) د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، ص١٤٩.

(٥) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٢، ص١٧٦.

زراعية التي تعرف بالمستغلات والتي منحت لهم من قبل السلاطين العثمانيين، فجعلوا ملكياتها أوقاف مؤيدة على ذرياتهم، ورغم أن قسماً من الأوقاف خصصت لعمارة المساجد وأعمال البر، لكن نسبة كبيرة منها كانت تذهب للأسرة الموقوفة إليهم، ومن أشهر هذه الأسر هي الكيلاني إذ كانت أملاكهم الموقوفة داخل بغداد وحولها[١]، وأسرة الألوسي التي تمتلك الكثير من الأراضي الزراعية والتي تمتد من حديثة إلى هيت على جانبي نهر الفرات، والأسرة الحيدرية التي لها قرى كثيرة[٢]، وأسرة البندنيجي التي تمتلك أراض واسعة في بندينجين[٣].



السلطان عبد الحميد الثاني على عربته سنة ١٩٠٨م.

وتمتعت الأسرة العلمية بحصانة من أي إجراء يراد به المساس بملكياتهم، وأعفيت من جميع التكاليف الضريبية، وإعفاء جميع أبنائهم من

(١) د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، ص١٥١.

(٢) محمد بهجت الأثري، محمود شكري الألوسي وآرائه اللغوية، ص٢٦.

(٣) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٤٦. (بندنيج = مندلي).

الخدمة العسكرية[(١)]. أقام العثمانيون نظم دولتهم السياسية على أساس ديني فقد صبغ السلاطين دولتهم بصبغة دينية، وأصبح رعاياهم ينظرون إليهم كأنهم حماة الإسلام. وكان السلطان عبد الحميد الثاني أكبر من أحاط الدولة بالإجلال الديني لا من ناحية القوة المادية فحسب بل من ناحية القوة الروحية، إذ تزعم حركة الجامعة الإسلامية لتقرير نفوذه وموقفه، لما كانت تمر به الدولة العثمانية من ضعف، فالدولة تحتاج إلى تأييد جماهيري، وبما أن علماء الدين هم القادة الروحيون للمجتمع لما لهم من تأثير في نفوس المجتمع، حرص الولاة على تقريب العلماء والاهتمام بهم، وثمة سؤال عن مدى انصياع علماء الدين للحكومة العثمانية؟ وإذا كان الجواب إيجابياً فلماذا هذا التوجه؟ وهل استمر طوال الحقبة؟ وهل كان للعلماء موقف تجاه إدارة الحكومة السيئة؟

عند دراسة مواقف العلماء السياسية، خلال تلك الفترة نجدها مواقف وآراء متناقضة ففي الوقت الذي أصدر فيه علماء الدين الفتاوى التي توجب طاعة السلطان، نجدهم ينقدون الحكومة العثمانية وأساليبها في الإدارة بصورة غير مباشرة في مؤلفاتهم العديدة، ولنأخذ مثلاً أبا الثناء الألوسي الذي يعد من أكبر علماء بغداد، في بداية الحقبة التي نقوم بدراستها نجده في الوقت الذي وقف إلى جانب المفتي عبد الغني الجميل في ثورته ضد الوالي علي رضا سنة ١٨٣٢م، وتعرضه للسجن مدة سنة ونصف، ومع ما عاناه من شظف العيش والعوز[(٢)]، نجده يصدر كتابه **(البرهان في طاعة السلطان)**، وهي رسالة أورد فيها كل ما يعرفه من حجج وبراهين يراها ضرورية لإقناع الناس بطاعة السلطان وتنفيذ أمره مستنداً بذلك إلى الكتاب والسنة[(٣)]، ويرجع الدكتور يوسف عز الدين تحول موقف الألوسي وتأييده

(١) د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، ص١٥٣.

(٢) علي عجيل منهل، انتفاضة سنة ١٨٣٢م في العراق ضد العثمانيين، المورد، م٧، العدد الثاني، ١٩٧٨م، ص١٢٦-١٢٧.

(٣) أبو الثناء الألوسي، التبيان بشرح البرهان في إطاعة السلطان، مخطوطة في وزارة =

للسلطان أنه من قبيل التقية والمجاراة لحماية نفسه من اضطهادهم[١]، ومن ثم أصدر كتاب «سخرة الزاد لسفرة الجهاد» على أثر حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦م) أكد فيه أن حميته الإسلامية دفعته لتأليف هذا الكتاب يحثهم على الجهاد، أن بعض الباحثين يرجع هذا الموقف لإدراكه المخاطر الأوروبية المحيطة بالدولة العثمانية، والمؤامرات على الإسلام، فوجد الوقوف إلى جانب السلطان ضد الغرب وفقاً لمبدأ نصرة المسلمين على الكافرين واجبة[٢].

وفي السياق نفسه اتجه إبراهيم فصيح الحيدري في كتابه **(إلقام الحجر في فم من هذى وفجر)** الذي يبين فيه شمائل السلطان، وآبائه، وأجداده، والذي ردَّ فيه على صفحات بعض الصحف اللندنية التي نشرت الخبر بأن السلطان أجبر العرب على مبايعته فبايعوه لا عن رضا بل عن إكراه فوضع الحيدري ليس شرطاً أن يبايع العامة وإنما الخاصة عوضاً عنهم يبايعون[٣].

ويمكن القول إن موقف العلماء لا يعبّر عن ثقافتهم، ورأيهم لأن الدين الإسلامي دين الزهد والتقوى يبحث عن الإصلاح وقول الحق مهما كانت النتائج، لكننا نجد في مواقف العلماء حبهم للمال، والثروة، والحصول عليها حتى ولو كان على حساب قول الحق، فكانوا يتمرغون على أعتاب الولاة ويطيعونهم طاعة عمياء أقرب إلى ما تكون إلى التأليه، والعبادة. بالرغم من إدراك هذه الفئة واقع حياة المجتمع وفهمهم العلل والخلل لكن إدراكهم وفهمهم لم يبلغا مستوى التغيير. ومع هذا كان لبعض العلماء موقف واضح، وجريء من الحكومة العثمانية فوقفوا ضدهم، وانتقدوهم بصراحة رغم تعرضهم للنفي، أو التعذيب، أو قطع سبل عيشهم منهم على سبيل

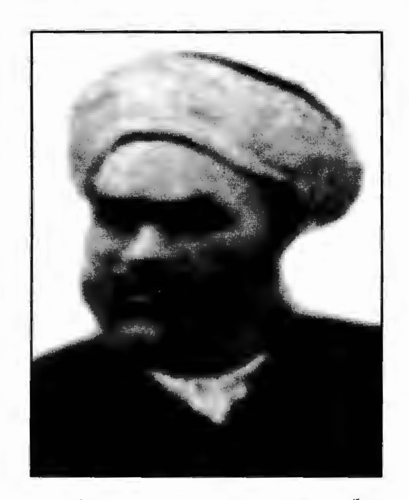
= الأوقاف، رقم ٥٦١٦، ورقة رقم ٢.

(١) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٢، ص١٠٥-١٠٦.

(٢) محسن عبد الحميد، الألوسي مفسراً، بغداد، ١٩٦٨م، ص١١٧-١١٨.

(٣) إبراهيم فصيح الحيدري، إلقام الحجر في فم من هذى وفجر، مخطوط وزارة الأوقاف، رقم ٢، ١٣٧٥٣.

المثال المفتي عبد الغني الجميل الذي ثار على مظالم الوالي علي رضا باشا التي حلت بالأهالي سنة ١٨٣٢م، مما عرضه هذا إلى نهب داره، وحرق مكتبته الثمينة التي يقدر عدد كتبها بنحو (٧) آلاف كتاب، فهرب عبد الغني الجميل إلى **عانة** بواسطة عشيرة العقيل التي التجأ إليها، وظل غاضباً ثائراً طيلة حياته[١]، وحادثة إبعاد السيد محمد أمين الواعظ وأخيه السيد خطّاب إلى البصرة سنة ١٨٤٧م، بسبب اتهامهم بتحريض أهالي محلة باب الشيخ على



العلّامة السيد محمود شكري الألوسي.

التظاهر على الضرائب الفادحة التي فرضها الوالي على أصحاب الحرف، فأمر الوالي بتفريقها بالإجراءات القمعية المعروفة[٢]، وموقف **العلّامة محمود شكري الألوسي** الذي بذل كل ما في وسعه لتصحيح المفاهيم الفاسدة، والعقائد المبتدعة **(بالقلم واللسان)**[٣] موظفاً المناصب التي منحت

---

(١) علي عجيل منهل، المصدر السابق، ص١٢٧.

(٢) مصطفى نور الدين الواعظ، المصدر السابق، ص٧٢.

(٣) محمد صالح السهروردي، لب الألباب، بغداد، ١٩٣٣م، ص٢٢؛ محمد بهجت الأثري، أعلام العراق، ص١٣١.

له لنشر أفكاره، وتوجيهاته الإصلاحية مما عرضه إلى عملية نفي خارج بغداد بدعوى أنه يبث فكرة الخروج على السلطان[١]. غير أن هذا لم يغير من موقفه بل شرع بالدعوة إلى النهوض والتغيير التي يراهما واجباً على كل المسلمين، وربط دعوة التغيير بالواجب الديني أليس هذا أحق بالعناية من الاشتغال بما لا طائل تحته حرصاً على موروثات الآباء البالية؟ وعندما انتقد العادات الاجتماعية البالية حدد وسائل علاجها بحمل النظام القائم مسؤوليتها ومهمة علاجها وهو إن إنقاذ المجتمع من رسم الجهالات، وما حل به من البدع، والأهواء أمر غير ممكن في نظره ما لم تتدارك الحكومة هذا الخلل، وانتقد تعامل السلطة العثمانية بما سماه (**سوء معاملة الترك معنا**)[٢]. **وأظهر تذمره من تردي الأوضاع التي تعيشها البلاد بقوله: «فقدت حضارة عاصمته بغداد بتوالي نوائب الزمان عليها، ونكباته على يدي الغزاة، والفاتحين، وظلم الحكام، وجور الأحكام، وتقوض ركن العلم، وتقلص ظل رجاله»[٣] ولأول مرّة وضع العلّامة صالح القزويني حداً فاصلاً بين الحكام الذين يسمونهم بالترك والشعب الرازح تحت سيطرتهم فكتب يقول:**

وكم لملوك الترك هتك كرامة لأهل النهي والغدر من شيمة الترك[٤]

أما موقف العلماء من ظاهرة التصوف التي دعمت من قبل الحكومة العثمانية وموقفهم من الفرق، والبدع التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر والتي كثيراً ما أثارت جدالاً بين أوساط العلماء والعامة التي يغلب عليها

(١) محمد بهجت الأثري، أعلام العراق، ص١٠١.

(٢) السيد محمود شكري الألوسي، رياض الناضرين في مراسلات المهاجرين، مخطوط «د. ص. م.»، رقم ٨٥٣٤، ورقة ٣٣١.

(٣) مجلة النور، ج١، تموز ١٩١٤م، ص١.

(٤) يونس عباس حسين الجنابي، ملامح الوعي القومي في الشعر العراقي في القرن التاسع عشر، رسالة ماجستير، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، ١٩٨٦م، ص١٨٥.

التأويل، والخرافات إذ كانت أحوال المجتمع تشجع تلك الطقوس الخرافية. وهل كان للعلماء دور في التطور الفكري في بغداد؟

أدرك علماء الدين الحاجة إلى الإصلاح، فظهرت الاتجاهات الدينية السلفية والإصلاحية وهي الرجوع إلى الاتجاه التقليدي السائد، مع العلم أن الاتجاه السلفي، لم يكن وليد هؤلاء العلماء في هذه الحقبة، ويمكننا أن نتتبع جذور هذا الاتجاه لدى علماء سابقين لعلَّ من أبرزهم ابن تيمية، فمثل هذا الاتجاه أول اختراق لأسوار فئة علماء الدين في القرن التاسع عشر غداة التذمر الذي اشتد بسبب سوء الإدارة العثمانية، فأخذت بعدها ردود الأفعال الدينية صيغاً ووسائل، تمثلت بعرض مفاهيم الإسلام الأصيلة في الحكم والتشريع واعتماد صيغ التعليم لتوضيح موقفها من المتصوفة والمبالغات في الاحتفالات وحلقات الذكر والطقوس الأخرى.

كانت الردود تعبر في معظمها عن توجهات إصلاحية جديدة، فجاءت آثارهم العديدة شاملة لكل جوانب المعرفة، ولكنها بقيت محصورة بين جدران مجالسهم الخاصة وعلى أوراق مؤلفاتهم، ومن أبرز العلماء الذين مثل هذه التوجهات أبو الثناء الألوسي من خلال تفسيره الجديد للقرآن الكريم الذي أبرز فيه النزعة الاجتماعية بتوظيف التفسير في معالجة التخلف في العالم الإسلامي عقائدياً، وسياسياً، وعلمياً[١] فأنكر على بعض المسلمين دعوتهم لمن لا يضر ولا ينفع، وطلبهم من أهل القبور من نحو استشفاء المريض، وإغناء الفقير، ورد المضار[٢]، وتكذيب كل ما أسند في ذلك إلى الرسول (ﷺ)، وشن حملة جديدة على الصوفية، وطرائقها في زمانه، ووصفها بالفسق، وعلى الرغم من انتسابه إلى الطريقة النقشبندية في بداية حياته[٣] إلّا أنه استدرك أن ما يقومون به من الممارسات تتنافى مع جوهر الإسلام، فشرع بالرد عليها، ومحاججتهم،

---

(١) محسن عبد الحميد، المصدر السابق، ص١٣٢-١٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص١٤٤.

(٣) عباس العزاوي، ذكرى أبي الثناء الألوسي، بغداد، ١٩٥٨م، ص٤٢.

ومهاجمة بعض أساليبهم، وحركتهم التي يبيّن كراهته لها، وعدّها من أساليب الجهل[١]، واستغل التعليم لبث آرائه الإصلاحية وإدخال بعض العلوم العقلية في التدريس، وتسهيل أمرها، وتقريبها إلى أذهان الطلبة بعد أن غلب عليها التعقيد في الألفاظ، والمعاني الملتوية، وحل المشاكل العلمية، وحبب السعي إلى تقدمها[٢].

وكان لأبي الثناء الألوسي الموقف المتميز من الفرق، والبدع التي جلبت قسماً من عامة الناس إليها، وعلى الأخص المتصوفة. ومن الأسرة الألوسية برز دور نعمان خير الدين الألوسي بأفكار سلفية تدعو إلى محاربة التصوف، وطرقه، وأساليبه، والعودة إلى منابع الإسلام الأولى، وعكس أفكاره في مؤلفه **(جلاء العينين في محاكمة الأحمدين)** فمس بذلك أسس الدولة العثمانية الفكرية القائمة على دعم التصوف، الأمر الذي اضطره إلى طبع كتابه في القاهرة سنة ١٨٨٠م، ولكن هذا لم يحل دون انتشاره، وحارب الفرق، والبدع، وعدها خروجاً على الشريعة، وهاجم أتباعها، وأساليب مزج آرائها بالتصوف في محاولة لكسب الأتباع[٣] وهناك علّامة آخر من هذه الأسرة هو علاء الدين الألوسي الذي جمع بين العلم، والسياسة وتعمق بها فابتعد عن طرق التدريس القديمة المألوفة في عصره من أجل تسهيل طرح الأفكار الحديثة للطلبة إلى جانب تسهيل مادة الدراسة، ونزوعه إلى الاجتهاد في العديد من المسائل الدينية، وتمسكه بما ينسجم مع العقل[٤].

ثم كان للعلّامة الكبير محمود شكري الألوسي الدور الكبير في بث

---

(١) محسن عبد الحميد، المصدر السابق، ص٣٠٧؛ أبي الثناء الألوسي، غرائب الاغتراب ونزهة الألباب، ص٧٥.

(٢) عباس العزاوي، ذكرى أبي الثناء الألوسي، ص٢٩-٣٠.

(٣) نعمان خير الدين الألوسي، جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، مصر، ١٢٩٨هـ، ص٧٥-٧٦.

(٤) محمد بهجت الأثري، أعلام العراق، ص٧٢.

المفاهيم والآراء التي خالفت ما كان سائداً وشائعاً في عصره. فتزعم مدرسة قد خالفت سابقتها في منهجها وأفكارها، فغلب عليها النشاط العقلي، والنزعة إلى الاجتهاد، والتحرر من نوازع التقليد داعياً إلى تطهير الإسلام من البدع، وتجريد العقيدة من رواسب الوثنيات، إضافة إلى إدراك متطلبات العصر، فأولى اهتماماً بتعليم اللغات، واقتباس المنافع من علوم الشعوب، ومجاراة الأمم في نهضتها[١]، وحسّن من رؤيته لتفسير القرآن التي كانت جزءاً من رؤية عصرية تدعو إلى توظيف علوم العصر فيه.

وكان للعلّامة إبراهيم فصيح الحيدري اتجاهاً جديداً خالف به علماء أسرته، وعدد من علماء عصره ألا وهو الموقف من الحضارة الغربية مؤكداً ذلك في فتواه القائلة بجواز الاستعانة بالكفار عند الحاجة داعياً المسلمين إلى اليقظة والتعلم[٢]، واتجه إلى التفسير لتحقيق الأهداف التي نادى بها، فأكد في تفسيره (**فصيح البيان في تفسير القرآن**) أن غايته هي الخروج بتفسير مختصر غايته الوضوح، والتبسيط بعيداً عن الغموض معتمداً على المنهج العملي البعيد عن التعصب[٣]، وعبّر في تدريسه عن أفكار تجديدية تمثلت ببروز فلسفته في التعليم باعتماده على أساس توظيف المعارف الجديدة كالفلك، والطب، والحساب، واللغات إلى جانب المعارف القديمة، كعلوم الدين، واللغة، لأن تلك المعارف تزيد العالم قوة، ومعرفة في أحكام الدين والسياسة وحث المجتمع على تعلم الصنايع، والمعارف حتى لا يحتاجون إلى الدول الأجنبية، وأكد الحيدري في أطروحاته على واجب السلطات بالاهتمام بالحياة

---

(١) محمد بهجت الأثري، محمود شكري الألوسي، ص١٨.

(٢) أحمد عبد الكريم، لقاء الحضارات، جامعة عين شمس، مركز بحوث الشرق الوسط، ندوة التغيير الحضاري لمنطقة الشرق الأوسط في العصر الحديث المنعقدة للفترة من (١١-١٤ كانون الأول ١٩٧٦م)، ص٢٧-٣١.

(٣) للمعلومات، انظر: إبراهيم فصيح الحيدري، فصيح البيان في تفسير القرآن، مخطوط في وزارة الأوقاف، تحت رقم ٢٣٢٢.

الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والتعليمية[١]، وهاجم الدعوة الوهابية وعدها بدعاً جديدة[٢]. وقد وردت إشارة في مخطوط للسيد إبراهيم الحيدري أنه وراء الفتوى التي صدرت لخلع السلطان عبد العزيز سنة ١٨٧٦م مما يدل على الأهمية التي احتلها إبراهيم الحيدري[٣].

ومن العلماء الذين عبروا عن التوجهات الجديدة محمد فيضي الزهاوي الذي كان يناقش في حلقته الدراسية قضايا الإسلام، والتربية الحديثة، والمسائل الأدبية، ومستحدثات التقنية الأوروبية فضلاً عن مناقشته للأفكار وحركات المتصوفة، والرد على الفرق والبدع، فشهد مجلسه العديد من المناقشات التي توضح أهدافها والمساعي الحقيقية لتلك الفرق ثم الرد العلمي عليها[٤].

والعلّامة محمد أمين السويدي الذي وظف التعليم من اجل نشر الأفكار السلفية ومحاربة البدع التي سادت في عصره[٥]، والعلّامة محمد أمين الأدهمي الذي كان من المعارضين للطرق الصوفية فهو يعتبرهم أفراداً جهلاءً ولصوصاً وقطاع طرق وعلى المسلمين محاربتهم[٦]، والعلّامة أحمد الواعظ الذي حارب بشدة البدع والفرق كالبابية والبهائية بعد أن بين للناس مظاهرها،

---

(١) إبراهيم فصيح الحيدري، المصدر السابق، ص١٣٣.

(٢) إبراهيم فصيح الحيدري، إلقام الحجر، ص٩-١٠.

(٣) د. عماد عبد السلام رؤوف، مواقف سياسية وعسكرية لعلماء بغداد في العصر العثماني، ص١٤-١٥.

(٤) ل. ن. كوتولف، تكون حركة التحرر الوطني في المشرق العربي ومنتصف القرن التاسع عشر، ١٩٠٨م، ترجمة: سعيد أحمد، دمشق، ١٩٨١م، ص٢٣٨.

(٥) للمعلومات، انظر: محمد أمين السويدي، التوضيح والتبيين وشرح العقد الثمين في مسائل الدين، مخطوط في وزارة الأوقاف، تحت رقم ٧٠٢٣. نقلاً عن د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، ص١٥٤.

(٦) مصطفى نور الدين الواعظ، المصدر السابق، ص٧٩-٨٠.

وعدها من أعمال الإلحاد وألّف كتابه **(عنوان الهداية في ردع أرباب الغواية للرد على المعتزلة)**[(١)]، والشيخ داوود بن سليمان البغدادي النقشبندي[(٢)] الذي ألّف رسائل للرد على فتاوى الوهابية، وعلى ما ذكروه من دعاوي مناقضة لما جاءت به المذاهب الإسلامية منها كتاب **(المنحة الوهابية في رد الوهابية)** وكتاب **(أسند الجهاد في إبطال دعوى الاجتهاد)**.

وهناك إشارات في عدد من مؤلفات تلك المرحلة نسجت على المنوال نفسه فبدأ نقد العلماء يمس قمة السلطة، وهيكل النظام، البعض من الباحثين يعلق على مواقف العلماء بأنه كان عندهم استعداد قوي للاطلاع بمهام التوعية ومقارعة الظلم، ولكن بسبب الأحوال السياسية والاجتماعية وتغلب الجهل والخمول الذي يخيم على المجتمع يخشى العلماء على حياتهم، ونفوذهم فلا يقدرون على المجاهرة بل يضطرون إلى مجاراة الوضع العام، ولا يظهرون آراءهم التحررية والإصلاحية إلّا بين خاصتهم ومريديهم ولكن البعض منهم خاطر بنفسه، ونهض بالدعوة وركب الصعب، وبعض من اتخذ هذا السبيل ففشل في تحقيق مبتغاه بسبب الوضع الاجتماعي المتخلف، ولم يجد من يناصره، فذهبت أعماله هباءً منثوراً الأمر الذي جعل من سلك هذا الطريق لا يتجاوز عدد الأصابع، واتبع البعض الآخر الطريق الوسط في أسلوبه، فتبنى الاتجاه السلفي الإصلاحي، وبدأ ينشر أفكاره، ومبادئه وإذا أدرك عدم جدية المواجهة المباشرة بسبب صمود السلطان حاول كسب رضا السلطان بإصدار الفتاوى التي تؤيد حكمه لتوفير الأمن والمكانة، والنفوذ لنفسه، وليتمتع بالحصانة، وبهذا استطاع انتقاد الإدارة العثمانية، ونشر المبادئ الإصلاحية عن عدة طرق أخرى غير مباشرة كالتفسير، والتعليم، وإصدار المؤلفات والبعض يعتبر هذه الطريقة هي الطريقة المثلى للإصلاح، وإن كان السير عليها بطيئاً لكنه يكون أرسخ وأحكم. حين يدرك المجتمع تدريجياً الوضع

(١) المصدر السابق، ص١٧٠.

(٢) للمعلومات، انظر: ترجمة: شيخ الإسلام داود البغدادي، مصر، ١٨٨٩م، ص١-٨.

السيئ فيؤازرهم، مع العلم أن مثل هذا الاتجاه أوقع أبا الثناء الألوسي في موقف لا يحسد عليه في أواخر ولاية نجيب باشا، إذ أثار نقده المتوالي للوالي، والإدارة غضب الوالي نجيب باشا، فاستغل مظاهرة ١٨٤٧م، واتهمه بأنه أحد العناصر المحرضة لها، مما أدى إلى عزله من منصبه، فوصل الألوسي إلى حالة من الفقر والعوز اضطره إلى السفر إلى إسطنبول ليحظى برضا السلطان، وفعلاً نجح في ذلك إذ أعيدت له نصف أوقاف المرجان[١]، ويرجع قسم من الباحثين بعض مواقف العلماء أحياناً إلى جانب الولاة إلى إدراك علماء الدين الأخطار الأوروبية التي تحيط بالدولة العثمانية، والمؤامرات على الإسلام فلذلك وقفوا مع السلطان ضد الغرب[٢].

ومن دراستنا لفئة علماء الدين نستدل على أن مواقفهم كانت غير واضحة، ميالة إلى الحلول الوسط في مواجهة المشكلات التي تريد تحقيق مصالحها الشخصية حتى ولو كان ذلك على حساب قول الحق، فمن يتصفح



الوالي والقائد العسكري عمر باشا.

---

(١) محسن عبد الحميد، المصدر السابق، ص٤٦-٧٦-٧٨.

(٢) يعقوب سركيس، مباحث عراقية، بغداد، ج٢، ص١٧٤.

كتب أبي الثناء الألوسي، أو إبراهيم الحيدري، وغيرهم يجدها مليئة بالتمرد والكره للأتراك، وحكمهم إلّا أننا نجد الكاتب أحياناً يجامل، ويمدح، ويدعو إلى طاعة السلطة الحاكمة. فحرصهم من الحصول على الأموال يدفعهم إلى ذلك، ومماته عندما أراد عمر باشا تطبيق التجنيد استدعى علماء الدين، وأقنعهم بالأمر وقبل أن يقرأ الفرمان وزّع عليهم مبالغ كبيرة من الأموال كل حسب رتبته، فلما قرأ فرمان التجنيد رحبوا به جميعاً، وأظهروا الطاعة فجاؤوا بأولادهم لضمهم إلى التجنيد العسكري[١]، فهذه الحادثة توضح اهتمام العلماء بالأموال وإدراك الولاة لهذا.

وبما أن علماء الدين هم القادة الروحيون للجميع فيمكن من خلالهم تحريك المجتمع وتنبيه الأذهان للوضع السيئ الذي يعيشونه، وخاصة أن الدين في تلك المرحلة له تأثير مهم في الحياة الاجتماعية، وكثيراً ما يفرض نفسه في أي مسألة بواسطة أبسط الملاحظات[٢]، وكثير من المواقف تعكس لما للعلماء من تأثير على المجتمع، فعندما حدث خلاف بين القاضي، والقنصل الفرنسي سنة ١٨٦٨م، وانتشر الخبر بين الناس، اعتبروها إهانة للمسلمين[٣]، فقام الوالي باستدعاء علماء، وأعيان بغداد لتهدئة الحالة خوفاً من حدوث ما لا يحمد عقباه[٤]، مما يعكس لنا نظرة الناس لعلماء الدين واحترامهم لهم، ولما لهم من تأثير على المجتمع، ولذلك نرى الكثير منهم من قوى علاقته بعلماء الدين باعتبارهم القلم الذي يسجل مناقب الولاة ويخلّد ذكراهم[٥]، ولما لهم من تأثير على الرأي العام في بغداد، باعتبارهم قادة الرأي العام وأداة الدعاية القوية التي تؤثر في نفوس الناس.

---

(١) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص١٢١.
(٢) محمود شبيب، مشاهدات أسير إنكليزي، ص٣٧.
(٣) بير دي فوصيل، المصدر السابق، ص١١١-١١٢.
(٤) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص١٥٦.
(٥) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٤٧.

كان هم علماء الدين الوحيد إرضاء السلاطين، والولاة فلهجوا لهم بالدعاء والثناء والذكر لما لهم من أعمال خيرية، وحاولوا استغلال كل الوسائل التي يمكن أن تقربهم من الحكومة العثمانية مثل الخروج في استقبال، أو توديع الولاة التي كانت من أهم الوظائف الاجتماعية التي تزيد من حظوتهم لدى الولاة من جهة، وترفع من مكانتهم في نظر العامة من الجهة الأخرى[(١)]. وكثيراً ما وقف العلماء إلى جانب الولاة فعندما كان الوالي أحمد باشا يطمح إلى منصب الولاية استطاع عن طريق تنظيم مضبطة وقع عليها علماء بغداد جميعهم، وأرسلت إلى الحكومة المركزية، فجاء الأمر بتعيين أحمد باشا والياً على بغداد[(٢)]. وغيرها من المواقف مما يدلنا على ضعف هذه الفئة التي لم يكن بمقدورها أن تتحول إلى حلقة وصل فاعلة بين فكرها والمجتمع الذي كان الضحية الأولى لكل مثالب النظام، وظواهر التخلف، **إضافة إلى طبيعة النظام السياسي القائم ومؤسساته القمعية التي حطت من قدرة العلماء على إبداء آرائهم فيقول ذلك رشيد الصفار**: «بأن ضغوط الحكومة على حرية العلماء في إبداء آراءهم كان المنشأ الحقيقي لسقوطها، وتأخرنا، ولا تنال الأمة ضالتها المنشودة. إلّا إذا رأت الفلسفي يدرس ما عنده من العلوم، والفنون بأزاء من يدرس العلوم الدينية من غير تكبر. وهو موقوف على من يطلق للأمة حرية القول في جميع الأحوال»[(٣)].

فتحرك العلماء بقي محصوراً في إطار فردي إلّا ما ندر واقتصرت آراؤهم الإصلاحية على أوراق مؤلفاتهم، وخاصتهم، وندواتهم التي لم تتحول إلى مجال التطبيق العملي حتى يدركها المجتمع، واقتصرت في بعض الأحيان على طلابهم وهم لا يمثلون إلّا جزءاً يسيراً من المجتمع. ومع كل هذا كانت هذه الفئة نواة الفئة المثقفة التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر.

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٢٣٠.

(٢) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص١٣٢-١٣٣.

(٣) مجلة العلم، العدد ٤، جمادى الآخر ١٣٢٨هـ، ص١٤٧.

٣

التجار وأصحاب الحرف

مثلت فئة التجار قمة الهرم الاقتصادي في المدينة، إذ تألفت من عناصر مختلفة من الناحية الدينية، أو العرقية أو غيرها من الاختلافات التي تحملها الأشكال الاجتماعية.

فالاختلاف داخل الفئة جعل كل أسرة تتميز بمميزات تختلف الواحدة منها عن الأخرى، ولكن هناك مجموعة صفات مشتركة تجمعها معاً فالأساس الذي تعتمد عليه هذه الفئة هو الثروة، والتحكم في اقتصاد البلاد. وتعد الحياة الاقتصادية في أي مجتمع إنساني من أكثر المظاهر تأثيراً في الوضع السياسي السائد في ذلك المجتمع، كما أنها تعتبر أشد الجوانب تأثيراً بما يحدث في تلك الدائرة الاجتماعية من تغيرات سياسية، وانعكاسات ناتجة من تطور طبيعة المنهج المتبع في نظام الحكم، وفضلاً عن ذلك فهناك نوع من الارتباط الطردي بين الاستقرار السياسي، والازدهار الاقتصادي في جميع المجتمعات الإنسانية بدون استثناء وقد شهدت صفحات التاريخ كثيراً من صور ذلك الارتباط الوثيق بين الحالة السياسية والوضع الاقتصادي، وأن اختلفت أسباب كل ظاهرة عن الأخرى اختلافاً بيناً.

كان للكوارث التي تعرضت لها بغداد، والتنظيمات العثمانية والتسهيلات، والانفتاح النسبي تأثيره على فئة التجار، وأصحاب الحرف، فشهدت بداية الحقبة ضعف التجار بصورة عامة بسبب ما تعرضت له بغداد سنة ١٨٣١م من كوارث مما أدى إلى تناقص عدد السكان مما يعني قلة الطلب، وضعف السوق المحلية، ووفاة العديد من التجار، وأصحاب الحرف، **ويعلّق فريزر على ذلك سنة ١٨٣٤م: «إن معظم التجار، وجميع الصناع وأرباب الحرف تقريباً، قد أتى عليهم الموت»**[١]. وعندما بدأت الأحوال تتحسن تدريجياً

---

(١) جيمس بيلي فريزر، المصدر السابق، ص١١٢.

تعرضت هذه الفئة إلى الابتزاز، والظلم من قبل الولاة، وموظفيهم، فتعيين علي رضا باشا لعبد القادر الموصلي الملقب **(بالكمركي)** مديراً لدائرة الكمرك يعني جلب المأساة لمعظم التجار المحليين، لأن عبد القادر أصلاً تاجر عرف كيف يستغل وظيفته لصالحه، إذ أخذ يراسل التجار في الشام، وحلب وعيّن الوكلاء والعمال فيها لقضاء مصالحه في تصدير الأموال، واستيرادها، فاحتكر بذلك معظم الأعمال التجارية، وشارك الكثير من التجار في الداخل، والخارج



الحياة البغدادية سنة ١٩١٤م.

مستأثراً لنفسه بنسبة من الأرباح[١]، فتدهورت أحوال الكثير من التجار، وتوقفت أعمالهم، وارتفعت أسعار البضائع المستوردة في الأسواق لأنه كان يتلاعب بتجارتها بفرض القيود عليها كما يشاء، وفي عهد الوالي نجيب باشا اتخذت إجراءات عديدة لغرض السيطرة على التجار، والاحتكار المطلق

(١) جعفر الخياط، المصدر السابق، ص٣٠٠.

للسوق بالاتفاق مع بعض التجار ففي سنة ١٨٤٨م احتكر تجارة الحنطة وسمح للتجار اليهود بشرائها حيث كانت تربطه صلة مع ابن الوالي نجيب باشا، مما أدى إلى ارتفاع الأسعار وإبعاد عدد من التجار من السوق، إضافة إلى فرضه رسوم العبور التي تصل إلى (٣٠٪) من القيمة بالنسبة للجلود والصوف والعفص وغيرها التي تفرض قبل وصول البضائع أسوار بغداد وكانت هناك ضريبة أخرى تفرض عليها عند دخولها المدينة قدرها (١٢٪). مما أعاق هذه الفئة عن توظيف أموالها[١].

وفي عهد الوالي رشيد باشا الكوزلكي خضع التجار إلى مراقبة، وفحص الدفاتر من قبل الوالي نفسه لاستيفاء نسب معينة من أرباحهم السنوية، وكثيراً ما كان يجبر التجار على التزام الأنهر، والمقاطعات من الحكومة بأضعاف ما كانت تستحقه، والفرق من هذه العمليات يذهب إلى الوالي، وكما فعل الولاة السابقون احتكر بيع الغلال بالاتفاق مع بعض التجار من اليهود، والمقربين له فشهدت أسعار الغلال، ومعظم أنواع السلع ارتفاعاً في أسعارها في الكثير من أيام السنة[٢]، مما سبب إفلاس عدد من التجار، **ويعلق سليمان فائق على التجار سنة ١٨٦١م بقوله: «كان هناك جماعة من التجار وأصحاب الثراء النسبي غير أن هؤلاء أصبحوا وهم لا يملكون الفلس الأحمر»**[٣]. فضلاً عن سياسة الولاة بتقريب بعض التجار ومضايقة الآخرين.

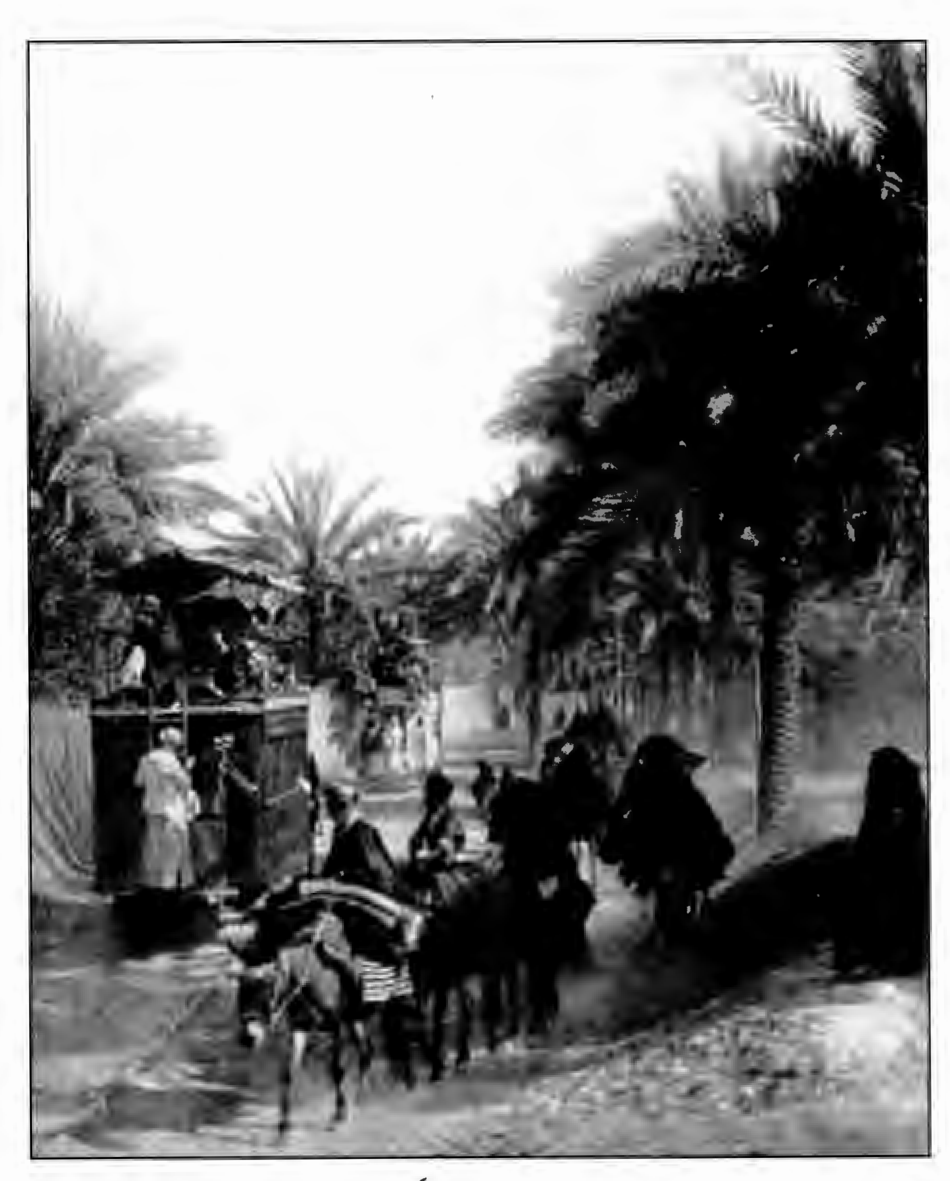
لقد شهدت التجارة في بداية تلك الحقبة صعوبات جمّة منها صعوبة النقل البري، والنهري الذي يتم عن طريق القوافل بسبب وعورة الطرق وبدائيتها وطول مدة الرحلة في النقل البري وما تتعرض له القوافل من

---

(١) شارل العيساوي، التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب (١٨٠٠-١٩١٤م)، ترجمة: رؤوف عباس حامد، بيروت ١٩٩٠م، ص١٦٣-١٦٤.

(٢) جعفر الخياط، المصدر السابق، ص٣٢٩.

(٣) سليمان فائق، تاريخ بغداد، ص١٧٦.



التجارة قديماً.

السلب، والنهب خاصة في فترات انعدام الأمن[١]. وعمليات التأخير بسبب موظفي الكمارك العثمانيين، وتزايد الهيمنة البريطانية[٢] بموجب الامتيازات التي حصل عليها الأوروبيين سنة ١٦٧٥م والتي صار باستطاعة الرعايا البريطانيين ومحميهم استناداً إليها أن يتاجروا بحرية في أي جزء من الأراضي الخاضعة للدولة وإعفائهم من كل الضرائب، والبضائع التي يقومون باستيرادها، وتصديرها فلا يخضعون إلّا لرسم مقداره (٣٪) كما أن التجار الذين شملتهم الحماية البريطانية كانوا متحررين من كل الضرائب الأخرى التي يقررها الباشوات بحجة وبأخرى[٣]، وفي سنة ١٨٣٨م وبموجب ميثاق **(بالطة لماني) الأنكلو - عثماني**[٤] أجري تعديل على الضريبة التي تدفع إلى التصدير فأضيف إلى معدل (٣٪) القديم رسم ثابت يبلغ (٩٪) من البضاعة بدلاً من كل الضرائب الداخلية الأخرى، ورفعت الضريبة على الواردات إلى (٥٪)، وسمحت للتجار البريطانيين ووكلائهم بشراء ما يشاؤون، وفي أي مكان يشاؤون ومن دون استثناء لأي جهة، ولا يقتصر ذلك على التصدير فحسب بل يشمل التجارة الداخلية[٥]، وفي سنة ١٨٦١م وبموجب معاهدة

---

(١) حنا بطاطو، المصدر السابق، ص١٦٢؛ ستيفن لونكريك، تاريخ العراق الحديث، ج١، ص٣٥.

(٢) محمد حسن سلمان، المصدر السابق، ص١٠١.

(٣) Lewis Hertslet, A Complete Collection of the Treaties and Conventions at Present Subsisting Between Great Britain and Foreign Powers, 11, London, 1840, 546-506ff;

مقتبس من حنا بطاطو، المصدر السابق، ص٣٧٣-٣٧٤.

(٤) ميثاق سياسي تجاري عقد سنة ١٨٣٨م بين بريطانيا والدولة العثمانية حازت بريطانيا بموجبه على معاملة خاصة لتجارها في أملاك الدولة العثمانية حيث تم معاملتهم على قدم المساواة مع التجار العثمانيين،

For More details see: Lewis Hertslet, Collection of the Treaties and Conventions, V, (London) 506FF.

(٥) حنا بطاطو، المصدر السابق، ص٣٧٤.

الأنكلو العثمانية رفعت الرسوم على البضائع المستوردة من بريطانيا، أو من الأراضي الخاضعة لها (من ٥ إلى ٨٪) وخفضت رسوم البضائع التي يصدرها الرعايا البريطانيين، أو وكلائهم (من ١٢ إلى ٨٪) على أن تخفض بعد ذلك سنوياً بنسبة (١٪) حتى تصل إلى مستوى (١٪) من القيمة، لغرض الحصول على مزيد من المواد الأولية المصدرة(١)، فكان لهذا أثر في التفوق التجاري البريطاني الذي انتفعت به بريطانيا، ورعاياها أكثر بعد فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩م لاحتكار شركاتها معظم تجارة التصدير، واستمر تمتعها بهذا الامتياز حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى(٢).



مركب في بغداد سنة ١٩١٧م.

وبذلت الحكومة البريطانية مساعٍ كبيرة للحصول على امتيازات للملاحة في الأنهار العراقية، فتكللت تلك المساعي بالنجاح في سنة ١٨٣٤م، حيث حصل البريطانيون على فرمان سمح لهم بموجبه بتسيير باخرتين في

---

(١) أرشيف رئاسة الوزراء في إسطنبول، رقم الوثيقة ٤٦٠، تاريخها أوائل رمضان ١٢٧٨هـ، مركز التوثيق الإعلامي، وزارة الثقافة والإعلام؛ محمد حسن سلمان، المصدر السابق، ص٨٧.

(٢) حنا بطاطو، المصدر السابق، ص٧٣، يوسف رزق الله غنيمة، تجارة العراق قديماً وحديثاً، ص١١٤؛ محمد حسن سلمان، المصدر السابق، ص٣٣.

الفرات[(١)] كما أسسوا شركة للملاحة في نهر دجلة سنة ١٨٤٠م، وقد نمت أعمال الشركة نمواً تدريجياً، وغدت تعرف رسمياً منذ سنة ١٨٦٠م بـ «**شركة الفرات ودجلة للملاحة التجارية» (شركة لنج)**. وحصلت في السنة الثانية على حق احتكار الملاحة في الأنهار العراقية، مما أعطى زخماً قوياً[(٢)] للتجار البريطانيين فسهلت نقل البضائع الأوروبية إلى بغداد، وزاد من ربطها بالأسواق الأوروبية، وكانت تكاليف النقل التي تتقاضاها أعلى من تكاليف النقل في الرحلة ما بين لندن والبصرة، إضافة إلى عملها في الشؤون التجارية والمالية[(٣)].

لقد توافق مع نمو المصالح البريطانية في بغداد تنامي دور التجار اليهود البغدادي الأصل الذين استفادوا كثيراً من الامتيازات الممنوحة لبريطانيا، ورعاياهم ففي بداية نمو المصالح البريطانية كان التجار الأوروبيون لا يتعاملون تقريباً إلّا مع التجار غير المسلمين بسبب تحفظ المسلمين منهم، فعمل اليهود وكلاء لشركة الهند الشرقية، وعندما فقدت الشركة امتيازاتها التجارية سنة ١٨١٣م هاجر قسم من الوكلاء اليهود إلى الهند بحثاً عن الربح، فاستقر البعض منهم هناك مثل عائلة ساسون في بومباي، وعائلتي

---

(١) F. J. Moberly, The compaign in mestpotamia London, 1923, vol. 1, p:44;
للاطلاع على نص فرمان سنة ١٨٣٤م انظر:
C. U. Aitchison, comp, Collection of Theaties, 1909, 4 the d vol.13, pp:16-17. Quoted bx J. C. Hurewitz, Diplomacy in the near and middle East, Princeton. New Jersey, first published 1956, reprinted 1958, vol.1, pp:109-110.

(٢) Letter of 7 February 1910 mr. Gree of the British firm of Blockoy, Gree, and Co. to the editor of truth; Further Correspondance, January, March 1910, p:60;
مقتبس من حنا بطاطو، المصدر السابق، ص٢٧٥؛ محمد سلمان حسن، المصدر السابق، ص٣٤-٣٥؛ عبد العزيز نوار، المصالح البرطانية في أنهار العراق (١٦٠٠-١٩١٤م)، القاهرة، ١٩٦٨م.

(٣) زكي صالح، بريطانيا والعراق حتى سنة ١٩١٤م، بغداد، ١٩٦٨م، ص١٥٨-١٦١؛ متي عقراوي، العراق الحديث، ج١، ص٢٤؛ F. J Moberly, op., cit., p:44.

يهوذا وأزرا في كلكتا[١]، مما فسح المجال أمامهم لممارسة التجارة لحسابهم الخاص، ومن جهة أخرى حصلوا على الامتيازات والحصانات اللازمة للمحميين التابعين، والاهتمام الدبلوماسي باعتبارهم رعايا بريطانيين، وبعد سنوات قليلة أرسلوا أبناءهم أو عينوا أقاربهم الموجودين في بغداد وكلاء لهم متمتعين بهذه الحصانات[٢] وكان لعلاقتهم مع أبناء ملتهم، وأقربائهم في الهند، وأوروبا، وأمكنة أخرى مكنتهم من الحصول على التسهيلات المالية فور احتياجهم إليه، ومن توظيف الكمبيالات في تعاملهم التجاري وتبادل المعلومات والخبرات في ميدان التجارة، واستعدادهم الفطري للتعامل التجاري ومعرفتهم بكيفية تسيير الأمور والعمل بدراسة توفير وتكديس الأموال، فهم يحتكرون أقراض المال بفوائد عالية **(عبر عجلة الفائدة)**، فأكثر تجارهم صرافون في الوقت نفسه[٣]، فهم نشيطون في الأعمال المالية، والتجارية على حد سواء. وقد أعطت هذه الصفات التجار اليهود تفوقاً ومكانة عالية في التجارة، وامتلاك الثروات الطائلة، مما مكنهم من أن يلعبوا دوراً كبيراً، بعد سنة ١٨٦٩م، إذ سيطروا على معظم تجارة الاستيراد من انكلترا، والهند إلى بغداد من دون وساطة[٤].

إذ إن الشركات الأجنبية وخاصة البريطانية منحت تجارة الاستيراد إلى التجار المحليين عن طريق عملهم كوكلاء للاستيراد للشركات الأجنبية، الأمر الذي دفع الشركات الأجنبية إلى ذلك هو السوق المحلي الذي كان لا يحتاج إلى إقامة بيوتات خاصة بهذه التجارة وخاصة بعد تدهور الشركات الأوروبية الخاصة بالاستيراد المتمثل بالشركتين البريطانيتين اللتين أسستا سنة (١٨٣٩-١٨٤٠م) وشركتين يونانيتين وأخرى سويسرية أسست في (١٨٥٩-١٨٦٠م)،

---

(١) يوسف رزق الله غنيمة، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، بغداد، ١٩٢٤م، ص١٨٠؛ كوتلوف، المصدر السابق، ص٩٢.
(٢) حنا بطاطو، المصدر السابق، ص٢٨٦.
(٣) G. Geary, op., cit., p:220; Cicha, op., cit., P:30.
(٤) حنا بطاطو، المصدر السابق، ص٢٨٩.

لأن العملية يتابها بعض المخاطر التي يصعب تحديدها للتأمين عليها من قبل المصدرين الأجانب فاعتمدوا على التجار المحليين لمعرفتهم بحاجة الأسواق وجاء في تقرير للقنصل البريطاني سنة ١٨٧٨م ما يلي: «**أصبحت تجارة الاستيراد الآن في أيدي محلية فارسية ويهودية بصورة رئيسية**»[١]. كما أن رأس مال التجار المحليين قليل لم يسمح بتمويل تجارة استيراد البضائع الاستهلاكية على قلتها ففضل التعامل مع أصحاب المصالح على أساس الوكالة فوجد فيها منفذ مربحاً لهم ولرأسمالهم[٢].

وقد استطاع هؤلاء الوكلاء استيراد البضائع بكميات كبيرة، وفي سنة ١٨٧٩م كانت الجماعة التجارية اليهودية تضع أيديها على كل التجارة مع إنكلترا تقريباً، بينما كان التجار المسيحيون يتعاملون غالباً مع فرنسا، وأهم هذه المؤسسات هي مؤسسة **شاؤول حسقيل، صباح سليمان، ساسون وشركاؤه وعبودي جرزي أخوان، وتاجر مسلم واحد هو محمد سعيد الشاهبندر**[٣]، وكانت التجارة مع بريطانيا أضعاف مضاعفة من أي دولة أخرى، ومع بداية القرن العشرين صار لكل تاجر يهودي بغدادي بيوت تجارية خاصة به بين الهند وإنكلترا، وبالتحديد في سنة ١٩٠٩م كان هناك (٥٤) تاجراً يهودياً مستورداً في بغداد لهم فروع في إنكلترا مثل **ساسون زلخة، وحزقيال قدوري**، وغيرهم. مما أدى هذا إلى تزايد نفوذ التجار اليهود ووصولهم إلى أعلى المراتب، وحصولهم على حصة الأسد في التجارة[٤].

وفي خضم هذه التطورات التجارية كانت الحصة التجارية للعنصر المسلم الملقب (**الجلبي**) محدودة والتي نرجعها إلى التطورات السريعة التي حصلت بعد ١٨٦٩م، وما رافقها من التضاؤل التدريجي لتجارت أغلب تجار

---

(١) مقتبس من محمد حسن سلمان، المصدر السابق، ص٢٦٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٦٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٦٤.

(٤) شارل العيساوي، المصدر السابق، ص٦٧-٦٨.

بغداد التي يمارسونها مع دول الشرق الأوسط، والأقاليم المجاورة والتي تعتمد على الصناعات المحلية كعائلة كبة، والبغدادي التي تتاجر الحرير، والأقمشة الجوخ، وعائلة المرايا التي تتاجر بالمرايا وغيرها من العوائل[(١)]. وقلة رؤوس الأموال، وسيطرة الشركات البريطانية على التجارة، والعامل الآخر الذي كان له التأثير الكبير على التجار المسلمين هو الضرائب والرسوم التجارية المفروضة عليهم مما أثقل كاهلهم بشكل كبير، فاقتصرت تجارتهم على مدن الولاية، أو العمل كوكلاء للشركات الأجنبية، ومع هذا برز عدد من البيوتات، والأسر التجارية المسلمة التي ترجع إلى أصول قبلية عربية وكان لها ثروتها، وموقعها، ومكانتها، وبعضهم أصبحت لهم شهرة كبيرة بحيث إن بواخرهم تمخر عباب البحر، **ومن أشهرهم محمد سعيد الشاهبندر، وعبد القادر الخضيري الذي حصل على لقب الباشوية من قبل السلطان سنة ١٩٠٠م وعلى وشاح من الشاه الإيراني**[(٢)].

وبالرغم مما شهدته الأوضاع التجارية من اتساع، وازدهار واضح، استمر وضع التجار البغداديين دون مستوى التوسع التجاري، وخاصة في **تجارة الصادرات**، بسبب سيطرة الشركات الأجنبية على هذه التجارة حيث تتعامل مباشرة مع منتجي المواد الأولية المصدرة، ما عدا تجار الأصواف كانوا في الوهلة الأولى يتعاملون مع التجار المتجولين ولكن بعد التطورات التجارية وازدياد أهمية الصادرات الحيوانية امتلك الكثير من تجار بغداد قطعاناً من المواشي وعهدوا بها إلى رعاة لقاء أجر يدفعونه[(٣)]، مما جعل بعض التجار هم المالكين لهذه القطعان مما سهّل عملية التعامل مباشرة مع المصدرين، فبرز التعامل المباشر بين منتجي الأصواف وشركة التصدير، ونتيجة لهذا أصبح عدد قليل من المنتجين يجهزون الصوف لاكبر الشركات وهما **شركة لنج وشركة**

---

(١) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٢٠٠-٢١٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٨٦.

(٣) G. Geary, op., cit., p:113.

داربي اندرس اللتان سيطرتا على نصف تجارة الصوف[(١)].

وقد حرّمت سيطرة الشركات الأجنبية على تجارة التصدير، التجار العرب من الحصول على أكبر مصدر للثروة. لأن الشركات الأجنبية كانت تأخذ المواد الأولية بأسعار زهيدة لتصدرها إلى مصانعها، لو فعل ذلك التجار المسلمون لكونوا شركات وبيوتات تجارية عربية في بريطانيا وفرنسا، لهذا كان للتطورات التجارية أثر كبير على الدولة الأجنبية، كما فتحت لهم مجالات واسعة للربح وامتلاك الثروة. وقد أدى هذا إلى إفلاس عدد كبير من العوائل التجارية مع احتفاظها بمكانتها الاجتماعية وظهور أسماء تجارية جديدة على المسرح التجاري، وتحول البعض من أصحاب الحرف إلى ممارسة التجارة.

ومن مظاهر النشاط التجاري وازدهاره، التعامل بالعملات المحلية[(٢)]**، والأجنبية وحساباتها المعقدة لاختلاف قيمتها الحقيقية عن أسعارها الرسمية**[(٣)]**، وهو نشاط للصيرفة التي مارسها اليهود الإيرانيون، وتحكموا في سوق الأوراق المالية لأنهم على علم بأسعار العملات في بومباي، وإسطنبول، وباريس، ولندن** من خلال البرقيات، فاستغلوا حاجة التجار الأجانب إلى العملة المحلية، **والليرة التركية (القرش الشامي)**[(٤)]، كما نشطوا في بيع النقد الأجنبي

---

(١) محمد حسن سلمان، المصدر السابق، ص١٤٩.

(٢) العملة الإيرانية «التومان، القران، الشاهي» والعملة الهندية الفضية الأوروبية أما العملات الأوروبية «الليرة الإنكليزية، الدولار الإسباني والأميركي والنمساوي، الروبل الروسي، الفرنك الفرنسي». غانم محمد علي، النظام المالي العثماني في العراق (١٨٣٩-١٩١٤م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٥٨م، ص١٦٣-١٦٨.

(٣) يعقوب سركيس، مباحث عراقية، القسم الثاني، ص١٧٤.

(٤) الليرة التركية عملة ذهبية نقدية تعادل (١٠٠) قرش ذهبي سعرها الرسمي غير قيمتها في السوق. عباس العزاوي، تاريخ النقود، بغداد، ١٩٥٨م، ص١٦٢.

بأسعار تعادل أكثر من قيمته في السوق، وبذلك تحولت عملية احتكار العملة، وبيعها وشرائها إلى تجارة مربحة، وغدت مجالاً للثراء عند المتعاملين بها، ولكن عملهم انحصر بعض الشيء لانتشار البنوك في أواخر القرن التاسع عشر، وبصورة عامة يتعامل التجار بالحوالة من بلد إلى آخر سواء عن طريق الصرافين، أو البنك العثماني[١]، فقد أصبحت الحياة الاقتصادية مرتبطة **بالمصارف، والصيارفة**، وانتقل المجتمع تدريجياً إلى طور تجاري صارت فيه التجارة ركناً من أهم أركان الحياة الاقتصادية بعد أن كانت ثانوية، فقد لقيت التجارة التنظيم، والاهتمام بصدور عدد من القوانين[٢]، في أعقاب المرسوم الإصلاحي لسنة ١٨٥٦م لخط شريف همايون لغرض حل القضايا المتعلقة بالتجارة، فقد شكلت محكمة التجارة سنة ١٨٧٦م من رئيس، وأعضاء دائمين، وأعضاء وقتيين، وكاتب أول، وكاتب ثان[٣]. وخلال تلك الظروف

---

(١) سجلات تجارية خاصة للحاج علي عبد الوهاب لسنة ١٣١٢هـ ولسنة ١٣٣٠هـ، بحوزة الدكتور عماد عبد السلام رؤوف.

(٢) صدر أول قانون سنة ١٨٥٩م ثم قانون التجارة البحرية فقانون قلم دعاوي التجارة سنة ١٨٦٨م، طلال ماجد المجذوب، تاريخ صيد الاجتماعي (١٨٤٠-١٩١٤م)، بيروت، ١٩٨٣م، ص١؛ وفي عهد السلطان عبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٦م) أصدر قانون المحاكم التجارية سنة ١٨٧١م حدد بموجبه الدعاوي الخاصة بالشركات الخصوصية وعلى الأشخاص المتوفين. لمزيد من المعلومات، انظر: أحمد عزت الفاروق، نظامنامة أصول محاكمة التجارة المادة ٣، ص٢-٣. عرف النظام التجار «كل من اشتغل بالتجارة يطلق عليه تاجر ومن استكمل عمره (٢٤) سنة أما إذا كان عمره (١٢) سنة فلا يؤذن له بالتجارة ما لم يكفل له وليه أو وصيه ويعطى أذناً من محكمة التجارة»، المصدر نفسه، ص٣٥.

(٣) كان رئيس المحكمة عبد الرحمن أفندي والأعضاء الدائمون هم محمد صالح أفندي ومحمد أمين أفندي أما الأعضاء المؤقتين محمد حسين أفندي وحاج إبراهيم أفندي ومانوس أفندي وخوجة موشي، أما الكاتب الأول محمد صادق أفندي والكاتب الثاني صالح أفندي. انظر: سالنامة ولاية بغداد لسنة ١٢٩٢هـ، ص٧٥؛ ألغيت =

دعت مجموعة من التجار إلى تشكيل جمعية اتحاد بينهم، واختير عبد الفتاح جلبي رئيساً لها سنة ١٨٧٥م[١]. وبموجب نظام غرفة التجارة الصادر في سنة (١٢٩٧هـ-١٨٨٠م) أسست غرفة تجارة بغداد في سنة ١٨٨٧م[٢]، **كان أول رئيس لغرفة التجارة هو عبد الرزاق الجلبي الخضيري**[٣]، وهناك من يقول إن **الحاج نعمان الباچه چي هو أول رئيس لغرفة التجارة ببغداد**[٤] على أن يكون ضمن الهيئة العدلية في الولاية[٥]. ويبدو أن نشاط الغرفة كان محدوداً، وقد تعطلت أعمالها بعد فترة من تأسيسها، ولإعادة نشاطها اجتمع والي بغداد مجيد بيك في (١٣٣٤هـ-١٩٠٦م) بهيئة مجلس إدارة الولاية، وهيئة محكمة البداءة وبحضور مجموعة من تجار بغداد للمذاكرة في متابعة الغرفة، وبعد الاجتماع أعيد تشكيلها إلّا أن نشاطها ظل محدوداً، وعندما أصدرت الدولة العثمانية نظام غرف التجارة والصناعة في جمادى الآخر (١٣٢٨هـ-١٩١٠م)[٦]، عقد رئيس غرفة تجارة ولاية بغداد عدّة اجتماعات مع مجموعة من التجار كان من نتائجها

= محكمة التجارة وأنشأ بدلاً عنها محكمة الصلح رئيسها رئيس محكمة التجارة، مجلة لغة العرب، ج١٠، السنة الثالثة، ١٩١٤م، ص٥٠٧.

(١) في سنة ١٨٧٦م صدر قانون وظائف مجلس التجارة والصناعة مهمة التحري في المعاملات التجارية للدول الأجنبية في مختلف الولايات مع مراعاة القوانين والمعاهد والدعوة لتشكيل جمعية التجار ومن مهامه مراقبة الصادرات والواردات للولاية، الدستور، المصدر السابق، م٤، ص٤٧٦.

(٢) إبراهيم خليل أحمد، جريدة الزوراء، مصدراً لتاريخ العراق الحديث (١٨٦٩-١٩١٧م)، ندوة بغداد في التاريخ، كلية التربية، بغداد، ١٩٩١م، ص٣٩٩.

(٣) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٨٣.

(٤) أحمد قاسم راجي وعبد الوهاب العاني، ملخص تاريخ العشائر والأعلام، بغداد، ١٩٥٠م، ص٨٢-٨٤.

(٥) سالنامة ولاية بغداد، لسنة ١٣١٣هـ، ص٢٢٠.

(٦) الدستور، ترتب ثاني، جلد ثاني، مطبعة دار السعادة إسطنبول، ١٣٣٠هـ، ص٣٢٢-٣٢٤.

انتخاب غرفة تجارة وصناعة بغداد[١]. وقد استقبل والي بغداد ناظم باشا (١٩١٠-١٩١٣م) هيئة غرفة التجارة وأبدى استعداده لمساعدتها في مساعيها بما يخدم المصالح التجارية[٢] وكان من مساعيها نجاحها في رفع الرسوم الكمركية عن الحيوانات التي تنقل الأموال التجارية إلى مختلف المناطق[٣]، وقامت بتسجيل الشركات وأصحابها في سجلاتها، مع وصف الشركة وإبراز المأذونية المعطاة إلى الشخص الذي يستعمل إمضاء الشركة[٤].

أما مستوى العلاقة بين فئة التجار وحكومة الولاية وعلاقتهم بالمجتمع عامة؟ عندما نستعرض علاقة هذه الفئة خلال (١٨٣١-١٩١٧م) مع السلطة الحاكمة نجدها علاقة سطحية لا تهدف إلّا لتحقيق المصالح الشخصية، وهذا يرجع إلى أن السلطة الحاكمة مرتبطة مباشرة بالحكومة المركزية وتتلقى الأوامر والتعليمات منها فلا يمكن لها اتخاذ أي قرار إلّا بموافقة الحكومة المركزية. وكان الولاة الموظفون في تغير مستمر فمن وجد اليوم لا تجده غداً فمثلا في عهد الوالي رشيد باشا الكوزلكي أقامت عائلة دانيل معه

(١) جريدة صدى بابل، ٧ ربيع الأول ١٣٢٨هـ، وكان ترتيبهم كالآتي الرئيس الأول مركو ريان مدير البنك العثماني الرئيس شاؤول معلم حسقيل مستشار أول ياسين چلبي الخضيري مستشار ثان يهوذا زلوف الأعضاء عبد المجيد حمودي، عزيز شكر، صيون عبودي محمد الأطرقجي شاؤول شعشوع، كريكور إسكندر، إبراهيم حييم معلم، لنكرج وكيل محل داود ساسون وكاتب أول نوري أفندي وكاتب ثان إبراهيم أفندي، سالنامة ولاية بغداد لسنة ١٣٢٩هـ، ص٧٤. قد بلغ عدد اليهود في هيئة الغرفة خمسة من مجموع اثنا عشر أربعة منهم وهم شارل ميشل ويهوذا زلوف وشاؤول وصيون عبودي من أغنى أعضاء الطائفة اليهودية ثلاثة منهم تجار والأخير من أشهر صرافي بغداد. حنا بطاطو، المصدر السابق، ص٢٦٤.

(٢) صدى بابل، ١١ جمادى الأول (١٣٢٨هـ-١٩١٠م).

(٣) كان عدد التجار ستة عشر والتاجر المسلم الوحيد محمود رفيع قزوين والبقية يهود مما يعكس نشاط اليهود في تجارة الترانسيت مع إيران.

(٤) صدى بابل، ٨ جمادى الآخر (١٣٢٨هـ-١٩١٠م).

علاقة بهدف تحقيق مصالحها، وبعد وفاة هذا الوالي انتهى دور هذه العائلة[١] كما أن خوف التجار من استغلال الولاة الأتراك لهم، ومراقبة نشاطهم التجاري من الممكن أن يعرضهم لمصادرة أموالهم لذلك فضل التجار الابتعاد عن الحكومة لأن هذا يوفر الأمن والسلامة لهم، وإذا ما أعيقت أعمالهم من قبل الدوائر الحكومية وخاصة دائرة الكمرك، فإن أدواء الموظفين معروفة **(بدفع الرشوة)** فتنتهي بذلك أعمالهم. كذلك أن أكثر الفئة التجارية والمالية هم اليهود أو المسيح وهم رعايا بريطانيين أي متمتعين بحصانات المحميين، فلا يوجد ضرر على مصالحهم.

ومع ذلك نجد بعض العلاقات المحدودة ففي عهد الوالي علي رضا باشا كان للتاجر سليمان الغنام دور هام في حل المشكلات والمنازعات العشائرية، ونال ثقة الوالي، إلّا أنه قتل من قبل الوالي نجيب باشا[٢]، والتاجر عبد القادر الخضيري الذي ترأس نادي الاتحاد والترقي، وكان على علاقة وطيدة مع الوالي ناظم باشا وساعد في حل العديد من المشاكل العشائرية[٣]، وفي سنة ١٩٠٩م عندما أرادت الحكومة العثمانية احتكار النقل لشركة لنج في نهر دجلة، رفع التجار وعلى رأسهم التاجران **محمود الشاهبندر، وعبد القادر الخضيري** احتجاجاتهم إلى إسطنبول لرفض هذا المشروع لأنه يؤدي إلى ارتفاع أجور الشحن[٤]، والتاجر عبد اللطيف جلبي آل ثنيان، الذي أصدر صحيفة الرقيب

---

(١) جعفر الخياط، المصدر السابق، ص٣٣٠.

(٢) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٦٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٨٦.

(٤) I. O. R. File No.385. Document N. 1005. Date December 29, 1909;

رفعت الحاج عبد الرزاق محمد، ثورة بغداد على شركة «بيت لنج»، مجلة الحضارة، العدد ٢، مايس ١٩٨٨م، بغداد، ص٦٤-٦٥؛ علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٢٣٤؛ عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص١٨٧-١٨٨؛ الرقيب، العدد ٩٩، ٢٧ ذي الحجة ١٣٢٧هـ.

مما كان له أثر فعال في نشر **أفكار التحرر، والعلوم والمعارف**[١]، وعبد الرحمن جلبي الباچه چي الذي انتخب نائباً في المجلس النيابي في العهد العثماني[٢]، والبعض منهم تولى وظائف إدارية، فعين محمود جلبي آل القشطيني رئيساً لبلدية الكرخ[٣] ولعب دوراً هاماً في سبيل الإصلاح العام لخطط الكرخ، وطرقها، ومنشآتها، والشيخ عبدال خنين الذي انتخب عضواً في مجلس البلدية الثانية سنة ١٨٨٧م[٤].

وكان للتجار إسهام فعال في الحياة الاجتماعية والاقتصادية إضافة إلى الإسهامات الثقافية، وقد كان تدخل هذه الفئة منوطاً بدفع الأمور إلى الوجهة التي يمكن أن تستفيد منها في حياتها الاقتصادية، ولم يكن دور هذه الفئة متعلقاً بهذا فقط بل إن لهم دوراً ثقافياً، فقد أظهر بعضهم الاهتمام بشتى العلوم والثقافة، وكانت لهم مجالس في بيوتهم، أو في الجوامع مثل **مجلس آل عطا في الحضرة الكيلانية، ومجلس سميكة في جامع مرجان، ومجلس حسين جلبي ابن طه جلبي في جامع مرجان لمناقشة المسائل الدينية، والشرعية**، ومارس بعض أبنائهم التدريس في الجوامع مثل حفيد طه جلبي الذي درس وكالة في جامع مرجان، وكان يحضر مجلسه أعيان بغداد وطلاب العلم، وجماعة من التجار[٥]، وأبو يعقوب السيد يوسف العطا مدرس وخطيب الحضرة الكيلانية، وله مؤلفات عديدة منها كتاب في شرح حديث الأربعين ورسالة في تفسير بعض سور القرآن[٦]، والتاجر الحاج عبد اللطيف جلبي آل ثنيان الذي كان أديباً، ولغوياً فقيهاً، ومؤرخاً وإضافة إلى

(١) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص١٠٢.
(٢) المصدر نفسه، ص١٠٠.
(٣) المصدر نفسه، ص٥٥.
(٤) المصدر نفسه، ص٦٥.
(٥) المصدر نفسه، ص١٧١.
(٦) المصدر نفسه، ص١٧٢.

تجارته الواسعة كان له مؤلفات عديدة[(١)]، وقام كثير من التجار ببناء وتعمير المساجد، ووقف الأملاك لها مثل بيت آل الخنيثي الذي بنى مسجداً في محل سكناهم[(٢)]، وآل الخضيري قاموا بتعمير المسجد وإضافة المدرسة والسقاية، ووقف العقارات للصرف عليها[(٣)]، وفي سنة ١٩٠٨م قام التاجر سلمان أبو التمن ببناء مكتب الترقي العثماني لتعليم أبنائهم مختلف العلوم، واللغات، واتخاذهم مستقبلاً كتاباً، وكاتمين لأسرار تجارتهم[(٤)]، وكانت بعض هذه الأسر تمتلك مكتبات حافلة، وجامعة لأنواع المراجع العلمية والأدبية، والمخطوطات النادرة، مثل مكتبة آل الوتار[(٥)]، ومكتبة السيد حسن البغدادي التي كانت مقصداً لكل طلاب العلم[(٦)]، ومنهم من أسس مدارس، وأوقف لها العديد من الكتب النادرة مثل المدرسة الطبقجلية ومؤسسها محمد أفندي الطبقجلي[(٧)].

وكان لهذه الفئة مواقف متميزة من الطبقة العامة، فكثيراً ما يعطونهم الهبات والعطايا ويصرفون على الفقراء، فهم ملاذ للمظلومين المحرومين إضافة إلى أعمال الخير في ميادين البر والإحسان، وحاول البعض منهم القيام بمشاريع لخدمة مصالحهم ومصالح المجتمع عندما اكتشفوا إيجابيات المساهمات بدأوا يفكرون في تأسيس العديد من الشركات المحلية، ففي سنة ١٨٧٥م تم تأسيس شركة مساهمة للنقل التجاري النهري بين بغداد والبصرة،

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٦٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٨٦.

(٤) عبد الرزاق الدراجي، جعفر أبو التمن ودوره في الحركة الوطنية في العراق (١٩٠٨-١٩٤٥م)، بغداد، ١٩٧٨م، ص٢٨-٣٣.

(٥) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص١٨٠.

(٦) المصدر نفسه، ص١٩٩.

(٧) نعمان خير الدين الألوسي، فهرست مكاتب بغداد الموقوفة، دراسة وتقديم د. عماد عبد السلام رؤوف، بغداد، ١٩٨٥م، ص٢.

مقرها بغداد، ورأسمالها قدره (٢,٠٠٠) ليرة مقسمة على (٢٠٠) سهم لكل سهم (٢٠) ليرة، وحددت فترة عملها بستة سنوات مع إمكانية تمديدها بعد ذلك، وجرى تسجيل الشركة في محكمة تجارة بغداد آنذاك، غير أنها لم تعمر طويلاً إذ لم ير شيء عن نشاطها التجاري[١]. وفي بداية القرن العشرين أسس عدد من تجار بغداد الأثرياء شركة لتسيير العربات بواسطة الخيول بين بغداد وبعض المدن القريبة منها كبعقوبة والحلة وكربلاء وسامراء وتم إنشاء محطات خاصة لها يجري فيها استبدال الخيول، ومن أبرز المساهمين في الشركة بيت عارف آغا ويشرف على إدارتها بيت جودي أوكومبانية، فعرفت هذه العربات بهذا الاسم نسبة إليهم[٢] وقد حاول التاجر اليهودي عزرا إبراهام جورجو تأسيس شركة ملاحية للنقل والتجارة النهري بمساعدة بعض الملاحين البريطانيين، إلّا أن سلطات الولاية رفضت منحة الامتياز[٣]، كما رفضت طلبات بعض التجار المحليين بزيادة عدد البواخر إلى الضعف، أو السماح لهم بتشغيل بواخر خاصة بهم في نهر دجلة لتسهيل التجارة في المنطقة، فباستطاعتهم تشغيل أكثر من عشرة أضعاف بواخر شركة عمان العثمانية الحكومية إذا ما أعطوا امتيازاً بشأن ذلك، فلذلك رفضت السلطات ذلك خوفاً من منافسة **(شركة العمان)** التي تحتكر عمليات النقل في نهر دجلة[٤]، وفي سنة ١٩٠٣م وافقت الحكومة على طلبات تجار بغداد ممثلين بعبد القادر الخضيري، وجعفر أبو التمن بتشكيل شركة المراكب لنقل البضائع، والمسافرين بين بغداد والبصرة برأس مال قدره (١٥٠٠) ألف ليرة وبواقع (٥) آلاف سهم سعر السهم (١٠) ليرات فسيرت مركبتين مع ست دوبات في نهر دجلة[٥].

---

(١) الزوراء، العدد ٥٨٠، ١٤ شوال ١٢٩٢هـ.

(٢) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٢٣٩-٢٤٠.

(٣) وليس بدج، المصدر السابق، ج١، ص٧٦.

(٤) الزوراء العدد ١٩٨٩، ٧ رمضان ١٣١٨هـ.

(٥) فيصل محمد الارحيم، تطور العراق تحت حكم الاتحاديين (١٩٠٨-١٩١٤م)، بغداد، ١٩٧٥م، ص٢٠٠.

كان التجار يعيشون حياة مرفهة تميزت بيوتهم بالجمال، والسعة، والأثاث الجميل[١] وفي بعض الأحيان مؤلفة من عدّة منازل بأحجام مختلفة مربوط أحدهما بالآخر وتحتوي على الغرف الجميلة التي تتميز بنقوشها[٢]، ويوجد لديهم العديد من الخدم الذين كانت العلاقة بينهم هي علاقة احترام، ويمتلك التجار الكثير من العقارات، والأراضي الزراعية الواسعة في أطراف بغداد، أو المدن التابعة لها، وكثيراً ما يوقف التجار بعضاً من أملاكهم على المساجد أو الأعمال الخيرية، أو وقفاً لذراريهم، **وتميز تجار بغداد بالصدق، والأمانة، والإخلاص، والنزاهة، وأغلب تجار، وأعيان المدينة يدخلون أبناءهم المدارس المدنية ثم يرسلونهم إلى الخارج لإكمال دراستهم على حسابهم الخاص**[٣]. والشيء الذي يجب أن يذكر أن أغلب العائلات التجارية لم تكن بغدادية الأصل فهي تمتد في أصولها إلى مدن وقبائل عربية أخرى فعائلة **الشاهبندر، والباچه چي، وقشطيني من سوريا، وعائلات الغنام، وصالح، وثنيان، وعسافي، وبصام، والخنيني من نجد، والجرجفجي من إيران، وآل عطا وحسن البغدادي من عانة، وآل الشالجي من الحجاز، والحلاوي من الحلة، وسليمان الصالح من قبيلة عقيل، وآل الوتار، وخالد الجلبي، ومراد الشيخ من الموصل، وآل كبة من ديالى**[٤]**، والمعلمة چي من الروم، ومناحيم دانيل من كردستان، وبيت ميناس من الأرمن**[٥]، أما العوائل البغدادية التجارية هي **سميكة آل الخضيري الشيخلي، والمراياتي المزرقجي، وعلي كافل حسين**

---

(١) Herchentack, Baghdad, Lo Reins Du Desert, Traduction Par A Siman Tour, Alfred, mame etfils, p:24.

(٢) W. Walter B. Harkis, from Batum to Baghdad VLA Persian, London, p:312.

(٣) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٥، ص٢٦٢.

(٤) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٤٦-٥٦-٦٦-٩٩-١٥٥-١٧١-٢١٤-٢١٧.

(٥) المصدر نفسه، ص٢٣٢-٢٣٧.

والخاصكي، وأبو التمن، وبيت البحراني، وعائلة إسكندر اسطفيان، وآل جرجي، وبيت نازد، وبيت بطاط، وبيت قحطان، وبيت ساسون صالح[١].
وهناك بعض العوائل رغم خسارتهم المالية وخاصة أصحاب الحرف الذين تحولوا بسبب التغيرات الجديدة إلى تجار، أو ممارسة أعمال أخرى، أو التجار الذين فقدوا أموالهم، مثل عائلة آل الرحال احتفظوا بمكانتهم الاجتماعية[٢].



منزل أحد وجهاء بغداد على نهر دجلة.

(١) المصدر السابق، ص٢٣٩.
(٢) المصدر نفسه، ص١٥٩.

٤

المثقفون والمتعلمون

هذه الفئة التي لا تشكل إلّا نسبة قليلة من الحكام، والمتعلمين، وصفوة المجتمع، والذين شغلوا، أوضاعاً ومراكزاً اجتماعية في المنظمات الحكومية، والدينية، والتعليمية، والاقتصادية، كانت أساساً، ونواة الفئة المثقفة الحديثة التي ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتبنت المعرفة والنشاط



مجالس تعليمية.

الثقافي لفترة طويلة، وأخذت تتسع بحكم مجموعة من العوامل فكان لكتابات علماء الدين وآرائهم الإصلاحية أثر في تبني أفكارهم من قبل أبناء العوائل الكبيرة والثرية التي تفاعلت مع الأفكار الحديثة أثناء إكمال دراستهم في إسطنبول وغيرها من حواضر أوروبا التي كانت من أهم منابع التجدد الحضاري والوعي الوطني والقومي والثقافي.

ولم يكن غريباً أن يرتبط الوعي الوطني القومي، والديني، والحضاري مع

هذه الفئة المتعلمة، لعدم نضوج القاعدة الاجتماعية التي يستند إليها عامة المجتمع، وانتشار الجهل بين أغلب قطاعات المجتمع، وتبنى هؤلاء المثقفون أفكاراً جديدة لتنظيم المجتمع تقوم على أساس الولاء الوطني والوحدة القومية، ودعوا إلى البحث عن مختلف السبل الممكنة لمعالجة المشكلات الاجتماعية التي كانت تفتك بالمجتمع، وقيادة التجديد والإصلاح في موضوعات جديدة تمس حياة الفرد والمجتمع والوطن مباشرة لإدراكهم واقع مجتمعهم، وتفاعل هذا الاتجاه مع الأوضاع الجديدة التي رافقت ثورة



الشاعر الكبير جميل صدقي الزهاوي.

الاتحاديين ١٩٠٨م التي فسحت المجال في البداية لمعالجة المشكلات التي يعاني منها المجتمع، **وهذا ما نجده في شعر عبد الغفار الأخرس، والزهاوي، ومعروف الرصافي، ومحمد** رضا **الشبيبي، وغيرهم فتحدث عبد الغفار الأخرس بسخرية عن الحكام العثمانيين بقوله:**

بـلـد كـبـار مـلـوكـه بـقـر صـاروا ولاة الـنـهـي والأمـر[1]

(١) عبد الغفار الأخرس، ص١٩٨.

وظهر في شعره الاتجاه الوطني القومي بقوله:

وبنـات أفكـار لـنـا عـربـيـة رخصت لدى الأعجام وهي غوالي[1]

والزهاوي الذي أدرك واقع مجتمعه، واندمج به وتفاعل معه، الأمر الذي انعكس على إبداعاته بالتدريج، ونادى بحرية الفكر لأن «الأدمغة الموضوعة تحت المراقبة لا يمكنها أن تنمو بصورة طبيعية»[2]**، وتجاوز الزهاوي في أطروحاته الشعرية حدود المألوف في الميدان العلمي فتحدث عن الكون، والأجرام السماوية، والنشوء والارتقاء، وغيرها من المواضيع العلمية**[3]**. وكانت معالجات الرصافي لمواضيع اليتيم، والمطلقة، والفقر، والمرض، واعتبار الجوع دافعاً أساساً من دوافع القتل، والسلب المنتشرة في المدينة. والذي أوضح بأن التعليم هو العلاج الأول لحل مشكلة التخلف، وتوفير الأمن في البلاد، وانتقد في قصيدة له سمّاها العادات القاهرة عادات التدخين، والخمر، وأخرى لا تحصى شوهت أحكام الدين.**

وكنتيجة طبيعية للسياسة الجديدة التي انتهجتها حكومة الاتحاد والترقي أظهر عدد من المثقفين سخطهم على الحكم التركي، وطالبوا بتحقيق العدالة، وظهرت إعلانات مناهضة للأتراك ألصقت في شوارع المدينة فيما حرّض آخرون على الثورة ضد العثمانيين بعد أن كانت الانتفاضة على الحكومة العثمانية تعد خروجاً على الخلافة الإسلامية **أما في مرحلة التحول هذه فقد كتب أحمد الشاوي بهذا الخصوص مبتدأ بأمجاد الأمة العربية يقول:**

ألا ليـت شـعـري والأمـانـي ضـلـة وعمر الفتى إن عاش ما عاش للهلاك

(١) المصدر السابق، ص٢٨٦.

(٢) مجلس مبعوثات ادنة ينجي اجتماع ضبط نامسي، (٢٠ جمادى الآخر ١٣٣٠هـ/ ٥ حزيران ١٩١٢م)، ص٣٠٠، مقتبس فيه عبد الرزاق النصيري، دور المجددين في الحركة الفكرية والسياسية في العراق (١٩٠٨-١٩٣٢م)، أطروحة دكتوراة، جامعة بغداد، ١٩٩٠م، ص١٠١.

(٣) المقتطف، ج٢، كانون الأول ١٨٩٦م، ص١٠٢.

وأبرد من صهب العثمانيين غلتي وأشفى واستشفى بسيفي من الأتراك[١]

ودعا محمد باقر الشبيبي صراحة إلى خلع الاتحاديين الذين استأثروا بالحكم **فقال**: «**أبناء هذا الشرف تعساً لشرفكم**»[٢].

وبدأ نقد العلماء في عدد من المؤلفات يمس قمة السلطة، وهيكل النظام، فتعدّت بدايات التحرك الفكري للمثقفين المجددين في القضايا الفكرية الصرفة ذات المردود الاجتماعي أولاً والسياسي ثانياً إلى القضايا الاجتماعية الصرفة ذات المردود السياسي أساساً، فأخذوا يتحدثون عن الغلاء، والوضع الاقتصادي العام، وعن المحتكرين، فانصب اهتمام المثقفين على انتقاد العادات الاجتماعية البالية التي كانت تعيق تقدم المجتمع، **وكانت حسب قول محمد باقر الشبيبي**: «**الداء العضال في محيطنا، حتى صارت عقبة في طريق نهضتنا الاجتماعية**»[٣]. وأدركوا الصعوبات التي تجابههم في ميدان التصدي لمثل هذه المشكلات، ولا سيما أن نشاطهم اقتصر على الناحية الفكرية بمعنى أنهم كانوا مجردين من قوة السلطة التي كان من شأنها مساعدتهم في ترجمة أفكارهم إلى واقع ملموس، ودعا بعضهم إلى تحديد المفاهيم الاجتماعية وإعادة صياغتها بما يتناسب وحركة التطور بل كانت اهتمامات المثقفين تتعلق بحياة معظم شرائح المجتمع وخاصة ما يتعلق منها بمعاش أفرادها اليومي، فأثار انتباههم انقطاع رواتب المعلمين عدة أشهر وخاصة أنها لا تكاد تكفيهم من الخبز والماء[٤]، فضلاً عن باقي المواضيع الضرورية منها معاناة الناس من ارتفاع الأسعار، ونشرت جريدة الروضة

---

(١) إبراهيم الوائلي، المصدر السابق، ص١٧٧-١٧٨.

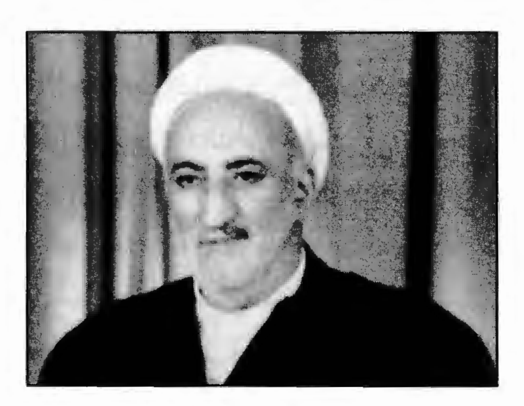
(٢) عبد الرزاق الهلالي، الشاعر محمد باقر الشبيبي (١٨٨٩-١٩٦٠م)، بغداد، ١٩٦٥م، ص٦٥.

(٣) محمد باقر الشبيبي، نظرة في العادات، لغة العرب، ج٢، آب ١٩١٢م، ص٤٣-٤٤.

(٤) الرقيب، العدد ١٣، ٢٤ ربيع الأول ١٣٢٧هـ.

اعترافاً من محتكري القمح في بغداد[١]، والتلاعب بأسعاره، وحالات الفقر، وحاولت وضع الحلول لتلك المشاكل بدعوة الأغنياء إلى مزيد من العون، والمساعدة للبؤساء[٢]، أو الطلب من الولاة بإصدار الأوامر لتحديد الأسعار، ومراقبة البائعين[٣].

ثم حدد المثقفون السبيل الصحيح الذي كان بوسعه أن يقضي على التخلف من تلك المشكلات الحياتية التي كانت وليدة طبيعة النظام القائم، إذ أدركوا بصورة صحيحة أن تعميم العلم والتعليم هو الطريق الصحيح إلى



الشيخ محمد رضا الشبيبي.

إحداث نقلة اجتماعية نوعية، وقد أدركوا أن سر التخلف هو الجهل، وأن العلم هو دواؤه الناجح، وأن الدولة يجب أن تأخذ دورها في توفير المستلزمات العامة لهذه النهضة، فحث المثقفون الناس في كل مناسبة لتسجيل أبنائهم في المدارس، وطالبوا أن يكون التعليم إلزامياً[٤]. ونادى المثقفون بحرية الفكر **كإبراهيم حلمي ومحمد رضا الشبيبي، ورزوق غنام صليوة، والزهاوي،**

---

(١) روضة، العدد ١٨، ١٢ شوال ١٣٢٧هـ.

(٢) المقتطف، ج٤، ١ تشرين الأول ١٩١٣م، ص٤٣٣.

(٣) صدى بابل، العدد ٤٢، ٤ حزيران ١٩١٠م.

(٤) الرقيب، العدد ٤٥، ١٩ شعبان ١٣٢٧هـ.

إذ لاحظوا أن تقلص ظل الحرية الفكرية، أو غيابها يعيق التطور الفكري والتقدم السياسي.

وارتبط دفاع المثقفين عن حرية الفكر في تلك المرحلة بمظاهر أخرى للتجديد الفكري والاجتماعي منها تحرير المرأة. الذي ظهر واضحاً لدى فهمي المدرس في طرح نظرة جديدة إلى المرأة مستنداً فيها إلى نماذج واقعية من حياة الرسول (ﷺ) ليدحض النظرة التقليدية السائدة إليها، لذا لا غرو أن تعد أطروحات المدرس مروقاً وإلحاداً كلفته النفي إلى جزيرة رودس في البحر المتوسط سنة ١٩٠٥م. وفي سنة ١٩٠٧م نشرت قصيدة للزهاوي تدعو إلى تحرير المرأة[١]، ومن الطبيعي أن يتطور الاهتمام بتحرير المرأة بعد سنة ١٩٠٨م فدعا عبد اللطيف ثنيان إلى الاهتمام بمدارس البنات، واستشهد بأحاديث الرسول (ﷺ)[٢]، وكذلك شكري الفضلي[٣]، ومعروف الرصافي[٤]، ومحمد



الشاعر الكبير معروف الرصافي.

(١) المقتطف، ج٨، ١ آب ١٩٠٧م، ص٦٣٢.

(٢) الرقيب، العدد ٧، ١٨ صفر ١٣٢٧هـ.

(٣) لغة العرب، ج٥، تشرين الثاني ١٩١٣م، ص٢٣٥.

(٤) ديوان الرصافي، ج٢، ص٢٣١-٢٣٦.

رضا الشبيبي[(١)]، ورزوق عيسى[(٢)]، وخيري الهنداوي[(٣)].

وانتقدوا كثيراً تراجع الاتحاديين عن وعودهم، ومبادئهم، وسمي عهدهم عهد **(إعلان الحرية الكلامية فقط)**، وكان لمحاربة المثقفين للتعصب، والاستبداد أثر كبير في تعميق مسار الدفاع عن الحرية الفكرية، وممارستها، وتنوير الأذهان، ففي السابق لم يتعد الأمر صفحات المخطوطات، ومجالس الخواص، وقصائد الشعراء أحياناً، فبدأ المثقف المجدد يخاطب عقول العوام ليس من خلال ما نشره من صحف، بل وأكثر من ذلك خلال الندوات التي كان يقيمها والتي حولت الجمعيات، وبعض المقاهي الشعبية إلى مجلسها الطبيعي، فتميزت بمواقفهم الانتقادية الذي لم يخل من قدره على الجرأة، ومن قدرة أكبر على التهكم، كانت لديهم رغبة صادقة للتفكير في أسلوب إنقاذ المجتمع ما دامت الآفات محدقة به، وما يحيط به من الأخطار تحول دون تقدمه، وتثير حفيظة الشعراء لأنهم يحسون بتلكأ في العمل من أجل تطوره، ولكن التذمر الذي كان يسود الوسط الثقافي بقي محصوراً في الداخل محكوماً بمؤثراته واستهدف الإصلاح فقط بمعنى أنه لم يستهدف الانفصال عن الدولة العثمانية.

ولم يقف الاتحاديون مكتوفي الأيدي أزاء حملة المثقفين المعادية لهم، والتي تفاقمت مخاطرها، وازداد تأثيرها، وبانت نتائجها بسرعة، فلجأت إلى ممارسات إرهابية أجبرت العديد من المثقفين إلى الفرار والاختفاء بينما ألقي القبض على عدد آخر منهم[(٤)]، ولكن مع هذا بقت هذه الفئة لها دور كبير في الوقوف بوجه الحكومة العثمانية.

---

(١) المقتطف، ج٦، ١ حزيران ١٩١١م، ص٥٥٥.

(٢) العلوم، ج١، تشرين الثاني ١٩١٠م، ص٢٥.

(٣) يوسف عز الدين، خير الهنداوي - حياته وديوانه الشعري، ص٢١٦.

(٤) عبد الرزاق أحمد النصيري، المصدر السابق، ص١٧٩.

العامّة أو (العوام)
في بغداد



الحرفية والمهارة لدى عُمّال بغداد.

تضم هذه الفئة بقية المجتمع البغدادي سواء أكانوا من العاملين من ذوي الدخل المتوسط أم من صغار التجار، وأرباب الحرف، والصنائع، والعبيد، الذين عانوا من الفوارق المادية التي نتجت عن العلاقات الاجتماعية، والاقتصادية غير المتكافئة، يضاف إليهم تلك الطوائف من العاطلين عن العمل، والمتقاعسين عن تعاطي الحرف، المختلفة في المجتمع والذين يشكلون في الغالب مجموعات مختلفة من الدراويش، والشحاذين، والمتشردين والأشقياء، واللصوص وغيرهم[1] وتقع تلك المجموعات في أسفل سلّم هذه الفئة الاجتماعية، **ويشير المؤرخون إلى هذه الفئة بالعامة أو (العوام).**

---

(١) د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، ص١٧٣.

يعد موضوع العامة إحدى الطبقات المهمة في إطار المجتمع البغدادي، وعلى الرغم من الإشارات التي عنى بها قسم من المؤرخين يتناولها هذا العنصر الإنساني المهم، إلّا أنها لا تتعدى عن كونها نقاط موجزة لا تفي بالغرض المطلوب حيث أن هناك الكثير من الغموض يكتنف نشاط العامة في كثير من مجالات العمل اليومي سواء أكان سياسياً أم اقتصادياً أم اجتماعياً، وقد تركزت عنايتها في هذا الموضوع على كشف ذلك الإبهام عن العديد من صفحات الأنشطة الحيوية لهذه الفئة، ورغم طابع الإبهام الذي اتصفت به أخبارهم، إلّا أنه يمكن القول إنهم يمثلون فئة كبيرة من المجتمع البغدادي، وأهل البلاد الأصليين، بل وأصحاب الحق الشرعي في العيش ضمن حدود ذلك المجتمع، إلّا أنهم افتقروا إلى السلطة التي انفردت بها الفئة الحاكمة من الولاة، وكبار الموظفين، وقادة عسكريين بممارستها دون حسيب أو رقيب، فاحتكروا مزاولة مختلف النشاطات السياسية، والفعاليات الاقتصادية، والإسهامات الاجتماعية حتى كانوا في ذلك الانفراد والاحتكار سبباً رئيساً في حرمان العامة من المشاركة في تلك المظاهر كافة فأصبح حقهم مغبوناً وكلماتهم ضائعة.

وعلى الرغم من الإشارات المختصرة في الدراسات التاريخية عن وضع العامة في المجتمع، أو علاقتهم بالسلطة، أو الدور الذي يلعبونه من أجل المساهمة في دفع عملية العمل والبناء في خضم الصراعات المستمرة، بل ومع قلة تلك الإشارات، إلّا أنها تدل على أن تلك الفئة كانت على الدوام ركيزة فعالة في الكثير من المظاهر الحيوية لذلك المجتمع في ظل الحكم العثماني كما أننا نلاحظ أنه رغم الاهتمام الزائد الذي يوليه مؤرخو ذلك العصر في بيان ما حدث للولاة ودور كبار الشخصيات في مختلف المجالات إلّا أن أولئك المؤرخين يجدون أنه لا مفر من الإشارة المختصرة إلى أمر العامة الذي لا يمكن إغفاله بسبب فعالية دورها، مما يظهر لنا بوضوح أن العامة بمجموعهم كانوا يشكلون محوراً فعالاً في المجتمع، كانت أغلبية هذه الفئة من المهاجرين. الفلاحين خصوصاً في هذه الحقبة التي اشتدت فيها الهجرة

القبلية والريفية إلى بغداد[١] مثل **عشيرة العقيل، والبو مفرج، والكردية، والبو عجيل، والعزة، وبيات، والجعيفر، والفلاحات، والوشاحات، والمهدية، والسواكن، وجميلة، والبو شبل**[٢]، فكانت العشائر مصدراً للتعويض، وخزاناً للسكان بالنسبة للمدينة[٣] مع أنه يحتمل أنه كانت هناك مصادر أخرى لتدفق السكان إلى المدينة، لأسباب اقتصادية محضة كالمجاعات والفقر، وموجات القحط التي تعرضت لها مواطنهم الأولى آملين الاستفادة من الفرص الاقتصادية المتوفرة في المدينة. ففي سنة (١٨٧٩-١٨٨٠م) عندما تعرضت المناطق العثمانية إلى المجاعة، جاء الكثير من الأكراد إلى بغداد فراراً من المجاعة وهم يصرخون «برسيمة برسيمة» أي جوعان، وعرفت هذه السنة في بغداد بـ(**سنة البرسيمة**)[٤] وغيرها من المجاعات التي تكررت فكانت بغداد ملجأهم.

ونتيجة لتعاقب موجات الهجرة على المدينة، ونزوح الكثير من السكان للاستفادة من الفرص الاقتصادية، وتحسين الظروف المعاشية، ظهرت أحياء سكنية جديدة في أطراف الأجزاء المأهولة من المدينة، وقد تميزت بسوء الأحوال العمرانية، والاجتماعية والصحية وتمثل ظاهرة اجتماعية تشوه المدينة، وتعمل على تصدعها باستمرار، ورغم المحاولات التي كان يبذلها الولاة للتخلص من المهاجرين، إلّا أنهم في الأخير استمروا في البقاء في أحيائهم، فشكلوا بذلك أهم مصدر لفئة العامة الاجتماعية في المدينة، ومن تلك محاولات علي رضا باشا لطرد العقيل من الكرخ، إلّا أن محاولاته باءت بالفشل بسبب سيطرة العقيل على قيادة القوافل التجارية وحمايتها[٥]، ودارت

---

(١) G. Geary, op., cit., p:214.

(٢) د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، ص٣٣٧.

(٣) حنا بطاطو، المصدر السابق، ص٣٣.

(٤) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٣٩.

(٥) عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث، ص٦٥.

معركة بين الطرفين عندما وجه علي رضا باشا قواته لطرد العقيل واستطاعت فيها قوات الحكومة الانقضاض على بيوت العقيل، ونهبها، وطردهم خارج بغداد، ولكن حاجات بغداد الاقتصادية كانت تلح على إعادتهم إليها إضافة إلى أن العقيل كانوا في حاجة إلى العودة إلى ديارهم فالتقت مصالح الطرفين في التعاون معاً، فعادوا فعلاً إلى ديارهم[(١)].

بصورة عامة توزعت الفئة العامة على أجزاء المدينة بشكل عشوائي، أو بشكل يعبر عن تجمعات اجتماعية تقوم على أساس المهنة أو العشيرة أو الدين، مما انعكس على اسم المحلة متخذة اسمها من اسم القبيلة، أو رئيسها توافقاً مع أهمية الأسرة الممتدة، والعلاقات القرابية، والرابطات القبلية، مثل العزة، البو شبل، البو سعيد، البو مفرج، وغيرها، أو متخذاً اسمها من المهنة التي اشتهر بها أهل المحلة، أو الديانة. يمكننا التعرف على الخلفيات الاجتماعية، والسلوكية لكل قبيلة من خلال طريقة تخطيط أزقة المحلة التي تقطنها.

لقد كانت الروابط داخل المحلة قوية، وحميمة[(٢)]، لم يشعر الفرد بأنه وحيد لأنه يوجد من يعتمد عليه وقت الشدة. مما كان لروابط الدم انعكاساً على المكان بصيغة تستهدف الحفاظ على الوحدة، والترابط مراعاة الظروف الأمنية التي كانت سائدة في تلك الفترة.

---

(١) المصدر السابق، ص٦٧.

(٢) يرى حنا بطاطو: أن لكل محلة سكانها الذين يتميزون عن غيرهم بمقومات ثقافية فرعية، جسدت ظاهرة الانشقاقات الحضارية، ونادراً ما كانوا يفكرون بالجماعة بشكل أوسع أو بمصالحها ككل، إذ إن سكان المحلة يعيشون عالم خاص بهم وكان ولائهم للمحلة متجسداً في العديد من المواقف، نرى أن هذا الحكم لا ينطوي على الدقة فالمحلات البغدادية نموذجاً لمحلات المدن الإسلامية، كانت مجرد وحدات صغيرة تتداخل في وحدة أكبر هي المدينة. لم تكن ثمة انشقاقات حضارية بينهما وإنما هي تعبر عن وحدة اجتماعية عميقة لها القدرة على صهر الأقوام النازحة إليها في بوتقة مفاهيم وقيم المدينة نفسها.

لقد عانى العامة من أسباب السخرة، والتجنيد، والضرائب، والرشوة في كثير من الأحيان مما كان له نتيجة سلبية على أحقيتهم في التمتع بفرص الحياة الطبيعية إضافة إلى معاناتهم لكثير من نتائج الأزمات المعاشية من أوبئة، وفيضانات، ومجاعات، وغلاء.

وتشير مصادر التاريخ إلى الكثير من أخبار تلك المعاناة، والمآسي، ومع تسليمنا بوجود عنصر المبالغة في سرد أنباء تلك الظواهر الاجتماعية إلّا أنه يمكننا التأكد أن نتائجها كانت في كثير من الأحيان وخيمة، ومحزنة. الأمر الذي يثير الجزع والخشية، ومن أشد الظواهر تأثيراً هي الأوبئة والفيضانات. وكان وقوع الوباء في بغداد إيذاناً بإقبال الناس على مزاولة الشعائر الدينية، وبذل الأموال للفقراء، والمساكين، والمحتاجين، ابتغاء رحمة الله عز وجل، والأغرب من هذا أن الكثير من الناس يسارعون إلى شراء مواد التكفين لأنفسهم، وأفراد عائلاتهم حالما يسمعون بانتشار الوباء بينهم استعداداً للموت. ويذكر كروفس شدة اهتمام الناس بغسل الميت وتكفينه، وإجراء كل ما أمرت به الشريعة الإسلامية في هذا الشأن، وأنهم اعتادوا أن يخالفوا أوامر الشريعة في حياتهم العملية كل يوم فلا يبالون، ولكنهم عند الموت يحرصون كل الحرص على اتباع الشريعة. وكانت ترتفع أسعار **(مستلزمات الفقيد)** ارتفاعاً فاحشاً ويشتد الطلب على الماء لغسل الموتى وباعة الأكفان والحبال، وكان السقاؤون يتحينون مثل هذه الفرص لرفع أثمانها[١]. كما حصل على سبيل المثال في سنة ١٨٣١م عندما انتشر وباء الطاعون في بغداد، وكان أفظع وباء حلَّ بها عبر تاريخها الطويل، فظل المعمرون من أهل بغداد يتحدثون عن مآسيه حتى عهد متأخر، ظهرت أول إصابات الوباء في محلات اليهود في آذار سنة ١٨٣١م ثم أخذ يسري نحو المحلات الأخرى، وبلغ عدد المصابين الذين لاقوا حتفهم حتى يوم ٢٤ نيسان (٣٠) ألف نسمة **واستمرت معدلات الموتى بالتصاعد يصف كروفس الحال في بغداد بقوله:** «كانت الشوارع قد خلت من المارة، فلا

(١) كروفس، المصدر السابق، ص٣٩.

يرى فيها سوى حملة الموتى أو الذين يأخذون الأكفان والسقائين الذين يأخذون الماء لغسل الجثث، وقد أغلقت ساحة الجامع الكبير إذ لم يبق فيها مكان للدفن، وصار الناس يحفرون القبور في جوانب الطرق، وأصبح الموت شيئاً مألوفاً عند الناس... ثم وصل الحال أخيراً إلى أن الناس أخذوا يتساقطون في الطرقات فلا يدفنهم أحد، وكان أشد المناظر إيلاماً وجود المئات من الأطفال الصغار في الطرقات وهم يتصارخون بعد أن ماتت أمهاتهم»(١).

لقد اشتدت وطأة الطاعون وتساقطت الضحايا بالآلاف يومياً، بعد أن كانت بالمئات، وكان من يفر من بغداد يقع في أيدي العشائر المتربصة لنهبهم فالوباء الفتاك في المدينة، والناهبون داخلها وخارجها، وفي الوقت نفسه بدأ ارتفاع منسوب دجلة، مهدداً بغرق بغداد، وفعلاً غرقت بغداد، وهدمت الكثير من البيوت مكتسحاً معه الموتى، والمرضى، وأما الذين تشبثوا بالهرب إلى تلال مرتفعة لعلها تحميهم من الفيضان، فحمتهم منه ولكن ازدحامهم ساعد على انتشار الوباء بينهم، فماتوا جميعاً، وغدت أيام بغداد أسوء من نكبة المغول لها(٢).

ومما يذكر أن الطاعون وفد إلى بغداد مرات عديدة في سنة ١٨٣٣ و١٨٣٤ و١٨٧٣ و١٨٧٤ و١٨٧٥، ١٨٧٦، ١٨٧٧، ١٨٨١، ١٨٨٢، ١٩٠١، ١٩٠٢م، واتخذ في بعض السنوات شكلاً وبائياً(٣)، ولم يقتصر الأمر على وباء الطاعون، فكثيراً ما كان وباء الهيضة والكوليرا يفد إلى المدينة، ففي سنة ١٨٤٦م أهلكت الكوليرا نحو (٢٠) ألفاً من السكان وفي سنة ١٨٤٧م أودت بحياة ستة آلاف منهم.

الحالة التي يمكن مشاهدتها أنه أثناء حلول كل وباء يهرب الولاة، وكبار

---

(١) لمزيد من المعلومات، انظر: المصدر نفسه.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث، ص٣٦.

(٣) شارل عيساوي، المصدر السابق، ص١٦٨-١٦٩؛ عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص٣٤.

الموظفين الموسرين من الأهالي إلى خارج بغداد هائمين في البراري[١] بعيداً عن مركز الوباء، فينتشر المرض بين أبناء الطبقة الفقيرة، ويقضي عليهم[٢]، **ويصف القنصل الفرنسي هذه الحالة أثناء انتشار وباء الكوليرا:** «وقد بدأت الكوليرا بالتفشي، والانتشار بين الأهالي الجهلاء بصورة مرعبة اعتباراً من أول يوم من أيام رمضان، فارتاعوا منها كل الارتياع نظراً لأنهم محرومون ممن يرشدهم إرشادات صحية»[٣]، وتشير السجلات الفرنسية إلى وقوع الكوليرا في بغداد كل عام ما بين السنوات (١٨٥١-١٨٦١م)، ثم عاد الوباء مرة أخرى في عامي (١٨٦٥-١٨٦٩م)، وفي سنة ١٨٨٩م[٤] وصل عدد الموتى إلى المائة والثلاثين في اليوم، واستمر الوباء مدة شهر كامل وعاد الوباء مرة أخرى سنة ١٨٩٣ و١٨٩٩م[٥]، وفي كل مرة يحصد الآلاف من السكان وأكثرهم من الفئة العامة لأنهم يستسلمون إلى فكرة القضاء والقدر المكتوب فلا يتخذون أي إجراءات صحية[٦]، أو يبتعدون عن المنطقة الموبوءة إضافة إلى ازدحامهم السكاني في المنطقة، فتنتشر الأوبئة والأمراض بينهم بسرعة، وتحصد منهم آلاف الأنفس[٧].

---

(١) لعبدالله الخياط فكاهي بغداد موقف يدل على ذلك، فعندما انتشر مرض الكوليرا «أبو زوعة» في بغداد خرج الأعيان وأهل الثراء خارج بغداد من ضمنهم عبدالله الخياط ولما طال به المقام سأل أحد القادمين من بغداد عن بعض الأعيان، فعرف أنهم جميعاً أحياء فقال: «**بس عزرائيل ما كادر إلّا على البقال والحمال**» قال ذلك ورجع إلى بغداد. فخري الزبيدي، بغداد، (١٩٠٠-١٩٣٤م)، ج١، ١٩٩٠م، ص٤١١.

(٢) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص١٤٤.

(٣) بير دي فوصيل، المصدر السابق، ص٥١.

(٤) شارل عيساوي، المصدر السابق، ص٥٦.

(٥) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٤٤.

(٦) Gerald Reit Leger, A Tower of Skunks A journey Through Persia, London, 1932, p:17;
ديولافوا، المصدر السابق، ص٨٨.

(٧) G. Geary, op., cit., p:131.

وإلى جانب حصول مثل هذه الأوبئة الخطيرة، فقد كان يحدث أحياناً أن يتعرض الناس لأمراض أخرى إلّا أنها غير مهلكة مثل الجدري، والملاريا ولكن يبدو أنها كانت تشل عجلة النشاط الإنساني اليومي مما يعيق حركة المساهمة الحضارية في ذلك المجتمع، وتدل من ناحية أخرى على عدم وجود الوعي الصحي الضروري للحيلولة دون تفشي هذه الأمراض، وكذلك عدم توفر العناية اللازمة كي تستمر المستشفيات القليلة بتقديم العلاج والدواء المفيد، نتيجة إهمال الولاة، وعدم بذل الدعم المطلوب، وعدم الرعاية المادية لتلك المراكز الاجتماعية كي تسير في تقديم العون المطلوب منها نحو المرضى، ففي سنة ١٨٧٦م عندما طلب الدكتور كولفيل من الوالي اتخاذ الإجراءات الوقائية لتفادي انتشار وباء الطاعون رفض الوالي ذلك لقوله بأن المرض لم يصب إلّا الطبقات الفقيرة من الناس ولذلك لا يمكن أن يعتبر شيئاً خطيراً[١]. وكانت بعض الأمراض البسيطة تشتد وتستفحل أحياناً نتيجة الإهمال، وسوء الإشراف، وقلة العناية من الإداريين المباشرين، فتغدو أشبه ما يكون بالطاعون، أو الوباء الخطير حيث يهلك بسببها أعداد كبيرة من أبناء المدينة، وخاصة الفقراء منهم[٢]، كما حصل في ١٩١٢م عندما انتشر مرض التيفوئيد في المدينة مما أدى إلى إصابة العديد من الناس[٣]، وفي تشرين الثاني سنة ١٩١٣م عندما أصاب الجدري (٢٠٪) من سكان المدينة[٤]، لقد أحدثت الأوبئة، والأمراض المتكررة هلعاً وفزعاً بين العامة.

أما موقف العامة من الأحوال الاقتصادية المتغيرة وظاهرة الغلاء المؤلمة التي تحصل في الكثير من الأوقات العصيبة والنتائج التي تتمخض عنها من

---

(١) For Further Reading, use; - American University of Beirut Festivel Book, Beirut, 1967.

(٢) G. Geary, op., cit., p:137.

(٣) لغة العرب، ج٦، السنة ٣، (محرم ١٣٣٢هـ/ آذار ١٩١٢م)، ص٣٦٧.

(٤) لغة العرب، ج٦، السنة ٣، (محرم ١٣٣٢هـ/ تشرين الثاني ١٩١٣م)، ص٣٣٣.

معاناة العامة فشواهدها كثيرة ومتكررة وكان نهج عدد من ولاة المدينة الاستغلال والاحتكار يساهم إلى حد بعيد في افتعال الأزمات المعاشية والاقتصادية في صفوف العامة والحصول على الأموال بالطرق غير المشروعة من عامة الشعب وكثيراً ما كان الولاة يمارسون سلطتهم في عدم بيع القمح والغلال الأخرى المخزونة في مخازنهم حتى تشتد الحالة في السوق ويبلغ الغلاء أو جه ويستفحل ارتفاع أسعار المواد الغذائية فيبيعوا عند ذلك غلالهم المخزونة تديجياً بأغلى الأسعار ويجنوا بالتالي أرباحاً كثيرة فمثلاً في سنة ١٨٤٧م قام الوالي نجيب باشا باحتكار بيع الغلال بالاتفاق مع بعض التجار مما أدى إلى ارتفاع أسعارها بالنسبة للمستهلكين بأكثر من الضعف وحقق ذلك ربحاً لهم يعادل (١٠٠) ألف جنيه[١] على حساب الفئة المستهلكة. ومن صور معاناة العامة المعاشية والاقتصادية تأخر عدد من ولايات المدينة وموظفيها عن معالجة الحالات الطارئة التي تحل بالمجتمع وتقاعسهم عن إيجاد حلول مناسبة لها ففي سنة (١٨٦٥-١٨٦٦م) كانت بغداد في أزمة كساد اقتصادي وكذلك ارتفعت أسعار الغلال بسبب الجراد الذي أتلف المزروعات والفيضان الذي أغرق قسماً كبيراً منها فبلغ سعر وزنة القمح الواحدة الذي كان يتراوح بين (٢٢-٢٥) قرشاً قبل الكارثة إلى (١٢٠) قرشاً ووزنة الشعير من (١٥-٧٠) قرشاً والشيء نفسه بالنسبة للرز والذرة والباقلاء والبصل، ولا حاجة إلى الإشارة إلى اللحم والبيض فهما بعيدان عن متناول هذه الفئة خلال هذه الأزمات[٢]. وفي عامي ١٨٧٠ و١٨٧١م كان غلاء وقحط شديد وقد ضاعف من أثر الأزمة المعاشية على سكان بغداد انصراف الوالي مدحت باشا والموظفين في الولاية إلى توفير الطعام والراحة إلى الشاه الإيراني وحاشيته

---

(١) شارل العيساوي، المصدر السابق، ص٦٦٥.

(٢) نيجهولت، بغداد قبل (١٠٠) عام، ترجمة: مير بصري، جريدة البلد، العدد ٨٢٧، ١٤ شباط ١٩٦٧م.

الذي زار بغداد في سنة ١٨٧١م[١]، وفي سنة ١٨٧٧م حينما صدرت الحبوب إلى بومبي وإلى إنكلترا وقد صادف عدم ورود الغلال بكميات كافية إلى بغداد من المناطق المجاورة أدركت الفئات الفقيرة أن الجوع والعوز يحدق بهم لذلك طالبوا بمنع تصدير الغلال إلى خارج بغداد[٢] وبعد سنة ١٩٠٠م اتجهت الأسعار إلى الارتفاع نتيجة للتطورات السياسية والاقتصادية التي عمّت المنطقة فارتفعت أسعار الخبز والأرز واللحوم وغيرها ارتفاعاً ملموساً[٣] والملاحظ في ظاهرة حالات الغلاء المتكررة لم تحصل زيادات في أجور العاملين من الفئة العامة وهذا يعكس لنا مستوى الضغط الذي تتعرض له هذه الفئة بسبب تفاوت الأسعار وتوالي أزمات الغلاء.

وكان لبعض المشاريع الاقتصادية في بغداد تأثير كبير على الفئة العامة ففي سنة ١٩١٢م عندما وضع الحجر الأساس لمشروع سكة حديد بغداد-برلين في جانب الكرخ، عانت بغداد من التضخم المالي الشديد مما انعكس على السوق المحلية بارتفاع أسعار المواد الغذائية والحبوب ارتفاعاً كبيراً، إذ أصبحت وزنة الحنطة بالليرة عثمانية، بعد أن كانت بـ(٥٠-٦٠) قرشاً وكذلك الشعير بلغ الوزنه بـ(٥٠) قرشاً بعد ان كانت بـ(٢٠-٢٥) قرش، أما اللحوم والبيض والبقوليات والخضروات فقد تضاعفت أثمانها[٤]، وفي سنة ١٩١٣م غدت حقة الخبز (بستة أو ثمانية قروش) بعد أن كانت بقرشين ونصف، وحقة اللحم بـ(٢٤) قرشاً بعد أن كانت بخمسة قروش، والسمن والدهن بـ(٤٠) قرشاً بعد أن كان بـ(١٦) قرشاً وحقة السمك بـ(١٠) قروش وهو أكل الفقراء بعد أن كانت (بقرشين)، والحال نفسه في جميع اللحوم

(١) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج ٨، ص٢٤٣؛ علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٢٥٨.

(٢) الزوراء، العدد ٢٨٤ و٢٨٦، ٢٢-٢٩ رجب ١٢٨٩هـ.

(٣) شارل العيساوي، المصدر السابق، ص٦٣.

(٤) لغة العرب، ج٣، (رمضان ١٣٣٠هـ/ أيلول ١٩١٢م)، ص١١٨.

الأخرى، والخضروات والبقوليات[١]، فقد تضاعفت أثمان جميع المواد الغذائية مما شكل عبئاً ثقيلاً على الفئة العامة. ولقد لفت انتباه المثقفين معاناة الناس من ارتفاع الأسعار الذي كان يعاني منه الفقراء بالأساس، **وقدم أحد المثقفين وصفاً يؤشر مدى المعاناة التي يعانيها البؤساء فقال ما نصه:** «يتلظون في نار البؤس والنكد، ويتضورون، ويتقلبون على جمر الشدة والضيق وقد اشتدت عليهم وطأة الغلاء، فإذا كان قد سئم القوم ابتياع الشلغم والجزر مثلاً اللذان هما من أحط أنواع المأكولات قدراً لارتفاع سعرها، ولا شيء هما من القوت؟ فكيف بالحنطة والشعير والأرز وغيرها من الحبوب، ولم يعد للفقير ما يمكنه من أن يقتني منها كسرة»[٢].

وغالباً ما كان الفيضان هو السبب الرئيس لحدوث الغلاء، ففي سنة ١٨٣٩م وصف الألوسي بغداد كما كانت أيام الطاعون يقول: «وأن أعظم ما شاهده بعد حادثة الطاعون ما وقع سنة ١٢٥٥هـ، فإن دجلة طغى ماؤها حتى تساوى في بغداد أرضها وسماؤها»[٣]، وتكرر أحاطة الفيضانات ببغداد دائماً وفي بعض الأحيان يترافق مع الفيضان انتشار الأوبئة كما حصل في ١٨٨٤ و١٩١١م حيث ترافق مع الفيضان انتشار الأمراض كالملاريا[٤].

وربما كان الجفاف هو سبب الغلاء ففي سنة ١٨٧٢م وبسبب قلة الأمطار عانى الناس كثيراً من ارتفاع الأسعار، وحاول التجار استغلال الوضع، ولكن الحكومة منعت التصدير خلال هذه السنة لتوفير الحبوب وسائر الأغذية إلّا أن هذا لم يجدِ نفعاً فاستمر الحال على ما هو عليه[٥].

---

(١) لغة العرب، ج٩، السنة ٢، (ربيع الثاني ١٣٣١هـ/ آذار ١٩١٣م)، ص٤٢٠-٤٢١، ج١٠، (٢ جمادى الأولى سنة ١٣٣١هـ/ نيسان ١٩١٣م)، ص٤٧٩.

(٢) صدى بابل، العدد ١٨٠، ٣٠ آذار ١٩١٣م.

(٣) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص٤٤.

(٤) المصدر نفسه، ج٨، ص٧١.

(٥) المصدر نفسه، ج٨، ص١٤.

كما كانت الأزمات السياسية في جميع الأحيان سبباً رئيساً في حدوث الاضطراب الاقتصادي، وارتفاع الأسعار والتهافت على شراء الأقوات، فوجد نوع من الارتباط الطردي بين الاستقرار السياسي، والازدهار الاقتصادي، فكلتا الحالتين مرتبطتان ببعضهما إلى حد التأثير الفوري البالغ، فعندما يقع أي اضطراب سياسي، أو حرب تتشنج الحياة الاقتصادية، ففي سنة ١٨٣١م عندما حاصرت قوات علي رضا باشا بغداد، أغلقت الأسواق وارتفعت الأسعار فغدا سعر القمح بـ(١٠) قروشاً! للأقة والرز بسعر (٢٠) قرشاً وحالما دخلت القوات بغداد هبطت الأسعار أضعاف مضاعفة وفتحت الدكاكين أبوابها[١] وفي سنة ١٨٥٣م خلال حرب الدولة العثمانية مع روسيا، انتشرت دعاية مفادها هجوم إيراني وشيك الوقوع على بغداد مما أدى إلى ارتفاع الأسعار عن مألوفها وكانت حرب القرم أحد أسباب الغلاء في المدينة، واستمر هذا حتى سنة ١٨٧١م[٢]، وبسبب حرب البلقان سنة ١٩١٣م أصاب الكساد تجارة بغداد، مما دفع المجلس البلدي إلى تقديم عريضة إلى مجلس الولاية طالبين منع تصدير الحبوب والتمر حفاظاً على حياة الفقراء[٣]، إلّا أن هذا لم يجدِ نفعاً فقد ارتفعت أثمان الأطعمة وخاصة الخبز إلى الضعفين عما كانت قبل ذلك[٤].

وكان للصراع الدائم، والمشاحنات المستمرة بين القبائل البدوية، والحكومة بسبب رفضهم لمبدأ الاستقرار، ودفع الضرائب، واعتداءاتهم على المدينة، ونهب ما فيها من موجودات وقت الأزمات، أو بسبب ممارسة قطع الطرق على المسافرين، وعابري السبيل حيث يتعرضون لهم بالسلاح، ويسلبون جميع ما لديهم من مال وبضائع، أو رفضهم الإنصياع لأوامر الحكومة، أحد

---

(١) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج١، ص٢٨٠.

(٢) شارل عيساوي، المصدر السابق، ص٦٠٣.

(٣) لغة العرب، ج١٠، نيسان ١٩١٣م، ص٤٧٢.

(٤) لغة العرب، ج١١، السنة ٣، (جمادى الثاني ١٣٣٢هـ/ أيار ١٩١٤م)، ص٥٨١.

العناصر الرئيسة في حدوث ظاهرة الغلاء، والفوضى الاجتماعية في المدينة في كثير من الأحيان. وعندما حدثت معركة بين عشيرة العزة من جانب، وجيش الوالي وعشيرة شمر من جانب آخر سنة ١٨٣٤م أصبحت المنطقة المحيطة ببغداد في حالة من الفوضى وفقدان الأمن لا تطاق، وأخذ الفلاحون، والرعاة، وأهل البساتين يتركون أماكنهم، ويلجأون إلى داخل الأسوار ليحتموا بها،[(١)] وفي سنة ١٨٥١م عندما انتهج نامق باشا سياسة الشدة مع العشائر انتشر القلق، وانقطعت الطرق، واستولى الرعب على الناس في بغداد حتى صاروا لا يستطيعون الخروج منها، ووصفها أبو الثناء الألوسي بقوله: «إنه لا يستطيع الطير أن يطير ولا الأسد الوثاب أن يسير ما بين حلتها، وبصرتها بل ما بين كرخها ومقبرتها»[(٢)].

وفي سنة ١٨٥٨م، عندما أراد القائد عمر باشا تطبيق التجنيد على العشائر اضطرب الأمن، وأخذت الفوضى تعم البلاد إضافة إلى ورود خبر تقدم القوات الإيرانية نحو الحدود مما أدى إلى ارتفاع الأسعار، فأصبحت وزنة الحنطة بـ(٤٥٠) قرشاً رائج والشعير بسعر (١٠٠) قرش رائج[(٣)].

وبعد الثورة الدستورية سنة ١٩٠٨م وخاصة في عهد الوالي شوكت باشا اضطرب الأمن في العراق عامة وبغداد خاصة، بسبب اضطراب العشائر وانتشر اللصوص الذين اصطدموا بالدرك والشرطة، فهب الناس من مضاجعهم على أصداء البارود وأصوات الاستغاثة وصراخ المعونة وطلب النجدة، ما عدا فترة ناظم باشا التي لم تستمر طويلاً إذ توفر الأمن والسلام في المدينة.

وكانت السنوات الأولى من الحرب العالمية الأولى (**السفربر**) وبالاً على

---

(١) جيمس فريزر، المصدر السابق، ص١٣٤-١٣٥.

(٢) أبو الثناء الألوسي، نشوة المدام في العودة إلى مدينة السلام، بغداد، ١٢٩٣هـ، ص٤٩.

(٣) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص١٢٦.

عامة المجتمع[١]، فانخفض إنتاج الحنطة والشعير إلى الربع أو الخمس مما كان ينتج قبل الحرب وحدث الكساد التجاري السريع بسبب انخفاض تجارة الاستيراد لقلة البواخر وانعدام الأمن فعمت موجة غلاء شديدة[٢]، فارتفعت أسعار المواد الغذائية حتى وصل سعر الخبز إلى ثلاثة أضعاف[٣] وأصبح مئات الناس على وشك الهلاك من الجوع، وبلغت نسبة وفيات الأطفال (٤٠٪) من المواليد حسب تقرير أحد الأطباء المقيمين في بغداد[٤]، وأبادت الأوبئة عشرات الألوف منهم[٥]، وجند الكثير من شباب المدينة لإرساله إلى الجبال والتلول حيث يندر أن يعود إلى أهله من يذهب إلى حرب (**السفربر**) وقد لاحظ أحد أعضاء المجلس العمومي في بغداد ما آلت إليه الأوضاع من عدم وجود عمل، وضيق الواردات، وغلاء الأسعار في كل شيء ومن المؤكد أن الأوضاع كانت أسوأ بكثير مما وصفه هذا[٦]، لأن ارتفاع أسعار المواد الغذائية وتدهور الأحوال الاقتصادية بصورة عامة يعكس لنا عدم وجود الاستقرار السياسي، وتلاشي العدالة الاجتماعية، وانتفاء ميزة الأمان في طرق التنقل التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بظاهرة ارتفاع أسعار المواد الغذائية، والغلاء الفاحش الذي كان من أكثر الظواهر الاقتصادية إضراراً بالعامة فيقاسون الجوع والمرض حيث ينتشر الوباء بين فئاتهم، وتنالهم أوخم العواقب، وحينما تصبح الأسعار

---

(١) أمين المميز، المصدر السابق، ص٥٦.

(٢) الزوراء، العدد ٢٦٠١، ٢٤ ربيع الأول ١٣٣٥هـ، محمد حسن سلمان، المصدر السابق، ص١٧٣-٢٢٢؛

Arnold. Wilson, Layalties Mesopotamia 1974-1917, 2ed, vol. 1. London, 1931, p:15.

(٣) كوتولف، المصدر االسابق، ص١٠٩-١١٢.

(٤) صدى الإسلام، العدد ١٥١، (١٣ ربيع الأول ١٣٣٤هـ و١٩ كانون الثاني ١٩١٦م).

(٥) عبد الحميد العلوجي، خضير عباس اللامي، الأصول التاريخية للنفط في العراق، ج١، بغداد، ١٩٧٣م، ص١٧٤-١٧٥.

(٦) الزوراء، العدد ٢٥١٩، ٢٧ رجب ١٣٣٣هـ.

معتدلة، ومعقولة في ظل الاستقرار السياسي، والعدالة الاجتماعية، وبذلك ينعم عامة الناس بالاستقرار الشامل في الأوضاع الاقتصادية بعيداً عن نتائج حالات التوتر السياسي والأزمات الاجتماعية.

ومن الأسباب الاقتصادية التي كان من المحتمل أن تسبب قلق العامة، ومعاناتهم مادياً، ظاهرة تزييف العملة أو تخفيض العملة، وهي من الأسباب التي يلجأ إليها الباشوات لزيادة دخلهم[١]، وتنخفض العملة بسبب الظروف السياسية المضطربة كالحروب، أو الثورات الداخلية، واختلال الأمن كما حصل سنة ١٨٨٩م عندما انخفضت قيمة الليرة العثمانية الذهبية بسبب اختلال الأمن في الجهات الجنوبية من العراق[٢]، ولم يكن للنقود التركية سعر ثابت منظم فسعرها يزيد وينخفض كل يوم حسب كثرة كل نوع من أنواع النقد، أو قلته مما كان له أثر كبير على صغار التجار فكان في حيرة من أمره، وليس حال المستهلك بأفضل منهم لذلك قامت الحكومة العثمانية - لتفادي تذبذب الأسعار في مشترياتها، ومدفوعات الضرائب - بوضع سعر ثابت لمختلف النقود المتداولة في المدينة يستعمل في مدفوعات الخزينة. وهو يختلف (٥٪) عادة عن أسعار السوق، ولكن إذا ارتفع الذهب أصبح التباين عظيماً كما حدث سنة ١٨٦٧م على أثر الأزمة الاقتصادية، وركود التجارة وارتفع فرق السعر إلى (٢٠٪)[٣].

ورغم محاولات مدحت باشا لتوحيد النقود، والمقاييس، والأوزان إلّا

---

(١) شارل العيساوي، المصدر السابق، ص١٨١.

(٢) إبرهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٣٩. وقد علق الشيخ عبد الرزاق الشواف على ذلك بقوله:

قل لأمير المؤمنين الذي	**قد عمنا بالجود واللطف**
درهمه أضحى وديناره	**في سوق بغداد لدى الصرف**
أذل من طالب علم أتى	**لحاجه دائرة الوقف**

(٣) نيجهولت، بغداد قبل (١٠٠) عام، جريدة البلد، العدد ٨٢٧، ١٩٦٧م.

أنها باءت بالفشل فبقي التلاعب بالنقود مستمراً[١] ولم تفلت القيمة الحقيقية من أيدي الناس ولا من أيدي الصرافين. ولم يقتصر التلاعب بالنقود على النقود العثمانية، وإنما شمل النقود الإيرانية وفي نيسان سنة ١٨٨٨م أصدرت الحكومة قراراً بأن قيمة العملات تخفض بمقدار الثلث، وبذلك انخفضت قيمة المجيدي (من ٧٥ و٢٨ قرشاً صاغاً إلى ١٩ قرشاً صاغ)، والليرة (من ١٧٠ قرشاً إلى ١١١ قرشاً)[٢]. وفي كانون الأول سنة ١٩١٢م ألغيت النقود الفارسية إلّا أن الحكومة تراجعت عن هذا بعد أسبوعين بسبب امتلاك الفقراء، والأوساط من الناس العديد منها، فإلغاؤها يعني الإضرار بالعامة[٣]، وكان هناك عصابة لتزييف النقود كما أشارت الزوراء إلى القبض عليها سنة ١٨٧٩م إذ إنها قلدت المجيدي، والروبية الهندية، والسكة الروسية ونشروها بين الناس[٤]، وفي سنة ١٨٩٢م أعلنت الحكومة عن النقود المزيفة، وحذرت الناس من التعامل بها إلّا أن هذا لم يجد نفعاً[٥]، وفشلت أي محاولة لتوحيد النقود من الحكومة لأنه لم يكن هناك من النقود ما يكفي للتداول ليفي بالحاجة الاقتصادية، وإن إجبار الناس على ذلك يؤدي إلى اضطراب المعاملات التجارية، أو يحدث تضخماً اقتصادياً الأمر الذي يؤدي إلى أرتفاع الأسعار في الأسواق، كما أن بغداد كانت منطقة مفتوحة تجارياً لذا كانت العملات الفارسية والهندية تشيع فيها[٦] وإذا حاولت الحكومة إزاحتها فإنها تفشل في إجرائها فلهذا كانت خططها لتوحيد النقود، أو القضاء على التزييف تواجه الفشل الذريع[٧]، وكان العامة أكثر الناس تضرراً بظاهرة

---

(١) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص١٧٦.
(٢) شارل عيساوي، المصدر السابق، ص٥٩٧.
(٣) لغة العرب، ج٧، (محرم ١٣٣٠هـ/ كانون الثاني ١٩١٢م)، ص٢٧٩.
(٤) الزوراء، العدد ٨٥٩، ٢٦ رمضان ١٢٩٦هـ.
(٥) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص١٢٢.
(٦) H. S. Cowper, op., cit., P:256.
(٧) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص ١٧٦.

تخفيضها أو تزييفها، وفي السنوات الأولى من الحرب العالمية الأولى **أصدرت الحكومة المركزية نقوداً من الورق (البنكوت) كتب عليها لتستبدل بالذهب بعد سنة من انتهاء الحرب**[١]، مما كان له بالغ الأثر على الفئة العامة، إذ استعملت القوة لجمع الليرات الذهبية لاستبدالها بالعملة الجديدة الورقية، وكان لهذه الحادثة تأثير في نفوس الكثير من الناس[٢]. إضافة إلى ما أحدثته **السفربر (الحرب العالمية الأولى)** من أوضاع سيئة في المدينة، ومن صور التعسف التي ألمت بحياة العامة المعاشية والاقتصادية قد اجتهد بعض المسؤولين الإداريين في الاستفادة من الطاقة البشرية، والمادية للناس، أو الرعية المحكومين لمختلف الوسائل لخدمة العديد من الأغراض الشخصية، أو المقاصد دون الأخذ بعين الاعتبار أدنى اهتمام بهدف الالتزام نحو الناس بكثير من الواجبات والمسؤوليات، وكان البعض يسخر هذه الفئات الضعيفة لأعمال الخدمة، والبناء بدون مقابل، ولو كانت بضع قروش أو حتى معاملة حسنة طيبة، فإذا حلت في المدينة كارثة يثير الولاة في الناس الحمية العربية أو العاطفة الإسلامية فينسون بذلك الجراح والآلام، ويساندون الحكومة، وفي سنة ١٨٧٤م يذكر «وليم فوك» كيف أصدر الوالي «**رديف باشا**» أمراً بإغلاق جميع الأسواق، والدكاكين وأوجب على الذكور من السكان كافة أن يعملوا على إصلاح السداد المحيطة بالمدينة لإنقاذها من الفيضان. واستمر بالعمل لمدة أربعة أيام حيث نجحوا في تخليص المدينة من الفيضان[٣].

(١) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص١٧٤؛ رزوق غنيمة، تجارة قديماً وحديثاً، ص١١٧.

(٢) كان لهذه الحادثة تأثير في نفوس الكثير من الناس، إذ سجلت شعراً شعبياً ثم صار غناء على كل لسان استهزاء بالحكومة **بقوله**:

أنا المسيجينة أنا   أنا المظيليمة أنا

أنا الباعوني هلي   بالنوط والوعدة سنة

يونس سعيد البغدادي، شقاوات بغداد، ص١٦.

(٣) W. Fogg, op., cit., p:222.

وفي السنة (١٣٢٣هـ-١٩٠٥م) عندما تعرضت الكرخ إلى فيضان هرع جميع الأهالي للعمل على إنقاذ جانبهم، واستمر العمل مدة أسبوع، في نقل الأخشاب والحصر والأتربة[١].

وهناك العديد من الحالات التي تعكس عمل العامة بالسخرة، حيث كان عدد من المسؤولين يحرص على تحصيل أكبر قدر من الثروة عن طريق سلب أموال الناس بقوة السلطة والسطوة الحكومية في حين عانى صغار التجار، والباعة، وأصحاب المحال من تعرضهم لظاهرة فرض بعض المتسلطين ذوي الشأن الكبير عليهم بشراء أصناف كثيرة من البضائع التالفة بأثمان باهظة فيتكبدون نتيجة لذلك خسائر فادحة، **أن المتطلبات المادية للكثير من الولاة كانت من الأسباب التي دفعت هؤلاء المتسلطين للاعتداء على أموال الرعية من أجل تلبية حاجات حياة البذخ، والمتعة، والرفاهية غير المحدودة.**

ومن مظاهر التعسف التسلط على عامة الناس من قبل حاشية الولاة الذين عينوا في مناصب كي ينالوهم بالضرر، والأذى مما أدى إلى انتشار الفزع بين مختلف الفئات العامة، ومن الأمثلة الدالة على وصول بعض السفهاء من ذوي الأوضاع الاجتماعية الوضيعة إلى المناصب العليا هو علي آغا السرجي الملقب بالملا علي الخصي[٢]، الذي كان كاتباً في قرية الخالص حيث قدمه الوالي علي رضا باشا وجعله بمنزلة قائد الجيش، وكلفه بجمع ميري العشائر، وكان يخرج خارج المدينة فينهب القبائل وياخذ ممتلكاتهم وجميع ما لديهم من الدواب، ثم ياتي بها إلى بغداد فيبيع الأغنام على جزاري بغداد ويرمي الأبقار على أهالي البساتين وظل الملا علي يمارس أبشع الأنشطة السيئة،

(١) عبد العزيز القصاب، من ذكرياتي، بغداد، ١٩٦٢م، ص٤٣.

(٢) W. Kennett Loftus, Travels and Researches Chaldaen and Susrouna, London, 1857, p:11;

بيير دي فوصيل، المصدر السابق، ص٩٣.

والاضطهاد والظلم مع عامة الناس عدّة سنوات[١]. وعلى غرار الملا علي كان عبد القادر الموصلي يسلب، وينهب، ويقتل بحجج وذرائع مختلفة واستمر مسلطاً على رقاب البغداديين زهاء (١١) عاماً[٢]. ونظيرهما بالسوء، والنهب، والسلب حمدي باشا[٣]، وكذلك أحمد آغا الذي كان بمنصب التفكنجي باشا لاقى منه الناس الأمرين، وصار يضرب به المثل البغدادي: **«تعال فهم أحمد آغا»** ولم تتخلص الناس من جوره إلّا في عهد ولاية نامق باشا سنة ١٨٦٢م[٤].



نامق باشا.

وقياساً على هؤلاء كان العشرات من جلاوزة وحاشية الولاة، والقادة وكبار الموظفين يعيثون في شؤون عامة الناس فساداً بدعوى الحفاظ على الأمن وجمع الميري، وتنفيذ أوامر الوالي، وتنفيذ الشريعة الإسلامية، فانتشر الرعب والهلع بين الناس بدلاً من الإحساس بالاستقرار والطمأنينة النفسية، وفي مقابل ذلك كان تمادي هؤلاء الولاة، وكبار موظفيهم، وحاشيتهم في

(١) جعفر الخياط، المصدر السابق، ص٣١٤-٣١٥.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٠٠.
(٣) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص ٥٣.
(٤) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٢، ص٢٢١.

أموال الناس وممتلكاتهم في الاستمتاع في مختلف وسائل اللهو، والعبث الأخلاقي والثراء غير المشروع. ويعلق لونكريك على طريقة الجباية في عهد نجيب باشا: «**اتخذ طرقاً للجباية مخزية وخالية من بعد النظر يحصل على المال من أجل استعماله الشخصي..**»(١).

ويعد أسلوب التزام الأراضي، والأملاك الذي سلكه الولاة بهدف جمع الأموال أحد أسباب معاناة العامة من الظلم والتعسف، لقد حرص الضامن بشكل رئيس على تحصيل نصيبه أولاً من قيمة الضريبة المدفوعة وحيث إن هذا النصيب يزيد كثيراً على نسبة الضريبة المقررة حكومياً، فإن هذا يعني معاناة العامة من شتى أصناف الظلم والألم حيث برز التمادي في جميع الضرائب الباهظة ودون رحمة، أو رأفة بالحالة الاجتماعية المتردية التي يعاني منها عامة الناس، بل وصل الأمر إلى حد الضرب دون هوادة في سبيل جمع الضرائب المقررة رسمياً بينما تطاول أصحاب السلطة على الفئات الضعيفة، ولعب بعض علماء الدين دوراً في الدفاع عن هؤلاء المضطهدين، ووقفوا إلى جانبهم ضد الولاة والموظفين حيث طالبوا الولاة بأن يرأفوا بهذه الفئة الضعيفة، ويرحموها من تحمل مشقة دفع الضرائب الباهظة التي لا تتناسب مع دخلها المتواضع وخاصة أهالي بغداد محلة الشيخ عبد القادر الكيلاني، إلّا أن هذا لم يجد نفعاً ودون فائدة، واستمر الظلم ومعاناة العامة للكثير من صور التعسف والقسوة على يد هؤلاء الموظفين.

كانت مهمة الملتزم تنحصر في تعهد أحد الأشخاص المسؤولين في هذا الجهاز بتحصيل الضرائب المقررة على أي نشاط اقتصادي، أو عمل حرفي، ومن ثم توكل إليه مهمة القيام بهذه المسؤولية بعد أن يدفع مبلغاً معيناً من المال، وعلى ذلك يبدأ هذا الضامن ممارسة عمله في جمع الضريبة المقررة من الناس المعنيين(٢).

(١) ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون، ص٢٨٦.

(٢) جميل موسى النجار، المصدر السابق، ص٣٧٩.

وفي سبيل استعادة ذلك المبلغ الذي دفعه مقدماً فإن الضامن يولي عناية خاصة بتحصيل قدر مناسب من المال لجيبه الخاص أولاً ثم بعد ذلك أخذ الضريبة المقررة رسمياً للحكومة، فكان الفرد مجبراً على دفع مبلغين من المال، أو بالأحرى ضريبة مضاعفة نصفها للحكومة، ونصفها الآخر للضامن مما يعني مضاعفة المعاناة النفسية، والخسارة المادية نتيجة لهذا النظام الضرائبي السيء، وتطاول الضامن ظلماً على حقوق الرعية، وتغاضى أصحاب السلطة عن هذه الصور المختلفة من الظلم، والتعسف، والاضطهاد الذي يمارسه هؤلاء الضامنون ضد الناس، وعلى حساب حقوقهم، وحريتهم، وأموالهم دون رقيب أو حسيب، فكان ملتزمو الضمانات على علاقات وطيدة برجال السلطة وأصحاب المكانة العليا في الدولة كي يجدوا من يقف إلى جانبهم ضد الشكاوى التي يرفعها الناس عليهم بسبب أساليبهم الظالمة لتحصيل المنافع الخاصة، والفوائد الشخصية إلى جانب ممارساتهم الخاطئة في حقوق الناس على مختلف فئاتهم، ورغم محاولة الحكومة العثمانية إلغاء الإلتزام بعد صدور مرسوم كولخانة إلّا أنها لم تتمكن من السير طويلاً في هذا السبيل للصعوبات التي كانت تكتنف قيام موظفيها بجمع الضرائب والرسوم، فعادت إلى اعتماد الملتزمين في جباية الضرائب[1]، حيث تضع الضرائب، والرسوم في المزايدة العلنية بصورة دورية، ويعلن عنها أحياناً في جريدة الزوراء، وتعهد جباية كل ضريبة إلى الملتزم الذي يقدم أعلى مبلغ لها[2]، ولكن عملية إحالة الضرائب إلى الملتزمين كانت تتعرض أحياناً للتلاعب حيث يعمل الموظفون المكلفون بإحالتها، ومنحها لبعض المزايدين دون البعض الآخر بضغوط من السلطات العليا، كما أن التنافس على المزايدة كان يؤدي ببعض المزايدين إلى رفع بدل الالتزام إلى مبلغ كبير لا يمثل مبلغاً

(١) المصدر السابق، ص٣٨٠.

(٢) الزوراء العدد ٣٩ و٤٤٦، (٢٠ ذي الحجة ١٢٨٦هـ، ١٧ جمادى الثاني ١٢٩١هـ)؛ الرقيب، العدد ٨٧، ١٧ محرم الحرام ١٣٢٨هـ.

حقيقياً للضريبة المزايد عليها[١]، الأمر الذي يؤدي إلى جمع أكبر قدر ممكن من المال بإجبار الناس على دفع مبلغ أكبر من المبلغ المقرر[٢]، وكثيراً ما كان الجباة، أو الملتزمون يتجاوزون الحد القانوني في جمع الضرائب، ومن هؤلاء محي الدين باشا رئيس قومسيون التحصيلات في بغداد الذي جاء لإصلاح الوضع إلّا أنه اتبع خطى من سبقه وهناك العديد من هؤلاء[٣].

وقد شملت هذه الالتزامات جميع أنشطة الحياة اليومية بدون استثناء، إلى حد أن جماعات كثيرة تضررت منها بدرجة كبيرة، ومن هذه الضرائب الرسوم التي تفرض على الناس هي **رسوم عبور الجسور**[٤]، **ورسوم ذبح الحيوانات في المجازر لاستهلاك لحومها**[٥] **ورسوم القبانية، أو الوزن والدلالية، ورسوم أحمال الدواب، ورسوم الاحتساب، ورسوم الأرضية، ورسوم الشريعة**[٦]**، ورسوم المحاكم، ورسوم الطابو، ورسوم الدفن**[٧]، وهناك رسوم تفرض حتى على الفلاحين الداخلين أسواق المدينة لبيع منتوجاتهم الزراعية، عرفت بالباج[٨] وضريبة البدل العسكري، وغيرها من الضرائب، وهناك ضرائب مؤقتة، واستثنائية تتقاضاها الدولة بسبب ظروف

---

(١) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص٢٤٩.

(٢) Noval Intelligence Division, Iraq cuns the Persian Cuis, Sptember 1944, Oxford University Press, Oxford, p:117.

(٣) الرقيب، العدد ١٧، ١٢ ربيع الآخر ١٣٢٧هـ.

(٤) Habib Chiha, op., cit., p:165.

(٥) لغة العرب، ج١٠، السنة الثالثة، (جمادى الأولى ١٣٣٢هـ/ نيسان ١٩١٤م)، ص٥٥٥.

(٦) الرقيب، العدد ١٠، ١٠ ربيع الأول ١٣٢٧هـ.

(٧) لغة العرب، ج٦، السنة الثانية، (محرم ١٣٣١هـ/ كانون الأول ١٩١٢م)، ص٣٤٣-٣٤٥.

(٨) الرقيب، العدد ٨٧، ٢٦ محرم الحرام ١٣٢٨هـ؛ عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص٣٠٢؛ A. Locher, op., cit., p:143.

خاصة، ففي سنة ١٨٥٣م وبسبب حربها مع روسيا فرضت على كل بيت رسماً مقطوعاً قدره (١٠٠) قرش، أو أن تدفع كل عائلة حسب مستواها المعاشي مقداراً من المال، فالمتوسطة الحالة تدفع (١٠٠) قرش، والفقيرة تدفع (٢٠) قرشاً[1]، وفي سنة ١٨٧٧م جمعت الإعانات المالية من الأهالي للسبب نفسه مع العلم أن بغداد كانت تعاني من انتشار وباء خطير[2]. **وفي سنة ١٨٩٧م عند اندلاع الحرب بين الحكومة العثمانية وبين اليونان فرضت الدولة إعانة التجهيزات العسكرية، إضافة إلى حصة المعارف، وحصة المنافع والأشغال العامة وكثيراً ما كانت تجمع بالقوة**[3].

إضافة إلى التبرعات التي تجمع للإصلاحات العمرانية ففي سنة ١٨٥٦م جمع من أهالي بغداد لبناء المسناة الواقعة على شاطئ دجلة المحاذيه لضاحية الأعظمية ثلاثة أضعاف ما يمكن أن يصرف لها[4]، وفي عهد مدحت باشا فإن معظم الأبنية التي استحدثت قد تم بناؤها عن طريق جمع الأموال من تبرعات الأهالي[5].

لقد فرضت الدولة عدداً كبيراً من الضرائب، والرسوم على المجتمع، وكان بعضها لا يتفق وأحكام الشريعة الإسلامية كرسوم المشروبات الروحية، والفائض الذي تستوفيه على تأخير سداد الضرائب التي تفرضها[6] إضافة إلى ذلك كانت أحوال العامة عرضة للمصادرة تحت بعض الذرائع، فما أن يصل بعض الشخصيات إلى مناصب السلطة، حتى يبدأ باتخاذ الطرق الرديئة للابتزاز على حساب الفئة الضعيفة، فإذا احتاج الوالي إلى المال أو نقص راتبه تحدث

(١) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص١١١.
(٢) المصدر نفسه، ج٨، ص٦٣٤.
(٣) جميل موسى النجار، المصدر السابق، ص٣٧٦.
(٤) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص١١١.
(٥) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٢، ص٢٦٣.
(٦) جميل موسى النجار، المصدر السابق، ص٣٧٦.

سلسلة طويلة من المصادرات إلى جانب مظاهر الظلم والتعسف[١].

ولم تحقق الضرائب والرسوم، التي فرضتها الحكومة في بغداد أي فائدة ملموسة للمدينة وأهلها، فلم يحدث أي تحسن في الوضع الثقافي التعليمي، أو الصحي، أو غيرها من المجالات التي تخدم الناس، ولذلك اعتبر أهالي بغداد أن معظم الضرائب التي تجبى منهم غير شرعية وغير عادلة، وحاولوا الخلاص منها، أو الامتناع من سدادها بشتى الوسائل وحتى بعد العهد الدستوري ومطالبة عددٍ من النواب في مجلس المبعوثان العثماني إلغاء أو إعادة النظر في تنظيم الضرائب، والرسوم، وطرق جبايتها[٢] باعتبارها مخالفة للقانون والشريعة وأنها ألحقت أضراراً كبيرة بالأهالي، إلا أن هذا لم يكن يجدي نفعاً فاستمرت على ما هي عليه بل اتبع الاتحاديون في جميع الضرائب سياسة أكثر مركزية من السابق، ولم يكن التهرب من دفعها أمراً سهلاً كما كان الأمر عليه من قبل، فحمل رفع مقاديرها المثقفين على انتقادها بقوة في الصحف، وعززوا ما كتبوا بالأرقام والشواهد المقنعة، بأن الضرائب، وجبايتها عبء ثقيل على كاهل الناس وخاصة الفقراء منهم[٣].

وبتطبيق التجنيد الإلزامي الذي بدأ بتنفيذه منذ عهد عمر باشا، اقتصر ذلك على عدد قليل من الناس. واتبع بعده نامق باشا طريقاً جديداً لتطبيق التجنيد، وذلك بتوسيعه ليشمل شرائح أوسع من الناس خاصة من ليس لديه عمل حيث يرسل إلى جبهة البصرة ومن هناك إلى اليمن[٤]، وعندما جاء مدحت باشا أمر بتطبيق التجنيد بطريقة القرعة بمساعدة المختارين في المحلات، فرفض الأهالي الانصياع له، وخرجوا في مظاهرة تحدياً للحكومة، ولكن استطاع مدحت باشا القضاء عليها بعد أن قبض على (١٥٠٠) رجل وأدخل قسماً منهم

---

(١) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص٢٧٨.

(٢) الرقيب العدد ١٠، ١٠ ربيع الأول ١٣٢٧هـ.

(٣) الرقيب، العدد ٤ و٢٧، ٢٧ محرم ١٣٢٧هـ، ٢٢ ربيع الآخر ١٣٢٧هـ.

(٤) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص١٣٧.

في سلك الجندية، بعدئذ استدعى المكلفين الثلاثمائة الذين اختارتهم لجان التجنيد، فلبّوا الدعوة طائعين[١]. وكثيراً ما تذمر العامة من التجنيد بسبب ما كان المجتمع يعانيه من ظلم وتعسف الحكومة[٢] فهي بعينهم مغتصبة لا تريد الخير لهم كما أن ما يلقاه الجنود من معاناة بسبب طول الخدمة العسكرية، وقلة المؤن، والأرزاق، وقلة دفع الرواتب[٣]، لهم وإرسالهم إلى مناطق نائية في الأناضول، أو الحجاز، أو اليمن، فلم يرجع منهم أحد. وفي سنة ١٨٧٧م أرسلت الحكومة (١٠) آلاف جندي من بغداد إلى قفقاسيا وبعد فشل الحكومة العثمانية في هذه الحرب لم يرجع منهم إلّا نفر قليل[٤]. وفي سنة ١٩٠٢م عند اندلاع حرب بين ابن سعود وابن رشيد في الحجاز سارعت الحكومة لمساعدة ودعم ابن رشيد بإرسال جيش لمساندته، فأرسل معظمهم من أهل بغداد، ولم يرجع منهم أحد، ففقدوا بذلك خيرة أبنائهم إذ ماتوا جوعاً وعطشاً بسبب قلة المؤونة والأرزاق المرسلة إليهم[٥]. ويمكن القول إن جميع من تصيبهم القرعة هم من فقراء الناس، فلا يستطيعون دفع البدلات العسكرية أو الرشوة للضباط لتخليص أبنائهم من العسكرية، وخاصة أن البعض من كبار الموظفين يستغلون هذه الفرص لجمع مبالغ طائلة من الأموال، كما فعل وكيل الوالي أحمد فيض باشا في حرب ابن رشيد بأخذ الأتاوات من أهالي بغداد مهدداً إياهم بإرسال أولادهم إلى ساحة الحرب فسمى البغداديون هذه الحرب **(دكّة ابن رشيد)** والأتاوة التي جمعها سميت **(خاوة ابن رشيد)**، وصارت مثلاً يضرب به في بغداد[٦].

---

(١) الزوراء، العدد ١٢، ١٤، (٢١ جمادى الأول و٨ جمادى الآخر ١٢٨٦هـ)؛ علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٢، ٢٤١.
(٢) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص١١٣.
(٣) بيير دي فوصيل، المصدر السابق، ص٩٦-٩٧.
(٤) علي ظريف الأعظمي، المصدر السابق، ص٢٤٥.
(٥) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص١٤٧-١٤٨.
(٦) المصدر نفسه، ص١٤٧.

كما كانت الحكومة ترسل الجنود إلى مناطق بعيدة للقيام بأعمال شاقة وصعبة مثلما حصل في مطلع القرن العشرين عندما أرسل عدد كبير إلى الشام للعمل في إنشاء **سكة حديد الشام - الحجاز**[١]. وكان العامة يعتبرون التجنيد كالضريبة يجب التهرب منها بكل وسيلة ممكنة[٢].

واتخذت فكرة التخلص من أداء الخدمة العسكرية وسائل متعددة منها الالتحاق بالمدارس الدينية لأن طلابها معفوون من الخدمة العسكرية، أو ادعاء الجنسية الإيرانية[٣]، وفي السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى ألغيت القوانين الاستثنائية الخاصة بالتجنيد مما فسح المجال لضباط التجنيد لابتزاز الأموال من الناس، وكان من الطبيعي أن الأهالي الميسورين يدفعون الأموال مهما بلغت لتخليص أبنائهم[٤]، فتقع الخدمة العسكرية على أبناء الفئة العامة وخاصة الفقراء الذين لا حول لهم ولا قوة، مما يكلفهم حياتهم في معظم الأحيان، والذين ازداد عددهم في بداية الحرب العالمية الأولى، إضافة إلى سياسة التعسف والظلم التي يلاقيها الجنود من قبل الحكومة العثمانية، ولهذا كان المجتمع يبغض التجنيد. ومن صور التعسف التي تعرضت له الفئة العامة هو السلب من قبل جنود الولاة، فكثيراً ما كان الجنود يهجمون على أسواق بغداد لينهبوها خاصة ما قبل حلول الأعياد بسبب عدم استلام مرتباتهم بانتظام، واعتاد الناس ذلك وسماه البغداديون **(فرهود)**[٥]، وكان النهب والسلب بسبب مخالفة أوامر الوالي كما حصل سنة ١٨٣٤م، إذ قام الجنود بأفعال شنيعة عندما هجم جيش علي رضا باشا على عشيرة العقيل في جانب الكرخ، **وقد وصف**

---

(١) الرقيب، العدد ٥٥، ٢٥ رمضان ١٣٢٧هـ.

(٢) Lady Bell, The Letters of Gertrude Bell, Selected and Edited by Lady Bell, D. B. E, Vol. I, Sixth Impression, Ernest Benn Limited, London, 1927, p:350.

(٣) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص١١٣.

(٤) محمد طاهر العمري الموصلي، المصدر السابق، ص١٣٢-١٣٤؛ زيجارد كوك، المصدر السابق، ج١، ص١٨٩.

(٥) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص١٧٥.

فريزر الحالة بقوله: «وأبشع ما حدث بعد المعركة نهب الجند الأسواق، ثم اتجهوا إلى المنازل فنهبوها وانتهكوا حرمات النساء»[١]. مما يعكس لنا أن الحكومة كانت تنظر لهم كأنهم أعداء لها.

أما دور العامة في الحوادث السياسية الكبيرة فهو في الأعم والأغلب دور ثانوي. يتلخص بتأييد من يعمل لصالحهم وخيرهم. وكذلك الثورة ضد الأقوياء الطامعين في كسب مزيد من المنافع الخاصة على حساب تلك الفئة الضعيفة، وسنتعرف على العديد من وجوه الممارسات لأفراد هذه الفئة.

كان للعامة وجود في مختلف أنواع التجمعات الاجتماعية سواء أكان لهم بالفعل دور ملموس فيها أم لمجرد التواجد، أم بدافع من الرغبة في معرفة ما يجري من حوادث وتطورات اجتماعية، وأما نتيجة الفراغ الذي كانت تعيشه بالفعل بعض تلك الجماعات الشعبية.

ففي سنة ١٨٣١م وقف أهالي محلات بغداد صفاً واحداً يقودهم رؤساؤهم رجال الدين أو الأشقياء لا خلاف بينهم ضد قرار السلطان بعزل داود باشا، وقد أسرع الأعيان والعلماء بالكتابة إلى السلطان يرجون منه إسناد الولاية إلى داود باشا معلنين استعدادهم لزيادة الجزية السنوية التي ترسل إلى الخزينة السلطانية وتجمّع أهالي المحلات لقتال علي باشا، ولكن سوء تنظيمهم وافتقارهم إلى التخطيط أدى إلى فشل مقاومتهم، ولم يتحقق مبتغاهم إذ سرعان ما حاصر علي باشا المدينة، وساعده ما حل بأهلها من نكبات في السيطرة عليها[٢].

ولعل السؤال الذي ينبغي أن يطرح هنا أكان تواجد العامة في هذه المعركة، والمطالبة الشعبية نتيجة الرغبة في المشاركة الفعلية أم بدافع من حب المعرفة لما يجري من حوادث داخلية أم بدافع العصبية المحلية، أو القبلية من دراستنا لهذه المعركة؟ نلاحظ أن العامة لم يكونوا يرجون أية

(١) جيمس بيلي فريزر، المصدر السابق، ص١٨٦-١٨٨.

(٢) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج١، ص٢٧٨؛ عبد العزيز نوار، تاريخ العراق الحديث، ص٣٧-٣٨.

فائدة مادية، أو معنوية وبالتالي لا يمكننا تقدير معرفتهم هذه سوى بصفة البساطة والعفوية وتحت تأثير النخوة والاستنجاد، والتي كثيراً ما استغلت من قبل الولاة في كل حرب أو كارثة تعرضت لها الحكومة فيما بعد، أو للاطلاع على ما يجري من حوادث وكأنهم ينتهزون وقوع هذه الفرصة كي يهرعوا للتواجد فيها عن قرب، لعلهم يطلعون على بعض تطورات السياسة وخاصة أنهم كانوا يشعرون بالعزلة السياسية التي فرضت عليهم، فابتعد العامة عن ميدان التفاعلات السياسية، وباتوا منعزلين ضمن حدود مشاكلهم الاقتصادية والاجتماعية، جاهلين بكل ما يمت للتطورات السياسية من صلة أو تفاصيل. إلّا أنهم كانوا مصرين على معرفة ما يقع من حوادث سياسية بل المشاركة فيها إذا أمكن، فيكون لهم بالتالي دور سواء أكان كبيراً أم صغيراً فيما يقع من تغيرات سياسية، أو تظاهرات شعبية أو مطالبات إصلاحية. وكان البعض يطالب نتيجة رغبة فعلية في المشاركة في سبيل الوصول إلى عمل مهم، والبعض الآخر كان يجد نفسه منساقاً وراء تلك التجمعات، أما نتيجة الفراغ الذي يعيشه، وأما بسبب الرغبة في معرفة ما يدور من حوادث دون العناية بالمشاركة الفعلية الهادفة من تلك المطالبات الجماعية يعني عدم الاكتراث بما يقع من حوادث أياً كان نوعها.

وكان العامة يجرأون على التعبير عما يشعرون به من نفور ورفض تجاه السلطة بل إنهم يفصحون عن ذلك علانية وبشجاعة غير مكترثين بما يمكن أن يتعرضوا له من العقاب والإيذاء.

ففي سنة ١٨٣٢م خرجت محلة قنبر علي، وتبعتها المحلات البغدادية الأخرى بقيادة المفتي جميل زادة الذي انتفض على الحكومة انتخاء لامرأة استجارت به وخاصة بعد اقتحام الجنود بيت المفتي، والقبض على المرأة المملوكية التي احتمت به، فوقعت معركة حامية بين أهالي المحلة، وجنود السراي غير أن الوالي استطاع أن يقضي على هذه الانتفاضة[١].

---

(١) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص١٤؛ علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٢، ص٩٠؛ علي عجيل منهل، المصدر السابق، ص١٢٦.

وفي سنة ١٨٤٧م خرجت محلة الشيخ عبد القادر في مظاهرة، وهي تهتف بهتافات ضد الحكومة بسبب الضرائب الفادحة التي فرضت عليهم، وارتفاع أسعار المواد الغذائية[١] واتخذت المظاهرة طريقها إلى قصر الوالي في بستان النجيبية، لكنه استطاع السيطرة عليها وقمعها بشدة[٢].

ولم يكتف سكان بغداد في أغلب الأحيان، بذلك بل كتبوا الشكاوى، واعتمدوا الجرائد بعد صدورها في بغداد لتوضيح ما يتعرضون له من ظلم، وتعسف ولكن هذه الاحتجاجات لم تتمخض عن شيء، فاستمرت الحالة كما هي حتى نهاية الحكم العثماني[٣] وفي سنة ١٨٦٨م عندما حدث نزاع بين القاضي والقنصل الفرنسي بسبب عدم نهوض القاضي لتحية القنصل عند زيارته قائد القوات العسكرية، الأمر الذي دفع بالقنصل إلى الإمساك بلحية القاضي وإهانته، فلم يمر هذا الحادث بسلام لأن إهانة القنصل للقاضي يعتبر أمر في منتهى الأهمية عند البغدادي لأن اللحية تعتبر رمز كرامة الرجل، وحين انتشر الخبر بين العامة عزموا على القيام بمظاهرة، ومهاجمة القنصلية الفرنسية، وقتل القنصل الفرنسي، لأن إهانة القاضي هي بمثابة إهانة للمسلمين جميعاً إلّا أن القائد العسكري أحاط القنصلية بقوة من الجيش للحيلولة دون مهاجمتها، واستدعى الوالي تقي الدين باشا جماعة من أعيان بغداد لتهدئة الحالة خوفاً من حدوث فتنة، ثم قطع الوالي علاقته بالقنصل، وطلب من الحكومة سحبه من بغداد، وفعلاً عزل من منصبه وبذلك هدأت الحالة[٤].

وكان للعامة دور في منع تصدير الحبوب سنة ١٨٧٧م عندما هددوا باستخدام القوة إذا رفضت الحكومة اتخاذ الإجراءات اللازمة، وفعلاً وافقت

(١) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص٨٢.
(٢) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٢، ص١٥٠.
(٣) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص١٥٩.
(٤) بيير دي فوصيل، المصدر السابق، ص١١١-١١٢.

السلطات العثمانية على إجراء منع تصدير الحبوب لتوقع انتشار المجاعة، وعندما حاول أحد التجار الأوروبيين تصدير كميات من الحبوب الخاصة به مدعياً حصوله على إذن من الحاكم العام، اشتد هياج الناس عندما علموا بالخيانة، فتوجه عدد من الرجال إلى الميناء، أو المرفأ لقطع الطريق إلّا أنهم لم يشاهدوا سوى عدد قليل من السفن التي لا تحتوي على الحبوب، فأطلقوا سراحها، وهاجم عدد آخر من الناس مبنى الضرائب الكمركية حيث توجد السفينة المحملة بالحبوب، وأعلنوا انهم سيحطمون السفينة إذا لم تفرغ حمولتها من الحبوب، ولذلك أصدر الكولونيل نيكلسون أوامره بتفريغ الحمولة، وانتهت الأزمة بسلام وتخلصت المدينة من مخاطر المجاعة بسبب موقف العامة الصلب(١).

وكان للعامة مشاركة في مساندة السلطة معنوياً في حروبها مع الدول الأجنبية، إذ كانت الدولة العثمانية دائماً تثير فيهم النخوة العربية، أو العاطفة الإسلامية فينسون الجراح والآلام، ويساندون الحكومة مثلما حصل سنة ١٨٥٣م وسنة ١٨٧٧م في حرب القرم، حيث جمعت التبرعات من الأهالي لنصرة الدولة العثمانية وفي سنة ١٩١١م عندما وجه جمال بك بياناً إلى المسلمين من أهل العراق، طلب منهم أن يهبوا لنصرة الدولة في حرب الكافرين وعلى أثر هذا البيان، صدرت فتاوى الجهاد وخرجت المظاهرات على شكل موكب وهي تحمل الرايات والطبول ووصلت القشلة، فخرج الوالي وخطب فيهم بالتركية ثم ساروا بعد ذلك في الطرق وهم يهتفون لنصرة الدولة(٢).

حرص العامة على إظهار نفورهم تجاه ما يحدث في الجهاز الإداري من

---

(١) G. Geary, op., cit., p:136-137.

(٢) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص٢١٩؛ علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص١٨٨؛ إبراهيم الوائلي، المصدر السابق، ص١١؛ لغة العرب، ج٥، (شوال ١٣٢٩هـ/ تشرين الثاني ١٩١١م)، ص١٩٩.

فساد ورشوة، وكانت رغبتهم شديدة في أن يشهدوا نهاية الفساد الإداري. وأن يكون الجهاز الإداري وسيلة من أجل الأمان والنظام داخل حدود المجتمع البغدادي وأما موقفهم أو نظرتهم إلى السلطان فيعتبرونه من أصحاب الحق الشرعي في الحكم ولذلك لم يوجه إليه أي نقد في ما يقترف بحقهم، وكانوا يحملون الوالي والجهاز الإداري المسؤولية دائماً، وعلى الرغم من ضآلة مركز العامة الاجتماعي وضعف حالتهم المادية، وعدم اكتراث السلطات الحاكة للاستعانة بهم في إدارة الشؤون الداخلية في البلاد، إلّا أنهم يعلنون كانوا بصراحة عن رفضهم لوجود واستمرار هذا الوالي في منصبه، ويبدون سعادتهم، ورضاهم عن الولاة الذين يولون المجتمع أهمية كبيرة بتوفير الأمن، والاستقرار السياسي، والاقتصادي لهم، **ويصف سليمان فائق يوم توديع الوالي نامق باشا: «إن أهل بغداد خرجوا لتوديعه بكافة طبقاتهم رجالاً، ونساءً، وصبياناً، وأطفالاً، وحينما تحركت العربة به بكى المودعون، ونادوا بأعلى أصواتهم عليك أمان الله فاذهب بسلام راشداً مهدياً أيها المقدام»**[(١)] إذ كان حدث توديع ومجيء الولاة مناسبة طيبة يتسابق العامة إلى التفرج على مراسيم الاحتفال، بها وناظم باشا الذي كان له أثر كبير في نفس المجتمع البغدادي عندما ورد فرمان عزله سنة ١٩١١م خرج العامة في مظاهرات كبيرة تطالب بإلغاء الأمر، وذهبوا إلى داره وأركبوه عربة، وسحبوه بها وهم ينادون **تارة: «هذا والينا» وتارة: «الله ينصر دولتنا فناظم باشا والينا»**، حتى وصلوا به إلى السراي، وأقعدوه في محله، ثم ساروا إلى دائرة البرق والبريد، وظلوا يبرقون إلى العاصمة يطلبون إبقاءه باسم الألوف من الناس، لكن الحكومة المركزية في إسطنبول لم توافق واتبعت الشدّة والقوة في قمع المظاهرات وزج القائمين بها والمحرضين عليها في السجن[(٢)].

---

(١) سليمان فائق، تاريخ بغداد، ص٥٢.

(٢) الزوراء، العدد ١٢٩٩، ٢٣ ربيع الأول ١٣٢٩هـ؛ علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص١٨٤.

واعتاد العامة على التعبير عن مشاعرهم تجاه ما يحدث من تغيرات في الوضع، مثل عزل والٍ أو تولي آخر حتى ولو كان ذلك التعبير لا يخرج عن إطلاق صيحات الفرح لتولي والي يحظى بشعبية حسنة، أو ذرف الدموع لخلع آخر يتعاطفون معه. **ولا نعني هذا أن للعامة دور المشارك في كل ما يقع من حوادث ففي كثير من الأحيان نلاحظ أن دور العامة في العديد من الحوادث السياسية لم يتجاوز منزلة المشاهد**، كما أن عدم معرفة عامة المجتمع في بغداد أحياناً بما يجري من حوادث سياسية، وكانت النتائج التي تسفر عن تلك الحوادث بمثابة ظواهر يفاجأون بحدوثها، ولا يملكون سوى تقبلها، مثلما حصل عند قيام الثورة الدستورية سنة ١٩٠٨م فلم تكن هناك أي فكرة عند العامة عن هذه الثورة وسبب قيامها **ويعلق السويدي على ذلك: «لم يفهم مغزى الثورة»**(١)، في الوقت نفسه **كتب القنصل البريطاني معبراً عن الموضوع نفسه يقول: «إن إعلان الدستور لم يثر الحماس في بغداد»**(٢).

وعندما أرادت حكومة الاتحاديين إجراء انتخابات النواب لمجلس المبعوثان استقبل هذا بعين الريبة والشك من قبل العامة لعدم ثقتهم بالحكومة، وكانوا يتصورون أنها حيلة يراد بها تجنيدهم أو جباية المزيد من الضرائب، لعدم توفر القناعة لدى العامة بجدية انتخاب ممثلين عنهم(٣).

وكانت نظرة العامة في محلها، إذ لم تغير الثورة الدستورية من أوضاعهم سواء الاجتماعية أم الاقتصادية شيئاً، واستمر الوضع على ما هو عليه بل زادت الأمور سوءاً في عهد الاتحاديين وتأسف الكثير منهم على العهد السلطاني.

---

(١) توفيق السويدي، مذكراتي - نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية، بيروت، ١٩٦٩م، ص١٩.

(٢) E. Kedourie, Arabic Political Memories and other Studies, London, 1974, p: 129.

(٣) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص١٦٧.

كان للوازع الديني بالغ الأثر في طبيعة تفسير الناس للمصائب والمحن الاجتماعية التي عاصروها، حيث اعتادوا إرجاع أسبابها إلى خروج البعض عن تعاليم الدين الإسلامي أو العصيان في عدم تنفيذ أوامر الله تعالى، فكان لهذه القناعة أثر كبير في التزام الناس بالدين والشريعة الإسلامية، والحرص على تطبيق المثل الدينية لما فيها من صلاح النفس وخيرها، واتباع علماء الدين في كل شيء، **فحالما انتشرت إشاعة في بغداد، مفادها أن الاتحاديين أهانوا الدين الإسلامي، إذ قيل إن الرصافي أسكت قارئ القرآن وأهانه من أجل قراءة بيان جمعيتهم، خرجت المظاهرات وطافت الطرقات وهي تنادي «الدين يا محمد»، حتى وصلت إلى السراي، لقد حاول ناظم باشا تهدئة المتظاهرين ووعدهم بإجابة مطاليبهم، إلّا أنهم لم يلتفتوا إلى أقواله، فأرسل بعض الأعيان لإقناعهم بتحقيق ما وعد به الوالي ولم تهدأ المظاهرات إلّا بعد أن ألقي القبض على عبد اللطيف ثنيان ومعروف الرصافي[1]. وعندما نشرت مجلة تنوير الأفكار مقالة الزهاوي (المرأة والدفاع عنها) سنة ١٩١٠م، خرج العامة في مظاهرات باتجاه السراي بتحريض من رجال الدين بزعامة مصطفى الواعظ تطالب بمعاقبة الكاتب الزنديق باعتبار مقالته مخالفة للعادات والتقاليد ولمبادئ الشريعة الإسلامية، ولم تهدأ المظاهرات إلّا بعد عزل الزهاوي من مدرسة الحقوق[2].**

وكان العامة يكثرون الحديث بما لا يعنيهم في مواضيع خاصة بالحكومة ولكن يبدو أن العامة يجدون التحدث فيها تسلية، لا يمكن أن يمنعهم أحد من

---

(١) Fo. 371-560-3717 from Lieutenant Colonel J. Ramsav in Turkish Arabia and his Britannie Majesty's Consul-General Baghdad to the Government of India in the Foreign department Simla, no. 142, October 19, 1908, p:3;

الرقيب، العدد ٤٢، ٩ شعبان ١٣٢٧هـ.

(٢) الرقيب، العدد ١٧٢، ٧ شوال ١٣٢٨هـ؛ علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص١٨٠؛ مصطفى نور الدين الواعظ، المصدر السابق، ص٣١٠.

ممارستها، إذ لم يكن لديهم ما يشغلهم غير ذلك[١]، وغالباً ما كانت ساحة الميدان المنبر الحر الذي يتيح لهم مجالاً لنقد الأوضاع الشاذة في نظام الحكم والقائمين على جميع أنشطة السياسة والاقتصاد، إذ كان مقراً للاحتفالات الحكومية والشعبية، وميداناً عاماً للاستعراض إضافة إلى وظيفته التجارية وكان دائماً ساحة لعرض أفضل الخيول، وإجراء المسابقات فيه. من ناحية أخرى كان مكاناً لإيقاع العقاب بالمجرمين أمام الملأ، **ويصف فريزر ذلك بقوله: «كثيراً ما يلاحظ المارة أمامهم جسداً مقطوع الرأس أو جسدين يعرضان على الناس خلال اليوم تنبيهاً لفاعلي الشر»**[٢] إضافة إلى المقاهي التي تحيط بها أو يجلس الناس فيها لانتقادهم الحكومة أو تذمرهم من الموظفين المرتشين ودفع الضرائب[٣]. ودائماً ما كانت أخبار الدول والمسؤولين تنتشر بسرعة ويتم تناولها ومعرفتها بين فئاتهم المختلفة، وقد يتناقل العامة أخباراً غير صحيحة من الأساس، وعندما نشرت أنباء غرام الوالي ناظم باشا بالفتاة الأرمنية بين العامة في بغداد حكيت المبالغات والأساطير حولها وجعلوها على شاكلة «**ألف ليلة وليلة**»، وكان الحديث يدور عنها في أول الأمر همساً ثم صار الناس يتجاهرون به، وألفت الأغاني والبستات حول هذه القصة[٤].

تتناول مصادر التاريخ عدداً من صور المساعدات التي قدمها بعض الولاة للطبقة العامة، إذ اتصف بعض الولاة بالعطف على العامة وخاصة المحتاجين، والضعفاء منهم مثل **الوالي مدحت باشا** الذي كان يوزع الصدقات على الفقراء والمحتاجين، وأمر بإنشاء مدرسة الصنايع لتكون مدرسة لمن لا معيل لهم من

---

(١) G. Geary, op., cit., p:262.

(٢) جيمس بيلي فريزر، المصدر السابق، ص٧٨.

(٣) G. Geary, op., cit., p:262.

(٤) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص١٨٢.

الأيتام[١] وافتتحت المدرسة سنة ١٨٧٠م لتخريج الفنيين واستخدامهم في المعامل الحديثة الصنع، كما افتتح مستشفى للغرباء، وأبناء السبيل والمقطوعين[٢]. **وأصدر الوالي سري باشا أمراً سنة ١٨٨٩م بإعطاء الأيتام والأرامل راتباً مستمراً لتعينهم في معيشتهم**[٣]. والوالي نامق باشا الصغير الذي أولى المواطنين الفقراء عناية فائقة، وأنشأ مخبزاً لتوفير الخبز لهم وللغرباء بأسعار زهيدة[٤]، ومحاولات بعض الولاة لتوفير الأمن، والسلام للمدينة وتحديد أسعار المواد الغذائية وقت الأزمات الاقتصادية وتحديد أسعار النقود والأوزان[٥]. علاوة على اجتهاد بعض كبار الموظفين والأتراك والتجار في بناء الخانات والجوامع والمساجد والمدارس إلى المتصوفة والأيتام وطرقاء السبيل، مع الحرص البالغ على رصد أموال الأوقاف وتحويلها إلى مستحقيها باستمرار وانتظام، واهتمام علماء الدين بتربية الأطفال اليتامى من العائلات الفقيرة التي تعجز عن إعالتهم والقيام بتربيتهم، فيتوكل أهل الخير بهم حتى يشبوا وفق مبادئ التربية الدينية الصالحة، ليكونوا نموذجاً مثالياً لعمل الخير وكثيراً ما كانت بعض الشخصيات من أعيان بغداد توقف العديد من العقارات للصرف على الفقراء والمساكين[٦]. وفي هذه الصور جميعها دلائل واضحة للنوايا الطيبة لبعض الولاة وأصحاب المال والثروة. وكان بعض البغداديين يعتمدون في معيشتهم على الأوقاف بينما الأفراد

(١) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٩٩.

(٣) المصدر نفسه، ج٨، ص١٠٢.

(٤) الزوراء، العدد ١٥٢١، ٢٦ محرم ١٣١٠هـ.

(٥) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص٨٣.

(٦) لمزيد من المعلومات انظر: إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ود. عماد عبد السلام رؤوف، معالم بغداد العمرانية.

الطارئين، أو المهاجرين الذين أجبرتهم أوضاعهم الاقتصادية على الهجرة يعملون بالأعمال المتواضعة التي تحتاج إلى مجهود عضلي كسقّائين وحمالين[١] وضمن هذه الفئة أفراد عرفوا بالأشقياء حيث كانت لكل محلة أشقياؤها الذين يحمونها ويحرصون على راحة أهلها، ويعتقد بعض المؤرخين أن ظاهرة الأشقياء هي من بقايا نظام الفتوة، لما تميز به الأشقياء من حسن الخلق، والنخوة وبمشاركة الحياة العامة في مجتمعاتهم المحلية، مما جعل أبناء المحلة يعتزون بأشقيائهم، ويتضامنون معهم لدرء الأذى عنهم وإخفائهم من الحكومة.

إن دراسة أعمال الشقاوة وحماية المجتمع لهم يعكس لنا رفض المجتمع البغدادي للحكم العثماني المتسلط خاصة أن ارتباط ظهور الشقاوات كان بسوء الأوضاع السياسية والاقتصادية، وكلما استبدت الحكومة في طغيانها زاد ظهور الأشقياء وكانت أعمال الأشقياء مقصورة على سلب قوافل الحكومة، أو بيوت الأغنياء الميسورين، والشخصيات الكبيرة وهو أقل تعبير عن تذمرهم من الحكومة[٢]، ويجب أن لا نغفل عن ذكر البشر السود، الذين شاع استعمالهم بما عرف عنهم بالصبر على العمل والقابلية على الكدح[٣]، لهذا كانوا مفضلين على غيرهم من الخدم. ويسكن الزنوج بصورة عامة في الجهة الشرقية من محلة الفضل، لهم طرقهم وعاداتهم الدينية الخاصة بهم التي يقيمونها في ساحة عامة (**ميدان العبيد**) ليالي الجمع[٤].

---

(١) Habib Chiha, op., cit., p:173.

(٢) يونس سعيد البغدادي، شقاوات بغداد، ص٨-٢٠.

(٣) يجلب العبيد من أفريقيا، إلى الجزيرة العربية ثم يأتي بهم إلى بغداد، جيمس بيلي فريزر، المصدر السابق، ص١٣٧.

(٤) يبتدأ العبيد احتفالهم بقراءة سورة الفاتحة ثم يتقدم الزنوج والزنجيات بدخول الحلقة المعدة للرقص لينشدوا أنشودة «التوبة» على نغم الفرقة الموسيقية المؤلفة من عازف على الطنبور وضاربين الطبول ويستمرون بترديد الأنشودة حتى يبلغ الحماس أشده ثم =

يتبيّن من دراسة الفئة العامة، أنهم عانوا في أغلب فترات هذا العصر من الفقر والفاقة والعسر، واشتغل كثير منهم بالأعمال الحقيرة، والحرف المتواضعة طلباً للرزق في سبيل البقاء، مما يوضح حالة الفقر التي كانوا يعانون منها، وكثيراً ما علّق المثقفون على معاناة الناس. وتحولت حالة البؤس هذه إلى حديث متداول بين المثقفين بأسلوب مؤثر، **وكتب أحدهم في الصحف معلقاً في الصحيفة يقول: «فإن المرء إذا تنقل بين محلة وأخرى في بغداد يصادف من الفقراء عدداً كبيراً»**[١]**، كما أشار إلى ذلك العديد من الرحالة**[٢]**.**

ومن الندرة ما يطرأ تغيير على أحوالهم وأوضاعهم المعيشية، وكان مستواهم الثقافي منحطاً تقريباً لأنهم مشغولين بالحصول على لقمة العيش[٣] على الرغم من تأكيد بعض الرحالة على رخص المعيشة في بغداد. إلّا أن مدخولاتهم النقدية الضئيلة لا تقوى على الاستجابة لسد متطلباتهم المعاشية حتى مع رخصها[٤] ولهذا انعدم التعليم بين فئاتهم، وحتى من كان يرسل أبناءه إلى المدارس فهم قلة قليلة، وقد ارتبط وضعهم الاجتماعي بالأحوال

= يبرز زنجي يرتدي ملابس خاصة وقد ربط قطعة جلد معلقة بها أظلاف يقف بوسط الحلقة متكأ على عصا ويبدأ بالرقص فيهتز وتحدث تلك الأظلاف خشخشة ويشترك معه الزنوج والزنجيات ويتحركون كما يتحرك وتشتد أقدامهم في الضرب على الأرض مع اهتزاز أجسامهم ويشتد الرقص حتى يبلغ ذروته فينهار رجل أو رجلان يسحبان إلى خارج الحلقة، ولم تهدأ إلّا بعد أن يكف العازفون عن العزف وبعد الانتهاء عن هذا يرددون جميعهم بينهم وبين أنفسهم الحمد لله ثلاث مرات. عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص١٢١.

(١) صدى بابل العدد ١٨١، ٦ نيسان ١٩١٣م.

(٢) H. V. Geary, by nile and en epheratia arreed Discovery and Adntone, Ediborgh T8T, Clok, 1904, p:99.

(٣) Ibid, p:111.

(٤) A. Locher, op., cit., p:160; Sir A. Henry Layard, Autobiagraphy and Letters from his Childhood Until his Appointment. vol. 11, London, 1905, p:9.

الاقتصادية المرتبطة بالنظام السياسي غير المستقر، مما أدى إلى إرباك أوضاع العامة الذين كانوا أكثر الفئات تأثراً بارتفاع الأسعار والغلاء، إذ كانوا يعانون من صعوبة الحصول على الطعام بالأسعار المرتفعة، فتحل بهم نتيجة ذلك الأوبئة والأمراض التي طالما حصدت الآلاف من الأنفس من هذه الفئة فقد كانت معدلات الوفيات في المدينة مرتبط طردياً مع انخفاض المكانة الاقتصادية، والطبقية للفرد والأسرة، فلذلك رافقت الزيادة في معدلات الولادات زيادة في معدلات الوفيات بسبب المجاعات، والأوبئة، والأمراض إضافة إلى غياب الوعي الصحي بين أفراد هذه الفئة. مما يفسر لنا انخفاض مستويات الزيادة الطبقية.

لقد كانت مساكنهم المشيدة من الطابوق ذات نوعية رديئة وكان البعض أكواخاً لا تحتوي إلّا على غرفة أو غرفتين، أو بيوت قديمة تنقصها أبسط الشروط الصحية[١]. والبعض منهم يسكن الخانات أو المساجد. وكانت البيوت تشغل من قبل عدة عوائل في آن واحد تتراوح ما بين (٢-٦) عائلة ويستعمل كل فرد غرفة أو غرفتين لاستعمالات العائلة الواحدة كافة، لذلك يزدحم الأفراد في الغرفة الواحدة الأمر الذي يؤدي إلى تدني الظروف الصحية مما يسبب انتشار الأوبئة والأمراض بينهم[٢]. لقد كانت الفئة العاملة محرومة من أبسط الحقوق، فالمحاكم التي أنشأت لتحقيق العدالة الاجتماعية كانت قوانينها صارمة ولغة المرافعات التركية التي يجهلها المدعي والمدعي عليه. إضافة إلى الرشوة التي تدفع مما يضيع حق المدعي أمام المحكمة، لهذا عزف معظم الناس عن الشكاوى لتأكدهم من ضياع حقوقهم[٣] بسبب تغلب الرغبة لدى الموظفين في تحقيق المكاسب الشخصية على حساب هدف خدمة الصالح العام.

---

(١) A. Locher. op., cit., p:145

(٢) G. Geary, op., cit., p:130.

(٣) إبراهيم الوائلي، المصدر السابق، ص٤٥.

ويصوّر لنا الألوسي الانحطاط والتردي الذي نزل بالمستضعفين من العامة بأسلوب ذلك الزمان فيقول: «خلقت ثيابه بل أنتن لحمه وشحمه وأهابه فغدا جيفة يشق نشق ريحها المرائر ويصعد إلى أقصى الجو فيصدع رأس النسر الطائر»[١].

كل هذا يدعو إلى التساؤل عن مدى تأثر الحياة اليومية للعامة بتلك الضغوط المختلفة. لا شك أننا نعجب أشد العجب إذ نرى حرص العامة على التمتع بمظاهر العيش الكريم بما يتيسر لهم من وسائل بسيطة، إذ كانت لهم أعيادهم وأفراحهم ومناسباتهم الدينية، وهذا بلا شك يؤكد صلابة الإنسان البغدادي وقدرته على مواجهة التحديات الصعبة واحدة تلو الأخرى حتى ترسو به سفينة طموحه على شواطئ والانتصار والخلود رمزاً لمجد العراق والأمة العربية المجيدة.



الجسر الخشبي العائم الذي يربط الكرخ بالرصافة سنة ١٩١٦م.

(١) أبو الثناء الألوسي، مقامات الألوسي، ص١٣.

الفصل الثالث

الطوائف الدينية والقومية

(المسلمون - النصارى - اليهود)

لقد تميزت هذه الحقبة بتداخل مفهوم الفئة الاجتماعية تداخلاً أضفى على المجتمع العراقي نوعاً من التعقيد، فإلى جانب هرمية الترتيب الاجتماعي والتقليدي، الناتجة عن استئثار الطبقة العليا بالجاه والثروة، كان الانتماء الديني والقومي يضفي على تدريجية ذلك الهرم نوعاً من التداخل انعكس حتى على مناطق السكن، فمن أراد الإقامة في دار لا بد أن يتوجه إلى السكن في محلة تسود فيها انتماءاته الدينية أو القومية. فالمجتمع البغدادي لا يتكون من المسلمين فقط وإنما يدخل في تركيبه الاجتماعي أقليات دينية كالنصارى واليهود، الذين كان لهم كيانهم الديني الخاص المعترف به رسمياً. كما تمتعوا وفقاً للشريعة الإسلامية بنوع من الوضع المستقل ذاتياً داخل المدينة، حيث تفرض عليهم ضريبة الجزية حسب ما أمر به الشرع الإسلامي[1] بوصفهم من أهل الذمّة حتى سنة ١٨٥٦م. ففي هذا التاريخ ألغيت ضريبة الجزية وحلت محلها ضريبة أخرى هي ضريبة بدل الخدمة العسكرية لأنهم معفوون من التجنيد الإجباري[2] واستمر هذا الإجراء حتى قيام الثورة الدستورية سنة ١٩٠٨م عندما توسعت قاعدة المساواة في

---

(١) بيكر، مادة جزية، دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ١٢، ص٥.

(٢) ستيفن هيمسلي لونكريك، العراق الحديث، ج١، ص٣٠.

الحقوق والواجبات، وفرضت عليهم الخدمة العسكرية مقابل إلغاء هذه الضريبة[١]، فكانوا فئات ذات خصوصية يعهد بإدارتها وتنظيم شؤونها إلى رؤسائهم الروحانيين الذين ينظمون علاقتهم بالولاية وموظفي الولاية، وكانت لهم أعيادهم الخاصة التي يحتفلون بها، مما انعكس على الأحياء السكنية التي قامت على أساس التضامن الديني، فظهرت محلات منعزلة ومكتفية ذاتياً تمثل مناطق سكن الأقليات الدينية والطائفية المتجانسة، والتي تعبر عن ظاهرة مقطعية داخل المدينة أو بيئة متميزة خارج حدود المدينة، وعلى الرغم من أن السكان يعتنقون أدياناً ثلاثة وينتمون إلى قوميات متعددة فقد كانوا يتحدثون اللغة العربية بلهجات مختلفة[٢]، وسنتحدث عن أوضاع كل طائفة أو قومية لوحدها ونطلع على بعض شؤونها الاجتماعية.

- **أما الأديان والقوميات والعناصر التي يتكون منها سكان بغداد فهي:**



أحد جوامع بغداد ويظهر في الصورة جسر بغداد الوحيد في العهد العثماني سنة ١٩١٤م.

(١) العمري، حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث، بغداد، بلا، ص٢٣.

(٢) Habib Chiha, op., cit., p:101.



المسلمون



جامع الحيدرخانة في شارع الرشيد تم تشييده سنة ١٨١٩م.

شكل المسلمون الغالبية العظمى من المجتمع البغدادي في هذه الفترة موضوع البحث، فقد استمد المسلمون معظم تقاليدهم وقيمهم الاجتماعية والأخلاقية من روح الإسلام وعقيدتهم السمحاء، وقد أثرت عصور التخلف والسيطرة الأجنبية في تفاصيل حياة المجتمع البغدادي والعراقي على نحو عام، فتسربت الكثير من القيم البالية والشعوذة والخرافات في مفاصل حياة المجتمع واعتقاداتهم.

وينقسم المسلمون في بغداد إلى مذهبين فقهيين رئيسيين هما: مذهب السنة والجماعة ومذهب الشيعة الإمامية، وهو تقسيم قديم جداً وليس وليد

هذه الحقبة الأخيرة. وكان لهذا التقسيم بعض الأثر على البناء الاجتماعي للمدينة، وكان أتباع كل مذهب تجمعهم بعض العلاقات والسمات الفكرية والثقافية دون أن تؤدي إلى التنازع والتصادم في الأمور الجادّة[1] والقضايا المصيرية والوطنية، فهم أبناء مجتمع إسلامي عربي واحد رغم بعض الخلافات الثانوية التي لا تلغي انتمائهم إلى وطن واحد ودين واحد وعقيدة واحدة. وقد ساهمت هجرة القبائل العربية إلى بغداد بدافع الأمان، والاستقرار، والكسب من القرى المجاورة إلى بغداد ومن الجزيرة العربية إلى تخفيف النزاعات المذهبية بين المسلمين انطلاقاً من الفهم السليم والبسيط للإسلام، الذي تعودّه أبناء القبائل العربية. وإلى جانب العرب المسلمين كانت هناك أعداد من المسلمين غير العرب منتشرين في محلات بغداد من الترك والكرد والفرس والهنود وغيرهم، جاؤوا على فترات متلاحقة إلى بغداد إما للتجارة، أو لزيارة أضرحة الأولياء والصالحين، فطاب لهم العيش في بغداد وأصبحوا جزءاً من سكانها[2]. وقد تميزت بغداد منذ القدم بكثرة المراقد المقدسة على جانبي نهر دجلة، فكانت تلك المراقد مثابات تزدحم حولها مساكن السكان للتبرك والاتجار، وطلب العلم، والتآلف والانسجام الاجتماعي... وتجمع المسلمين وتؤلف بينهم عدّة المناسبات الدينية، مثل **أعياد الفطر والأضحى، والهجرة النبوية الشريفة، ويوم عاشوراء، والمولد النبوي الشريف، ويقام فيه احتفال كبير يشارك فيه الولاة وأعيان الولاية، وعيد آخر أخذت تحتفل به ولاية بغداد على نحو خاص منذ سنة ١٨٨٦م في آخر جمعة من شهر رمضان أطلق عليه اسم عيد (الإهداء)** ففي هذا اليوم من كل عام يجري احتفال ديني ضخم بمناسبة إهداء السلطان العثماني عبد الحميد الثاني «**شعرة النبي**» إلى مرقد أبي حنيفة. ويجرى في ذكرى يوم الإهداء احتفال مشهود

---

(١) G. Geary, op., cit., p:229.

(٢) جعفر الخياط، المصدر السابق، ص٢٣؛
Habib Chiha, op., cit., p:173: G. Geary, op., cit., p:229; H.V. Geere, op., cit., p:102.

حيث توضع «**الشعرة**» في صندوق زجاجي ثمين داخل صندوق صغير من الذهب، وتحمل في هودج مزين بأنواع الحرير يحمله بعير مزركش بالأشرطة والمناديل ذات الألوان الزاهية، ويقف الناس على جانبي الطريق من باب المعظم حتى باب مسجد أبي حنيفة ويتقدم الوالي وبيده زمام البعير مشياً على الأقدام، ويتجه الأعيان وكبار الموظفين وعدد من الخدم والحشم يحملون عدداً من المباخر، وقناني ماء الورد يرشون منها على المتفرجين والمحتفلين[١]، واستجابة لمتطلبات التحديث والتطور الحضاري، عمدت الشريحة الواعية والمثقفة من وجهاء وأعيان المسلمين إلى تشجيع الانخراط في المدارس الحديثة التي أنشأتها حكومة الولاية وقام كذلك عدد منهم بفتح مدارس أهلية لتخريج عدد من أبنائهم مثل المدارس الجعفرية[٢] لتلبية حاجتهم



جامع السيد سلطان علي من أقدم المساجد في بغداد سنة ١٥٩٠م.

(١) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٨، ص٢٥.

(٢) الرقيب، العدد ١١، ١٤ ربيع الأول ١٣٢٧هـ، ٥ شباط ١٩٠٨م.

من المتعلمين الذين يقومون بالأعمال التجارية والمهام الأخرى التي تتطلب مستوى من الفكر والعلم والثقافة، بدلاً من الاعتماد على اليهود والمسيحيين الذين أتيح لهم التعليم والثقافة قبل المسلمين بفضل الرعاية التي كانت تقدمها لهم مؤسساتهم الدينية والمصالح الأوروبية في بغداد.

على الرغم من الاحترام الواضح بين المسلمين لبعضهم، البعض وانسجامهم وتعاونهم وتحالفهم بدافع غيرتهم الدينية والوطنية لمواجهة أي خطر داهم أو كارثة طبيعية، فقد كانت تقع بينهم بعض المشاحنات والخلافات، بفعل السياسة غير المتوازنة التي كان يعتمدها الولاة العثمانيين الذين كانوا يجدون في المنافرة والعداء بين أبناء الشعب والمجتمع فرصة لتقوية نفوذهم وجني أرباح طائلة من المتخاصمين. فقد تعصب عدد من الولاة لإحدى الطرق الصوفية دون الطرق الأخرى، وانحاز عدد منهم إلى مذاهب فقهية على حساب المذاهب الأخرى، وتحامل بعضهم على شرائح قومية وقبلية على حساب الآخرين. وهكذا كانت نزعة الوالي المذهبية أو الصوفية أو القومية أو المادية، تلعب دوراً رئيساً في إشعال نار الفتن بين أبناء المنطقة، ورغم ذلك لم يشهد المجتمع البغدادي أي حروب، أو فتن مذهبية، أو طائفية، أو عنصرية خلال تاريخه الطويل.



النصارى



إحدى كنائس بغداد قديماً.

كان الوجود المسيحي في بغداد في القرون الثلاثة الأولى من الحكم العثماني للعراق ضعيفاً. ويتسم بعدم الاستقرار بسبب العلاقات المتوترة بين الحكومة العثمانية والحكومات الأوروبية التي تحرص على رعاية الأقليات المسيحية في ربوع الدولة العثمانية. وكان للصراع القائم بين الكنائس الأوروبية الكاثوليكية، والأرثوذكسية، والبروتستانتية، وغيرها في السابق على التبشير والاستحواذ على الساحة المسيحية أثره البالغ في انكماش أعداد المسيحيين[1]. وقد توافدت الأسر المسيحية على بغداد من إيران، وديار بكر،

(١) لمزيد من المعلومات، انظر: بطرس نصري الكلداني، ذخيرة الأذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان، المجلد ٢، موصل، ١٩١٣م؛ فرنسيس صائغيان =

وماردين وأرمينية، وغيرها طلباً للأمان وهرباً من القتل والسلب والنهب التي كانت تحصل في تلك المناطق[١] وكانوا ينتمون إلى عدّة طوائف من النساطرة واليعاقبة والأرمن والآثوريين والكلدان[٢].

بعد سنة ١٨٣١م تحسنت أوضاع المسيحيين كثيراً فحصلت معظم الطوائف المسيحية تقريباً على اعتراف الدولة العثمانية وتحسنت علاقة الدولة العثمانية مع فرنسا راعية المذهب الكاثوليكي، فلم ينتصف القرن التاسع عشر حتى كانت النسطورية، واليعاقبة قد انقرضت تماماً من بغداد، وتحول جانب كبير من الأرمن الأرثوذكسي إلى الكثلكة، واختفت الخلافات والصراعات بين الطوائف المسيحية خلال هذه الفترة، وكان للائحة الإصلاح العثماني المعروفة بـ**(خط همايون)** التي صدرت سنة ١٨٥٦م، والتي منحت الأقليات الدينية المساواة مع المسلمين في مجالات مختلفة، أثر على التطور النوعي الذي طرأ على المسيح[٣]، فحاول المبشرون استغلال جميع الطرق والأساليب التي تمكن لهم ضمان نجاح عملهم، فقد كان لجهود كوبر القاصد الرسولي، ومطران بغداد اللاتيني، ورفاقه الذين قدموا إلى بغداد في ذلك الحين أمثال الأب منافس يوسف، الذي اشتهر باسم حكيم أثر كبير. فأسس الآباء الكرمليون أول مدرسة تبشيرية حديثة سنة

= البغدادي، تاريخ الأرمن الكاثوليك في العراق، بيروت، ١٩٤٤م؛ تقرير باية عن العراق، ترجمة: بطرس حداد، مجلة ما بين النهرين، سنة ١١، العدد ٤٣، ١٩٨٣م، ص٢٢٦.

(١) رفائيل بابو إسحق، تاريخ نصارى العراق منذ انتشار النصرانية في الأقطار العراقية إلى أيامنا، بغداد، ١٩٤٨م، ص١٢٤.

(٢) جان باتيست تافرنيه، المصدر السابق، ص٨٤.

(٣) R. H. Davison, Reform in the Ottoman Empire 1856-1876, Princeton, 1963, p:52-30;

يوسف رزق الله غنيمة، نزهة المشتاق، ص١٧٦-١٧٧.

١٨٥٧م[1] التي استمر نشاطها حتى إعلان الحرب العالمية الأولى، والتي بلغ عدد طلابها حين افتتاحها (١٢٢) طالباً[2]، وواصل عدد من خريجي هذه المدرسة دراستهم في المكتب الطبي الفرنسي في بيروت، وفي سنة ١٨٧٥م وصل عدد طلابها إلى (٣٠٦)[3]. كما أنشأ الآباء الدومنيكون ميتماً ومدرسة كان لها مكتبة كبيرة بلغت محتوياتها (١٩) ألف مجلداً بلغت قيمتها (٩) آلاف ليرة آنذاك. وفي سنة ١٨٦٥م قام القس مغياكان فيلبس البغدادي بتأسيس أخوان الرحمة أو المحبة لمساعدة الفقراء[4]. وفي سنة ١٨٦٨م أسس هنري التماينر مندوب البابوية في العراق أول مدرسة تبشيرية للبنات أشرف على إدارتها راهبات فرنسيات[5]. في سنة ١٨٧٨م افتتحت مدرسة ثانية للبنات أيضاً تتولى الراهبات الفرنسيات إدارة المدرسة وتتلقى الطالبات دروساً بالفرنسية، والعربية، والموسيقى، ويتعلمن الأعمال اليدوية، وبلغ عدد طالباتها سنة ١٩٠٥م (٣٤٠) طالبة[6]. كما أنشأ هنري ملجأ لإيواء الأطفال الصغار من عمر ٣-٩ سنوات أيضاً. تولى الإشراف عليها الأخوات الفرنسيات[7]. في سنة ١٨٨٧م افتتحت الطوائف الثلاث «**الكلدانية، السريانية، الأرمينية**»[8] مدرسة عرفت بمدرسة «**الاتفاق الشرقي الكاثوليكية**» وازدهرت ازدهاراً

---

(١) F. Afas Behnam F. Afas les Grands Penseurs. Dans La Renaissance Culturelle Irakienne an XIXE Siecle, Diplôme d'études. Approfondiùs, Sorbonne Nouvelle, Université de Paris, 1976, p:31.

(٢) A. W. A, Al-Qaysi, op., cit., p:80.

(٣) Ibid, p:75.

(٤) فرنسيس صائغيان البغدادي، المصدر السابق، ص٢٦.

(٥) V. Ceninet, op., cit., p:103; Habib Chiha, op., cit, p:104; A. W. A, Al-Qaysi, op., cit., p:76.

(٦) ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج٦، ص٣٤٣٣.

(٧) Vitac Ceninet, op., cit., p:103; Habib Chiha, op., cit., p:104.

(٨) المقتطف، ج١، حزيران ١٨٨٠م ٧١؛ B. F. Afas, op., cit., p:35.

ولكنها لم تستمر طويلاً فقد أغلقت سنة ١٨٩٣م بسبب استقلال كل طائفة بمدرستها إضافة إلى قلة الموارد المالية[١] وفي سنة ١٨٨٠م وافت بغداد الراهبات الفرنسيات التقدميات وفتحن أبواب مدرستهن للبنات لتعليمهن **فنون الخياطة، والتطريز وبعض الفنون المنزلية، والموسيقى، والتصميم**[٢]. ولنشر الأفكار والأخبار أصدر الآباء الكرمليون مجلة زهرة بغداد ومجلة الإيمان باللغة الفرنسية سنة ١٩٠٥م إضافة إلى إصدار الكراسات والكتب المقدسة. كما افتتح أبناء هذه الطائفة نادياً سنة ١٨٨٩م ليضمن وسيلة تقرب أبناء الطوائف الأخرى عن طريق التسلية[٣]. **وبدأ الكاثوليك باستخدام التقويم الغريغورياني** بدلاً من التقويم السابق العائد إلى زمن السلوقيين الذي كان يستخدم في قيود الكنيسة وسجلاتها، وينظمون معاملاتهم في حياتهم اليومية على حسابه[٤]، وكان لجهود مطران بابل «**بوشان**» الذي تولى شؤون القنصلية الفرنسية في بغداد مدة طويلة بإجراءاته واتصالاته غير الاعتيادية بفئات مختلفة من الناس أثر كبير[٥]. ونتيجة لهذا ازداد عدد معتنقي الكاثوليكية وغدا أغلبية نصارى بغداد كاثوليك رغم قومياتهم المختلفة سواء كانوا كلدان، أم أرمن، أم لاتين، أم، مراينة، أم يونانيين، إذ بلغ عدد الكاثوليك سنة ١٨٩٥م كما قدرها

(١) رفائيل بابو إسحق، المصدر السابق، ص١٣٤؛ فرنسيس البغدادي، المصدر السابق، ص٣٤.

(٢) الراهبات في العراق، مجلة الفكر المسيحي، سنة ٣، ١٩٧٧م، ص٣٢٥-٧٢٦.

(٣) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الصحافة العراقية، ج١، بغداد، ١٩٥٧م، ص٢٥؛ فائق بطي، صحافة العراق تاريخها وكفاحها، بغداد، ١٩٦٩م، ص٢٣-٤٩؛ فيصل حمد الرحيم، المصدر السابق، ص١٤١؛ A. W. Al-Qaysi, op., cit., p:131.

(٤) سعاد هادي العمري، المصدر السابق، بغداد، ص٨٧.

(٥) جعفر الخياط، من حوادث التغلغل الفرنسي في العراق على عهد العثمانيين، مجلة بغداد، العدد ٢٣، كانون الأول ١٩٦٥م، ص١١.

كنيسة القديسة تريزيا للاتين الكاثوليك

من أجمل كنائس بغداد وأقدمها.

كونيه (٣٩٥٠) نسمة تقريباً من أصل سبعة آلاف مسيحي[١] مما يعني أن نصف الطائفة المسيحية كانوا كاثوليك.

وفي نهاية العقد الثالث من القرن التاسع عشر واجه التبشير الكاثوليك أول تحدٍ حقيقي له حينما بدأ المبشرون البروتستانت الإنكليز نشاطهم في بغداد وكان كروفس من أول المبشرين الذين وصلوا إلى بغداد سنة ١٨٢٩م واتخذ داراً له في محلة النصارى واتخذها مدرسة لأبناء الأرمن وبناتهن. وأنشأ علاقة طيبة مع البغداديين وباشر بعلاج أمراض الأسنان والعيون وتوزيع الكتب المقدسة. إلّا أنه مني بالفشل بسبب مقاومة البعثات الكاثوليك لنشاطه[٢]. إلّا أن ذلك لم يحل دون وصول مبشرين بروتستانت آخرين، ازداد نشاطهم بدوافع سياسية، وفي سنة ١٨٤٤م أوعزت جمعية لندن إلى المبشر فيكرز المقيم في لندن أن يتوجه إلى بغداد، وبدأ فعلاً حال وصوله بغداد نشر دعوته بين اليهود، وافتتح معهداً لتلقين اليهود مبادئ المسيحية وأنشأ مكتبة ومدرسة ومستوصف مما أثار هذا غضب حاخامي اليهود فأصدروا إعلان الحرم أو الحاريم على كل من يتصل بهم من اليهود مما اضطرهم إلى الانسحاب من بغداد على أمل زيارتها في وقت آخر[٣] ويبدو أنه بعد انسحاب أفراد الجمعية من بغداد خلت المدينة من المبشرين البروتستانت المقيمين في بغداد **ويؤكد السائح الأمريكي وليم فوك، الذي زار بغداد سنة ١٨٧٤م** أن عدد السكان البروتستانت لا يتجاوز العشرين شخصاً تقريباً[٤] وفي سنة ١٨٨٠م ظهرت للبروتستانت جمعية في بغداد عرفت بجمعية الكنيسة التبشيرية في بغداد حيث مارست نشاطاً ثقافياً واجتماعياً ملموساً، فقد فتحت مركزاً وزعت عن طريقه أعداداً كبيرة من

---

(١) V. Ceninet, op., cit., p:90.

(٢) حارث يوسف غنيمة، البروتستانت والإنجيليون في العراق، بغداد، ١٩٩٨م، ص٧٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٧٧-٧٨.

(٤) W. Fogg, op., cit., p:247.

الكتاب المقدس وكتب الأدب المسيحي البروتستانتي بأسعار زهيدة[١]، وافتتح هؤلاء كنيسة لبيع الكتب العلمية، واللغوية، والأدبية، والتعليمية[٢]. وكانت باكورة أعمالها افتتاح مدرسة للبنين سنة ١٨٨٣م انضم لها (١٠٠) طالب من مختلف الأديان إلّا أنها أغلقت من قبل السلطات الرسمية، لعدم الالتزام بجميع الضوابط والتعليمات الرسمية[٣]. وفي سنة ١٨٨٦م افتتح هؤلاء المرسلون مستشفى باشر بمعالجة المرضى وإلقاء الوعظ الديني فيها، مما أثار شعور الغضب ولما سمع القنصل الإنكليزي ذلك نبه وألزم بالكف عن ذلك فأغلقت العيادة مدة سنة واحدة، ثم أعاد فتحها، مع هذا تعرضت للغلق عدة مرات لأسباب مختلفة، إلّا أنها بعد سنة ١٩٠٣م أحرزت تقدماً ملحوظاً فازداد عدد الأسرة سنة ١٩٠١م إلى (١٨) سرير وإلى (٣٢) سرير سنة ١٩١١م، وقد عمل بها عدد من الملاكات المحلية المسيحية[٤]. وفي سنة ١٨٩٨م بدأت الجمعية عهداً جديداً وافتتحت مدرسة عرفت بالمكتب البروتستانتي، أو المدرسة الإنكليزية والتي تضاعف عدد طلابها ثلاث مرات في غضون سنتين فقط، وتمكن بعض طلابها مواصلة دراستهم فأصبحوا أطباء وصيادلة، وتقلد البعض منهم مناصب مرموقة[٥] بعد ذلك. وفي سنة ١٩٠٠م أقامت إرسالية بافتتاح مدرسة للبنات إلّا أنها أغلقت سنة ١٩٠٥م لعدم توفر ملاك بها[٦].

لقد بذل المبشرون الجهود المضنية لاستمالة المجتمع المسيحي إلى التعاليم البروتستانتية إلّا أنهم لم يجنوا ثمرة أتعابهم إذ إن عدد البروتستانت

---

(١) عبد العزيز نوار، التبشير البروتستانتي في العراق، مجلة الهلال، العدد ٦، ١٠ حزيران ١٩٦٥م، ص١٤.

(٢) صدى بابل، العدد ١٢٠، ١ كانون الأول ١٩٠٩م.

(٣) حارث غنيمة، المصدر السابق، ص٨٠.

(٤) المصدر نفسه، ص٨٢.

(٥) A. W. A, Al-Qaysi, op., cit., p:80.

(٦) Ibid, p:80.

في بغداد لا يستحق الذكر، فقدرهم كونيه بمئة شخص تقريباً سنة ١٨٩٢م[١]، ومع هذا فلهم الفضل في خلق كيان الكنيسة البروتستانتية الوطنية في بغداد وعلى الرغم مما لاقت هذه الجمعية من مشاكل وصعوبات فقد أرست قواعدها على أسس متينة ونالت ثقة الناس لما قدمته من خدمات في مجال العلم والطب.

ويظهر لنا مما تقدم أن التبشير البروتستانتي حمل الدعوة في بغداد عن طريق المستشفيات والأعمال الاجتماعية الأخرى وأعمال البر والإحسان، خاصة في محيط الطبقات الفقيرة. من ذلك يظهر لنا أن المبشرين الكاثوليك والبروتستانت عملوا على استغلال جميع الطرق والأساليب التي يمكن أن توفر المزيد من الاطمئنان لنجاح عملهم. فأقامت مؤسسات تعليمية وصحية ومراكز اجتماعية كدور الأيتام والعجزة[٢]، وتقديم المعونات المادية والمعنوية للفقراء والمعوزين، تقل تلك المعونات كلما ضمنت اقتراب هؤلاء إلى الكنيسة فإذا دخلوا منعت عنهم أعمال الخير[٣]. ومما يلاحظ أن المبشرين يحاولون تقديم أفكارهم من خلال الكتب والكراريس، وتقديمها بما يتلاءم مع الذوق العام والسائد. إضافة إلى التشويقات وخاصة ما يستهوي الشباب، كما أن كتبهم مليئة بالدس على الإسلام. فهم يحاولون كسب العناصر المسيحية من المذاهب الأخرى إلى المذهب الذي تنتمي إليه الطائفة المؤسسة لتلك المؤسسات أولاً. وخلق أجواء اجتماعية لم يألفها المسلمون من قبل لتدل على المستوى الحضاري الذي بلغوه في الوقت الذي يظهر فيه عجز المسلمين عن القيام بذلك.

ونستنتج من حركة الإرساليات التبشيرية وممارستهم أعمالهم الحرية التي

---

(١) V. Ceninet, op., cit., p:90.

(٢) ج. ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج٦، ص٣٤.

(٣) مصطفى الخالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، بيروت، ١٩٧٣م، ص١٩٤.

تمتع بها النصارى في هذه الحقبة. وكثير من الرحالة أكدوا على حرية النصارى في ممارستهم عبادتهم وشعائرهم الدينية، **فيذكر لونكريك ذلك بقوله:** «كانوا يعيشون على اختلاف طوائفهم في ظل نظام يكثر فيه التساهل على ما كان في الولايات الأخرى، فإن بغداد كانت عالمية إلى حد أنها لا تشجع شيوع التعصب»[١]، **كما أكد الرحالة فوك ذلك بقوله: «إن نصارى بغداد يمارسون عبادتهم بحرّية فائقة وهذا شيء تميزت به بغداد منذ القدم»**[٢]. وازدادت الحريات التي تمتع بها النصارى بعد صدور مرسوم كولخانة ١٨٣٩م، ثم مرسوم الإصلاحات خط همايون سنة ١٨٥٦م، حيث تساوى بين الأقليات الطائفية ودرج فيها حقوق النصارى وسلطة رؤسائهم الدينية وإدارة شؤون مؤسساتهم فضلاً عن أحكام أخرى في حرية التدين والتمذهب بأي مذهب كان[٣].

قبل سنة ١٨٣٠م كان النصارى ملزمين بعدم امتلاك أي نوع من العبيد ومنعهم من ركوب أي حيوان في الشارع وكانت هذه القوانين مطبقة بشدة في عهد الوالي داود باشا إلّا أنها أخذت تلغى بعد ذلك، إذ سمح للنصارى امتلاك الزنوج، وركوب الحمير، والبغال فقط. وشرط عليهم بعدم ركوبها مطلقاً أو النزول عند مرور سيد من السادة. ومنع النصارى من ارتداء العمامة ذات اللون الأبيض، أو الأخضر، لأنها كانت خاصة بالمسلمين فقط[٤]. وبعد إنشاء المجلس الإداري في بغداد كان هناك مقعد لعضو منتخب يمثل الطوائف المسيحية في المجلس[٥]. وأخذ عدد النصارى يزداد في بغداد إذ قدر عددهم

---

(١) ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون، ص٩٤.

(٢) W. Fogg, op., cit., p:242.

(٣) R.H Davison, op., cit., p:52-80.

(٤) رفائيل بابو إسحق، المصدر السابق، ص١٣٤؛ جيمس بيلي فريز، المصدر السابق، ١٣٨.

(٥) V. Ceninet, op., cit., p:7.

سنة ١٨٩٢م بـ(٧٠٠٠) نسمة تقريباً[١].

وكان معظم نصارى بغداد يعملون في الصناعات الشاقة، والتجارة، والحدادة، والمهن الحرة الأخرى، ويزاولون البيع والشراء في الأسواق أو يتقلدون وظائف الترجمة لدى القناصل. أما الفئة الغنية منهم وهي نسبة قليلة فكانت تمارس العمل التجاري **ويذكر روسو أعمال الطائفة المسيحية بقوله**: «إن نصارى بغداد على اختلاف طوائفهم يعيشون عيشة عديمة الرفاه وهم يتعاطون البيع، والشراء الداخلي، ويزاولون مهنة الطباعة على الأقمشة وغيرها من المهن اليدوية وأما العدد اليسير من التجار من ذوي اليسار فمعظمهم أرمن من إسطنبول قد أثروا بمعاطاة التجارة»[٢].

وكان نصارى بغداد يتجمعون في محلات خاصة، ولا يعني هذا أن هناك ما يفصلهم عن المحلات البغدادية الأخرى وإنما كانوا يميلون إلى التمركز ضمن مجموعات خاصة بهم. فتركز معظمهم في منطقة الميدان قرب القلعة الداخلية،ويمتد القسم الآخر في محلة سوق الغزل من قلب المدينة، حتى يتصل بتجمع آخر في محلة واحدة «**رأس القرية**» وفي داخل محلاتهم يتجمعون حسب القوميات، والمذاهب التي ينتمون إليها. وبما أن المجمع المسيحي يتكون من عدة قوميات أو عناصر وكل قومية تدين بمذهبين أو ثلاثة مذاهب فسنحاول أن نوضح وضع كل قومية. يأتي في مقدمتهم الأرمن الذين يشكلون الأغلبية من نصارى بغداد. ويرجع تاريخ وجودهم إلى سنة ١٦٠٦م حيث كانوا من أوائل المهاجرين إلى بغداد، وأغلبيتهم قادمون من **أصفهان، وجلفا، وهمدان**، وعدد قليل من **ديار بكر، وحلب، وآمد**، في البداية لم تكن لهم كنيسة يمارسون فيها عباداتهم وشعائرهم الدينية وظلوا هكذا حتى خصّص لهم الآباء الكبوشيون جزءاً من كنيستهم لممارسة شعائرهم الدينية حسب مذهبهم، مما كان لهذا تأثير في تحول قسم كبير

---

(١) Ibid, p:90.

(٢) رفائيل بابو إسحق، المصدر السابق، ص١٣٥.

منهم إلى المذهب الكاثوليكي[(١)]. وظل الأرمن الأرثوذكس بدون كنيسة حتى سنة ١٧٤٦م عندما استحوذوا على الكنيسة النسطورية في محلة الميدان، وسميت **كنيسة مريم العذراء**[(٢)]، وكان للأرمن بطريرك يمثلهم في إسطنبول، ويذكر كروفس بتلك الظروف التي مرت بها بغداد لم يبق من الأرمن سوى (٢٧) شخصاً من أصل (٧٠٠) نسمة[(٣)]، مع العلم أن الكاهن الأرمني الكاثوليك **(ودير غوص)** بعد وصوله إلى بغداد دوّن معظم أسماء الأسر الأرمنية الكاثوليك فبلغ عددها (٤٠) أسرة فقط من المذهب الكاثوليك[(٤)]. والملاحظ أن الفترة الزمنية بين التاريخين لتسجيل عدد الأرمن هي شهور إذ من المكن أن تكون الزيادة نتيجة تزايد المعدل السنوي لنمو الأرمن فنستنتج الخطأ الذي وقع فيه كروفس لاعتماده على تقديرات أحد الأرمنيين مع العلم أن المسيحيين اتخذوا عدة إجراءات للمحافظة على حياتهم وذلك بانعزالهم عن المرضى ودائماً ما يعقمون الأدوات والأواني التي تستعمل قبل استخدامها. والبعض منهم خرج من المدينة، وما يؤكد هذا القول كروفس بأن العديد من المسلمين ينظرون بعجب لأن المرض لم يصب عدداً كبيراً من المسيحيين، ولهذا لا يمكن اعتماد هذا التقدير.

وعلى أية حال بعد هذا أخذ عدد الأرمن سواء الأرثوذكس أم الكاثوليك بالزيادة فقدر عددهم بترمان سنة ١٨٥٠م بـ(٨٠) عائلة أرمنية[(٥)]، من ذوي العقائد القديمة، وقد حصل على فرمان لبناء كنيسة جديدة لهم، وفعلاً انتهى بناء الكنيسة سنة ١٨٥٣م عرفت بكنيسة الثالوث الأقدس[(٦)]، وامتلك الأرمن

---

(١) فرنسيس صائغيان البغدادي، المصدر السابق، ص٥.

(٢) رفائيل بابو إسحق، المصدر السابق، ص١٢٨.

(٣) كروفس، المصدر السابق، ص٣٢.

(٤) فرنسيس صائغيان البغدادي، المصدر السابق، ص٢٧.

(٥) سعاد العمري، المصدر السابق، ص٨٦.

(٦) بطرس حداد، كنائس بغداد عبر التاريخ، مجلة ما بين النهرين، العدد ٣١-٣٢، =

مؤسستين للتعليم واحدة مخصصة للذكور حيث يتلقون فيها دروسهم باللغات **الأرمنية، والتركية، والفرنسية**، والأخرى مخصصة للبنات يتعلمن فيها الدروس نفسها إضافة إلى تعليمهن الأعمال والفنون اليدوية والمنزلية(١).

وبما أن هناك الكثير من الأرمن قد اعتنق المذهب الكاثوليكي. فقد عانى الكثير منهم التعذيب والاضطهاد والحبس والنفي والغرامات الباهظة، وكانوا محرومين من اتخاذ معابد وكنائس خاصة بهم، كذلك كان محظوراً على كهنتهم في الكثير من الأماكن القيام بالعماد وتبريك الزواج ودفن الموتى، ولم يكن لكهنة الأرمن الكاثوليك سوى دار اشتراها مرسل من قبل البطريك الأرمني غريغوري بطرس الخامس سنة ١٨٠٦م ليقدسوا ويقيموا أكثر مناسباتهم الدينية فيها. وبقيت مصلى للطائفة مدة (٨٦) عاماً وبمرور الزمن اشترى الكهنة المرسلون من قبل بطاركة لبنان عدداً من البيوت المجاورة لها فأضيفت إلى الدار مكونة الكنيسة التي بنيت فيما بعد(٢).

وفي سنة ١٨٣٠م حصل الأرمن الكاثوليك في عموم الإمبراطورية العثمانية على اعتراف خطي بالاستقلال والحرية الكاملة من القيام بشعائرهم الدينية من قبل السلطان محمود الثاني. وبذلك تخلص الأرمن من سلطة بطريرك الأرثوذكس المقيم في إسطنبول لأن الحكومة العثمانية تعرفه وحده رئيساً شرعياً للأرمن سواء كانوا الأرثوذكس أم غير الأرثوذكس، فكانت له الحرية الكاملة في تعذيب وحرمان الأرمن الكاثوليك. ولكن لم يتمتع أرمن بغداد الكاثوليك بنتائج الحرية الدينية المعطاة إلّا في سنة ١٨٣٣م بسبب الظروف التي كانت تمر بها بغداد، فكان **(دير يوغوس جبهتين)** أول كاهن من كهنة الأرمن الكاثوليك في بغداد استطاع أن يعمد ويكلل ويدفن الموتى

= بغداد، ١٩٨٠م؛ رفائيل بابو إسحق، كنائس نصارى بغداد في العهد العثماني، مجلة سومر، ج١-٢، المجلد ٢١، بغداد، ١٩٦٤م، ص٢٨٩.

(١) Vitac Ceninet, op., cit., p:101: Habib Chiha, op., cit., p:181.

(٢) فرنسيس البغدادي، المصدر السابق، ص٢٢.

بحرية كاملة[١]، وهناك العديد من الأسر الأرمينية الكاثوليكية وفدت إلى بغداد بعد حصولهم على اعتراف الحكومة مثل بيت فرج أوغلو الاتغري[٢]. وبهذا تمتع الأرمن الكاثوليك بحقوقهم كافة وأصدرت البراءة الهمايونية سنة ١٨٣٢م بتعيين كهنة الأرمن المنتخبين وتمتعهم باستعمال الامتيازات والحقوق المعطاة عادة للمرخصين كافة من قبل الحكومة العثمانية، وفي سنة ١٨٤١م صدرت البراءة السلطانية الأخرى لتأييد هذه الحقوق وانتخاب الكاهن. بعد هذا أخذ الأرمن الكاثوليك يسعون لتشييد كنيسة خاصة بهم لإقامة شعائرهم الدينية فأصدرت الأوامر بالسماح لهم سنة ١٨٤٠م ببناء وتعمير الكنيسة وشرع ببناء الكنيسة في مكان البيوت المشتراة سابقاً[٣] مع العلم أن نفقات البناء كانت تبرعات من الأرمن الكاثوليك، وافتتحت الكنيسة سنة ١٨٤٤م باسم سيدة الانتقال في عقد النصارى وأصبحت كنيستهم تعد أكبر وأجمل كنيسة في بغداد[٤]. كانت تغص بالنصارى من مختلف الطوائف أيام الآحاد والأعياد. وخلال هذه الحقبة أضيفت عدة تعميرات لهذه الكنيسة في سنة ١٨٨٤م استورد لها أثاث جديد، فاستبدلت البسط والحصر بمقاعد خشبية للجلوس عليها. إضافة إلى تجديد أبوابها، ومذابحها، وتبليط أرضيتها[٥].

واهتم كبار كهنة الأرمن بتعليم أبناء طائفتهم بافتتاح مدرسة لتعليمهم وتأسيس جمعية اخوان الرحمة أو المحبة لمساعدة الفقراء وجمع المساعدات من الطائفة لإرسالها لإخوانهم في القدس أو بلاد الشام ولهم قس يرعى

---

(١) المصدر السابق، ص٢٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٧٢.

(٣) أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول، رقم البحث ١٦٦، دفتر ٢٥٤، الصفحة ٢٠، تاريخ الوثيقة أواخر ربيع الأول ١٢٥٦هـ، مركز التوثيق الإعلامي، وزارة الثقافة والإعلام.

(٤) فرنسيس صائغيان البغدادي، المصدر نفسه، ص٢٩-٣٠.

(٥) سعاد العمري، المصدر السابق، ص٨٧؛ فرنسيس صائغيان بغدادي، المصدر السابق، ص٣٢.

شؤونهم ويتصل مباشرة بالأسقف المقيم في إسطنبول. وعلى العموم شكلت الطائفة الأرمنية سواء **الأرثوذكس أم الكاثوليك** الأغلبية من نصارى بغداد إذ بلغ عددهم سنة ١٨٩٢م كما قدرها كونيه بـ(٣,٣٠٠) نسمة تقريباً[١]. والعديد من أعضائهم من ذوي النفوذ والثراء ويطمح الأرمني إلى العمل كموظف أو كاتب أكثر من صانع يدوي على الرغم من اشتغال العديد منهم مهندسين في مصانع الحكومة لإصلاح المكائن في القوارب التجارية وأعمال أخرى مماثلة. وكان التجار الأرمن من الأثرياء المغامرين فضلاً عن ذلك يقال إنهم شديدو الذكاء ويخشى حتى المسيحي واليهودي حدة ذكائهم وبراعتهم فالعديد من الشركات الأوروبية أغلقت بسبب المنافسة الأرمنية لها إذ كانوا مستقلين في نشاطهم نوعاً ما[٢]، **فمعظمهم جاء من إسطنبول، وحلب، وديار بكر، في أواخر القرن الثامن عشر إلى بغداد مما أكسبهم أهمية كبيرة ويذكر روسو ذلك: «العدد اليسير من التجار معظمهم أرمن من إسطنبول قد اعتنوا بمعاطاة التجارة بالأحجار الكريمة والشال مع إيران والهند»**[٣]، وكان للأرمن مناصب مؤثرة في جميع المكاتب الحكومية يمارسون تأثيراً كبيراً على العديد من أقسام الدولة ولا يوجد شك بقدرة الأرمن إلى الوصول إلى مستوى عال من الحضارة وهم يحققون تقدماً متواصلاً في مجالات التعلم والسلطة الاجتماعية[٤]، ويعتقد بأن للأرمن ميولاً قوية ولكن مضمرة نحو الروس إلّا أنهم يدينون بالولاء كسكان للعرش العثماني، وتنتشر الأقاويل التي تؤكد أن الروس يحصلون على معلوماتهم حول جميع ما يحدث في المنطقة من وكلاء أرمن لهم. وقد يكون ذلك صحيحاً إلّا أن ذلك لا يؤثر على ولاءاتهم المحلية.

وينتقد الأرمن لما يشوبهم من مظاهر الافتقار إلى القدرات الحربية،

---

(١) V. Ceninet, op., cit., p:7-90.

(٢) G. Geary, op., cit., p: 227.

(٣) فرنسيس صائغيان البغدادي، المصدر السابق، ص١٧.

(٤) جيمس وليستد، المصدر السابق، ص٩٤؛ وليم فوك، المصدر السابق، ص١٨.



من أقدم الأديرة المسيحية في بغداد (دير الربان هرمزد).

ولكن مواصفاتهم الجسدية أنيقة. وتميزت الأرمنيات بجمالهن الفائق وغالبية الأوروبيين الذين يستقرون في بغداد يتزوجون بهن(١). وانتشر التعليم في أوساط نساء الأرمن من الطبقة العليا، إلّا أن تعليمهن ذو طابع شرقي. وتتزوج النساء الأرمنيات بسن مبكر. ويتم اختيار الزوج من قبل الأب، وتكون الأرمنية عند زواجها عبدة لعمتها أم زوجها فهي التي تقودها وتوجهها في كثير من الأمور وفقاً لرغبتها. كما تمنع من الجلوس إلى جانب زوجها أو الحديث معه ما لم يتحدث زوجها بنفسه معها أو يوجه لها الأسئلة. وعندما تصبح الزوجة أُمًّا تخفف قسوة هذا النظام قليلاً إلّا أن عليها الانتظار حتى تصبح عمة لتتمكن من ممارسة حقوقها كاملة كسيدة للمنزل(٢). أما الحياة المنزلية للفئات الدنيا منهم فهي تعاني من جوانب سلبية عديدة في المعاش والمسكن(٣).

ويأتي بعد الطائفة الأرمنية من حيث العدد الطائفة الكلدانية وجميعهم من السريان النسطوريون الذين اعتنقوا المذهب الكاثوليكي، فأطلق عليهم اسم الكلدان المتحدين إذ كانوا يمارسون شعائرهم الدينية في كنيسة الآباء الكرمليين حتى سنة ١٨٣٩م، عندما افتتحوا كنيسة خاصة بهم في محلة الدهانة عرفت بكنيسة (أم الأحزان). وفي سنة ١٨٤٥م حصلت على اعتراف الحكومة العثمانية كطائفة مستقلة لها حرية ممارسة شعائرها الخاصة بهم(٤). وصدرت الأوامر من الحكومة المركزية إلى الوالي علي رضا باشا يتعلق ببناء أو ترميم كنيسة لهم(٥) وقد ازداد عدد الكلدان خلال هذه الحقبة إذ قدرهم بترمان

---

(١) G. Geary, op., cit., p:224; Cowper, op., cit., p:276.

(٢) G. Geary, op., cit., p:226.

(٣) Ibid, p:227.

(٤) د. أحمد سوسة، ملامح من التاريخ القديم يهود العراق وصلته بيهود الشرق، مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد ٣، العدد ٤، ك٢/ ١٩٧٥م، ص١١٠.

(٥) أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول، رقم البحث ١٨٣، دفتر مهم ٢٥٤، الصفحة ١٣٧، تاريخ الوثيقة أوائل رجب ١٢٥٧هـ، وزارة الثقافة والإعلام.

سنة ١٨٥٥م بـ(١٢٠) عائلة[١]. وفي سنة ١٨٩٥م وصل عددهم إلى (١٦٠٠) نسمة تقريباً[٢]، مما استدعى بناء كنيسة أخرى لهم وفعلاً أفتتحت في سنة ١٨٩٨م في عقد النصارى عرفت بكاتدرائية الأحزان وكان عدد أعضائها كما يذكرهم كوبرا (١٥٠٠ عضواً)، ويرأس هذه الطائفة أسقف مقره في بغداد على الرغم من وجود مقره الديني في بابل[٣].

ثم يأتي بعد هذه الطائفة (الطائفة السريانية الكاثوليكية) وهم يرجعون بأصولهم إلى الطائفة السريانية اليعقوبية الأرثوذكسية بعد اعتناقهم المذهب الكاثوليكي فعرفوا بالسريان الكاثوليك. وحصلت هذه الطائفة على اعتراف الدولة العثمانية كطائفة مستقلة منذ سنة ١٦٦٢م[٤]، وبنيت أول كنيسة لهم سنة ١٨٤٢م في عقد النصارى عرفت بمريم العذراء. أسسها المثلث الرحمان المطران غيريفويس عيسى محفوظ على أثر تكاثر الطائفة السريانية[٥] وقد كانت حتى ذلك العهد تكمل فروضها الدينية في كنيسة الآباء الكرمليين، ولكن هذه الكنيسة ومع مرور الأيام لم تعد تكفي للسريان إذ وصل عدد عوائلهم سنة ١٨٥٠م إلى (٦٠) عائلة سريانية[٦] وقد صدرت الأوامر الحكومية إلى الوالي نامق باشا بتعمير وترميم الكنيسة وتوسيعها[٧]. فبنوا لهم كنيسة جديدة اعتماداً على التبرعات وافتتحت سنة ١٨٦٣م باحتفال كبير وعرفت بكنيسة **(المحبول بلا**

---

(١) سعاد العمري، المصدر السابق، ص٨٦.

(٢) V. Ceninet, op., cit., p:90.

(٣) Cowper, op., cit., p:76.

(٤) ميشيل تيم، الأب أغناطيوس ديك، تاريخ الكنيسة الشرقية وأهم أحداث الكنيسة الغربية، حلب، ١٩٦٣م، ص٢٧٨.

(٥) كنيسة العذراء في بغداد، مجلة الآثار الشرقية، العدد ٣، ١٩٢٨م، ص٢٤١.

(٦) سعاد العمري، المصدر السابق، ص٨٦.

(٧) أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول رقم البحث ٢٩، دفتر ٢٦١، الصفحة ١٧٢-١٧٣، رقم الوثيقة ٦٩٣، تاريخ الوثيقة أوائل صفر ١٢٧٩هـ.، مركز التوثيق الإعلامي، وزارة الثقافة والإعلام.

دنس) في عقد النصارى أيضاً وكانت من أجمل الكنائس وأبدعها هندسة وفيها من التحف الذهبية والفضية ما يندر وجوده في الكنائس السريانية الأخرى، وتعلوها قبتان شامختان[(١)]، ويبدو أن هناك بعض الخلاف بين هذه الطائفة والطائفة اليعقوبية والطائفة الأرمنية حول الكنائس والأراضي الخاصة بهم، لهذا وجهت الحكومة المركزية أوامرها لحل الخلافات بينهم[(٢)].

ثم تأتي طائفة اللاتين التي ترجع بدايات وجودها إلى القرن السابع عشر، حيث أقام مجموعة من أبناء هذه الطائفة معبداً لهم على نهر دجلة وبقي هذا المعبد حتى تمت إزالته سنة ١٧٠٨م. وبعودة مطران اللاتيني المرسل افتتح اللاتين كنيستهم مرة أخرى سنة ١٧٣١م في محلة سوق الغزل وكانت مكاناً لإقامة الشعائر الدينية لجميع الطوائف الكاثوليكية[(٣)]، **ويصف لوفتس طريقة جلوس المصلين بقوله:** «الأراضية المفروشة بحصائر حيث يركع عليها المصلون الرجال إلى اليمين والنساء إلى اليسار والجميع في صفوف منتظمة أنه منظر جميل ومؤثر يستحق المشاهدة»[(٤)] وبعد زيادة عدد أفراد هذه الطائفة افتتحت كنيسة أخرى سنة ١٨٧١م مقابل جامع سوق الغزل عرفت بـ**(كاتدرائية القديس يوسف) ويصف كوبرا:** «بأنها عبارة عن بناء حسن التشييد والمبنى من الداخل يتخذ شكل صليب ولا يتميز بأي مظهر جذاب ويحتوي على قبة مركزية والعديد من الشمعدانات الزجاجية من الخارج، ويصل عدد أعضائها إلى ألف شخص ويتولى إدارتها خمسة من القسس»[(٥)]. وكان يرفق بالكنيسة مدرستان

---

(١) كنيسة العذراء، ص٢٤٢.

(٢) أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول، رقم البحث (٤)، دفتر مهم ٢٦٣، ص٣٩-٤٣، رقم الوثيقة ١١٨، تاريخ الوثيقة ١٢٩٣، أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول رقم البحث (١٧)، دفتر مهم ٢٦٢، ص٢٦٩-٢٧٠، رقم الوثيقة ٨٦٧، ٢٨ ذي الحجة ١٢٨٤هـ.

(٣) رفائيل إسحق، المصدر السابق، ص١٣٦.

(٤) William Loftus, op., cit., p: 298.

(٥) Cowper, op., cit., p:276.

للأولاد ومدرسة للبنات وبلغ عدد هذه الطائفة (٨٠٠) نسمة سنة ١٨٩٥م، وكان للاتين مقر لمجمعهم الكنسي[١]، بالإضافة إلى هذه الطوائف كان هناك عدد من الطوائف المسيحية الصغيرة منها طائفة الروم الكاثوليك ويرجع تاريخ توافدهم إلى بغداد سنة ١٨٤٥م. وقدر بترمان عدد عوائلهم سنة ١٨٥٠ بثمان عوائل[٢] ولم يكن لهم كنيسة خاصة بهم، فكانوا يتجمعون لأداء الطقوس في المبنى الذي يشغله قسسهم[٣].

الطائفة الأخرى هم الإغريق الذين لا يتجاوز عددهم (٥٠) نسمة تقريباً ويتجمعون تحت قيادة كاهن السريان الكاثوليك، **وطائفة اليونان الأرثوذكس** التي لا يتجاوز عددها أيضاً خمسين نسمة تقريباً ولم يكن لهم أماكن للقيام بشعائرهم الدينية[٤].

وعلى العموم يعيش النصارى جميعاً سواء كانوا ينتمون إلى طوائف **أرمنية، أو يونانية، أو رومانية**، وغيرها من الطوائف في جانب واحد من المدينة ويعاملون بتسامح شديد ولا يوجد بينهم وبين المسلمين أي خلافات أو صراعات ويتمتعون بحريات واسعة خصوصاً خلال تلك الفترة وقد أظهر الكثير من أبنائهم من المتخصصين المميزين بكتاباتهم وعلومهم مثل **الأب أنستاس الكرملي** وكان للنصارى أعيادهم ومناسباتهم وزياراتهم الخاصة بهم وكان يوم الأحد هو عطلتهم الرسمية حيث يذهبون إلى كنائسهم لأداء العبادات والطقوس الخاصة بهم[٥]. وتميزت علاقتهم مع المسلمين بالود والاتفاق فلم يحدث يوماً نزاع أو خلاف بينهم وكثيراً ما قدّموا الخدمات لهم في ميادين الطب والتعليم والثقافة فحظي أسلوبهم بتقدير الناس وجلب أنظارهم إلى قيم الحضارة الحديثة.

---

(١) V. Ceninet, op., cit., p:7.

(٢) سعاد العمري، المصدر السابق، ٨٦.

(٣) A. Locher, op., cit., p:153.

(٤) V. Ceninet, op., cit., p:90; Locher, op., cit., p:133.

(٥) H. V. Geere, op., cit., p:112-113.



اليهود



كنيس بغداد العظيم.

الطائفة الموسوية اليهودية موجودة في بغداد منذ بداية العصر العباسي، ولكنها أخذت بالتناقص بعد الاحتلال المغولي سنة (٦٥٦هـ-١٢٥٨م). وبعد استيلاء العثمانيين على العراق أخذت أوضاعهم تتحسن[١] ويزداد عددهم في بغداد عن طريق الهجرة من إيران بسبب سياسة الشاه عباس الأول الصفوي المعادية لهم[٢]. وكان عددهم في مطلع العصر العثماني (٦٠٠) أسرة وقدّر

(١) خلدون ناجي معروف، الأقلية اليهودية في العراق، بين سنة (١٩٢١-١٩٥٢م)، ج١، بغداد، ١٩٧٥م، ص٥٣-٥٤.

(٢) يوسف رزق الله غنيمة، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، بغداد، ١٩٢٤م، ص١٦٠-١٦١.

عددهم في سنة ١٨٤٠م بـ(١٥٠٠٠) نسمة[١] وقدّر الرحالة بنجامين الثاني عددهم في الفترة نفسها بـ(٣٠٠٠) أسرة[٢] وقدّر الرحالة وليم فوك عددهم في سنة ١٨٧٤م والرحالة جيري في سنة ١٨٧٧م بين (٢٠-٢٥) ألف نسمة[٣]، وفي نهاية القرن التاسع عشر قدر كونيه عددهم بـ(٥٣٠٠٠)[٤] نسمة.

أدى هذا العدد المتنامي لليهود إلى زيادة عدد المعابد الدينية فبعد أن كانت معبداً أو معبدين وصل عددها إلى (٢٨) كنيساً يهودياً خلال هذه الحقبة[٥]. وهذا يكشف مدى روح التسامح الديني الذي لقيه اليهود في بغداد. ويصف بنجامين الثاني هذه الحالة قائلاً «**بأنه لم يشاهد في أي من الأماكن الأخرى إخوانه في العقيدة وهم يتمتعون بهذه السعادة متحررين من التحذيرات ومخاوف العقاب كما في بغداد**»[٦]. فتمتع اليهود باستقلال ذاتي في الإشراف على أمورهم الدينية وإدارة معابدهم، ومؤسساتهم التعليمية، والمستشفيات التابعة لهم وخاصة بعد تغير الأوضاع في الدولة العثمانية بصدور الإصلاحات خط همايون سنة ١٨٥٦م إذ حددت تشكيلات الطائفة اليهودية بموجب نظام الحاخانة، فتمتعوا باستقلال ذاتي في التنظيم الطائفي حسب النظام المعمول في الدولة العثمانية[٧] حيث كان الباب العالي يعين الحاخام باشي لإدارة الأمور الدينية. وفي الواقع لم يكن الحاخام باشي زعيماً

(١) The Rev H. Southgate, op., cit., p:108.

(٢) G. Geary, op., cit., p:84.

(٣) Ibid, p:130, to, p:243.

(٤) Vitac Ceninet, op., cit., p:90.

(٥) محمد رؤوف السيد طه الشيخلي، المعجم الجغرافي لمدينة بغداد القديمة بين سنتي (١٢٧٠-١٣٦٠هـ)، البصرة، ١٩٧٧م، ص٢٠٤-٢٠٩.

(٦) يوسف رزق الله غنيمة، نزهة المشتاق، ص١٧٣.

(٧) علي إبراهيم عبدة وخيرية قاسمية، يهود البلاد العربية، بيروت، ١٩٧١م، ص٤٥-٤٦.

روحياً بل كان رجل أعمال من الدرجة الأولى[١]، وكان يجلس في المجمع الكنسي العظيم حيث استلم قانون موسى (u) وعلق فوقه ستاراً من القماش الدمشقي المزين بالذهب فيجتمع لديه جميع كهنة الكنائس الأخرى[٢]. وصار يشرف على جميع الشؤون الدينية والمدنية للطائفة. يأتي بعده النسئ Nasi وهو من أرفع الأسر مكانة يتولى مهام رئيس الطائفة وتصريف شؤون اليهود، ولكن بشكل غير رسمي. وعمله هذا جعله مسؤولاً عن النشاط المالي للإدارة في المدينة ويأتي بعد هذين الشخصين مجلس مالي يتكون من عشرة رجال يسمون (Nasah Nibbarim) ومحكمة حاخامية برئاسة حاخام باشي[٣]. ووفقاً للتنظيمات العثمانية الجديدة التي حرصت على إبقاء جميع حقوق الملل على أن تنظم بقوانين جديدة، **فجعل لكل طائفة مجلسان هما: مجلس روحي أو بيت روحي** (Spirtual) يمثله ثلاثة حاخامات إذ تمنحهم سلطة قضائية، فيتخذون القرارات الخاصة بالشؤون المتعلقة بالزواج والطلاق والشهادة على الوصايا، وفي أغلب الأحيان يكونون من التجار البارزين، أما المجلس الآخر فيعرف بالمجلس الجسماني أي (Temprel)[٤] وهو مكلف بجباية الضرائب من الطائفة وتوجيه إنفاق العائدات إذ كان مصدر دخله ضريبة تعود في أصولها إلى أنه بعد أن تذبح الأغنام يجب فحصها من قبل أشخاص يسمون شوحيط. وهناك ضرائب أخرى مثل الرسم البالغ (٠,٥٪) على شراء الأملاك ورهنها. والرسم البالغ (٢,٥٪) على عقود الزواج التي كانت تذهب إلى المجلس الروحاني[٥]. وكان زعماء الطائفة اليهودية مسؤولين عن دفع الضرائب المتوجبة للحكومة، التي كانت تتألف من ضريبة جزية تدفع عن كل ذكر بلغ الثانية عشرة فما فوق

(١) يوسف رزق الله غنيمة، نزهة المشتاق، ص١٧٣.

(٢) Rev. Jacot Samolle, Journal A missionary Tour Through the Desert Arabia to Baghdad, London, 1844, p:23.

(٣) خلدون ناجي، المصدر السابق، ص٥٨-٥٩.

(٤) المصدر نفسه، ص٦٧.

(٥) حنا بطاطو، المصدر السابق، ص٢٩٢.



حاخامات يهود في بغداد سنة ١٩١٠م.



حي اليهود القديم في بغداد والمسمى ب(حي التوراة) سنة ١٩١٧م.

وهي ضريبة سنوية. وبعدما بدأت الحكومة بتطبيق التجنيد، أعفي اليهود من الخدمة مقابل ضريبة يدفعونها عرفت باسم (**بدل العسكرية**) حلت محل الجزية. وكانت مسؤولية جمع هذه الضرائب تقع على كاهل الحاخام باشي والناسئ مع العلم أن العناصر الدينية تمتعوا بمنزلة مميزة فهم وأبناؤهم، والكتاب وأبناؤهم، وكل من يشغل وظيفة دينية معفوون من الضريبة(١). إلّا أن هذا الامتياز ألغي في نهاية القرن التاسع عشر عندما انتقلت هذه الوظيفة إلى أيدي محصل الضرائب الحكومي(٢). وبعد سنة ١٩١٠م كانت السلطة الحقيقية داخل الطائفة اليهودية بيد (٧) أعضاء من أغنى أعضاء الطائفة اليهودية وهم مير الياس وميناحين دانيال وجوزيف شطوب وهم مالكو شركات وعقارات، وشاؤول حسقيل وحسقيل يهودا ويهودا أزلوق الذين يمارسون العمل التجاري، وشاؤول شعشوع وعبودي من أكبر الصرافين والمرابين إذ هم الذين يتخذون القرارات والإجراءات فيما يتعلق بشؤون اليهود(٣) وعلى العموم تركز اليهود في جانب الرصافة باعتباره مركزاً تجارياً ولإحساسهم بالأمان حيث مركز السلطة، وتظهر الخرائط الرسمية بأن الطائفة اليهودية تركّزت وسط الرصافة عند جامع الخلفاء وعرفت محلتهم بمحلة التوراة حيث أخذت هذه المحلة بالتوسع في القرن التاسع عشر إذ ضم إليها أجزاء أخرى من المحلات المجاورة فأصبح (**الغيتو اليهودي**)(٤) محصوراً في المنطقة الممتدة من منارة سوق الغزل نحو الشمال الشرقي باتجاه الشيخ عمر

---

(١) خلدون ناجي، المصدر السابق، ص٥٩.

(٢) حنا بطاطو، المصدر السابق، ص٢٩٣.

(٣) Kedourie, The Jews of Baghdad in 1910,"Middle Eastern Studies", oct. 1971, vol.7, p:858.

(٤) الغيتو (Ghetto) هو مصطلح شائع الاستعمال المقصود به مجتمع محلي صغير منعزل ويكون في العادة متجانس عنصرية وثقافية على الرغم من أنه يوجد داخل مجتمع كبير، عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، الإسكندرية، ١٩٧٩م، ص٢٠٨.

السهروردي[١]، ويمكن تمييز محلاتهم من النظرة الأولى فلمنازلهم شبابيك، ومشارف ذات سياج حديد تطل على الأزقة، وهي كانت مغلقة لليهود واتصفت بيئتها بالقذارة، واكتظاظ السكان فيها، إذ كانت دائماً منبع الأوبئة التي تنتشر في بغداد. وشمال محلة التوراة يقع سوق اليهود الذي تباع فيه المواد الغذائية المختلفة[٢]، حيث اختص بهم فقط. إلّا أن اليهود بدأوا يخرجون من تجمعاتهم القديمة إلى مناطق جديدة بعد سنة ١٩١٠م من بغداد **ويبدو أن هذا التوجه يعود إلى سببين**: **أولاً** دور مدارس الإليانس وأثرها في اطلاعهم على الثقافة الأوروبية التي أدت إلى انفتاحهم على المجتمع، **وثانياً** إلى القدرة المالية الكبيرة التي امتلكوها خلال هذه الحقبة بفعل التوسع التجاري[٣]. ويعد



بيت أحد أغنياء اليهود المطل على نهر دجلة سنة ١٩١٤م.

(١) علي الوردي، اليهود العراقيون، لمحات اجتماعية، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، عدد ٢٢، أيار - حزيران ١٩٧٧م، ص١١٢.
(٢) ديولافوا، المصدر السابق، ص١٠٩.
(٣) علي الوردي، اليهود العراقيون، ص١١٢.

اليهود من الطوائف المثيرة للاهتمام إذ يشكلون في واقع الأمر جزءاً ذا أهمية كبرى في بغداد وخاصة أنهم كان لهم دور كبير في اقتصاد البلاد إضافة إلى اهتماماتهم السياسة، وبالتحديد خلال هذه الحقبة ورغم تفضيل اليهود العمل في جميع النشاطات التجارية والمالية إلّا أن القسم الأغلب منهم يعملون حرفيين وصناعاً وخاصة في الأعمال المعدنية الخاصة بالذهب والفضة حيث تميزوا بمهارتهم ودقتهم في العمل فمثلاً كان خان جغان يعمل به (٧٧) صانعاً يهودياً[١]، إلّا أن البعض من اليهود مارس أعمال أخرى متواضعة كمنظفين لبالوعات المنازل أو دلالين لشراء الملابس القديمة[٢]، وهي أعمال كان المسلمون يأنفون من ممارستها.

ويمكن تصنيف اليهود حسب مهنهم إلى أربع فئات، الفئة الأولى: وهي فئة غنية تتألف من كبار التجار والصيارفة وتشكل نسبة (٥٪)، وفئة وسطى تتألف من التجار وعاقدي الصفقات والموظفين وما شابه ويشكلون نسبة (٣٠٪)، وفئة المهنيين والحرفيين والباعة المتجولين ويشكلون نسبة (٦٠٪)، وفئة الفقراء ويشكلون نسبة (٥٪)، وهؤلاء يتلقون مساعدات سخية من جمعية إسعاد الفقراء اليهود[٣]. وكان لكبار التجار والصيرفة دور كبير في النشاط الاقتصادي وتحديد مساراته خلال تلك الفترة، حيث كانت بداية النشاط الاقتصادي لليهود بيع بضائع معينة مفترشين الشوارع أو متجولين يجوبون القرى يقايضون بعض إنتاج المدينة بما يتوفر من بيض ودجاج وإنتاج حيواني أو زراعي. ولم يكن يزاحمهم أحد على تلك الأعمال وكان البعض الآخر من اليهود قد امتهن إقراض النقود بالربا، وطبيعياً كلما توسعت التجارة ازدادت الحاجة إلى النقد، فكان المرابون اليهود موئل المحتاجين، شهد القرن التاسع عشر خاصة توسعاً كبيراً في قطاع التجارة، مما أظهر الحاجة إلى الصيرفة،

(١) جريدة كل العرب، ٣١ كانون الثاني ١٩١٨م.

(٢) G. Geary, op., cit., p:222.

(٣) Kedourie, op., cit., p:358.



عائلة بغدادية يهودية من الطبقة الغنية.



امرأة يهودية من الطبقة الفقيرة.

ووثّق العمل التجاري ارتباط التجار بالمرابين اليهود لأن المال عصب الميدان التجاري، فانتشرت أعمال الربا في بغداد، وبفضل قدرتهم المالية التي امتلكوها مارسوا العمل التجاري من أوسع أبوابه، فازدادت مكاتبهم بعد توسع التجارة على أثر فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩م. إذ كانوا المستفيدين الأوائل من هذا التغيير فاحتكروا العمل التجاري، ولم يفسحوا المجال لغيرهم بالعمل التجاري، واستخدموا التعامل الليّن الذي أتقنوه، وجهزوا قسماً بالبضائع مقابل رهون صغيرة أو كبيرة حسب قيمة البضاعة المجهزة، وكان التأخير في سداد قيمة البضائع مع الفائدة يدفعهم إلى مصادرة الرهون وهو ما يحدث غالباً لثقل الفوائد التي يفرضها اليهود. وكان لتمرس اليهود في الأعمال التجارية والمحاسبة أثر في إظهارهم فئة لها تأثير فاعل في بغداد(١) لسعة سوقها وتركز أغلبيتهم فيها، ويشير تقرير قنصل بريطاني يعود تاريخه إلى سنة ١٨٧١م إلى تركز الكثير من عمليات البيع وشراء البضائع الإنكليزية في أيديهم، وفي سنة ١٩١٠م ذكرت رواية سرية أن اليهود احتكروا التجارة المحلية بكل معنى الكلمة ولا يستطيع المسلمون والمسيحيون منافستهم في هذا(٢)، فقد صار لكل تاجر يهودي بغدادي منهم تقريباً بيوت تجارية في الهند وإنكلترا، وكانت أموالهم موزعة بعناية في بلدان عدة ومن أشهر العوائل اليهودية هي **عائلة ساسون التي عرفت بروتشيلد الشرق ومن شركاتهم «شركة دافيد ساسون اندكيوماني وغيرها» وعائلة يهودا زلوف، وعزرا ساسون، وحسقيل زبولون، ومنشي شمعون، وحسقيل يونا، وشاهول منشي ميراسحاق، وحسقيل شماس، وشاؤول حسقيل، ودانيال، وميرالياس(٣) وحسقيل ساسون كركوكلي، وعزرة الياهو، وموشي زلوف، والياهو زلخة(٤) وغيرهم.**

(١) أحمد عبد القادر القيسي، الدور الاقتصادي اليهودي في العراق، (١٩٢٠-١٩٥٢م)، أطروحة دكتوراه، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، ١٩٩٨م، ص٢٥-٢٦.

(٢) حنا بطاطو، المصدر السابق، ص٢٨١.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٩٠.

(٤) سجل تجاري لسنة ١٣٠٢ ولسنة ١٣١٢هـ، بحوزة د. عماد عبد السلام رؤوف.

وكان للتجار اليهود أثر أساسي في عدم تحول رأس المال التجاري إلى رأس مال صناعي مما أدى إلى انقراض الصناعات الحرفية في مطلع القرن العشرين، حيث إن تراكم أرباح التجارة يعاد استثماره في الميدان نفسه إلى ارتفاع نسبة الأرباح فيه قياساً بالميادين الأخرى[١]. وأدت عمليات النشاط التجاري إلى نمو فئة الصرافين، بحيث غدت هناك مصارف يهودية مثل مصرف خضوري عبودي زلخة الذي تأسس في بغداد سنة ١٨٩٩م[٢]. وبلغ عدد الصرافين نحو (٥٠) صرافاً لكل منهم عدد من العملاء المحدودين بين المئتي تاجر تقريباً ولهم مكاتب كبيرة تقع معظمها في خان باش أو خان الزرور ومن أشهرهم حسقيل عزرة زلخة، وعلي أخضراني عبد الكريم، وشاهول بن سلمان عزرة[٣] وهم يعملون عملاً مزدوجاً وهو أولاً فحص الليرة المجيدية بطريقة خاصة مقابل مرتب عثماني. وذلك لمصلحة كبار التجار والبنك العثماني قبل طرح العملات للتداول وهذا لا يعني وزنها فقط بل وتداولها في بغداد وتحديد الولاية التي تصلح فيها فيقوم الصراف بالضبط واستبدال العملات الخفيفة بالوزن وهو عمل رابح مع الناس كافة فمثلاً يحصل المعمول بين قرشين وأربعة قروش لليرة الواحدة وكل عملة يستبدلها لها عمولة خاصة حسب العملة المستبدلة أو العملات المطلوبة وثانياً يعمل كمحصل للكمبيالات والتسديدات[٤]. والصراف يعمل كمصرفي خاص بسيط وخالص، فالتاجر يودع المبالغ النقدية أو سندات يقوم مقابلها بالسحب بموجب صكوك بالقرش تاركاً لصرافه تقدير نوع العملة التي تدفع بها وليس ضرورياً بالنسبة إلى التاجر أن يمسك دفاتر يقيد بها العملات المتنوعة،

(١) أحمد القيسي، المصدر السابق، ص٨١.
(٢) حنا بطاطو، المصدر السابق، ص٤٤٨.
(٣) سجل تجاري لسنة ١٣٠٢ و١٣١٢هـ/ بحوزة الدكتور عماد عبد السلام رؤوف.
(٤) لقد أدخل نظام الكمبيالات منذ نهاية القرن التاسع عشر وهي سند مؤجل يدفع بتاريخ محدد ويمكن الحسم عليه بفائدة (٦-١٢٪). لمزيد من المعلومات انظر: شارل عيساوي، المصدر السابق، ص٦٨١.

فالصراف يحمل عنه هذا العبء مقابل عمولة تبلغ أحياناً بارتين لليرة الواحدة، وهم يعملون مع التاجر يحددون عملياً معدل الكمبيالات التجارية للتاجر والمعدلات التي تطرح بها في الأسواق عندما تصدر السماسرة الكمبيالات[١]، والصراف يقدم الطلبات ويفي بالحاجات ويحمي من الكوارث وممكن أن يكون صديقاً للتاجر فيدفع عنه ضغوط الدائنين وبينما يستطيع التاجر أن يحيل المطالب إلى الصراف ويحتفظ بكرامته[٢].

وكان هناك عدد كبير من بيوت السمسرة في بغداد، إذ يقوم بجمع طلبات الشراء فيتولى تسهيل التجارة إذ يتم الدفع من خلال السحب المستند على بيت تجاري أوروبي، فالتاجر الصغير الذي يطلب بالة من المنسوجات يدفع تأميناً مقدماً ويعطي باقي الثمن بالتقسيط وبموجب كمبيالات إذ يتم جمع المبلغ أسبوعياً. ونتيجة لمخاطر هذه العملية فقد كانت سبباً وراء وجود الكثير من بيوت السماسرة اليهودية في بغداد. والسماسرة وعملاؤه والمشترين يطلب من التاجر البريطاني بخاصة أن يدفع نقداً أي يوم تسوية الحساب ولكن إذا كان عليهم بيع كمبيالاتهم بهذه المعدلات فإنهم يجدون صعوبة في ضمان شروط مجزية ولا بديل أمامهم إلّا بيعها من البنك العثماني مقابل مبالغ نقدية تقدر جزائياً.

ونتيجة لما يتمتع به تجار اليهود وكبار الصرافين من وزن اجتماعي كبير وثروات يمكنهم من خلالها الاتصال بالولاة العثمانيين وكبار الموظفين. فدائماً ما كانوا يعقدون الصفقات التجارية مع الولاة حتى ولو على حساب الناس رغم أنها حالات معزولة وقصيرة الأمد بسبب تغير الولاة الدائم. وكانت أمورهم التجارية تجري بسهولة في دوائر الحكومة لمعرفتهم بأساليب الرشوة التي تدفع إلى الموظفين.

---

(١) المصدر السابق، ص٦٨٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٦٨٣.

وعند إجراء انتخابات أعضاء مجلس المبعوثان في الدولة العثمانية اختير مناحيم دانيل عضواً لتمثيل بغداد في المجلس حيث كان من كبار التجار اليهود في بغداد[١]، وأصبح لليهود دورٌ في إدارة شؤون الولاية حيث كان لطائفة اليهود مقعد في مجلس إدارة الولاية وقد اختير زعيم لتمثيل طائفتهم[٢]. ومما يدل على زيادة أهمية اليهود السياسية هو أنهم كانوا سبباً في نقل الوالي مصطفى عاصم باشا سنة ١٨٨٩م، لأنه اتخذ إجراءات شديدة بحقهم عند ضربهم رئيس بلدية الكرخ لأنه حاول منعهم من دفن رئيس الحاخاميين في مرقد النبي يوشع في جانب الكرخ، إذ تحولت القضية إلى قضية عالمية عندما هب يهود أوروبا وأثاروا ضجة صحفية في الأوساط السياسية ورفع أحد زعماء اليهود في بريطانيا احتجاجاً إلى اللورد سلزبري وقدم هذا شكوى إلى الحكومة العثمانية ما جعل السلطان العثماني يسرع بتدارك الأمر عندما أمر بنقل الوالي من بغداد[٣]. وازداد نشاط اليهود السياسي بعد وصول جمعية الاتحاد والترقي إلى السلطة سنة ١٩٠٨م حيث تولى اليهود في الحكم الجديد مناصب ومواقع وظيفية أساسية مما كان لها انعكاساً إيجابياً على يهود بغداد وأشعرهم بارتياح أكبر، ومنحهم سلطات أوسع.

واستمر التجار والصرافون اليهود في لعب دور رئيس في الشؤون اليومية لطائفتهم[٤]. فهم الذين يتخذون القرارات والإجراءات في الظروف الاستثنائية فيما يتعلق بشؤون اليهود، وكانت الحكومة لا تتعامل مع الطائفة اليهودية إلّا من خلال زعمائها فهم المسؤولون الأوائل أمام الدولة عن السيطرة السياسية

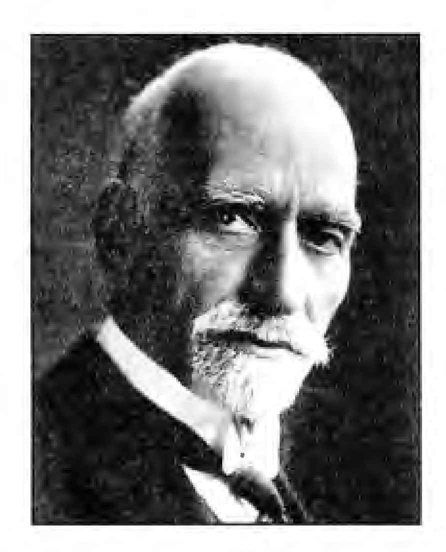
(١) خلدون ناجي، المصدر السابق، ص٧١؛ يوسف رزق الله غنيمة، نزهة المشتاق، ص١٧٩.

(٢) V. Ceninet, op., cit., p:7.

(٣) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٤٥.

(٤) محمد توفيق حسين، اليهود الماسونيين في الانقلاب العثماني، ١٩٠٨م؛ مجلة آفاق عربية، عدد ١١، أيار ١٩٧٨م، ص٥٦.

على مجتمعهم، وقد انتخب **حسقيل ساسون** عضواً في مجلس المبعوثان ثم وزيراً للمالية سنة ١٩٢١م بعد الثورة الدستورية[١]. وقد أدرك كبار التجار منذ البداية أهمية المدارس لتعليم أبنائهم العلوم الحديثة واللغات الأوروبية لأن التجارة والاتصال بالعالم يحتاج إلى مثقفين يتقنون اللغات الأجنبية لذلك اهتموا بالمدارس لتعليم أبناء طائفتهم العلوم الجديدة، واطلاعهم على الأساليب الغربية الحديثة. وتأسست المدرسة اليهودية سنة ١٨٦٤م من قبل الائتلاف الإسرائيلي العالمي في باريس إذ منح السيد ديفيد ساسون، والسيد الكولونيل نيكسون من بومباي مبلغ ألفي ليرة لتشييد مبنى ضخم لاتخاذه مدرسة للتعليم[٢]. وتولى إدارة المدرسة أحد السكان المحليين الذي تلقى تعليمه في باريس إضافة إلى لجنة خاصة مؤلفة من المعلمين الفرنسيين،



حسقيل ساسون
أول وزير مالية يهودي للعراق سنة ١٩٢١م.

(١) يوسف رزق الله غنيمة، نزهة المشتاق، ص١٨٠؛ الزوراء، العدد ٣١٦، ١٩ ذي القعدة ١٢٨٩هـ.

(٢) المصدر نفسه، ص١٧٧.

تدرس فيها اللغة العربية، والتركية والفرنسية في البداية، ثم أضيفت اللغة الإنكليزية باقتراح من الكولونيل نيكسون الذي أوضح بأنه نظراً لسعي العديد من الشباب إلى العمل في مكاتب التجار اليهود في الهند والصين ولندن، فإن الإنكليزية ستكون شرطاً لازماً وأساسياً لنجاحهم في الحياة المهنية، والذي قام بتدريسهم أحد اليهود الشباب الذي تلقى تعليمه في الكلية اليسوعية في بومباي. وقد حضر الكولونيل نيكسون الامتحان الأول لهذه اللغة إضافة إلى شخصين أرسلهم القنصل الفرنسي لاختبار الطلبة باللغة الفرنسية.

وقد واجهت المدرسة في بداية نشوئها صعوبات لعدم اقتناع أغلب الأسر اليهودية بالتعليم الدنيوي اللاديني لأبنائهم بوصفه خطراً على العقيدة الدينية إلّا أنهم أدركوا بعد ذلك الفوائد المادية للتعليم تدريجياً فسمحت لأبنائها بالدخول للمدرسة وبلغ عدد طلابها سنة ١٨٧٧م (١٧٢) طالباً إضافة إلى طالبتين[١]، وفي كل سنة تقيم المدرسة حفلاً بمناسبة تأسيسها يشرف على الحفل الوالي وكبار الموظفين والعسكريين ووجهاء المدينة على اختلاف دياناتهم[٢]. بعد ذلك افتتح عدد من المدارس بلغ عددها (١١) مدرسة، وأوقف اليهود لتلك المدارس بعض أملاكهم لتصرف وارداتها على شؤونها وشبه الرحالة جيري تنظيم وضبط المدارس اليهودية بالمدارس التركية الرسمية وكان هناك إلى جانب هذه المدارس عدد كبير من المدارس التي يتولى إدارتها الحاخامات حيث يتلقى فيها الطلاب دروساً بالعبرية، والتلمود فضلاً عن تعلم الكتابة والقراءة باللغة العربية. وفي سنة ١٨٩١م افتتحت مدرسة للبنات اليهوديات تقوم بإدارتها إحدى المدرسات الفرنسيات[٣]، وكان لهذه المدارس تأثيرها الكبير وظهر جيل جديد من اليهود يرغب بالانفتاح خلاف آبائهم وأجدادهم.

---

(١) G. Ferry, op., cit., p:220.

(٢) صدى بابل، العدد٤٢، ٢٥ جمادي الأولى ١٣٢٨هـ.

(٣) يوسف رزق الله غنيمة، نزهة المشتاق، ص٢٣؛

G. Geary, op., cit., p:220; Habib Chiha, op., cit., p:100.

وتميز المجتمع اليهودي بتعصبه لطائفته، وبوحدتهم القوية فيما بينهم. فلا يوجد منهم شحاذون وحتى نسبة الفقراء فيهم قليلة نتيجة المعونة التي يقدمها أغنيائهم إلى فقرائهم، فكانوا دائماً يستثمرون أموالهم بما يخدم طائفتهم ليحافظوا على نمط حياتهم، فعلى سبيل المثال فقد عيّن اليهود طبيباً خاصاً بطائفتهم مخصص له راتب شهري يجمع من أغنيائهم لمعالجة كبيرهم وصغيرهم. وإذا ما أصيب أحدهم بنكسة تسارع الأغنياء منهم إلى نجدته وهم في معاملاتهم وأحاديثهم فيما بينهم يستعملون عبارات الأخوة وأبناء البلاد[١].

وتميز اليهود بعوائلهم الكبيرة، والزواجات المبكرة في حياتهم الاجتماعية الأمر الذي كان له تأثير في معاناة فئة الفقراء منهم، فكثيراً ما كان الأطفال المفترض وجودهم في المدرسة يعملون لدعم الأسرة مادياً[٢]، واتصفت نساؤهم بجمالهن، وكانت المرأة اليهودية منزوية في البيت قلما تخرج إلى الخارج وهي تنحو نحو البساطة في تبرجها ولكنهن في المناسبات يتزينّ بإسوارة وقلائد ذهب نفيسة وجواهر ثمينة لأن اليهود كانوا يرغبون في اقتناء الكثير من الجواهر والمعادن النفيسة كثيراً[٣] والبعض من نساء اليهود يمارسن عملية بيع الأقمشة والمجوهرات على النساء المسلمات حيث يذهبن إلى بيوتهن «**كدلالات**»[٤].

وتميز اليهود بشدة تمسكهم بأداء شعائرهم الدينية، إذ إنهم يتابعون حتى التفاصيل الصغيرة في كراسات دينية متشددة في تعاليمها إلى حد يمكننا أن نصفهم بالتعصب، مما أضرت هذه المبالغة في التزمت الديني عادة بعلاقاتهم الطبيعية مع أفراد الطوائف الأخرى، إلّا أن هذا التعصب أخذ

---

(١) جيمس وليستد، المصدر السابق، ص٩٦؛ الزوراء العدد ٢٢٢، ٧ ذي الحجة، السنة الثالثة.

(٢) Grattan Geary, op., cit., p:221.

(٣) ديولافوا، المصدر السابق، ص١٢٩.

(٤) جيمس بيلي فريزر، المصدر السابق، ص١٤٤.

يختفي تدريجياً بفعل مؤثرات حضارية التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر[١]. ويتخذ اليهود يوم السبت عطلة لهم لإقامة شعائرهم الدينية حيث يبدأون ممارسة شعائرهم الدينية ظهيرة يوم الجمعة، في الساعة الثانية تحديداً تغلق أسواقهم وجميع محالهم التجارية ويتوقفون عن أداء جميع الأعمال. فيرجع كل يهودي إلى منزله ليرتدي أفضل ملابسه، ويعود مسرعاً إلى المجتمع الكنسي الخاص بطائفته حيث يؤدي الواجبات الدينية التي تستمر إلى ما قبل ساعة غروب الشمس. يبدأ هؤلاء بتناول وجبة العشاء وتستمر أحياناً هذه حتى منتصف الليل وفي صباح يوم السبت تؤدى طقوس دينية أخرى في المجمع الكنسي، يتم بعدها تناول وجبة الإفطار، وبعد ذلك تبدأ طقوس دينية أخرى يتم خلالها قراءة جزء من الكتاب المقدس من قبل رب الأسرة، أو أحد الضيوف ويحدث في بعض الأحيان أن تجتمع بعض العوائل لأداء هذه القراءات، وتختار للقراءة المقاطع المأخوذة من الأنبياء ويصغي جميع أفراد العائلة بانتباه إلى الخطبة ضمن مكان القراءة وبعد الانتهاء من هذا يخصص اليهود بقية يوم السبت لتبادل الزيارات والتمتع بالهواء الطلق[٢]. ويتحدث اليهود باللغة العبرية فيما بينهم إضافة إلى العربية وعادة ما يدونون سجلاتهم باللغة الأولى[٣]. واشتهر اليهود بقدرتهم الفائقة في إعداد الطلاسم التي يمكنها حماية الأشخاص - حسب زعمهم -، وتحضر هذه الطلاسم بصورة عامة بواسطة ترتيب خاص لأحرف وكلمات مأخوذة من الكتب المقدسة، والتوراة، والتلمود، ويرى عدد من البغداديين بأن لليهود اتصالاً بالقوة اللامرئية أو السحر وهي قدرة لا يملكها أفراد الأجناس الأخرى[٤]. وكان لليهود مقبرتان[٥] في بغداد.

وأخيراً فإن أوضاع اليهود في بغداد تشير خلال هذه الحقبة إلى أنهم أقلية

(١) V. Ceninet, op., cit., p:88.

(٢) Grattan Geary, op., cit., p:220.

(٣) Ibid, p:221.

(٤) Ibid, p:235.

(٥) V. Ceninet, op., cit., p:98.

منظمة متعلمة ذات مستوى معاشي مرفه[١]، ولا تعاني من التمييز أو سوء المعاملة وتحظى بتجربة دينية كاملة ولهم مؤسساتهم الخاصة بهم. **ويعلق الرحالة جيري على روح التسامح والحرية التي تمتع بها اليهود بقوله**: «إن اليهود في بغداد الذين تحادثت معهم أكدوا بأنهم يتمتعون بجو كامل من التسامح في ظل الحكومة التركية، ويدين اليهود بالفضل لهذه الحقيقة وهو أمر لا يتمتعون به في الأماكن الأخرى»[٢] **ويصف الرحالة كوبرا ذلك أيضاً إذ يقول**: «لا يعاني اليهود في الوقت الحالي من أي نوع من أنواع الاضطهاد ويشكلون في واقع الأمر جزءاً ذا أهمية كبرى في حياة بغداد»[٣] فتمتع اليهود بحرية النشاط السياسي والاقتصادي دون أن يتعرضوا لأية مضايقات أو قيود فمارسوا نشاطهم الاقتصادي بحرية كاملة بحيث كانت تجارة العراق عامة وبغداد خاصة بأيديهم بواسطة وكلائهم المنتشرين في مانجستر وبومباي وباريس ولندن **ويصف كوبرا تجار اليهود بقوله: «يشاهد في الشوارع العديد من اليهود من ذوي المظاهر النبيلة والمشرفة، عادة ما يرتدي هؤلاء ملابس حرير وأكمامات ملونة»**[٤] وكثيراً ما وجد التجار المسلمون أنفسهم مضطرين لمشاركتهم التسهيل لأشغالهم والترويج لها، وشهدت هذه الفترة خاصة خروجهم من تعصبهم الديني المتزمت بفضل المؤثرات الثقافية والتجارية والعلمية، وإتقانهم اللغات الأجنبية من خلال المدارس، والعمل التجاري، فكانت تنظيماتهم وتشكيلاتهم الخاصة بهم، قد جعلتهم طائفة منظمة وأن قدراتها تبدو متميزة في التضامن والتفاعل والدور المركزي في المجتمع وعليه فإن هذه الأقلية كانت ذات نفوذ اجتماعي وتأثير واضح على المستوى الاقتصادي والسياسي.

---

(١) أمين المميز، بغداد كما عرفتها، بغداد، ١٩٨٥م، ص١٦٢-١٦٣.

(٢) G. Geary, op., cit., p:222.

(٣) Cowper, op., cit., p:274.

(٤) Ibid, p: 274.

الفصل الرابع

التنظيمات الاجتماعية

نقابة الأشراف - الطرق الصوفية - الحرف والمهن
النوادي الثقافية - الجمعيات والأحزاب السياسية

شهدت الحياة الاجتماعية في بغداد كما في غيرها من المدن العربية ظهور تنظيمات اجتماعية، اقتصادية، ودينية تكونت تلقائياً من قبل فئات المجتمع، لتحقيق نوع من التضامن داخل كل فئة من فئات المجتمع وداخل المجتمع ذاته ككل.

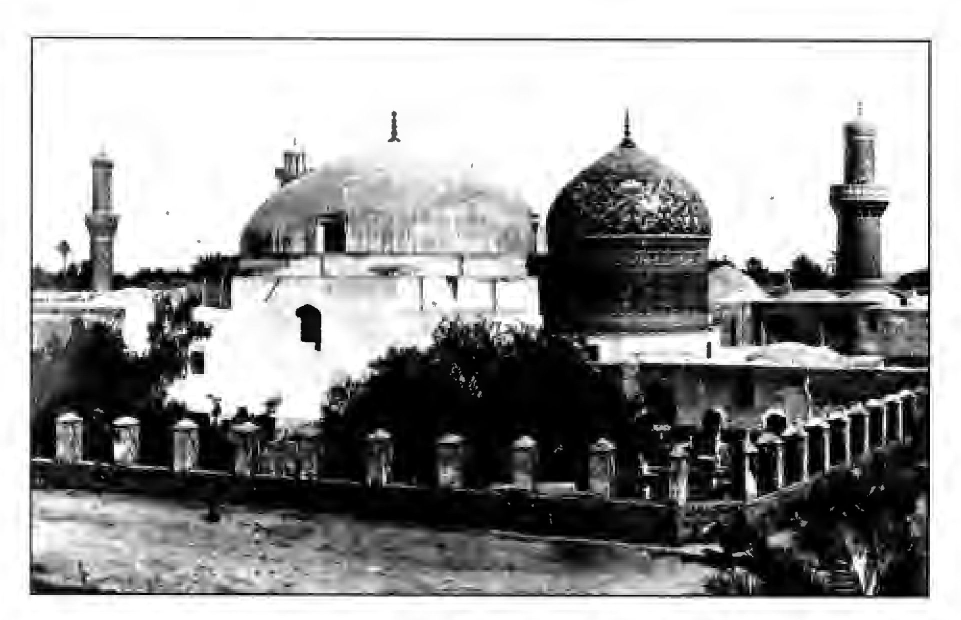
وكانت هذه التنظيمات مرغوب فيها من قبل الحكومة، لأنها تعينها في حفظ النظام بين سكان المدينة. واستمر وجودها خلال هذه المرحلة، إلّا أن البعض منها شهد تدهوراً في أحوالها التنظيمية؛ بسبب التطورات التي حصلت منذ منتصف القرن التاسع عشر. وبما أن هذه الحقبة هي مرحلة صراع بين القديم والجديد في تكوينه فقد برزت ولادة تنظيمات جديدة منذ نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين مستمدة وجودها من حاجة المجتمع. فارتبطت التنظيمات بمصالح المجتمع كافة من فئات مختلفة متباينة وكانت أهمية التنظيم تتعاظم مع تعاظم دور الفئة وازدياد ثقلها السياسي والاجتماعي في الحياة السياسية في بغداد. **وهذه التنظيمات هي:**

❶ نقابة الأشراف:

يعود وجود تنظيم نقابة الأشراف في بغداد إلى مطلع القرن السادس عشر، عندما أسند السلطان سليمان القانوني حين دخوله بغداد سنة (٩٤١هـ-١٥٣٤م) نقابة أشراف بغداد للشيخ زين الدين القادري الكيلاني من أحفاد

الشيخ عبد القادر الكيلاني[(١)] بفرمان سلطاني خاص، وبقي منصب النقابة يتولاه أفراد الأسرة القادرية جيل بعد جيل طيلة العهد العثماني[(٢)].

عُرفت نقابة الأشراف منذ العصر العباسي، لكن وظيفتها الأساسية كانت العناية بأمور المنحدرين من سلالة الرسول (ﷺ)، وضبط أنسابهم، والإحاطة بأخبارهم فأصولهم، وفروعهم. فنقيب مرجع السادة، وحافظ أنسابهم، وناظر



مقبرة الشيخ عبد القادر الكيلاني في بغداد سنة ١٩٠٩م.

---

(١) هو عبد القادر بن موسى بن عبدالله بن جنكي دوست أبو محمد محيي الدين الكيلاني أو الجيلاني أو الجيلي من كبار الزهاد المتصوفين مؤسس الطريقة القادرية لمزيد من المعلومات، انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، مصر، ١٩٢٩م، ص٣١٧؛ ابن تيمية، شرح كلمات الشيخ عبد القادر الكيلاني، من فتوح الغيب، تحقيق: إياد عبد اللطيف إبراهيم، بغداد، ١٩٨٧م، ص٤١.

(٢) د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، ص٢٨٩.

شؤونهم الدينية والدنيوية[١]. إن هذا المنصب قد شغر في فترات الاضطراب التي أعقبت سقوط بغداد على يد هولاكو سنة (٦٥٦هـ) والحكومات الأجنبية الأخرى التي حكمت بغداد، والتي اتسمت سياستها في العراق بالاضطراب حتى العصر العثماني[٢]. ازدادت أهمية نقابة الأشراف خلال هذه الحقبة واحتلت المرتبة الأولى بين التنظيمات الاجتماعية، وأصبحت تمثل تنظيماً اجتماعياً كبيراً يستند إلى قاعدة روحية ومادية. كان نقيب الأشراف يتولى الإشراف على أكبر محلة من محلات بغداد وأكثرها كثافة واستقلالاً عن سلطة الحكومة، فلم يستطع أي من الولاة التدخل بشؤونها إذ كانت عالماً خاصاً يشرف عليه النقيب[٣]. **ويصف فريزر ذلك بقوله: «يمارس فيها النقيب بوجه عام شيئاً لا بأس به من النفوذ والسيطرة، فكان الجميع يدين له بالطاعة والولاء»**[٤].

ولما يتمتع به نقيب بغداد من نفوذ وأهمية بوصفه يمثل أكبر شريحة في المجتمع البغدادي في المدينة، اختير عضواً دائماً في مجلس الولاية عندما أنشأ المجلس الإداري للمدينة سنة ١٨٧١م[٥]. كما أعفى أبناء أسرته من الخدمة العسكرية، وعد النقيب بمثابة مستشار للوالي الذي يتولى ولاية بغداد، كما كان النقيب يقوم بقراءة الإرادات السنية السلطانية في تعيين الولاة، وإذا غضب الوالي على أحد العلماء والوجهاء والمتنفذين فإنه يقرر سجنه في ديوان النقيب.

(١) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٢٨٢.

(٢) د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، ص٢٩٢؛ طارق محمد الحمداني، الملامح الحضارية، ص٤٣-٤٤.

(٣) د. عماد عبد السلام رؤوف، إدارة العراق (الأسر الحاكمة ورجال الإدارة والقضاء في العراق في القرون المتأخرة ٦٥٦-١٣٣٧هـ/ ١٢٥٨-١٩١٨م)، بغداد ١٩٩٢م، ص٩١.

(٤) جيمس بيلي فريزر، المصدر السابق، ص١٦٧.

(٥) سالنامة بغداد، دفعة واحدة، بغداد مطبعة ولايتي، ١٢٩٢هـ، ص٤٩.

وقد لقيت الأسرة القادرية الدعم من قبل السلاطين والولاة الذين كانوا دائماً يشجعون ويرعون النقباء، فيمنحونهم الأوسمة والرتب والنياشين العالية[1]. وأما ما يختص في الامتيازات والحقوق فقد حظيت النقابة برعاية خاصة ونالت كثيراً من الحقوق والامتيازات والنفوذ.. فقد استطاع النقيب علي الكيلاني بمساعدة الوالي نجيب باشا - المتمسك بالطريقة القادرية - أن ينظم أمور الوقفيات القادرية ويوحدها جميعاً تحت إدارته[2]. وفي سنة ١٨٨٥م ذهب النقيب سليمان الكيلاني إلى إسطنبول لزيارة السلطان عبد الحميد الثاني ليحظى برضا السلطان ويحصل على مكاسب مادية ومعنوية[3]، ولكن الخلاف الذي كان حاصلاً بينه وبين أبي الهدى الصيادي صاحب الطريقة الرفاعية قد أثر عليه بعد عودته إلى بغداد، إذ أخذ الوالي عاصم باشا بإيعاز من أبي الهدى الصيادي الإضرار بالأوقاف القادرية التي كانت تحت إشراف وتشجيع ودعم الطريقة الرفاعية، واستمرت معاناة النقيب زهاء ثلاث سنوات أي طول مدة ولاية عاصم باشا ولم تتحسن حاله إلّا بعد نقل الوالي[4].

أثرت النقابة تأثيراً هاماً في الحياة الاجتماعية في بغداد خلال تلك المرحلة، فكان لاندماج الصوفيين في حياة الناس ومشاكلهم أثر كبير في المشاركة في الفعاليات السياسية والدينية المختلفة، فصار الدراويش وأتباع القادرية مثلاً يحضرون الاجتماعات والاحتفالات العامة لمناسبة ذكرى جلوس السلطان على العرش أو عيد ميلاده أو غيرها، حتى صارت دور شيوخ هذه الطريقة من المواقع الرسمية التي ترفع عليها معالم الزينة لهذه

(١) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٢٨٣.

(٢) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص٨٣؛ ج٨، ص١٦.

(٣) المصدر نفسه، ج٨، ص٨٥.

(٤) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٤٣؛ عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص٩٢.

المناسبات[١]. وشاركت مشاركة فعالة في الحياة السياسية أيضاً إلى درجة أنها أصبحت من القوى المنظمة الرئيسة في الوقوف بوجه الحكومة القائمة. فكان موقف النقيب من تسليم داود باشا إلى القوات العثمانية المكلفة بإقصائه عن بغداد سنة ١٨٣١م، وانضمام عدة آلاف من الأهالي إلى جانب النقيب. أثره في إشعال الثورة في جميع أنحاء المدينة مما أدى إلى عرقلة خطط القيادة العثمانية خارج المدينة من السيطرة على بغداد، ولم يتمكن علي رضا باشا المكلف بإقصاء داود باشا من القضاء على الثورة إلّا بعد أن دبر أحمد أفندي خطيب الإمام أبي حنيفة بالاتفاق مع علي رضا على مؤامرة نجحت في خطف السيد محمود النقيب ونقله إلى معسكر الجيش العثماني خارج المدينة. وبذلك تم عزله عن قيادة جماهير العامة الثائرة[٢]. وهذا ما أثبت قوة النقيب السياسية الفعلية في المدينة في توحيد قوى السكان. وتنظيم الدفاع عن الوالي داود باشا وتفهمه طبيعة القوى المكونة للمجتمع في المدينة. **وكان تنظيم نقابة الأشراف يستند في قوته إلى قاعدتين:**

- ١ قاعدة روحية صوفية تتمثل في كون نقيب بغداد رئيساً عاماً للطريقة القادرية وخادماً لمسجد جدّه الشيخ عبد القادر الكيلاني[٣] فاحتل النقباء مكانة كبيرة بين المجتمع البغدادي آنذاك. ولإيمان الناس بقواهم الروحية وتمكنهم من معرفة أمور المغيبات وقدرتهم

(١) جاسم محمد حسن، وقائع احتفالات ولاية بغداد بالمناسبات الرسمية والدينية أبان حكم السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م) مجلة المورد، مجلد ١١، عدد ٣، ١٩٨٢م، ص٤٠.

(٢) سليمان فائق، تاريخ الكوله منده، ص٧٧؛ د. عماد عبد السلام رؤوف، الأسر الحاكمة، ص٩١.

(٣) سجادة الجد، مصطلح يستخدمه أصحاب الطرق الصوفية ويعني الجلوس في مكان الشيخ.

على الإتيان بالكرامات واستخدامهم القوى الغيبية في تيسير أمور الناس المتعسرة. ومثل هذه الأفكار كانت تجد طريقها دائماً ليس إلى عقول الفئة العامة فضلاً عن الشرائح العليا الأخرى في المجتمع[١].

٢ • وتستند إلى قاعدة مادية كبيرة بامتلاكها ثروات غنية موقوفة أغلبها، أوقفها السلاطين والولاة وميسورو الحال من الأهالي على الشيخ عبد القادر الكيلاني، والتي كانت تدر أموالاً كثيرة على النقباء. وتكشف لنا وقفيات النقباء عن ضخامة أوقاف الشيخ عبد القادر الكيلاني، حيث كانت الأراضي الزراعية والحقول الموقوفة للأسرة القادرية من أكبر المساحات الموقوفة وأغناها. ففي وقفية شمس الدين القادرية والمؤرخة سنة (٩٥٥هـ-١٥٤٨م) نجد أن الأملاك الموقوفة على الأسرة شملت بساتين غنية حول بغداد، منها جميع البساتين المشتملة على النخيل، والتين، والرمان، والأشجار المختلفة الواقعة قريبة من باب البلد خارج مدينة بغداد، وبئر الكرد المعد لسقي بستان الوقف وجميع أراضي ومزارع الكرد الواقعة خارج القلعة إلى آخر أراضي الشواخير مع تلال الصخر. وشملت زين الدين سبع قرى بمزارعها وحقوقها كافة، وتوابعها، وأراضيها، وبساتينها، وأهوارها، وجوابيها، ومنسوباتها، ومضافاتها، وهي قرى (**قصيبة، والقوصري، وارازقيات، ودورة، والمنصورية، وأبي صيدا، وباجسرا**) وشملت مزارع وحقول وأنهار عديدة غيرها، فضلاً عن عدد من الدور في بغداد دائماً[٢].

---

(١) د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، ص٢٩٥.

(٢) المصدر نفسه، ص١٥٠.

ورغم أن أقساماً من هذه الأراضي والعقارات خصصت لعمارة جامع الشيخ ولأعمال البر، فإن ما كانت تدره على الأسرة القادرية سنة (١٢٦١هـ) ذاتها كان يبلغ (١٣٥٩٢٥) قرشاً من أصل مجموع الواردات وقدره (١٤٣٧٥٠) قرشاً أما الباقي وقدره (٧٨٧٥٠) قرشاً فيوزع رواتب على مدرسي المدرسة القادرية وأئمة الجامع وخدمه[(١)]. فضلاً عن الأموال التي يرسلها مسلمو الهند إلى مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني، وهي مبالغ ضخمة ذات أهمية كبيرة في تمويل مرقد الشيخ[(٢)].

فبفضل هذه الموارد المالية الكثيرة استطاع النقباء استغلالها في سبيل بسط نفوذهم على العامة من جهة، وتثبيت مركزهم الاجتماعي أزاء السلطة الحاكمة من جهة أخرى. فمكنتهم هذه الثروة من أن يقوموا بأعمال اجتماعية وعمرانية عديدة. إذ كانوا يوزعون الطعام يومياً على الفقراء المجاورين إلى جامع الشيخ، وإعطاء بعض أسر المحلة الهبات والعطايا مع تخصيص رواتب للدراويش وأئمة الجامع وخدمه وطلابه[(٣)]، وخاصة أن هؤلاء كانوا الهيكل الأساس لقيام ذلك التنظيم ومصدر قوته[(٤)] وتأثيره، فقد ورد في جريدة الزوراء أن عدد الدراويش الذين يقيمون حول مرقد الشيخ قرابة (٨٠٠)

---

(١) المصدر السابق، ص١٥١.

(٢) Habib Chiha, op., cit., p:173;

هلكوت حكيم، أنصار ظهور الطريقة النقشبندية في كردستان في أوائل القرن التاسع عشر، مجلة دراسات كوردية، مجلة فصلية تصدر عن مركز أبحاث المعهد الكردي، باريس، كانون الثاني ١٩٨٤م، ص٦٤.

(٣) د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، ص٣٠١؛

Habib Chiha, op., cit., p:173.

(٤) د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، ص٢٩٥؛ د. عماد عبد السلام رؤوف، الأسر الحاكمة، ص٩١.

درويش من أقوام مختلفة من هنود ومغاربة وأفغان وغيرهم. إذ يأتون لزيارة الشيخ فيحلو لهم العيش. فيستقرون فيه[١] فضلاً عن اضطلاع النقباء بالتعمير المستمر لمباني الجامع والتكية ومدارسه وسائر مرافقه وتشييدهم لبعض المدارس والمساجد[٢]. ومن خلال هذا يمكن تصور مقدار الثروة التي يمتلكها النقباء وخاصة أن جميع تلك الأوقاف كان مصاناً ومعفياً من الضرائب والرسوم[٣]، وبعد أن استطاعت نقابة الأشراف المحافظة على تنظيمها الذي أصبح من الناحية الاجتماعية تنظيماً مسؤولاً عن الفئة العامة، والدفاع عن مصالحها مستفيداً من علاقته بالفئة الحاكمة.

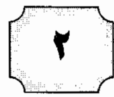


بغداد سنة ١٩١٤م.

(١) الزوراء، العدد ٥٠٥، صفر ١٢٩٠هـ.

(٢) محمود شكري الألوسي، تاريخ مساجد بغداد وآثارها، ص٨٠-٩٢.

(٣) ج. ج. لوريمر، دليل الخليج، الجغرافي، ج٣، ص١٠٥٥.



الطرق الصوفية

شهد القرن التاسع عشر انتشار التصوف(١) بشكل كبير وثمة عوامل عديدة كانت وراء ذلك أبرزها الإرث الصوفي الأول، إذ كانت بغداد موضع الثقافة الصوفية بألوانها العديدة حتى سميت بغداد برج الأولياء لكثرة ما فيها من الصلحاء وأن معظم قبور مؤسسي الطرق الصوفية موجودة في بغداد إذ لا توجد طريقة في العالم الإسلامي إلّا وترجع أصولها إلى أصل عراقي(٢)، إذ كان العراق القاعدة الأم للحركة الصوفية وكانت انعكاسات الواقع، والظروف

(١) التصوف: اختلف الباحثون في أمر التصوف لغة واصطلاحاً وبنية وغاية حتى وصل هذا الاختلاف بينهم من لغويين ومفكرين ومؤرخين حد التناقض الحاد في الرأي والموقف. ففي اللغة يختلف المعنى الصرفي لفعل التصوف عن المعاني الاشتقاقية للفعل (صاف) الثلاثي ولكن أهل اللغة أجازوا الصوفي والصوفية تمشياً مع ما أجمع عليه بعض أهل الاصطلاح الذين جهدوا في اشتقاق هذين المصطلحين من أحد الألفاظ التالية الصوف أو الصف الأول أو لصفاء القلب ونقاء آثارها. أما الاصطلاحيون فقد اتفقوا على أن التصوف هو طريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكل الهمة على الله تعالى ومن هنا ائتلف المبنيان اللغوي والاصطلاح للتصوف على فئة خاصة من المتعبدين يتسمون بالفقر والزهد والخشية من الله تعالى ومخالفة النفس وذكر عيوبها واعتزال الناس والاعتكاف والخلوة والإتيان بالأذكار. لمزيد من المعلومات، انظر: عبد الكريم بن هوزان القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: محمد حسن، باكستان، ب.ت، ص١٢٦؛ علي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج٣، القاهرة، ١٩٧٨م، ص١٩-٢٠؛ عبد الرحمن بدوي، تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني، الكويت، ١٩٧٥م، ص٤٢.

(٢) عباس العزاوي، الطريقة النقشبندية في العراق، مجلة المعرفة، السنة الثانية، ج٢٦، بغداد، شباط ١٩٦٢م، ص٥.

الاقتصادية، وعدم الاستقرار السياسي، وانتشار الجهل عوامل سهلت كثيراً على الطرق الصوفية أن تغزو تقاليد ومعتقدات أبناء المجتمع بشرائحه المختلفة، حتى كأن المجتمع أصبح مجتمعاً صوفياً. وكان للتقارب بين نظام الأصناف والتنظيمات الصوفية أثر في شد أبناء المجتمع للانخراط تحت ألوية هذه الحركة الصوفية خاصة أن الأصناف ظلت تمارس دورها الاقتصادي طيلة العهد العثماني[١]. وكان التوجه العثماني السياسي العام يشجع على التمسك بالصوفية إثر شيوع التصوف خلال القرن التاسع عشر بشكل مفرط ويرجع هذا إلى نشاط الاتجاهات الدينية الإسلامية غير الصوفية وبالذات السلفية[٢]، وإيمان الطرق الصوفية بمبدأ التوكل على الله أي الاستسلام بجريان القضاء والأحكام بغض النظر عما فيه من مساوئ وعيوب، مستغلين جهل الناس وتأخرهم الفكري في محاولة لإبعاد الناس عن جوهر الدين. فالقيمة الروحية للتصوف تحمل معتقداتها على الرضا التام بالواقع الذي تحول إلى عقيدة الفئة العامة في المجتمع[٣] وفكر الفئات التي كان عليها أن ترزح تحت وطأة التخلف الاجتماعي في تلك الحقبة. كما أن التصوف لا يعنى بدراسة الفقه الإسلامي الذي يفتح أذهان الناس على آفاق واسعة من العلم والمعرفة، الأمر الذي يساعد على ابتعادهم عن التفكير بالخلافة الإسلامية الحقة وشروطها[٤]، وأي فكرة إصلاح أو تحرر اجتماعي فلم يكن المتصوفة يتعرضون لسياسة السلاطين والولاة بسوء فهذه الأغراض التي كانت لغايات سياسية محضة، دفعت الحكومة العثمانية إلى تشجيع الحركة الصوفية وانتشارها على وفق إرادتها في جميع الولايات ومنها بغداد. فأوعز السلاطين إلى الولاة بوجوب رعاية

---

(١) د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، ص٢٠-٣٢.

(٢) ستيفن لونكريك، أربعة قرون، ص٢٠٦.

(٣) د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، ص٣٠٢.

(٤) يوسف عز الدين، الشعر العراقي «أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر»، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٧٦.

التصوف وأهله ومنشآته، وسن القوانين المعتمدة لذلك في مجالات الإنفاق المالي، والعيني المختلفة، كمرتبات شيوخ الطرق[١]، ومصاريف الإطعام، والخدمة في الزوايا، والتكايا، وتخصيص الوقفيات اللازمة والأحباس الخاصة بإدامة هذه الرعاية، وإقامة الولائم وتوزيع الحلوى كل ليلة جمعة[٢]. وقد مال بعض الولاة إلى التصوف، ورعايته، والسلوك فيه تأثراً بالرعاية السياسية العثمانية التي سلكها بعض سلاطينها نحو الطرق الصوفية الواحدة أو العديدة[٣]، وتقليداً لهم أو قناعة ببعض شيوخ هذه الطرق أو كسباً للود والتأييد الشعبي، أو اعتماد العامل الديني الصوفي لتقوية مركزهم السياسي. فعلى سبيل المثال كان الوالي داود باشا يشجع الطريقة النقشبندية والوالي نجيب باشا كان يميل إلى الطريقة **القادرية، والنقشبندية**[٤]، والوالي مصطفى عاصم باشا معتنق الطريقة الرفاعية وغيرها. وقد أدى تلاحم المسار الفكري الصوفي مع السلطة إلى اتساع الساحة التي اكتسبها التصوف، حتى إن عدداً كبيراً من العلماء انخرط في هذه الطرق الصوفية العديدة ولحقت بهم

---

(١) الطريقة: هي السير بالسيرة المختصة بالسالكين إلى الله من قطع المنازل والترقي في المقامات. انظر: عبد الرزاق بن أحمد بن أبي الغنائم محمد الكاشاني، معجم المصطلحات الصوفية، تحقيق عبد اللطيف العبد، القاهرة، ١٩٨١م، ص٦٥.

(٢) إبراهيم الرفاعي، بلوغ الأرب في ترجمة: السيد رجب وذريته أهل الحسب، بيروت، ١٩١٠م، ص٥٧؛ عبد العزيز نوار، داود باشا والي بغداد، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٣٠٠، علاء نورس، حكم المماليك في العراق، ص٦٠؛ سليمان فائق، تاريخ بغداد، ص١٠٧-١٢٨؛ محمد الخال، الشيخ معروف النودهي البرزنجي، بغداد، ب.ت، ص٤١.

(٣) موفق بن المرجة، صحوة الرجل المريض، الكويت، سنة ١٩٨٤م، ص١٢١؛ أورخان محمد علي، السلطان عبد الحميد الثاني، حياة وأحداث عهده، الأنبار، ١٩٨٧م، ص١٠٥.

(٤) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص٨٣-٨٤؛ ج٨، ص٩٢.

معظم طبقات المجتمع. وغدا للتصوف مراكز دائمة ونشاطاً مستمراً وأصبح من الطبيعي جداً لأفراد المجتمع في ذلك العهد أن يربط نفسه بطريقة صوفية[١]. فضلاً عن مجيء بعض من خلف أصحاب الطرق من غرتهم مراكزهم المرموقة ومجالسهم الحافلة فاستغلوا أمر الدين لمقاصدهم الدنيوية، وسخروا أتباعهم لمطامعهم، وأوقفوا التنافس بين أمثالهم من أصحاب الطرق[٢]، ولم يشجعوا على التعليم بل أرادوا أن يكون أتباعهم من الجهلة حتى يتسنى لهم السيطرة عليهم بالشكل الأمثل، فأصبح مشائخ الصوفية بأعداد كبيرة، وقاعدتهم الشعبية واسعة جداً ترافق مع هذا فقدان التصوف بعض عناصر المهمة الرئيسة كان على الصوفي أن يرى التصوف، **كما قال عنه سمتون: «ألا تملك شيئاً ولا يملك شيئاً»** لأنه نزع رداء الحياة ولبس ثوب العبادة لله[٣]. فمثل هذه الأقوال تبرز لنا فئة المتصوفة وكأنها خالية من الشوائب ولكن وجدنا نوعيات صوفية رديئة التي فعلت تقاليدها **كالطقوس المتأخرة، والبدع، والخرافات، والدروشة**[٤] في مختلف الأوساط الشعبية، وكثرة الأولياء والشيوخ الذين أصبحوا محط تقديس وتبرك الأتباع المتظاهرين زوراً وجهلاً بمظاهر الصوفيين العثمانيين في حياتهم عبثاً يبعث على الرثاء للتصوف الذي ابتلى بمثلهم لذلك كثر وجود مثل هؤلاء الدعاة، وكثرت الحيل التي كان يقوم بها بعض الصوفيين فكانوا يمارسون تأثيرهم على السلاطين، والولاة لابتزاز الأموال منهم. ومنهم محمد أبو الهدى الصيادي صاحب الطريقة الرفاعية الذي جازت حيله على السلطان عبد

---

(١) ليلى الصباغ، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، دمشق، ١٩٧٣م، ص١٨٨.

(٢) يوسف عز الدين، المصدر السابق، ص١١٣.

(٣) أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحقيق: عبد الحليم حمود عبد الباقي، ج٢، مصر، ١٩٦٦م، ص٥٥٢.

(٤) أحمد حامد الصراف، الدرويش، لغة العرب، ج٢، السنة ٦، شباط ١٩٢٨م، ص٨٢.

الحميد الثاني، فأصبح أحد مستشاريه وارتقت الطريقة الرفاعية كثيراً بفضله، وحث على تأليف الطرق ولا سيما الرفاعية[١] والمثال الآخر هو الوالي علي رضا باشا وإنفاقه مبالغ طائلة على الدراويش الذين كانوا يزعمون قدرتهم على تحويل المعادن إلى ذهب حقيقي[٢] وغيرهم من الولاة، والموظفين الذين كانوا يؤمنون بهذه الطرق وقواها الخفية الروحية.

تحول التصوف وطرائقه في القرن التاسع عشر إلى عامل لتخلف الناس بإبعادهم عن مجريات الأحداث العامة، والانغماس في شعائر غلب عليها الشعوذة، والخرافات الاتكالية[٣]. ولا بد من تأكيد نقطة مهمة وهي أن التصوف قد يكون عند بعض المنتفعة رد فعل على ما كان سائداً في المجتمع من تخلف اجتماعي واقتصادي، وانعكاساً لواقعهم المعيشي السيئ الذي جعلهم عاجزين عن القيام بأي عمل لتغييره. وقد كثر عدد الدراويش وأغلبهم من المريدين والفقراء إذ أصبحت الدروشة ملاذاً للنفوس القلقة التي تنشد الاطمئنان والهدوء النفسي.

ومن أشهر الطرق التي وجد لها أتباع في العراق في العهد العثماني هي: القادرية والرفاعية، والنقشبندية، والمولوية، والبكتاشية، والسهروردية، والعيدروسية، والبدوية، والعدوية، والشاذلية. وقد شهدت بعض هذه الطرق في تلك الحقبة أفولاً وتدهوراً في أحوالها ولم يبق منها في الوجود سوى الطريقة **القادرية، والرفاعية، والنقشبندية**[٤].

---

(١) محمود شكري الألوسي، الأسرار الإلهية، ص٤.

(٢) جيمس بيل فريزر، المصدر السابق، ص١٥٢.

(٣) عبد الكريم حسين عبد الشباتي، الاتجاهات الإصلاحية في بغداد للفترة من (١٨٠٨-١٩٠٨م)، أطروحة دكتوراه، معهد الدراسات القومية والاشتراكية، جامعة المستنصرية، ١٩٩٨م، ص٢٨١.

(٤) عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث، ص٤٦٠؛ يوسف عز الدين، مصدر سابق، ص١١٣-١٢٨.

وتأتي الطريقة القادرية في المقدمة حيث وجدت حظها في الانتشار في المجتمع البغدادي، والتي تميزت بالتنظيم منذ القرن التاسع عشر وتنسب الطريقة القادرية إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني الحسني نسباً[١]. وطبيعي أن تتوالى سلالة الشيخ الكيلاني قيادة الطريقة، فإن لهم جاهاً وحرمة عند الخاص والعام، ولهم وزن ومرتبات عند الفقراء والمترددين على الزاوية. فأصبحت هذه الطريقة على مر الزمن قوة حقيقية في بغداد اتخذت سماتها العامة من شخصية مؤسسها المتزهد المستقلة. ومن قبر الشيخ رمزاً لها، ومن ذريته قيادة تنطوي تحت لوائها، فحافظت عليها ردحاً من الزمن. اشتهرت بالأذكار والأوراد حتى قيل إنها طريقة الأذكار، واتصفت بالتساهل وعمل الخير ومن مبادئها التي أمر بها الشيخ عبد القادر التزام الشرع، والأمر والنهي وتقديمه على القضاء والقدر، وترك الهوى والإرادة النفسية فإن الخطأ في الإرادة من حيث هي إرادة إنما وقع من هذه الجهة فهو يأمر السالك ألا تكون له إرادة من جهة هواه بل يريد ما يريده الرب (ﷻ)[٢]. وقد تبع أغلبية المجتمع البغدادي الطريقة القادرية لوجود قبر الشيخ، ومدرسته[٣]، وتكيته، وأسرته في بغداد[٤]. وما

---

(١) البعض يرجح نسبه إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب، بينما ينكر بعضهم عليه ذلك ويرجعه إلى نسب غير عربي، د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، ص٣٠٨، يوسف عز الدين، المصدر السابق، ص١٢١؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ص٣٧١؛ كامل مصطفى الشيبيي، الصلة بين التصوف والتشيع، ج١، ١٩٦٣م، ص١٠٨.

(٢) ابن تيمية، المصدر السابق، ص٣٣.

(٣) أقدم مدارس الحنابلة وأعظمها شأن وأكثرها أوقافاً وأطولها عمراً بناها القاضي أبو سعيد المبارك المخزومي الحنبلي أوائل القرن السادس عشر الميلادي، إلّا أنها تنسب إلى الشيخ عبد القادر بعد أن أقام فيها ودرس ووعظ. انظر: نجم الدين محي الدين الكيلاني، سيرة ومناقب أئمة التصوف، بغداد، ١٩٩٠م، ص٢٦.

(٤) د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، ص٣٠.

تمتلكه الطريقة القادرية من قدرة على صرف الأموال من أجل أعمال البر أثر في أن تحافظ على تنظيمها. فلم تستطع أي طريقة أخرى منافستها في بغداد، واستمرت محافظة على وجودها طول العصر العثماني[١]، وأن تتغلب على سواها من الطرق الأخرى وتنتشر بين الخاصة والعامة على حد سواء[٢]. وكانت محلة الشيخ عبد القادر حياً خاصاً مأهولاً بهم وبتكاياهم، وكانت ملجأ لجميع العاطلين، والغرباء، والمحتالين، واللصوص، والقتلة، والبلطجية، وجميع من كان يشعر بخطر الوقوع في أيدي الحكومة. فهم يتجمعون في ظل قبر الشيخ، وكانوا جميعهم ينضوون تحت تنظيم الطريقة القادرية التي يشرف عليها النقيب سليل الأسرة القادرية، ولا يخضعون لأي قانون أو سيطرة سوى سيطرة النقيب فهم يدينون له بالطاعة والولاء[٣].

وتأتي الطريقة الرفاعية[٤] بعد الطريقة القادرية. ومركزها الأساس في البصرة إلّا أنها تمكنت في أواخر القرن الثامن عشر أن تمدّ نفوذ أتباعها إلى بغداد عن طريق الشيخ السيد مهدي الرفاعي الذي استطاع بناء الزاوية الرفاعية الصغيرة[٥]. ثم بعد ذلك لقيت الطريقة الرفاعية الدعم من قبل السلطان عبد الحميد الثاني بتأثير من أبي الهدى الصيادي[٦]، فعمر جامع السيد سلطان علي والد الشيخ أحمد الرفاعي في الجانب الشرقي من بغداد على شاطئ دجلة في

---

(١) المصدر السابق، ص١٥٠.

(٢) د. عماد عبد السلام رؤوف، المصدر السابق، ص٣٠٨.

(٣) جيمس بيلي فريزر، المصدر السابق، ص١١٦-١١٧.

(٤) تنسب إلى الشيخ أحمد بن علي الرفاعي الحسني، ولد في قرية حسن من أعمال البطائح في واسط توفي سنة (٥٧٨هـ-١١٨٢م). ولم يعقب، أقدم من وصفها السائح العربي ابن بطوطة في رحلته تحفة النضار في غرائب الأمصار وعجائب الأمصار، ج١، القاهرة، ١٩٦٤م، ص١٤١؛ يوسف عز الدين، المصدر السابق، ص١١٦؛ ابن تغري بردي، المصدر السابق، ص٣٧١.

(٥) د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، ص٣١١.

(٦) إبراهيم الرفاعي، المصدر السابق، ص٨٨.

موقع غير بعيد من جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني، وبنى عليه جامعاً ضخماً واتخذ تكية رفاعية كبرى لهم[١]، وبنى تكية قرب مرقد الرواس في الجانب الشرقي[٢]. وقد قويت الطريقة الرفاعية كثيراً بالشيخ إبراهيم الراوي الرفاعي[٣] الذي التقى شيخ الإسلام أبي الهدى الصيادي في إسطنبول، فعينه في وظيفة مشيخة المقام[٤] وخصص له راتباً من الحكومة في كل شهر (٣) آلاف قرش صاغ[٥]، فعمر حضرة السيد سلطان علي وعمر إلى جانبها جامع وتكية ومدرسة[٦]، وحصل على وقفيات عديدة عن طريق أبي الهدى الصيادي ووجهاء آل الشمعة[٧] الشاميين، وأعاد تعمير تكية الرواس. وبحسن علاقته استطاع أن يحصل على استثناء من الخدمة العسكرية للسادة الرفاعية من الإدارة السنية، كما حصل على تخصيص إطعام مجاني لطلبة العلم

(١) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ص٤٣.

(٢) هو محمد مهدي بهاء الدين الشيوخي الصيادي الشهير بالرواس الرفاعي كان يحب التستر في الأمور ويختار الخفاء على الظهور وهو أستاذ الشيخ أبو الهدى الصيادي، توفي ١٨٧٠م ودفن في الجانب الشرقي فعمر أبو الهدى الصيادي قبره، إبراهيم الرفاعي، المصدر السابق، ص٦٧-٧٥.

(٣) إبراهيم الرفاعي هو ابن عبدالله بن أحمد بن رجب الراوي ولد سنة ١٨٥٩م بدأ التعلم وعمره أربع سنوات وسلك في الطريقة وعمره (١٠) سنوات وهو شيخ الطريقة الرفاعية في بغداد. انظر: عباس العزاوي، تاريخ التكايا والطرق الصوفية، ورقة ٤١؛ باقر أمين الورد، أعلام العراق الحديث (١٨٦٩، ١٩٦٩م)، ج١، بغداد، ب.ت، ص٥٠؛ إبراهيم الرفاعي، المصدر السابق، ص١٥٤-١٥٧.

(٤) يقصد مشيخة مقام سلطان علي.

(٥) أنستاس ماري الكرملي، مزارات بغداد، مخطوط في د.ص.م، تحت رقم ١٨٢٦ ورقة ٦٠.

(٦) عباس العزاوي، تاريخ التكايا والطرق الصوفية، الورقة ٤٥.

(٧) آل الشمعة من البيوتات الشامية المشهورة في العلم والأدب، إبراهيم الرفاعي، المصدر السابق، ص٥٥.

المحتاجين الذين يقيمون في حضرة السيد سلطان علي من الذين اشتهروا بالسلوك الحسن ويظهر هذا واضحاً في كل ما قال وكتب السيد أحمد الرفاعي فهو مربي ومقوم سلوك المريدين بالنصح والإرشاد[١].

كان للطريقة الرفاعية أيضاً دراويشها المحترفون، ومدّعو الخوارق، ومعرفة الغيب فاشتهر أتباعها بالضرب على الدفوف، والرقص حول النار، ومداعبة الأفاعي، وإدخال الحراب في الأجساد[٢].

ويصف الرحالة جيري حلقات الذكر التي تقام في جامع السلطان علي: ويقام الذكر في الساحة الداخلية للجامع في الأمسيات وفي الاحتفالات المهمة. فيتم إضاءة الجامع بأكمله بواسطة درزن من الفوانيس والمصابيح التي يتم تدليتها بحبال عبر الساحة وفوق سطح المبنى. ويكتظ الجامع في مناسبات كهذه بالناس من جميع الطبقات: **رجال الدين، والموظفين والمتسولين** الذين يقفون في دائرة مع ضم أيديهم، وذكر اسم الله بتلاوات، وأغان لعدد لايحصى من المرات في الوقت الذي يحركون به رؤوسهم وأجسادهم ذات اليمين وذات الشمال بحركة متناسقة، ومتى ما شعر أحد المؤدين بالتعب خرج من الحلقة فيأخذ شخص آخر مكانه. وعادة ما يستمر الذكر مدة أربع أو خمس ساعات[٣] ومن بينهم رجل يقرأ لهم مقاماً إما مصرياً أو عراقياً أو حجازياً[٤].

وتميزت الطريقة الرفاعية بالصرف على أتباعها ومنحهم الهبات والعطايا. وكانت هناك منافسة شديدة بين أتباع الطريقة القادرية، والرفاعية، وأتباع كل طريقة يحاولون دفع مكانة شيخه بنسب الكرامات إليه. فمن قواعد الرفاعية

---

(١) إبراهيم الرفاعي، المصدر السابق، ص١٦٤-١٦٩.

(٢) مصطفى كامل الشبيبي، الصلة بين التصوف والتشيع، ص٤٤٤.

(٣) G. Geary; op., cit., p:115-116.

(٤) أنستاس الكرملي، مزارات بغداد، ورقة ٦١.

القول بإحلال الإمام الرفاعي على إخوانه الأولياء رجال الخرقة مع حفظ حقوقهم ومقاديرهم. ولكل طريقة حقها في تفضيل شيخها على الآخر. وهذه قاعدة متفق عليها في ما بين المذاهب والطرائق[١] فكان الرفاعيون يباهون أصحاب الطرق الأخرى بكرامات الرفاعي ومن أبرزها (مد اليد) ويذكرون له كرامات عديدة وكثيرة[٢].

ظهرت طريقة أخرى منذ نهاية القرن الثامن عشر هي الطريقة النقشبندية التي كانت آخذة بالنمو التدريجي وقد ركزت على إسلام نقي مطهر فيه مسحة صوفية، تنكر تحلل الأعمال الصوفية الفاسدة في زمنها وظلال النظريات الصوفية المتصفة بمحاولة تغيير شكل التصوف بدل من أن ترفضه موحدة بين التعليمات الروحية لأهل التصوف، وبين السنة النبوية[٣]، والعودة إلى روح التصوف الأولى[٤].

بما أن القادرية قد غدت تعكس جموداً فكرياً واكتفى شيوخها بمراعاة مصالحهم الاقتصادية، وثرواتهم المتمثلة بالاستحواذ على أعداد كبيرة من

---

(١) د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، المصدر السابق، ص٣١٤.

(٢) يذكر الرفاعيين أن أحمد الرفاعي زار قبر الرسول (ﷺ) أثناء أداء فريضة الحج وعندما دخل قبر عائشة وأصبح قربها أخذ الوجل والهيام في حب المصطفى (ﷺ) فأنشد:

روحي في حالة البعد كنت أرسلها تقبل الأرض عني وهي نائبتي

وهذه دولة الأشباح قد حضرت فمدد يمينك كي تحظى بها شفتي

فخرجت يد الرسول (ﷺ) بيضاء مثل البرق فقبلها الرفاعي واختفت وقد أشهد الكثير من أئمة الحديث وثقاته على تلك الكرامة. انظر: محمد أبو الهدى الصيادي، قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر، بيروت، ١٩٧٠م، ص٢٢٤.

(٣) د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، المصدر السابق، ص٣١٢.

(٤) خالد النقشبندي، رسالة في الطريقة النقشبندية، مخطوط في د.ص.م، تحت رقم ٣/٥٣٨٧، ورقة ٤-٨.

القرى، والأراضي الزراعية فأصبحت القادرية تعيق أي فكرة للتطور خوفاً على مصالحها. وبقيت الرفاعية تبهر الناس بممارستها للخوارق. ومن هنا كان الاختلاف الفكري للطريقة النقشبندية مع الطرق الأخرى[١].

كانت ثورة داخل التيار الصوفي محاولة لتجديد الحركة الصوفية بشكل عام عرفت بالطريقة النقشبندية نسبة إلى مؤسسها[٢]. وقد قويت على يد مجددها خالد النقشبندي الذي جعل الأذكار في السر مع النفس بدلاً من الجهر، واجتناب ضرب الدفوف، وأمر خلفائه بالابتعاد عن المكاسب من الساسة بل بعدم الاقتراب من الحكام[٣]، واجتناب كل أمر يتعارض مع الشرع، الأمر الذي جعل الناس تقارن بين الحركة القديمة القادرية، والجديدة النقشبندية، وكما كان كلاهما يرجع إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني[٤]. إلّا أن الجانب الروحي عند النقشبندي كان أكثر التزاماً ودقة في الضبط والتنظيم مقارنة بالقادرية. وكانت علاقتها الهرمية الدينية تفوق درجاتها ما عند القادريين[٥]. وكانت النقشبندية أقرب حركة صوفية إلى الحركة السلفية فالتقت معها في مسألة الذكر الخفي، والابتعاد عن الخوارق، وغلقت الباب

---

(١) محمد الخال، الشيخ معروف النودهي البرزنجي، بغداد، ب.ت، ص٤٩.

(٢) سميت النقشبندية نسبة إلى مؤسسها بهاء الدين محمد بن محمد بن محمد المشهور بالنقشبندي والملقب بالبخاري ولد سنة ١٣١٧م في قرية قصر هندوان من قرى بخارى وقد وضع بهاء الدين أسس راسخة لطريقته أولها الذكر الخفي وهو التأمل في اسم الله تعالى سراً حتى يبدأ القلب وكل الجسد بالذكر وقد بدأ الرابطة «وهي تذكر المريد لشيخه ومرشده أثناء الذكر ثم الغناء فيه». لمزيد من التفاصيل. انظر: عبد المجيد محمد الخالدي، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية، دمشق، ١٨٨٩م، ص٢٣؛ محمد سلمان البغدادي، الحديقة الندية في آداب الطريقة النقشبندية الخالدية، مصر، ب.ت، ص١٢.

(٣) يوسف عز الدين، المصدر السابق، ص٢١٤.

(٤) هلكوت حكيم، المصدر السابق، ص٦٤.

(٥) المصدر نفسه، ص٦٢.

أثناء الذكر بدلاً من ذكر الساحات والجوامع. ورغم تحفظ السلفية من مسألة الرابطة[١]. إلّا أن الكثير من العلماء المعروفين بسلفيتهم[٢] انخرطوا فيها. وهم نتاج تطور المدينة الذين ساندوا هذه الحركة الجديدة[٣]. فسرعان ما تحولت النقشبندية من حركة فكرية إلى حركة اجتماعية منظمة أحدثت أصداء واسعة في عهد المماليك لها قوة، وفاعلية في الحياة الاجتماعية أكثر من غيرها، وامتدت بسرعة بين مختلف الفئات الاجتماعية، وقد أظهر بعض الولاة تأييدهم للشيخ خالد وطريقته[٤]. فمنحهم الوالي سعيد باشا حق إنشاء تكية خاصة بهم[٥] في مدينة دينية قديمة لتكون مقراً لهم عرفت بالتكية الخالدية. وبعد أن هجرها شيخها خالد قام الوالي داود باشا بتعميرها. إذ جاء الشيخ خالد مرتين إلى بغداد. وفي سنة ١٨٤٨م عندما تهدمت بعض جدران التكية قام الوالي نجيب باشا بتعميرها وأوقف لها أوقافاً كثيرة[٦]، ثم تلتها تكية أخرى في جانب الكرخ أسسها الشيخ موسى الجبوري خليفة الشيخ خالد سنة ١٨٣١م[٧] بالرغم من

---

(١) محمد أمين السويدي، دفع الظلوم عن الوقوع في عرض هذا المظلوم، مخطوطة في المجمع العلمي العراقي، الورقة ٢.

(٢) متهم مفتي بغداد محمد أمين السويدي ومحمد رفيع بن الحسين قاضي بغداد وأبي الثناء الألوسي، محمد الخال، المصدر السابق، ص٤٨-٥١.

(٣) د. عماد عبد السلام رؤوف رؤوف، المدينة العراقية، المصدر السابق، ج١، ص١٧١.

(٤) للتفاصيل حول حياة خالد النقشبندي انظر: محمد الخال، المصدر السابق، ص٣٨-٥٣؛ إبراهيم فصيح الحيدري، المجد التالد في مناقب الشيخ خالد، إسطنبول، ١٨٧٢م؛ عباس العزاوي، خلفاء مولانا خالد، مجلة المجمع العلمي الكردي، السنة ٢، العدد ٢، بغداد، ١٩٧٤م، ص١٩٨-٢٢١.

(٥) محمد الخال، المصدر السابق، ص٣٩-٤٣.

(٦) محمود شكري الألوسي، مساجد بغداد وأثرها، ص٢٦-٢٧؛ عبد العزيز، داود باشا، ص٣٠١.

(٧) عباس العزاوي، خلفاء مولانا خالد، ص١٨٢-١٨٣.

سرعة انتشار النقشبندية إلّا أن نشاطها ما لبث أن ضعف في أواخر القرن التاسع عشر بسبب قلة مواردها[١]، كما أن حمى المنافسة بين الطرق قد هدأت لانفتاح المدينة على تيارات فكرية ومؤثرات اجتماعية جديدة[٢]. ويمكن القول إن معظم معتنقي الطريقة النقشبندية هم أصحاب التيار السلفي أي قلة بالنسبة للقادرية لها تأثير على غالبية المجتمع البغدادي ومن الطرق الأخرى التي قل تأثيرها خلال هذه المرحلة هي الطريقة البكتاشية[٣] التي لم تحظ بالقبول كثيراً في بغداد بسبب غلوها في ميولها الصوفية[٤]. وقربها إلى الفرق الباطنية منها

---

(١) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص٢٨٩.

(٢) د. عماد عبد السلام رؤوف، التاريخ والمؤرخون، العراقيون في العصر العثماني، بغداد، ١٩٨٣م، ص٢٠.

(٣) جاءت تسميتها نسبة إلى مؤسسها محمد بن ابراهيم بن موسى الخرساني (حاجي بكتاشي) من أتباع بابا إسحق زعيم البابية، وبكتاش لقب تركي يقارب معنى الأمير فر من خراسان هارب من التتار. عاصر جلال الدين الرومي واحتج على البدع التي تضمنتها الطريقة المولوية كما عاصر أحمد الرفاعي وانتشرت البكتاشية في الأناضول ولعبت دوراً مهماً في حياة الدولة العثمانية فقد ارتبطت بالإنكشارية إلى درجة أنها عرفت باسم عسكري بكتاشية أوجاغاي وقد تم الاعتراف بها رسمياً في نهاية قرن ١٦م إذ قام حاج بكتاش بمباركة الجيش الإنكشاري في بداية تأسيسه انظر: دائرة المعارف الإسلامية، مادة بكتاش، كامل مصطفى الشيبي، الفكر الشيعي حتى مطلع القرن الثاني عشر الهجري، بغداد، ص٣٧٧-٣٨٥؛ هاري توريس، الإسلام في البلقان، مجلة اليرموك، عمان، العدد ٤٦، كانون الأول ١٩٩٤م، ص٣٠-٣٣.

(٤) البكتاشية أصناف مذهب وشيعه تصوف، كان لباسه عبارة عن قلنسوة ذات أطراف عديدة مثلثة الشكل وبيضاء اللون يبلغ عدد طياتها اثنتي عشر ويضعون حول رقابهم حجاباً من الحجر يسمى (تسليم تاشي)، وتتألف بزتهم الكاملة زيادة على ذلك من بلطة ذات حدين وعصا طويلة ويضع العزاب منهم أقراطاً في آذانهم تمييزاً لهم عن غيرهم. عادل الألوسي، لوازم الدراويش، مجلة التراث الشعبي، العدد ٦٥، بغداد، ١٩٧٤م، ص٤٧.

إلى التصوف، والمبالغة في تعظيم قبور الأولياء، ووضع الدعاء لهم في مرتبة الشعائر الدينية[١]. كما أن التطورات الإصلاحية التي حصلت من الدول العثمانية التي كان أساسها حل الجيش الإنكشاري سنة ١٨٢٥م الذي كانت الطريقة البكتاشية غطاءه الروحي وهذا يعني إلغاء فقدان البكتاشية وجودها[٢] كتنظيم له أهميته ووجوده. ولم يبق من تكاياهم أثر سوى الاسم مثل التكية البكتاشية في محلة الجعيفر[٣] والتي طرد أتباعها منها، وحولت إلى مدرسة تدرس فيها العلوم الشرعية، وتفسير الحديث وبعد ترشيح الشيخ إسماعيل ابن الشيخ أحمد الجبوري **(أحد خلفاء مولانا خالد)** من قبل مجلس إدارة الولاية ليكون شيخ هذه التكية بموجب الأمر الصادر من الوالي سنة ١٨٥١م[٤] أما تكية الشيخ بابا كوركور[٥] الواقع في سوق الهرج بمحلة الميدان فقد أصدر قاضي الشرع في سنة ١٨٨٢م أمراً بعزل مدير أوقافها وإعادة التكية مسجداً ونزع التولية عن البكتاشية[٦]. الطريقة الأخرى التي ضعف تأثيرها هي المولوية[٧] التي حولت تكيتها المولى خانة إلى جامع عرف بجامع الأصفية،

---

(١) عباس العزاوي، تاريخ التكايا والطرق الصوفية، ورقة ١٣٨.

(٢) عثمان بن سند الوائلي البصري، مطالع السعود، تحقيق: د. عماد عبد السلام رؤوف، سهيلة عبد المجيد القيسي، الموصل، ١٩٩١م، ص٣٦٧.

(٣) H.T. Norris, Islamic in the Balkans; Religion and Society between Europe and Arab world pp:78-88.

(٤) عباس العزاوي، تاريخ التكايا والطرق الصوفية ورقة ٤٤.

(٥) بابا كوركور معناها الأب النوراني، عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٥، بغداد، ١٩٥٣م، ص١٤٠.

(٦) إبراهيم الدوري، المصدر السابق، ص٣٠٣.

(٧) عرفت المولوية نسبة إلى مولانا وهو لقب أعطي لجلال الدين الرومي (١٢٠٧-١٢٧٣هـ)، وهو محمد بي محمد بن أحمد البلخي القوني الرومي. اختلف المولوية عن الطرق الصوفية الأخرى فقد اعتمدت الرقص والغناء الصوفي وكان لهم أزياؤهم الخاصة بهم تتألف من قبعة بيضاء من اللباد وقمصان بدون أكام وسترة وعباءة طويلة =

وكان الملا عثمان الموصلي شيخ هذه الطريقة[1] والحال نفسه بالنسبة إلى الطريقة القلندرية[2] التي زالت تكيتها وحولت إلى خان للتجار[3].

هذه الطرق الثلاث الأخيرة فقدت تنظيماتها ووجودها واقتصرت على بعض الفئات من المجتمع لأنها:

١ • تنظيمات حكومية لا تمتلك الشعبية الواسعة التي امتلكتها الطريقة القادرية، أو الرفاعية، أو النقشبندية.

٢ • أن هذه الطرق مارست أعمالاً لا تمت بأي صلة للإسلام فالمولوية استخدمت الرقص والغناء فقطعت السنة بهذه الطريقة القلندرية

= فضفاضة يعيش المولويين متالفين هادئين وهم مثابرين على عبادة الله تعالى ويذكرونهم على الدوام أما رقصهم الصوفي يكون بدورانهم حول أنفسهم لمزيد من المعلومات، انظر: المثنوي، ترجمة: عبد السلام كفافي، بيروت، ١٩٦٦م؛ عبد السلام كفافي، جلال الدين الرومي «حياته وموته»، بيروت، ١٩٦٣م؛ عباس العزاوي، تاريخ التكايا والطرق الصوفية، ورقة ١١٧٠، السويدي، تاريخ حوادث بغداد والبصرة، تحقيق: د. عماد عبد السلام رؤوف، بغداد، ١٩٧٨م، ص٦٢؛ صادق محمود الجميلي، الطريقة المولوية والمولويين في بغداد مجلة التراث الشعبي، العددين ٥، ٦، ١٩٧٦م، ص٨٦١؛ عبد الرحمن الوجيه، تعقيب على الطريقة المولوية مجلة التراث الشعبي، العددين ٥، ٦، السنة ١٩٧٤م، ص١٥٣-١٥٤.

(١) عادل البكري، عثمان الموصلي، قصة حياته وعبقريته، بغداد، ١٩٩٠م، ص١٣-٢٠. حمودي الوردي، عالم التكايا ومحافل الذكر، بغداد، ١٩٧٣م، ص٣٥-٣٧.

(٢) ظهرت الطريقة القلندرية في العراق في القرن الثالث عشر الميلادي واختصت بتكية على شاطئ نهر دجلة عرفت بالقلندرية وكان أتباعها يمارسون شرب الخمر والرقص ويحللون الفرض انظر: عبدالله فتح الله البغدادي الغيائي، التاريخ الغيائي (١٢٥٨-١٤٨٦م) تحقيق: طارق نافع الحمداني، بغداد، ١٩٧٥م.

(٣) أحمد سوسة، مصطفى جواد، دليل خارطة بغداد، ص٢٢٧؛ محمود شكري الألوسي، مساجد بغداد، ص٢٨-٣١.

مارست شرب الخمر والتحلل من أداء الفروض لهذا رفضت من قبل المجتمع. لم تختلف جميع الطرق في جوهرها مع أن روادها وأذكارها مختلفة إلّا أنها جميعاً تدعي السير على وفق الكتاب، والسنة. وتختلف في طريقة أداء هذه الأذكار فالبعض من هذه الطرق ترددها جهاراً والبعض ترددها بشكل خفي[١].

وقد نهجت الطرق في السنين الأخيرة أسلوب التساهل فيما بينها فأخذت تسير جنباً إلى جنب حتى سمح للمزيد من المريدين أن يجمع بين أكثر من طريقة[٢]. وبالرغم من سلبيات الطرق الصوفية في تخلف المجتمع إلّا أنها ساعدت على تكامل شخصية الفرد آنذاك. فالانتماء إلى الطرق الصوفية كان يضفي على الفرد الانسجام والتوافق النفسي والاجتماعي، إذ قامت الطرق الصوفية بوظيفة التنظيمات السياسية والاجتماعية اليومية من خلال نظام الأصناف الذي تأثر بالتصوف سلوكاً ونظاماً[٣]. فأصبحت الطرق تمثل أقوى الروابط الاجتماعية. وكان للتكايا أثر في تماسك الناس وتعاونهم فيما بينهم، **فتحولت قسم من التكايا إلى مدارس دينية، تعنى بتعليم القراءة، والكتابة، ومعرفة الله، والإلمام بالقرآن الكريم ذلك هو نوع التعليم الذي يعنى به المسلم لتلقينه إلى ذريته**[٤]. فشاعت ظاهرة الاهتمام بتحديد المدارس والمساجد والجوامع من أجل استقلالها لنشر الفكر الصوفي عن طريق الإرشاد، والتدريس، والذكر في حلقات المريدين وطلاب العلم[٥]. فكانت

(١) خالد النقشبندي، رسالة في الطريقة النقشبندية، ورقة ٦.

(٢) محمود شكري الألوسي، المسك الأذفر، ص٣٠.

(٣) نيكلسون، التصوف الإسلامي وتاريخه، ترجمة: أبو العلاء عفيفي، القاهرة، ١٩٥٦م، ص٢٠.

(٤) إبراهيم خليل أحمد، حركة التربية والتعليم والنشر، نخبة من الباحثين العراقيين، حضارة العراق، ج١١، ص٢٨٩-٢٩٠.

(٥) ألحقت مدارس ببعض التكايا والجوامع والمساجد اشهر مدرسة الحضرة القادرية ومدرسة السيد سلطان علي.

التكايا بمثابة المؤسسات التعليمية الشعبية التي أثرت في تهذيب الشباب وإرشادهم على التقوى وإطاعة الله والرسول محمد (ﷺ)[١]. وقد توسعت المؤسسات المخصصة للنشاط الثقافي عامة، والنشاط الصوفي وخاصة التكايا والزوايا وجمع المريدين وأصبحت مكان وعظ وتدريس وأصبح المريدون بمثابة طلاب العلم. ولم يعد الخليفة من شَرِبَ ماء أو حليب الشيخ وإطاعة أوامره وخدمة عمره كله بل أصبح للخلافة نظام فلم يعد القبول في بعض هذه الطرق يتم إلّا بشروط[٢]. ولم يعد التدرج في المراتب الهرمية الصوفية يعتمد على مسألة الوقت، بل أصبح الذكر والشيخ والإجازة[٣] من ضرورات الخلافة.

كما كان تيار الثقافة الصوفية الأكثر نشاطاً وحركة إبان القرن التاسع عشر، فأثر في ظهور أفكار صوفية جديدة ترفض الخلاف الفكري بين الطرق، وتؤمن بوحدة الجوهر الثقافي للتصوف وطرقه المتعددة. ولهذا سلك الكثيرون من المتصوفة أكثر من طريقة[٤] وأصبح البعض يرشد إلى أكثر من طريقة[٥]، كما صار لهؤلاء المرشدين خلفاء ومريدون في كل طريقة[٦] وقد بدأت كل طريقة تميل نحو الأخرى ليس في الانتماء والجمع بين الطرق

---

(١) أحمد بن الخياط الموصلي، ترجمة: الأولياء في موصل الحدباء، تحقيق: سعيد الديوه چي، الموصل، ١٩٦٦م، ص١٠.

(٢) هلكوت حكيم، أبعاد ظهور الطريقة النقشبندية في كردستان في أوائل القرن التاسع عشر، مجلة دراسات كردية، تصدر عن مركز المعهد الكردي، باريس، كانون الأول ١٩٨٤م، ص٦٢.

(٣) الإجازة هي اعتراف موقع من الشيخ تخويله الخليفة بالإرشاد والتدريب والتدريس وتأديب المريدين في حياة الشيخ أو بعد وفاته.

(٤) محمود شكري الألوسي، المسك الأذفر، ص٣٢، عادل البكري، المصدر السابق، ص٢٠.

(٥) أي الرفاعية والقادرية والنقشبندية.

(٦) محمود شكري الألوسي، المسك الأذفر، ص٣٢-٣٥.

فحسب «**إنما في الكتابة في مناقب شيوخ الطرق الأخرى**[١] **أيضاً، وقد مدح شعراء الطريقة الواحدة شيوخ الطرق الأخرى**»[٢]. وسلك الشعر الصوفي خاصة **الوعظ الأخلاقي والديني، ومدح الرسول الكريم، وآل البيت الأطهار** (عليهم السلام)[٣]**، ودعاة الطرق الصوفية**[٤]**، ومدح المسؤولين من الوزراء، والولاة، والموظفين**[٥] **بعد أن كان في الحب الإلهي، والغزل، والشكر، والكشف وغيرها**[٦] **وظهرت أنماط جديدة في الشعر الصوفي كالتنزيلات**[٧]**، والتواشيح**[٨] **والمناقب**[٩]**، والتاريخ الشعري، والموالات**[١٠]. وكان لتسجيل سيرة أعلام التصوف الإسلامي بما تحفل به من كرامات يبدو على الدوام أسلوباً ناجحاً في بث الفكر الصوفي نفسه من هنا كان لهذه الكتابة إسهام

---

(١) محمد مصطفى الغلامي، شمامة العنبر والزهر المعتبر، تحقيق: سليم النعيمي، بغداد، ١٩٧٧م، ص٢٤٦؛ أبو الهدى الصيادي، المصدر السابق، بيروت، ١٨٩٠م، ص٤٤٥-٤٥٩.

(٢) محفوظ العباسي، الإمام محمد الرضواني، الموصل، ١٩٨٢م، ص١١٢-٢١٥.

(٣) فتاح عبد السلام، ديوان ملة حسن البزاز، بغداد، ١٩٨٨م، ص٥٨.

(٤) المصدر نفسه، ص٨٠.

(٥) يوسف عز الدين، المصدر السابق، ص٦٣.

(٦) عدنان حسين العوادي، الشعر الصوفي حتى افول المدرسة بغداد وظهور الغزالي، بغداد، ١٩٧٩م، ص١٠٣.

(٧) عادل البكري، المصدر السابق، ص٦٤-٦٥.

(٨) رضا محسن القرشي، الموشحات العراقية منذ نشأتها حتى نهاية القرن التاسع عشر، بغداد، ١٩٨١م، ص١٩١.

(٩) عبد الغفار الأخرس، الطراز الأنفس في شعر الأخرس، جمعه أحمد عزت الفاروق، إسطنبول، ١٩٠٤م، ص٤٠.

(١٠) محمد علي أحمد العمري الموصلي، الجواهر العمرية في الموالات الإلهية وحب السادة الصوفية تحقيق: ذاكر العلمان، الموصل، ١٩٨٦م.

فعال في الكتابة التاريخية إبان القرن التاسع عشر[١] لذلك نرى العديد من المؤرخين في القرن التاسع عشر قد تأثروا بالحركة الصوفية في كتاباتهم التاريخية[٢]، **مثل عثمان بن سند في كتابه (أصفى الموارد من سلسال مولانا خالد)**[٣]، وتظهر هذه الكتب روح المنافسة بين اتباع الطرق الصوفية، وهي منافسة لم تكن دوافعها بعيدة عن مظاهر التغير الاجتماعي بيد أن حمى المنافسة قد هدأت أواخر القرن التاسع عشر بانفتاح بغداد على تيارات، ومؤثرات اجتماعية جديدة[٤].

ثمة مسألة أخرى كان للحركة الصوفية تأثير ثقافي عليها هي الاهتمام بالخط العربي وكانت العلاقة وطيدة وقوية بين الخط والتصوف إلى الحد الذي صار الاثنان صفيين لبعضهما. فالتصوف شرط للخط والخط تمثيل للتصوف بوصفه فعالية دينية صوفية للذكر والعبادة كجعل الخطاط وهو يزاول الخط كما لو كان في حضرة الله، وبوصفه أيضاً ممثلاً حاضراً للمرجعية الصوفية الغائبة في التأثير الروحي المباشر على الناس والحياة. انطلاقاً من الاعتقاد بفعالية هذا التمثيل وواسطيته إلى الله[٥] خالق اللوح، والقلم، وهو الخطاط الأزلي[٦]. فكثر الخطاطون الذين يندر أن يكون أحدهم غير متصوف إذ كان التصوف هو الواقع الأساسي لدى أغلب هؤلاء الخطاطين على تعاطي الخط والتقدم فيها إلى درجة الإجازة[٧]. ومن أشهر هؤلاء أبو الثناء الألوسي والأخرس وغيرهم.

---

(١) د. عماد عبد السلام رؤوف، المصدر السابق، ص٣٥-٣٧.

(٢) المصدر نفسه، ص١٧.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٨.

(٤) د. عماد عبد السلام رؤوف، المصدر السابق، ص٧١-٧٢.

(٥) أدهام محمد حنش، الخط العربي في الوثائق العثمانية، رسالة ماجستير، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي، بغداد، ١٩٩٦م، ص١٤-١٧.

(٦) Schimmel; Annemarie: Islamic Celliye Phys Leiden, 1970; p:1.

(٧) عباس العزاوي، صفحة من تاريخ الخط في العراق، مجلة الآداب والفنون، ج٣، =

وكان للطرق الصوفية أثر في تقليل الفروق والخصائص المتميزة بينهم فأتباع الطرق الأقل مرتبة صوفية كانوا من الكثرة ما يعدون بالمئات منتشرة في المستويات الاجتماعية المختلفة، مما يجعل لهذا العدد الكثير أثره الواضح على إخراج التصوف من سلوكه الاجتماعي الخاص المتعلق بالرسوم والتقاليد بعض الشيء إلى حياة اجتماعية تحاول التقليل من الحواجز والموانع والخصائص المميزة بين الحياة الصوفية الخاصة والحياة الاجتماعية العامة بحيث ترى الرجل الصوفي ذا مظهر اجتماعي عام لا يميزه عن غيره من أبناء فئته أو شريحته[1] الاجتماعية فظل التصوف محافظاً على كيانه في أقسى الظروف وبقي يتعامل مع الحياة بشكل سوي ومثالي. فقد قام العلماء الصوفيين بتحريك ثقافة الصوفية إلى أمام بل أنقذوها من الضياع والتلاشي في الوقت الذي كادت تنتهي لتردي الحال الذي وصلت إليه على أيدي الدراويش وأدعياء التصوف الذين ينتمون إلى الطريقة القلندرية.

لم يمنع ابتعاد الصوفية عن مشكلات الحياة وانغلاقهم على أنفسهم ومذاهبهم، ظهور بعض الآراء الصوفية، ووقوفهم بصمود أمام انحراف القيم الأخلاقية والاجتماعية، فقد ظهرت شخصيات صوفية وقفت بوجه المظالم ونددت بالمظاهر الزائفة التي كانت تغطي حياة المجتمع، ومنها موقف الأسرة الألوسية المتمثل بأبي الثناء الألوسي، وعلى الرغم من انتسابه إلى الطريقة النقشبندية في بداية حياته ودفاعه عنها[2]، إلّا أنه استدرك أن ما يقومون به من ممارسات تتناقض مع جوهر الإسلام فشرع بالرد عليهم[3]،

= السنة الثالثة، ١٩٤٥م، ص٢-٧؛ ناجي زين الدين، مصدر الخط العربي، بغداد، ١٩٧٤م؛ وليد الأعظمي، جمهرة الخطاطين البغداديين، ج٢، بغداد، ١٩٨٩م، ص١١٢-١١٧.

(١) عباس العزاوي، خلفاء مولانا خالد، ص١٨٢؛ محمد الخال، المصدر السابق، ص٤٨-٥٠.

(٢) عباس العزاوي، ذكرى أبي الثناء الألوسي، ص٤٢.

(٣) محسن عبد الحميد، الألوسي مفسراً، ص٣٠٧.

ومحاججتهم، ومهاجمة بعض أساليبهم وحركاتهم التي بينت كراهته لها، وعدّها من أساليب الجهل، مبيناً أن صفة التصوف هي **(السلوك الذي يبعد الرذائل)**[(١)]، محدداً مفاهيم الطرق والبدع والأهواء. فيذكر أن الطرق كما يدل عليها الكلام هي السير المخصص بالسالكين إلى الله تعالى، مع قطع المنازل والترقي في المقامات، والبدع هي ما استحدث في الدين بعد النبي (ﷺ) وما ليس له أصل من الكتاب، أو السنة، والأهواء والأمور المذمومة المموهة وشاع إطلاقها على البدع المذمومة التي ليس لها أصل[(٢)]. إلّا أن موقفه لم يصل إلى حد الهجوم الكبير أو حد الموقف الرافض تماماً لهم. وبما أن الأسرة الألوسية كانت متصدرة الموقف الرافض للتصوف، فجاء دور السيد محمود شكري الألوسي الذي كان الأكثر جرأة ووضوحاً في موقفه من التصوف رغم انخراطه في شبابه في الطريقة الرفاعية التي تلقى دعماً من أبي هدى الصيادي، إلّا أنه أدرك ما وصل إليه التصوف باستخدامه من قبل السلطة لتحقيق أغراض سياسية، وأشغال شرائح المجتمع بأساليب التصوف دون الخوض في شؤون السياسة[(٣)]، وبدأ بالرد على زعيم الطريقة الرفاعية معلناً رفضه للتصوف وما وصل إليه معبراً عن تمسكه بمبادئه الدينية متخذاً الجرأة الصريحة والقوية طريقاً له متصدياً بشجاعة لكل محاولات الابتزاز والإلتفاف التي مارسها الصيادي اتجاهه[(٤)]. **ففي إحدى رسائله في الرد على أبي الهدى يقول**: «وأين أنا من تربية المريدين وإرشاد السالكين وقد استفرغت الليل

(١) أبي الثناء الألوسي، غراب الاغتراب، ص٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٧٨.

(٣) محمد بهجت الأثري، محمود شكري الألوسي وآراؤه اللغوية، ص٧٦.

(٤) حسن دخيل الطائي، النشر العراقي موضوعاته واتجاهاته في بداية القرن التاسع عشر حتى سنة ١٩١٨م، أطروحة دكتوراه اللغة العربية، كلية آداب الجامعة المستنصرية، ١٩٨٩م، ص١٧.

والنهار في الإفادة والاستفادة من هذه الديار ولا سيما جميع من ينتمي إلى طريقتكم العلية في الخطة العراقية جهلة أوباش عوام لا يميزون بين اليمين والشمال والحلال من الحرام»[١].

الأمر الذي قاد الصيادي إلى تدبير مؤامرة نفيه إلى الأناضول سنة ١٣٢٠هـ[٢]، ولكن هذا لم يغير من موقف محمود شكري الألوسي بل واصل ثباته على موقفه من تلك الظاهرة، التي وصفها بأنها إحدى البدع التي قادت إلى انحطاط المسلمين **فيقول: «كفانا ما حلّ بنا من ورائها ووراء سائر البدع التي كادت تقضي على الإسلام لولا كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) بين أظهرنا كفى المسلمين بعد اليوم حياة الخنوع والذلة والمسكنة»**[٣] ومن الأصوات المعارضة لتلك الظاهرة محمد أمين الأدهمي، فقد أنكر على الجهلة من المتصوفة والحلولية القائلين بالاتحاد من سلك الإلحاد[٤].

لكن هذه الأصوات لم يتردد صداها مدة طويلة بسبب إيمان الناس بقواهم الروحية وادعائهم القيام بأمور غريبة مثيرة للاهتمام. أن هذه الأفكار لا تجد طريقها إلى عامة الناس فقط بل إلى عقول أعلى الشرائح في المجتمع، فتغلبت القيم الرجعية على تصرفات بعض الولاة ومن شايعهم من الفئات المحافظة، فحكم على الأصوات المعارضة بالاختناق.

الملاحظ أن هذه الشريحة حملت في داخلها تناقضاً عجيباً ولد أموراً غريبة وشاذة، سبب كل هذا اتساع حركة التصوف، وتعدد طرقها، وكثرة أعضائها، وتفاوت نقاوتهم وصيغهم، وكثر المتشبهون بأهل التصوف والمشيرون إليها والمجيبون عنها وعن مسائلها. ولهذا برزت نظرة شك وريبة إلى بعض هؤلاء، حتى أن قسماً من الناس بات يرى أن التصوف زي من اللهو

---

(١) محمود شكري الألوسي، بدائع الإنشاء، ج٢، ورقة رقم ٨٤-٨٥.

(٢) محمد بهجت الأثري، أعلام العرق، ص١٠١.

(٣) محمود شكري الألوسي، تاريخ مساجد بغداد، ص١٩.

(٤) مصطفى نور الدين الواعظ، الروض الأزهر، ص٧٦-٨٠.

واللعب وقلة المبالاة. فانتقدت التكايا وأهلها في تلك المرحلة[١].

ومع هذا كون المتصوفون فئات اجتماعية لها أثرها في سير الحياة الاجتماعية من حيث الديانة والأخلاق والثقافة وتميزوا عن الناس في لباسهم، ومأكلهم، وثقافتهم، وقد أطلق على بعض عقود المحلات (عقد التكية) دلالة على وجود أكثر من تكية في بعض الأزقة[٢]. ويذكر العلّامة الدكتور عبد العزيز الدوري: أن عددها في بغداد في بداية القرن الحالي كان عشر تكايا[٣]. إلّا أن العدد الذي ورد في أحصاء السالنامات يبلغ (٢٠) تكية[٤]، وقد حددها الدكتور عماد عبد السلام رؤوف بـ(١٥) تكية[٥] وهذا الرقم هو الأقرب إلى الواقع.



صائغ بغدادي من الصابئة المندائيين.

(١) جيمس ريموند وليستد، المصدر السابق، ص١٠٣؛ يوسف عز الدين، المصدر السابق، ص١١٤.

(٢) J. F. Jones, op., cit., p:320.

(٣) د. عبد العزيز الدوري، بغداد، بيروت، ١٩٨٤م، ص١٥٩.

(٤) سالنامة ولاية بغداد، لسنة ١٣٢٩هـ، ص١٨٥.

(٥) د. عماد عبد السلام رؤوف، معالم بغداد، ص١٧٣.

٣

التنظيمات الحرفية والمهنية

لم تتشكل التنظيمات الحرفية في بغداد في الحقبة موضوع البحث، وإنما كانت مشكّلة بالفعل، ومنظمة تنظيماً قوياً منذ حقبة سابقة، **تضم بين جوانبها كل المشتغلين بالإنتاج الاقتصادي، والتوزيع، والخدمات، بل إن جميع سكان المدينة - أياً كان مركزهم، أو عملهم، أو ديانتهم ما عدا الفئة الحاكمة، والعلماء - منتسبون لذلك النظام، فلكل صاحب حرفة مخصصة له[(١)] اكتسبها بالوراثة، أو بالتمرن على يد أحد الحرفيين الكبار. وقد حدد جونز سنة ١٨٤٦م عدد هذه الحرف بـ(٧٠) حرفة تشمل أغلب ما تحتاجه المدينة من منتوجات، وخدمات مختلفة[(٢)].**

ولا يتمتع الفرد بأي احترام إذا لم يكن لديه عمل يمارسه. وهذا العمل هو الذي يتيح له مكانة في مجتمعه بعيداً عن تدخل الحكومة[(٣)]. فهو يعتمد فيما يختص بمكانته الشخصية على ما يتمتع به من الاعتبار لذوي أفراد المهنة. وبهذا ينمو الشعور بالارتباط بالجماعة الاجتماعية. وهكذا تحل الجماعة الحرفية محل جماعة القرابة. وجماعة المكان. وتقوم بدور البيئة الاجتماعية للفرد، فتوحد الفرد في المجتمع وتضمه إلى فئة اجتماعية[(٤)]. وهكذا عدت الحرفة أو المهنة رابطة أساسية، والنسبة إليها كالنسب إلى المدينة أو القبيلة[(٥)].

---

(١) يوسف آييش، المؤسسات الاقتصادية في المدينة الإسلامية، اليونسكو، ص١٢١-١٢٢.

(٢) J. F. Jones, op., cit., p:302-338.

(٣) محمد أنيس، الدولة العثمانية والمشرق العربي، ص١٥٠؛ جيمس وليستد، المصدر السابق، ص٩١.

(٤) جورج جورفتش، دراسات في الطبقات الاجتماعية، ترجمة: أحمد رضا وعز الدين فودة، مصر، ١٩٧٣م، ص١١١.

(٥) د. عبد العزيز الدوري، نشوء الأصناف والحرف في الإسلام، مجلة كلية الآداب، بغداد، ١٩٥٩م، ص١٢٢.



سوق الصفافير في بغداد.



صحيح أن المهن تشغل المرتبة الاجتماعية نفسها وتتمتع بالاعتبار نفسه إلّا أن هناك في الواقع نسب متفاوتة من حيث الثروة التي تدرها والتقدير الشخصي الذي تخلقه تباعاً. فهناك الحرف اليدوية **كصناعة النسيج والخياطة والصباغة والنجارة**. وثمة مهن شاقة تعتمد على القوة العضلية كما في حمل الأثقال أو اتخاذ أوضاع مجهدة، وتكرار حركة رتيبة بطريقة آلية **كالحمالين**، ومهناً كريهة تدنس الأيدي والملابس ويراها البعض مهناً متواضعة **كالسقائين**. حيث كانت مهنة مئات من السكان[١]. وعلى الرغم من وضاعتها ونظرة المجتمع بازدراء لها إلّا أنها تقدم خدمة كبيرة للناس، فمثلاً لا يستطيع الناس التخلي عن السقائين يوماً واحداً وإنما يمكن التخلي عن العطارين أو النساجين عدة شهور.

كان نظام الطوائف الحرفية يستند على عوامل السن، والمهارة الفردية في التمييز بين أفراد الحرفة الواحدة أي بمعنى أن الحرفة الواحدة قد خلت من التخصص الدقيق في العمل، وأن التخصص المهني كان قائماً على أساس المنتج النهائي وليس على أساس مراحل العملية الإنتاجية. فغالباً ما كان الفرد يقوم بالعملية الإنتاجية بكاملها لوحده إلى جانب قيامه بتسويق إنتاجه.

وغالباً ما كانت الحرف تنتقل من الآباء إلى الأبناء بالتوارث مما كان له أثر في أن تقوم الحرفة على ارتباطات قرابية، أو عائلية، أو دينية، مما قوى الرابطة الاجتماعية داخل الحرفة. وكثير من الأحيان تقتصر في ذلك الوقت على أسرة واحدة[٢]. فمثلاً **الصفارون** تخص عائلة واحدة تصل بينهم صلات المصاهرة والمشاركة في الأفراح والأحزان، إذ تغلق جميع أبواب محالهم في هذه المناسبات[٣]. ولقد كانت الطوائف الحرفية حريصة على الحفاظ

(١) جورج جورفتش، المصدر السابق، ص١١٥؛ جون أشر، المصدر السابق، ص١٦١.

(٢) W. Peter Som; op., cit.; p:377.

(٣) بغدادي أصيل، من تقاليد أهل بغداد وعاداتهم، جريدة الشرق، (٢ رجب ١٣٨٢هـ/ ٢٩ تشرين الثاني ١٩٦٢م).



الحمالين.



السقا يملأ الماء من النهر لتوزيعه على المحلات والبيوت.

على التقاليد العربية في الكرم، وضيافة الغرباء، وتخصيص محال دائمة للضيافة[١]، مما يعبر عن عمق التزام الحرفي بالتقاليد والقيم الاجتماعية. ولأن الإنتاج الحرفي يعتمد على الصناعات المنزلية، والحانوتية، الأمر الذي يعني اعتماد التنظيمات على المعايير العرفية التي كانت تستمد في الغالب على الأعراف الاجتماعية، والقيم الدينية، التي لم تكن ملائمة لبذل جهد سعياً وراء الرقي الاقتصادي. فالنظام الاجتماعي لم يكن متأثراً بعمليات الإنتاج الاقتصادي بقدر ما هو متأثر بالتقاليد[٢]. إن لسلوكيات التقاليد الحرفية التي تجعل الحرفي محدوداً من حيث التفكير المحدود المتسم بالثبات، والانغلاق والجمود في التنظيم، وفي الوسائل، والأساليب الإنتاجية، والابتعاد عن التطور، والسلوكيات، والتقاليد الحرفية التي تجعل الحرفي متعصباً إلى فئته، منشداً إلى هذه الفئة، وحريصاً على إدامة الانسجام داخل التنظيم الحرفي فالعصبية الفئوية متجهة نحو الحرص على الحرفة وتقاليدها التنظيمية وهي مستمرة باستمرار الحرفة، والصنف[٣]. والعلاقة بين الأدنى والأعلى في الصنف كعمل وتنظيم هي علاقة أبوية فالصناع والصبيان يشاركون المعلم نمط حياته، وعاداته، وتقاليده في سبيل تحقيق الوصول إلى مستواه المهني[٤]،

---

(١) زهير أحمد، وعي العمال، الأخويات العمالية في التراث، السنة الثامنة، العدد ٢٧٧، ٢٨/٨/١٩٧٦م.

(٢) كلارك كير وآخرون، الصناعة وأثرها في المجتمعات والأفراد، ترجمة: برهان دجاني، بيروت، ١٩٦٢م، ص١١٦.

(٣) صباح إبراهيم الشيخلي، الأصناف في العصر العباسي، بغداد، ١٩٧٦م، ص١١٣.

(٤) الصنف، لغة الطائفة من كل شيء، وكل ضرب من الأشياء صنف على حدة، وقد أورد المؤرخون كلمة صنف على نحو يدل على أنها استخدمت منذ البداية للتعبير عن الجماعات الحرفية في المجتمعات الإسلامية، وهي تخص أصحاب المهن أهل الصنائع وأرباب الحرف، أنظر: صباح الشيخلي، المصدر السابق، ص٦٣-٦٤؛ د. عبد العزيز الدوري، نشأة الأصناف والحرف في الإسلام، ص١٤١.

أي إن التقاليد التنظيمية الحرفية تضع الأدنى، والأعلى ضمن إطار فئوي اجتماعي واحد فضلاً عن ذلك فإن الحرفيين يعتبرون بمثابة مالكين مشتركين لوسائل الإنتاج كفئة تنتج، وتشارك جميعها في الحصول على مردودات الإنتاج فإن الحرفي يستطيع عند وصوله إلى مستوى جيد من المهارة إنتاج سلعة كاملة بجميع الدورات التي تمر بها ولأن المهارة الشرط الأول لشخصيته ضمن التنظيم الحرفي فإنه يجعل من هذه المهارة الشرط أيضاً لانتمائه الذاتي الموضوعي إلى الحرفة. كما أن العمل لا يصبح مصدراً للانتماء وحسب، وإنما مصدر للامتلاك أيضاً لوسائل الإنتاج. لذلك فإن الحرفي يظل محافظاً على انتمائه إلى حرفته للحفاظ على شخصيته التي لا يتحقق الاطمئنان له إلّا من خلالها. وهو يناضل من أجل استكمال شروطه حرفياً، واستكمال إتقان سلم التدرج الحرفي. ولأن الأدوات التي يستخدمها الحرفي بسيطة. وإنتاج السلع - **في المحترفات القديمة** - لا يحتاج إلى دورات متعددة، ولأن العمل بينهم يقوم على الاشتراك في وسائل الإنتاج، والمحافظة على ثباتها فالأدوات نفسها تنتقل من جيل إلى آخر، والأجيال غير متناقضة مع بعضها. فتستمر الحرفة بين أفراد تجمعهم صلات القرابة دون أن تتعداهم إلى غيره إذ كانت الحرفة وراثية في الأعم الأغلب[١]. فالعمل في الأماكن المخصصة له يخضع للتقاليد التنظيمية الحرفية وكما بقيت هذه التقاليد غير قابلة للتغيير ومحتفظة بثباتها فإن الإنتاج الحرفي بوسائله وأساليبه ظل ثابتاً أيضاً. والثبات يرجع إلى ارتكاز التقاليد على الأفكار الدينية السائدة التي كان الحرفيون من أكثر الفئات محافظة عليها، وعلى استمرارها، وإيجاد التقاليد، والشعائر التي تجعلها في خدمة ثباتها واستمرارها، مما أثر سلباً على عدم تطور الإنتاج والسلع.

كانت الطائفة الحرفية منظمة لإنتاج وبيع السلع المنتجة[٢]، إذ كانت الأسواق تعتمد على التجمعات الحرفية المجاورة لها، والقائمة فيها،

---

(١) د. عبد العزيز الدوري، نشأة الأصناف والحرف في الإسلام، ص١٣٢.

(٢) كوتولوف، المصدر السابق، ص٨٢-٨٣.

فاستمدت الأصناف الحرفية من اختصاصها بإنتاج سلعة معينة وجوداً مستقلاً بها. وكانت هناك أسواق خاصة بكل حرفة بل هناك محلات أو عقود خاصة بأصحاب حرفة واحدة مثل محلة الدهانة **(صانعو الدهن)**، ومحلة صبابيغ الآل **(صباغون بالحمرة)** وغيرها. ويرجع ميل الحرفيين للتجمع في مكان واحد لسهولة جمع الضرائب وتصريف البضائع إضافة إلى أن تجمّعهم يسهّل وصول المستهلكين حيث كانت المواصلات صعبة[١] ولمراقبة صاحب الحرفة جماعته للتعرف على الأسعار التي يشترى ويباع بها. وكان يتم الإنتاج والبيع في المحل نفسه أما إذا كانت السوق واسعة، فيستخدم المحل للبيع فقط، ويتخذ أصحابها محلات إنتاج خاصة في المدينة.

وكان هناك أقسام للحرفيين: فقسم منهم يشتغلون في بيوتهم، أو محال خاصة بهم وبأدوات يملكونها أنفسهم، ويستعملون مواد أولية يشترونها، وتكون سوقهم التجارية محدودة لا تتعدى المدينة نفسها، وقسم يعملون في محلات نظمت بصورة شبيهة بالمصنع أقيمت الأدوات والإنتاج بعدد كبير يحركها الخلفات، والصناع عادةً بأجور يومية، يوزع إنتاجها على أنحاء الولاية بأجمعها، وقسم من الحرفيين يعتمدون في بيع منتوجاتهم على التجار الذين يقومون بتصديرها خارج المدينة وتنتهي مسؤولية الحرفي بتسليم البضاعة إلى التاجر. وعلى العموم الجميع يبيعون بضائعهم دون وسيط[٢]. وفي بعض الأحيان تتم عمليات البيع عن طريق التقسيط أي دفع جزء من المال عند الاتفاق على إنتاج سلعة. وبعد الانتهاء من إنتاجها يدفع الباقي[٣]. وكانت هناك قوانين محددة بتحدد امتلاك المحل. أو منح الترخيص للقيام بأي عمل تجاري، أو صناعي الذي يسمى بالتركية **(كديك)**. وهي بأي حال من الأحوال لم تكن ملكاً لأصحابها بل كانت تستغل مقابل إيجار سنوي يدفع ولا تمنح إلّا للمعلمين

(١) صباح الشيخلي، المصدر السابق، ص٧١.
(٢) هاشم جواد، مقدمة في كيان العراق الاجتماعي، بغداد، ١٩٤٦م، ص٦٤-٦٥.
(٣) ديولا فوا، المصدر السابق، ص١١٧.



النداف.



عامل مقهى شعبي.

والأسطوات وفي حالة وفاته يجعل الابن مكانه على أن يكون قد وصل إلى مرتبة الأسطة. أما إذا لم يكن ذلك الشرط متوفر، فيقوم الورثة ببيع **(كديك)** إلى عضو آخر[١]. إن الوحدة الإنتاجية الفكرية والاقتصادية، والتنظيمية بين الحرفيين غير قابلة للانفصال. فكانت التنظيمات الحرفية مغلقة على التطور وعلى النسبة العددية المحدودة لأعضائها. وهي بذلك تغلق الطريق على الآخرين للدخول في التنظيم أو العمل في حرفتها. ونلاحظ بعد زيادة الهجرة القبلية إلى بغداد بعد النصف الثاني من القرن التاسع اتجه أغلبهم إلى العمل في مهن لا ترتبط بتنظيمات حرفية إذ سمحت لهم الحركة الصناعية الجديدة العمل كعمال بعيداً عن التنظيمات الحرفية مكونين المصدر الرئيس للطبقة العاملة[٢]. فقد كان أصحاب كل حرفة أو مهنة يقيمون احتفالات ومناسبات خاصة بهم يجتمع فيها أرباب الصناع والحرف. ومن شدة اعتزازهم بالحرف يرجعون أصولها إلى أولياء الأصناف، وهم الأنبياء المرسلون ثم إلى الأبيار[٣] وهم رعاة أصحاب الحرف ثم الصدور، ثم الفروع فهناك أشجار في أسماء أولياء الأصناف أشبه ما يكون بأشجار أنساب الأشراف[٤]. حيث تخصص كل طائفة يوماً من كل عام لزيارة الراعي الروحي للصنف الذي ينتسب إليه تأسيس الحرفة[٥] فمثلاً كان صنف الخياطين، ببغداد يزور بكامل هيئته كل عام قبر

(١) هاملتون جب وهارولد، المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة: أحمد عبد الرحيم مصطفى، ج٢، القاهرة، ١٩٧١م، ص١٢٣.

(٢) كمال مظهر أحمد، الإطار الزمني لتاريخ العراق الحديث والمعاصر، مجلة الحكمة، السنة الأولى، تشرين الثاني، كانون الأول، ١٩٩٨م، ص٣٧.

(٣) ال(Pir) تعني المقتدى بالفارسية. وشيخ الشيوخ بالتركية وهو الشخص الذي ينسب إليه الصنف، ويكون أول من مارس هذه الحرفة. ش. سامي، قاموس تركي، إسطنبول، ١٣٧١هـ، ص٣٦٥.

(٤) صباح الشيخلي، المصدر السابق، ص١٢٠.

(٥) جب وبوبون، المصدر السابق، ص١٣٢.



الحلاق (المزين).



أحد السحرة في بغداد سنة ١٩١٧م.

السيد إدريس على أساس أنه كان رئيساً للخياطين أو حامياً لهم إذ كانوا يحجون إليه بكامل ملابسهم الجديدة[١]. ويحتفل جميع قصابو بغداد في مواسم معينة بزيارة المرقد المنسوب إلى جومرد القصاب في أحد أحياء بغداد الشرقية. وزيارة الحلاقين لسلمان الفارسي[٢]. وهناك زيارة عامة لعدد من أصناف الحرفيين إلى ضريح الصحابي سلمان الفارسي في بلدة سلمان باك في جنوب بغداد باعتباره الحامي الرئيس لعموم أهل الحرف ومنه تسلسلت إجازات الأصناف إلى أصحابها[٣]. وقد أتاحت حياة المدينة فرصاً كثيرة لتجمع الطوائف مع أصنافها في المناسبات العامة، حيث تحمل كل طائفة شعارها الخاص بها مما يدل على العلاقات الاجتماعية التي تربط بين الطوائف المختلفة[٤]. وفي النصف الأخير من القرن التاسع عشر تحولت كثير من الاحتفالات والمواكب الحرفية البحتة إلى مواكب منظمة للاحتفال بالمناسبات الشعبية المعروفة، وكانت تلك المواكب تحمل أسماء الأصناف التي تنتمي إليها[٥].

---

(١) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج٢، ص١٨٦.

(٢) صحابي أصله من اصفهان تنقل من بلد لاخر فقصد بلاد العرب واتصل بالرسول (ﷺ) وعين اميراً على المدائن، وقد اعتبر الأعلى غير المنازع لجميع المنظمات الحرفية حيث كانت تجتمع عند قبره جميع الأصناف والمهن في أيام الزبيع. لمزيد من المعلومات، انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ج٣، القاهر، ١٩٥٤م، ص١٦٩-١٧٠؛ عبد الرحمن بدوي، شخصيات قلقة في الإسلام، ص٨-١٠؛ ليفي لافيدا، سلمان الفارسي، دائرة المعارف الإسلامية، ج١٢، ص١٠٨.

(٣) د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، ص٣٤٠.

(٤) محمد أنيس، المصدر السابق، ص٥١-٥٢.

(٥) أنستاس ماري الكرملي، مزارات بغداد، ورقة ٢٦-٤٠؛ طارق نافع الحمداني، الملامح الحضارية، ص٤٦.



الصناعات الشعبية في بيوت بغداد.



الحياكة قديماً.

ونظراً إلى اعتماد المدينة في نظامها الإنتاجي على مصادر الطاقة الحية بشكلها المباشر وغير المباشر، ولغياب الأساس التكنولوجي المتطور لاستغلال الطاقات غير الحية وقد افتقرت المدينة إلى النشاط الصناعي بمفهومه الواسع، واقتصرت العمليات الإنتاجية على آليات تقنية متطورة مقتصرة على الاعتماد على المهارات الفنية، والأدوات البسيطة كالتي تدار بالأيدي، أو بواسطة الحيوانات أحياناً[١] في نظامها الإنتاجي، فانحصرت صناعاتها في المستوى الحرفي، ولم تتعد عن كونها بقايا الصناعات الحانوتية والبيتية اليدوية التي تعتمد في أساسها على المواد الخام الأولية[٢]؛ أي بمعنى آخر بساطة التركيب الاجتماعي هي التي تتحكم بالإنتاج[٣]. ولهذا السبب ظل الإنتاج الحرفي يشكل القاعدة الرئيسة للصناعة المحلية على بساطة وجودها في هذه المرحلة. فهي لم تزل في غالبيتها صناعات وحرف أسرية تتناقل أسرارها العوائل جيلاً بعد جيل. بغض النظر عن الضرر الذي تلقاه الإنتاج الحرفي في بعض الحرف منذ أواسط القرن التاسع عشر[٤]، وخاصة حرفة النسيج التي ظل مستوى إنتاجها مرتفعاً حتى ثمانينات القرن التاسع عشر، منافسة في إنتاجها الذي امتاز بجودته ومتانته عن مثيلاتها من المصنوعات الأوروبية[٥]، وخاصة صناعة الشراشف، والإزارات والكوفيات الملونة بألوان زاهية، والعباءات النسائية والرجالية المصنوعة من الحرير والصوف والمطرز بالذهب،

---

(١) كوتولف، المصدر السابق، ص٨٣.

(٢) عبد المنعم شوقي، مجتمع المدينة «الاجتماع الحضري»، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٧٨.

(٣) متعب مناف جاسم، التخطيط وخلفيته السلوكية، بغداد، ١٩٧٦م، ص١٣١-١٣٦.

(٤) كمال مظهر، الطبقة العاملة العراقية، بغداد، ١٩٨١م، ص٢٤.

(٥) محمد حسن سلمان، المصدر السابق، ص٢٨٢؛ سعاد العمري، المصدر السابق، ص٣٨-٥١؛ إلياهو دنكور ومحمود فهمي درويش، الدليل العراقي الرسمي، السنة ١٩٣٦م، بغداد، ١٩٣٦م، ص٧٩٨.



مصنع الفخار (الكوازين) سنة ١٩١٦م.



بائع النتاج الحرفي البغدادي (أبو التنكه).

والفضة، والأقمشة المعروفة بالأغباني في اللنكَات، وغيرها من الأقمشة القطنية، والصوفية[١]، وترجع جودتها إلى القدرة الفنية التي كان يمتلكها العاملون في هذه الصناعة[٢]. إلّا أن عدد ورشها انخفض من (١٢) ألف ورشة في منتصف القرن التاسع عشر إلى بضع مئات وهي[٣] (٣١٢) محل حياكة، و(٢٢) محل حياكة الحرير و(٧٠) محل منسوجات في بداية الحرب العالمية الأولى[٤]. وانخفض عدد المالكين من (٣٥٠٠) حائك نول سنة ١٨٦٦م إلى (١٢١٠) سنة ١٨٩٩م وإلى (١٠٠٠) حائك نول سنة ١٩٠٧م[٥] مع بقاء حرفة صبغ المنسوجات وكان عدد المحال لصبغ المنسوجات (٦٨) محلاً[٦]. والصناعة الحرفية الأخرى التي واجهت المنافسة هي صناعة الأواني النحاسية. إذ كانت تستورد الأواني المعدنية المطلية بالمينا من النمسا. وحرفة صناعة الجلود[٧] مع بقاء صناعة **الأواني النحاسية والفخارية ومنتجاتها مزدهرة**[٨]. وصناعة المنتجات الجلدية **كالسروج، والأحزمة، والأحذية الحمراء، والصفراء، والبابوج، والمشط، والنصول، البرادع**

(١) A. Lanzoni, Le Mesopotamia Economica, (CB.S.G.I. XLVII 1970) 23-37;
لوريمر، دليل الخليج القسم الجغرافي، ج٣، ص١٢٢١، نابليون الماريديني، تنزه العباد في مدينة بغداد، ص٣٦.

(٢) جريدة العالم العربي، العدد١٦٠، تشرين الأول ١٩٢٤م.

(٣) كوتولف، المصدر السابق، ص٨١، عبد الرزاق مطلك الفهد، تاريخ الحركة العمالية في العراق، (١٩٢٢-١٩٥٨م)، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٧م، ص٥.

(٤) Roger Owen, The Middle East in the World Economy 1800-1974, & Methuen & Co, ltd, Beirut, 1981, p: 283-288.

(٥) شارل عيساوي، المصدر السابق، ص٥٧٨.

(٦) لوريمر، دليل الخليج، الجغرافي، ج١، ص٢٨٩.

(٧) كوتولف، المصدر السابق، ص٨١.

(٨) نابليون الماريديني، المصدر السابق، ص٣٧

النسائية، والرجالية مستمر في إنتاجها[١]. هذه الحرف التي بقيت محافظة على قوتها، وعلى أسواقها بسبب أن استمرار الطلب على منتوج تلك الحرف لم يتغير وكان سبب عدم استخدام الآلة في المصنوع أنها لا تحقق الربح الكافي، أو لأن طبيعة المنتوج يحتاج إلى مهارة يدوية خاصة. أي لم تنتجها المصانع الغربية وبعض استمر بإنتاجها الحرفي إلى جانب الآلي[٢] لتفضيل الناس للإنتاج اليدوي فبقيت تمارس عملها إلّا أنها تعرضت إلى تغيرات كثيرة نتيجة صدور قوانين وأنظمة رسمية تتناقض في بعض جوانبها مع تقاليدها التنظيمية، فمع بداية ظهور المشكلات العمالية في الدول العثمانية، واستفحال أمر التناقضات بين الصناع والمعلمين داخل الحرف اضطرت الحكومة العثمانية تحت تأثير الظروف، وبفعل اشعاع الحركة العمالية في أوروبا، وبداية نشر أفكارها في الشرق إلى وضع قوانين لها علاقة بالتنظيمات النقابية العمالية، والحرفية. كانت الدولة العثمانية تطبق الشرع الإسلامي إلى سنة ١٨٧٧م، حيث طبقت قوانين مستمدة من مجلة الأحكام العدلية. وكان العمل بمقتضى هذه الأحكام حراً خاضعاً لقواعد الإجازة الخاصة ولقانون العرض والطلب[٣]. وقد جاءت فيها نصوص تسمح بتنظيم جمعيات تسمى الأصناف تدافع عن تحسين مستوى الشغيلة وترقية منتسبيها وتنتخب ممثليها الذين يقومون بدور الاتصال بين الجمعيات والسلطة[٤]، وأصدرت قانونين الأول خاص بالجمعيات وقد صدر سنة ١٩٠٢م[٥] والثاني يخص نقابات المهن والحرف وقد صدر سنة (١٣٢٨هـ-١٩١٠م)، وكلا القانونين لا يميز بين العمال والحرفيين[٦]. وبهذا لم يعد

(١) G. Geary, op., cit., p: lob; Cowper, op., cit., p:253.

(٢) كمال مظهر أحمد، أضواء على قضايا الشرق، ص٢٥٥.

(٣) صادق مهدي السعيد، مذكرات أولية وتشريع العمال، ص١٧.

(٤) Grun World Kurt: Industrilization in the Middle East; New York, 1960, p:252.

(٥) عبدالله حنا، حركة العمالية في سوريا ولبنان، دمشق، ١٩٧٣م، ص٣٤٩.

(٦) عبد الرزاق مطلك فهد، المصدر السابق، ص٣٤٦.

للتنظيمات الحرفية في مطلع القرن العشرين التأثير الفعال الذي كانت تمارسه في اقتصاديات المراحل التاريخية السابقة وبين تياراتها السياسية والفكرية. ومع هذا بقي الكثير من الحرفيين يتوزعون على ورشات صغيرة وكبيرة وقسم كبير منهم يشكلون تجمعات تتوارث اختصاصاتها الحرفية ضمن دوائرها المغلقة بالرغم ما شهدته بعض الصناعة الحرفية من صعوبة الحصول على المواد الأولية المتنوعة بسبب تصديرها، مما اضطر الكثير من الحرفيين استعمال النفايات وفضلات الإنتاج كالصفارين الذين استخدموا الصفيح القديم الذي فيه الكيروسين لعمل المصابيح(١). فضلاً عن ذلك قلة رؤوس الأموال المتوفرة لدى الحرفيين، اذ كانت واردات الصناع لا تكفي إلّا للضرورات المعيشية في الظروف الاعتيادية إضافة إلى ظهور بعض الأفكار والقيم الاجتماعية الجديدة التي ساهمت في عزوف الكثير من الأفراد عن العمل في مجال الحرف على اعتبارها من الأمور التي تحط من قيمة الفرد الاجتماعية. **وهذا ما أشارت اليه جريدة الزوراء في احدى مقالاتها عن عوامل ظهور الصناعة المحلية أو ذكرت بأن معظم العامة قد توجهوا نحو حصر المعيشة بالوظيفة والمأمورية دون العمل في الصناعة بقولها: «فإن الحرف والصنايع من العيوب وان المعيشة بل صفة موجبة للمذلة»**(٢). وكانت الضرائب المفروضة على الحرفيين كرسوم الذبح، ورسوم خيوط الشعر التي تنتج وتصنع قماشاً التي بلغ مقدارها في مطلع القرن الحالي (٨٪)، **وضريبة الطمغة أو التمغا التي تؤخذ على جميع البضائع القطنية والصوفية، التي تصنع أو تطرز محلياً، والأواني النحاسية، والمعمولات الفضية والذهبية التي تباع بالأسواق والتي تختلف نسبها باختلاف البضائع المصنعة**(٣)، رغم محاولة الوالي عبد الرحمن

---

(١) G. Geary op., cit., p:105-106.

(٢) الزوراء، عدد ٤٩٦، ٢٥ شوال ١٢٩١هـ.

(٣) لوريمير، دليل الخليج، الجغرافي، ج٣، ص١٢٦٠.



طريقة بناء «الكفه» القارب الصغير على ضفاف نهر دجلة سنة ١٩١٤م.

باشا برفع رسم التمغا سنة ١٨٧٩م[١]، والضرائب التي تؤخذ عن دور الصناعة التي يمتلكها أهل الصنف بأكمله، مثل **ورشات النسيج، ومواقد النار، والمخابز ومحلات الحرفيين، وأصحاب المهن التي عرفت بالباسانية.** ولم تلغ إلّا في سنة ١٩١٠م وهذه الضرائب تذهب وارداتها إلى دوائر البلديات الثلاث[٢] إضافة إلى ضريبة التمتع التي تفرض على دخول الأفراد من أصحاب الحرف والصناعات والتي زيدت نسبها سنة ١٩١٢م إلى (٢٥٪)، والرسوم القبانية الوزن والدلالة تتقاضاها دوائر المحاسبة والمال. إذ تدخل ضمن الميزانية السنوية للولاية[٣]، فأثقلت هذه الضرائب كاهل الحرفيين كما أن تفضيل المستهلك للبضائع الأجنبية لرخص أثمانها، وسهولة الحصول عليها مباشرة حتى لو كانت أدنى مستوى من المنتج المحلي، مما زاد من تدهور أحوالها مجتمعة مع العوامل السابقة. مع هذا ظلت التنظيمات الحرفية علاقتها الأبوية موجودة حتى عند الحرفيين الذين تحول إلى عمال أجراء ومما يدلل على بناء التنظيمات الحرفية أنه في أواخر خريف سنة ١٩١٢م اجتمع عمال الدباغة في الأعظمية في أحد الردهات للمطالبة بزيادة أجورهم، فرفعوا مطاليبهم بلسان رئيسهم الكتخدا مما يعني بقاء نوع من العلاقة الحرفية[٤]. ويمكن القول إن التطور في مجال الصناعة المدنية كان بطيئاً في سيره بالرغم من تشجيع الحكومة العثمانية وذلك بإصدار القوانين التي سهلت قيام المشاريع

(١) أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول، أوراق يلدز، رقم البحث٣٩٣٠، رقم الأوراق ٢٠٥، رقم القسم ١٤، رقم الظرف ١٢٦، رقم الكارتون ٧، تاريخ الوثيقة (٢٤ شوال ١٢٩٧هـ/ ١٧ أيلول ١٢٩٦ رومية)، مركز التوثيق الإعلامي، وزارة الثقافة والإعلام.

(٢) جميل موسى النجار، المصدر السابق، ص٢٨٢.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٧٢-٣٧٣.

(٤) لغة العرب، الجزء الخامس، السنة الثانية، (ذي الحجة ١٣٣٠هـ/ تشرين الثاني ١٩١٢م)، ص٢١٦.



الدباغة قديماً.



ملمّع النحاس أو (المبيّض).

الصناعية، ودعوة الصحف إلى ضرورة تطوير المشاريع الصناعية كالطابوق، والجلود، وغيرها من الصناعات الأخرى. إلّا أنها لم تكن على مجال واسع لأنها اعتمدت على توجيهات الولاة التحدثيين الذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليد. وبين ولاية واحدة وأخرى فترة طويلة. كما أن صدور قوانين لتشجيع الصناعة لم تظهر إلّا في فترات متأخرة مثل قانون **(التشريع صنايع مؤقت)** الذي صدر في سنة ١٩١٣م[١]. ومع هذا ظهرت صناعة ميكانيكية ذات علاقات عمالية جديدة سنذكرها فيما بعد إلّا أنها كانت بطيئة جداً[٢]. مما يفيد باستمرار الإنتاج الحرفي ضمن الجانب الأكبر من احتياجات الناس الأساسية كالأدوات البيتية وبعض الأقمشة وغيرها من الأمور الحياتية الضرورية في الوقت الذي شهدت فيه بعض الحرف علاقاتها التنظيمية حالة انقراض ظهر خلال هذه الحقبة نوع جديد من العلاقات العمالية التي يمكن اعتبارها بداية لنشوء التنظيم العمالي. والتي يرجع ظهورها إلى التطورات الاقتصادية التي حدثت في القرن التاسع عشر منذ دخول المعامل الميكانيكية **في عهد داود باشا، الذي أسس معملاً لصنع المدافع، والبنادق، ومعملاً لصنع المنسوجات القطنية الصوفية**[٣]، ومن ثم قيام **الوالي محمد رشيد الكلوزلكي بإصلاح معمل نسيج الحرير لقيامه باستيراد عدد من المكائن الخاصة بالحدادة، ونصبها في جانب الكرخ في محل يدعى (بالحداد خانة)**[٤]، ثم قيام نامق باشا

---

(١) تشويق صنايع قانوني مؤقتي، (١٤ محرم ١٣٣٢هـ/ ١ كانون الأول ١٣٢٩ رومية)، دستور، جلد ٦، ص١٠٩-١١٠.

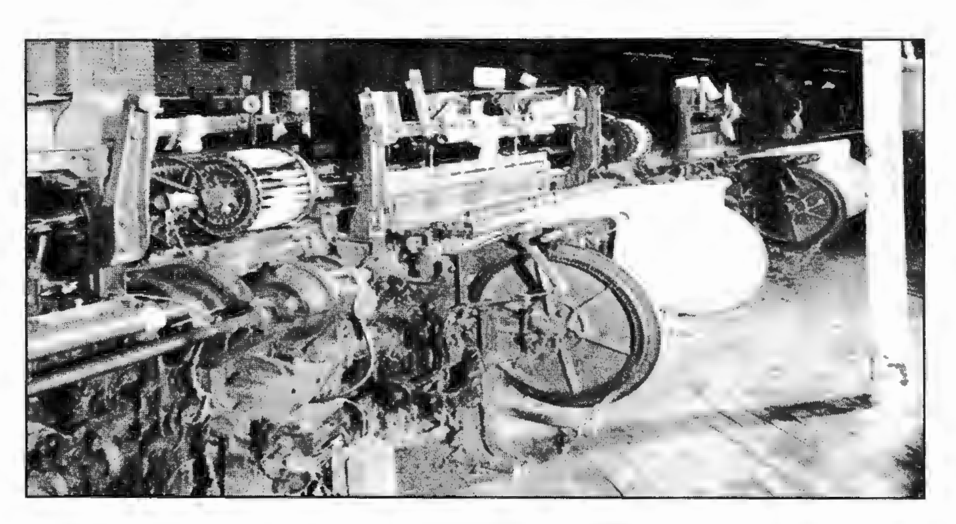
(٢) محمد حسن سلمان، المصدر السابق، ص٤٥٠؛ حميد جاسم مجيد وآخرون، الاقتصاد الصناعي، د.م، د.ت، ص٤١٤.

(٣) عثمان بن سند البصري الوائلي، مختصر مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود، القاهرة، ١٣٧١هـ، ص١-٢؛ عبد العزيز نوار، داود باشا، ص٢٨٧-٢٨٩.

(٤) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص١٣٦-١٥٤-٢٢٢.



المدفع من النتاج الحربي للمدرسة الصناعية في بغداد سنة ١٩١٤م.



معمل الغزل والنسيج.

بإنشاء معمل لإنتاج الألبسة العسكرية **(العباخانة)**[١]. معتمداً على الصوف المغزول محلياً[٢]، ثم مدحت باشا الذي وسع مصنع العباخانة، وافتتح مدرسة خاصة للصنايع، واستخدم لها مدرسين فنيين، وقد استعان بعدد من الحرفيين المهرة لتدريب الطلاب[٣]، واستورد ماكنة لنسيج الأقمشة الصوفية، ومكائن لطحن الحبوب ومعمل ثلج[٤]. كما كان لزيادة تجارة التصدير - **بعد فتح قناة السويس** - أثر كبير في انتشار عدد من المؤسسات الصناعية التي تختص بأعداد المواد الأولية لغرض التصدير مثل معامل الدباغة[٥] التي وصل عددها إلى (٩) معامل في بداية الحرب العالمية الأولى، ومكابس للصوف ومعمل لحزم عرق السوس، و(٢٤) معملاً صغيراً لتصفية السكر، ومصفى لصنع زيت السمسم، ومعامل للطحن، ومعامل لصنع المسامير، ومعامل لحلج القطن، ومعامل لتنظيف الرز، ومعامل لتقطير الكحول وافتتاح عدد من المطابع[٦] وازدياد عدد المعامل كلما دعت الحاجة

(١) محمد سلمان حسن، المصدر السابق، ص٢٩٢.

(٢) كاثلين لانكلي، المصدر السابق، ص٤٦؛ نوري خليل البرازي، الصناعة ومشاريع التصنيع في العراق، د.م، ١٩٧٧م، ص٢٨؛ السامرائي، مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ص٢٩.

(٣) إبراهيم خليل أحمد، تطور التعليم الوطني في العراق (١٨٦٩-١٩٣٢م)، البصرة، ١٩٨٢م، ص٢٠؛ جاسم محمد حسن العدول، تاريخ أول مدرسة صناعية في بغداد، بحث في بغداد في التاريخ، الندوة العلمية الأولى التي عقدها قسم التاريخ سنة ١٩٩٠م، كلية التربية، جامعة بغداد، ص٤٥٩،

Roger Owen; op., cit., p:283-286.

(٤) الزوراء، عدد ١٤٥، ٣٠ صفر ١٢٨٨هـ.

(٥) ستيفن لونكريك، العراق الحديث، ج١، ص٣٢.

(٦) عبد الرزاق الهلالي، معجم العراق، ج٢، بغداد، ١٩٥٦م، ص٢٢١؛ جريدة صدى بابل، العدد ٣٣، (٢١ ربيع الأول ١٣٢٨هـ/ ١ نيسان ١٩١٠م).



صانعي الأحذية.



النجار البغدادي.

إلى ذلك، مثل زيادة عدد معامل الطابوق إلى أن وصل عددها (٢٥) كورة صغيرة وكبيرة تنتج الطابوق[١]. كما كان هناك معامل أُنشأت من قبل المواطنين مثل معامل صغيرة لإنتاج الأثاث البيتية[٢]. إضافة إلى مشروع **سكة حديد بغداد - برلين** الذي استقطب العديد من العمال بفعل إنشاء عدد كبير من **المرافق، والمخازن، ومراكز التصليح،** لخدمة الشركة صاحبة المشروع. مما يعني أن هذه المعامل والمشاريع تحتاج إلى يد عاملة[٣] تختلف عن التنظيمات السابقة. فظهر نوع جديد من العلاقة القائمة بين الرئيس والعامل وهي علاقة نقدية تقوم على الأجور إذ يظل العامل طيلة وجوده يبذل الجهود مقابل أجور معينة مما يعني شيوع العامل الأجير[٤]. وتقتصر مهامه على إنتاج جزء صغير من السلعة وهذا الجزء لا ينتج من خلال المهارة اليدوية. وإنما من خلال الماكنة التي غالباً ما تكون هي المصدر الأساس لإنتاج هذا الجزء. ويخضع العامل إلى نظم وقوانين مرؤوسيه فكانت العلاقة بين العامل ومرؤوسيه ذات مستويات طبقية متميزة، ومتناقضة مع بعضها، وقد أدى تدهور الحرف إلى فقدان الآلاف من الحرفيين عملهم. إضافة إلى المهاجرين من أصول قبلية أو قروية جاؤوا إلى بغداد لتحسين وضعهم المعاشي فكون هؤلاء النواة الأولى لفئة العامل التي كانت تمر بمرحلة التكوين الأمر[٥] الذي أدى إلى وفرة العمال بكثرة مما يعني انخفاض الأجور اليومية التي لم تتجاوز (٧) قروش يومياً للعامل، كما

(١) محمد حسن سلمان، المصدر السابق، ص٣٠٣؛ عباس التميمي، تركز صناعة الطابوق في محافظة بغداد، بغداد، ١٩٧٦م، ص١٥١-١٥٢.

(٢) جريدة الزوراء، العدد ٣٧٦، ٢ محرم ١٢٩٠هـ.

(٣) كوتولف، المصدر السابق، ص٨٥-٨٦.

(٤) محمد حسن سلمان، المصدر السابق، ص٤١٤؛ كوتولف، المصدر السابق، ص٧٦.

(٥) كمال مظهر، أضوء على قضايا الشرق، ص٢٥٤.

استخدم الأطفال والنساء بأجور أقل خاصة في أعمال الصوف فيحصلون على أجرة مقدارها (٢,٥) قرش[١] يومياً. فنتيجة لسوء أحوالهم المعاشية وحاجتهم الشديدة للقوت الضروري تعرض العمال إلى أبشع أنواع الاستغلال[٢]، فغدا التعرض لهم وإطلاق الشتائم عليهم من رب العمل ظاهرة واضحة، ودخل في العلاقة بين العامل ورب العمل المتعهدون، أو الوسطاء وهم من أغنياء الحرفيين أو وكلاء الإقطاعيين فقد منحت شركة خط سكة حديد بغداد التزام العمل في كل (١-٥، ١ كم) إلى أحد المتعهدين من الذي كان بدوره يستخدم العمال مما يعني هذا استغلال العمال إلى أبعد الحدود[٣]. وكانت ساعات العمل مضنية إذ تمتد إلى (١٢ أو ١٣) ساعة مع انخفاض الأجور، مما سبب هذا بؤساً مرعباً ومجاعة لا مثيل لها للعمال الذين عاشوا في أكواخ متهدمة أشبه بالانقاض، وفي زرائب ضيقة من الطين، وفي ظروف صعبة غير صحية للغاية[٤]. كانوا يعملون بجد وصبر وطاعة تامة لأرباب العمل مع اقتصاد شديد في نفقاتهم. كانوا يحاولون أن يثبتوا كيانهم الاقتصادي في المدينة، ويصارعون ظروف العمل الشاقة، ويحاولون تدبير أمورهم كي يأمنوا تقلب الأحوال ونظراً إلى أجورهم القليلة فقد كانوا يضطرون للعيش على قوت بسيط. ومعظمهم كان يقتات على فضلات البيوت، أو على الأطعمة الرخيصة كالسمك، والتمر، وقد دعت ظروف العمال السيئة بعض المثقفين إلى الاهتمام بشؤونهم رغم ضيقها، **فدعا هبة الدين الحسيني إلى حماية مصالح العمال «رحمة العامل واجبة إذ هو عمود الصناعة، بل إن حقوقه الطبيعية أن يعيش في رخاء وسعادة»**[٥]. **ونشرت جريدة بابل مقالاً تحت عنوان: «أمل العمال الوطنيين في العراق ما نصه:** «بات العامل اليوم في

(١) كوتولف المصدر السابق، ص٨٨.

(٢) G. R. Aliyyag, op., cit., p:43.

(٣) كوتولف المصدر السابق، ص٨٩.

(٤) المصدر نفسه، ص٨٢-٩٠.

(٥) العلم، العدد ١٢، ١ آذار ١٩١١م، ص٥٥٥.

العراق هدفاً لسهام الآمال، ولكن لم يعتم إنما عاد الأمل عليه بالخيبة والفشل، لأن الشركات الأجنبية تقوم بمشاريع كبيرة، لا حظ للعراق فيها ولا نصيب بها»[١]. فكانت هذه بداية لتنظيمات عمالية جديدة تقود العملية الإنتاجية رغم الظروف العسيرة التي رافقت ولادتها. والذي يجب ألّا يغيب عنا هو ظهور بعض المهن بفعل التطورات الجديدة مثل **مهنة الأطباء، والصيادلة، ومهنة**



طبيب الأسنان سنة ١٩١٠م.

المحاماة (الأوقاتي)، التي ظهرت بفعل المؤسسات القضائية المدنية الجديدة، وما يتعلق بها من تعليمات جديدة[٢]، فأصبح الناس بحاجة لمن يفهم القانون. بالرغم من أنها لاقت المعارضة والرفض من قبل الناس في بداية نشوئها سنة ١٨٧٢م واستخدمت كنبز **(أوقات أو أوقاتي)**[٣] يعني الوكيل بالخصومة. ولم

(١) صدى بابل، العدد ١٧١، ٢٧ كانون الثاني ١٩١٣م.

(٢) يعقوب سركيس، المصدر السابق، ق١، ٨٦.

(٣) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص١٢.

يمارسها سوى (١٠) وكلاء معظمهم من غير المسلمين[١]. إلّا أن المحامين برزوا بعد ذلك في الساحة بسرعة لارتباطهم بأدق تفصيلات مشكلات الناس، ومعاناتهم فتوجه العديد من المثقفين إلى إسطنبول، وأحياناً إلى باريس للتخصص فيه، ولم يكن ذلك كافياً لضمان العدد المطلوب، فأسست مدرسة الحقوق في (١٣٢٤هـ-١٩٠٨م) وصل عدد طلابها سنة ١٩١٠م إلى (١١٨) طالباً، فأصبح للمهنة هيبتها، ووزنها في المجتمع[٢] وتحولت إلى لقب مرموق لعوائل معروفة (**الأوقاتي والوكيل**). فمنح البابا وساماً من الرتبة الخامسة إلى أحد وكلاء الدعاوى في بغداد، مما يدل على المستوى الرفيع الذي وصلت له مهنة المحامي[٣] وظهرت مهن ثانوية ارتبطت بالأزياء الحديثة مثل **القالبجي**[٤]، **والقندرجي**[٥]، في الوقت نفسه بدأت بعض المهن بالاختفاء، مثل السقائين بسبب نصب مكائن إسالة الماء[٦].

وهكذا شهدت هذه الحقبة نمو الطبقة العاملة بوصفها تعبيراً عن واقع اجتماعي لم يكن موجوداً في بغداد من قبل، وتعبيراً عن ظهور مهن جديدة امتهنها أبناء بغداد وتقبلها المجتمع.

---

(١) سالنامة ولاية بغداد، لسنة ١٣٢٥هـ، ص٨٦. نذكر منهم مارون افندي وكيروب أفندي ويعقوب ستي وإسكندر أفندي وعبد الجبار أفندي من المسيحيين وشاؤول أفندي الأسود ومنشئ حكيم من اليهود، وأول مسلم عمل بالمحاماة رؤوف أفندي الكتخذا إذ كان يعمل في إسطنبول ثم قرر أن يعمل في مسقط رأسه ببغداد. لمزيد من المعلومات، انظر: علي البازركان، فصول من تاريخ التربية والتعليم في العراق، بغداد، ١٩٩١م، ص٢٧-٢٨.

(٢) إلياهو دنكور وفهمي درويش، المصدر السابق، ص٧١١؛ عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص١٥٧.

(٣) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص١٣٨.

(٤) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج٤، ص١٠٢.

(٥) المصدر نفسه، ج٤، ص١٢٤.

(٦) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص٧٣.

٤

النوادي الثقافية
والجمعيات والأحزاب السياسية

شهدت بغداد تطورات سياسية واجتماعية واقتصادية هيأت الأرض الملائمة لنمو النواة الأولى للفئة المثقفة بفعل عدد من العوامل المؤثرة في التطور الفكري، أهمها المدارس الحديثة التي أدخلها مدحت باشا، فدرس، وتخرّج منها عدد من المثقفين الجدد، مثل معروف الرصافي، وشكري الفضلي، والزهاوي، وغيرهم من المثقفين[١]. ثم كان لصحيفة الزوراء التي كانت من أهم ما أفرزه العصر الحديث أثر كبير في تنوير أذهان المجتمع إذ كان رافد نقل الفكر الأوروبي، والحضارة الغربية، والتمدن الحديث منذ صدورها، فغذت ذهن المثقف بمعطيات ذات معانٍ ثورية، فكتبت عن الثورة الفرنسية، وكيفية تسلمها السلطة[٢]، كما أشارت إلى مفردات سياسية جديدة، مثل **الجمهورية، الاشتراكية والديمقراطية**[٣]. وتحدثت عن المفاهيم الدستورية، وعن طرحها مواضيع الحرية التي يتمتع بها الشعبان البريطاني، والسويسري ونهجها في إنشاء نوادٍ سياسية، وممارسة نقد السلطة القائمة عليهما[٤]، وموضوع طريقة انتخاب الرئيس الأمريكي، ونشرها موضوع الثورة الدستورية الإيرانية سنة ١٩٠٥م. كما نقلت أهم التطورات الهائلة التي شملت مختلف جوانب الحياة في العالم الرأسمالي[٥]. وكان للطباعة دور مؤثر على التطور الفكري عن طريق سهولة نشر الكتب بين المثقفين[٦]. ويمكن القول

(١) لمزيد من المعلومات، انظر: إبراهيم خليل، المصدر السابق، ص٢٠.

(٢) الزوراء، العدد ٢٦٤، ١٠ جمادى الأول ١٢٨٩هـ، والعدد ١٤٢، ١٩ صفر ١٢٨٨هـ.

(٣) الزوراء، العدد ١٥٩، ١٩ ربيع الثاني ١٢٨٨هـ.

(٤) الزوراء، العدد ٤٣٠، ١٠ صفر ١٢٩١هـ.

(٥) الزوراء، العدد ٨٠٩، ١٤ ربيع الأول ١٢٩٦هـ.

(٦) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص٢٠٧؛ الزوراء، العدد ٤٧١، =

إنه كان للتبشير أثر على تفتيح الأذهان، إذ كان نشاط البعثات التبشيرية في الميدان الاجتماعي تجربة جديدة احتك بها المثقف لأول مرة في تاريخها فقد أنشأت البعثة الكرملية منتدى أدبياً في بغداد سنة ١٨٨٩م على غرار النوادي التي كانت تعقد في أوروبا فكانت أول تجربة لإنشاء نادٍ في بغداد، فخصصت داراً له وشجعت على الانضمام إليه[١] له وكان النادي يصدر تقويماً يسجل فيه نشاط **الأعضاء الأدبي، والعلمي، والاجتماعي** لأبناء الطائفة وقد ألقى فيه الطبيب الفرنسي داميا الذي عمل في بغداد مدة (٣٠) سنة محاضرات عن الاكتشافات الجديدة وعن الأمراض وطرق علاجها[٢]. وازدهر هذا النادي، وزاد عدد أعضائه، وكثر نشاطه في مختلف النواحي وخاصة بعد إعلان الثورة الدستورية سنة ١٩٠٨م. فكان لهذه المؤثرات الداخلية دورها في التغيير[٣]، إلّا أنها كانت أعجز من أن تخلق الظروف الملائمة لتطورها السريع ولذا اتخذت هذه المؤثرات قنوات اتصال جديدة عززت النشاط الفكري، ودفعته إلى الأمام وكان لمظاهر التحديث التي انتشرت في العاصمة العثمانية انعكاساً واضحاً على المثقفين الذين نشطت رحلاتهم إليها في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، مما زاد تأثيرهما بها ونقل هؤلاء معظم ظواهر التحديث التي أبهرتهم إلى بغداد[٤]. خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار وزنهم في المجتمع[٥]، وما احتله العديد منهم من مواقع إدارية

= ٦ رجب ١٢٩١هـ.

(١) حياة الأب ماريا يوسف الكرملي، ترجمة: أنستاس الكرملي، د.ص.م. رقم ١١٠٦، ص٧٦.

(٢) مجلة المشرق، العدد الثالث، آذار ١٩١٢م، ص١٧٨.

(٣) فيصل الأرحيم، المصدر السابق، ص٢٦٠.

(٤) عباس العزاوي، تاريخ الأدب العربي في العراق، ج٢، ص٢١٣، بغداد، ١٩٦٢م.

(٥) أبو الثناء الألوسي، نشوة الشمول في السفر إلى إسطنبول، بغداد، ١٢٩١هـ؛ إبراهيم منيب الباججي، زنابق الحقل، بغداد، ١٣٥٧هـ، ص٨؛ إبراهيم فصيح الحيدري، عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد، ص٢؛ محمود بهجت الأثري، المدخل في تاريخ الأدب العربي، بغداد، ١٣٥٠هـ، ص١٩٣.

وغيرها في أجهزة الحكم ويأتي تأثير المظاهر في إسطنبول أوسع وأعمق على الطلاب الذين درسوا فيها ففتحت عقول الطلاب أمام الكثير من الأفكار والمبادئ التركية المتأثرة في الغرب والتي هيأت الأذهان لتقبل رياح التغير التي هبت على بغداد. وكانت استجابة الطلاب بصورة أو بأخرى أكبر من غيرهم للمظاهر الجديدة[١]. مما كان لهم دور مهم في التأثير على الحياة الاجتماعية، والفكرية في بغداد، ثم يأتي دور مصر، وبلاد الشام التي ألفت مراكز استقطاب ومناطق جذب، ومنابع تجديد مؤثرة بالنسبة للمثقفين. ومما يدلّل على تأثيرها الكبير هو أن أغلب الجمعيات التي تأسست في بغداد بعد سنة ١٩٠٨م كانت فروعاً تابعة للجمعيات العربية في دمشق، فعندما يرجع الأعضاء المؤسسون أو المشاركون في الجمعيات إلى بغداد يفتتحون فروعاً لها. وكانت أهداف، ومبادئ الجمعيات، والأندية تنطبق مع أهداف ومبادئ الجمعيات العربية، وتسير على منهجها في الأعم الأغلب[٢]. فاتسع نطاق المؤثرات الداخلية والخارجية بقيام الثورة الدستورية سنة ١٩٠٨م، حيث تبلورت التنظيمات السياسية والثقافية **(العلنية والسرية)**، إذ كان أغلب قادته من عوائل الفئات الرفيعة في بغداد. وحيث تأسس في بغداد أول تنظيم حزبي في ركبها الحديث تمثل في فرع جمعية الاتحاد والترقي الذي مثل استجابة المثقفين لهذه الجمعية بانضمامهم إلى صفوفها[٣]. ومن أبرزهم **كاظم الدجيلي، وحسقيل ساسون، وشكري الفضلي، وجميل صدقي الزهاوي وغيرهم**[٤]. مما احتلوا موقعاً مرموقاً في حياة المجتمع ولا سيما من الناحية الثقافية قبل الثورة

---

(١) A. W. A. Al-Qaysi, op., cit., p:7.

(٢) فيصل الأرحيم، المصدر السابق، ص٢٥٨.

(٣) جريدة العاصمة، العدد ١٧٠، ٢٥ أيار ١٩٢٣م؛ جريدة العراق، العدد ٢١٩، ١٦ كانون الأول ١٩٢٦م.

(٤) صدى بابل، العدد ١١٩، ٢٨ كانون الثاني ١٩١٢م، غسان العطية، التنظيم الحزبي في العراق قبل الحرب العالمية الأولى، دراسات عربية، مجلة بيروت، عدد ١٢، تشرين الأول ١٩٧٢م، ص٣٨.

مع وجود أناس بدأوا دورهم الثقافي السياسي بعد سنة ١٩٠٨م بالتحديد، وكان بينهم أيضاً أناس برزوا إلى درجة تؤهلهم لتقلد مناصب رفيعة فيما بعد مثل توفيق الخالدي الذي أصبح عضواً بارزاً في فرع الجمعية ببغداد[١]. وذكر إبراهيم حلمي العمر أن عدد أعضاء الجمعية في بغداد (٢٠٠٠) شخص كانوا من سادات البلاد وكبارها وعلمائها وأشرافها[٢]، مع العلم أن الإقبال لم يمتد إلى الفئات الدنيا بل اقتصر على المثقفين وعلى أبناء فئات تؤيد الوقوف مع السلطة عادة، **وقد أوضحت وثيقة بريطانية ذلك بصورة دقيقة حين ذكرت «أن الحماس للحريات السياسية الذي أضرمته حوادث سنتي ١٩٠٨-١٩٠٩م»** كان متغلغلاً بين نفوس أولئك الذين كان طبيعياً أن يضعهم تفوقهم وثقافتهم في مراكز النفوذ والسلطة[٣]. وقد أثار تجريد جمعية الاتحاد والترقي السلطان عبد الحميد الثاني من سلطاته عقب الثورة الدستورية، وتبنيها مبدأ المساواة بين المسلمين وغيرهم عدداً من أبناء الأسر البارزة، ودفعهم إلى تأسيس جمعية مناقضة لجمعية الاتحاد والترقي عرفت بـ**(جمعية بارقة حرية مشورى العثمانية)** تأسست تحت شعار حماية الشريعة الإسلامية ومقاومة الآراء المناهضة للدين فيما كان هدفها الحقيقي مناهضة جمعية الاتحاد والترقي ومساندة السلطان، وضمت تلك الجمعية رجال الدين، وأبناء الأسر العربية البارزة منهم عبد الرحمن النقيب الكيلاني، ويوسف أفندي السويدي وغيرهم، وحرض قادة الجمعية أعوانهم على التظاهر ضد جمعية الاتحاد والترقي للمطالبة بنظام حكم يقوم على الشريعة[٤]، ونجحت في إثارة استياء مشاعر المواطنين بدافع

(١) Fo. 371-6353-9701-EII 315; Iraq; Intelligence. Report; on. 21, September 15, 1924.

(٢) إبراهيم حلمي العمر، أندية العراق، مجلة المقتبس، دمشق، ج١٢، ١٩١٢م، ص٢٤٩.

(٣) Special Report by his Majesty's Government in the United Kingdom of Great Britain and Northern Ireland to the Council of the league of Nations in the Progress of Iraq During The Period 1920-1931; Issues by the Co., London, 1931, p:13.

(٤) علي ظريف الأعظمي، المصدر السابق، ص٢٥٠.

الدين عندما أشاعت أن الشاعر معروف الرصافي قد منع قارئ المسجد من تلاوة القرآن لأجل قراءة بيان الجمعية، إذ كان هو أحد مشجعيها وطافت المظاهرات في شوارع بغداد، وهتف المتظاهرون خلالها بهتافات عبروا فيها عن قلقهم على الدين، ولم تنته المظاهرات إلّا بعد اعتقال أعضاء من جمعية الاتحاد والترقي[١]، وقد انضم الكثيرون إليها بعد ذلك وخاصة بعد تخلي الاتحاد والترقي عن مبادئها التي نادت بها. إلّا أنها أغلقت بعد فترة وجيزة بسبب المصاعب المالية التي واجهتها[٢]، ولم يمنع هذا أعضاءها من الاستمرار في نشاطها[٣]. كما أسس فرع الجمعية المهدية في بغداد وكان أغلب أعضائها من الوجهاء، ورجال الدين[٤]. وشكل فرع لجمعية الأخاء العربي العثمانية أيضاً في بغداد فانضم إليها عدد كبير من المواطنين، وكان هدفها معارضة جمعية الاتحاد والترقي في الحياة الدستورية، وجمع شمل العناصر التي تتألف منها الدولة وإحلال الود بينها وبقيت تمارس نشاطها حتى نشوب الثورة المضادة عند ذلك قامت جمعية الاتحاد والترقي بحلها[٥].

وبما أن الثورة الدستورية حاولت في البداية التمسك بمبادئها التي جاءت بها، ففتحت المجال لتأليف جمعيات ونوادٍ ثقافية إذ أوعزت وزارة الداخلية العثمانية إلى الولايات بهذا الشأن بشرط أن يتم إخبار سلطات الولاية بذلك وتتم الموافقة الرسمية[٦]، فارتفعت الأصوات لإنشاء مثل هذه الجمعيات التي

---

(١) يوسف رزق الله غنيمة، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص١٠٨.

(٢) مصطفى نور الدين الواعظ، المصدر السابق، ص١٧٩.

(٣) GR. Aiyyar, op., cit., p:54.

(٤) عبد العزيز القصاب، المصدر السابق، ص٦٢.

(٥) محمد مهدي البصير، تاريخ القضية العراقية بغداد، ١٩٢٣م، ص٣٧؛ أحمد عزت الأعظمي، المصدر السابق، ج٢، ص١٠٣؛ أحمد قدوري، مذكرات عن الثورة العربية، ص٨.

(٦) الزوراء، العدد ٢٠٤، ١٩ ربيع الأول ١٣٢٧هـ.

كانت هيأت العقول لها من الحقبة السابقة، وقد عدت من أقوى الوسائل الفعالة لحفظ عنصر **التمدن، ونموه، وانتشار الآداب**[١]. **وكان نادي اتحاد الشبيبة أبرز جمعية ثقافية ظهرت في بغداد مكوّنة من الشباب الأرثوذكس المسيحي سنة ١٩١٠م**، وقد جعلت من نهضة العلم وبث محبة الوطن شعارها الأساس[٢]. ومن أبرز أعضائها يوسف غنيمة[٣]، وقد اختار النادي أسلوب عقد الندوات، والاجتماعات لنشر أفكاره، وقد أولت موضوعات الثورة وأهدافها وكبار المفكرين الاهتمام الأول، وخصص لأعضائه مكتبة فيها غرفة للمطالعة تم تزويدها بعدد من الكتب العلمية، والأدبية، والتاريخية[٤]، وغيرها، وفتح النادي أبوابه للجميع لغرض الانتماء إليه لقاء أجور زهيدة[٥]، وكان له مشاركات في النشاط الاجتماعي وهو خطوة جديدة في أسلوب تعامل المثقفين، واستمر النادي بنشاطه حتى الحرب العالمية الأولى[٦].

وتأسس نادي الترقي الجعفري العثماني سنة ١٩٠٨م. وكانت غايته أدبية علمية، والسعي حثيثاً لرفع مستوى منتسبيه الثقافي والأدبي في بغداد ألحقت به مدرسة ابتدائية، ومتوسطة. ومن أبرز مؤسسيه جعفر أبو التمن[٧]. وأسس يهود بغداد في سنة ١٩١٢م النادي البغدادي الذي جعل منهاجه تنظيم المجتمع، وتعويد المواطنين على سماع الأحاديث الأدبية والقيام برحلات سياحية وكان

(١) صدى بابل، العدد ٣٠، آذار ١٩١٠م.
(٢) الرقيب، العدد ٩٩، ٩ ربيع الأول ١٣٢٨هـ؛ المقتبس ج١٢، ١٩١٢م، ص٦٥١.
(٣) حارث يوسف غنيمة، يوسف رزق الله غنيمة (١٨٨٥-١٩٥٠م)، حياته الفكرية مجلة بين النهرين لعدد ٥١-٥٢، ١٩٨٥م، ص١١٦.
(٤) الرقيب، العدد ٩٩، ٩ ربيع الأول ١٣٢٨هـ.
(٥) صدى بابل، العدد ١٦٦، ٢٢ كانون الأول ١٩١٢م.
(٦) صدى بابل، العدد ٨١، ٦ نيسان ١٩١٣م؛ مجلة الحرية، بغداد، ج٦، كانون الأول ١٩٢٥م، ص٣٣٣.
(٧) فيصل الأرحيم، المصدر السابق، ص٢٥٩؛ عبدالله الفياض الثورة الكبرى، ص٨٣.

بدل الاشتراك السنوي له ست ليرات مما كان يؤلف مبلغاً كبيراً نسبياً خاصة للمثقفين الذين كانوا يؤلفون أهم رواد مثل هذا النادي[١].

وفي سنة ١٩١٣م أسس النادي الوطني العلمي[٢] الذي عرف بالنادي الوطني عند تأسيسه بزعامة مزاحم الباجچي ثم أضيفت إليه كلمة العلمي إمعاناً في التمويه[٣]، وإزالة الشكوك والريبة التي كانت تحوم حوله وكان تأسيسه بالأساس حصيلة تحولات داخلية، وألفت اللجنة الإدارية للنادي من **(حمدي الباجچي، وبهجت زينل، ورزوق غنام)** متخذاً من دار عاصم الجلبي في الرصافة مقراً له[٤] وانضم للنادي عدد من أبرز المثقفين، منهم **محمد رضا الشبيبي، ومحمد باقر الشبيبي، وعبد اللطيف الفلاحي، ومحمود أديب، وإبراهيم صالح شكر، وعبد الحميد الشالجي، وتحسين العسكري وغيرهم**[٥]، وضم النادي في عضويته عدداً من العسكريين، إذ منحوا أرقاماً سرية وصلت إلى (٤٢) رقماً[٦] وأيّد النادي شخصيات سياسية واجتماعية دون أن تنتمي إليه. وتحمس المثقفون كثيراً للنادي، وقد بعث عدد كبير من العراقيين الذين يكملون دراستهم في إسطنبول تهاني إلى النادي بمناسبة تأسيسه وآخرون آزروه بكل ما متوفر لديهم[٧]. وقد تضمن برنامج النادي مواد تعكس طموحات المثقفين ومستوى وعيهم وإدراكهم فأولى التعليم أهمية كبرى، إذا وضعوه في المقام الأول من اهتمامه إذ كانوا يبغون إنشاء المدارس، وإبداء المساعدة

(١) إبراهيم حلمي العمر، المصدر السابق، ص٩٥٣.
(٢) مجلة الهاتف، العدد ١٢٨٢، ١ تشرين الأول ١٩٥٣م.
(٣) توفيق علي برو، المصدر السابق، ص٤٩١.
(٤) تحسين العسكري، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية، ج١، بغداد، ١٩٣٦م، ص١٠٩؛ مجلة الهاتف، العدد ١٢٨٢، ١ تشرين الأول ١٩٥٣م.
(٥) تحسين العسكري، المصدر السابق، ج١، ص٣١.
(٦) صدى بابل، العدد ١٤٣، ١٢ تموز ١٩١٢م.
(٧) مجلة الرياض، العدد ١٢٨، ٢ ربيع الأول ١٣٣٠هـ.

المادية للطلاب تشجيعاً لهم على الدراسة في الداخل أو السفر إلى إسطنبول وأوروبا، كما حث على تعيين أساتذة يقومون بتدريس لغات شرقية وغربية وتعيين طبيب خاص للنادي، وتأسيس جمعية لترجمة الكتب من جميع اللغات وإصدار مجلة علمية[١]. كانت أهداف النادي فوق مستوى طاقات أعضاء النادي فلم تحقق من أهدافها سوى جزء يسير منها، اقتصر على فتح صفين لتدريس اللغة العربية، والفرنسية وافتتاح مكتبة ضمت كتباً عصرية، وزودت بأعداد من الصحف العربية التي كانت تصدر في مصر، وبلاد الشام، وإسطنبول، وتبرع إبراهيم الواعظ أحد أعضاء النادي بمكتبته الخاصة للنادي التي ضمت (٥٠٠)[٢] كتاب. وفي سنة ١٩١٣م أصدر النادي جريدة النهضة التي عملت على رفع شأن اللغة العربية حيث دعت إلى إحيائها وتمجيدها[٣].

كان النادي من أنشط دعاة الحكم اللامركزي، وكان له صلات مباشرة مع فصائل الحركة القومية في الأقطار العربية الأخرى، فقد أيد الجمعية الإصلاحية في بيروت[٤]، وأيد المؤتمر العربي الأول في باريس سنة ١٩١٣م إذ ورد اسم رئيسه من أسماء مثقفي بغداد الذين أرسلوا برقيات خاصة لتأييد المؤتمر[٥]، واستمر النادي بتوجيه النقد اللاذع إلى سياسة الاتحاديين مما أثار السلطات العثمانية. كما افتتح نادي الحرية والائتلاف وهو فرع لحزب الحرية والائتلاف العثماني المعارض لحزب الاتحاديين ١٩١١م[٦] وقد دعا إلى تحسين الحال في البلاد بمختلف الوسائل والسبل والدعوة إلى الحكم

(١) إبراهيم حلمي، المصدر السابق، ص٩٥٠-٩٥١.

(٢) مصطفى نور الدين الواعظ، المصدر السابق، ص٤٩٦.

(٣) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الصحافة العراقية، ص٧١.

(٤) تحسين العسكري، المصدر السابق، ج١، ص٣٤.

(٥) المؤتمر العربي الأول، القاهرة، ١٩١٣م، ص٢٠٤-٢٠٦.

(٦) توفيق علي برو، المصدر السابق، ص٢٦٠-٣٠٥.

اللامركزي، وقد انضم إلى عضويته خلال أيام قلائل ما يزيد على (٣٠٠) عضو من مثقفي بغداد[١]، مما دفع صدى بابل أن تسميه (**مملكة ائتلافية**)[٢]. وفي سنة ١٩١٣م ظهر ناد عرف باسم (**النادي الكرخي العلمي**) الذي كان يعقد اجتماعاته، وندواته مساء كل يوم في أحد مقاهي الكرخ، مما يضفي عليه طابعاً شعبياً[٣]. وعلى الرغم من أهمية هذه النوادي والجمعيات والأحزاب باعتبارها بواكير التنظيم الثقافي، والسياسي، وإحدى وسائل التبشير بأفكار المجددين، إلّا أن دورها في مرحلة ما قبل الحرب كان محدوداً، ومحصوراً، مطالبها وأهدافها لا تتعدى طلب الإصلاحات العامة والمطالبة بالحكم المركزي تحت ظل العثمانيين[٤]. ولم يكن إقبال الناس عليها وعلى ندواتها كبير، وقد انتقد يوسف غنيمة زعيم نادي الشبيبة هذه الظاهرة بمرارة، إلّا أن الناس لم يتحمسوا للانتماء للنوادي، أو الجمعيات في الوقت الذي كانوا يقابلون غيره بالترحيب والتصفيق مثل أجواء الراقصات[٥]، كما أن موقف السلطات تحول إلى عائق أمام تطور مثل هذه المؤسسات الثقافية، فتحولت هذه النوادي، وصحافتها إلى منتديات عرض فيه المثقفون أفكارهم العلمية الأدبية لهدم الأفكار الاجتماعية البالية.

---

(١) إبراهيم حلمي، المصدر السابق، ص٩٥٠.

(٢) صدى بابل، عدد ١٦٣، ٢٩ تشرين الأول ١٩١٢م.

(٣) لغة العرب، ج١٠، ١٩١٣م، ص٤٨٤.

(٤) محمد فيصل الأرحيم، المصدر السابق، ص٢٥٣.

(٥) صدى بابل، العدد ١٦٦، ٢٢ كانون الأول ١٩١٢م.

الفصل الخامس

مظاهر الحياة الاجتماعية

• المظاهر الدينية والأدبية:

كان المجتمع البغدادي يتميز بخصائص أخلاقية مستمدة أغلبها من النظم الإسلامية والمثل العليا في الإسلام. فقد تعددت المظاهر الدينية في المجتمع ابتداءً من صلاة الجمعة إلى الاحتفالات والمناسبات الدينية، التي كانت سبباً لتجمع الناس، ومجالاً، ومبرراً للتعبير عن الفرح والسرور.

١ صلاة الجمعة:

يوم الجمعة هو عطلة المسلمين، حيث تؤدى فيه شعائر خاصة على وفق تعاليم الدين الإسلامي، فينصرف جميع الناس من مختلف الفئات إلى الجوامع في منتصف النهار لأداء صلاة الجماعة، وحرص جميع الولاة على أدائها، إذ يخرج الوالي في موكب يتبعه كبار الموظفين وأعيان المدينة لأداء، صلاة الجمعة في إحدى الجوامع الكبيرة، ويشترط في نهاية الخطبة ذكر السلطان والدعاء له[١]، إذ كانت الأوامر تصدر من الحكومة المركزية عند جلوس سلطان جديد تأمر تلاوة الخطب المنبرية باسم الخليفة الجديد[٢]. وبعد الصلاة يستمعون إلى مجالس الوعظ وتصدر الأوامر إلى الولاة دائماً تؤكد

(١) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص٩٢.

(٢) أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول، رقم الوثيقة ١٦٥، رقم البحث ٢٠، دفتر مهمة =



على المواظبة على صلاة الجماعة في المساجد، وإعلان ذلك لعامة الناس، وحملهم عليها، وتأديب المتخلفين عنها من غير عذر شرعي[١].

وعند الانتهاء من الصلاة ينصرف جميع المسلمين إلى أداء أعمالهم اليومية وقد يقوم البعض برش ماء الورد على المصلين عند خروجهم من الصلاة[٢].

❷ الأعياد والمناسبات الدينية:

يحتفل أهالي بغداد بكثير من الأعياد والمناسبات الدينية، وللمسلمين - في هذه الأعياد - رسوم وقواعد، فيعطون الأموال ويوزعون الصدقات ويهدون الهدايا، وقد حرص الولاة على الاحتفال بها احتفالاً دينياً.

كانت بغداد تسطع في أرجائها الأنوار في ليالي الأعياد، ويجري تزيين المساجد والمآذن بالمصابيح، وتوقد القناديل الكثيرة في الدروب، والأسواق، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير على نغم الجاركاة[٣]، وتسطع شواطئ دجلة بأنوار القناديل، وتزدحم بالزوارق المزينة بأبهى الزينة، وتمتلئ الأنوار الساطعة من المباني القائمة على الشواطئ، وكأنما هي شعلة من نور، بل ويعمد كثيرون إلى إشعال النار في أوان يرسلونها على سطح الماء فتبعث المزيد من الروعة والبهجة في النفوس[٤]. ولعل أشهر هذه الاحتفالات كان الاحتفال بالعيدين (**عيد الفطر، وعيد الأضحى**). تبدأ الاحتفالات بعيد الفطر

= ٢٦١، الصفحة ٤٥، تاريخ الوثيقة أواسط ذي الحجة ١٢٧٧هـ، مركز التوثيق الإعلامي، وزارة الثقافة والإعلام.

(١) أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول، رقم البحث ١٤٣، دفتر مهمة ٢٥٥، ص١٠، تارخ الوثيقة أواخر ربيع الأول ١٢٥٨هـ، مركز التوثيق الإعلامي، وزارة الثقافة والإعلام.

(٢) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٧٦.

(٣) جلال الحنفي، المغنون البغداديون والمقام العراقي، بغداد، ب.ت، ص٣١.

(٤) د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، ص٤٠١.



احتفالات العيد.



ركوب الخيل له نكهة خاصة يوم العيد.

وبحلول شهر رمضان. وكانت الحكومة تقوم بإضاءة المساجد، والمآذن، وتوزيع الصدقات على الفقراء والمحتاجين. وتحيي عامة أهالي بغداد ليالي هذا الشهر المبارك بالخروج إلى المساجد لأداء صلاة العشاء، والتراويح، أو تلاوة القرآن الكريم، والبعض من العوائل الثرية تجلب قراء القرآن الكريم إلى بيوتهم طيلة شهر رمضان المبارك[١]. وبعد الانتهاء من تأدية الشعائر الدينية يذهب البعض منهم لزيارة أصدقائه، أو لحضور مجالس العلماء وأعيان المدينة، والبعض يمارس لعبة المحيبس، والصينية في المقاهي أو المجالس[٢] **يصف الرحالة كوبرا أوضاع المجتمع خلال شهر رمضان حيث صادف ذلك فترة خلال إقامته في بغداد سنة ١٨٩٥م**: «ينتشر الهدوء أثناء النهار حيث تغلق العديد من المحال، ويسود نوع من الفتور والخمول جميع الأشياء في بغداد، ولن نشاهد في جميع أزقة بغداد سيكارة أو غليوناً مشعولاً ومع اقتراب المساء يتجمع السكان في المساجد والمقاهي ينتظرون إطلاق مدفع الإفطار. وما يرافق ذلك من أحاديث متنوعة. ونشاهد في الأسواق كميات كبيرة من اللحوم والخبز وأنواع الأطعمة الأخرى أعدت خصيصاً للأكل أثناء المساء، فتنبعث الحياة مرة أخرى في المدينة بعد مغيب الشمس، فتضاء المقاهي أثناء الليل وتزدحم المساجد بالمصلين»[٣].

---

(١) من أشهر القراء، الخواجة محمد سعيد إمام والحاج محمد البغدادي والملا أحمد الأفغاني والملا عبد الرزاق والملا خليل المظفر والشيخ حبيب الكروي والحاج عيسى روحي والسيد جعفر أفندي الواعظ والملا محمد ابن الحاج حليم والسيد محمود حموشي والشيخ عثمان البصير والعلاّمة الشيخ عبدالله الموصلي والملا إبراهيم الدوحي والحافظ الشيخ عبد الوهاب والحافظ الملا عمر بن خطاب الخضيري والسيد محمد صالح الفرحي والملا عباس أفندي والشيخ عبد المحسن الطائي والشيخ حسن الضرير. انظر: إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٣٧١-٣٧٥.

(٢) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج١، ص١٠٥.

(٣) Cowper, op., cit., p:280-281.

وإذا قاربت ليالي رمضان على الانتهاء، يبدأ الناس بالاستعداد لشراء الملابس الجديدة وإعداد الحلويات الخاصة بالاحتفال، وتزدحم الحمامات قبل يوم أو يومين، وفي الليلة الأخيرة يصعد الناس على السطوح لمشاهدة هلال شهر شوال لوداع شهر رمضان المبارك. وحالما يتم التثبت من رؤية الهلال تبدأ مراسيم الاحتفال في صباح اليوم التالي، فيرتدي عامة الناس ملابسهم الجديدة، ويتوجه معظم الرجال إلى المساجد(١) على رأسهم الوالي لأداء صلاة العيد(٢)، ويعرج بعدها إلى ديوان الولاية مرتدياً زيه الرسمي الذي ترصعه الأوسمة وتقوم ثلة من الجند والشرطة بأداء التحية له حال وصوله الديوان، وتعزف فرقة موسيقية بعضاً من المقطوعات، ثم تتوارد مواكب المهنئين لتقديم التهاني للوالي. **وقد روعي في ذلك الترتيب الآتي: قائد الجيش: كبار الموظفين، وجهاء المدينة، رجال الدين، أعضاء السلك القنصلي، وبعد الانتهاء من تلك المراسيم يغادر الوالي مقره بصحبة مهنئيه إلى مقر قيادة الجيش ليرفع تهانيه إلى منتسبي الجيش**(٣). أما عامة الرجال فبعد انتهاء صلاة العيد يتوارد المهنئون لتقديم التهاني لبعضهم البعض، وتقوم العوائل بزيارة ذويهم، وأقاربهم طوال المناسبة(٤)، ويحتشد الناس لزيارة موتاهم في المقابر أول أيام العيد لزيارة ذويهم، وقراءة الآيات القرآنية على أرواحهم، وتوزيع الخيرات في ثوابهم(٥). ويذهب الأطفال إلى الميادين العامة التي تعرف **(فرجة)** والتي كانت مجالاً لصرف عيدياتهم التي

---

(١) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج١، ص١٠٥.

(٢) بيير دي فوصيل، المصدر السابق، ص١٠٦.

(٣) الزوراء، العدد ١٧٦٩، ٢٠ ذي الحجة ١٣١٥هـ؛ والعدد ١٨٥١، ٢٨ شوال ١٣١٧هـ؛ محمد رؤوف الشيخلي، المصدر السابق، ص١٠٨.

(٤) عزيز جاسم الحجية، المصدر السابق، ج١، ص١٠٥.

(٥) بغدادي أصيل، من تقاليد أهل بغداد وعاداتهم «صور فلكلورية»، الشرق، العدد ٦٥٠، (٩ رجب ١٣٨٢هـ/ ٦ كانون الأول ١٩٦٢م).

تعطى لهم من قبل الأهل في صباح العيد[١]، حيث توجد وسائل اللعب واللهو وغالباً ما تكون قرب، أو بجانب مراقد الأولياء الصالحين، ويفضل الجميع **(الفرجة)** التي تقام في ساحة الشيخ عمر السهروردي، حيث يجري فيها سباق الخيول وبعد الانتهاء من السباق، وتوزيع الجوائز، تدق الطبول، والمزامير، ويرقصون رقص الچوبي ابتهاجاً بيوم العيد السعيد، وفرحاً بهذا السباق[٢].

وإذا ما بدأ شهر ذي القعدة بدأت احتفالات جديدة بحلول موسم الحج، حيث تهيأ قوافل الحج للذهاب إلى مكة. وعند أداء فريضة الحج في العاشر من شهر ذي الحجة يحتفل المسلمون بعيد الأضحى، ويخرج الناس أيضاً لأداء صلاة العيد، وتمتلئ الشوارع ومقامات الأولياء، والصالحين، والميادين العامة بأناس من مختلف فئات المجتمع، فتتعالى أصوات المرح والنشاطات الترويحية من غناء، وموسيقى، ورقص[٣]، وتوقد نيران القناديل، وتمارس عندها ما يثير إعجاب الرحالة الأجانب عند مرورهم ببغداد في تلك المناسبات، ويأمر الولاة بمنح عطايا العيد إلى سائر موظفيه، وأتباعه، وإلى قراء المساجد، وخدمهم، وغيرهم[٤]، ولا يختلف عن العيد السابق إلّا في نحر الضحايا، وتوزيع لحمها على الفقراء، وإقامة الولائم والاستمرار بالاحتفال مدّة (٤) أيام[٥].

وكان لأهل بغداد احتفالات دينية أخرى يغلب عليها الطابع الديني منها الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع

---

(١) مير البصري، مشاهدات الرحالة الهولندي نيجهولت في العراق «بغداد قبل مئة سنة»، جريدة البلد، العدد ٨٨٣، (١٨ ذو القعدة ١٣٨٦هـ/ ٢٧ شباط ١٩٦٧م).

(٢) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص٨٨-٩٠؛ محمد رؤوف الشيخلي، المصدر السابق، ص١٠٨.

(٣) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج١، ص١٠٦-١٠٨.

(٤) د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، ص٤٠١.

(٥) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج١، ص١٠٨.

الأول، يشترك فيه جميع أهل المدينة اعتزازاً بهذه المناسبة الشريفة، فكان بمثابة عطلة رسمية. ويتضمن الاحتفال إقامة المناقب النبوية في المساجد الرئيسة في بغداد، وتتدفق الحشود المختلفة إلى هذه المساجد تعبيراً عن فرحتهم بالمناسبة، وتضاء المآذن بالمصابيح، وتوقد القناديل الكثيرة في الدروب والأسواق، ويجري الاحتفال الكبير في جامع الإمام الأعظم برعاية الوالي[١]، يحضره قائد الجيش، وكبار الضباط، ووجهاء مدينة بغداد، ويقام مولد كبير، وتتلى فيه الأناشيد الدينية. وكان من أحسن القراء خلال هذه الحقبة الملا عثمان الموصلي[٢]، وتقوم دائرة الأوقاف من جانبها بطبخ الأطعمة، وتوزيعها على الفقراء، كما توزع بعض النقود على الأرامل والأيتام[٣].

أما احتفال ليلة المعراج فتكون في السابع والعشرين من رجب، ويتم بزيارة الوالي إلى جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني، حيث يكون في انتظاره هناك كبار الموظفين، ووجهاء بغداد، ويتبرك الجميع بمشاهدة شعرات الرسول الكريم المحفوظة في الضريح، بعدها يؤدون مراسم الزيارة لمرقد الكيلاني، ويختتم الاحتفال بالدعاء للسلطان بالعمر الطويل، وبدوام اليمن والإقبال عليه وعقب ذلك يغادر المحتفلون الجامع في طريقهم إلى ديوانية نقيب الأشراف حيث تقام لهم حفلة عشاء[٤].

---

(١) Habib Chiha, op., cit., p:171.

(٢) ولد في مدينة الموصل سنة ١٨٥٤م، وقد توفي والده في صغره وفقد بصره وهو في السابعة من العمر إثر إصابته بالجدري، فاحتضنه محمود أفندي من وجهاء الموصل، ودرس علوم اللغة العربية من صرف ونحو كما درس الحديث والتفسير سافر إلى بغداد ثم إلى إسطنبول وأعجب به السلطان عبد الحميد الثاني وأدخله قصر الحربية لقراءة القرآن الكريم. لمزيد من المعومات، انظر: أنستاس الكرملي، مزارات بغداد، ورقة ١٧؛ عادل البكري، عثمان الموصلي قصة حياته وعبقريته، بغداد، ١٩٩٠م، أحمد عزة العربي، العقود الجوهرية في مدائح الحضرة الرفاعية، القاهرة، ص٩١.

(٣) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص٩١.

(٤) الزوراء، العدد ١٥٤٣، ٢ شعبان ١٣١٠هـ.

ويحتفل البغداديون بليلة النصف من شعبان، وتعرف بـ(**المحية**) لأن أغلب المسلمين يسهرون هذه الليلة، يتلون آيات القرآن الكريم لاعتقادهم أن السماء تفتح أبوابها في أحد ساعاتها ليبادروا إلى الدعاء، والتمني حيث يستجاب الدعاء وتتحقق الأماني[(١)]. ويتم الاستعداد لها قبل فترة حيث تشترى عدد من الناس الدنابك الصغيرة والكبيرة للأولاد، ويشترون كذلك المخلط، والكرزات والشموع، والطرقات، والبوتاز، والزنابير استعداداً للصخب في هذه الليلة، إذ تتعالى أصوات الدنابك والطلقات[(٢)]. كما يحتفل البغداديون بانتهاء شهر صفر، إعلاناً عن انتهاء شهر النحس ويقيمون المهرجانات الشعبية التي تعرف بـ(**جمير سولي**)[(٣)]. في شريعة السيد سلطان علي وخضر الياس، والأعظمية، حيث ينتشر الناس وباعة المأكولات والحلويات[(٤)]. إلى جانب الأعياد الإسلامية كان هناك أعياد الطوائف الدينية (**اليهود والمسيحية**) وهي مستوحاة من تعاليمهم الدينية، تقام في محلاتهم الخاصة بهم ويتفق النصارى في الأعياد الكبرى كعيد الفصح وعيد رأس السنة، وإن احتفظوا ببعض الأعياد حسب طوائفهم، ففي أيام أعيادهم تضاء الأنوار في أماكن تعبدهم وتقام الولائم وتحضر جميع العوائل للاحتفال[(٥)].

❸ الموالید النبوية والأذكار:

شهدت بغداد وخاصة محلة باب الشيخ اهتماماً كبيراً بالمواليد النبوية التي تقام بمناسبات **الأعياد، والزواج، والختان**، لأن بعض الناس تنفر من جلب آلات الطرب، وكانوا يقيمون الولائم ويأتون بقراء المواليد النبوية[(٦)]، التي

(١) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص٨٦.
(٢) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج٢، ص١٤٢.
(٣) جمير سولي: كلمة اعجمية تعني مهرجان.
(٤) ناجي جواد، بغداد «سيرة ومدينة»، بيروت، ٢٠٠٠م، ص٦٠.
(٥) سعاد العمري، المصدر السابق، ص٩٩؛ جون أشر، المصدر السابق، ص١٠١.
(٦) محمد رؤوف الشيخلي، المصدر السابق، ص١٠٩-١١٠.

تضاهي حفلات المقام العراقي أو قراء القرآن الكريم. كان المولد يقرأ من قبل قارئ معين، يجلس في صدر المكان على كرسي دون بقية جماعته حيث يتلو المنقبة النبوية، المقسمة إلى أربعة فصول، وكل فصل له مقام خاص، ينشد خلال ذلك شيئاً من الشعر من غزل، ومديح، ومن حين لآخر يترك الأمر إلى جماعته، فيرد هؤلاء أشعارهم الموالدية التي هي بمثابة أناشيد ملحنة على مقتضى النسق النغمي المقرأ بفصول المواليد ومن أشهر مقرئي المواليد النبوية خلال هذه الفترة الملا عثمان الموصلي[1].

وتقيم بعض العوائل الأذكار المعروفة بـ**(القادرية، الرفاعية، البغدادية)** في بيوتهم أو التكايا لتحقيق طلبها إضافة إلى الأذكار التي تقام كل ليلة جمعة[2].

٤ الزيارات الدينية:

كان لعامة المجتمع البغدادي مواسم لزيارة المراقد الدينية. البعض منها سنوية تحدد خلال أيام معينة من السنة لزيارة المراقد الدينية البعيدة عن المدينة، كزيارة سامراء والسيد محمد في الصيف، حيث يكون الحر هناك رائقاً وخفيفاً، وزيارة كربلاء في الثالث عشر من محرم، وفي العشرين من صفر، وزيارة النجف الأشرف في أول رجب، ومنتصف شعبان، وفي أيام عيد الأضحى[3] أما زيارة المراقد، والأضرحة القريبة من أو في داخل المدينة، فتكون على وفق نظام دقيق لم يتغير لقرون خلت، موزع على أيام الأسبوع[4] فيوم السبت لزيارة مرقد الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) في قضاء

(١) جلال الحنفي، المغنون البغداديون، ص٢٨.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٩.
(٣) بغداد أصيل، من تقاليد أهل بغداد وعاداتهم «صور فلكلورية»، جريدة الشرق، العدد ٦٥٠، (٩ رجب ١٣٨٢هـ/ ٦ كانون الأول ١٩٦٢م).
(٤) د. عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية، ص٤٠٣.

الكاظمية، وجامع براثا، ويوم الأحد لزيارة المرقد المنسوب لمريم بنت عمران في منطقة كرادة مريم في جانب الكرخ، ويوم الاثنين لزيارة مرقد الشيخ عمر السهروردي، والسيد إبراهيم وهو مزار في وسط مقبرة واسعة مقابل الشيخ عمر، ويوم الثلاثاء لزيارة مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني في محلة باب الشيخ، ويوم الأربعاء لزيارة مرقد أم رابعة في الأعظمية والشيخ الجنيد في جانب الكرخ، ويوم الخميس لزيارة السيد إدريس في الكرادة الشرقية، ويوم الجمعة لزيارة مرقد الإمام أبي حنيفة النعمان في الأعظمية[١]. ويطبق هذا النظام في الأيام التي تعقب العيدين الفطر، والأضحى، وعيد الربيع والتي تعرف بأيام الكسلة، فيخصص كل يوم لزيارة المقام أو الضريح المخصص له[٢]. ولكن يرافق هذه الزيارات خلال هذه الأيام الاحتفالات ويصطحب الناس معهم طعامهم وأفرشتهم، حيث يقضون اليوم بأكمله **بالمرح، واللّهو، واللّعب**، وتتحول ساحتها إلى أسواق رائجة بنشاط في باعة الحلوى والكرزات، والفواكه، وأنواع الكعك[٣]، إذ يوجد في كل مكان شيء خاص به من الطعام فمثلاً الكاظمية كبابها، ومريم بنت عمران خسها، **وهكذا وقد وصف الرحالة نيجهولت زيارة جامع الإمام الأعظم في اليوم الرابع من أيام العيد «لم يقتصر الأمر على المجتمع بل كان الوالي وحاشيته أيضاً ذاهبون للزيارة في اليوم نفسه المخصص له»**[٤].

وفي أيام الكسلة التي تعقب عيد الربيع «**عيد النوروز**» ترافق الزيارات السابقة زيارة مرقد الصحابي سلمان الفارسي، وخضر الياس. وكانت وقائع

---

(١) أنستاس، الكرملي، مزارات بغداد، ورقة ١١-١٧.

(٢) يونس سعيد، أيام الكسلة في بغداد، جريدة فرندل، ١٧-٣-١٩٥٣م.

(٣) بغدادي أصيل، من تقاليد اهل بغداد وعاداتهم، جريدة الشرق، العدد ٦٥٠، (٩ رجب ١٣٨٢هـ/ ٦ كانون الأول ١٩٦٢م).

(٤) مير البصري، مشاهدات الرحالة الهولندي نيجهولت، جريدة البلد، العدد ٨٨٣، ٢٧ نيسان ١٩٦٧م.

زيارة سلمان الفارسي تجري كالآتي يبدأ الاستعداد لها مبكراً فتجمع مؤونة الطعام، والأفرشة الكافية، وتجمع التبرعات النقدية من أفراد محلة الشيخ عبد القادر اختياراً من بدون إكراه لدى أحد الاختيارية لإنفاقها هناك مدة أيام الاحتفال، فيرفع شعار المهرجان العلم الأخضر في ساحة باب الشيخ، ويجتمع الناس يومياً ليلاً هناك في مهرجان شعبي يعرف عندهم بـ**(الهلالي)** حيث السيوف تهز والقصائد الشعبية تقرأ. وفي اليوم المعين يسير الموكب سيراً على الأقدام إلى سلمان باك، وبعد وصولهم إلى قبر الصحابي وزيارته تنصب الخيام، فتبدأ مواكب المحلات بالتوافد على سلمان باك وتتعالى أصوات المدح والفرح لقضاء أمتع الأوقات، وبعد قضاء أسبوع أو أكثر يعود الموكب إلى بغداد[١]. أما زيارة مرقد خضر الياس، فتكون خلال الاحتفال بأيام عيد الربيع، وكان هناك تقاليد خاصة بالعوائل أثناء زيارته وخاصة الأكراد فتصنع الحلوى التي تعرف بـ**(زردة وحليب)** وتجلب السلال التي تحوي على الخس، وجملة الخضروات الأخرى، ويقلبون في أيديهم الفضة زعماً منهم أن الخضر يضع كفه في الطعام وتوزع وسط الاحتفال بعيد الربيع[٢].

وكان لليهود والنصارى زياراتهم الدينية الخاصة بهم أيضاً، فاليهود لهم ثلاثة أماكن يزورونها خلال السنة، وهي قبر النبي يوشع الواقع في أطراف بغداد، ومرقد النبي حزقيل في الكفل يزورونه بعد عيد القيامة، ومرقد العزير الواقع على الجهة اليمنى من نهر دجلة في جنوب شرق محافظة ميسان[٣]، ولبعض اليهود اعتقاد بالشيخ عبد القادر الكيلاني فيزوروه في يومه المخصص[٤].

---

(١) بغدادي أصيل، من تقاليد اهل بغداد وعاداتهم، ، الشرق، العدد ٦٥٠، (٩ رجب ١٣٨٢هـ/ ٦ كانون الأول ١٩٦٢م).

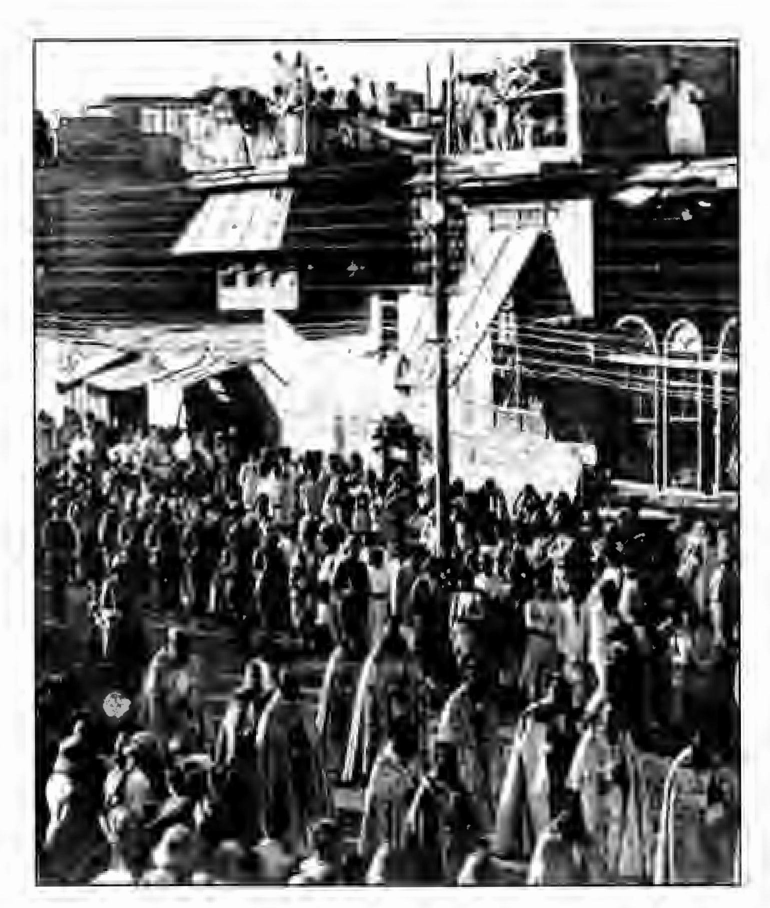
(٢) مسلم مطلع، بعض خرافات البغداديين، مجلة لغة العرب، السنة الأولى، ج١، (شعبان ١٣٣٢هـ/ تموز ١٩١٤م) ص١٩.

(٣) Habib Chiha, op., cit., p:180.

(٤) أنستاس الكرملي، مزارات بغداد، ورقة ١٠.

وللنصارى زيارات خاصة إلى قرية هناك على بعد مسيرة يومين من المدينة، حيث دفن الشهيدان مار شمعون، ومار يهوذا، وزيارة خضر الياس بعد دفع أجور زهيدة للأتراك(١).

كانت الزيارات الدينية خاصة أيام الأعياد مبرراً دينياً لدوام الفرح والسرور، ووسيلة للخروج على أسر القيود الاجتماعية المفروضة على كثير من العوائل.



موكب احتفال مسيحي سنة ١٩١٦م.

(١) رفائيل بابو إسحق، تاريخ نصارى العراق، ص١٣٣.

المجالس الأدبية والعلمية في بغداد

يرجع وجود المجالس العامة والخاصة كمظهر من المظاهر الأدبية إلى العصر العباسي الأول، إلّا أنها فقدت أهميتها وأصابها الوهن بسبب الظروف القاسية التي مرت بها بغداد، لكن هذه المجالس بدأت أهميتها خلال هذه الحقبة. ولم تكن تقتصر على المسلمين والعرب فقط بل كانت للعوائل الثرية كافة من القوميات، والأرباب المختلفة مجالسهم الخاصة. فقد شهدت بغداد ألواناً كثيرة من المجالس الاجتماعية، وقد اختلفت أغراض هذه المجالس وصورها وأماكن انعقادها، وضمت جلساتها مختلف فئات المجتمع قومياً ودينياً. إذ لم يكن أمام الناس وسيلة لزيادة معرفتهم، وثقافتهم سوى الحضور إلى المجالس والندوات الأدبية والعلمية، التي تعقد في المساجد، وبيوت الفئات المثقفة في المجتمع التي تولي العلم وأهله رعاية خاصة.

١ المجالس الخاصة:

لقد تنوعت المجالس الخاصة فكان منها **المجالس العلمية الأدبية، الثقافية، والمجالس الشعرية، والمجالس التجارية**، والبعض منها جمعت جميع هذه الألوان من المجالس. يرجع نشاط هذه المجالس الأدبية الخاصة إلى عهد داود باشا على أثر اهتمامه بالعلم والعلماء حتى لقب بوزير العلماء[١]، كان عصره بداية يقظة فكرية[٢]، إذ نبغ مجموعة من العلماء ينتمي كل واحد منهم إلى أسرة من الأسر العلمية، حتى إن قسماً منهم استطاع تبوؤ مركز الصدارة في النهضة كالسيد أبي الثناء الألوسي، والشاعر عبد الغفار الأخرس، وعثمان بن سند البصري[٣]، واستمروا في مركزهم حتى بعد

---

(١) رزوق عيسى، داود باشا ونهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر، مجلة الرسالة، العدد ٧٠٧، السنة ١٥، القاهرة، ١٩٤٧م، ص٥٢.

(٢) يوسف عز الدين، الشعر العراقي، ص٤٥.

(٣) عبد العزيز سليمان نوار، داود باشا، ص٣١٣.

سقوط داود باشا، إذ كان مجلس أبي الثناء الألوسي بمثابة ندوات فكرية تعقد تحت رئاسته، فهو الحكم الفاصل بين الجد، والهزل[١]، مما كان له أثر في إنعاش الحركة العلمية، والأدبية في عصره.

وازدادت الأسر العلمية وطلاب العلم بفعل تشجيع عدد من الولاة والوجهاء. ونتيجة لهذا برزت ظاهرة تعدد المجالس الأدبية والعلمية، إذ غدا لكل أسرة دينية، أو شخصية مثقفة من أبناء المجتمع مجلس خاص، وكان للبعض منهم مجلس خاص، وعام، وكانت بعض المجالس فلسفية، وفكرية، ودينية، والبعض الآخر مجالس شعرية، والبعض مجالس ثقافية، علمية، تاريخية، والبعض منها جمعت الكل. فأعادت هذه المجالس المناظرات العلمية والمساجلات والمطارحات الشعرية، وكانت الأبيات الشعرية القيمة بمقياس ذلك العصر تنتقل من مجلس إلى آخر، كما أن القصيدة الجيدة لا يتناقلها الناس فحسب بل يتسابق الشعراء والأدباء على شرحها وتشطيرها أو تخميسها[٢]، إذ كان للمناظرات مكانة خاصة، فقد كان الشعراء يتناقلونها ويسجلونها في مخطوطاتهم[٣] وتناقش في المجالس القضايا العلمية الحديثة المتطورة، والأمور التاريخية القديمة. وكثيراً ما كان الولاة وكبار الموظفين وأعيان المدينة يحضرون المجالس الأدبية العلمية مثل مجالس آل الكيلاني التي كانت زاخرة بأعيان المدينة وكبار الموظفين[٤]، ومجلس محمود شكري الألوسي الذي قيل عنه **(إنه عصبة أدب وعلم ووعظ وشعر)** فهو يشبه النادي الأدبي[٥]، إذ كان الوالي سري باشا كثير التردد على

(١) إبراهيم الدوري، المصدر السابق، ص٢٧.

(٢) عبد العزيز سلمان نوار، مواقف سياسية لأبي الثناء الألوسي، (١٨٠٢-١٨٥٥م)، المجلة التاريخية، المجلد ١٤، القاهرة، ١٩٦٨م، ص١٤٥.

(٣) عز الدين يوسف، الشعر العراقي، ص٦٧٥.

(٤) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٦٠٥.

(٥) مصطفى أمين الواعظ، المصدر السابق، ص٢٠.

المجالس يقضي أكثر أوقاته في مجلس الألوسي لمحادثته والاستعانة به على التأليف، والتصنيف، والوالي جمال باشا كان أيضاً كثير التردد على مجلسه إذ كان يشاوره في العديد من الأمور السياسية[١]، وغيرها من المجالس التي يتردد عليها فضلاء المدينة وأعيانها.

ومن المواضيع التي تناولتها هذه المجالس الأمور التي تهم الدين والمدنية، فعندما شهدت بغداد ظاهرة انتشار الفرق والبدع **(كالبهائية والبابية)** قد حظيت هذه الظاهرة الخطرة على الدين بجدال فكري في أروقة مجالس العلم والأدب[٢] لأن أساليب تلك الفرق وحججها الكلامية، والبلاغية، ومطارحاتها الفقهية قد أشغلت العديد من المجالس في مناقشتها. فضلاً عن كونها تقيم المجالس إلى روادها للاطلاع على أفكارها التي كان يرتادها العديد من المهتمين بالأمور التي أثارت جدلاً في أوساط العلماء والمتعلمين وأوساط العامة حيث أشغلت نفسها بتلك الطروحات، ولا سيما تلك التي يغلب عليها طابع التأويل والخرافات، إذ كانت أحوال المجتمع تشجع على الاهتمام بتلك الطقوس الخرافية الأمر الذي استدعى مسارعة العلماء في توضيح الأهداف الخفية لتلك الفرق أولاً، ثم الرد العلمي عليها ثانياً، فشهدت العديد من المجالس تلك المناقشات المتعلقة بالرد على تلك الفرق، في معظم هذه المجالس[٣]، **وكثيراً ما تحولت هذه المجالس إلى منابر لانتقاد السلطات الإدارية، وفسادها الإداري، وسوء سياسة الولاة، وكبار الموظفين، وارتشائهم، وظلمهم للناس.** ويشير سليمان فائق إلى أن سياسة الوالي مصطفى نوري السيئة كانت حديث الأندية والمجالس، إذ لا يخلو مجلس من التطرق إلى ذكر شيء من سوء أفعال الوالي وأتباعه[٤]. كما لا

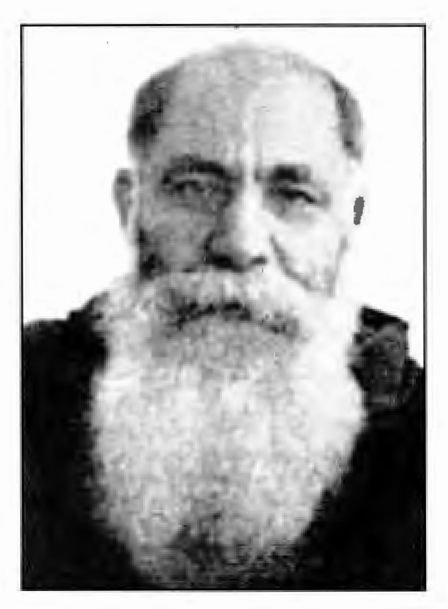
(١) محمد بهجة الأثري، أعلام العراق، ص١٠٤.

(٢) محمود شكري الألوسي، مختصر التحفة الاثني عشر، القاهرة، ١٢٧٣هـ، ص٢٤؛ علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٢، ص١٦٨-١٧٥.

(٣) عبد الرزاق الهلالي، دراسات وتراجم عراقية، ص١٤٠-١٤٦.

(٤) سليمان فائق، تاريخ بغداد، ص١٦٩-١٧٠.

تخلو المجالس من ذكر محاسن الولاة فقد كان ناظم باشا مثار إعجاب المجالس إذ لا يخلو مجلس من التحدث عن أعماله المتميزة[١]. **وهنالك مجالس تشبه الأندية الثقافية التاريخية، حيث تدور أحاديث العلم، والأدب، وتناقش الوقائع التاريخية، والأخبار**، إذ عرف عن أصحابها البحث عن الروايات، والأحداث التاريخية القديمة، وكانت لهم مكتبات ضخمة يتردد عليهم العلماء والأدباء وجميع المشتغلين في حقول التأليف والتصنيف للاستفادة من الكتب والنوادر التي جمعوها مثل **مجلس يعقوب سركيس، ومجلس الأب أنستاس ماري الكرملي**[٢].



الأب أنستاس ماري الكرملي.

وتميزت المجالس بجمعها بين الجد والهزل، حيث كان هناك أشخاص معروفون يسمونهم بـ**(فاكهة المجالس أو ظرفاء بغداد)** يحضرون المجالس

---

(١) مصطفى الواعظ، المصدر السابق، ص٤٠٠.

(٢) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٢٣٤-٢٣٦.

لإضفاء روح النكتة والتسلية على الجلسة[١]، ومن أشهرهم أيوب اليتيم، والشيخ خضر عباس العجاج، والشاعر عبدالله الخياط، وعبد القادر شنون[٢]، وقد دون بعض أصحاب المجالس نوادرهم الهزلية وأشعارهم وكان لدى البعض منهم مجالسهم الخاصة، التي يتردد عليها علماء، وأعيان المدينة، ولا يستطيع من يراها ويسمع كلامها إلّا أن يضحك وكان بعض أصحاب المجالس يطرح بين الحاضرين أسباب النزاع، والمجادلة عن مسألة علمية أو نكتة أدبية، فيتعالى صياحهم، ويحدث التضارب بينهم، ويكثر الضحك بين الحاضرين، ثم يقوم صاحب المجلس بدور المصالح بينهم، وإضفاء روح النكتة والتسلية، والروح المرحة على المجلس حتى لا تكون مجالسهم جامدة أو مملة. وفي ليالي رمضان تدار عليهم الحلويات والفواكه[٣]. وقد حفلت المجالس الخاصة التي كان لها أثر في تطور الأدب والشعر بالشعراء إلّا أنها كانت ضيقة التفكير، فالشعر لم يكن إلّا مناقشة بين الحضور لإبراز الجاه، والشهرة، والمفاخرات بالوافدين إليهم وبما أن أغلبية الشعراء يبحثون عن الأموال فاتخذوه سبيلاً للحصول على الأموال. ولهذا لم يتعد الشعر خلال هذه المرحلة سوى الذم، أو المدح، والثناء للولاة، والموظفين، وأعيان المدينة، والشخصيات المرموقة إذ كان الشعراء يتبارون في هذا الميدان[٤]. فقد كان هناك من الولاة ما تميزوا بظلمهم وقسوتهم إلّا أننا نجد قصائد المديح، والثناء عليهم من قبل الشعراء. واتخذ البعض من الشعراء من الأبيات التي يلقيها أحد الولاة موضوعاً لتشطيرها، وتخميسها، مثلما حصل

---

(١) جلال الحنفي، تاريخ الحياة الشعبية في بغداد، جريدة الأيام، ٥-٧-١٩١٢م.

(٢) عبدالله الجبوري، عبد القادر شنون العبادي، مجلة الأقلام، السنة الأولى، ج٢، تشرين الأول ١٩٦٤م، ص١٢٣.

(٣) بغدادي أصيل، تقاليد أهل بغداد وعاداتهم، جريدة الشرق العدد ٦٤، (٢ رجب ١٣٨٢هـ/ ٢٩ تشرين الثاني ١٩٦٢م).

(٤) يوسف عز الدين، الشعر العراقي، ص١٥٩.

عندما استطاع مدحت باشا من القضاء على ثورة الفرات الأوسط، فنظم بيتين من الشعر فصار البيتان حديث المجالس والأندية وأخذ الشعراء يتبارون في تشطيرها، وتخميسها[١]، كما هي عادتهم في مثل هذه المناسبات وغيرها من أحداث. وقد أتقن بعض الشعراء اللغة التركية لغرض إلقاء الشعر بهذه اللغة في مدح الولاة لفهمهم والحصول على الأموال. ونظم الشعر خلال هذه الحقبة لغرض تدوين المناسبات الاجتماعية كالزواج، أو ولادة أبناء الأسرة الثرية، أو تاريخ المخترعات الحديثة، ولم يخل نظم الشعر من الشكوى من الظلم الاجتماعي، والمعاناة التي يعانيها المجتمع، إلّا أننا نجد في الوقت الذي ينظم الشاعر نفسه قصيدة الشكوى نجده في قصيدة أخرى مادحاً الوالي، أو السلطان، أو أحد الموظفين للحصول على مبلغ من المال. وعلى العموم كثرت المساجلات والمناظرات والمناقضات الشعرية منها: مناقضات الشاعر الأخرس مع الشاعر الشيخ عمر رمضان الهيتي، فحدث بينهم من الهجاء ما حدث بين جرير والفرزدق[٢].

وفقد الشعر الأصالة والإبداع لخلق الدافع القومي ولم يتعد عن كونه تقليد، أو تخميس أو تشطير الأبيات التي كثرت خلال هذه الفترة. **ويعلّق يوسف عز الدين على ذلك بقوله**: «إذ فقد الشعر أهم عنصر من العناصر القومية للأدب الحي، فقد حرية التعبير عن خلجات النفس الإنسانية غارقاً في التقليد الأعمى...». إن التقليد والعناية بتوافه الأمور منعت الشاعر من إبراز ذاته فلم يعبر هذا الشاعر عن تجاربه الخاصة بشعره[٣]، ولم توجه المجالس الأدبية العناية الأولى والكبرى إلى المهم من التراث الفكري إلّا بقدر معلوم بين أفراد معدودين ولو أنها اتخذت مجالاً للمناقشة الفكرية، لكان لها أثر في توجيه الأفراد وتقدمهم، كما أن الثقافة المحدودة للمجتمع لم تكن تساعد

---

(١) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٢، ص٢٤٤.

(٢) إبراهيم الدوري، المصدر السابق، ص٤٤.

(٣) يوسف عز الدين، الشعر العراقي، ص١٦٠.

على يقظة الفكر القومي والنهضة العلمية[١]، وظلت مجالسهم الأدبية، والعلمية، والنقدية مقتصرة داخل حدود أروقة مجالسهم لذلك لم تكن عاملاً فعّالاً في النهضة الفكرية أو الأدبية، ومع هذا لا ننكر ما لها من تأثير هام في أبنائهم الذين ظهروا كفئة مجددة، **ويؤكد توفيق السويدي رئيس وزراء العراق في العهد الملكي ذلك بقوله كان لمجلس والدي أثر في تطوير أفكاري**[٢]، كما



توفيق السويدي
رئيس وزراء العراق في العهد الملكي.

ساهمت المجالس الأدبية التي تعقد في بيت جد جعفر أبو التمن حيث المطارحات الشعرية والمجادلات النحوية المنطقية في بلورة مواهبه وإمكاناته الثقافية[٣]، فقد تحولت مجالس القرن العشرين إلى أشبه ما تكون

(١) المصدر السابق، ص١٧١.

(٢) توفيق السويدي، مذكراتي - نصف قرن من تاريخ العراق - القضية العربية، بيروت، ١٩٦٩م، ص١٥.

(٣) عبد الرزاق الدراجي، المصدر السابق، ص٣٠.

بأندية فكرية أسهمت في تنوير الأبصار وتنبيه الأذهان، وأطلق على مجلس سليمان فائق اسم **(مدرسة الحرية في بغداد)** إذ تحولت داره إلى ملتقى للمثقفين، الذين كانوا ينادون بالحرية ويناقشون وجهات النظر دون خشية[١]، وخاصة بعد أن تحولت بغداد كما يذكر ناجي السويدي إلى منفى للمناوئين للسلطان عبد الحميد الثاني، وكانوا يلتقون في مجالسهم، ويتحدثون بحرية مادام ليس بعد النفي إلى بغداد نفي[٢]، وكان فهمي المدرس يتنقل بين المجالس المعروفة بميولها المعادية للنظام العثماني منتقداً الولاة والحكام في حضورهم[٣]. وكان الأخوة مراد وخالد سليمان يجتمعون مع الرصافي في داره الأولى ليناقشوا الأحرار في مقاومة الاستبداد[٤]، وكثيراً ما تدار مناقشات الإصلاح الاجتماعي، والسياسي في المجالس والتي كانت تعبيراً عن قنوط ويأس من حصول أي إصلاح في الدولة العثمانية. وتصدى المثقف في هذه المجالس لبعض ظواهر المجتمع بانتقاده العادات الاجتماعية البالية، وعللها في إطار تحركه الفكري خلال مطلع القرن العشرين.

كان للتجار، وأصحاب الحرف، وأعيان المدينة، وكل من يمتلك ثروة، وجاه، مجلس خاص. فهي تعبر عن الوجاهة، والمكانة الاجتماعية، وضمت مجالسهم أيضاً مختلف فئات المجتمع من رؤساء الدوائر، وعلماء، وشعراء، وأرباب وفقراء[٥]. وكان لبعض التجار علاقاتهم القبلية، وعلاقاتهم التجارية مع الدول الأخرى فيتردد على مجالسهم شيوخ القبائل وتجار الدول الأخرى إضافة إلى العناصر السابقة، مثل **مجالس آل المدلل، والحلاوي وآل الشاوي**[٦]. وقد اختصت هذه المجالس بالدرجة الأولى بمناقشة الأمور التجارية، والأمور المالية وفي بعض الأحيان مناقشة المسائل الشرعية، والدينية وتضمنت إلقاء

---

(١) (٢) مجلة الرابطة العربية، ج٧١، ١٣ تشرين الأول ١٩٣٧م، ص١٩.

(٣) منير بكر التكريتي، الكاتب الصحفي الأديب فهمي المدرس، بغداد، ١٩٧٩م، ص١٩.

(٤) جريدة الحارس، العدد ٦٨، ١١ آذار ١٩٥٤م.

(٥) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص١٨٩.

(٦) المصدر نفسه، ص٣٦٣.

القصائد الأدبية الشعرية للمدح والثناء، أو الذم. ويجري في هذه المجالس حل المنازعات والخصومات وفض المشكلات، والبعض منها اختصت فقط بالقضايا التجارية وخاصة المجالس اليهودية مثل **مجلس مناحييم دانيل**(١).

تميزت المجالس الخاصة بأنها كانت بمثابة دواوين **(ديوان خانة)**، تستقبل مختلف فئات المجتمع وتقدم المأوى، والطعام للزائرين دون أن يسألهم شيئاً إلّا بعد أيام معدودة إذ من العيب أن ينام المسافر الغريب في **(المسافر خانة)** وهي عادة قبلية موروثة. وكثيراً ما كانت هذه المجالس تكلف صاحبها مبالغ كبيرة من المال، وقد تضطرهم إلى الاستدانة للمحافظة على التقاليد وحب الظهور(٢).

كانت هذه المجالس مجالانهم التي يجتمعون فيها ويناقشون مشاكلهم التي لم تكن تتعدى في الأغلب شؤون حياتهم المحدودة(٣)، وكانت محفلاً لقضاء لياليهم، ومنبراً يتساجل فيه الشعراء. إلّا أنها لم توجه العناية إلى التراث الفكري بشكل خاص وقد يعود هذا إلى أنها ضمت أناساً غير متجانسين في الثقافة والعلم والمنزلة إضافة إلى انشغالهم بمناقشة أمور الحياة الصعبة(٤).

❷ المجالس العامة:

تعددت أنواع وأماكن المجالس العامة، فهناك مجالس الوعظ والمجالس الثقافية. كانت مجالس الوعظ أشبه بمدرسة شعبية أخذت على عاتقها تثقيف العامة. وكانت تنعقد في المساجد، والجوامع، والتكايا. إلّا أن المساجد كانت أبرز أماكن انعقادها، مما خلق علاقة مباشرة بين العلماء، والعامة. كان الواعظ يصدح من أعلى كرسيه بإلقاء الآية من القرآن الكريم، والحديث والتفسير،

(١) المصدر السابق، ص٢٣٨.

(٢) يوسف عز الدين، الشعر العراقي، ص١٧١.

(٣) المصدر نفسه، ص١٥٩.

(٤) المصدر نفسه، ص١٧١.

ويستشهد بالمسائل الأدبية ويورد في وعظه من النكات، واللطائف، والترهيب والترغيب الشيء الكثير لتخويف الناس من مخالفة أوامر الله (ﷻ) وتذكير الناس بالدين وتعاليمه.

كان للوعظ قدسية وحرمة، فيحضر له الولاة وكبار الموظفين. وحتى النساء كانت هناك مقصورة خاصة بهن لسماع الوعظ، فتمتلئ مجالس الوعظ بالناس وخاصة في شهر رمضان المبارك. وقد بلغ تأثير وعظ وبلاغة أبي الثناء الألوسي في مجلسه في الحضرة الكيلانية إعجاب الوالي علي رضا باشا، فعفا عنه وأعاد إليه جميع وظائفه(١) **ومن أشهر مجالس الوعظ: مجلس عبد الوهاب النائب في جامع مرجان(٢)، ومجلس سعيد النقشبندي في جامع الفضل، ومجلس مصطفى نور الدين في جامع الخفافين، ومجلس الملا مصطفى في جامع القبلانية(٣)، ومجلس الحاج حسن الهندي في الحضرة الكيلانية(٤) وغيرها من مجالس الوعظ. وهناك مجالس الوعظ التي تعقد في التكايا مثل مجلس إبراهيم الرفاعي الذي يقيمه بعد حلقات الذكر ليلة كل جمعة(٥).**

قدمت مجالس الوعظ خدمات جليلة للمسلمين من مختلف الفئات والطبقات، وكانت العامة إذا ما أعجبت بأحد الوعاظ فأنها تتعصب له، وتحضر مجالسه، وتقف إلى جانبه ضد الوعاظ والفقهاء الذين يخالفون الرأي في وعظه أو تفسيره. كانت المساجد والجوامع تزدهر بالناس وطلاب العلم لسماع الواعظ(٦).

---

(١) عباس العزاوي، ذكرى أبي الثناء الألوسي، ص٢٧-٢٨؛ إبراهيم حلمي، أسرة الألوسي، مجلة لغة العرب، ج٣، السنة ٣، ١٩١٣م، ص٧٠.

(٢) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٥٢.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٧٨.

(٤) المصدر نفسه، ص٤٣.

(٥) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٤٨.

(٦) المصدر نفسه، ص٣٧٧-٣٧٨.

ولم يقتصر الأمر على مجالس الجوامع والمساجد، بل كان هناك مجالس تعقد في المقاهي التي كانت مراكز تجمع وتفاعل شعبية ترفيهية ضمت مجالس كانت بمثابة منتديات أدبية، علمية، وتجارية لكثرة مرتاديها من **الأدباء، والعلماء، والتجار، وأرباب الحرف والصيارفة.** فكان للشاعرين **(جميل صدقي الزهاوي، ومعروف الرصافي)** مجلسان يحفلان بأهل العلم، والأدب يقام أحدهما في **مقهى الشط، أو المصبغة**، والآخر يقام عصر كل يوم



مقهى الشط على نهر دجلة كان ملتقى الشعراء والأدباء وخصوصاً الزهاوي والرصافي.

في مقهى حميد الرشيد في الباب الشرقي، وكان من المترددين على مجلسهما الصحفي المعروف إبراهيم صالح شكر، وعبد الرحمن البناء، وغيرهم من الأدباء، والعلماء. وقد حفظ الناس لروادها من الأخبار والظرائف واللطائف الكثير. وقد تم فيها أيضاً مناقشة مختلف المواضيع من علم، وأدب، ومساجلات شعرية[1]، كما تميزت مجالسهم بالمواقف الانتقادية للعادات

---

(١) المصدر السابق، ص١١٠-٢٠٤؛ صفاء الحيدري، مجالس بغداد القديمة، مجلة المجلة، العدد ٢٠، السنة الثانية، أغسطس ١٩٥٨م.

الاجتماعية البالية، والتعرض للمواضيع، والتطورات الحديثة في أوروبا وإعطاء التفسيرات العلمية المناسبة[١] بدأ المثقف يدرك أهمية مراكز التجمع الشعبية التي يمكن من خلالها تحريك أذهان الناس، وإثارة مشاعرهم من خلال مقارناتهم بين ماضي العراق التليد، وحاضره المتداعي، والموقف الانتقادي للإدارة الذي لا يخلو من قدرة من الجرأة وقدر أكبر من التهكم. وبدأ المثقف يخاطب عقول العوام من خلال الندوات التي يقيمها في بعض المقاهي الشعبية حتى لا تبقى الأفكار والوضع المعاصر الجديد حبيس جدران المجالس الخاصة، وإنما يجب أن يتعرف عليها مختلف فئات المجتمع وازدادت هذه المجالس من أطروحاتها بعد قيام الثورة الدستورية[٢] ولم تكن هذه المجالس تخلو من أوقات المرح إذ كانوا يلعبون [الشطرنج والمنقلة][٣] وفي ليالي الشتاء يقام فيها الجالغي البغدادي[٤].

وهناك مجالس أقيمت في أماكن عامة ليجمع صاحبها بين عمله وعلمه، أو لغرض إفادة الجميع منه ولكي يسمح لأكثر الناس ارتيادها، والاستفادة منها، مثل مجلس الشيخ عبد الرحمن الزمير الذي كان من حملة العلم إلّا أنه يمتهن القزازة. وكان لمحله ميزة خاصة عن غيرها من المحال إذ كان أشبه بمحل علمي يجمع فيه العلماء والأدباء[٥] ومجلس الأب أنستاس الكرملي الذي كان يعقد مجلسه في دير الآباء الكرمليين في محلة سوق الغزل إذ يتردد عليها الأدباء، والعلماء، وكبار الموظفين من مختلف القوميات والأديان وكان مجلسه يعتبر أكبر مدرسة علمية، أدبية، لغوية،

---

(١) كمال مظهر أحمد، أضواء على قضايا الشرق، ص٢٧٣.

(٢) عبد الرزاق النصيري، المصدر السابق، ص١٧٠.

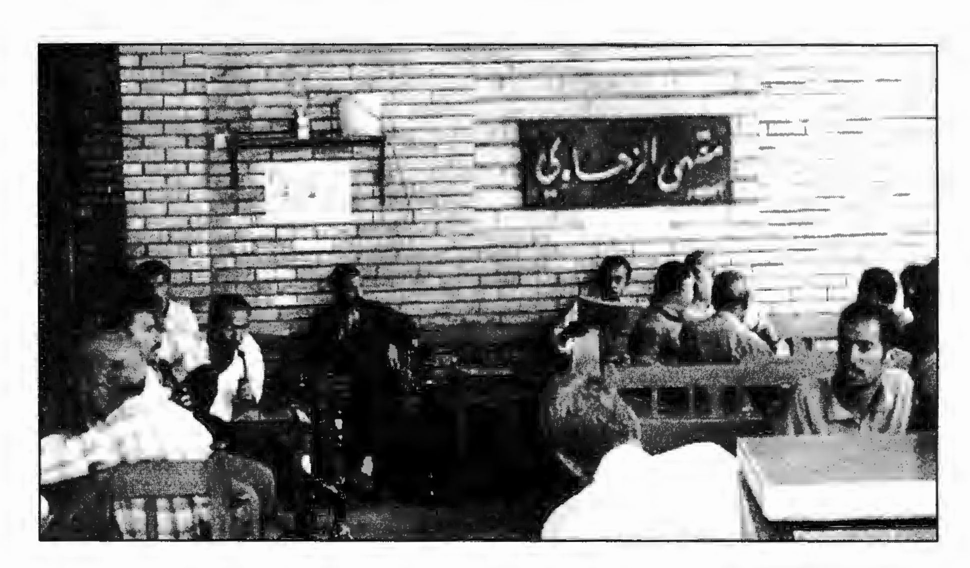
(٣) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٢٣٩.

(٤) الجالغي: لفظة تركية تفيد معنى العازف أي الملاهي كالعود ونحوه تضرب معاً على غناء المغنين.

(٥) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٢٠٠.

تاريخية وقد سمي بمجلس الجمعة[١].

لقد كان للمجالس العامة والخاصة أثر على فئات المجتمع، فقد كان مكاناً للحفاظ على الأدب، واللغة، ولحل مشاكلهم العلمية، والدينية، والتعرف على القضايا والشؤون التي تهم المدينة. وبحث المشكلات الاجتماعية وإيجاد الحلول الناجحة لها. وظلت هذه المجالس تعقد ويفد عليها العلماء، بحيث صارت تقليداً يمارسه الكثير من الأدباء والعلماء. ومع أن المجالس كانت في الغالب مجالس علمية، أو أدبية لكنها كانت تخضع لرقابة شديدة من قبل السلطات العثمانية التي كانت تخشى أن تتحول إلى أماكن مفتوحة لانتقادها، إلّا أننا نجد أن قسماً منها خاصة المجالس التي كانت تعقد في المقاهي في مطلع القرن العشرين لم تتردد في انتقادها السلطة وسياستها السيئة فتحولت إلى منبر لانتقاد الحكومة.



مقهى الزهاوي.

(١) المصدر السابق، ص٢٣٤.

المظاهر الفنية

شاعت بعض المظاهر الفنية في المجتمع البغدادي، إلّا أنها لم تكن باتجاه حركة فنية مستقرة واضحة المعالم، وإنما هي متخفية بين ثنايا المجتمع، نابعة من تقاليدهم وعاداتهم وشعائرهم الدينية، تمارس للترويح عن النفس سواء كان فرحاً أو حزناً ولقضاء الوقت. **كمجالس الأنس والطرب الخاصة والعامة، ومجالس المقاهي** وما يؤديه القصه خون وخيال الظل، والإخباري من مشاهد تمثيلية، إضافة إلى **المواليد والأذكار والمراسيم وشعائر الأديان المتجانسة في رحاب المدينة.** لقد كانت جميعها بمثابة حزمة ضوء أضاءت الدرب الموصل إلى الحركة المسرحية التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى.

❶ مجالس الأنس والطرب:

تقام مجالس الأنس والطرب استجابة للتمتع بمباهج الحياة، ولذاتها، ومن أجل التنفيس عن الآلام السياسية، والاجتماعية أو قتلاً للفراغ، وعلى شواطئ دجلة خارج أسوار بغداد حيث البساتين والمزارع[1]، أو الكاورية[2]، كان العامة والخاصة يلهون، ولكل جماعة مجلس خاص بها يتفق وقدراتها المادية، وتبدأ جلساتهم عصر كل يوم حتى وقت العشاء وبعض الأحيان تستمر إلى شروق الشمس. وغدت الخمرة ومجالس اللذة خير أداة لإضاعة الوقت وأجملها يكون مع الأصدقاء الذين انصرفوا إلى ملذاتهم الجسدية فيختارون لمجالسهم الشراب وخير الندماء، وأجمل الغلمان[3]، مع أن

---

(١) من أشهر البساتين التي عرفها البغداديون بستان الحسن في البتاويين ومزرعة الباقلاء في الغرب من الباب الوسطاني ومزارع الأعظمية وحقول الأذرة بالقرب من الكرنتية وبستان الصالحية في الكرخ ومرابع الجادرية.

(٢) يونس سعيد، بغداد أيام زمان، فرندل، ٤-٦-١٩٥٨م.

(٣) يوسف عز الدين، الشعر العراقي، ص١٦٤.

الحكومة تمنع التظاهر بشرب الخمرة، حتى إن عدد الخمارات لم يكن يتجاوز عدد أصابع اليد،[١] إلّا أن ذلك لا يعني خلو المجتمع البغدادي ممن يتعاطون شرب الخمر خصوصاً المحتكين بالمحلات اليهودية، أو النصرانية[٢]، والذين تعودوا على الخمرة (**السرمهر**) يشربون إما في المايخانات[٣] أو في مجالسهم التي يقيمونها خارج أسوار بغداد بعيداً عن المجتمع[٤]. ولا تخلو المجالس من غناء المقام العراقي فكثيراً ما كان **أحمد زيدان** يجلس مع أصدقائه في مزارع



القارئ أحمد زيدان.

---

(١) كان النصارى واليهود يقطرون الكحول في بيوتهم ويبيعونها إلى الناس فعرف أكثر من بيت في محلتي أبي سيفين وسوق الغزل إلّا أن تقلص عددها بعد فتح معامل التقطير المجاز. وكان القانون العثماني سمح لأهل الذمة بالمتاجرة بالخمور ورعاياها أحرار في تقطير الكحول ببيوتهم أو بساتينهم على أن يدفع من يريد ذلك الرسم الذي لا يزيد على الربع مجيدي ومن أشهر من عرف البغداديون ببيع الخمر السرمهر، أبو نعيم عبدالله ما شالله وحنا كنو ومايخانة حبي.

(٢) يونس سعيد، بغداد أيام زمان، قرندل، ٤-٦-١٩٥٨م.

(٣) المايخانات، عبارة عن مواخير مظلمة لا يدخلها شمس ولا هواء.

(٤) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص١١٧.

الأعظمية يغني ليستمتع بصوته الجلساء. ويذهب البعض منهم بعد رجوعهم إلى أحد المقاهي التي تقدم الجالغي البغدادي.

وكان لمجالس الكاولية نصيب في مجالس الأنس والطرب، ناصبة خيامها في ضواحي بغداد في مواسم معينة، معلنة عن وصولها بقطعها طرق وأسواق بغداد، فيخرج عشاق الطرب واللّهو في طلبها بعد غروب الشمس، مستصحبين معهم الخمرة، ويبدأ الرقص والغناء وتستمر حتى شروق الشمس(١).

وقد كانت قصور الخاصة ومتنزهاتهم عامرة بمجالس اللهو، والشراب، والأنس فيفتحون دواوينهم للسمر. وفي هذه المجالس تدار زيادة على مسببات المتعة الأحاديث الأدبية والمسامرات الطريفة، كما تقام حفلات الجالغي البغدادي(٢) مثل مجلس محمد صالح كبة في قصره على دجلة فيلتقي فيه الشعراء والأدباء للتمتع واللهو ويختار الندمان من أجمل الغلمان والنساء لمجلسه فيقضون وقتهم بعيدين عن المجتمع(٣) **وقد وصف الكثير من الشعراء مجالس لذاتهم متفاخرين مثل عبد الغفار الأخرس بقوله:**

أعندك علم بأن الهموم — على خاطر المرء مثل الجرب
ولا من دواء لأدوائها — ولا برء منها كنبت العنب
وحشر مع الغانيات الحسان — إذ حشر المرء مع من أحب
وأني فقير إلى قهوة — وما لي فيها مثل ذوب الذهب(٤)

وغيرها من القصائد التي نجد فيها وصفاً كاملاً لما يجري خلال

---

(١) بغدادي أصيل، من تقاليد أهل بغداد وعاداتهم، الشرق، العدد ٦٥٣، (١٣ رجب ١٣٨٢هـ/ ١٠ كانون الأول ١٩٦٢م).

(٢) جلال الحنفي، المغنون البغداديون، ص٢٣.

(٣) يوسف عز الدين، المصدر السابق، ص١١٢.

(٤) المصدر نفسه، ص١٦٦.

المجالس، والبعض منهم يقيم مجالس الطرب خاصة لقدوم راقصة، وعندما كانت الراقصة طيرة تتردد على بغداد وكانت مجالس الطرب تعقد في البيوت أحياناً[(١)].

كما كان لبعض المقاهي مجالس للطرب، إذ تعزف بها فرق الجالغي البغدادي المكوّنة من **القارئ (المغني)، وعازف على الكمان، وعازف على السنطور، وضارب الدف، وضارب الدنبك.** كان غنائهم على أسس مدروسة تلقوها عن طريق التدريس الشفوي المستمر وحفظ ألحان، **فغنى المغنون المقام العراقي المقسم إلى خمسة فصول، ومقام البهرزاوي، والبستات البغدادية القديمة بصوت رخيم جميل يأخذ بمجامع القلوب. ومن أشهر**



آلات الجالغي البغدادي التقليدية.

(١) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص١٠٧.

المغنين الملا عثمان الموصلي، وشلتاغ أبو حميد، وأحمد زيدان، وساسون عزوز، وابن شيخ البلل، وحسقيل، وسيد جميل، ومجيد كركر، وحسون مصطفى، وغيرهم. يقدمون غناءهم في المقاهي التي عرفت بعرضها الجالغي البغدادي في **مقهى سبع في الميدان، ومقهى المميز في رأس الجسر**[١]، **ومقهى القصرية**[٢]، **ومقهى الشابندر**[٣]، وفي بعض الأحيان تقام حفلات الجالغي البغدادي في البيوت الخاصة، وتدار فيها كؤوس الخمر، ما عدا ليالي رمضان التي تقام فيها حفلات الجالغي البغدادي إذ لا تكون الخمرة جزءاً منها[٤]. ولم يقتصر الجالغي على حفلات المقاهي الخاصة بل كان يقام في حفلات العرس، والختان، أو للاحتفال بالأعياد، والكسلات الخاصة بعيد الربيع وأهمها **(الهلّاي)**، الخاص بسلمان باك التي تنطلق من محلة باب الشيخ[٥].

لقد كانت محلة باب الشيخ منبع القراء والمغنيين، إذ أتاحت المواليد، والأذكار، والتمجيد على المنابر وما يتخللها من قراءة المقام العراقي على طريقتهم فرصة غير قليلة للمغنين[٦] الذين صدحت أصواتهم في سماء بغداد بمختلف الأنغام والمقامات[٧].

لم تقتصر مجالس الغناء على الرجال بل كان في اجتماع النساء عند زيارتهن لبعضهن في معظم الأحيان ما يتخلله من إقامة حفلات الرقص

---

(١) المصدر السابق، ص١٠٨.

(٢) كمال لطيف سالم، أعلام المقام العراقي ورواده، بغداد، ١٩٨٥م، ص٢٩.

(٣) عبد الوهاب بلال، من أعلام القام العراقي «رشيد القندرجي»، منشورات أمانة العاصمة، العدد ١٦، ١٩٧٨م، ص٥٣.

(٤) جلال الحنفي، المغنون البغداديون، ص٢٣.

(٥) كمال لطيف سالم، المصدر السابق، ص٩٥.

(٦) المصدر نفسه، ص١٩.

(٧) جلال الحنفي، المغنون البغداديون، ص٣٢.



ما أحلى ليالي الأنس والطرب التي كانت في بغداد يومذاك على نهر دجلة بواسطة القوارب.



والغناء، بالاستعانة بالمغنيات والراقصات اللواتي يعرفن **(بالموالي وجوق الدقاقات)** فتتعالى أصوات الرقص والغناء والتصفيق فيما بينهن إلّا أنها كانت داخل البيوت وعلى نطاق ضيق[(١)].

❷ التمثيل:

شهدت الكثير من المقاهي مجالس القصاص التي يرجع وجودها إلى أيام العرب في الجاهلية، كانت مادة قصصهم أيام العرب وأخبار الأمم المجاورة، ازدهرت في العصر العباسي الأول، إذ كان القصاص يتصدر مجالس الخاصة والعامة[(٢)]. فكانت مجالس القصاص تراثاً شعبياً عربياً أصيلاً ورثه البغداديون وعرف عندهم **(بالقصة خون)** الذي كان يعقد على رأسه چراوية يتعمد أن يجعلها لفتين أو ثلاثة تشبيهاً **(بالشقاوة)**[(٣)]. يقص على سامعيه من كتابه الذي بيده جالساً على مكان مرتفع بصوته الجهوري الرنان، بعد البسملة والصلاة والسلام على النبي الكريم، وآل بيته، حروب عز، أو مخاطر سيف بن ذي يزن، أو وقائع أبي زيد الهلالي، ينتقل بهم إلى عصور أولئك الأبطال، يصاحب ذلك ما يقوم به القصاص من حركات مختلفة لجذب انتباه المشاهدين، فيأخذ الحماس منه كل مأخذ وهم في هذه النشوة من الحماس، وإذا بالبطل يقع أسيراً بأيدي الأعداء، فيصلي القصة خون على النبي ويستأذنهم بالوقوف عند هذا الحد ليعود بهم في الليلة الثانية، ويقص عليهم مصير البطل، وكيف تخلص من الأسر وانتصر في المعركة، وكان القاص يأخذ بألباب الناس بنكاته، ولباقته، وتفننه، وبلغ من تأثير أولئك القصاص على مسامعهم أنه أخذت الحماسة بشقي من أشقياء بغداد لمعرفة نهاية القصة فاعترض القاص في

---

(١) جيمس بيلي فريزر، المصدر السابق، ص١٤٥.

(٢) ميخائيل عواد، صور مشرقة من حضارة بغداد في أواخر العصر العباسي، بيروت، ١٩٨١م، ص٨٩.

(٣) أبو الأسود، البغداديون قديماً والقصة خون في حياة بغداد، جريدة العهد الجديد، العدد ١٥، ٤-١-١٩٦١م.

طريقه إلى بيته مهدداً إياه بالقتل إذا لم يكمل له القصة ومحذراً بأن ينتصر البطل. وفعلاً وقف القاص وفتح كتابه وأكمل القصة كما يريد الشقي[١].

وكان لهذه المجالس تأثير على العامة، لأنها تذكر بماضي العرب وأمجادهم وتراثهم فتعطي معلومات تاريخية عن بطولات العرب، وكرامتهم في العصور السابقة بأسلوب قصصي قريب من مستوى إدراك العامة، رغم أن القصص خيالية إلّا أنها كانت مستوحاة من واقع طبيعة الحياة العربية. فكلام القاص يجري على حسب ميول العامة ويرضي طموحهم، ولذلك كانت حكايات القصاص السهلة المسلية أشد استهواء للعامة وخصوصاً كانوا لا يتحرجون من اتخاذ أي وسيلة لجذب العامة إليهم. وكثيراً ما كان العامة يحضرون مجالس القصة خون ويترقبون وصوله لإكماله القصة السابقة، أو ابتداء قصة جديدة، لقضاء وقت فراغهم والاستمتاع بالقصص دفعاً لسأم الحياة الرتيبة، وإذا سأموا الجلوس في مقاهي الغناء، ذهبوا إلى المقاهي المخصصة للقصه خونة التي كانت معروفة في كل محلة. وعرفت بعض المقاهي بعرض ما يسمى خيال الظل **(قره قوز)** الذي يقدم مشاهد مسرحية يتخللها مشاهد من الهزل والفكاهة ليتمتع الجالس، تعرض عن طريق عرائس من الجلد أو الورق وتوضع خلف ستائر بيضاء خلفها مصباح بحيث يعكس خلالها على الستارة ليراها الناظر من الوجه الآخر، وبتلك العرائس ثقوب ومفصلات تجعلها سهلة الحركة، فتحرك تلك العرائس مقدم التمثيليات حسب الحوار الدائر في القصة[٢]. والبعض يقدم عروضاً مسرحية هزلية تقوم بأدوارها شخصيات فكاهية يعرفون بـ**(أخباري)** عرضت في مقهى التبانة، ومقهى الشط ليلاً من قبل أبي الحجامة، وزميله منصور بتقديمهم تمثيليات هزلية لا

(١) المصدر السابق.

(٢) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص٥٩؛ محمد رؤوف الشيخلي، المصدر السابق، ص١٠٤.

تخلو من النكات المضحكة على جمهرة الجالسين[١]. وفي بعض الأحيان تتجاوز العروض الحدود العامة للأدب[٢]. وكان هناك بعض الهواة يقومون بتمثيل بعض الأدوار الهزلية في الأفراح أي في ليالي الحنة والأعراس، والختان، وغيرها من المناسبات الاجتماعية. بعد ذلك أنشئت فرقة تمثيلية منظمة مكونة من الرجال والنساء تقوم بعرض أدوارها المسرحية بعد انتهاء عرض الرقص في الملاهي، مثل فرقة **(جعفر آغا لقلق زادة)**[٣]. ولا يقتصر التمثيل على الهزل والفكاهة فقط بل يتخذ التمثيل لإثارة الحزن والبكاء، والتذكير بأحداث تاريخية مؤلمة مثل واقعة الطف في كربلاء على شكل مشاهد تمثيلية في اليوم العاشر من شهر محرم لإثارة الحزن والبكاء والعبرة لشد المتفرجين[٤].

ولم يقتصر التمثيل على الموروثات القديمة، بل شهد ولادة حركة مسرحية جديدة، نالت اهتمام الأوساط المثقفة، تولتها المدارس المسيحية وطلبتها، وخاصة بعد إعلان الدستور العثماني، وكان ظهور التمثيل في بغداد، واتجاهه إلى السياسة بتقديم تمثيلية عن مدحت باشا دليل على استبشارهم بالعهد الجديد، ولشعورهم بنوع من الحرية، وانغمارهم بجو جديد لم يعرفوه من قبل[٥]. وكانت مدرسة الكلدان مركز هذا النشاط الفني الجديد ومن أبرز أعمالهم تقديم مسرحية سلسترا التي سموها **(الوطن)** على مسرح مدرستهم **وقد أعلنت جريدة الرقيب ذلك بقولها: «جرى الاحتفال ليلة**

---

(١) محمد رؤوف الشيخلي، المصدر السابق، ص١٠٣.

(٢) لغة العرب، السنة ٣، ج٨، (ربيع الأول ١٣٣٢هـ/ شباط ١٩١٤م)، ص٤٤٢.

(٣) بغدادي أصيل من تقاليد أهل بغداد وعاداتهم وتقاليدهم، الشرق، العدد ٦٥٤، (١٤ رجب ١٣٨٢هـ/ ١١ كانون الأول ١٩٦٢م).

(٤) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٢٥٦.

(٥) علي الزبيدي، المسرحية العربية في العراق في العهد العثماني، مجلة الأقلام، السنة الأولى، ج٩، مايس ١٩٦٥م، ص٥٠.

الأربعاء تشخيص رواية الوطن (سلسترا) في كنيسة الكلدان وكان باهراً فوق العادة»[1]، ثم أعقبها مدرسة السريان الكاثوليك التي قدمت رواية شهيد الدستور مدحت باشا، وهي تمثل مقتل أبي الأحرار مدحت باشا وصورة انقلاب الحكومة بإعلان الدستور، وتخللها تمثيل هزلي باللغة الفرنسية وأغاني على آلات الطرب الشرقي وقدمتها بعرضين أحدهما خاص بالرجال، والآخر خاص بالنساء، وبلغت قيمة الدخول في الدرجة الأولى مجيدتين، وفي الثانية مجيدي واحد، وقد دعت جريدة الرقيب جميع المثقفين إلى مساعدة هذا التشخيص لمنفعة المكتب السرياني البغدادي[2]، مما يدل على نشاط المدارس المسيحية في تقديم المسرحيات للجمهور، واهتمام الأوساط المسيحية المثقفة بهذه الحركة الفنية الجديدة وكان البغداديون يشاهدون الصور الثانية من خلال



أول عرض سينمائي كان سنة ١٩٠٩م في بستان (أم الواويه) الرصافة - بغداد.

(١) الرقيب، العدد ٢٠، ١٥ رمضان ١٣٢٧هـ.

(٢) الرقيب، العدد ٤٥، ٢٧ ربيع الأول ١٣٢٧هـ.

العدسات وهي أشبه ما يكون (**بصندوق الدنيا**)[١] في الميدان. ثم دخلت السينما الصامتة حينما افتتحت أول دار للسينما، وهي سينما (**بلوكسي**)[٢] وفي ٢٦ تموز ١٩٠٩م قدم أول عرض للصور المتحركة الصامتة في بغداد، وكان الإقبال على السينما كبيراً، بحيث فاق إقبالهم على منتديات اللهو، وقيل إنها كانت خير مكان لسلب أجور العمال[٣]، فقد حدد رسم الدخول في الصفوف الأخيرة بثمانية قروش صاغ، والصفوف الأمامية بأربعة قروش صاغ. وفي كل أسبوع يتم تغيير العرض، **ومن الأفلام التي عرضت هي «صيد الفهد، الرجل الصناعي، بحر هائج، التفتيش عن اللؤلؤة السوداء، طيور مفترسة، تشيع إدوارد السابع»**[٤].

٣ الملاهي:

لم تظهر الملاهي في بغداد إلّا في مطلع القرن العشرين، عندما حول أول مقهى (**مقهى سبع**)، إلى ملهى في ساحة الميدان، ولم يكن الملهى على ما هو متعارف عليه من تقديم الرقصات، واستعراضات غنائية، وإنما كان يقتصر على تقديم الجالغي البغدادي، مع وجود بعض الغلمان يرتدون ملابس نسائية لتقديم فقرات الرقص، والتمثيل لتسلية المشاهدين[٥] وعرفت بـ(**التياترو**)[٦]. ولكنه بعد إعلان الثورة الدستورية سنة ١٩٠٨م سمح لأهل الذمة بفتح دور

---

(١) نبيل بدران، صفحات من تاريخ السينما العراقية، آفاق عربية، العدد ٦، شباط ١٩٨٢م، ص٧٧.

(٢) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٢٥٥.

(٣) نبيل بدران، المصدر السابق، ص٧٧-٧٨.

(٤) صدى بابل، العدد ٩٨، (٩ رمضان ١٣٢٩هـ/ ١٣ أيلول ١٩١١م)؛ العدد ٢٣٩، (٢١ جمادى الآخر ١٢٣٢هـ/ ٧ أيار ١٩١٤م).

(٥) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص١٢١؛ محمد رؤوف الشيخلي، المصدر السابق، ص١٠٥.

(٦) التياترو كلمة فرنسية تعني المسرح.

اللهو **(حانات الخمر)**[١] فبدأت موجة جديدة من تحويل المقاهي إلى ملاهي وجلبت الراقصات من مصر وسوريا[٢] **وكان ملهى بنت السواس أول ملهى شهد الراقصات**[٣] وقد لاقت منتديات اللهو إقبالاً كبيراً من الشباب، إذ كانت قهوة الشط التي حولت إلى ملهى تستوعب ما يزيد عن (٧٠٠) مقعد تحجز يومياً، والبعض يدفع رسوم الدخول دون وجود مقعد أو مكان يجلس فيه[٤].



ملهى (نزهة البدور) من أقدم الملاهي في بغداد.

وغدت أغلب المقاهي في الميدان، والسوق المتفرع منه موئلاً لتلك الراقصات الأمر الذي دفع **عبد الرحمن البناء أن يقول: إن المدارس تبدلت بالملاهي**[٥] وقد حصلت الراقصات على أموال كثيرة مما دفع بالعديد من الراقصات أن يفدن من مصر، وبلاد الشام إلى بغداد لكسب

---

(١) فيصل الأرحيم، المصدر السابق، ص٢٣٩.

(٢) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٢٥٤.

(٣) بغدادي أصيل، تقاليد أهل بغداد وعاداتهم، الشرق، العدد ٦٥٣؛ (١٣ رجب ١٣٨٢هـ/ ١٠ كانون الأول ١٩٦٢م).

(٤) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٢٥٤.

(٥) الرقيب العدد ٥٦٠، (٢٩ رمضان ١٣٢٧هـ/ ١٤ تشرين الأول ١٩٠٩م).

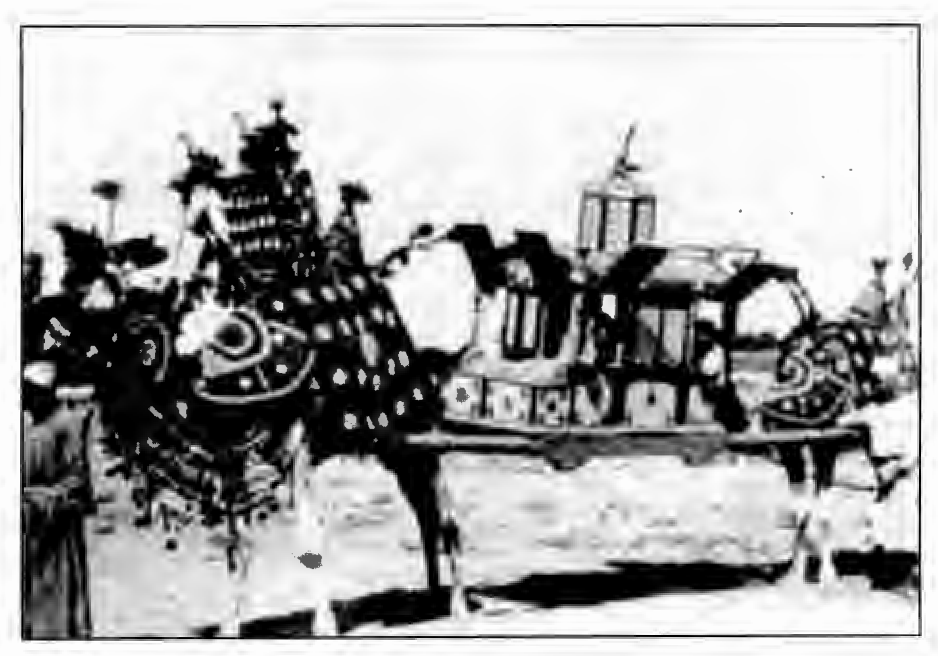
المال[١]. وكثيراً ما أدت هذه الظاهرة الجديدة إلى مشاكل ونكبات فجعت فيها عوائل كثيرة ذهب ضحيتها نفوس عديدة[٢] **ويعلق الدكتور علي الوردي على ذلك بقوله:** «عرفت كيف تصطاد الزبائن إذ هي لا تكاد تغمز بعينها لأحد منهم حتى يفقد أعصابه ويبذل كل ما في جيبه من المال، وربما اضطر في اليوم التالي إلى بيع داره أو آثاث بيته»[٣].

لقد كانت الملاهي التي تختص بعرض استعراضات الغناء والتمثيل فقط وكانت تخلو من أي مشروبات روحية أو مأكولات، إلّا أن البعض يذهب إلى المايخانات ليشرب ثم يعود بعد ذلك إلى الملهى وكان **(بار ماشا)** اليهودي أشهر بار في بغداد[٤] وفي سنة ١٩١٣م بني مسرح حديث للرقص، والغناء خارج أسوار الرصافة من قبل بلدية بغداد واستمر بعمله حتى قيام الحرب العالمية الأولى إذ تقلص عدد الملاهي في فترة ما قبل الاحتلال البريطاني لبغداد بصورة عامة[٥].

٤ المناسبات والاحتفالات الأسرية:

تعد حفلات الأعراس، والختان، وغيرها من المناسبات خاصة، إحدى المظاهر الفنية، لما يتخللها من غناء، ورقص، وتمثيل، وأهازيج شعبية. إذ كانت الأعراس وما تمر به من مراحل الأفراح وما يصاحب كل مرحلة من عزف الفرق الموسيقية من الخطبة، ثم النيشان، ثم نقل ما يخص العروس إلى بيت زوجها[٦]، ثم الحنة[٧]، وآخرها موكب العرس الذي كان مظهراً رائعاً

(١) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٢٤.
(٢) فيصل الأرحيم، المصدر السابق، ص٢٣٩.
(٣) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٢٥٤.
(٤) (٥) بغدادي أصيل، من تقاليد أهل بغداد وعاداتهم، الشرق العدد ٦٥٣، (١٣ رجب ١٣٨٢هـ/ كانون الأول ١٩٦٢م).
(٦) بعد تقرير المهر تبدأ أم العروسة بشراء جهاز العروس، تذهب إلى سوق البزازين مع =



محملُ العروس قديماً.



حنة العروس.

يشارك فيه جميع أبناء المحلة والمعارف، والأصدقاء، وهو من المواكب الليلية المهيبة حقاً. مبتدأ من المسجد أو الكنيسة أو الكنس بعد تأدية الشعائر الدينية، يتقدمهم حاملو المشاعل النفطية لتنير ظلام الأزقة، ثم قارعو الطبول، والزمارون، والمبارزون من أبنائهم يلعبون أمام الموكب بالعصي، والسيوف، ويسير العريس بعد ذلك يحف به الشبان، وهم يغنون، ويرقصون يتقدمهم **(الأوكي باشي)** أي زعيم الشباب حاملاً شمعة طولها متر واحد، يطلق الأهازيج فيرددها جميع الشبان بعده. ويتبعهم الناس، وفي يد كل منهم شمعة ثم خدم المدعوين، وعبيدهم بيضاً وسوداً يسيرون أزواجاً حاملين فوانيس. وكلما مر الموكب بدار أحد الأصدقاء وقف الجميع لتحيته وإكرامه بأهزوجة تذكر اسمه فيجيب عليهم بالشكر، ويرش عليهم ماء الورد وإطلاق الهلاهل، والزغاريد التي تملأ عنان السماء[(١)]. «**وإذا مرّ الموكب على المقاهي يسارع**

= الخياطة لشراء الملابس ثم سوق الصفافير لشراء الأواني ثم سوق الهرج لشراء المفروشات ثم الذهاب إلى سوق الصاغة لشراء أقداح الشاي الفضة ومعالقها، وإذا كانت العائلة ثرية تشتري بعض أدوات الزينة ثم بعد ذلك تشتري الصندوق الهندي لتحفظ فيه الملابس ويوضع هذا الجهاز في بيت أهل العروسة إلى اليوم المقرر لنقله والذي يكون قبل يوم الزفاف بيومين؛ Habib Chiha, op., cit., p:193.

(٧) يتوجب على الزوج قبل يوم الزفاف وتبعاً للتقاليد المحلية معرفة عدد النسوة الموجودات في بيت الزوجة ويرسل إلى كل واحدة هدية، والحلويات مع عدد كافٍ من المناديل التي تعمل كأكياس عند توزيع الملبس على الضيوف والمدعوين ثم يحرص المبعوث إلى بيت العروسة على مظاهر الأبهة ويتم ذلك وفقاً لما يسمح به وضع الزوج، يذهب عدد من الأشخاص يحملون على رؤوسهم هدايا الخطيب إلى خطيبته في سلاسل مغطاة بقطع قماش من الشال والحرير تتقدمها فرقة موسيقية ويتبعا النساء اللواتي يطلقن بين الحين والآخر صيحات الفرح والسرور؛
Habib Chiha, op., cit., p:185.

(١) مير بصري، صفحات طريفة من رحلة نيجهولت، جريدة البلد، العدد ٨١، ٣٠ كانون الثاني ١٩٦٧م؛ Habib Chiha, op., cit., p:186-187.



الزفة.



(الكَهوة دار) لكسر إبريق من الفخار تحت قدمي العريس إعلاناً لطرد الشر، فيبادر العريس بإعطائه شيئاً من المال»[١].

أما موكب العروس فيخرج في المساء، تتقدمه فرقة موسيقية، ثم وجهاء الموفدين من قبل العريس، ثم يأتي دور العروس لتتهادى في مشيها، وقد غطت من رأسها إلى أخمص قدميها بالأردية والأقنعة البيضاء دلالة على العفة، ولا يرافقها أحد من أهلها سوى القابلة وبعض عماتها، وجداتها العجائز. ومع تقدم الأيام أخذ موكب العريس يمر بدار العروس لزفتها، حيث ينظم الموكب عوداً على بدء زفاف العروسين إلى دارهما، ويسير الجميع على نظامهم في المجيء ما عدا أن يتبعهم موكب العروس ثم يمضي موكب العريس إلى المسجد أو الكنيسة، أو الكنس لأداء الشعائر والمراسيم الدينية، وبعد الانتهاء من ذلك يذهب الجميع إلى دار العريس حيث يستقبل من قبل الشبان، وهم يحملون المجامر التي يحرق فيها الطيب والبخور والعنبر ويحملون القماقم لرش ماء الورد والعطور[٢]. وكان الوجهاء والموسورون يزفون أولادهم على ظهور الخيل، ويعكرون هدوء الفضاء بإطلاقاتهم النارية التي تطلق بهذه المناسبة[٣]. ولليهود أغانيهم الخاصة في هذه المناسبة ويرافق أعراسهم فرقة تعرف بـ**(جوق الدقاقات)** للغناء في حفلاتهم[٤]. وقد كان لحفلة الختان سواء الاعتيادية أو أم السلاح الوقع نفسه من إضفاء الفرح والسرور على الناس، فالطفل الذي يختتن يقام له ليلة طرب وفرح، وتبدأ من الصباح فبعد عودته من الحمام مع الأطفال تقام له زفة، إذ يركب الطفل على حصان مزين بأزهى الحلي ومن حوله الخيول، وعليها الذين يلعبون بالسيوف ويطلقون من بنادقهم الرصاص تتقدمهم الطبول

---

(١) يونس سعيد، البغداديون في أعراسهم قديماً، فرندل، ١٧-٣-١٩٥٣م.

(٢) مير بصري، صفحات طريفة من رحلة الرحالة نيجهولت، العدد ١٨١، ٣٠ كانون الثاني ١٩٦٧م؛ Habib Chiha, op., cit., p:187.

(٣) يونس سعيد، البغداديون في أعراسهم قديماً، فرندل، ١٧-٣-١٩٥٣م؛ لغة العرب، السنة ٣، ج٥، (ذي الحجة ١٣٣١هـ/ تشرين الثاني ١٩١٣م)، ص٢٧٧.

(٤) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص١٣٠.

والمزامير عازفين أحلى الألحان التي تنشر الفرح والسرور بين الناس، وبعد جولة غير قصيرة في المحلات والأسواق يعاد الطفل بالزفة إلى داره حيث تكون عملية الختان وبعدها تقام مأدبة غداء للمدعوين[١].

وفي بعض الأحيان تستمر حفلات الأعراس والختان مدّة (٧) أيام، أو يقام الحفل نهاية عصر كل يوم يجري خلالها لعبة الساس **(ساز)**، إذ يجتمع الناس في بيت صاحب العرس أو الختان، والطبول تضرب، والمزامير تعزف يبرز رجلان بيد كل واحد منهما سيف يلعب به وعلى وقع الطبل فيتضاربان بالسيوف وبعد الفراغ يتصافح اللاعبان ويتعانقان[٢]. وفي بعض الأحيان يقدم بهلواني يهودي عروض حركات مضحكة تارة ويرقص تارة أخرى لكسب إعجاب الحاضرين[٣]، وكانت ولادة الطفل الذكر مناسبة لإقامة الولائم، وتوزيع الهدايا على الفقراء. ولتسمية الطفل أيضاً احتفال، فيؤخذ الطفل إلى أحد العلماء ليكبر في أذنه ثلاث تكبيرات ثم يقول أسميتك فلاناً فبعد ذلك يتصدق الأب ببعض المال على الفقراء[٤]. وبعد دخول الطفل الكتاتيب وعندما يختم الصبي القرآن الكريم تقام له حفلة، ووليمة غداء تعرف بحفلة الختمة[٥]. لقد وجد العامة في مثل هذه المناسبات مجالاً للترويح عن النفس وإظهار الفرح والسرور.

---

(١) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص١٣٠؛ بغدادي أصيل، من تقاليد أهل بغدا وعاداتهم، جريدة الشرق، العدد ٦٥٤، (١٤ رجب ١٣٨٣هـ/ ١١ كانون الأول ١٩٦٢م).

(٢) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص١٠٥؛ محمد رؤوف الشيخلي، المصدر السابق، ص١١١.

(٣) سعاد العمري، المصدر السابق، ص٩٨.

(٤) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج١، ص٤١؛ مير بصري، صفحات رحلة الرحالة نيجلهولت، البلد، العدد ٨٢٢، ٧ شباط ١٩٦٧م؛ بغدادي أصيل، من تقاليد أهل بغداد وعاداتهم، الشرق، العدد ٥٦٧، ١٤ كانون الأول ١٩٦٢م.

(٥) محمد رؤوف الشيخلي، المصدر السابق، ص١١٥-١١٦.

٥ المناسبات الرسمية:

لقد شهدت بغداد الكثير من الاحتفالات في المناسبات الرسمية منها تلك التي تقام لمناسبة وصول ولاة جدد إلى الولاية أو توديع الولاة السابقين، أو الاحتفال بمناسبة ولادة أولاد السلاطين. وقد أضيفت احتفالات أخرى في عهد السلطان عبد الحميد الثاني وهو عيد ميلاد السلطان ومناسبة جلوسه على العرش. وكانت الأوامر تصدر من الحكومة المركزية إلى الولاة لإجراء الاحتفالات بهذه المناسبة وعلى شرط أن تستمر أسبوعاً كاملاً[(١)].

كانت مناسبة **ميلاد السلطان محمود الثاني التي تصادف يوم ٢١ أيلول من المناسبات المهمة التي حرصت الحكومة المحلية على الاحتفال بها، وإظهارها بالمظهر اللائق**، ويجري الاستعداد لها قبل يوم أو يومين من موعدها، فتنهمك دوائر الحكومة العسكرية منها والمدنية وكبار الموظفين بإعداد معالم الزينة. وعند حلول المناسبة تبدأ الاحتفالات من الصباح الباكر، حيث تصطف ثلة من الجند لأداء التحية للوالي، ومن ثم تعزف فرقة موسيقية بعضاً من المقطوعات الموسيقية وبعدها تتوافد مواكب المهنئين إلى ديوان الوالي لتقديم التهاني له **وقد روعي في ذلك الترتيب الآتي: قائد الجيش السادس، مفتش الجيش السادس، نقيب الأشراف، كبار الموظفين في الولاية، رجال السلك القنصلي، رؤساء الطوائف الدينية**، وتقدم للمهنئين القهوة والسكاير ثم ينهض الوالي بصحبة مهنئيه ويتجه إلى شرفة مطلة على فناء السراي وهناك يتلو مفتي الولاية دعاءً بدوام صحة السلطان وعزه ثم يعود الجميع إلى أماكنهم حيث توزع عليهم المرطبات، وعقب ذلك يغادر الوالي ديوانه بصحبة حاشية تضم

(١) أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول، رقم البحث ١٧٤، دفتر مهم ٢٥٤، الصفحة ٧٦، تاريخ الوثيقة أواخر رمضان ١٢٥٦هـ، مركز التوثيق الإعلامي، وزارة الثقافة والإعلام؛ أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول، رقم البحث ١٤٥، دفتر مهمة ٢٥٥، الصفحة ٢٥، تاريخ الوثيقة أواخر شعبان ١٢٥٨هـ، مركز التوثيق إعلامي وزارة الثقافة والإعلام.

كبار الموظفين ووجهاء المدنية إلى مقر قيادة الجيش السادس حيث يقدم بدوره التهاني إلى قائد الجيش السادس ومفتشيه، يعرج بعدها إلى مقر قيادة قوة الفرسان في الولاية للغرض نفسه، حيث يكون قائد الجيش السادس على رأس مستقبليه وتقام هنا بعض الفعاليات الترفيهية، كإطلاق الألعاب النارية، وإحياء حفل موسيقي تتخلله هتافات من الحاضرين لحياة السلطان. كما ترفع الأعلام فوق مقر الولاية وبقية المؤسسات الحكومية التي تزين واجهاتها بأقواس نصر من سعف النخيل وأغصان النارنج وتقيم المدرسة الإعدادية العسكرية ببغداد حفلاً موسيقياً[١].



من الإحتفالات الرسمية في بغداد سنة ١٩١٧م.

ويتم تزيين دار الوالي والشارع الذي تقع فيه بقناديل، وأقواس نصر تتوسطها لافتات كتب عليها ما معناه **(ليعيش سلطاننا دوماً)** وعلى هذا النحو

(١) محمد رؤوف الشيخلي، المصدر السابق، ص١٢٦-١٢٧.

كانت تقام معالم الزينة وتوقد الفوانيس في الليل على واجهات الدوائر الحكومية، والمدارس العسكرية، والمدنية، والمراقد المقدسة، والمساجد، والكنائس، والقنصليات، ودور كبار الموظفين. وقد تفنن بعض وجهاء المدينة في ترتيب الفوانيس الزيتية بحيث تقرأ «**باد شاهم جوق بيشة**» أي ليعيش سلطاننا طويلاً، وفي المساء يتضمن منهاج الاحتفال إقامة مأدبة عشاء ضخمة في دار الوالي وإطلاق ألعاب نارية من على ظهر أكلاك راسية في نهر دجلة قبالة ديوان الحكومة إضافة إلى مهرجان آخر للألعاب النارية يقام في ساحة باب المعظم حيث تثبت عدة أعمدة في الأرض ثم تربط بعضها ببعض بأسلاك معدنية تعلق فيها كرات مصنوعة من ورق سميك وبداخلها بارود ومواد كيميائية أخرى، وعند إشعال الفتيلة تنفجر الكرات وتنبعث منها ألوان مختلفة مصحوبة بفرقعة كذلك ينصب دولاب خشبي فوق عمود مثبت في الأرض أفقياً، وآخر عمودياً، ويغلف كل منها بلفافة طويلة من الورق محشوة بالبارود ولها فتيلة، إذا ما أشعلت انفجر البارود وبدأ الدولاب بالدوران أفقياً وعمودياً ناثراً الشرر، ويستغرق ذلك زهاء دقيقة أو أكثر حتى يتم إحراق البارود بأكمله. وهذه العمليات تعرف بـ**(شلك) أي أفراح ومسرات**[١].

وتتخذ الإجراءات نفسها في الاحتفال بمناسبة ذكرى جلوس السلطان على العرش المصادف يوم ٣١ آب باستثناء إطلاق (٢٤) إطلاقة مدفع وقت الظهر، ويعقد اجتماع في جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني، يحضره دراويش وأتباع الطريقة القادرية، ويدعى فيه بالنصر للسلطان وعلو شأنه وبدوام عافيته وبالعمر المديد[٢]. ويشارك الأهالي وخاصة الشباب في هذه المناسبات ويحضرون أنواعاً من البارود لتفجيرها، إلّا أنها تكون مصغرة، والمشاركة في الاحتفال الذي يقام في باب المعظم[٣]. وقد رافق هذان الاحتفالان منح

(١) المصدر السابق، ص١٢٧.

(٢) الزوراء، العدد ١٤٧٤ و١٤٧٥، ١ و٨ صفر ١٣٠٩هـ.

(٣) محمد رؤوف الشيخلي، المصدر السابق، ص١٢٨.

المراحم مثلما حصل سنة ١٨٩١م عندما أصدرت تعليمات بإطلاق سراح السجناء الذين أكملوا ثلثي مدة محكوميتهم بمناسبة عيد ميلاده[١]، وتشمل الاحتفالات افتتاح بعض الدوائر والمدارس ووضع الحجر الأساس لبعضها وبعد قيام الثورة الدستورية سنة ١٩٠٨م، أصبح الاحتفال بذكرى الثورة أو **(العيد الملي)** الذي يصادف العاشر من تموز مناسبة رسمية يحتفل بها جميع الناس، وتجري تحضيرات الاحتفال قبل حلولها بعدّة أيام، إذ تهيأ ساحة «**عمر السهروردي**» المخصصة للاستعراضات والأماكن المخصصة لجلوس كبار الدولة ووجهاء المدينة والأهالي بنصب الخيام لهم، وتخصص أماكن لوقوف العربات وحيوانات النقل وجعلها تحت إشراف البوليس، ويوضع ستة أطباء من العسكريين، واثنين من أطباء الملكية، وجراح، وصيدلي، ومفتش صحي، في أهبة الاستعداد لتفادي وقوع أي أضرار ويجهيزون بثلاث عربات لنقل المصابين إذا ما أصابهم أي مكروه، فتزين جميع الدوائر الرسمية، والجسور، والخانات، والأبنية، والدور، وخاصة المطلة على نهر دجلة، بالمصابيح والقناديل ليلاً، والأعلام نهاراً، كما تقوم البلدية بتجهيز مئتي سقاء لتوزيع الماء على الناس وتهيئة الطعام لتوزيعه على المتفرجين[٢]. وفي اليوم المحدد للاحتفال، تغلق جميع الدوائر الرسمية طيلة اليوم، والأسواق، والمقاهي إلى الساعة العاشرة صباحاً. ومن يخالفه هذا يعاقب حسب قانون البلديات ويبدأ الاحتفال بالأناشيد الوطنية والأدعية لنصرة الدولة العثمانية يؤديها طلاب المدارس حاملين شعار الدولة العثمانية، فيجري استعراض الجيش ثم استعراض القبائل الوافدة لتقديم التهاني، فكان الاحتفال بهذا اليوم كرنفالاً عظيماً[٣].

ومن المناسبات التي اعتادت بغداد على الاحتفال بها تلك التي تقام

(١) الزوراء، العدد ١٥٠٢، ٢٠ شعبان ١٣٠٩هـ.

(٢) صدى بابل، العدد ١٤٤، (٤ شعبان ١٣٣٠هـ/ ٩ تموز ١٩١٢م).

(٣) صدى بابل، العدد ١٤٤، (٤ شعبان ١٣٣٠هـ/ ١٦ تموز ١٩١٢م).

بمناسبة وصول ولاة جدد، إذ تشكل لجنة للاستقبال تتألف في الغالب من قائد الجيش السادس، ومفتشيه وأعضاء مجلس إدارة الولاية، ورؤساء الدوائر الحكومية، وعدد من الوجهاء، وتغادر اللجنة بغداد على ظهر باخرة في طريقها إلى الطارمية[١]، وكانت الباخرة مزينة بأعلام، وأغصان النارنج، وتقل فرقة موسيقية تعزف بعض المقطوعات. وعند وصول الموكب إلى الطارمية يسارع أفراده إلى لقاء الوالي الذي كان قد سبقه في الوصول إليها، ويقيم قائد الجيش حفلة تكريماً للوالي الجديد. وبعد أن يمضوا الليلة في الطارمية يغادروها في الصباح صوب بغداد التي كانت الاستعدادت فيها



احتفال لـ(عبد الحميد الثاني) سنة ١٩٠٨م.

تجري على قدم وساق. وعند وصول الموكب إلى الكاظمية يقوم الوالي بأداء مراسيم الزيارة لمرقد موسى الكاظم، ثم أبي حنيفة حيث يستقبلهم موظفو الكاظمية، والأعظمية، ومواطنوها ثم يواصل الموكب سفره إلى بغداد حيث

(١) صدى بابل، العدد ٢٢٣، (٢٨ صفر ١٣٣٢هـ/ ٢٥ كانون الثاني ١٩١٤م).

كانت وحدات من الجيش، والشرطة، وتلامذة مدرسة الصناعة، وجمهور من المواطنين تصطف على ضفتي النهر لتحية الوالي، وفي غضون ذلك تطلق المدفعية (١٩) إطلاقة ابتهاجاً بوصول الوالي، وبعد ذلك يبدأ المهنئون بالترحيب، وتقديم التهاني في ديوانه ثم يقرأ فرمان الوالي وبحضور قائد ومفتش الجيش، وكبار الضباط، ورؤساء الدوائر الحكومية، ووجهاء المدينة، ورجال السلك القنصلي، ونقيب الأشراف، ورجال الدين، وأصحاب الرتب، ووحدات من الجيش والشرطة إضافة إلى جمع من المواطنين[١]. وبعد انتهاء الوالي من إلقاء خطابه يتلو مفتي بغداد دعاءً يتضمن التضرع إلى الله بأن يحفظ السلطان، ويزيد من شأنه وكان الحاضرون خلال ذلك يرددون كلمة «**آمين**»، ثم يتلو كل من ممثل طائفة الكلدان وأحد موظفي محكمة الاستئناف دعاءً بالمعنى نفسه، وعند ختام الأدعية تعزف فرقة موسيقية السلام الحميدي ثم تجرى مراسيم تقديم الدوائر الحكومية تهانيها إلى الوالي[٢]. كذلك جرت العادة على تنظيم احتفالات مماثلة لمناسبة انتهاء مهام الولاة لتوديعهم.

وقد كانت هذه الاحتفالات خاصة بالفئة الحاكمة، دون أن يكون للمجتمع البغدادي أي مساهمة فيها، لأنها مناسبات لا تعنيهم بشيء ويبدو أن الأتراك كانوا يبالغون كثيراً بالمظاهر الخارجية وفي إجراء المراسيم والاحتفالات، لأجل أن يعطوا انطباعاً عن قوة وعظمة مملكتهم[٣].

(١) جاسم محمد حسن، وقائع احتفالات ولاية بغداد والمناسبات الرسمية والدينية أبان حكم السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م)، مجلة المورد، مجلد ١١، العدد ٣، ١٩٨٢م، ص٤١.

(٢) الزوراء، العدد ١٤٧٣، ٢٤ محرم ١٣٠٩هـ.

(٣) طارق الحمداني، مظاهر الحياة الاجتماعية في العهد العثماني، بحث في كتاب حضارة العراق، ج١٠، بغداد، ١٩٨٥م، ص٢٢٢.

المظاهر الرياضية في بغداد



المصارعة (الزورخانة).

كان أهل بغداد ميالين إلى الألعاب الرياضية بوصفها من متممات الحياة اليومية، ومن الألعاب التي كانت شائعة وذائعة الصيت وتمارس من قبل أعداد غفيرة من رياضيي أيام زمان هي **المصارعة (الزورخانة)، وسباق الخيول، والسباحة (الجراديغ)**، إلّا أن الرياضة التي كانت آخذة بنواصي العقول ردحاً من الزمن هي **(الزورخانة)**، التي ظهرت في هذه الحقبة عن طريق إيران، إذ كانت أصولها، ومصطلحاتها، وأشعارها الحماسية بالفارسية. وقد أرجع بعض الباحثين أصولها إلى نظام الفتوة الذي كان شائعاً في العصر العباسي ثم اندثر بسبب الفتن والاضطرابات[١]، إلّا أنها عادت بعد استتباب الأمن في العهد العثماني الأخير. ويربط البعض نشوء الزورخانة في بغداد إلى زيارة الشاه

---

(١) يونس سعيد، زورخانات بغداد وجراديغها، قرندل، ٣٠-٧-١٩٥٨م.

ناصر الدين إلى بغداد سنة ١٨٧٠م، ولكن هذا غير صحيح لأن تأسيس أول زورخانة في بغداد كان في سنة (١٢٥٧هـ-١٨٤٦م) هي **(زورخانة قنبر علي)** كما أشار إلى ذلك أحد الوقفيات[١].

ظهرت الزورخانات التي كانت عبارة عن بناية مسيّجة، ومسقفة ترتفع إلى مستوى الشارع الذي تقع فيه وفي وسطها الجفرة[٢]، وينظم حولها رصيف يستوعب جمهوراً كبيراً من اللاعبين والمتفرجين، وبالقرب منها دكة ارتفاعها متر واحد يجلس عليها المرشد **(الزركيرة)**[٣]، ويكون موقع الزورخانات دائماً داخل أزقة المحلة، وتخضع حياة الزورخانة لنظم وقوانين فكان للأبطال منزلتهم، وللمصارعين قواعدهم، وللمشجعين والداخلين للزورخانات تعاليمهم[٤].

تفتح الزورخانات أبوابها قبل الفطور صباح كل يوم، ويستمر اللعب فيها مدة ساعة وبعد أن تغلق أبوابها تعود لتفتح مساءً، فتقدم (٥) فصول وتستغرق (٣) ساعات. وأول عمل يقومون به هو الصلاة على الرسول (ﷺ)، ثم تلاوة بعض الأدوار والتواشيح الدينية كل ذلك على ضربات المرشد على الدنبك الكبير، ثم يطلقون البخور الذي يدفعون بشذاه شر العين الحاسدة،

---

(١) د. عماد عبد السلام رؤوف، معالم بغداد العمرانية، ص٣١٩.

(٢) الجفر: وهي حفرة دائرية الشكل، قطرها ثلاثة أمتار عمقها مترين ونصف عليها كمية من الشوك واللبن والقصب، تغطي هذا المواد بالتراب والرمل بنسبة (٣٠٪) من تراب أحمر و(٧٠٪) من رمل وبعد أن ينظف هذا المزيج من المواد الغريبة كالأحجار والأوساخ يرص رصاً محكماً والغرض من هذه هو المحافظة على أجساد المتصارعين فإذا سقط أحدهم عليها لا يصيبه كسر أو رض. محمد رؤوف الشيخلي، المصدر السابق، ص١٠٣.

(٣) الزركيرة، ناقر الزر.

(٤) حديث الزورخانات مع البطل عباس الديك، مجلة بغداد، تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد، العدد ١٨، آذار ١٩٦٥م، ص٢٩.

ويطهرون به ما يكون قد علق بالزورخانة من دنس، وبعد ذلك ينزل الرئيس إلى الجفرة مقبلاً التراب ليدلل على احترامه وإيمانه بهذه اللعبة، ثم يقرأ سورة الفاتحة على روح مؤسس الزورخانة وهو شخص اسمه **(يورياني ولي)**، ثم يقوم ببعض التدريبات، والتمرينات أمام تلامذته من أبناء المحلة، أو من جيرانها، ثم يتناوب الواحد بعد الآخر على إجراء تلك التدريبات. ويحدد عددهم حسب اتساع الجفرة وأول تمرين يقومون به هو الشناو، ثم تأتي لعبة الأميال وتتم على ضرب المرشد الإيقاعي، ثم تأتي لعبة الجرخ **(الفرة)**. ولا يحدد وقت لها إذ تكون حسب استطاعة الشاغول، فيدور اللاعب على نفسه دورات سريعة متلاصقة تؤدي لتحريك النفس لكي تزيد من خفة اللاعب، بعد ذلك يلعبون الجيكلي وهي دورة أبسط من الأولى لمعالجة الدوران الذي أصابهم في رياضة الجرخ، بعد ذلك يقوم بممارسة لعبة **(الشلنك)** وهي القفز من ركن من أركان الجفرة إلى الركن المقابل له على رجل واحدة، وقفزة واحدة، وهناك لعب أخرى لتقوية عضلات الفخذين **(الساقين)** وهي على شكل رقصات رياضية رشيقة تظهر مهارة اللاعب وضابط الإيقاع. وكانت جميع الأنشطة تدار على الإيقاعات الموسيقية[١] **ومن أشهر مغني الزورخانات هم: محمد الخشالي وأسطة محمود الخياط، وجواد محي، ونجم الشيخلي وغيرهم**. وكان لأصوات بعضهم أثر في التفنن في الرقصات، والقفزات ودوراتهم الرياضية، ما يضفي على جو الزورخانة جواً رائعاً وكل تلك الألعاب تمارس في جميع أيام الأسبوع، وتزاد المصارعة عليها في يومي الثلاثاء والجمعة إلّا إذا سقط أحد اللاعبين على الأرض أثناء اللعب، وخرج الدم منه عندئذٍ يتوقف اللعب بأمر الأستاذ الذي يعزى سبب الحادثة إلى وجود واحد، بغير وضوء بين المتفرجين، أو في الجفرة. وإذا حل فصل الصيف كان هناك أماكن تعرف بـ**(الجراديغ)** على شاطئ النهر لتدريباتهم على السباحة وهي

---

(١) مهدي حمودي الأنصاري، الزورخانة، منشور أمانة العاصمة العدد ١٦، ١٩٧٨م، ص٢٩.

من الرياضات التي كانت مفروضة عليهم وأول من صنع الجرداغ، حسن بن علو على شاطئ الكرمان في الصرافية، والجرداغ الآخر كان على الشريعة المتاخمة لجامع السيد سلطان علي في المربعة. فتوالى بعد ذلك إنشاء **الجراديغ (المسابح)** خاصة في فصل الصيف. وقد أنشئ البعض منها لغرض السمر لقد كانت الزورخانة سبب ظهور **الجراديغ** «**المسابح**»[١].



لباس الزورخانة.

لقد حظيت الزورخانات برعاية علماء الدين والتجار، مثل زورخانة محلة جديد حسن باشا برعاية العلّامة محمد فيضي الزهاوي، وزورخانة محلة قنبر علي التي كان يرعاها عباس أفندي الجميل، ومن بعده فخري الدين آل جميل، وزورخانة بيت الشهربنلي في محلة رأس القرية والتي يرعاها السيد جعفر الشهربنلي، وغيرها من الزورخانات التي شملت برعاية من علماء الدين

(١) محمد سعيد زورخانات بغداد القديمة وجراديغها، قرندل، ٣٠-٧-١٩٥٨م.

والتجار. وكان بعض علماء الدين يمارسون هذه الرياضة منهم **العلاّمة درويش أفندي الألوسي، والعلاّمة عبد الوهاب أفندي النائب، والشيخ داود السيد إبراهيم أبو يوسف الذي تخرج على يده عدد كبير من أساتذة وأبطال المصارعة وعلى أثر هذا نالت الزورخانات البغدادية اهتمام الحكومة**. وكثيراً ما شهدت الزورخانات حضور ولاة بغداد وبعض رجال الحكومة مما يدل على المكانة التي احتلتها المصارعة في ذلك الوقت[١]. وفي بعض الأحيان يتبرع الأعيان بمقادير كبيرة من الحلويات والمشروبات لتوزيعها على الفتيان الذين تزدحم بهم الزورخانات أمام المصارعة[٢].

وقد شهدت زورخانات بغداد كثيراً من مصارعات التحدي بين مصارعي بغداد وزملائهم من مصارعي إيران، والهند، وغيرهم الذين كانوا يقصدون العراق في المناسبات الدينية المختلفة، ومن أشهر المصارعين الذين استطاعوا أن يحرزوا انتصارات على أبطال المصارعة في إيران، والهند **(أسطة غني)** فأطلق عليه **(بهلوان بغداد)** لخفة حركته وسرعة جريه داخل الزورخانة، وخطف المصارع بحركاته التي لا تخطر على البال[٣].

وقد أحاط الرياضيون الزورخانات بهالة من القدسية التي لا يجوز أن ينال منها أي دنس فلا يؤمونها إلّا وهم أطهار، ونظاف، ويمنعون دخولها على من كان سيئاً في سمعته، ويمنع من دخولها الأطفال والصبية، كما لا يدخلها من المنتمين إليها من كان مريضاً، ولا يجوز الدخول لغير الأعضاء في الزورخانات. ومن العادات التي درج عليها الرياضيون. هي الإكرام والتقدير للبطل حيث يقرع الجرس عند دخوله أرض الجفرة، ويجب عليه ألّا يضحك أو يمزح وكان للمرشد **(الزركير)** دور في إدارة دفة الصراع أو النزال، فإذا تصارع اثنان وأطالا الصراع بلا طائل، يرمي المرشد عليهم **(الوزرة)**، مما

(١) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص٦٨.

(٢) مهدي الأنصاري، المصدر السابق، ص٢٩.

(٣) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص٦٨.

يعني إيقاف صراعهم فوراً لأن أمره مطاع من الجميع، ولا يحق للفتيان الصراع في حلبات الأبطال، وإنما لهم مجال تدريب فقط فيها. كانت الزورخانات أشبه بنوادٍ رياضية لألعاب الرياضة البدنية التي لها روادها ومشاهيرها الذين عرفهم المجتمع البغدادي آنذاك، وكانت بطولاتهم ومبارياتهم المتواصلة مثاراً للإعجاب، والحماس لدى جمهور هذه اللعبة(١)، فغدا لكل محلة أو عدة محلات زورخانة خاصة بأبنائهم من أزقتها. وقد وصل عددها إلى سبع زورخانات(٢) وقد تفوق البغداديون على معلميهم الإيرانيين. ومن الألعاب الرياضية التي كان لها عشاقها وجمهورها هي سباق الخيل الذي يجري بالقرب من مرقد الشيخ عمر السهروردي، ويشارك فيه العديد من الشباب، وخاصة في الأعياد والمناسبات الدينية، ولم يتفرغ جمهور المشاهدين لرؤية المتسابقين من الفرسان أو سواهم فقط، بل جلب بعضهم بضائع ليبيعها على الناس المحتشدين، أو جلب البعض منهم حيوانات لتقوم بألعاب وعروض بهلوانية لغرض الكسب منها.

وقد يحضر الوالي وكبار الموظفين ووجهاء المدينة سباق الخيل، وكانت تجري المراهنات حول الفرسان الفائزين، وتوزع الجوائز لهم من قبل أعيان المدينة وخاصة المشجعين لها(٣). كل هذه الألعاب الرياضية تحمل المرح والتسلية إلى النفوس.

---

(١) يونس سعيد، زورخانات بغداد، قرندل، ٣٠-٧-١٩٥٨م.

(٢) سالنامة ولاية بغداد لسنة ١٣٢٩هـ، ص١٨٦.

(٣) لغة العرب، السنة ٣، ج٦، (محرم ١٣٣٢هـ/ تشرين الثاني ١٩١٣م)، ص٣١٦.

عادات وتقاليد المجتمع البغدادي

❶ العلاقات والعادات الأسرية:

لما كانت العائلة البنية الأساسية في المجتمع، وهي في تكوينها وتطورها قائمة على ما يصطلح عليه المجتمع، أي إن مراحل تكوين الأسرة وما يسود ذلك من ارتباطات اجتماعية يخضع لما يحدده المجتمع من قواعد، كما أنها من النظم الأساسية في المجتمع، فإن كل مظهر سلبي أو إيجابي يتسم به النظام العائلي. وينعكس صداه على كل النظم الاجتماعية الأخرى وهي أساس الاستقرار في الحياة الاجتماعية، والإطار العام الذي يضفي كل خصائصه على كل أفرادها. فالعائلة هي قناة التواصل التي ينتقل خلالها الوعي، والتراث الثقافي، والسنن، والتقاليد، والعادات الاجتماعية، وأساليب تربية الأبناء من الجيل السابق إلى الجيل الحالي.

كانت العائلة البغدادية هي عائلة ممتدة كبيرة الحجم[١]. تتكون من الزوج والزوجة وقد يجمع الرجل في بيته زوجتين أو ثلاثاً ويجتمع كذلك أبناءه وزوجات أبنائه أو من الأشقاء وزوجاتهم وأطفالهم. تسكن العائلة في بيت واحد وتحت ظروف اقتصادية مشتركة، يتولى الأب أو الجد مسؤولية العائلة فيشرف على مهنها ويسيطر على ممتلكاتها، وغالباً ما يوزع أموالهم على أفرادها بطريقة عادلة تؤمن متطلباتهم وحاجاتهم اليومية[٢]. فسلطة الأب أو الجد لا تقبل النزاع. وهي ممثلة في امتيازاته وحقوقه وله مطلق الحرية في التصرف وما على باقي أفراد الأسرة إلّا الطاعة وعدم معارضته، فإن احترام الأب واجب ديني مقدس وعرف اجتماعي، لذا لا يستطيع أحد من أفراد أسرته أن يقوم بعمل ما، أو تصرف ما دون استشارته، وطلب الإذن منه، وتظل سلطة

---

(١) مصطفى الخشاب، الاجتماع العائلي، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٨٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٨٥.

الأب ماثلة عند معظم الأسر حتى بعد موته متجسدة في تطبيق أقواله وتنفيذ وصاياه[١].

أما بالنسبة لمركز الأبناء في الأسرة، فيبقون تحت سيطرة الأب ويساعدوه في أعماله، وعندما يتزوجون لا يتغير مركزهم في الأسرة إلّا قليلاً فيستمرون في العمل للأسرة تحت سيطرة الأب حيث لا سلطة لهم إلّا على زوجاتهم وأمهاتهم وأخواتهم[٢]، إذ تبقى البنات تحت ضبط وسيطرة الآباء والأخوة حتى يتزوجن، فتستبدل بتلك السيطرة سيطرة الأزواج، فتتحول مسؤولية إعالتها من كاسب الأسرة التي نشأت فيها إلى كاسب الأسرة الجديدة[٣]. ويحق للأبناء أن يجمعوا الثروة الخاصة لهم.

وقد تمتع الابن الأكبر بنفوذ وسلطة أعلى من تلك التي يتمتع بها الأبناء الآخرون، فبعد وفاة الأب يتولى الابن الأكبر قيادة العائلة، وكل مسؤولياتها الأبوية، والمادية والاجتماعية، ويظهر الأبناء وزوجاتهم الطاعة المطلقة لرب الأسرة بحيث لا يبدي أي واحد منهم معارضة له. وكثيراً ما كان الأولاد يستغلون مهن الأب نفسها فلا غرابة أن يكون الآباء والأبناء متجانسين في السلوك والآراء، والأفكار، فالابن يعتقد بالقيم والمقاييس والعادات والأعراف الاجتماعية نفسها التي يعتقد بها الأب، فشخصية الابن الحالية هذه تطابق شخصية الأب[٤]. والواقع أن كل ما يحيط الأسرة من أوضاع اجتماعية وتنظيمات في الأسرة تكون دافعاً لكل عضو فيها أن يقتنع بصحة موقف رب الأسرة، وضرورة طاعته. ويمكننا أن نقول إن سبباً مباشراً يكاد

---

(١) عبد علي سلمان، المجتمع الريفي في العراق، بغداد، ١٩٨٠م، ص٤٧-٤٨.

(٢) خديجة أنس الحريري، أثر التصنيع في العائلة العراقية، أطروحة ماجستير، قسم الاجتماع، الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٢م، ص١٠٠.

(٣) زهير حطب، تطوير بنى الأسرة العربية، معهد الأخاء العربي، بيروت، ١٩٧٦م، ص١٨٨.

(٤) كلابد كلكهون، المصدر السابق، ص٤٨.

يفرض الطاعة على أعضائها فرضاً هو مسؤولية رب الأسرة عن إعالتها وما يأمر به الدين الإسلامي، والعرف الاجتماعي بإطاعة الوالدين. فتتصرف الأسرة على أنها وحدة اجتماعية متماسكة في طبيعة علاقاتها، أو بتماسكها، وتضامنها ضد أي اعتداء خارجي، لأنها متماسكة نتيجة لعلاقات القربى وروابط النسب.

يسود الأسرة نوع من تقسيم العمل على أساس الجنس فيعمل الرجل خارج البيت وهو مسؤول عن الإنفاق على أسرته، ويقتصر عمل الزوجة داخل البيت على إدارة شؤونه الخاصة، وتساعد زوجها في بعض الأحيان في الأعمال الحرفية داخل نطاق البيت، ويقضي الأطفال الفتيان نهارهم بألعاب خاصة كانت معروفة لدى الجميع إذ لم يكن يوم ذاك دور للسينما أو حدائق عامة ليقضي الأطفال أوقات فراغهم، فكان لهم ألعابهم التي يلعبون بها في الطرق والأزقة **(كالختيلة)**، و**(السنبيلة)**، و**(السفينة)**، و**(الكعب)**، و**(الدعبل)**، و**(طفيرك يا قمر)**[١] وغيرها، وهناك لعبة خاصة بالبنات منها **(طم خريز)**، و**(العروس)** وغيرها. ودائماً تتخلل هذه اللعب أهازيج يرددونها الأطفال أثناء اللعب التي يمارسوها وبعض الألعاب لها مواسم خاصة **كالطائرات الورقية التي تمارس أثناء الخريف والربيع**[٢]. وبعد أن يبلغ الطفل سن الخامسة أو بعد ذلك بقليل يرسل إلى الكتاتيب ليدرس فيها القراءة والكتابة، ويعلم قراءة القرآن الكريم وآداب الدين، ويوصى المؤدب أو المعلم بأن يحسن معاملة الأطفال، ولا يقسو عليهم، ولا يضربهم إلّا إذا أساء أحدهم الأدب، وبذلك يتعاون كل من الوالدين، والمعلمين لتربية الطفل وإرشاده إلى الطريق الصحيح. ويلقى معلم الطفل الاحترام كثيراً ويرقى به الأمر إلى مستوى الوالدين في المسؤولية. ومتى ما أكمل الطفل قراءة القرآن كانت أسرته تحتفل بذلك احتفالاً كبيراً بإحضار المنشدين إلى بيت الطالب، ويطوف مع

---

(١) بغدادي أصيل، من تقاليد أهل بغداد وعاداتهم، الشرق، عدد ٦٦٦-٦٦٧، (٢٨-٢٩ رجب ١٣٨٢هـ/ ٢٦-٢٥ تشرين الأول ١٩٦٢م).

(٢) المصدر نفسه.

زملائه بأزقة المدينة مع إلقاء الأناشيد ثم تقام مأدبة طعام لهم. وتستمر رعاية الأسرة لأبنائها لغاية بلوغهم واختيار زوجات لهم ليكوّنوا بدورهم أسرة جديدة، فلم يكن الزواج يأتي حسب رغبة الشاب بل يتم التفكير والاختيار من قبل الوالدين ولم يرَ الشاب والشابة أحدهما الآخر إلّا في ليلة الزفاف(١). وبالرغم من ذلك فقد سمح المسيح للشاب بعد اختلاطهم بالأوروبيين بالتعرف على الزوجة التي ينوي التقدم للزواج منها(٢).

ومن الملاحظ أن الأسرة تقوم بوظيفة متكاملة حيث إنها تعلم أبناءها الأمور الدينية والدنيوية وتقوم الأسرة بأغلب الوظائف الاجتماعية لأعضائها.



الطائرة الورقية كانت لعبة أطفال بغداد.

(١) Habib Chiha, op., cit., p:183.

(٢) Ibid, p:189.

٢ المرأة ووضعها الاجتماعي:

خضعت المرأة لمجموعة من المؤثرات التي أثرت تأثيراً كبيراً في تحديد مكانتها في المجتمع بالرغم من القيود المفروضة عليها، التي كان لها أثر في شل حركتها وكادت أن تعطل من مساهمتها في بناء مجتمعها، إلّا أن المرأة التي كان لها أثر كبير في كثير من جوانب الحياة إلى جانب مسؤوليتها المطلقة في تربية الأطفال، وإدارة البيت التي تتوزع عادة بين الطبخ، والغسل، والتنظيف وما إلى ذلك من أمور وأنها اضطلعت بممارسة الأعمال الحرفية دون أن يدخل ذلك ضمن المشاركة الفعلية للمرأة في حركة التنمية الاقتصادية كون ذلك يدخل ضمن الأعمال المنزلية التي تتم داخل البيت[١]. وعلى سبيل المثال كانت معظم النساء وبخاصة من الفئة العاملة يتقنّ غزل الخيوط، وتطريز الملابس، والنسيج، وبيعها في سوق الغزل حتى كاد أن يكون هذا السوق ملتقى النساء العاملات في بغداد في ذلك العهد.

فضلاً عن قيام معظم النساء وخاصة من الفئة العليا والوسطى برعاية نشاطات الخدمة الخيرية من خلال الوقف على المساجد، والمدارس، والربط، والزوايا، والسقايات ومما يدل على تفهم المراة البغدادية لحاجات المجتمع الأساسية فإنشاء المدارس كان يمثل في الواقع تقديراً لحاجة المجتمع إلى العلم والثقافة[٢] مثل وقفية منورة خاتون على مدرستها ولم يقتصر على ذلك بل جمعت كثيراً من الكتب العلمية المخطوطة، وغير المخطوطة واوقفتها على مدارسها[٣].

ووقفية نائلة خاتون على مدرستها التي ألحقتها بجامع الحيدر خانة،

---

(١) سعاد خيري، المرأة وآفاق التطور في العراق، بغداد، ١٩٧٥م، ص٢٦.

(٢) د. عماد عبد السلام رؤوف، من تاريخ الخدمات النسوية العاملة في بغداد، بحث في كتاب ندوة بغداد في التاريخ، قسم التاريخ، كلية التربية، جامعة بغداد، أيار ١٩٩٠م، ص٢٠٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٣٣.



غسل الثياب قديماً.



النساء تغسلن الصحون على ضفة نهر دجلة.

وخزانة الكتب التي ضمت نوادر المخطوطات في مختلف العلوم[١]. وكان تأسيس المساجد، والوقف عليها لإدامتها يعكس في بعض أوجهه يمثل تفهماً عميقاً لحاجات المجتمع الروحية والأخلاقية[٢] مثل وقفية آسيا خاتون على مسجد الخطيب[٣]. ووقفية مريم وعائشة بنتي محمد الباچه چي على جامع الصياغ، ووقفية منورة خاتون على جامعها في محلة الطوب[٤] وإنشاء الربط، والزوايا، والوقف عليها يمثل تقديراً لمشاكل أولئك الذين لا مأوى لهم مثل وقفية صالحة بنت البندنيجي على التكية البندنيجية[٥]، وإنشاء السقايات، والوقف عليها لتوفير الماء للناس المحتاجين أو المسافرين، مثل وقفية سقاية نافعة خانم بنت والي بغداد رشيد الكوزلكلي التي أنشأتها في محلة الميدان لإرواء المارة وأبناء السبيل[٦]، وسقاية نائلة خاتون التي أنشأتها في الطريق المؤدي إلى قصبة الأعظمية[٧]. كما أن وقف الأوقاف الكثيرة على الفقراء والمحتاجين والأرامل والأيتام يعني دليلاً على تفهم مشاكل تلك الفئات والتعاطف معها[٨]، مثل وقفية صفية خاتون على فقراء التكية الخالدية[٩]. ولم تكن الوقفيات مجرد مصادر ثابتة لتمويل مشاريع معينة بل كانت مؤسسات حقيقية تخدم المجتمع، وتقدم النفع العام مستقلة في مصادر ثروتها.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) د. عماد عبد السلام رؤوف، عادلة خاتون وصفحة من تاريخ العراق في بغداد، بغداد، ١٩٩٧م، د. عماد عبد السلام رؤوف، الخدمة النسوية، ص٢٠٩.

(٣) د. عماد عبد السلام رؤوف، الخدمات النسوية، ص٢١٧.

(٤) المصدر نفسه، ص٢١٩.

(٥) المصدر نفسه، ٢٣٧.

(٦) المصدر نفسه، ص٢٣٩.

(٧) المصدر نفسه، ص٢٤٠.

(٨) د. عماد عبد السلام رؤوف، عادلة خاتون، ص٩.

(٩) د. عماد عبد السلام رؤوف، الخدمات النسوية، ص٢٠٩.



الطحانات.



مزارعة بغدادية.

وكان من النساء ممن يتولين الإشراف على الأوقاف بصفتهن متوليات يقمن بجمع الأموال من المصادر الموقوفة، ثم إنفاقها على أوجه الخير. وعلى الرغم من صعوبة إدارة مؤسسات كهذه كثيرة الموارد متنوعة المصادر، مختلفة الخدمات، فقد كان عدد كبير من المؤسسات الدينية، والثقافية، والاجتماعية تتولاه المرأة باستقلال تام نظراً إلى ما يتمتع به الواقف نفسه من حصانة واستقلال[١]. وقد كان لعدد كبير من النساء أملاك كثيرة لذا فقد عرف جانب من محلات بغداد بنسبته إلى النساء مثل محلة راغبة خاتون، وهيبة خاتون، وغيرهما وقد وردت إشارات إلى قيام النساء بتعليم الأطفال قراءة القرآن الكريم والكتابة[٢]. مما يظهر لنا إلى أن مبادرات ونشاط المراة البغدادية كانت واسعة ومتنوعة في جميع مجالات الخدمة العامة إلّا أنها كانت غير مرئية بصورة واضحة.

وفي ما يخص واقع المرأة الاجتماعي، لم يكن المجتمع البغدادي يفضل اختلاط الرجال بالنساء، وقد ترددت الكثير من القصص التي تدل على حرص الرجال على المرأة بسجنها بسبع غرف مغلقة كي لا تجلب له العار وعند قدوم الضيوف الرجال من يلجأن إلى مكان منعزل وإذا حصل ودخل الدار رجل أسرعن إلى وضع أخمرتهن على وجوههن، وكان من المعيب أن ينظر رجل إلى بنات أحد الناس[٣]. وكثيراً ما كان الرجل يفخر أن زوجته لم تخرج من بيته سوى مرتين الأولى يوم الزفاف والثانية يوم حملها إلى القبر إذ كانت الفتاة تحمل كفنها يوم زفافها دلالة أنها لا تخرج من بيت زوجها إلّا يوم مماتها[٤].

(١) المصدر السابق، ص٢١٠.

(٢) كامل الجادرجي، من أوراق كامل الجادرجي، بيروت، ١٩٨١م، ص٢٩.

(٣) يوسف عز الدين، مكانة المرأة العراقية وتعليمها في القرن التاسع عشر، مجلة المعلم الجديد، جزء خاص بالتعليم النسوي في العراق، السنة ١٧، ج١، أيلول ١٩٥٣م، ص٩٦.

(٤) المصدر نفسه، ص٩٧.



بائعات الحطب سنة ١٩١٦م.



بائعات الباگلة (الفول) سنة ١٩١٧م.

وهو أمر مبالغ فيه لأن النساء كنَّ دائماً يخرجن إلى الحمامات أسبوعياً أو يقمن بزيارة الأئمة والصالحين حسب الأيام المقررة لها أو التزاور فيما بينهن خاصة في المناسبات الأجتماعية والدينية[١].

يرى المجتمع أن طاعة الفتاة وإذعانها لمشيئة ولي أمرها مفروض عليها ولا يحق لها الاعتراض على من يتقدم لها فهو الذي يزوجها لمن يشاء سواء أكان هذا الزوج هرماً شيخاً أم شاباً ولا ترى الفتاة زوجها أو يراها إلّا يوم زفافها، فتنتقل بذلك طاعتها من ولي أمرها إلى زوجها الذي تقدم له الاحترام الكبير، وتعمل على خدمته بنفسها رغم وجود الخدم ويصف وليم فوك ذلك: «بعد النهوض صباحاً يؤدي الزوج عباداته، ويجلس على سجادته، وتقدم له زوجته الشيف، والقهوة، وتجلس على بعد مسافة بانتظار القدح، وتقبل يده عندما يستلم القدح وهي إمارة على الاحترام»[٢]. ونظراً إلى تقاليد المجتمع وعاداته المترسخة التي كانت ترى في خروج الفتاة من أجل التعلم أمراً يؤدي إلى فسادها. لهذا لم تشهد هذه الحقبة سوى عدد قليل من مدارس الإناث إذا ما استثنينا مدارس الأقليات الدينية فإن تعليم المرأة يكاد ينعدم[٣] وظلت المرأة تعيش في ظروف متخلفة فرضها عليها تخلف المجتمع نفسه[٤] مما كان له أثر على الانحطاط الفكري للمرأة التي جعلها تؤمن بالخرافات، وكانت ألعوبة بيد المنجمين الذين يقرأون الطالع ويكتبون لها كتب المحبة والبغض وغيرها من أعمال الشعوذة.

---

(١) جيمس وليستد، المصدر السابق، ص٧٤؛ G. Geary, op., cit., p:112.

(٢) W. Fogg, op., cit., p:317.

(٣) طارق نافع الحمداني، الحركة النسوية، بحث في كتاب حضارة العراق، ج٣، بغداد، ١٩٨٥م، ص١٨٢.

(٤) عبد الرحمن سلمان الدربندي، المرأة العراقية المعاصرة، ج١، بغداد، ١٩٦٨م، ص٤٥.



امرأة تجلس عند كاتب العرايض ليكتب لها عريضة سنة ١٩١٤م.



خبز التنور.

إلّا أن موضوع المرأة لم يبق بمعزل عن عوامل النهضة[١] التي بدأت تياراتها الفكرية تجد صداها الواسع بين المثقفين عن طريق الصحف، والمجلات التي تصل بغداد والتي حملت بين طياتها أفكاراً ومقالات تدعو إلى وجوب تعليم المرأة بأقلام رواد النهضة أمثال قاسم أمين وأحمد فارس الشدياق[٢].

وقد تركت هذه التوعية أثرها الواضح في حمل أفكار جديدة نتج عنها الدعوة لفتح أول مدرسة للإناث بتأثير من الشاعر جميل صدقي الزهاوي الذي قدم طلباً لوالي بغداد نامق باشا وتمت موافقة السلطان على ذلك وفتحت المدرسة في سنة ١٨٩٩م[٣] في محلة الميدان الجديدة والتي عرفت باسم **(إناث رشدية مكتبي)** وضمت المدرسة الدراسة الابتدائية والمتوسطة وبلغ عدد طالباتها (٩٥) طالبة درسن فيها العلوم، وقراءة القرآن الكريم، ومبادئ الحساب والجغرافية، والتاريخ العثماني[٤]. وكان هذا العمل الكبير في زمانه نقطة مضيئة في بداية الطريق لتحرير المرأة من براثن التخلف والجهل، ولكنه جوبه بالمقاومة من قبل بعض علماء الدين من خلال إطلاق دعوات معاكسة لدعوة تحرير المرأة منها **رسالة (الإصابة في منع النساء من الكتابة) للعلاّمة نعمان خير الدين الألوسي، ومما قاله: «إن تعليمها يوصلها إلى أغراض فاسدة وإمكان توصل الفسق إليها على وجه السرعة أبلغ من توصله إليها بدون ذلك»**[٥].

---

(١) كمال مظهر أحمد، حول نشوء حركة التحرر الوطني العربي في دراسة سوفيتية جديدة، ص١٤٥.

(٢) مجلة الهلال، ج١٨، ١٥ حزيران ١٨٩٩م، ص٥٦٤.

(٣) عبد الرزاق الهلالي، معجم العراق، ج١، ص٢١٣-٢١٤؛ علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٥٨.

(٤) عبد الرحمن سلمان الدربندي، المصدر السابق، ص٤٦.

(٥) نعمان الألوسي، الإصابة في منع النساء من الكتابة، مخطوط د.ص.م، رقم ٧٩١، ١٣٢٣هـ.

وفي سنة ١٩٠٤م واجه الوالي عبد الوهاب باشا مقاومة عنيفة لمجرد محاولة إجراء تعداد للنساء مما دفع الوالي إلى تأجيل النظر في ذلك[١]. ومع هذا كانت قصيدة الزهاوي التي نشرت سنة ١٩٠٧م منتقداً فيها الحجاب انطلاقة متواضعة لتحرير المرأة[٢].

وبعد قيام ثورة ١٩٠٨م كان من الطبيعي أن يتطور الاهتمام بمسألة تحرير المرأة ولو في نطاق ضيق بحكم ظل الأوضاع السائدة، لأن مجرد إثارة أمر بسيط يتصل بموضوع تحرير المرأة كان يعد تحدياً من قبل المثقفين. ولكن المثقفون استمروا يدعون إلى تحرير المرأة، وكتب أحد المثقفين في جريدة صدى بابل قائلاً: «أن الوطن لا يترقى ما دامت المرأة جاهلة منحطة في الآداب»[٣].

وكانت قصيدة معروف الرصافي (تربية الأمهات) التي نشرها سنة ١٩٠٩م تتضمن أفكاراً أكثر شمولية، فقد شبه المرأة بالمدرسة ودعا إلى تعليمها، وتثقيفها، وندد بالعادات التي تحط من مكانة المرأة[٤] وبالرغم من تركيزه على تعليم المرأة إلّا أنه لم يسلم من الانتقاد وكان خصومه يرون أن المرأة لا تصلح للتعليم[٥]، **كما دعا شكري الفضلي لتحرير المرأة وقد كان ينظر لها نظرية عصرية فهي «أساس البيت الاجتماعي، وهي الفضائل الصادقة والآداب الطاهرة وخدمة المنزل بدون تأنٍ أو فتور»**[٦].

ودعا محمد باقر الشبيبي إلى تعليم المرأة تدبير المنزل، فضلاً عن قواعد

---

(١) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص١٦.

(٢) المقتطف، ج٨، ١١ آب ١٩٠٧م، ص٦٣٢.

(٣) صدى بابل، العدد ١٤، ٢٨ كانون الثاني ١٩١٠م.

(٤) ديوان الرصافي، شرح وتعليقات مصطفى علي، ج٢، بغداد، ١٩٨٦م، ص٣٥٠-٣٥٨.

(٥) الرقيب، العدد ٧٤، ٦ ذي الحجة ١٣٢٧هـ.

(٦) لغة العرب، ج٥، تشرين الثاني ١٩١٣م، ص٢٣٥.

اللغة العربية، والتاريخ، واللغات الأجنبية، لأنها تساعد على التربية الصحيحة، وعارض سماع الأصوات الداعية إلى أن البنات على هذه الحالة هي خير وأبقى[(١)]. وكل ما كتب بصدد رفع مكانة المرأة لم يلق استجابة من قبل القوى المحافظة، إنما ظهر انتقاد لبعض المظاهر التي أعدتها هذه القوى تجاوز لمفاهيمها وعلى سبيل المثال تعرض مدير شركة الترام إلى انتقاد شديد لأنه رفع الحواجز في العربات التي تفصل محلات جلوس الرجال عن النساء،[(٢)] كما انتقدت الصحف بشدة دخول ثلاث نساء ملهى قهوة الشط الغاص بالمشاهدين الرجال وتم إخراجهن وسط اعتراض الرجال على ذلك[(٣)]. وكانت مقالة الزهاوي التي نشرت في جريدة المؤيد المصرية في آب ١٩١٠م سبباً في تظاهرة احتجاجية ضده وبرز عدد من المعارضين لآرائه داخل القطر وخارجه وللكتابة ضده. **وكتب سعيد النقشبندي رسالة ضده سماها «السيف البارق في عنف المارق»** حاول فيها تفنيد آراءه[(٤)] وقد أدت الحملة المعادية هذه إلى عزله من مدرسة الحقوق[(٥)]، ولم تحل الضجة التي قام بها الزهاوي دون استمرار معالجة موضوع المرأة ولكن بإطار معتدل باي حال من الأحوال إلى ما طرحه الزهاوي. **فقد نشر أحد المثقفين في مجلة لغة العرب بصدد هذا الموضوع «أن العرب اشتقوا لفظة الأمة من الأمة لأنهم علموا أن الأمة لا تتقدم إلّا بتقدم الأم»**[(٦)]. في ضوء ذلك يظهر أن هذه الحقبة كانت تمثل البداية لدعوات المثقفين الجادة لتحرير المرأة. وكانت بمثابة تحد للمحافظين، وأول أساس لنهضة المرأة التي شهدتها المرحلة التالية من تاريخ العراق المعاصر.

---

(١) لغة العرب، ج١١، نيسان ١٩١٣م، ص٤٤٥-٤٥١.
(٢) الرقيب، العدد ١٠٨، ١١ ربيع الآخر ١٣٢٨هـ.
(٣) الرقيب، العدد ١٤٠، ١٧ رجب ١٣٢٨هـ.
(٤) الزهاوي، دراسات ونصوص، ص١١٢.
(٥) مصطفى الواعظ، المصدر السابق، ص٣١٠.
(٦) لغة العرب، ج٣، تموز ١٩١٣م، ص٥٣.

٣ العلاقات الاجتماعية:

سادت المجتمع البغدادي أنواع من العلاقات الاجتماعية على مستوى الأسرة والمحلة والسوق. وتأتي العلاقات الأسرية في مقدمة تلك العلاقات الاجتماعية، وذلك بسبب نظام الأسرة الكبيرة الذي كان سائداً في حقبة البحث، حيث ضم البيت البغدادي مجموعة من الأسر التي تربط بينها صلة الرحم القريبة هي أسرة الأخوة وربما الأعمام، وبعض الأفراد من غيرهم، كالخالات، والعمات، ومن هم سواهم. ومن الطبيعي أن نظاماً اجتماعياً كهذا كان كفيلاً بالحفاظ على الموروث الثقافي، والاجتماعي، بل والاقتصادي أحياناً فمهن الآباء يتوارثها الأبناء، وقيم الأجداد يحافظ عليها الأحفاد بكل أمانة، وكذلك العادات والتقاليد التي ألفتها الأجيال السابقة يجري التمسك بها بوصفها إرثاً عزيزاً، ورمزاً لكل ما هو جدير بالعناية والاحترام. وهكذا فإن هذه البنية كان سبباً في الحفاظ على النسيج الاجتماعي متماسكاً إلى حد بعيد على الرغم من استقبال المجتمع خلال تلك الحقبة لمؤثرات فكرية واجتماعية واقتصادية مختلفة.

لقد تمكن المجتمع البغدادي من الثبات أمام تلك المؤثرات على الرغم من طرقها أبوابه بقوة في السنين السابقة لانقضاء حقبة عهد الدولة العثمانية في العراق. ولم يظهر أثرها في الواقع إلّا بعد عقود ما بعد السنين التي تجاوزت حقبة البحث.

كانت الأسر التي تعتمد في ثروتها على الملكيات الزراعية الكبيرة تميل إلى الزواج الداخلي بهدف عدم التخلي عن سماتها هذه إلى الأسر الأخرى، أما أسر الفئة الوسطى والعامة فكانت تفضل التصاهر مع أخرى التماساً لشرف، أو جاه، أو تحسين الوضع الاقتصادي، ويندر أن تكون ثمة أسرة بغدادية إلّا ولها صلات مصاهرة قوية مع غيرها من الأسر الأخرى.

أما العلاقات الاجتماعية التي تسود الجيران في المحلة فتتحكم بها التقاليد والأعراف للمحافظة عليها، فيشترك الجميع في الأفراح والأحزان في

ما إذا احتاج أحدهم إلى مساعدة، يسرع الجميع إلى تقديم المعونة. كان شيوخ المحلة يجلسون في زقاق من أزقة المحلة مساء كل يوم ليتحدثوا بشؤون المحلة، وهم مستشارون لجميع أبناء المحلة في جميع الأمور الخاصة والعامة. وإذا ما حدث وفاة لعائلة فقيرة يأخذ هؤلاء الشيوخ على عاتقهم مهمة تجهيز وجمع المال لمساعدة العائلة المنكوبة، أو في حالة خسارة أحد أفراد المحلة في عمله أيضاً يجمع الشيوخ الأموال من الموسرين، لتقديم المساعدة له لحين استعادة وضعه الطبيعي في العمل. والذي يحتاج إلى رأس مال لابتداء عمل ما، أو يحتاج إلى عمل يذهب إلى شيوخ المحلة لتحقيق رغبته، فيجمعون لمن يريد رأس المال لابتداء أي عمل كان، ومن يحتاج للعمل يبحثون له عن عمل ويكفلونه عند صاحب العمل[(١)]. وكان الشيوخ مسؤولين عن التحكيم في ما يحدث من خلاف لأحد سكان محلتهم مع رجل من محلة أخرى حيث يمثل شيوخ كل محلة أصحابها للتحكيم، وكان الشيوخ رقباء على سكان المحلة يرشدون ويعلمون ويأخذون على عاتقهم إبعاد الغرباء عن المحلة خوفاً من الإساءة إلى سمعتها. ولا بد للغريب الذي يشاهد في المحلة أن يسأل عن غايته، ولماذا جاء إلى المحلة؟ ولمن يريد أن يواجه؟ وفي حالة وجود ضيف أو ضيوف عند أحد أبناء المحلة وهو فقير الحال، يهيئون له الفراش المطلوب والأواني المطلوبة ويقدمون له المساعدة المالية[(٢)]، وعندما تريد إحدى العوائل تزويج ابنها فبعد تعيينهم الفتاة يتصل الأب بشيوخ المحلة لأخذ رأيهم ليقدم على طلب بصحبتهم الفتاة رسمياً مع أمام المنطقة، وبعض أقاربه يناقش أمر الخطوبة وما يتعلق بها من أمور[(٣)] وكان لنساء المحلة علاقتهن مع بعضهن، فإذا مرضت ربة البيت أو كانت هناك وليمة

---

(١) بغدادي أصيل، من تقاليد أهل بغداد وعاداتهم، الشرق، العدد ٦٥٢، (٢٢ رجب ١٣٨٢هـ/ ٩ كانون الأول ١٩٦٢م).

(٢) سعاد العمري، المصدر السابق، ص٩٧؛ Habib Chiha, op., cit., p:184.

(٣) بعد تحديد المهر المقرر تبعاً للموقع الاجتماعي للزوج، وبعد حسم جميع التفاصيل =

في بيت من بيوت إحداهن، تسارع نساء الجيران إلى مساعدتها، والقيام بواجبات الطبخ، وتهيئة الفراش، وتنظيف غرف البيت، وغسل الدار بعد الانتهاء من الوليمة وإذا كانت امراة معروفة بإتقانها إعداد ضرب من الأطعمة تستعين بجاراتها لإعداد مثل تلك الأطعمة وتعلم مهاراتها لهن ومن عاداتهن أيضاً إذا طبخت ربة البيت أكلة مميزة توزع على الجيران، تعرف بـ**(طعمة)**، وبعد أيام لا بد أن يرد إليهم الإناء وفيه طعام آخر[1]. ومن الجوانب الإيجابية التي تمتع بها البغداديون تفقدهم للفقراء والأرامل، والإحسان إليهم، وإلقاء المعونة بين أيديهم بكل صمت، ويغلب على كثير من بيوت البغداديين احتضان الأيتام وتربيتهم خير تربية.

مما تقدم يستدل على التعاون والمشاركة في السراء والضراء بين مجتمع المدينة ومن البديهي أن تكون العلاقات الاجتماعية بين المهاجرين الجدد في أول الأمر غير وطيدة ولكنها تتوطد بفعل تقارب البيوت، ونشوء جيل جديد يجمع بين أفراد الأزقة والأسواق، والجوامع، وغيرها من أسباب الالتقاء الكثيرة على الرغم من بطئها أحياناً، فتدب القيم والعلاقات الاجتماعية من

= يتلو الإمام بعض الآيات والصلوات ويسأل الخطيب ووكيله في موافقته على الزواج، ويسأل وكيل الزوجة التي تعلن عن موافقتها له، فيأخذ المؤمن بعد ذلك اليد اليمنى لكل من الوكيلين ويضمهما معاً ويقرأ خلالها المؤمن الصلاة والآيات ثم يقرأ جميع الحاضرين سورة الفاتحة، فيعلن عن إتمام الزواج بعد ذلك يقوم المؤمن بإرسال ورقة النكاح المؤيد من قبل مختار المحلة إلى القاضي الديني في المحكمة ومعه الوكيلان واثنان من الشهود فتمهر ورقة النكاح «العقد» من قبل القاضي وبذلك يصح الزواج شرعياً.

سجل يقيد منه الأذن أمات في زمن العالم المحقق المدقق محمد عطا الله أفندي وكان ذلك في غرة محرم الحرام السنة التسعين ومائتين وألف، محفوظ في دار الكتب الوطنية تحت رقم سجل ١٦، سنة ١٢٩٠هـ، سجل ١٨ لسنة ١٣٠١هـ.

(١) بغدادي أصيل، من تقاليد أهل بغداد وعاداتهم، الشرق، العدد ٦٦٣، (٢٤ رجب ١٣٨٢هـ/ ٢١ كانون الأول ١٩٦٢م).

جديد بين السكان الجدد فتتنامى، وتجد دائماً من يحرص ويدعو إليها. لهذا نجد القيم ذاتها المعروفة في التاريخ نجدها لدى كثير من سكان المدينة. وما تربطهم من علاقات الأخوة، والصداقة، والمحافظة عليها بجميع صورها.

وقد كانت مراسيم العزاء معبرة عن مدى التعاون والألفة والمحبة بين أبناء المجتمع البغدادي. فإذا توفي رجل أو امرأة تجمع الأصدقاء، والأقارب في دار الميت لتشييع الجثمان، ويقوم الجيران بفرش الطريق الذي يقع عليه بيت الفقيد ليجلس عليها المعزون يشترون السكائر لتوزيعها عليهم ثم يذهب أحدهم لشراء التابوت، والقطن، والكفن، ويذهب آخر إلى البلدية لأخذ إجازة الدفن(١). وإذا وجدت حفلة زفاف أو غيرها تؤجل إلى وقت آخر(٢)، وتقوم نساء الجيران بفرش البيت للتهيئة للعزاء ثم يقمن بجميع واجبات البيت ورعاية الأطفال. ويتقدم الأصدقاء والجيران لحمل الميت من الفراش إلى التابوت إن كان الميت رجلاً، لأن المرأة تحمل من قبل الأقرباء فقط(٣)، كما يقوم أحد الأقرباء أو الجيران بإحضار العشاء لأفراد وعائلة الفقيد وقد يتولون الطبخ طول فترة إقامة العزاء التي تستمر ثلاثة أيام أو سبعة أيام(٤).

ومن عادات البغداديين عدم حلق رؤوسهم وأذقانهم مدة أربعين يوماً لحزنهم، فيتقدم أحد الأصدقاء لإقامة مأدبة طعام ويجمعهم بعد انتهاء مدة الأربعين يوماً، وبعد الأكل يتقدم الحلاق ليحلقهم ابتداء من الكبير إلى الصغير(٥). أما النساء فقد تطول مدة حزنهن وحدادهن لسنة أو أكثر إلى أن

---

(١) Habib Chiha, op., cit., p:197.

(٢) بغدادي أصيل، من تقاليد أهل بغداد وعاداتهم، الشرق، العدد ٦٦٥، (٢٧ رجب ١٣٨٢هـ/ ٢٤ كانون الأول ١٩٦٢م).

(٣) Habib Chiha, op., cit., p:197.

(٤) مير بصري، صفحة من صفحات رحلة الرحالة نيجهولت، البلد، العدد ٨٢٢، ٧ شباط ١٩٦٧م؛ Habib Chiha, op., cit., p:197.

(٥) Habib Chiha, op., cit., p:197.

يقوم كبير العائلة بتقديم الملابس الجديدة الملونة لإنهاء حداد النساء[١].

وقد اعتاد البغداديون تقديم التهاني في المناسبات العائلية وغالباً ما جاءت الهدايا وفاءً ورداً لهدايا سابقة.

٤ الخرافات والأساطير:

لدى المجتمع البغدادي اعتقاد كبير بالخرافات والأساطير، ويرجع هذا إلى جهل المجتمع وقلة وسائل العلاج، فيلجأون لحل مشاكلهم إلى الدراويش، والسحرة لعلاجها بطرقهم التي كانت بعيدة عن الدين الإسلامي، أو اللجوء إلى أماكن مقدسة يتوقعون أنها تجلب لهم السعادة والعلاج من المرض، أو لحل مشاكل عالقة. وسنبحث في بعض العادات الخرافية التي يتمسك بها المجتمع البغدادي آنذاك منها **(طوب أبو خزامة)**



طوب أبو خزامة سنة ١٩١٧م.

---

(١) بغدادي أصيل، من تقاليد أهل بغداد وعاداتهم، الشرق، العدد ٦٦٠، (٢١ رجب ١٣٨٢هـ/ ١٨ كانون الأول ١٩٦٢م)؛ Habib Chiha, op., cit,. p:198.

الذي يقع أمام السراي، وله مزايا لا سبيل لحصرها كلها، ولكن يمكن ذكر البعض منها تذهب المرأة العاقر لتجلس فوقه أو تمر فوقه ثم تربط خيطاً في فوهته كي تحمل طفلاً في المستقبل، والطفل المصاب بالحصبة يؤتى به إلى الطوب ليعبر فوقه (٧) مرات ليشفى من المرض، والمصاب بالحمى يكفي له أن يلمسه فتذهب عنه، وغيرها من الفوائد لهذا الطوب[١].

وهناك تمثال أيل الذي يقع في بستان بين الكاظمية وبغداد تزوره الكثير من النساء وخاصة اللواتي لم ينجبن، فيتحقق مرادهن حالما يزرنه ويركبن على ظهره، وعندما تزوره المرأة التي لا يحبها زوجها تكون من أحب الأحباب لديه[٢].

وكان لقبور علماء الدين، حصة في خرافات البغداديين، فيستخيرون بها، ويسألونها دفع مرضهم، أو إيفاء ديونهم، وإسداء الرزق لهم، فكان قبر الشيخ عبد القادر الكيلاني الطبيب الشافي لكل مرض من الحمى إلى الجنون[٣]، ومن تريد الزواج تذهب لزيارته كل ثلاثاء مدّة (٤٠) ثلاثاءً ولم

---

(١) لمزيد من المعلومات، انظر: كاظم الدجيلي، طوب أبو خزامة، لغة العرب، السنة ٣، ج٨، ١٩١٤م؛ بغدادي أصيل، من تقاليد أهل بغداد وعاداتهم، الشرق، العدد ٦٦٢، (٢٣ رجب ١٣٨٢هـ/ ٢٠ كانون الأول ١٩٦٢م).

(٢) خرافات عوام بغداد، لغة العرب، السنة ٣، ج٩، (ربيع الثاني ١٣٣٢هـ/ آذار ١٩١٤م)، ص٤٥٣.

(٣) هناك شيخ يطلب منهن قفل ومفتاح ويأمرهن أن يرسلن طرف أثوابهن ليضع عليه القفل ويغلقه ثلاث مرات ثم يأمرهن بالقيام ويخطون على القفل ثلاث خطى ثم يقرأ عليهن ما يشاء، ثم تعطيه خليط من الزبيب والحب والكشمش ولوز وفستق وجوز وأذرة شام والحمص وحلوته وبذلك يتحقق مرادها. أما المجنون فتربط ركبته إلى قفص قبر الشيخ ثم يضع إناء مملوءاً بالماء يضع داخل القفص لمدة ليلة واحدة وعند الصباح يضعون المجنون أمام القبلة ويشربونه الماء ويقرأ عليه بعض الأدعية وبهذا يشفى المريض أما المصاب بالحمى فيقرأ الشيخ على رأس المصاب ثم يطلب منه عشرة قروش وحب بخور وعلج بستج وحرمل وبعد طحنها وخلطها يذاب ويبخر به =

يقتصر هذا الأمر على المسلمات، بل كانت اليهوديات يزرنه لتحقيق طلبهن، أما المرأة التي لم تنجب فيكفي أن تجلب من ماء البئر لتغتسل به حتى تحصل على مرادها[١]. وتتبع الخطوات ذاتها مع مراقد الأولياء الصالحين الآخرين، إلّا أنها تكون كل حسب يومه، مثل أبي حنيفة يوم الأحد، ومعروف الكرخي يوم السبت، وأم رابعة يوم الأربعاء[٢]. وفي بعض المراقد تتبع خطوات غريبة لتحقيق المراد فعند قبر الجنيد الصوفي الذي يبعد نصف ساعة عن بغداد توجد **الجلاميد (الصخور)**، فمن يضع هذه الصخور على محل المرض يشفى منه، ومن تشرب من ماء البئر الذي يباع بسعر فاحش إذ كانت عقيمة تنجب، ومن كانت تلد إناثاً فبعد شربه تلد ذكوراً على أن يكون ذلك يوم الأربعاء. وبالقرب من قبر جنيد يوجد قبر بهلول **(أو بيوت بهلول)** الذي يزار بعد جنيد، وتطبق فيه أيضاً عادة غريبة في أطوارها فمن تريد تحقيق أمنيتها تبني لها بيتاً من الأحجار على شكل مستطيل، أو مربع أو مستدير يصل ارتفاعه إلى ذراع، أو نصف ذراع بالقرب من المسجد، وتطلب مرادها وتنذر له النذر فإذا تحقق الطلب وقضى أمرها هدمت بيتها ووفت بنذرها وإن لم يقض حاجتها يبق البيت على حاله[٣].

وعند الإيفاء بالنذور يتبع الأمر نفسه مع جميع المراقد، إلّا أن الخطوات

= المصاب تحت ملابسه وبعد ذلك يعطيه ماء مغسول فيه مفاتيح أبواب الشيخ فيشرب منها بعد الصلاة ويعطيه دعاء يضع بصدره فيشفى المريض. أنستاس الكرملي، مزارات بغداد، ورقة ٣-٦؛ مسلم مطلع، بعض خرافات البغدايين، لغة العرب، السنة ٤، ج١، (شعبان ١٣٣٢هـ/ تموز ١٩١٤م)، ص١٨؛ خرافات عوام بغداد، المصدر السابق، ص٤٥٢.

(١) (٢) أنستاس الكرملي، مزارات بغداد، ورقة ١٥؛ مسلم مطلع، بعض خرافات البغداديين، ص١٨.

(٣) خرافات عوام البغدايين، المصدر السابق، ص٤٥؛ محمد الهاشمي، المصدر السابق، ص١٤٨.

تكون حسب المنذور، فإذا نذرت شمعة وحنة يأتي بها إلى المرقد المنذور له وتطلى أبوابه بالحناء وتشعل الشموع في المراقد[١]، وإذا كان النذر **(سفرة طعام أو سفرة خروف)** وأغلب ما يكون الطعام **(الدولمة أو الشيخ محشي)**، فبعد تجهيز الطعام يخرجن من بيت الناذرة، ومعها من دعتهن من أهل محلتها، وأقاربها. يهلهلن، ويصفقن، ويحملن الطعام، والشموع، ويسير أمامهن أبو الطبل والزمار، فيقرع على الطبل من البيت حتى وصول المرقد[٢]، وتتبع الخطوات نفسها عند نذر الخروف ما عدا ذبحه أمام المرقد[٣]. أما إذا كان النذر إقامة مولود فتجلب الشموع والحنة وبعض النقود وتوزع على خدمة المرقد ثم يقرأ المولود من قبل شيوخ الطريقة[٤].

ومن الخرافات الأخرى التي تعالج فيها الأمراض هي خيطة البيضة وهو أخذ المريض إلى أحد شيوخ الطرق، فيأخذ خيطاً وبيضة يلف حولها الخيط ويقرأ عليها ويدفنها في ملّة نار، أو جمر وبعد ذلك يخرج البيضة وقد سلم الخيط من الاحتراق، فيأمر المريض بأكل البيضة، وشد الخيط على إحدى يديه أو رجليه، فتزول الحمى بانحلال الخيط[٥]. والبعض من الناس يعطي الخيط إلى أحد الخطباء الذين يرقون المنابر، ويطلب إليه أن يلفه على السيف أثناء الخطبة، وبعد الانتهاء من الخطبة يسلم الخيط إلى صاحبه، فيأخذ ليشده على يد المريض ليتحقق شفاؤه[٦]، والطريقة الأخرى لعلاج الحمى ومعرفة شفاء الطفل أو موته أخذ قطعة من سعف النخيل، وإيقادها، والسير بها إلى النهر، فإذا انطفأت قبل أن تصل إلى النهر فإن هذا يشير إلى

---

(١) أنستاس الكرملي، مزارات بغداد، ورقة ٥؛ خرافات عوام بغداد، المصدر السابق، ص٤٥٥.

(٢) أنستاس الكرملي، مزارات بغداد، ورقة ٤.

(٣) مسلم مطلع، بعض خرافات البغداديين، ص١٦-١٧.

(٤) أنستاس الكرملي، مزارات بغداد، ورقة ٦.

(٥) (٦) مسلم مطلع، بعض خرافات البغداديين، ص١٥.

موت المصاب[١]، وإذا ظلت نار السعفة لم تخمد فإن ذلك يشير إلى انتهاء الحمى أما طريقة علاج الصداع فيقوم المصاب بالصداع بشق قصبة طولاً إلى شقين وكتابة بعض الأسطر فيها، ويشدها بشعرة من شعره ويضعها بين المقابر وبذلك يشفي من المصاب الصداع[٢]. ويستخدم البعض آلة الطرب المعروفة **(الحجية)**[٣] وذلك بالقرع عليها لشفاء المرضى[٤].

وكان للبغداديين معتقدات في أيام الأسبوع والأشهر، معتمدين التقويم القمري في تحديد الأيام والأشهر، فكانت الأيام موزعة لكل يوم عمل معين، فبداية أي عمل يجب أن تكون يوم الخميس، أو السبت **(بارك الله في سبتها وخميسها)** ومن أراد الانتقال من دار إلى دار يجب أن يكون يوم الاثنين، والحلاقة يجب أن تكون يوم الثلاثاء، أو الخميس. أما الاغتسال في الحمام وقص الأظافر فيكون ليلة الجمعة أو ضحى الجمعة، ويفضل دفن الموتى يوم الجمعة، يكون الزواج يوم الاثنين، أو الخميس، أو الجمعة، وخياطة أو شراء الملابس تكون يوم الاثنين، والأربعاء، والجمعة. ومن كان ينوي السفر يجب أن يكون يوم الأربعاء[٥] والمبيت في بيت أحد الأصدقاء ليلة الأربعاء يجلب الحظ[٦]، وفي كل شهر سبعة أيام تعتبر منحوسة الطالع فتسمى الكوامل وهي الثالث، والخامس، والثالث عشر، والسادس عشر، والحادي والعشرون،

---

(١) رضا محسن القريشي، الأساطير والملا عبود الكرخي، مجلة التراث الشعبي، السنة ٦، العدد ٤، ١٩٧٥م، ص٦٠.

(٢) خرافات عوام البغداديين، المصدر السابق، ص٤٥٣.

(٣) وهي خشبة طولها متر إلى ثلاثة أمتار مجوفة أو جذع نخل مجوف يجعل على أحد طرفيه جلد غنم يضرب عليه العبد عند ذكرهم الذي يسميه العامة «هيوا».

(٤) مسلم مطلع، المصدر السابق، ص١٩.

(٥) مير بصري، صفحات رحلة الرحالة نيجهولت، البلد، العدد ٨٢٢، (٢٧ شوال ١٣٨٦هـ/ ٧ شباط ١٩٦٧م).

(٦) بغدادي أصيل، بغداد منذ نصف قرن، الشرق، العدد ٦٤٨، (٣ رجب ١٣٨٢هـ/ ٣٠ تشرين الثاني ١٩٦٢م).

والثالث والعشرون، والخامس والعشرون، فيفضل الامتناع فيها عن السفر ومباشرة الأعمال العائلية، والتجارية، وفي الشروع بأعمال البناء والتعمير، وحتى تفصيل الثياب الجديدة[١]. وكما لكل يوم عمل كذلك لكل شهر عمل، إذ يعد شهرا محرم وصفر شهرا نحس فلا يعقد فيها الزواج، ولا يشرع فيها بأي عمل سواء كان تجارياً أم حرفياً. وفي يوم الأربعاء الأخير من صفر يخرج الناس إلى النزهة، وإذا عادوا عمدوا إلى كسر الجرة بعد أن تملأ بالماء ويوضع فيها قرش مع كعب أمام البيت **وتقول: «راح الشر وانتشر على الشوك والشجر»** ثم يغسلون الوجوه والأيدي للتطهير[٢]. وإذا حل شهر رجب، وشعبان، فيبشر الناس بالخير، ويفضل فيه السفر، والابتداء بأي عمل كان[٣]. ويعتبر شهر رمضان من أفضل الشهور لأداء العبادات، والصلوات الدينية وخاصة في الليالي العشر الأخيرة حيث تعتبر أفضل الليالي، إذ تفتح أبواب السماء، وتستجاب الدعوات، فتكثر الصلوات بين مغرب الشمس، وشروقها لغفران الذنوب وليدوم الخير طوال العام[٤].

وبصورة عامة يفضل البغداديون القيام بجميع الأعمال من المعاملات التجارية، أو الإدارية، أو حرفية، أو أعمال بيتية، وغيرها من الأعمال الأخرى في الصباح والابتعاد عن القيام بأي عمل في الليل[٥].

وكان للحيوانات وخاصة الطيور نصيب من معتقدات البغداديين، فإذا

---

(١) مير بصري، صفحات رحلة الرحالة نيجهولت، البلد، العدد ٨٢٢، (٢٧ شوال ١٣٨٦هـ/ ٧ شباط ١٩٦٧م).

(٢) بغدادي أصيل، من تقاليد أهل بغداد وعاداتهم، الشرق العدد ٦٦٢، (٢٣ رجب ١٣٨٢هـ/ ٢٠ كانون الثاني ١٩٦٢م)؛ مير بصري، صفحات رحلة الرحالة نيجهولت، البلد، العدد ٨٢٢، ٢٧ شوال ١٣٨٦هـ/ ٧ شباط ١٩٦٧م).

(٣) بغدادي أصيل، بغداد منذ نصف قرن، الشرق، العدد ٦٤٨، (٣ رجب ١٣٨٢هـ/ ٣٠ تشرين الثاني ١٩٦٢م).

(٤) (٥) مير بصري، صفحات رحلة الرحالة نيجهولت، البلد، العدد ٨٢٢، (٢٧ شوال ١٣٨٦هـ/ ٧ شباط ١٩٦٧م).

نعق الغراب صباحاً يستبشر أهل البيت خيراً، وإذا نعق بعد الظهر حتى المساء يكون شراً، أما إذا هجم سرب من العصافير على ساحة الدار وهن يزقزقن بشدة قيل إن ضيفاً عزيزاً سيأتي، ويعتبر خلو البيت من العصافير دليل على جلب التشاؤم، لذلك الذي يخلو بيته من الحديقة ينثر الحبوب على سطح الدار، وفي ساحة البيت لتجمتع العصافير[١]. وتكثر المرأة الحامل الإنصات إلى صوت البلبل، ليكون صوت الوليد نغماً وعذباً، وإذا تأخر الطفل في النطق تقوم المرأة بوضع إناء فيه ماء في قفص البلبل، وبعد أن ينهل منه تعطي بقية الماء إلى طفلها ليشربه وتفعل ذلك سبعة أيام[٢]، وبعد ذلك ينطق الطفل. والعائلة التي لا يعيش أطفالها تربي الطيور الصفراء، أو البيضاء. وكان صريخ البوم على السطح دليل على التشاؤم ولذلك على صاحب البيت في الصباح أن يتصدق بشيء على الفقراء. وهناك تمييز بين القطة السوداء والبيضاء فعلى أهل البيت أن يتحاشى إلحاق الأذى بالهرة السوداء باعتبارها جني شرير أما الهرة البيضاء ذات العين الصفراء فهي خير على أهل البيت لذلك تلقى الرعاية والاهتمام[٣] وإذا وجدت الأفعى السوداء وجب التخلص منها عن طريق وضع البطيخ في زوايا البيت فتترك الأفعى البيت إلى غيره، وإذا كانت الأفعى بيضاء اللون فهي خير وبركة في البيت لذلك يوضع إناء فيه ماء صاف وفيه شيء من الملح، ولا بد أن تشرب منه الأفعى وبهذا لا تؤذي أحداً وتصبح صديقة العائلة[٤].

وكان لجمال الغزال أثر في سرور الحامل لاعتقادها إذا نظرت إليه يكون

(١) بغدادي أصيل، من تقاليد أهل بغداد وعاداتهم، الشرق، العدد ٦٥٦، (١٦ رجب ١٣٢٨هـ/ ١٣ كانون الأول ١٩٦٢م).

(٢) عبد المهدي فائق، من تقاليد أهل بغداد وعاداتهم، الشرق، العدد ٦٦٩، (١ شعبان ١٣٨٢هـ/ ٢٨ كانون الأول ١٩٦٢م).

(٣) (٤) بغدادي أصيل، من تقاليد أهل بغداد وعاداتهم، الشرق، العدد ٦٥٦، (١٦ رجب ١٣٢٨هـ/ ١٣ كانون الأول ١٩٦٢م).

وليدها مثل رقبة أو عيني الغزال[١]. وبعض الأسر البغدادية عندها هواية تربية الحيوانات، مثل السلحفاة والطيور، والأرانب التي تربى مع الطفل لأنه تسبب له البقاء ولكن النساء تتشاءم من وجود الأرانب إذا كان البيت قديماً لأن الأرانب تسبب الحفر وقد يصل الأساس فتسبب هدم الجدران[٢]. وبعض الحيوانات تربى لإحلال الخير والبركة في البيت وللاستفادة من لبنها. وهناك رعاة يأتون عند شروق الشمس ليأخذوها من كل بيت، ثم يذهبون إلى ضواحي المدينة حيث الأدغال ويعودون بالماشية قبل الغروب ماراً من الطريق نفسه لإعادة كل واحدة إلى دارها، ويأخذ على كل رأس أجرة شهرية مقابل عمله هذا، وتتخذ الكثير من النساء من العجاج والغبار الذي تثيره قطعان الماشية علاجاً للطفل كثير البكاء في الليل، فتعطي الأم طفلها إلى أخته الصغيرة، أو أي فتاة لتحمله، وتركض وراء عجاج قطعان الماشية وهي تقول **(يا نعجة أخذي اللجة)** ثم تعود بالطفل إلى أمه على أن تكررها سبع مرات خلال سبعة أيام لتحقيق مبتغاها[٣]، وكان من معتقداتهم أيضاً أن تأخذ القابلة الطفل حديث الولادة في اليوم الثالث وتتجول به في المصبغة، وتأخذ بأصبعها قليلاً من النيلة، وتضعه على غطاء وجه الطفل، ثم تعبر الجسر وتأخذه إلى مكان تجمع الأغنام أو الثكنات العسكرية وإذا لم تفعل ذلك فسيحبس الطفل أو يموت[٤].

ولا يغيب عن بالنا ما كان للأساطير من تأثير على المجتمع البغدادي حيث دخلت في أدب العامة وشغلت بالهم ردحاً من الزمن محاولين بها تذليل الخوارق ومعرفة كوامنها، فيأتي الإنسان يختلق لهذه الخوارق قصصاً، وأساطير تفوق قوة الطبيعة، لذا نراه يستمع خاشعاً ينظر إلى المتحدث بقلبه، وروحه، محاولاً الوصول إلى تحقيق هذه الحوادث الأسطورية كمحاولة لتعليل

---

(١) عبد المهدي فائق، من تقاليد أهل بغداد وعاداتهم، الشرق، العدد ٦٦٩، (١ شعبان ١٣٨٢هـ/ ٢٨ كانون الأول ١٩٦٢م).

(٢) (٣) عبد المهدي فائق، من تقاليد أهل بغداد وعاداتهم.

(٤) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج١، ص٤١؛ مير بصري، صفحات من رحلة نيجهولت، البلد، العدد ٨٢٢، (٧ شعبان ١٣٨٧هـ/ ٩ تشرين الثاني ١٩٦٧م).

خلق الكون، والأبطال، والطقوس الدينية. فالأساطير لدى العامة كثيرة، يرونها في قصص وحكايات وأخبار، فمثلاً حينما تمطر السماء مطراً خفيفاً حسب معتقدهم أن الشمس تغسل رأسها، ويعتقدون أن القمر أعور، وأسطورة الكرة الأرضية التي يحملها الثور على قرنه فيحولها كل سنة من قرن إلى آخر لأن الثور يتعب فيراوح بينهما، وحينما تدور السنة أي تتحول من قرن إلى آخر، فإن الأساطير تكون كثيرة في هذا المجال، فتكون حسب الحيوان الذي تدور عليه فإذا كان أفعى، أو حصان تكون سنة خير، وإذا دارت على دجاجة، أو جرذي، أو جاموسة، أو قرد فإنها سنة شؤم حيث يكثر فيها الموت وتقل الخيرات. وإذا دارت على ضفدع كثر الهرج والمرج في الأسواق، وإذا كان ثعلباً فبيوتهم تظلم ويزيد فيها النوح والبكاء وغيرها من الحيوانات التي لها مدلولاتها، ويرافق يوم دوران السنة تقديم أنواعاً كثيرة من الأطعمة تحت السلة، ومن المهم أن يضعوا طعاماً مكوناً بدايته من سبع سينات[١]... ومن الأساطير التي يؤمنون بها عند خسوف القمر، أو كسوف الشمس أن الحوت يبتلع الشمس أو القمر، وعند حدوث هذه الظاهرة يتخلصوا منها عن طريق حمل الطبول والدفوف والكاسات، والضرب عليها كي تسمع الحوت أصواتهم، ولا يبتلعه، ويرددون مع هذا القرع غناء معروفاً[٢]. وكثيراً ما يروون قصصاً للسعلاة والواوي أو الديو أو الجني وغير ذلك من الأسماء التي جاءت بها أساطير ألف ليلة وليلة وغيرها، التي جرى فيها تعديلات كبيرة جعلها تتلاءم والأوضاع الاجتماعية الموجودة آنذاك.

وحفل المجتمع البغدادي خاصة بأقاصيص تناولت حياة السعلاة الخاصة والعامة حيث استقام للسعلاة الكيان الواقعي في أواخر الاحتلال العثماني، فأصبحت رائجة في الخيال الشعبي مخلوقاً يألف الأنهار، والبساتين القريبة من المياه الجارية، ويغطي جسمها شعر طويل ولها ثديان بارزان يتدليان حتى

---

(١) رضا محسن القريشي، المصدر السابق، ص٦١-٦٢.

(٢) W. Fogg, op., cit., p:218.

الركبتين، ولها ذيل سمكة، وهي مولعة باللحم البشري ولكنها تتخذ أزواجها من بني آدم[١]. وكثيراً ما أثارت قصص الخوف رعباً في نفوس الأطفال بحيث إن ورود اسمها عليه يجلس متأدباً. **ويعلّق الرحالة (جيري) على إيمان الناس بالقصص الخرافية بقوله: «يمكنك تصديق وجود الجن ومشعوذي القصص القديمة أثناء تجوالك حول المكان... إذ أنهم مستعدون إبلاغك عن رؤيتهم الجني بسهولة رؤيتهم الجمل نفسها»**[٢] فكثير من الناس وخاصة الأطفال يرتدي أشرطة مزودة بتعاويذ صغيرة الحجم يحتوي كل واحدة منها على آيات من القرآن، أو الطلاسم لطرد الأرواح الشريرة وآثار العين الحاسدة عن الشخص[٣].

ويؤمن المجتمع البغدادي بالسحر، فكان حل نزاع وخلاف أفراد العائلة، أو إرجاع الزوجة لمشاعر زوجها نحوها، أو أن تغير الابن في معاملته، أو إذا سرق مال أو أثاث لا يعثر عليه، أو للانتقام من شخص، أو غيرها من الأمور التي تحتاج للحلول يستعان بالسحرة لإعداد الوصفات، والطلاسم وغيرها من الأمور السحرية. وكثيراً ما كانت أموال النساء تذهب إلى جيوب السحرة[٤] وخاصة اليهود الذين اشتهروا بقوة سحرهم وبقدرتهم الفائقة وبراعتهم في إعداد الطلاسم، والوصفات السحرية التي طالما أدت إلى الموت أو المرض المزمن الذي لا علاج له[٥].

هناك نماذج وألوان من المعتقدات والخرافات والأساطير التي كانت سائدة آنذاك لا مجال لذكرها، فكان المجتمع البغدادي بحراً من السحر والشعوذة والخرافات والأساطير.

---

(١) عبد الحميد العلوجي، السعلاة في الخيال الشعبي العراقي، مجلة العراق، السنة الثالثة، العدد٣، آذار ١٩٦٢م، ص٢٦.

(٢) G. Geary, op., cit., p:166.

(٣) Ibid, p:230.

(٤) بغدادي أصيل، من تقاليد أهل بغداد، الشرق، العدد ٦٦٢، (٢٣ رجب ١٣٨٢هـ/ ٢٠ كانون الثاني ١٩٦٢م).

(٥) G. Geary, op., cit., p:230.

الملابس والأزياء البغدادية



فيصل الأول قبل اعتلائه عرش العراق يرتدي الزي العربي سنة ١٩١٧م.

الملابس والأزياء في بغداد، شأن جدير بالعناية، فقد تميزت بالتنوع الشديد في أشكالها وألوانها وأثمانها، وكان لهذا التنوع أثر في لفت أنظار معظم الرحالة الأجانب الذين زاروا بغداد خلال فترة البحث، فأولوها عناية خاصة في وصفها. وكان ذلك تعبيراً طبيعياً لكثرة الفئات الاجتماعية الموجودة، وحريتها في ارتداء الأزياء التي تنسجم مع أوضاعها الاجتماعية. وكان لكل فئة

وطائفة من الناس زي خاص يتميزون به، وقد كان للملابس أهمية في المجتمع البغدادي، إذ يقاس الإنسان ببريق مظهره الخارجي، وكلما كان زيه مترفاً ومظهره أنيقاً كان أجدر بالتقدير والاحترام، ولفت أنظار الناس إليه، وكانت ملابس الأغنياء والأعيان والتجار تصنع في الغالب من المنسوجات الحريرية، والأقمشة المستوردة من الهند ولندن والمطرزة دائماً بالخيوط الذهبية والفضية، كما يظهر ذلك في البستهم التي تتكون من الثوب القصير والسراويل المصنوعة من الحرير والكشمير[١]، ثم الزبون الذي يكون رداءً طويلاً حتى الكعبين له كمان طويلان حتى الرسغين، مع فتحة في نهاية كل كم مبطن من الداخل مفتوح المقدم يلف حول البطن، ويثبت بواسطة الحزام من الشال الكرماني أو الكشمير المستورد من بلاد فارس وفي بعض الأحيان يرصع بأحجار كريمة[٢]. ويستبدل الزبون بالصاية صيفاً، وهي تشبه الزبون إلّا أنها بدون أكمام ولا يبطن، ويرتدي البعض الزخمة فوق ملابسه وهي عبارة عن رداء قصير يصل المحزم بدون أكمام تزرر من الأمام، أو يرتدي الصديري وهو يشبه السترة إلى حد كبير وله أربعة جيوب تبطن شتاء وتزرر من الأمام[٣] وتلقى فوق هذه الملابس العباءة المصنوعة من مواد فاخرة ومطرزة[٤]. ولا يضع اليهود العباءة على أكتافهم بل يطوونها ويحملونها تحت آباطهم[٥] وهناك من يكتفي بالجبة التي تتكون من رداء طويل ذو كمين طويلين، مفتوحة من المقدم لها ياقة قصيرة وليس لها أزرار فقط[٦]. ويضعون فوق رؤوسهم العمائم التي

---

(١) جيمس ولستيد، المصدر السابق، ص٩٥.

(٢) Habib Chiha, op., cit., p:166; T. J. Ellis, Throlly the Desert, vol 11, London, p:22.

(٣) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج٤، ص٨٠-٨٢؛ Ibid, p:22.

(٤) W. Harkis, op., cit., p:304.

(٥) مير بصري، صفحات من رحلة الرحالة نيجهولت، البلد، العدد ٨١٢، ٢٦ كانون الثاني ١٩٦٧م.

(٦) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج١، ص٧٥.



أحد تجار بغداد

وتشاهد الحذاء الجديد والعباءة والعقال والكوفية.

تختلف أشكال لفها، وتكويرها وألوانها المصنوعة من الحرير الموسلين[(١)]، كانت العمائم تلف على **(العرقجين)** وبعد دخول **(الطربوش)** أو **(الفينة)** الحمراء التي تتدلى منها الـ **(بساكيل)** السوداء أو الزرقاء أخذ العلماء والأعيان بلف العمائم على الطربوش، وكانت العمائم البيض، والسود، والخضر خاصة بالمسلمين[(٢)] أما العمائم الملونة من قماش الشال المطرز أو الكشمير التي تلف على الطرابيش ذات **(البساكيل)**[(٣)] الزرقاء تختص باليهود، والبعض من اليهود يرتدي اليازمة أو الجرقد غطاء للرأس[(٤)] ويرتدي البعض الكفية المصنوعة من الحرير الملونة أو المطرزة بالذهب[(٥)].

ويرتدي العامة من الرجال الزي نفسه تقريباً، إلّا أنه يتكون من أقمشة رخيصة الثمن والبعض منهم يرتدي **(الزبون)** أو **(الصاية)** فقط المشدود بحزام من الجلد المعروفة بـ **(الحياصة)** بدلاً من حزام الكشمير[(٦)]. ويعتمون العمائم المصنوعة من قماش رخيص الثمن والبعض يضع على الرأس الكوفيه من أقمشة تعرف **(جواتي خشكوري أو الهندية)** وهي من خام أبيض خفيف[(٧)] وفي سنة ١٩١٥م استعملت الجزية القطنية واختلفت طرق ترتيبها ولفها حسب المحلة فهناك اللفة العصفورية والفضلاوية والمهداوية وغيرها[(٨)]. وهناك من يرتدي الزي العربي الذي يشمل الثوب الطويل الواسع، ويرتدي

---

(١) W. Harkis, op., cit., p:304.

(٢) جلال الحنفي، تاريخ الحياة الشعبية في بغداد، جريدة الأيام، ٣٠-٤-١٩٦٢م؛ Cowper, op., cit., p:272.

(٣) خصلة من خيوط البريسم تتدلى من وسط الطربوش.

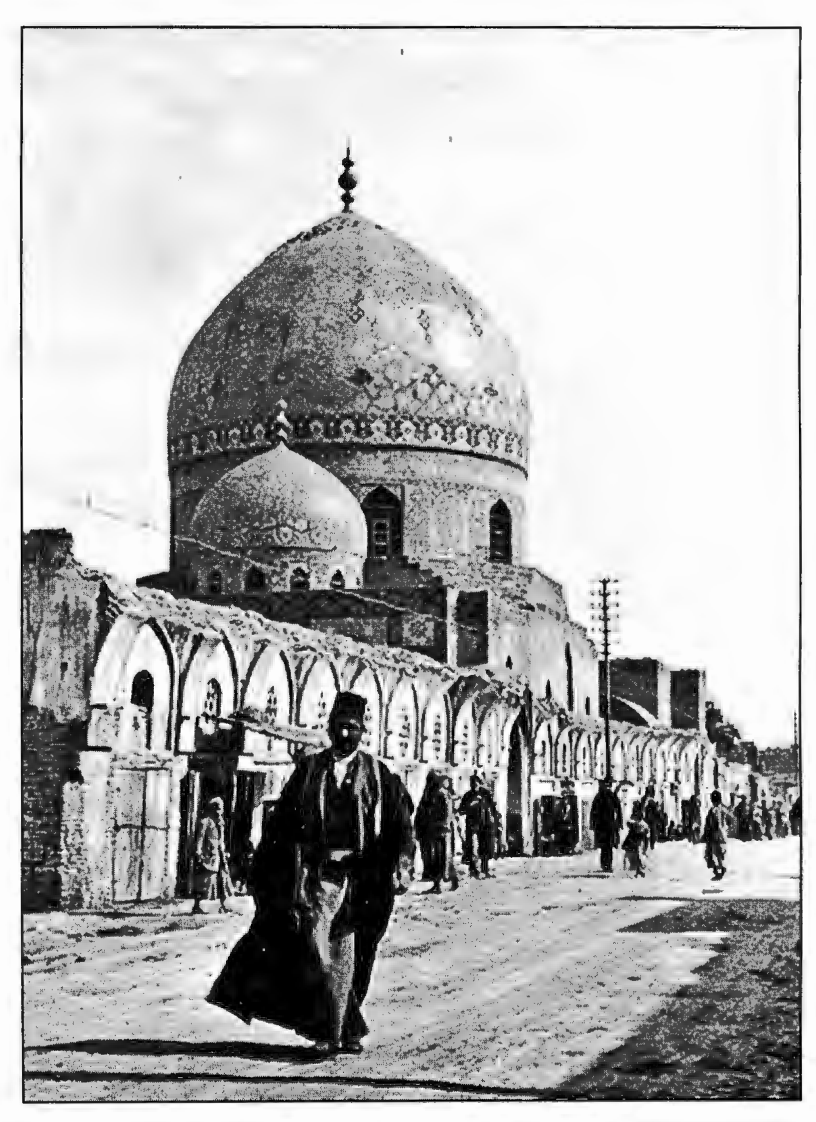
(٤) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج٤، ص٥٩.

(٥) T. J. Ellis, op., cit,, p:23.

(٦) جيمس ولستيد، المصدر السابق، ص٩٢.

(٧) مير بصري، صفحات من رحلة الرحالة نيجهولت، البلد، العدد ٨١٢، ٢٦ كانون الثاني ١٩٦٧م؛ Cowper, op., cit., p:272.

(٨) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج٤، ص٥٩.



الطربوش والصاية من تراث بغداد.

فوقه الصاية أو سترة ثم العباءة[١]، ويلبس على رأسه الكوفية، والعقال. والأكراد الذين يسكنون بغداد يرتدون السراويل والسترة المبطنة، وقبعة لها شكل مرجل مصنوعة من مادة خشنة[٢].

ومن عادات الشباب البغدادي تخصيص ألوان القمصان الزرقاء للمتزوجين والقمصان الحمراء يرتديها غير المتزوجين[٣]. وعلى العموم فإن جاذبية الألوان البراقة والثياب المبهرجة تعود جميعها إلى الرجال[٤]. **فيصف الرحالة إيلز ذلك بقوله: (الملابس تترك أثراً مشعاً أو متلألأً جداً)**[٥].

يتخذ الرجال أنواع من الأحذية تعرف **بالكيوة، والنعال اليمني، والمداس** تحدد ألوانها حسب مستخدميها، فالأصفر خاص برجال الدين، وطلبة العلم، وبعض التجار، وكبار السن، واللون الأحمر لأصحاب الحرف والصناعات[٦]، وبفضل الإصلاحات والتأثيرات الأوروبية شاع طراز جديد من اللباس كان خاصاً بالموظفين الأتراك، وطلاب المدارس الحكومية أول الأمر[٧]، ثم ما لبث أن انتشر تدريجياً في المجتمع البغدادي، والذي أكد ذلك ما نشرته جريدة الزوراء «**أن رقي العراق لا يأتي بمجرد لبس الأهالي الزي الأوروبي**»[٨] وقد ازدادت استيرادات بغداد للمنسوجات الخاصة بهذا الزي في مطلع القرن العشرين. **هذا ما أشار له القنصل البريطاني في بغداد «بأن هناك تجارة متزايدة للمنسوجات والملابس الصوفية إلى الضعف في بداية القرن العشرين لإقبال**

---

(١) مير بصري، من مدونات الرحالة نيجهولت، البلد، العدد ٨١٢، ٢٦ كانون الثاني ١٩٦٧م.

(٢) G. Geary, op., cit., p:102.

(٣) جيمس ولستيد، المصدر السابق، ص٩٧.

(٤) W. Fogg, op., cit., p:223-224.

(٥) T. J. Ellis, op., cit., p:23.

(٦) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج١، ص٩٠-٩١.

(٧) W. Fogg, op., cit., p:238.

(٨) الزوراء، ٣٠ محرم الحرام ١٢٩٠هـ.



الزي الرسمي.



لباس الشباب.

الناس على ارتداء الزي الأوروبي»[(١)]. لقد عرف من يرتدي هذا الزي بـ**(الأفندي)** الذي يشمل القميص، والبلوز، والسروال، والسترة، والرباط، وغطاء الرأس يكون الطربوش **(الفينة والتبلغ)** ويحتذون الأحذية التي عرفت **(بالقندرة القبقلي والقندرة أم القيطان والجزمة)**[(٢)]، ولم يعد هناك تميز في اللباس بين المسلم واليهود، إذ اشترك الجميع في هذا اللباس[(٣)]، وفي مقال للغة العرب **(كان يمكنك قبل (٢٠) سنة أن تميز بين المسلم من النصراني من اليهودي بمجرد النظر إلى ثيابه وبزته أما اليوم فقد اختلط الحابل بالنابل، إذ إن أغلب شبان بغداد يلبسون زياً واحداً)**[(٤)].

أما الجنود فكانوا يرتدون بزاتم العسكرية القطنية الزرقاء والطربوش الأحمر[(٥)] ويحتذي الضباط البوت الأحمر والمراتب يحتذون البسطال الأسود[(٦)].

وبصورة عامة يرغب الرجال بلبس الخواتم، فقد يضع أحدهم خاتمين أو ثلاثة في اليد الواحدة، وبعض هذه الخواتم منقوش عليها الاسم، وتاريخ النقش، وبعض الأقوال، والأشعار[(٧)]. وكما هو الشأن بالنسبة للرجال في بغداد فإن لباس نسائهم يتبع المكانة المادية والثروة، فملابس نساء الأعيان والتجار مؤلفة من الأنسجة الثمينة، كالحرير المشجر، أو السادة، أو الشال، والقطنية وغيرها المطرزة، والمزخرفة بالنقوش الذهبية والفضية مما يذهل

(١) حسن سلمان، المصدر السابق، ص٢٤٣-٢٤٥.

(٢) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج٤، ص٩٨.

(٣) محمد الهاشمي، المصدر السابق، ص١٤٨.

(٤) رزق عيسى، نظرة عامة في لغة بغداد العامية، لغة العرب، السنة الأولى، ج٢، (شعبان ١٣٢٩هـ/ آب ١٩١١م)، ص٦٩.

(٥) W. Harkis, op., cit., p:304.

(٦) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج٤، ص١٢٥.

(٧) مير بصري، من مدونات الرحالة نيجهولت، البلد، العدد ٨١٢، ٢٦ كانون الثاني ١٩٦٧م.



لباس الطبقة الغنية سنة ١٩١٧م.



زي امرأة من الطبقة الفنية الغنية تشرب النرجيلة.

الناظر إليها[١] **ويتكون ملبس النساء من ثوبين**: الأول قميص، أو ثوب طويل ذو أكمام طويلة فضفاضة يصنع من نسيج حريري رقيق ذي ألوان مختلفة يفتح من الأمام إلى ما يقرب المحزم، ويكون مطرزاً تطريزاً جميلاً حول العنق وعلى طول الصدر ويزر حول العنق بحلية[٢]، يرتدي فوق هذا النوع ما يعرف بـ **(الصدار)** المزينة بزينة جذابة تمتد من العنق إلى الوسط، ثم يلبس فوق هذا صدرية ذات ذيل طويل، وأكمام ضيقة تبقى مفتوحة حتى المرفق تقريباً. تلبس بالجسم تلبيساً ودائماً ما تكون ملابس الصيف رقيقة بسبب الجو الحار على عكس الشتاء إذ تكون ملابسه من النوع الثخين[٣]. ويرتدى فيه الزي نفسه ما عدا سترة قصيرة من قماش مماثل مبطنة بشيء من الفرو الناعم الأسود، **(أو القاتم)**[٤]، موشاة بالكلبدون، أو ترتدي الفرو الطويل كما ترتدي النساء السراويل الطويلة ذات الألوان الزاهية تحت ملابسهن شتاءً أو صيفاً[٥].

وترتدي المسيحيات الزي نفسه تقريباً إلّا أنهن بدأن يقلدن الأزياء الأوروبية[٦]، التي تتكون من تنورة طويلة وقميص أو صدارة قصيرة تصل إلى حد الخصر مزخرف بالأشرطة الذهبية، والفضية التي تغطي العنق، وتضع حول الخصر حزاماً مزخرفاً بأنواع الزينة[٧]. وتكون ألوانهن أكثر

---

(١) G. Geary, op., cit., p:225.

(٢) جيمس بيلي فريزر، المصدر السابق، ص١٤١.

(٣) ديولافوا، المصدر السابق، ص٧٠٧؛ T. J. Ellis, op., cit., p:22.

(٤) حيوان ذو فرو، كان يستورد فراؤه من شرق الأناضول وكان يعد أثمن أنواع الفراء وأغلاها.

(٥) جيمس بيلي فريزر، المصدر السابق، ص١٤١؛ مير بصري، من مدونات الرحالة نيجهولت، البلد، العدد ٨١٢، ٢٦ كانون الثاني ١٩٦٧م.

(٦) Habib Chiha, op., cit., p:166.

(٧) T. J. Ellis, op., cit., p:16.



لباس الطبقة العامة البغدادية.



لباس الباعة المتجولين في بغداد سنة ١٩١٦م.

بريقاً، ولمعاناً من ملابس المسلمات[١]. ولم تختلف نساء العامة أو الطبقات الفقيرة في الزي إلّا أنها تكون من أنسجة رخيصة الثمن.

وتضع النساء غطاءً على رؤوسهن يختلف بحسب عمر المرأة، أو حسب رغبتها، أو تفننها في لبسه[٢]. فهناك لباس رأس يعرف باشلك يكون اعتيادياً من منديل واحداً ومنديلين مطرزين بإكاليل الورود التي تختلط بكلبدون الذهب، أو شال الذي يكون من أفخر أنواع الشال الكشميري المطرزة حواشيه بكلبدون الذهب، والفضة، أو باللؤلؤ، وسائر المجوهرات بكل ذوق وأناقة يلف حول الفيس المرصع باللؤلؤ، ومحلاة بأسلاك الذهب والفضة، ودائماً ما يكون لون الفيس ملائم مع لون الملابس[٣]. والبعض منهن يرتدين **(عرقجين)** من الكشمير الفاخر الملونة وتلف حوله اليازمان الأوروبية الصنع[٤]، والبعض تصنع طاقية خفيفة مزينة بأسلاك من الذهب والفضة ولا سيما حواشيها ولها خيوط تتدلى عادة على جانبي الرأس[٥]، ويوضع لباس الرأس هذا بعد أن يظفر الشعر ويبرم في العمامة ليكون زينة قائمة بذاتها، وتتدلى من ذلك ضفيرة أو ضفيرتان إلى الخلف تنتهي كل منهما بمجموعة من الليرات الذهبية أو مشابك المجوهرات[٦]، ويعلق ملفوف بالشعر من جهة واحدة تحت اللفة أو العمامة وحبل من خيوط اللؤلؤ يعقد بالأحجار الكريمة، وكذلك يعلق مقدار من اللؤلؤ أو الليرات الذهبية بأشكال مختلفة على العصابة التي توضع على الجبين[٧].

---

(١) G. Geary, op., cit., p:123.

(٢) ديولافوا، المصدر السابق، ص٧٨.

(٣) جيمس بيلي فريزر، المصدر السابق، ص١٤١.

(٤) مير بصري، من مدونات الرحالة نيجهولت، البلد، العدد ٨١٢، ٢٦ كانون الثاني ١٩٦٧م.

(٥) ديولافوا، المصدر السابق، ص٧٨.

(٦) T. J. Ellis, op., cit., p:26.

(٧) مير بصري، من مدونات الرحالة نيجهولت، البلد، العدد ٨١٢، ٢٦ كانون الثاني ١٩٦٧م.

وتعرف حلي غطاء الرأس بـ(**الحبكة**) من جهة والتينة من الجهة الأخرى، و(**عين الكوني**) في الأمام متدلية على الجبهة[١]. وهناك بعض الأشياء الصغيرة تعلق في غطاء الرأس حسب تفنن، وذوق المرأة، كالدبابيس والبكلات والفرشات والجلناك[٢]، **وكان غطاء رأس المرأة وخاصة التركية مليء بالحلي والمجوهرات، ويصفه فريزر بقوله: «يبدو لك في الحال شيئاً بهياً جميلاً يمتلئ بالذوق ويتحدى الوصف»**[٣] وقد يكون غطاء الرأس عند أغلبية نساء العامة من



الحلي والمجوهرات و(الحبكة).

---

(١) T. J. Ellis, op., cit., p:26.

(٢) مير بصري، من مدونات الرحالة نيجهولت، البلد، العدد ٨١٢، ٢٦ كانون الثاني ١٩٦٧م.

(٣) جيمس بيلي فريزر، المصدر السابق، ص١٤٢-١٤٣.

الفوطة السوداء التي تتفوط به ثم تعصب رأسها بالكيش[١]. وقد بالغت السيدات الثريات باقتناء الحلي والمجوهرات، بحيث لا يمكن وصف أشكالها لتعددها، فتزين الآذان الأقراط **(المرداد)**، ويحاط العنق بعدد من قلائد الذهب واللؤلؤ، والزمرد، والكهرب الأصفر، والسلاسل من حب الذهب تتدلى إلى البطن تسمى الخصور والبراقات، وخيوط اللؤلؤ تربط بمشدات وتتدلى إلى البطن أيضاً من غير الشماسيات **(القوبجة)** التي هي نجمات من الذهب المرصع باللؤلؤ مركبات على دبوس يمسك طرفي البيجة[٢].

وتشد أنواع البازانيد على الذراع، والأسوار، والمشابك على المعاصم هذا غير الخواتم التي تختمت بها النساء وحلت أصابع اليد، وحتى أصبع القدم الإبهام يوضع فيه نوع من الحلي يعرف **(كشتمان)** المزينة بالماس واللؤلؤ[٣]، والخلاخل الذهبية في الساقين[٤]. والبعض من النساء تشد محزمها إبزيم من الذهب المزين بالأحجار الكريمة ويثبت بالمنطقة نفسها عدد من قطع الماس تسمى **(الملجم)**[٥]، ويصف فريزر المرأة التركية أثناء وقوفها أو تحركها **«كتلة من النور الباهر والرونق الأخاذ»**[٦]. وكانت النساء اليهوديات معروفات في اقتنائهن الحلي الذهبية والمجوهرات والأحجار الكريمة كالماس والياقوت والزمرد التي تعد غالية الثمن ونادرة الوجود[٧]، وكان من طبيعة النساء اليهوديات ميلهن إلى البساطة في الملبس ورغبتهن الكبيرة في اقتناء الحلي والمجوهرات. وبصورة عامة يتفاضلن النساء بكثرة حليهن ومجوهراتهن

---

(١) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج٤، ص٣١.

(٢) مير بصري، من مدونات الرحالة نيجهولت، البلد، العدد ٨١٢، ٢٦ كانون الثاني ١٩٦٧م.

(٣) جيمس فريزر، المصدر السابق، ص١٤٢-١٤٣.

(٤) (٥) ميري البصري، من مدونات الرحالة نيجهولت، البلد، العدد ٨١٢، ٢٦ كانون الثاني ١٩٦٧م؛ Habib Chiha, op., cit., p:166.

(٦) جيمس بيلي فريزر، المصدر السابق، ص١٤٣.

(٧) ديلافوا، المصدر السابق، ص١٠٩.

وخاصة في المناسبات[١]. أما بالنسبة لنساء العامة فقد تكتفي بالأحجار الرخيصة وبعض الحلي الذهبية والفضية[٢].

ترتدي النساء على اختلاف أديانهن، وطبقاتهن عند خروجهن **(إزاراً)** يغطيهن من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين. وهو يتكون من جزءين الجزء السفلي على شكل تنورة يربط حول الخصر قصير قليلاً من الأمام، والجزء العلوي يلقى على الرأس وبشكل جزئي على الوجه يغطيها حتى الخصر. والبعض يضعن على وجوههن النقاب الأسود المنسوج من شعر الخيل يعرف بـ**(البيجة)**، فلا يمكن رؤية أي شيء من المرأة، وتختلف ألوان الإزارات حسب الأديان فالمسلمات يرتدين الإزارات ذات الألوان الداكنة، الأسود، والأزرق. والمسيحيات واليهوديات يرتدين الإزارات الملونة بألوان زاهية، وتختلف أنسجة الإزارات حسب المكانة المادية للمرأة. فهناك الإزارات ذات الأنسجة الحريرية الغالية الثمن المطرزة بأسلاك من الفضة، والذهب، والأنسجة القطنية الرخيصة[٣]، تحتذي النساء البابوجات الجميلة المطرزة واليمنيات في البيت[٤]. وعند الخروج تحتذي المسلمات مع الأحذية الصفراء الجدك التي تصل إلى ما فوق الكاحل[٥]، والمزخرفة بالحرير الأحمر أو الشرابات الذهبية[٦]. ولا يسمح للمسيحيات واليهوديات بارتداء الألوان نفسها

---

(١) المصدر السابق، ص٧٩.

(٢) جيمس فريزر، المصدر السابق، ص١٤٣.

(٣) ديلافوا، المصدر السابق، ص٧٨؛ جيمس فريزر، المصدر السابق، ص٧٨؛ جيمس وليستد، المصدر السابق، ص٩٣؛

Habib Chiha, op., cit., p:166; T. J. Ellis, op., cit,.p:21; G. Geary, op., cit., p:124; W. Fogg, op., cit., p:224.

(٤) مير بصري، من مدونات الرحالة نيجهولت، البلد، العدد ٨١٢، ٢٦ كانون الثاني ١٩٦٧م.

(٥) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج٤، ص٥.

(٦) T. J. Ellis, op., cit., p:21.

من الأحذية فتكون أحذيتهن من ألوان مختلفة[١]، وبدأت النساء بارتداء الأحذية الأوروبية المستوردة إلى جانب الأحذية المحلية الصنع[٢].

وقد استخدمت نساء بغداد مواد التجميل، والعطور للتزيين، والظهور بمظهر جميل فاستخدمن الكحل لتزيين العيون، والأجفان، والحواجب، والحنة لصبغ الشعر، وأصابع اليدين والقدمين، والمسك، والعنبر، ودهن الورد الثمين للتعطير[٣]، وكان لتزايد التجارة أثر في امتلاء أسواق بغداد بشتى صنوف أدوات الزينة والتجميل من عطور ودهان وأصباغ، وبدأت بعض السيدات المسيحيات بوضع أحمر الشفاه والخدود[٤]، واستخدمت ماء الورد والقداح والقولونية الأوروبية[٥]. ويجب ألا يغيب عنا ارتداء بعض النساء الزي البدوي أو القروي الذي يتكون من الجلاليب والفوطة غطاء الرأس. وعند خروجهن يرتدين العباءة دون تغطية الوجه. فبحكم استقرار بعض القبائل في مدينة بغداد أو لارتياد بعض قرويات أطراف المدينة للبيع أو الشراء داخل المدينة نشاهد هؤلاء النسوة في المدينة وقد وشمن وجوههن، وأيديهن، وأقدامهن بأنواع من الوشم وارتدى البعض منهن الأساور والخلاخل والخواتم من الفضة والنحاس الأصفر الرخيصة الثمن، فتضع المتزوجات معهن خزامة من الذهب أو الفضة في الأنف[٦].

---

(١) G. Geary, op., cit., p:225.

(٢) مير بصري، من مدونات الرحالة نيجهولت، البلد، العدد ٨١٢، ٢٦ كانون الثاني ١٩٦٧م.

(٣) جيمس ولستد، المصدر السابق، ص٩٣؛ مير بصري، من مدونات الرحالة نيجهولت، البلد، العدد ٨١٢، ٢٦ كانون الثاني ١٩٦٧م

Habib Chiha, op., cit., p:166.

(٤) T. J. Ellis, op., cit., p:26.

(٥) مير بصري، من مدونات الرحالة نيجهولت، البلد، العدد ٨١٢، ٢٦ كانون الثاني ١٩٦٧م.

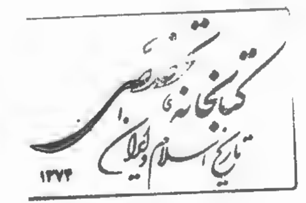
(٦) جيمس فريزر، المصدر السابق، ص١٤٦.

يحفظ البغداديون ملابسهم ومفروشاتهم بعد انقضاء موسم معين في صناديق مع كمية من التبغ أو بعض قوالب صابون الرقي، حتى لا تقرضها حشرة العث وتمزقها، وتتبع الطريقة نفسها في حفظ المفروشات الأرضية بعد كنسها عدة مرات وبعد نفضها من التراب ثم تبدأ بمسحها بقطعة قماش قديمة مبللة بالنفط[١].



الزي الشعبي.

(١) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج١، ص٧٤.



الأطعمة والمشروبات

اهتم البغداديون بالطعام ومكوناته، لكونه الوسيلة لاستمرار الحياة، فهو عادة يومية تبرز التباين الاجتماعي والاقتصادي تبدأ الأطعمة بالخبز ولا تنتهي عند نوع جيد معين لأن الأطعمة الجيدة دائمة التجدد، ما دامت بغداد تعج بأنواع وألوان عديدة من الأطعمة والأصناف تعددت طرق طهيها، ولا شك أن انقسام المجتمع إلى فئات مختلفة ومتباينة في مستواها المعاشي وإعدادها الاقتصادي جعلها تختلف في أشكال موائد طعامها.

فالأسرة الثرية اشتملت موائد طعامها أنواعاً من اللحوم والخضراوات والفواكه والأشربة المختلفة، التي تتناسب مع مكانتها أو مع طبيعة المناسبة، أما موائد متوسطي الحال فكانت وسطاً بين طعام الأغنياء وطعام الفقراء وذلك تبعاً للمكانة التي بها الأسرة، والمورد الذي تكسبه، وبطبيعة الحال ويختلف طعام الفقراء وفقاً لحالتهم المعيشية الضعيفة.

وعلى العموم فقد بلغ اهتمام البغداديين بالطعام بصورة عامة شأناً كبيراً، فكانوا يشترون المواد الأساسية في غذائهم التي تعرف بـ**(المونة)** على شكل جملة في الموسم الخاص بها، **كأكياس الرز، والحنطة، والماش، والعدس، والهرطمان، وعلب الدهن**، إذ اعتاد أهل بغداد استخدام دهن اللية في طهي طعامهم، وتخزن هذه المواد جميعها في غرفة **(المونة)**[١]. وقد تفننت المرأة البغدادية في خزن المواد الغذائية التي لا تتوفر في فصل معين عن طريق تيبيس الخضراوات المتوفرة في الصيف، كالباذنجان، والبامية وغيرها، أو عن طريق كبسها كالخيار واللوبيا والباذنجان والفاصوليا الخضراء والتفاح لاستعمالها في فصل الشتاء، وحفظ فواكه الصيف على شكل مربيات مثل مربى التفاح الأبيض، والخوخ، والاجاص، وغيرها من فواكه الصيف، وتحفظ فواكه الشتاء على شكل عصائر مثل النارنج، والنومي، لاستعمالها في الصيف،

---

(١) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ص٦٩.

كما تفننت المرأة في صنع بعض المواد للاستفادة منها في الحفظ أو الأكل كعمل الدبس، والخل من التمر، وعمل ماء الورد، وماء القداح من الورد الجوري، وزهر النارنج[١].

بصورة عامة كانت بغداد غنية بأنواع الخضراوات، التي تعد غذاءً أساسياً بأنواعها اليابسة والخضراء، مثل **اللوبيا، والباقلاء، والبامية، والشوندر، واللهانة، والخيار، والفلفل، والقرنابيط، والشجر، والشلغم، والبصل، والباذنجان**[٢]، والخضراوات بأنواعها مع العلم أن البطاطا لم تكن معروفة من قبل البغداديين فكانت من الخضراوات التي أدخلت إلى بغداد منذ العقد الخامس من القرن التاسع عشر[٣].

وكما هو معروف يقسم الطعام إلى ثلاث وجبات، تشمل وجبة الفطور عادة على الحليب بأنواعه والبيض المقلي، أو المسلوق، أو اللحم المشوي، أو القيمر مع الدبس، أو مع العسل، والكاهي، وتعتبر الهريسة أو الباقلاء المنقوعة أو الرؤوس والكوارع فطور بعض العامة والصوفية لانخفاض مستواهم المعاشي[٤]. وتشمل وجبة الغداء بصورة خاصة على الرز **(التمن)** الذي يطبخ بعده أنواع التمن المصفى، أو تمن مجبوس كجري، وتمن عجمانة وتمن على كشمش، والذرة وتمن وغيرها من أكلات الرز التي تطبخ جميعها بالدهن الحر[٥]، ويقدم مع أحد أنواع المرق المعروفة كمرق البامية، أو الطرشانة، أو الشجر، أو اليخني، أو التشريب، وغيرها من أنواع المرق، على أن تحتوي على اللحوم **كلحم البقر، أو الغنم أو الدجاج، أو الطيور**[٦]. مع

(١) المصدر السابق، ج٤، ص٧٥-٧٦.

(٢) J. F. Jones, op., cit., p:345.

(٣) The Rev. H. South gate, op., cit., p:185.

(٤) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج١، ص٨٠.

(٥) جلال الحنفي، في التمن الألفاظ البغدادية، مجلة بغداد، العدد ١٠، شباط - تموز ١٩٦٤م.

(٦) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج١، ص٨٠.

العلم أن بعض العامة والعوائل الفقيرة تستغني في حالات كثيرة عن أكل اللحوم بسبب غلائها، وتستغني عنه بالسمك لرخص ثمنه فهو من الأكلات الشعبية الشائعة[١]. ولا تخلو وجبة الغداء في موسم الشتاء من وجود نوع من **الحساء (شوربة) كحساء العدس مع الرز، وحساء الهرطمان، وحساء حامض شلغم وغير ذلك،** وتحشي جميع المأكولات بأنواع التوابل لإعطائها نكهة متميزة[٢]. ويكون العشاء وجبة خفيفة من اللحم والخبز، والخضراوات، وتكتفي العوائل الفقيرة بالخبز، والخضراوات، وفي الصيف تدخل الفواكه كالرقي، والبطيخ ضمن قائمة العشاء، إذ توضع قطع الرقي أو البطيخ بعد تقطيعه على تيغة في السطح حتى تبرد، إذ اعتاد البغداديون على تناول عشائهم على السطوح صيفاً، ومن يتأخر يحفظ عشاؤه في سلة تعرف **(سلة العشاء)** حتى لا يفسد أو قد تدخل له الحشرات[٣].

ويتخلل الوجبات أكل الفواكه كل حسب موسمها، تدخل كمشهيات في تركيب الطعام أو توضع على المائدة لتزيد من شهية الأكل بنوعيها اليابسة كالزبيب، والكشمش، والتين والرطبة، كالبرتقال، والنومي، والسفرجل، والمشمش، والتين، والرمان، والعنب، والخوخ وهناك من الفواكه لها أكثر من نوع: **كالتفاح الأعجمي، والتفاح الأخضر، والتكي الشامي، والعراقي، والتمر بأنواعه**[٤] التي تصل إلى عشرة أو أكثر الذي يشكل في موسمه في شهري آب وأيلول المادة الغذائية الثابتة لجميع فئات الناس، فلم نجد فاكهة أو مادة غذائية أخرى تضاهيه، الأمر الذي دفع وليم فوك إلى تسميته بـ**«خبز الأرض أو عصا الحياة»**[٥].

---

(١) ديولافوا، المصدر السابق، ص٩٩.

(٢) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج١، ص٨٠.

(٣) المصدر نفسه، ص٧٣.

(٤) ديولافوا، المصدر السابق، ص١٢١؛ J. F. Jones, op., cit., p:345.

(٥) W. Fogg, op., cit., p:231.

أما الحلوى التي تقدم عادة بعد الانتهاء من الطعام، وألوانها عديدة **كالمحلبي وزردة الحليب والهريس وبقلاوة الفكَر**[١] وغير ذلك، كما عرف البغداديون صناعة الكيك، والكعك باستعمال الزبد في صناعته مثل الكليجة المحشاة بالجوز، والسكر، وغير ذلك من أنواع الكعك[٢].



باعة الخبز.

وهناك مادة تدخل في كل وجبات الأكل، ولا يمكن لأحد أن يستغني عنها سواء كان فقيراً أم غنياً، هي الخبز الذي يصنع بأشكال مختلفة، ومن مواد مختلفة أي من حبوب الحنطة أو الشعير، أو الذرة، ويصنع إما في داخل البيت، بعد أن تقوم المرأة بطحن الحبوب بواسطة الرحى اليدوية التي استخدمت قبل إنشاء المطاحن الميكانيكية[٣]، ثم تقوم بعجنه وخبزه في

(١) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج١، ص٨٢.

(٢) T. J. Ellis, op., cit., p:15.

(٣) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص٧٧.

التنور الخاص بصناعة الخبز المخصص له في المطبخ[١]. والنوع الآخر في السوق في الأفران الخاصة به، أو يباع خبز البيوت من قبل باعة الخبز في الأسواق، وخلال هذه المرحلة عرف البغداديون الصمون بعد أن أنشأ الوالي مدحت باشا فرناً لصناعته عرف **(الأكمخانة)**[٢]. وقد استخدمت العوائل الثرية الأواني، والملاعق، والشوكات الذهبية، والفضية في الطعام، واستخدمت **الأواني النحاسية (الصفراء)، والخزف، والفرفوري**[٣] في تقديم الطعام، وتوضع مائدة الطعام على الأرض، أو على تخت مرتفع قليلاً عن الأرض على شكل مدور ويجلس حولها الآكلون على فراش مرتفع **(مندر)**، أو على مقعد صغير خشبي. وبعض الأسر الثرية استخدمت موائد الطراز الأوروبي أي المناضد حولها الكراسي[٤]، **ولا يجلس الرجال مع النساء إذ يتوجب على**



المائدة البغدادية قديماً.

(١) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج١، ص٦٩.

(٢) عباس العزاوي، المصدر السابق، ج٧، ص٢٦٠؛ محمد رؤوف الشيخلي، المصدر السابق، ص٦٧.

(٣) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج١، ص١٢١.

(٤) سعاد العمري، المصدر السابق، ص٩٨.

النساء الأكل والشرب بمفردهن[١]، وتكون ربة البيت واقفة، لتكون في خدمة زوجها فحال نهوضه من المائدة تسكب الماء على يدي زوجها من الإبريق الخاص للغسل، ويحفظ ماء الغسل باللكَن، بعد ذلك تقدم له منشفة اليد ليجفف يديه، وبعد ذلك استعمل المصلخ لغسل اليدين، وإذا كان هناك ضيوف يقوم رب البيت وخدمه على خدمتهم[٢].

وقد اتبعت رسوم في آداب المائدة، ورثوها من تعاليم الإسلام، فيجب الابتداء بالطعام بقولهم «**بسم الله الرحمن الرحيم**» والانتهاء منه بـ«الحمد لله» ويكره أن يأكل متكئاً، وينبغي قلة الكلام، والصمت على الموائد، والأكل دون الشبع، ويمكن الإشارة أن الأكل لا يقتصر على البيت فقط بل كان باعة الخبز، والكباب، والكبة، والهريسة، والكاهي، والقيمر، والكعك، والحلويات كـ«**البيض اللكَلك**» والزلابية، والبقلاوة، وشعر البنات، وغيرها من الحلويات وبائعي المخللات (**الكبر والطرشي**) وبائعو الشامية واللبلبي والباقلاء، أو بائعو الخضروات، وبائعو الثلج، وأبو ناملين يعرضون



بائعات «الكيمر» القشطة.

(١) A. Locher, op., cit., p:148.

(٢) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج١، ص٨٣.

بضائعهم على الحصران، والسلال، أو الصواني على جوانب الطرق أو متجولين في الأزقة، منادين بأعلى أصواتهم لشراء بضائعهم مع التوسع بأساليب الثناء على بضائعهم. فكان لكل مادة نداء خاص بها[١].

ورغم وفرة ورخص المأكولات والفواكه والخضر، إلّا أننا نجد أبناء السبيل والمساكين الذين اتخذوا من المساجد والتكايا بيوتاً يأوون إليها، فقد كانوا يأكلون ما يتصدق به أعيان المدينة عليهم في المناسبات، ويكتفون بالنزر القليل منه، فضربوا أرقاماً قياسية في صبرهم على الطعام أما الذين يعيشون منهم بين العامة في محلاتهم، فكانوا يستفيدون من حدوث المناسبات سواء كانت مفرحة أم محزنة إذ يحضرون الولائم، ويأكلون ما يقدم فيها، وربما أخذوا معهم بعض الطعام إلى بيوتهم فكانت الولائم وسيلة من وسائل لتجمع الإلفة فضلاً عن هدفها الأساس الذي عقدت من أجلها.

وبجانب اهتمام البغداديين بالأطعمة فقد اهتموا بالأشربة، وأول هذه الأشربة الماء، فاعتنى البغداديون بتبريده صيفاً، ويوجد في كل بيت محل خاص يعرف **(بيت الحبوب)** يواجه المجاز حيث يصله تيار الهواء ليزيد من برودة الماء، فتوضع فيه محامل خشبية مصنوعة من خشب التوت، ويوضع على كل محمل حب مصنوع من الفخار ويغطى بغطاء خشبي ويوضع تحت كل حب إناء صغير يسمى **(بواكة)** على أن تكون الحبوب متناسبة مع عدد سكان البيت، **وتقسم إلى قسمين: قسم للاستعمال اليومي، وقسم يدخر لليوم التالي حتى يبرد الماء**، وتستعمل المنشل أو جيرية لشرب الماء من الحب، كما تستعمل التنكّة الفخارية لحفظ الماء، ولزيادة برودته أن تملأ التنكَ بالماء من الحب بواسطة **(الدولكة)** المصنوعة من الصفر المبيض، وتعلق قرب الحبوب، ولا يجوز إدخال أداة غيرها في الحب حفظاً لنظافته[٢] وبعد تأسيس ماكنة الثلج

---

(١) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص٨٠؛ عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج٢، ص١٢٦-١٢٧؛ G. Geary, op., cit., p:105.

(٢) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج١، ص٦٨.



العطار في بغداد.



بائع الباچه.

في شريعة الميدان سنة ١٨٨١م اتسع استعمال صناديق الثلج في البيوت لتبرد ماء الشرب[١]. ثم تأتي الألبان سواء كانت من البقر، أو الأغنام التي تجلبها القرويات من ضواحي المدينة في أواني لتبيعها داخل المدينة[٢]. وهناك بعض الأسر تربي عدداً من الماعز أو الأغنام للاستفادة من ألبانها، فتقوم الأسرة بصناعة الألبان للتأكد من نظافته ومن الأشربة الأخرى هو عصير الفواكه المستخرج من النارنج، أو النومي الحامض أو التفاح، أو قمر الدين، أو التمر الهندي. أو النكَوع، أو عرق السوس، أو الزبيب وتقدم هذه العصائر للضيوف في أوانٍ جميلة[٣]. ولا نتناسى ولع البغداديين بشرب القهوة وتقديمها إلى الضيوف، وبعد معرفتهم بالشاي في أواخر القرن التاسع عشر أخذت العائلة تجتمع عصر كل يوم لشرب الشاي، وكانت أدواته خاصة به **(كالسماور والاستكانات)** ويستخدم فيها ماء البواكة الصافي لتخدير الشاي[٤] وقد زاد استيراد الشاي في مطلع القرن العشرين[٥] بعد استخدامهم في الشرب لأن قبل ذلك يستخدم الشاي للعلاج فقط. ومن الأشربة التي تشرب بعد الطعام من قبل المسيح واليهود النبيذ الذي عرف من أنواعه العنبي والتمري وغيرها من أنواع النبيذ المستورد والمحلي[٦].

---

(١) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص٧٧؛ عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج١، ص٧٤.

(٢) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص٨٠.

(٣) عزيز جاسم الحجية، بغداديات، ج١، ص١٠٠.

(٤) المصدر نفسه، ص٦٧.

(٥) حسن سلمان، المصدر السابق، ص٢٤٣-٢٤٥.

(٦) T. J. Ellis, op., cit., p:15; J. F. Jones, op., cit., p:343.

الفصل السادس

الخدمات الاجتماعية

البلدية - الصحية - التعليمية - القضائية والأمنية

البريد والتلغراف - النقل

تعد الخدمات من أهم المجالات الرئيسة، وأشدها طرافة وأهمية للصلة الوثيقة بين هذه الخدمات وبين تطور الحياة الاجتماعية، والاقتصادية في المدينة، فإن وجود الخدمات يوجب في أحيان كثيرة إنشاء مؤسسات رسمية، أو غير رسمية تختص بإدارتها والعناية بمرافقها، كما تعكس الخدمات تطبيق المعرفة النظرية بما يخدم مصالح الشعب، ويرفه ويحمي بيئته وييسر له العيش في مدينته، وهي المكان الذي يجب أن تتوفر فيه الخدمات للناس.

وقد شهدت هذه الحقبة تقديم الخدمات للمدينة، وخاصة في عهد مدحت باشا الذي كان من أبرز الولاة المصلحين، وقد اهتم اهتماماً كبيراً بالخدمات ورعايتها، ولم يغب عن باله المظاهر المدنية فمثلاً قام بشراء ساعة كبيرة، ونصبها في القشلة لإيقاظ الجنود وفي الوقت نفسه لتنظيم وتعريف الوقت لسكان بغداد[1]، وأنشأ الحدائق والمتنزهات العامة وزودها بمجاميع الفرق الموسيقية[2] للترفيه عن الناس وتوفير الراحة لهم. كما أمر

---

(١) الزوراء، العدد ٥٧، (١٧ جمادى الآخرة ١٢٨٧هـ/ ١٣ أيلول ١٨٧٠م) السنة الأولى.

(٢) علي ظريف الأعظمي، مختصر تاريخ بغداد، ص٢٤١.

بناء الفنادق «**المسافر خانة**» لتوفير السكن للمسافرين[١]، وغيرها من أعمال مدنية أخرى لم ترد على خاطر أي والي آخر، وتوافق ذلك مع إصدار الحكومة القوانين التي تحدد الخدمات الاجتماعية سواء البلدية، أو الصحية، أو التعليمية، ووظائفها وملاكاتها الإدارية. ولنا أن نتساءل إذا ما كانت هذه المشاريع عامة لجميع السكان، أو ظلت مقتصرة على جانب منهم؟ وكثيراً ما أشارت صحيفة الزوراء إلى المشاريع مثل إسالة الماء، وتنوير الكهرباء، وبناء مستشفى، وفتح مدارس، ولكن هل استغنى البغداديون عن السقائين والسقايات؟ أو عن حمل الفوانيس؟ أو عن الأطباء الشعبيين؟ أو عن الكتاتيب كما يتبادر إلى الأذهان؟ والسؤال الآخر أكان عمل الملاكات الإدارية للخدمات منظماً ومستمراً على وتيرة واحدة أم كان معتمداً على الولاة وحسب توجهاتهم الإصلاحية؟ وهل حققت تقدماً للمجتمع وللمدينة؟ وخاصة أنها المشرفة على نظافة وإحياء المدينة بمظهر جديد يتوافق مع مركزيتها. مع العلم أن بغداد تميزت بمركزية الامدادات لمختلف الخدمات لباقي مدن العراق.

❶ خدمات البلدية:

أنشئت أول بلدية في بغداد سنة ١٨٦٨م حينما أصدرت مجموعة الأحكام الخاصة بقانون البلدية (**بلدية نظامنامة سي**)[٢]، وتولى رئاستها إبراهيم أفندي الدفتري. وعندما تولى مدحت باشا أمور الولاية سنة ١٨٦٩م شرع بتشييد بناية

---

(١) الزوراء، العدد ١٢٧، (٢٥ ذي الحجة ١٢٨٧هـ/ ١٧ آذار ١٨٧١م).

(٢) بدأ اهتمام الحكومة العثمانية بتأسيس البلديات في الدولة العثمانية منذ سنة ١٨٤٥م، حينما قرر المجلس الأعلى للإصلاح تشكيل لجنة تتولى إعداد دراسة عن نظم البلديات وقواعد تشكيلها في الدول الأوروبية، واستغرق إعداد تلك الدراسة أربع سنوات، قدمت اللجنة بعدها تقرير إلى المجلس الأعلى للإصلاح يتضمن عدداً من التوصيات، ووافق المجلس على تلك التوصيات، وقرر في سنة ١٨٥٧م أن يؤسس - على سبيل التجربة - بلدية في إحدى ضواحي إسطنبول ويظهر =

خاصة لدائرة البلدية[١]. واصلت الحكومة العثمانية في سبعينات القرن التاسع عشر اهتمامها بها بإصدار القوانين لتطوير خدماتها منها تأكيدها في نظامنامة إدارة الولاية العامة الذي أصدر سنة ١٨٧٠م على تأسيس مجالس البلدية، ووضع قواعد تشكيلها[٢]، ثم إصدار قانون بلديات الولايات الجديد سنة ١٨٧٧م والذي أكد تشكيل المجالس البلدية، وتوسيع خدمات ومهام الدوائر البلدية[٣] مما تطلب زيادة عدد بلديات مدينة بغداد نظراً إلى سعتها فأنشئت سنة ١٨٧٨م بلدية ثانية في النصف الجنوبي من الرصافة وبلدية ثالثة في الكرخ[٤].

وفي سنة (١٣٠٦هـ-١٨٨٩م) صدر قانون آخر لبيان الشعب الإدارية التي تتألف منها الدوائر البلدية، وهي **الهندسة، والطبابة، والمحاسبة، والتفتيش، والتحرير لكل شعبة من تلك الشعب ملاك إداري خاص وواجبات خاصة بها**[٥]. وبصورة عامة تألفت تشكيلات البلدية من رئيس البلدية الذي يتم اختياره من أعضاء المجلس البلدي والذي تتراوح مدّة رئاسته (٤) سنوات، واشتملت واجباته على رئاسة جلسات المجلس البلدي، وتعيين الموظفين والمراقبين بعد استحصال موافقة المجلس البلدي على تعيينهم، كما تناولت

= أن تلك التجربة تكللت بالنجاح، فأصدرت قانوناً في سنة ١٨٦٨م سعت بموجبه تأسيس البلديات في بقية أنحاء إسطنبول.

B. Lewis, The Emergence of Modern Turkey, pp:389-392.

(١) مصطفى جواد وأحمد سوسة، المصدر السابق، ص٣٣٤.

(٢) نوفل، الدستور، المجلد ١، المواد ١١١-١٢٩، ص٤١٨-٤٢١؛

B. Lewis, op., cit., p:974.

(٣) دستور، مجلد رابع، معارف نضارة جليلة، إسطنبول، ١٢٩٩هـ، ص٥٣٨؛

Naval Intelligence Division, Iraq and Persian Gulf, September 1944, Oxford University Press, p:160.

(٤) الزوراء، العدد ٨١٧، ٢ ربيع الآخرة ١٢٩٦هـ، السنة العاشرة؛ الزوراء، العدد ٧٩٥، ٢٢ ذي القعدة ١٢٩٥هـ، السنة العاشرة.

(٥) أحمد الصوفي، تاريخ بلدية الموصل، ١٩٧٠م، ص٢٤-٢٥.

واجبات الرئيس تنفيذ مقررات المجلس البلدي. وكانت مرتبات رئيس البلدية تستقطع من إيرادات البلدية. أما المجلس البلدي فكان عدد أعضائه يتراوح بين (٦-١٢) عضو وفقاً لقانون البلديات[١] إلّا أن عدد أعضاء المجالس البلدية الأولى تراوح بين (٥-٨) أعضاء ومجلس البلدية الثانية تراوح بين (٤-٨) أعضاء ومجلس البلدية الثالثة تراوح بين (٤-٧) أعضاء[٢] وحتى عندما توحدت هذه البلديات للفترة من (١٩٠٧-١٩٠٩م) لم يتجاوز أعضائه العشرة[٣]. وكانت مدة العضوية في المجلس (٤) سنوات، ويجري استبدال نصف الأعضاء مرّة كل سنتين، واعتبرت خدمة عضو المجلس البلدي بمثابة عمل فخري لذلك لم تكن تدفع لهم مرتبات. وتجري انتخابات المجلس البلدي بين شهري كانون الأول وشباط بإشراف لجنة انتخابية أما فيما يتعلق بكيفية انتخاب أعضاء المجلس البلدي، فكانت تتم باختيار الناخب في الانتخابات الأولية عدداً من المرشحين مساوياً لعدد الأعضاء المقرر انتخابهم لعضوية المجلس ونصف ذلك العدد للانتخابات التالية لهذا كان عددهم وفقاً لنسبة عدد السكان، ويشترط في العضو المنتخب أن يكون قادراً على التكلم باللغة التركية، ومن ملاكي الأرض، وممن يدفع ضرائب سنوية لا تقل عن مئة قرش وعلى ألّا يتجاوز عمره (٣٠) سنة وألّا يكون مرتبطاً بخدمة مؤقتة، أو دائمة بالقناصل الأجنبية، أو يعمل في سلك الجيش، أو الضابطة ولا يكون حاكماً في المدينة. أما شروط الناخب أن يكون مالكاً لأرض يدفع عنها ضريبة سنوية مقدارها (٥٠) قرشاً وألّا يقل عمره عن (٢٥) سنة، ومن التبعية العثمانية، ومن المتمتعين بالحقوق المدنية والشخصية، ومن غير المحكوم

---

(١) الزوراء، العدد ٧٩٣، ١٦ ذي القعدة ١٢٩٥هـ.

(٢) سالنامات ولاية بغداد كافة، لسنة ١٢٩٩هـ، ص٦٣-٦٤؛ لسنة ١٣٠١هـ، ص١١٤-١١٥، لسنة ١٣٠٩هـ، ص١٤٠؛ لسنة ١٣١٠هـ، ص١٣٤؛ لسنة ١٣١٩هـ، ص١١٣-١١٥.

(٣) سالنامة ولاية بغداد لسنة ١٣٢٥هـ، ص١٠٣.



نصب أعمدة الكهرباء في بغداد سنة ١٩١٧م.

عليهم بأية جناية أو جنحة[١]. وجرت عادة المجالس البلدية أن تعقد اجتماعين في كل أسبوع ولو أنه كان بالإمكان عقد اجتماعات أخرى بطلب من رئيس المجلس واشترط لأجل، إجراء مناقشات في المجلس حضور ما يزيد على نصف عدد أعضائه بعضو واحد على الأقل، وعلى الرغم من أن التصويت في المجلس كان يجري عادة علناً لكنه يجوز أن يجري سرياً بطلب من عضوين من أعضاء المجلس، واعتبر العضو الذي ينقطع عن حضور جلسات المجلس ثلاث مرات متتالية في عداد المستقيلين[٢]. أما بالنسبة لواجبات المجلس البلدي، فعلى الرغم من أنها كانت تضم أعمالاً عديدة، **كالإشراف على إنشاء المباني ونظافة الطرق، والإنارة، ومراقبة الأسواق، وتسجيل المواليد، والوفيات، والمراقبة الصحية** وما إلى ذلك من واجبات إلّا أن صلاحياته كانت ضئيلة من الناحية العملية نتيجة لسيطرة رؤساء الوحدات الإدارية على مشاريع البلدية ومصروفاتها كافة[٣]. وكان هناك إلى جانب المجالس البلدية الجمعية البلدية، وقد كانت تتشكل من رئيس أول، ورئيس ثانٍ يحل محله في حالة غياب أعضاء مجلس الإدارة، تجتمع مرتين سنوياً. وبالنسبة لصلاحياتهم فكانت تختص بمراقبة الحالة العامة للبلدية وتقديم المقترحات بشأن تعديل الأنظمة البلدية[٤].

وقد أشير إلى أن صلاحياتهم كانت تقتصر أحياناً على إبداء النصح والاستشارة فقط وقد كانت الجمعية البلدية مسؤولة أمام مجلس الولاية العامة[٥]، ووجد في كل بلدية عدد من المفتشين الذين يتراوح عددهم بين

---

(١) الزوراء، العدد ٧٩٤، ٢٧ ذي القعدة ١٢٩٥هـ.

(٢) الزوراء، العدد ٧٩٣، ٢٣ ذي القعدة ١٢٩٥هـ؛ العدد ٧٩٤، ٢٧ ذي القعدة ١٢٩٥هـ.

(٣) الزوراء، العدد ٧٩٥، ٢٢ ذو القعدة ١٢٩٥هـ؛ بوينة، الدولة والنظام الاقتصادي في الشرق الأوسط، ص٥١.

(٤) الزوراء، العدد ٧٩٧، ١٩ ذي الحجة ١٢٩٥هـ.

(٥) Lewis, op., cit., p:393; F. J. Moberly, the Campaign in Mesopotamia, vol. 1, p:18.



أول ماكنة بخارية لسقي البساتين تنصب في بغداد سنة ١٩١٨م.



عُمال بلدية بغداد يقومون بواجباتهم.

(٢-٣٠) مفتشاً والجواويش (**مراقبين البلدية**) أو ضبطية البلدية الذين تراوح عددهم بين (٩-٢٣) مراقباً وقد تناولت واجبات مفتشي ومراقبي البلدية مراقبة تنفيذ القوانين، والأنظمة، واشترط في مراقب البلدية أن يكون من المواطنين العثمانيين واشترط في مفتش البلدية أن يكون قادراً على القراءة، والكتابة، ومتمتعاً باللياقة البدنية وغير محكوم عليه بجناية ما[1]، ويجب على المفتشين، وجواويشها دخول **الحمامات، والمخازن والحوانيت، والمقاهي، والخانات، والمخابز، وغيرها من الأماكن العامة التي يجب أن تخضع للمراقبة العامة**، ويجب عليهم الالتزام بالآداب أثناء تأدية واجبهم كالامتناع عن شرب السيكارة أو الشطب، وحمل الشمسيات، والعصي بأيديهم، والاختلاط مع الناس بما هو خارج عن وظيفتهم، والجلوس في حانات الخمر، ومحال القهوة ولا يسمح لهم إلّا بالجلوس داخل القهوة للاستراحة فقط[2]. أما بالنسبة للحراس الليليين (**الجرخجية**) وعمال التنظيف «**يكجلر**» فلم يقل عددهم عن (٤٩) حارساً، ولم يزد عن (١٥٠) في أي من الدوائر الأخرى. وفي سنة ١٨٩٩م عين موظف للأسواق (**جاروشو**) للإشراف على عملية مراقبة الأسواق وموظف آخر للإشراف على المحلات. وفي سنة ١٨٩١م عُيّن مشغل وعامل واحد لمضخة الماء وفي سنة ١٨٩٢م عُيّن موظف بعنوان محصل يقوم باستيفاء أجور الماء من أصحاب الدور وفي ١٩٠٧م أصبح قسم إدارة الماء يتكون من المأمور ومحصل، ومشغل، ومعاون له، ورئيس عمال وأربعة عمال وحارس واحد. وفي سنة ١٩٠٣م عُيّن مأمور لشؤون تنوير وتنظيف مناطق البلديات الثلاث مقره البلدية الأولى، وكان يشرف على المستخدمين الذين يعملون على تنظيف الشوارع، وإنارة المصابيح فيها. وقد ضمت البلديات الثلاث طبيباً، ومفتشاً صحياً إذ خدم أحد الأطباء الأوروبيين المدعو (د. لازار أفندي) في دائرة البلدية الأولى مدة تقرب من (٢٠) عاماً كما استخدمت هذه البلدية جراحاً للعمل فيها سنة ١٨٧٥م لكنها استغنت عن

---

(١) (٢) الزوراء، العدد ٧٩٨، ٢٦ ذي الحجة ١٢٩٥هـ.

خدماته سنة ١٨٨٢م وفي سنة ١٨٩٢م عين طبيب لكل من الدائرتين الثانية والثالثة إلّا أن الدائرة الثالثة استغنت عن خدماته سنة ١٨٩٩م بينما استمر طبيب الدائرة الثانية في عمله حتى نهاية العهد العثماني. وقد استخدمت دائرة البلدية الأولى طبيباً اسمه **(المسيو موزل)**، وقد زاد عدد المهندسين بعد العهد الدستوري إذ كان يرأسهم مهندس أوروبي يدعا **(فيول)**، واستمر مهندسان فرنسيان في العمل فيها حتى نهاية العهد العثماني. وفي ما يخص واجبات مهندسي البلدية فقد تناولت الإشراف على الأعمال والمشاريع المتعلقة بالطرق، والمباني، وكذلك المحافظة على الخرائط. وكان الطبيب والمهندس عضوين استشاريين للمجلس البلدي[1]، وقد ضمت البلديات الثلاث علاوة على ذلك عدداً من الموظفين الإداريين الباش كاتب، ومعاون الباش كاتب، ومساعد محاسب، وكاتب واحد، بالنسبة للدائرتين الثانية، والثالثة وعدداً من الكتاب بلغ أحياناً أربعة كتاب بالنسبة لدائرة البلدية الأولى، وأمين صندوق واحد، لكل بلدية وكان يستبدل كل سنتين، واشتملت واجباته على تسلم إيرادات البلدية، وتسليمها إضافة إلى تقديم خلاصة بواردات البلدية ومدفوعها يومياً إلى رئيس البلدية[2] **وقد اعتمدت البلديات في وارداتها على:**

١ • الضرائب المأذون بها والمخصصة من قبل السلطة للبلدية أو تلك التي كانت تفرض بموجب إرادة سلطانية.

٢ • أثمان الأراضي المتبقية من تسوية الطرق، والمعابر، وتنظيمها، ثم بيعها إلى طالبيها، وكذلك الرسوم الشرفية التي تأخذ من أصحاب الأملاك المستفيدين من إصلاح الطرق.

---

(١) الزوراء، العدد ٧٩٣، ٢٢ ذي القعدة ١٢٩٥هـ؛ العدد ٧٩٥، ٥ ذو الحجة ١٢٩٥هـ.

(٢) الزوراء، العدد نفسه؛ سالنامات ولاية بغداد كافة، سنة ١٢٩٢هـ، ص٦٨، ١٢٩٩هـ، ص٦٣-٦٥؛ ١٣٠١هـ، ص١١٤-١١٦؛ ١٣١٠هـ، ص١٣٢-١٣٤؛ ١٣١٥هـ، ص١٨٧-١٨٩، ١٣٢٥هـ، ص١٠٣-١٠٤.

٣ • الجزاء النقدي المأخوذ من المخالفين لأحكام وتعليمات السلطات البلدية.

٤ • الرسوم المختلفة التي تجبيها السلطات البلدية كرسوم (**القبانية**)، والكيل، والذبيحة والمقاولات (**القنطراتو**) والاحتسابية المأخوذة من شراء الحيوانات، وبيعها، والعبور، والبناء وخيوط الشعر، والطمغة(١) و(الباسبانية)(٢)، والإضافية، وسائر الرسومات المتنوعة المتروكة للبلديات.

٥ • الإعانات، والهبات المتبرع بها من قبل الأفراد إلى البلدية(٣).

وقد اشتملت واجبات البلدية القيام بأعمال عديدة كإنشاء المباني العامة، وإصلاح الجسور وتأسيس مشروعات لإسالة الماء، وللإنارة، وكذلك للعناية بالنظافة العامة ومراقبة المقاهي ودور اللهو، والأندية الرياضية، ومراقبة المكاييل، والموازين، والمقاييس، ومنع احتكار البضائع، وإنشاء المستشفيات، والمؤسسات الخيرية، والقيام بأعمال الحراسة، وتقديم الخدمات المتنوعة للمواطنين(٤).

قامت البلديات في بغداد بالكثير من الأعمال العامة، مع المآخذ والسلبيات التي وجهت إليها. ومن المشاريع التي قامت بها إيصال المياه إلى دور السكان، إذ استورد مدحت باشا (٥) مضخات من لندن لسحب مياه النهر سنة ١٨٧١م(٥)، إلّا أن هذا العمل لم يشرع به إلّا في سنة ١٨٧٢م عندما نصبت

---

(١) الطمغة: هي ضريبة تؤخذ عن جميع البضائع القطنية والصوفية التي تصنع أو تطرز محلياً والأواني النحاسية والمعمولات الفضية والذهبية التي تباع في الأسواق.

(٢) الباسبانية: هي رسوم على محلات الحرفيين وأصحاب المهن ألغيت في العهد الدستوري.

(٣) الزوراء، العدد ٧٩٥، ذو الحجة ١٢٩٥هـ.

(٤) الزوراء، العدد ٧٩٣، ٢٢ ذو القعدة ١٢٩٥هـ.

(٥) الزوراء، العدد ١٤٧، ٧ ربيع الأول ١٢٨٨هـ.

مضخة واحدة بقوة (١٢) حصان عند شريعة الميدان تابعة لدائرة البلدية الأولى التي كانت تقوم بإدارتها، إلّا أن هذا المشروع لم يعط الماء إلّا لمحلة واحدة من محلات المدينة[١]، وقد توسع هذا المشروع سنة ١٩٠٧م عندما دشن والي بغداد حازم بيك (١٩٠٧-١٩٠٨م) أول مشروع كبير لإسالة المياه ببغداد فقد اشترت بلدية بغداد في تلك السنة أنابيب حديدية كانت قد استوردتها إحدى الشركات، وباشرت بمدها في بغداد فوصلت المياه محلات الميدان، وبعض محلات الحيدر خانة، والصابونجية، وجديد حسن باشا، والطوب، إذ بلغ مجموع الدور التي وزع عليها الماء ما يقارب (٣٦٠) بيتاً وكان في نية البلدية أن تؤسس محلين لتوزيع المياه مجاناً على الأحياء الفقيرة[٢]. وفي سنة (١٣٢٨هـ-١٩١٠م) نصبت مضخة حديثة لسقاية الشيخ عبد القادر إذ ألغي العمل بالدولاب ومد الأنابيب المعدنية تحت الأرض بخط مستقيم إلى جامع الشيخ عبد القادر[٣].

وقامت دائرة البلدية الثانية في أوائل سنة ١٩١٢م بتشغيل مضخة ماء أخرى لتزويد الأحياء الجنوبية بجانب الرصافة بالماء[٤]. وبصورة عامة لم تكن المياه مرشحة ومعقمة وبلغت الأجور التي كانت تستوفي آنذاك لإيصال المياه إلى الدور (١٠) قروش شهرية لكل دار من الدور[٥].

تناولت منجزات بلدية بغداد إنارة الشوارع، والمحلات بالمصابيح الزيتية إذ قامت بلدية بغداد الأولى سنة ١٨٧٨م بتنوير معظم المناطق

---

(١) الزوراء، العدد ٢٧٤، ١٥ جمادى الآخرة ١٢٨٩هـ.

(٢) الزوراء، العدد ٢١٣٤، ١٨ جمادى الأول ١٣٢٥هـ؛ لوريمر، دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج١، ص٢٥٠.

(٣) د. عماد عبد السلام رؤوف، تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في بغداد، مجلة المورد، المجلد ٨، العدد ٤، ١٩٧٩م، ص١٨٢.

(٤) محمود شكري الألوسي، أخبار بغداد، الورقة ١١٥.

(٥) مصطفى الواعظ، المصدر السابق، ص٣٧٧-٣٧٨؛ عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص٧٥.

الداخلية في حدودها بالفوانيس[١] وقامت البلدية ذاتها في السنة نفسها بتعليق مائتي فانوس في المناطق التابعة لها[٢]. وقد أنشأت العديد من المباني العامة فقد قامت بلدية بغداد الثانية سنة ١٨٨٢م بإنشاء محل لبيع النفط، وفي سنة ١٨٨٥م أنشئت محلاً لبيع الخضراوات[٣]، كما شيدت دائرة البلدية الثالثة مسرحاً عاماً سنة ١٩١٣م[٤]. علاوة على ذلك فقد أولت بلديات بغداد نظافة الشوارع أهمية كبيرة، حيث كان يقوم عمال النظافة التابعون للبلدية بتنظيف شوارع وأزقة بغداد يومياً، وقد شرعت الدوائر البلدية سنة ١٨٩٩م بفرض غرامة مالية على الذين لا يتقيدون بتعليمات النظافة[٥]، واستخدمت في السنة نفسها سلسلة من الإجراءات التي من شأنها وضع حدٍ لتقاعس مستخدمي النظافة عن أداء واجباتهم إذ خصصت مأموراً، ومفتشاً في كل محلة لمراقبة عمال النظافة فيها، ومنحهم صلاحية خصم جزء من مرتبات أولئك العمال إذا أهملوا واجباتهم، والاستغناء عن خدمات من لا تنفع معهم هذه العقوبة[٦]. وكانت عربات القمامة تدور في الأزقة لجمع الأزبال والأوساخ[٧]. ويبدو أن البلدية تجمع مبالغ مالية مقابل قيامها بهذه المهمة، فتمنح سندات مقابل هذه المبالغ، وقامت البلديات بإصلاح وفتح بعض الشوارع في المدينة[٨]. وقامت كذلك بخدمة إطفاء الحرائق التي تنشب في المدينة[٩]، وكانت مسؤولة كذلك عن مراقبة الأبنية القديمة المهددة بالسقوط

---

(١) الزوراء، العدد ٨٣٩، ١١ رجب ١٢٩٦هـ.

(٢) الزوراء، العدد ٨٤١، ١٨ رجب ١٢٩٦هـ.

(٣) الزوراء، العدد ١٢٦٦، ٩ شعبان ١٣٠٣هـ.

(٤) عبد الكريم العلاف، قيان بغداد في العصر العباسي والعثماني للأخير، بغداد، ١٩٦٩م، ص١٩٦.

(٥) (٦) الزوراء، العدد ١٨٥١، ٧ شوال ١٣١٧هـ.

(٧) الزوراء، العدد ٨٧٧، ٣ ذو القعدة ١٢٩٦هـ.

(٨) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص١٤.

(٩) لغة العرب، ج٢، السنة الثانية، (شعبان ١٣٣٠هـ/ آب ١٩١٢م)، ص٧٨؛ ج٤، =

والأمر بإزالتها إذا وجدت في ذلك خطراً على الأهالي[(١)]، وقامت دائرة البلدية الأولى ببناء مسناة ذات أدراج لنقل الماء للسقائين[(٢)]، وتعمير حوض الماء في الميدان وبناء حوض جديدة للماء في محلة محمد الفضل لبعدها عن النهر لأن الكثير من النساء لم يستطعن الوصول إلى النهر[(٣)].

وبما أن البلديات كانت مسؤولة عن إدارة بعض المرافق العامة فقد كانت دائرة البلدية الأولى مسؤولة عن مستشفى الغرباء حتى سنة ١٨٨٣م عندما أصبحت تابعة للدائرة الثالثة[(٤)] وكانت هاتان الدائرتان تتوليان أمر الإنفاق المالي على المستشفى[(٥)]، كما فتحت عدد من الصيدليات[(٦)] «الأجزخانة» والتي كانت مسؤولة عنها أيضاً، وكانت دائرة البلدية الأولى مشرفة أيضاً على إدارة مدرسة الصنايع على وفق قانون البلدية باعتبارها من المؤسسات الخيرية التي تتولى رعاية الأطفال، والأيتام، وتدريبهم على اتقان مهنة من المهن فألفت جمعية لرعاية شؤونها وإدارة مواردها وتحديد مصروفاتها[(٧)].

وكان من واجبات البلديات مراقبة كل ما يمكن أن يخل بالآداب العامة، والأخلاق ويقلق راحة الناس، وما يتنافى مع القانون. فقد دعت جريدة الزوراء رؤساء البلديات إلى منع دخول الأشخاص عراة الأجسام إلى الماء لأن ذلك

= السنة الثانية، (شوال ١٣٣٠هـ/ تشرين الأول ١٩١٢م)، ص١٦٥.

(١) الزوراء، العدد ٨١٨، ٢٣ ربيع الآخر ١٢٩٦هـ.

(٢) الزوراء، العدد ٨٧٧، ٣ ذي القعدة ١٢٩٦هـ.

(٣) الزوراء، العدد ٨٧٣، ١٨ ذو القعدة ١٢٩٦هـ.

(٤) سالنامات، ولاية بغداد، ١٣٠٠هـ، ص١١٥.

(٥) هاشم الوتري، معمر خالد الشابندر، تاريخ الطب في العراق، بغداد، ١٩٣٩م، ص٥٦.

(٦) لغة العرب، ج١٢، السنة الثانية، (رجب ١٣٣١هـ/ حزيران ١٩١٣م)، ص٥٨٧.

(٧) سالنامات ولاية بغداد، سنة ١٢٩٩هـ، ص١٦٣؛ سنة (١٣٠٠)، ص١١٥؛ ١٣٠٣هـ، ص٩٣، الزوراء، العدد ٨٤٥، ٣ شعبان ١٢٩٦هـ.

يتنافى مع الذوق العام فقد اتخذت البلديات الإجراء اللازم لمنع ذلك[١]، كما دعت جريدة الزوراء البلديات إلى فرض الجزاء النقدي على السقائين الذين يحملون الماء على الحيوانات ويعاملونها بقسوة[٢]، وقد أشرفت على سير حيوانات النقل ومنع من يقودونها إلى الأخطار[٣]، كما قامت البلديات بجمع الحيوانات المؤذية وإبعادها عن المدينة[٤].

وقد كانت البلديات مسؤولة عن تحديد أسعار المواد الغذائية، وإذا ما حصل ارتفاع بالأسعار لسبب ما نجد صحف الزوراء، وصدى بابل، تدعو مراقبي البلدية إلى مراقبة الأسواق وفرض تخفيض على الأسعار[٥]. وقد سعت البلديات سنة ١٩٠٩م إلى تثبيت وتوحيد الموازين والمكاييل[٦]. ومن خلال الاطلاع على أعمال البلديات نجد أن البلدية الأولى كانت أنشط في أعمالها من البلديتين الأخيرتين بسبب تعاون أهالي دائرة البلدية الأولى مع الموظفين عن طريق تقديم الإعانات للموظفين لكي تبقى محلاتهم متميزة، ونظيفة، وصحية ودائماً مما كانت تدعو أهالي البلديتين الثانية والثالثة إلى اتخاذ الإجراء نفسه للمحافظة على نظافة محلاتهم[٧].

وقد وجهت عدة انتقادات إلى بلديات بغداد بسبب إهمالها في أداء واجباتها واقتصار أعمالها على بعض المحلات دون الأخرى. مثل الإضاءة حيث إنها لم تنتشر حتى السنوات الأخيرة من الحكم العثماني إلّا في عدد

---

(١) الزوراء، العدد ١٠٢٩، ١٠ شعبان ١٢٩٩هـ.

(٢) الزوراء، العدد ٨٧٠، ٨ ذي القعدة ١٢٩٦هـ.

(٣) صدى بابل، العدد ١٢٣، ٢٥ شباط ١٩١٢م.

(٤) صدى بابل، العدد ١٣٧، ٣١ آيار ١٩١٢م.

(٥) صدى بابل العدد ١١٦، ٩ كانون الثاني ١٩١٢م؛ صدى بابل، العدد ٢٦، ١٥ شباط ١٩١٤م.

(٦) الرقيب، العدد ١١، ١٤ ربيع الأول ١٣٢٧هـ.

(٧) الزوراء، العدد ٨٧٢، ١٥ ذي القعدة ١٢٩٦هـ.

قليل من الشوارع، والأزقة[١]. وحتى هذه الفوانيس قد عانت من مشاكل كثيرة منها ضعف ضيائها، وعدم تنظيفها، وقدمها. ودائماً ما كان قراء صحيفة الزوراء، وصدى بابل يبعثون شكواهم إلى الصحيفة لتناشد البلديات لإجراء اللازم ففي سنة (١٢٩٦هـ-١٨٧٨م) ناشدت الزوراء السلطات البلدية لتنظيف زجاج الفوانيس لكي يكون ضوؤها واضحاً[٢]، وفي سنة ١٨٨٤م أشار أحد القراء إلى أن الفوانيس توقد قبل حلول الظلام بساعتين وتطفأ بعد ساعات قلائل من حلول الليل ودفعت تلك الشكوى أن تناشد الزوراء السلطات البلدية أن تهتم بالإنارة. وقد استجابت السلطات في حينها وأخذت بإيقاد الفوانيس في وقت المغرب مما جعلها تضيء لوقت أطول[٣]، وفي سنة ١٩١٤م عرضت صدى بابل شكوى الناس من عدم إنارة الأزقة في الليل وخصوصاً أيام الأمطار[٤]. نستنتج أن مشروع التنوير لم يشمل جميع محلات بغداد وإن وجد فإن أهالي بغداد لم يتركوا عادة حمل الفوانيس ليلاً بسبب ضعف الإضاءة[٥].

أما في حقل إسالة الماء فقد انعكس تقصير البلدية في أنها كانت حتى مطلع القرن العشرين تقتصر على عدد قليل من بيوت المدينة لم يتجاوز الـ(٣٦٠) بيتاً علاوة على ذلك أن المياه التي تصل إلى هذه البيوت كانت محملة بالطمى، وغير معالجة لتكون صالحة للشرب[٦]، فظلت مدينة بغداد

(١) الزوراء، العدد ٨٠٥، ١٥ صفر ١٢٩٦هـ، الرقيب، العدد ٥٥، ٢٥ رمضان ١٣٢٧هـ؛ العدد ٧٩، ٢٧ ذي الحجة ١٣٢٧هـ.

(٢) الزوراء، العدد ٨٦٨، ٣٠ ذي الحجة ١٢٩٦هـ.

(٣) الزوراء، العدد ١٢١٨، ٢٧ رجب ١٣٠٢هـ.

(٤) صدى بابل، العدد ٢٢٣، ٢٥ كانون الثاني ١٩١٤م.

(٥) H. V. Geere, op., cit., p:95.

(٦) لوريمر، دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج١، ص٢٥٠؛ ستيفن لونكريك، تاريخ العراق الحديث، ج١، ص١٧.

معتمدة في سد حاجة أهاليها من المياه على السقايات[١] للمحلات البعيدة عن النهر، أو معتمدين على **(السبيل خانة)** أي أحواض الماء، أو الحباب التي تملأ بالماء كل يوم بواسطة سقائين لهم أجر معلوم وفقاً لشروط الوقفيات الموقوفة لها. فقد وصل عددها إلى (١٨) سبيل خانة[٢]، إضافة إلى تزويد البيوت بواسطة القرب التي يحملها السقاؤون على ظهورهم أو على الحمير والبغال مقابل أجور معلومة، أو قيام النساء بحمل الماء إلى بيوتهن من النهر، أو أحواض الماء، وكانت لهم شرائع مخصوصة تسمح لهم بأخذ الماء نظيفاً إلى حد ما.

ولم تشهد شوارع بغداد أية أعمال تسوية باستثناء عدد قليل جداً منها، فلم تول اهتمامها بفتح شوارع منظمة ومستقيمة في المدينة ولم تعتنِ بتوسيع، وإصلاح بقية أزقتها وشوارعها الضيقة[٣]. وقد انعكس تقصير البلديات في أنها لم تول شؤون النظافة العناية الكافية وخاصة البلديتين الثانية والثالثة، مما دفع صحيفة الزوراء إلى أن تصف في سنة ١٨٧٨م حالة تلك الأزقة بأنها

(١) السقايات: هي مشاريع دائمة لنقل مياه الشرب أنشأها العثمانيون متأثرين بعمارة القنوات البيزنطية العالية التي كانت تزود مدن الأناضول بالماء وقد نالت السقايات العامة في بغداد اهتمام الولاة والأعيان وأهل الخير وشارك عدد من السيدات بإنشاء جملة من السقايات المختلفة ووقفت الجميع عليها الوقوف بموجب وقفيات وحجج رسمية وثبت بعضهم عدد العاملين على خدمة السقاية وحددت رواتبهم بدقة فكان من نتائج هذا الاهتمام أن زاد عدد السقاية العامة في القرن التاسع عشر إلى الحد الذي أصبح إنشاؤها ظاهرة من ظواهر الاجتماعية وامتدت خدماتها لتشمل محلات عديدة في بغداد ومن أشهر السقايات سقاية الشيخ عبد القادر الكيلاني وسقاية شوكت بيك وسقاية سري باشا وغيرها من السقايات التي وصل عددها إلى (٤٣) سقاية لمزيد من المعلومات، انظر: د. عماد عبد السلام رؤوف، تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في بغداد، ص١٦٥-١٩٦.

(٢) سالنامة ولاية بغداد لسنة ١٣٢٩هـ، ص١٨٦.

(٣) الزوراء، العدد ١٨٥٣، ١٢ شوال ١٣١٧هـ.

تستوجب الشكوى[١] لذلك حاولت بلديات بغداد في عهد مدحت باشا معالجة هذا الموضوع، وذلك من خلال منح عملية تنظيف المدينة لمتعهد خاص يتولى إنجازها على الوجه المطلوب، والاستغناء عن خدمات عمال النظافة ويبدو أن تلك المحاولة لم يكتب لها النجاح لأن الصحف ظلت تكرر شكواها من تقصير البلديات في عدم العناية بتنظيف الأزقة والشوارع[٢]. كما أن مفتشي ومراقبي البلدية لم يقوموا بأداء وظائفهم بشكل مرض حيث لم يمنعوا بعض التجاوزات التي كانت تحصل من بعض أصحاب المقاهي، والمحلات على الطرق العامة، والأسواق. وكثير ما أشارت صحيفة الزوراء إلى تجاوز أصحاب المقاهي على الأزقة بوضع التخوت، والكراسي على جانبي الطريق، مما يزيد ضيق الأزقة والطرق، ويؤدي إلى عرقلة حركة المرور، لذلك طالبت صحيفة الزوراء السلطات البلدية باتخاذ الإجراء اللازم لمنعهم عن ذلك، وفرض الجزاء النقدي على من يتجاوز ذلك[٣]. ويبدو أن السلطات البلدية غضت الطرف عن ذلك لأن صحيفة الزوراء ظلت تكرر طلبها ذلك[٤]، **كما أشارت صحيفة الرقيب إلى ذلك بقولها**: «إن البلدية قد أهملت أعمالها حيث إن تجاوزات أصحاب المحلات في الأسواق على الطريق العام كثيرة، إذ يخرج هؤلاء بضائعهم وحاجاتهم ويضعونها خارج محلاتهم على قارعة الطريق، حتى ظن نتيجة لهذا الإهمال أن البلدية لا وجود لها لولا وجود جملة من المأمورين، والحراس يتقاضون رواتبهم الشهرية في كل شهر، ويلحق بهم من خصصت لهم الدائرة معاشات أوفر باسم مفتشين، فهذه الأبنية تبنى والطرق تغصب.... ولا يخبرون الدائرة النائمة»[٥].

---

(١) الزوراء، العدد ٨٦٨، ذو القعدة ١٢٩٦هـ.

(٢) الزوراء، العدد ١٣٠، ٧ محرم ١٢٨٨هـ؛ الزوراء العدد ٣٢٢، ١٧ ذي الحجة ١٢٨٩هـ؛ الرقيب، العدد ٢، ١٣ محرم ١٣٢٧هـ.

(٣) الزوراء، العدد ٢١٣، ٢٦ صفر ١٢٨٩هـ.

(٤) الزوراء، العدد ٢٧٥، ٢٠ جمادى الآخر ١٢٨٩هـ.

(٥) الرقيب، العدد ٥٥، ٢٥ رمضان ١٣٢٧هـ.

علاوة على ذلك أهمل المفتشون والمراقبون متابعة الأبنية القديمة وملاحظتها بين حين وآخر وإخبار دوائرهم بحالتها الآيلة للسقوط، مما أدى إلى انهيار الكثير منها ووقوع خسائر كبيرة في الأرواح من جرائها، وذلك ما دفع الحكومة المحلية إلى أن تصدر قراراً إلى رؤساء بلديات بغداد في سنة ١٨٨٥م يتضمن إنزال عقوبات شديدة بهم في حالة إهمالهم مراقبة الدور القديمة، وعدم هدم المشرفة منها على الانهيار(١). وشمل تقصير البلديات في تأدية الواجبات المناط بها في مجال تقديم الخدمات الصحية الكافية للمواطنين، حيث كانت تجتاح بغداد باستمرار الأوبئة والأمراض الفتاكة كالطاعون، والهيضة، وغيرها من الأمراض الأخرى(٢). كذلك لم تبذل البلديات اهتماماً كافياً بإنشاء جسور، ولم يكن في المدينة سوى جسر واحد كان عبارة عن ألواح خشبية نصبت فوق مجموعة من القوارب ربط بعضها بالبعض الآخر بالحبال، وكان ذلك الجسر يتقطع في موسم الفيضان مما يضطر الناس إلى عبور النهر بواسطة القفف أو القوارب(٣). ولعل مما زاد في بطء تنفيذ الواجبات الموكلة لبلديات المدينة إهمالها أحياناً في أداء هذه الواجبات هو تلك القيود التي فرضت على الأعمال التي تعتزم دوائر البلدية القيام بها، إذ كانت هذه الدوائر، ومجالسها لا تستطيع البت في اليسير من القضايا إلّا بعد الرجوع إلى الدوائر المتخصصة ومجلس إدارة الولاية(٤)، كما أن العجز المالي الذي كانت تعاني منه البلديات سبباً في الحد من قيامها بمنجزاتها الكبيرة. فمع أن إيرادات بلديات بغداد كانت قد ناهزت في سنة ١٩٠٧م مليوناً ونصف المليون من القروش(٥)، إلّا أن قسماً كبيراً منها كانت

---

(١) الزوراء، العدد ١٢٤٢، ٤ صفر ١٣٠٢هـ.

(٢) ستيفن لونكريك، أربعة قرون، ص٣٠٢.

(٣) طالب مشتاق، أوراق أيامي (١٩٠٠-١٩٥٨م)، بيروت، ١٩٦٨م، ج١، ص١٢.

(٤) لغة العرب، ج١٠، السنة الثانية، (جمادى الأول ١٣٣١هـ/ نيسان ١٩١٣م)، ص٤٧٢.

(٥) سالنامة ولاية بغداد، لسنة ١٣٢٥هـ، ص٣٤٤.

تمتصه مرتبات موظفي، ومستخدمي البلدية، وذلك ما دفع الحكومة المحلية في بغداد في تلك السنة إلى أن تدمج البلديات الثلاث في بلدية واحدة مما ترتب عليه توفير شيء من الأموال للسلطات البلدية، فاستخدمها في تقديم المزيد من الخدمات للناس كان منها زيادة عدد أطباء البلدية من طبيب إلى ثلاثة أطباء[١]. ومهما يكن من شيء فقد واصلت بلدية بغداد عقب إدماجها اتخاذ العجز المالي ذريعة لتبرر عدم قيامها بواجباتها على الوجه الأكمل[٢]. **وعلى العموم فقد فشلت البلديات في أداء واجباتها الأمر الذي قال عنه لونكريك ما نصه: «والحقيقة أن البلديات في كثير من الأحيان كانت لا تقوم بشيء سوى دفع الرواتب، والأجور للموظفين، والمستخدمين، والاحتفاء بالموظفين المقيمين، أو الزائرين بين الحين والآخر»**[٣].

بالرغم من أن رؤساء البلدية وأعضاءها من أبناء المدينة إلّا أنهم يتنكرون بعد فوزهم بالانتخابات، وحصولهم على المناصب البلدية للوعود التي كانوا يقطعونها للناس على أنفسهم قبل انتخابهم لتقديم أكبر خدمات إليهم، مما حمل صحيفة الزوراء في سنة ١٨٨٩م إلى أن تنبه الناس أن يتأكدوا من مستوى إخلاص الأعضاء لينتخبوهم لعضوية مجالس البلدية إضافة إلى ذلك أن موظفي البلدية لم يكونوا يعيرون مطالب الناس أي اهتمام[٤] كامل، لذلك كان هناك إهمال، وتقصير من جانب البلديات الثلاث وعلى الرغم من ذلك كان لها بصماتها في بعض الجوانب ولو كانت أولية.

٢ الخدمات الصحية:

تعد الصحة العامة ركن من أركان البناء الاجتماعي، وتعد مقياساً للأحوال الاجتماعية ودرجة تقدمها، أو تأخرها، لارتباط الصحة بمستوى

---

(١) الزوراء، العدد ٢١٣٤، ١٨ جمادى الأول ١٣٢٥هـ.

(٢) الرقيب، العدد ٣، ٢٠ محرم ١٣٢٧هـ.

(٣) ستيفن لونكريك، أربعة قرون، ص٣٧٩.

(٤) الزوراء، العدد ١٤٢٢، ١٤ رجب ١٣٠٧هـ.

المعيشة والتعليم. كانت الحالة الصحية في غاية التدهور، والانحطاط، واعتمدت الشعوذة، والدجل، والخرافات، والجهل المخيم على معظم سكانها بسبب عدم اهتمام الحكومة بالإجراءات والتوعية الصحية، فمثلاً لم يهتم الولاة بالنظافة العامة للمدينة، أو توفير المياه الصالحة للشرب، أو اتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة الأوبئة التي تفد إلى بغداد، كما لم تبذل السلطات جهوداً ملموسة في مجال ردم البرك، والمستنقعات التي تخلفها الفيضانات التي تتعرض لها بغداد دائماً، والتي كانت مصدراً للأوبئة كالملاريا والحمى والكوليرا **(الهواء الأصفر)** أو **(أبو زوعة)**. وقد كانت المناطق المفتوحة ما بين الأسواق، والبيوت مكاناً لتجمع القمامة، وجثث الحيوانات مشكلة مصدراً للجراثيم والمكروبات. ولفقدان المجال في تصريف المياه القذرة أثر كبير في انتشار الجراثيم والأمراض كالسل والأمراض الزهرية، لأن تخزين المياه القذرة مدة طويلة، وعدم اهتمام الأهالي بتنظيفها بصورة مستمرة مرة كل شهر على الأقل، أو استخدام المواد المطهرة مسببة الروائح الكريهة التي تفسد هواء الدور، وفي بعض الأحيان تتسرب إلى مياه النهر مختلطة مع مياه الشرب فاتحة الطريق واسعاً أمام جميع الأمراض السارية، ولا يقتصر الأمر على البيوت فقط، وإنما على الأماكن العامة كالخانات والحمامات. وقد كان لوجود الحيوانات الداجنة كالخيل وما شاكلها في البيوت. أيضاً منشأ للعديد من الجراثيم والمكروبات التي تسبب الأمراض، فيقضي عزل اسطبلات الحيوانات من المنازل وإذا اقتضى الأمر بوجوب الاعتناء بالنظافة، من هذا نستدل على أن جميع الأماكن والحانات كانت مركز تجمع الجراثيم والمكروبات[١].

وقلما وجد من الولاة والإداريين من يهتم بالأمور الصحية، والتوجيه بالاهتمام بالمياه والأطعمة، والمأكولات، ونظافتها، وكانت مبادرة والي بغداد أحمد توفيق باشا سنة ١٨٦٠م تعد فريدة من نوعها عندما أمر

(١) صدى بابل، العدد ٤، ١٣ أيلول ١٩٠٩م؛ العدد ٦٤، ٢٨ تشرين الأول ١٩١٠م.

القصابين، وأصحاب المأكولات بوضع ستر من الخام على موادهم للمحافظة عليها من الغبار والذباب[١]، ومن ثم الوالي مدحت باشا الذي أدرك منذ الوهلة الأولى تدهور الأوضاع الصحية، فأحدث نقلة نوعية في الميدان الطبي حيث بدأ الحملة الأولى للنهضة ضد **التخلف، والشعوذة، والأمراض المنتشرة بين الجميع آنذاك**[٢] توافق ذلك مع صدور أول نظام يتعلق بالصحة العامة، وإدارتها في العاصمة والولايات على حد سواء والذي عرف **(الإدارة العمومية الطبية)** سنة ١٨٧١م وهذا الاتجاه يوضح اهتمام الدولة نحو مجمل الأوضاع الصحية، فقد أوجب هذا النظام على البلدية أن تعين طبيباً ومعاوناً له ليعاين المرضى مجاناً مرتين في الأسبوع في محل يتعين ويعلن من طرف «الدائرة البلدية». وهو مسؤول عن الصحة العامة في المدينة، وتقوم البلدية بدفع راتبه ولكنه يكون مرتبطاً بإدارة - الأمور الطبية التي أنشئت في إسطنبول سنة صدور هذا النظام - ويتلقى تعليماته منها كما أوجب نظام البلدية أن تقوم بفتح صيدلية عامة لتزويد الفقراء بالأدوية مجاناً[٣] لهذا ارتبطت الأمور الصحية في المدينة بالبلديات.

فأنشأ مدحت باشا **مستشفى للغرباء (غربا حنته خانة سي)** بالجانب الغربي من بغداد معتمداً في بنائها على المبالغ التي جمعت عن طريق تبرعات الأهالي، واستخدام مواد البناء المستخدمة من خرائب سور بغداد وخاصة الطابوق[٤]،

---

(١) محمود بيك سلطان بيك عبد القادر بن حبيب بن عبدالله بيك بن شاوي، مخطوط د.ص.م، رقم ١٠٦٥٧، ورقة ٣٥.

(٢) يعقوب سركيس، مباحث عراقية، ج٢، ص٣٠٩؛ W. Fogg, op., cit., p:222.؛ عبد الرزاق الهلالي، معجم العراق، ج٢، ص٢٠٦.

(٣) الدستور، م٢، ص٧١٣-٧١٥.

(٤) الزوراء، العدد ١٢، ٢٣ جمادى الأول ١٢٨٦هـ، العدد ١٣، ١ جمادى الآخر ١٢٨٦هـ؛ العدد ١٤، ٨ جمادى الآخر ١٢٨٦هـ؛ العدد ٦٥، ٤ جمادى الأول ١٢٨٧هـ، ابن شاوي، المصدر السابق، الورقة ١٩؛ علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٢٥٠.

وطلب مدحت باشا من إسطنبول طبيباً وصيدلياً وعدداً من الموظفين الصحيين لإدارته(١)، وافتتح المستشفى سنة ١٨٧٢م(٢) وهو يحتوي على (٥٠) سريراً(٣) في أقسامه الثلاثة الجراحية، والباطنية، والزهرية، وألحقت بها شعبه بسيطة للإسعاف وكانت تقدم الخدمات العلاجية مجاناً(٤) للمواطنين، وجعل إدارتها تحت إشراف دائرة البلدية الأولى للوهلة الأولى(٥). ولم يلق هذا المستشفى إقبالاً عند افتتاحه بسبب تفضيل الناس للطرق القديمة للعلاج علاوة على قلة الأطباء الكفوئين في ملاكه(٦)، كما أن المستشفى خصص للغرباء، لذا كان معظم الملتجئين إليه من الفقراء والمتسولين، فقد وجد البعض منهم المكان المناسب ليقضوا فيه بقية حياتهم(٧)، وعلى الرغم من محدودية المستشفى لدى غالبية البغداديين إلّا أنها كانت خطوة أولى للنهضة الصحية، ففي عهده تمتع الطبيب بمكانة لائقة لدى شرائح المجتمع(٨). وللحد من تسرب الأمراض الوافدة تجلى اهتمام الوالي مدحت باشا بالحجر الصحي لأن الكثير من الأمراض وخاصة الطاعون، والكوليرا تفد إلى بغداد من الهند وإيران، عن طريق الوفود الزائرين إلى الأماكن المقدسة أو عن طريق القوافل التجارية(٩)

---

(١) الزوراء، العدد ١٢، ٢٣ جمادى الأول ١٢٨٦هـ.

(٢) الزوراء، العدد ٢١٦، ذو القعدة ١٢٨٨هـ.

(٣) عبد الحميد العلوجي، تاريخ الطب العراقي، بغداد، ١٩٦٧م، ص١٤٩.

(٤) هاشم الوتري ومعمر الشابندر، تاريخ الطب في العراق مع نشوء وتقدم الكلية الطبية الملكية في العراق، بغداد، ١٩٣٩م، ص٥٣-٥٤.

(٥) سالنامة ولاية بغداد، ١٢٩٩هـ، ص٦٤.

(٦) Hashim Al-Witry, Health Service in Iraq, Baghdad, 1944, p:4.

(٧) هاشم الوتري ومعمر الشابندر، المصدر السابق، ص٥٤.

(٨) يعقوب سركيس، مباحث عراقية، ج٢، ص٣٠٩.

(٩) أنستاس الكرملي، الزوار والتجار في العراق في سنة ١٩٠٣م، مجلة غرفة تجارة بغداد، ج٨، السنة الرابعة، بغداد تشرين الأول، ١٩٤١م، ص٥٠؛ نشرة عن الهيضة (الكوليرا) أعدها قسم الطبي الوقائي والصحة العامة، جامعة بغداد، =

مع معرفة بقلة فعالية الحجر الصحي[١] لأن التدابير التي كانت سائدة آنذاك غير مجدية ولم تطبق عل الوجه المطلوب، ولأن مستوى المشرفين عليها من الجند ورجال الأمن كان من شأنه أن يجعل تدابير الحجر الصحي شيئاً لا أهمية له من أساسه[٢]، ولذلك ظلت بغداد عرضة للأمراض الموفدة إليها من الخارج



مستشفى (الغرباء) - الكرخ وهي أقدم مستشفى في بغداد سنة ١٨٧٢م.

فمثلاً في سنة ١٨٦٩م تفشى مرض الهيضة بواسطة الوافدين من إيران عن طريق خانقين على الرغم من تدابير الحجر الصحي التي كانت مفروضة هناك وفي الفترة نفسها وصل شاه إيران مع وفد رسمي بصحبة (٢٠) ألف زائر، وبطبيعة الحال لم تتخذ إجراءات الحجر الصحي مع الوفد الزائر مما أدى إلى انتشار المرض[٣]. وبالرغم من تحسن الوضع الصحي قليلاً في عهد مدحت باشا إلّا

= ب.ت، ص٥؛ متي عقراوي، العراق الحديث، ترجمة: مجيد خدوري، ج١، ١٩٣٦م، ص١٧٠.

(١) ستيفن لونكريك، أربعة قرون، ص٣٨٠.

(٢) (٣) جعفر الخياط، المصدر السابق، ص٢٨١-٢٨٢.

أنها عاد إلى الإهمال عقب مغادرته بمدة قصيرة. وقد كان أطباء الدولة أشبه بموظفين غير مهتمين بصحة الناس، وبالرغم من واجباتهم الذهاب إلى أي مريض في حالة استدعائهم إلّا أنهم لم يكونوا يلبون الدعوة وكثيراً ما كان قراء الزوراء يقدمون الشكوى بخصوص ذلك[1]، وقد أصاب مستشفى الغرباء الكثير من الإهمال والخراب لعدم وجود الأطباء الكفوئين، والموارد المالية للصرف عليه حتى قيام قدري باشا بإعادة ترتيب مأمورية، وملازمية، وتهيئة لوازمه من الأدوية، والآلات، والأدوات الطبية، وتعمير أقسامه المختلفة، وتخصيص جناح للمساجين والمعتوهين، والعواجز[2]، وافتتح في ربيع الآخر (١٢٩٦هـ-١٨٧٨م)[3] وأُلفت إدارته من المدير، وطبيب البلدية، والجراح، والصيدلي، وكاتب وإمام، وظلت بلدية بغداد الأولى مسؤولة عليه حتى سنة ١٨٨٣م ثم أصبح تابعاً لبلدية بغداد الثالثة[4] التي يشمل نطاق عملها جانب بغداد الغربي كلها، ثم أرجعت إدارته لبلدية بغداد الأولى في سنة ١٨٩٢م[5]. غير أن المستشفى أصابها الخراب في الفترات اللاحقة، حتى حلول عهد نامق باشا (١٨٩٢-١٩٠٢م) الذي اهتم بإنشاء المستشفيات، فقام بإلغاء مستشفى مدحت باشا وأنشأ على غراره مستشفى آخر أطلق عليه اسم **(الغرباء)** أيضاً يقع في جانب الرصافة شمال باب المعظم وأراد أن يجعله مستشفى من الطراز الأول، إذ زاد اهتمامه به كثيراً، فجلب له المستلزمات الجراحية، والعقاقير من أوروبا، وافتتح في (١٥ ذي الحجة ١٣١٨هـ/ ٥ نيسان

---

(١) الزوراء، العدد ٢٢٢، ذي الحجة ١٢٨٨هـ.

(٢) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص٤٤-٤٥؛ عبد الحميد العلوجي، المصدر السابق، ص١٥٠-١٥١.

(٣) الزوراء، العدد ٨١٦، ١٦ ربيع الآخر ١٢٩٦هـ.

(٤) سالنامة ولاية بغداد، لسنة ١٣٠٠هـ، ص١١٥.

(٥) سالنامة ولاية بغداد، لسنة ١٣١٠هـ، ص١٣٣؛ عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢، ص١٤١.

١٩٠١م) واشتمل المستشفى على عدّة أقسام للأمراض الباطنية، والجراحية، والعيون، والنسائية، فضلاً عن دار للمجانين ملحقة به، وصيدلية، ومسجد، ومطبخ، وحديقة[١]. وعين له أطباء اختصاصيين أمثال الدكتور نظام الدين للأمراض الباطنية، والدكتور ذهني بيك للأمراض الجلدية، والدكتور سامي سلمان لأمراض العيون[٢] فضلاً عن ملاك غير متخصص من الموظفين والمستخدمين[٣].

كانت البلدية تقوم بدفع نفقات إيواء المرضى، وإطعامهم، وعلاجهم بمعدل كلفة يومية تقدر بثلاثة قروش عن كل مريض على ألّا يزيد المصروف عن ثمانية مرضى يومياً وكانت الأصول المتبعة في قبول المرضى في المستشفى حصولهم على شهادة من البلدية تؤكد فقرهم، وقبل ذلك كانت واردات العبور على جسر الخر تخصص لسد الحاجة والتي قدرت بـ(٣٠٠٠) سنوياً.

وقد نشرت صحيفة الزوراء النشرة التي أصدرتها إدارة المستشفى عن عدد المراجعين للشهر الأول من افتتاحه، فبلغ عددهم (٨٤) مريضاً شفي منهم (٤٣) مريضاً ومات (٤) مرضى وبقي (٣٧) مريضاً تحت المعالجة[٤]. وقد كان هذا المستشفى أفضل من سابقه بوجود ملاك طبي مُكوّن من أطباء مارسوا بعض التخصص، وهي بادرة فريدة من نوعها. وعلى أثر ثورة الاتحاديين سنة ١٩٠٨م تولى شؤون مدينة بغداد نجم الدين (١٣٢٥-١٣٢٧هـ) الذي كان له اهتمامات صحية، فبادر إلى نقل محتويات مستشفى نامق باشا إلى مستشفى الغرباء السابق في الجانب الغربي[٥]، الذي تحولت بنايته إلى مدرسة للإعدادية الملكية، فقام

---

(١) الزوراء، العدد ١٨٩٨، ١٧ ذي الحجة ١٣١٨هـ.

(٢) هاشم الوتري ومعمر الشابندر، المصدر السابق، ص٥٤؛ عبد الحميد العلوجي، المصدر السابق، ص٣٩٣-٤٥٤.

(٣) سالنامة ولاية بغداد، لسنة ١٣١٩هـ، ص١١٤؛ ١٣٢٥هـ، ص١٠٤.

(٤) الزوراء العدد ١٩٠٤، ٧ صفر١٣١٩هـ.

(٥) هاشم الوتري ومعمر الشابندر، المصدر السابق، ص٥٦.

بإعادة إعماره من جديد عن طريق تبرعات الأهالي، وبمساهمة خاصة منه أيضاً[١]، وأعيد الإشراف عليه إلى دائرة البلدية الثالثة. في الواقع أن هذا المستشفى أخذ يتدهور بسبب افتقاده إلى الملاكات اللازمة إلى أن تولى الدكتور محمد كاني[٢] إدارة المستشفى إذ قام بجهود كبيرة من أجل إصلاحه، والعودة به إلى سابق عهده، ومن إجراءاته النوعية أنه أسند مهمة التمريض إلى النساء حيث عهد بالعمل إلى بعض الراهبات بالعمل كممرضات[٣]. ويمكن تقدير أهمية الجهود التي بذلها الدكتور محمد كاني من خلال ملاحظتنا مجموع العمليات التي أجراها المستشفى للمدة من أول آذار ١٩١١م وحتى نهاية آب من العام نفسه إذ بلغت (١٢٢) عملية جراحية تراوحت بين الصغرى والكبرى، تكللت معظمها بالنجاح[٤]. مما يعني أن الأهالي بدأوا يقدرون أهمية المؤسسات الصحية، وقد أسهم هذا المستشفى في تقديم الخدمات التي لم تكن معروفة آنذاك، فقد استطاع الطبيب مظفر بيك المتخصص بالأمراض الزهرية التوصل إلى الدواء الخاص بمعالجة هذا الداء سنة ١٩١٤م ونتيجة لهذا استحضرت كميات كبيرة من هذا الدواء ووزعت على المستشفى، وصيدليات البلدية وعلى جميع أطباء الملكية لأجل معالجة المصابين وخاصة الفقراء منهم مجاناً[٥]. كما

---

(١) الرقيب، العدد ٢١، ٢١ جمادى الأول ١٣٢٧هـ.

(٢) محمد كاني: طبيب تركي الأصل مختص بالجراحة العامة أولاً والجراحة النسائية ثانياً عين سنة ١٩٠٩م مديراً لمستشفى الغرباء وظل فيه حتى الاحتلال البريطاني لمدينة بغداد، انظر: عبد الحميد العلوجي، المصدر السابق، ص٤٤٤؛ كمال السامرائي، الأمراض النسوية في تاريخ القديم وأخبارهم في العراق الحديث، بغداد، ١٩٨١م، ص٦٧.

(٣) هاشم الوتري ومعمر الشابندر، المصدر السابق، ص٥٦؛ صدى بابل، العدد ٢١٠، تشرين الأول ١٩١٣م.

(٤) الزوراء، العدد ٢٣٤٠، ٢٢ أيلول ١٩١١م.

(٥) صدى بابل، العدد ٢٢٩، آذار ١٩١٤م.

افتتح مستشفى في دار المعلمين في نيسان ١٩١٢م يستقبل مراجعيه نهار كل خميس[(١)].

وقد اهتم الوالي ناظم باشا بالإجراءات، والتدابير الصحية بصورة عامة فعندما ورد خبر انتشار مرض الكوليرا أصدر أوامره باتخاذ التدابير، والوسائل اللازمة، فشكل لجنة **(قوميسيون)** يرأسها هو للاعتناء بنظافة المدينة، وتطهيرها، ورفع القمامة من البيوت والطرق وتعيين أطباء داخل وخارج المدينة، وفحص الفواكه، وإتلاف الفاسد منها، والمحافظة على نقاوة نهر دجلة، وتحذير الأهالي من إلقاء الأوساخ فيها، أو غسل الملابس وما أشبه ذلك كما وضع الحجر الصحي في أطراف الولاية التي يأتي منها الداء لمنع سريانه[(٢)]. ومن إجراءاته الصحية التي أمر باتخاذها تطعيم جميع الأطفال من مرض الجدري سواء الذي في المكاتب الرسمية أو غيرهم وأمر بنشر مطبوع تبلغ به جميع المحلات بأن عليهم أن يراجعوا بلدياتهم لاتخاذ اللازم[(٣)].

وشيّد الوالي رجب باشا سنة (١٣١٣هـ-١٨٩٥م) مستشفى عسكري في القصر المشيد في بستان النجيبية بعد أن أضاف إليه غرف واسعة كردهات للمستشفى وسماه «**مجيدية خستة خاة سي**»[(٤)].

وفي سنة ١٩٠٥م أنشأت هيئة إدارية صحية مختصة بالشؤون الصحية

---

(١) صدى بابل، العدد ١٣٢، ٢٨ نيسان ١٩١٢م؛ هاشم الوتري معمر الشابندر، المصدر السابق، ص٣-٦.

(٢) صدى بابل، العدد ٦٤، ٢٨ تشرين الأول ١٩١٠م.

(٣) صدى بابل، العدد ٧٩، ٢٦ شباط ١٩١١م.

(٤) هاشم الوتري ومعمر الشابندر، المصدر السابق، ص٥٤-٥٦؛ علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٢٥٣؛ عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص٢٩؛ أديب توفيق الفكيكي، تاريخ أعلام الطب العراقي الحديث، ج١، بغداد، ١٩٨٩م، ص٢٧-٢٨.

مؤلفة من طبيب البلدية ومفتش صحي عثماني وكاتب[١]. ومما يجدر ذكره أن الخدمات الصحية في بغداد لم تقتصر على الخدمات الحكومية، فقد أشار السير وليس بدج الذي زار بغداد سنة ١٨٨٨م إلى وجود مستشفى أهلي عائد إلى أحد الأشخاص البغداديين كان يعالج الناس مجاناً[٢]. إضافة إلى عدد من العيادات الخاصة لبعض الأطباء الأوروبيين، وبعض المشتغلين في مجال الطب[٣]. وفي سنة (١٣٢٨هـ-١٩١٠م) افتتح مستشفى خيري أهلي شيده أحد أثرياء اليهود **(مير أفندي الياهو)** وعرف باسم مؤسسة مستشفى **(مير الياس)** وقد حضر الافتتاح الوالي، وجميع كبار الموظفين، وقناصل الدول الأجنبية، وجميع الوجهاء، وأثرياء المدينة[٤].



افتتاح مستشفى (المجيدية) سنة ١٩٠٠م.

(١) سالنامة ولاية بغداد، السنة ١٣٢٩هـ، ص٩٣.

(٢) السير وليس بدج، المصدر السابق، ص٨٥.

(٣) نابليون الماريني، نزهة العباد في مدينة بغداد، بيروت، ١٨٨٧م، ص٤٧-٤٨.

(٤) صدى بابل، العدد ٦٦، ٢٠ تشرين الأول ١٩١٠م.

وتقضي هنا الإشارة إلى دور الإرساليات التبشيرية في تقديم الخدمات الطبية للأهالي. وفي هذا المضمار يعد الآباء الكرمليون، والكبوشيون من أقدم المبشرين الذين أولوا الخدمات الطبية جانباً من اهتمامهم. فإن الكبوشيين الذين أسسوا إرساليتهم في بغداد سنة ١٨٢٦م افتتحوا سنة ١٨٧٦م مستوصف لعلاج المرضى الذي ظل يقدم خدماته حتى قيام الحرب العالمية الأولى[١]. وقد أنشأ الآباء الكرمليون صيدلية خاصة تعطي الدواء مجاناً، فلا غرو أن قدر عدد المترددين على هذه الصيدلية بحوالي (١٠٠٠) مريض في الشهر الواحد[٢]، كما أنشا الكرمليون داراً للأيتام، وداراً للمكفوفين، والعجزة[٣]، وفي سنة ١٩١٤م افتتح البروتستانت أول صيدلية إنكليزية في محلة رأس القرية[٤] كما أن أطباء قنصليات الدول الأوروبية آنذاك كانوا يقومون بتقديم الخدمة الطبية لعدد من المرضى[٥] فإن الطبيب داميا كان مستعداً لزيارة المرضى في بيوتهم بنفسه[٦].

وقد حظي أسلوب تعامل المبشرين، وأطباء القناصل في ميدان الخدمة الطبية بتقدير الناس وجلب أنظار الناس وخاصة المثقفين منهم إلى قيم الحضارة الأوروبية الحديثة، ونبه أذهانهم إلى واقع شعبهم المأساوي في ظل الحكم العثماني[٧]. غير أن الجهود الطيبة للإرساليات التبشيرية وأطباء القنصليات لم تكن لها أهداف إنسانية بحتة فهي اتخذت من الخدمة الطبية وسيلة لجذب

---

(١) عبدالله محمود الحاج قاسم، مؤسسات الموصل الصحية منذ الفتح الإسلامي وحتى نهاية العهد العثماني، دراسات وبحوث طبية، بغداد، ١٩٩٠م، ص١٥٦-١٥٧.

(٢) (٣) لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج٦، ص٣٤٣٥.

(٤) صدى بابل، العدد ٢٢٧، شباط ١٩١٤م؛ العدد ٢٣٠، آذار ١٩١٤م.

(٥) صائب شوكت، المصدر السابق، ص٤-٥.

(٦) الشرق، العدد ٣، آذار ١٩١٢م، ص١٧٨.

(٧) عبد الرزاق النصيري، المصدر السابق، ص٧٨.

الناس إليها[١]، والتمهيد لنفوذهم السياسي، ولجمع المعلومات عن السكان وميولهم ولإعطاء انطباعات إيجابية عن حبهم للإنسانية.

أما بالنسبة للصيدليات (**الأجزء خانة**) فقد وصل عددها إلى (١٣) صيدلية[٢]. وكثيراً ما ارتبطت الصيدلية بوجود طبيب خاص بها يحدد وقت وجوده في الصيدلية لتقديم العلاج للناس[٣]. وكان هناك تجار يقومون باستيراد الأدوية من الخارج وكثيراً ما استغل باعة الأدوية والعقاقير الموجودون في بغداد حاجة الناس المتزايدة لبضاعتهم، لهذا كانوا يبيعون الوصفة التي ثمنها قرشين بعشرين قرشاً، أو كانوا يبيعون الوصفة النافذة صلاحياتها، ولهذا كان الكثير من الفقراء والمحتاجين لا يشترون الدواء لضعف إمكاناتهم المادية[٤]. وكثيراً ما يعلن باعة الصيدلية عن أسعارهم الرسمية واستعدادهم لتقديم التسهيلات إلى الفقراء.[٥] مع العلم أن أغلبية المجتمع اعتمد على الأعشاب الطبية، والمعاجين، والمساحيق الموجودة عند العطارين.

كانت الأوضاع الصحية سيئة والأمراض متفشية بين سكانها وغالباً ما تؤدي تلك الأمراض إلى هلاك الكثير منهم دون أن تكون هناك إجراءات فعالة للحد من انتشار الأمراض، والأوبئة، ويمكن إيعاز ذلك إلى ضعف، وعقم الإجراءات الصحية المتخذة من قبل الإدارة المحلية الحكومية، والدوائر الصحية، التي لم تستطع الحد من انتشار الأمراض[٦]. فمثلاً بلغت الإصابة بمرض الكوليرا سنة ١٩١٠م (١٨٠) حالة توفي (٦٥)

---

(١) عبد المالك خلف التميمي، التبشير في منطقة الخليج العربي، الكويت، ١٩٨٨م، ص٤٩.

(٢) سالنامة ولاية بغداد، لسنة ١٣٢٩هـ، ص١٨٦.

(٣) الزوراء، العدد ١٠٣٠، ١٤ شعبان ١٢٩٩هـ.

(٤) الزوراء، العدد ٨٠٤، ١١ صفر ١٢٩٦هـ، سيروليس بدج، المصدر السابق، ص٨٥.

(٥) الزوراء، العدد ١١٣٠، ١٤ شعبان ١٢٩٩هـ.

(٦) انظر عن تدهور الحالة الصحية، الزوراء، العدد ٢٢٢، ٧ ذي الحجة ١٢٨٨هـ.

منهم[١]، وفي سنة ١٩١٣م بلغت الإصابة بالجدري نحو (٢٠) شخص من كل (١٠٠) شخص في المدينة وكان أغلبهم من الفقراء، وقليلي النظافة[٢]. إن معظم الإجراءات التي كانت تتخذ عند حدوث الإصابة هي غلق الطرق المؤدية إلى المنطقة المصابة، ومنع خروج، أو دخول السكان وحجرهم في بيوتهم حتى زوال المرض، وهذا ما كان يؤدي إلى زيادة نسبة الوفيات بين أفراد العائلة الواحدة إذا ما صادفت إصابة أحدهم بالمرض[٣]، وقد حدث ذلك في الطواعين التي أصابت بغداد في سنتي ١٨٧٦ و١٨٧٧م ففي الطاعون الأول ذهب عدد كبير من الضحايا بسبب رفض الوالي عبد الرحمن باشا (١٨٧٥-١٨٧٧م) الإجراءات التي اقترحها القنصل البريطاني كولفيل، وعندما حدث الطاعون في السنة التالية تم إخراج ثلثي السكان وفقاً لنصيحة الدكتور كولفيل لذلك كان معظم الموتى من الذين بقوا في بيوتهم[٤].

ولم يكن الولاة والإداريون هم المسؤولون الوحيدون في عدم اتخاذ الإجراءات الكفيلة للحد من انتشار الأمراض وإنما كان الجهاز الذي يشرف على تنفيذ قرارات الحجر الصحي يتسم بالفساد، والرشوة، ففي الوقت الذي كانوا يتشددون فيه مراقبة القادمين إلى العراق نجدهم في فترات خلو المنطقة من الأمراض يتساهلون. وكان رجال الأمن والجند والموظفون المكلفون بتطبيق القرارات في فترات ظهور الأوبئة كانوا يستغلون تلك الأوضاع لجمع الأموال. **وعلى رأي أحد الباحثين «أن كل فرد بوسعه أن يشتري السماح له بالدخول بدراهم معدودة»**[٥] دون أن تكون أهدافهم الحرص على منع دخول الأفراد والبضائع

(١) صدى بابل، العدد ٦٦، ٦ تشرين الثاني ١٩١٠م.

(٢) مجلة لغة العرب، ج٦، السنة السادسة، (محرم ١٣٣٢هـ/ تشرين الثاني ١٩١٣م)، ص٣٣٣.

(٣) W. Fogg, op., cit., p:222.

(٤) جعفر الخياط، المصدر السابق، ص٢٠٣-٢٠٤.

(٥) ستيفن لونكريك، أربعة قرون، ص٣٨٠.

المصابة[١]، فمثلاً الطاعون وفد إلى بغداد مرات عديدة من بينها سنة ١٨٧٣، ١٨٧٥، ١٨٧٧، ١٨٨١، ١٩٠١م[٢]، واتخذ في بعض السنوات شكلاً وبائياً. أما السبب الآخر هو ضعف الوعي الصحي لدى السكان في الإجراءات التي تتخذ للحد من انتشار الأمراض. فقد كان معظمهم يلجأون إلى السحرة والمشعوذين والدجالين الذين يستخدمون الأدعية، والطلاسم، لعلاج الناس، أو الالتجاء إلى قبور الأولياء لاعتقادهم أنها الوسيلة التي تمنع عنهم الأمراض[٣]. دون أن يتخذوا أية إجراءات لوقاية أنفسهم من الأمراض كمغادرة بيوتهم في حالة الإصابة بالمرض لإيمانهم بالقضاء والقدر، وهذا ما دفع العديد من الوجهاء ورجال الدين إلى حث السكان بضرورة الخروج من منازلهم في حالة انتشار المرض إلى المناطق البعيدة[٤].

ولعدم وجود الأطباء المؤهلين علمياً، وفنياً، وبسبب الخرافات المنتشرة بين الناس راجت ممارسة من كان يطلق عليهم المتطببون وكان أغلبهم من الدجالين المشعوذين اشتهر منهم حكيم حداد، وهو متطبب لا يحمل شهادة طبية جاء إلى بغداد من إيران وسكن محلة طاطران سنة ١٨٨٥م فذاع صيته، والسيد أحمد الذي سكن محلة الدهانة، والأسطة عباس الذي اشتهر بممارسة الجراحة النسائية، ومن النساء اشتهرت المدعوة فرحة خاتون في ممارسة طب العيون[٥]. وكانت الأدوية التي يتعاطى بها هؤلاء المتطببون هي العقاقير،

---

(١) Despatches from Uniteds States Cenin in Baghdad. The National Archives of United States. Washington 18/961. Microcopy No. T. 50, Ro. 1. 1900-1906 Document No. 147. Date May. 24. 1900.

(٢) ريتشارد كوك، المصدر السابق، ص١٤٦-١٤٩؛ جيمس ريموند وليستد، المصدر السابق، ص١٠١-١١٤.

(٣) علي الوردي، طبيعة المجتمع، ص٣٠٣؛ W. Fogg, op., cit., p:222.

(٤) ديولافوا، المصدر السابق، ص٨٧-٨٨.

(٥) هاشم الوتري ومعمر الشابندر، المصدر السابق، ص٥٧-٦٠؛ عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص٣١.

والأعشاب النباتية. وقد اعتمد الناس على الحلاقين في علاج أسنانهم[١]. وبعض الجراحة. أما الختان فكان يمارس من قبل طائفة من الزعرت **(الزعرتية)**. وللقابلات الأهليات أثر كبير في التوليد ومعالجة أمراض النساء والأطفال. وقد كان يطوف طرقات بغداد بعض البدو يعالجون الناس بالكي، والأعشاب يطلق عليهم **(الصليبي)**[٢]. وقد اعتمد عموم الناس على العقاقير والأعشاب المعطاة حسب الوصفات الشفهية من قبل المتطببين، أو العجائز، أو الأصدقاء والمتوفرة لدى العطارين في الأسواق[٣]. ورغم تحذير بعض المثقفين عن طريق صحيفة الزوراء من هؤلاء الحكماء لعدم فهمهم من الأمور الطبية شيئاً، واقتراح أن تقوم الدائرة الضابطة منع هؤلاء الأشخاص القيام بهذه الإجراءات[٤]، إلّا أن بغداد بقيت ميداناً فسيحاً لعبث الدجالين والمشعوذين، ومرتعاً خصباً لأصحاب الخرافات[٥]، وقد أصبح لهؤلاء منزلة مرموقة بين الناس[٦].

بالإضافة إلى ذلك ندرة المستشفيات وقلة الملاكات الطبية الموجودة في المدينة والتي لا تتناسب مع عدد السكان المرضى، حيث لم يتعد عدد الأطباء الأهليين الذين مارسوا الطب في المدينة في أواخر القرن التاسع عشر الـ(٢٠) طبيباً ومعظمهم أجانب لا يحملون أي مؤهلات علمية منهم الدكتور **(أدلر)** وهو طبيب نمساوي كان مستخدماً في الجيش العثماني، ثم انتقل إلى منزلة في محلة رأس القرية، حيث افتتح عيادته هناك، وكان يعالج المرضى بالوسائل الطبية الفنية. والطبيب الثاني **(لازار)** وهو نمساوي عمل موظفاً في البلدية يسكن

---

(١) محمد رؤوف الشيخلي، المصدر السابق، ص٩٩.
(٢) عبد الحميد العلوجي، المصدر السابق، ص١٤٦.
(٣) محمد رؤوف الشيخلي، المصدر السابق، ص٩٩.
(٤) الزوراء، العدد ٣٢١، ٦ ذي الحجة ١٢٨٩هـ.
(٥) هاشم الوتري ومعمر الشابندر، المصدر السابق، ص٥٧؛ عبد الرزاق الهلالي، معجم العراق، ج٢، ص٢٠٦.
(٦) شريف عسيران، علم الصحة، ج١، بغداد، ١٩٤٩م، ص٢٤.

ويمارس الطب في رأس القرية والطبيب الثالث **(يانقو)** وكان طبيب عسكرياً، ثم استقال، وأخذ يمارس الطب في عيادته. **والدكتور آش** في محلة التوراة والدكتور لبي(١). كما وردت الإشارة إلى وجود طبيبين لعلاج الإناث في محلة سوق الغزل هما نعوم، وعزت أفندي(٢). وبعد سنة ١٨٠٩م جاء بغداد أطباء من حملة الشهادات الطبية من أوروبا، وأمريكا، وبيروت وضمن اختصاصات معينة، **مثل الدكتور إسكندريان أفندي المختص بالأمراض الباطنية، للقيام بعمليات جراحية(٣)، والدكتور إحسان مختص بالأمراض النسائية وجميع الأمراض الباطنية(٤) والدكتور آرام المختص بالأمراض الباطنية، والعمليات الجراحية(٥)، والدكتور إسماعيل بيك المختص بطب العيون(٦).**

وهناك من الأطباء من يأتي لبغداد لفترة وجيزة معلنين عن مجيئهم في الصحف مثل الدكتور المستر فرنسيس أنلي وزوجته المختصين بمعالجة الأسنان والدكتور يوسف كنعان المختص بمعالجة العيون(٧). إضافة إلى هذا أن الأطباء العراقيين الذين سافروا إلى الأستانة في مطلع القرن العشرين للدراسة في كلية حيدر باشا ومدارس الطب في دمشق وبيروت عادوا إلى البلاد لممارسة مهنهم(٨). وعلى الرغم من هذا لم يكن عدد الأطباء المدنيين والعسكريين يتجاوز أصابع اليد.

---

(١) الزوراء، العدد ٢٢٢، ذي الحجة ١٢٨٨هـ.

(٢) محمد رؤوف الشيخلي، المصدر السابق، ص٩٩.

(٣) صدى بابل، العدد ١٦٣، حزيران ١٩١٣م.

(٤) صدى بابل، العدد ١٦٥، كانون الأول ١٩١٢م.

(٥) صدى بابل، العدد ٢٣٠، آذار ١٩١٤م.

(٦) صدى بابل، العدد ١٦٣، تشرين الأول ١٩١٢م.

(٧) صدى بابل، العدد ١٢٧، ٢٤ آذار ١٩١٢م؛ العدد ١٧٦، شباط ١٩١٣م.

(٨) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص٣٠؛ عبد الحميد العلوجي، المصدر السابق، ص٢٧٤-٢٧٥.

ظلّت الحالة الصحية للمدينة تعاني من التدهور وحتى طبابة الجيش عانت من الإهمال إذ كان الأطباء العسكريون المسؤولون عن التجنيد يبيعون قرارات الإعفاء من الخدمة بأسعار فاحشة[١]، ولم تستطع الإدارات الصحية، والكوادر الطبية من الحد من انتشار الأمراض والأوبئة التي اجتاحت المدينة مرّات عديدة كالطاعون، والكوليرا، والجدري، والتيفوئيد التي أدت إلى إزهاق أرواح الكثير من أبنائهم، وظلت تعاني منها حتى نهاية العهد العثماني. مع العلم أن بغداد كانت بالنسبة للمدن العراقية الأخرى أفضل حالاً بالنسبة لمؤسسات الصحة والملاكات الطبية وذوي المهن الطبية. مع هذا نقول إن بغداد شهدت بواكير الوعي الصحي من خلال ما قدمته الملاكات والدوائر الصحية من خدمات صحية للمجتمع.

❸ الخدمات التعليمية:

لقد اقتصرت مفردات التعليم قبل سنة ١٨٦٩م على الكتاتيب التي تركزت عنايتها على تحفيظ القرآن الكريم. وتأتي عملية القراءة، والكتابة كوسيلة مساعدة لتلك العملية، وتقام بجانب المساجد والجوامع أو في التكايا، والبيوت الخاصة ولم تلق أية دعم من الدولة[٢]. ولم تشترط مؤهلات أساسية في المعلمين، ولا في الجهة المخولة في إدارتها والإشراف عليها[٣]. وعلى الرغم مما وصفت به تلك الكتاتيب من ضعف التعليم يبقى لها الأثر الكبير في صقل مواهب الطلبة، وتقوية ملكاتهم اللغوية، وغرس بذور العلم، والأدب في نفوسهم التي وجدت لها التربة الصالحة في المدارس الدينية الملحقة بالمساجد، والجوامع التي أسست في بدايات القرن التاسع عشر من قبل بعض الولاة وخاصة داود باشا الذي أدرك قيمة التعليم في

(١) دي فوصيل، المصدر السابق، ص٩٦.

(٢) إبراهيم خليل أحمد، المصدر السابق، ص٢٥-٢٦؛ عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعلم (١٦٣٨-١٩١٧م)، بغداد، ١٩٥٩م، ص٤٧.

(٣) بكري الشيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوك العثماني، بيروت، ١٩٨٠م، ص٦٢.

تكوين فئة مثقفة تسهم في تحقيق النهضة التي يسعى إليها. الأمر الذي دفعه إلى زيادة عدد المدارس إلى (١٨) مدرسة منها مدرسة علي باشا، والأحمدية، والعادلية، والقادرية، والأعظمية، وبنت النقيب[١]، واتخذ مدرسة في جامع الحيدر خانة سماها الزاوية، ورصد لها الأوقاف، وعين راتباً لمدرسيها، وخطيبها، وأمين المكتب فيها، إضافة إلى أنه أوقف الأموال لجامع الأصفية، وشيخ شهاب الدين، وحسن باشا، وجامع الخلفاء[٢]. ولم يقتصر الاهتمام بالتعليم على الولاة فقط بل كان للميسورين من الأهالي الأثر الكبير والفعال في إنشاء المدارس والمكتبات بما يقدمونه من مساعدات بوقف الأموال لها، **ومن الأسر التي برزت في بغداد آل شاوي[٣]، وآل السويدي، وآل الحيدري، وآل الراوي، وآل الألوسي، وآل الواعظ، وآل أبي التمن[٤].** وكان للنساء مساهمة في هذا الجانب منها مدرسة الخاتونية أنشأتها عاتكة خاتون بنت السيد علي النقيب، وأوقفت راتباً لمعلميها، وطلبتها، وأمين مكتبتها، كذلك مدرسة جامع منورة خاتون، ومدرسة نازندة خاتون[٥]، ولم يقتصر الأمر على هذا بل عكف معظم العلماء على التدريس في دورهم إذ لم تكن هناك أماكن معلومة يدرسون فيها[٦].

في الوقت الذي امتدت فيه الرعاية إلى طلبة العلم الغرباء الذين تغطي احتياجاتهم من أوقاف المدرسة، وتقدم للضعفاء من الطلبة الدارسين المعونات من أموال الزكاة، والصدقات ويكون سكن للطلبة في المدارس ذاتها مع منح

---

(١) علي ظريف الأعظمي، مختصر تاريخ بغداد، ص٢٢١-٢٢٤.

(٢) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٦، بغداد، ١٩٥٤م، ص٢٦٣-٢٩٩.

(٣) عباس العزاوي، تاريخ الأدب العربي في العراق، ج٢، ص٤١-٤٢.

(٤) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٦، ص٣٣٣-٣٣٤.

(٥) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٣٣٣؛ د. عماد عبد السلام رؤوف، تاريخ الخدمة السنوية، ص٩٥.

(٦) ضمياء محمد عباس السامرائي، الطلبة والمدرسون في بغداد أيام وزارة داود باشا، مجلة معهد المخطوطات العربية، م٣٢، ج٢، بغداد، ١٩٨٨م، ص٢٦٩.

بعض المدارس المخصصات اليومية للطلبة[١]. **والمعتاد أن الطالب قبل دخوله المدرسة يتلقى مبادئ القراءة، والكتابة، وحفظ القرآن في الكتاتيب، ثم يبدأ بدراسة النحو، والصرف، والحديث، والفلك، والفلسفة في المدارس**[٢]، **فيتناول دراسة متن الأجرومية، أو شرح الكفراوي على الأجرومية، ثم شرح خالد عليها بحاشية العطار، والأزهرية، وحاشيتها، والقطر وشروحه، وألفية ابن مالك وشروحها.**

أما الصرف فيدرس تصريف الغري والشافية وما عليها من شروح وحواشٍ بعدها يبدأ بدراسة الفقه، والبلاغة، والعقائد، وأصول الفقه في الوقت الذي يخصص له قراءة شيء من الأدب، والحكمة، واللغات الفارسية، والتركية[٣]. ولم يخرج نظام التعليم وأساليبه عن الأطر التقليدية السائدة في المدارس الدينية، حيث يقسم الطلبة إلى حلقات حسب مستوياتهم تضم كل حلقة عدداً من الطلبة لكل منهم حرية اختيار شيخه، وأستاذه في التعليم على يديه وينتقل من مستوى تعليمي إلى آخر، وربما تعددت دروس الطالب وتعدد معها أساتذته. ويحدث أن يوجه الأستاذ طلابه إلى اختيار بعض الأساتذة عندما يجد فيهم ميلاً لبعض الدروس لكي يجعلهم أكثر تخصيصاً[٤]. في الوقت ذاته نرى أن الطلبة المتميزين ينالون رعاية خاصة من مدرسيهم إلى درجة أن جعلهم مدرسين للطلبة المبتدئين[٥]، وقد جرت العادة أن الطالب الذي يجتاز الامتحان، ويمنح الشهادة العلمية **(الإجازة)** يعين له راتب خاص، ويوظف في المدرسة، ولم تقتصر الرواتب على الطلبة فقط وإنما شملت المدرسين فضلاً

---

(١) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٣٠٤-٣٢٠.

(٢) غانم سعيد العبيدي، التعليم الأهلي في العراق لمرحلتي الابتدائية والثانوية وتطور مشكلاته، بغداد، ١٩٧٠م، ص٣٥-٣٦.

(٣) محمد بهجت الأثري، أعلام العراق، القاهرة، ١٣٤٥هـ، ص٨٩-٩٠.

(٤) علي علاء الدين الألوسي، الدر المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر، تحقيق: جمال الدين الألوسي وعبدالله الجبوري، بغداد، ١٩٦٧م، ص٨٠.

(٥) مصطفى نور الدين الواعظ، المصدر السابق، ص١٨٨.

عن الأموال التي خصصت لهم من الوقف. وكان أغلب المدرسين يدرسون من دون رواتب بالرغم من حاجتهم لرواتب التدريس لتيسير أمورهم المعاشية ولانقطاعهم بسبب التدريس عن مزاولة أي مهنة أخرى، وإذا لم تكن لهم زاوية في مسجد أو جامع يدرسون فيها اقتطعوا جانباً من دورهم للتدريس فيها أمثال **محمد سعيد أفندي، ومحمد أفندي طبقجلي**[١].

لقد أدت تلك الكتاتيب والمدارس الدور الأساسي والكبير في الحفاظ على اللغة العربية فكان للعلماء والمدرسين الفضل في إبقاء اللغة العربية تقاوم تأثير اللغات الأجنبية للأقوام المختلفة من خلال جهودهم في نشر اللغة العربية، وتدريسها في المساجد، ودور العلم[٢]، إلى جانب أثرها في رقى وتطور الثقافة العربية الإسلامية من خلال الدور الذي أدته في خلق روابط فكرية بين مثقفي ذلك العصر، ونشطت الإبداعات والنتاجات الأدبية فضلاً عن كونها مجالاً حيوياً لنشاطهم الاجتماعي والسياسي والمحافظة على التراث العربي[٣]. جرى هذا الجهد الثقافي والتربوي البنّاء من قبل الغيارى من قبل الغيارى من أهل بغداد بدافع غيرتهم على لغتهم العربية وحرصهم على التطور والتجديد الحضاري.

وفي سنة ١٨٦٩م، شرع الوالي مدحت باشا بتأسيس المدارس الحديثة باللغة التركية مستنداً إلى قانون المعارف الصادر في (٢٤ جمادى الأول ١٢٨٦هـ/ ٢٠ أيلول ١٨٦٩م) الذي يعتبر أول تشريع متكامل يوضع للتعليم المدني الحديث إضافة إلى تأسيس مجلس للمعارف[٤]. وبعد شهرين من

---

(١) ضمياء محمد عباس السامرائي، المصدر السابق، ص٢٧٤-٢٧٥.

(٢) يوسف عز الدين، الحياة الفكرية في بغداد، مجلة المجمع العلمي العراقي، م٣١، ج٢، بغداد، ١٩٨٠م، ص١٢٦.

(٣) د. عماد عبد السلام رؤوف، الجمعيات العربية وفكرها القومي، بحث مستل من كتاب تطور الفكر القومي العربي، بيروت، ١٩٨٦م، ص١٦٢.

(٤) الدستور، م٢، ص١٧٦-١٨٧.



الكتاتيب في بغداد.



التعليم في العهد العثماني.

صدور القانون أي في تشرين الثاني من السنة نفسها افتتح مدحت باشا أول مدرسة رسمية عرفت بالمدرسة الرشدية الملكية[١] لغرض تخريج الموظفين لدوائر الدولة ممن يجيدون اللغة التركية، وجعل الدراسة فيها أربع سنوات[٢]. كان التدرج التعليمي في الدولة العثمانية يبدأ من المدارس الابتدائية ثم الرشدية، ثم الإعدادية، ثم المدارس العليا. لم تبدأ الحكومة في بغداد بتطبيق التدرج التعليمي الذي يبدأ بإنشاء المدارس الابتدائية ثم المدارس الإعدادية، وإنما شرع الوالي مدحت باشا بإنشاء المدارس الرشدية معتمداً على الكتاتيب لتزويدها بالطلاب على اعتبار الكتاتيب بمثابة المدارس الابتدائية، والتي أحصي عددها فكانت (٤١) مكتباً ووصل عدد طلابها إلى (١٥٠٠) طالب تقريباً[٣]. لقد تأخر إنشاء المدارس الابتدائية، مما دعا المثقفين للمطالبة بإنشاء تلك المدارس، وفتح مدارس خاصة بالإناث، والاهتمام بتعليم الأطفال على صفحات صحيفة الزوراء[٤]، وفي سنة ١٨٩٠م تم إنشاء (٤) مدارس ابتدائية هي الحميدية، وجديد حسن باشا، والعثمانية، والكرخ[٥]، وبعد سنة ١٩٠٨م أنشأت (٤) مدارس ابتدائية للبنات[٦] كانت مدة الدراسة في المدارس الابتدائية (٤) سنوات تبدأ في السنة السادسة من عمر الطفل، مناهجها بسيطة تقوم على تعليم مبادئ اللغة والعلوم، وجميعها تدرس باللغة التركية، وملاكها التعليمي قليل جداً إذ لا يزيد في بعض الأحيان على معلم واحد لكل مدرسة[٧]

(١) الزوراء، العدد ١٧، جمادى الآخر ١٢٨٦هـ.

(٢) Al-Qaysi, op., cit., p:47.

(٣) الزوراء، العدد ٣٧١، ٢٢ ذو القعدة ١٢٨٩هـ.

(٤) الزوراء، العدد ١٩٩، رمضان ١٢٨٨هـ؛ العدد ٣١٠، ٧ شوال ١٢٨٩هـ.

(٥) إبراهيم خليل أحمد، المصدر السابق، ص٤٢.

(٦) Diskin, John, the Genesis of the Government Educational system in Iraq, A doctoral dissertation Submitted to the Graduate Faculty in the school of Education, university of Pittsburgh, 1971, p:134.

(٧) عبد الرزاق الهلالي، المصدر السابق، ص١٣٥.

وقت إنشائها. وازداد عدد المدارس الرشدية للحاجة الماسة للمزيد من خريجيها للعمل في الوظائف الحكومية، حتى أصبح معظم موظفي الدوائر من خريجي تلك المدارس[١] فارتفع عددها من (٥) مدارس إلى (١٩) مدرسة سنة ١٩٠٥م جميعها خاصة بالذكور خلا مدرسة واحدة خاصة بالإناث[٢] تمَّ إنشاؤها من قبل الوالي نامق باشا الصغير[٣]. مدّة الدراسة في المدارس الرشدية (٤) سنوات شمل منهاجها التعليمي العلوم اللغوية، والإنسانية، والرياضية، ولم يكن ملاك المدرسة يزيد على ثلاثة معلمين[٤]. أما المدارس الإعدادية فقد أنشئت واحدة سنة ١٨٧٣م ولكنها لم تنتظم في عملها إلّا في سنة ١٨٩٠م[٥] وقد حولت هذه المدرسة في سنة ١٩١٣م إلى مدرسة سلطانية[٦] وهي نوع من المدارس الثانوية أرقى من حيث التعليم، والتنظيم من المدارس الإعدادية، وقد افتتحت مدرسة إعدادية أخرى سنة ١٨٩١م[٧]. وكانت مدّة الدراسة فيها (٤) سنوات يقبل فيها خريجو المدارس الرشدية، وشملت مناهجها مختلف العلوم النظرية، والتطبيقية ويتخرج الطلبة من الإعدادية الملكية موظفين إداريين، أو يقوم الراغبون بإكمال دراستهم في المدارس العالية في بغداد وإسطنبول[٨].

كان للجانب العسكري حصة في التعليم الأكاديمي، فقد شرع الوالي

---

(١) إبراهيم خليل أحمد، المصدر السابق، ص٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٥.

(٣) الزوراء، العدد ١٨٤٣، (٣ شعبان ١٣١٧هـ/ ٦ كانون الأول ١٨٩٩م)؛ سالنامة ولاية بغداد، لسنة ١٣١٨هـ، ص٢٤٦.

(٤) إبراهيم خليل أحمد، المصدر السابق، ص٤٠.

(٥) لوريمير، دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج٣، ص١٠٥٨.

(٦) لغة العرب، ج٦، (محرم ١٣٣٢هـ/ تشرين الثاني ١٩١٣م)، ص٣٣٢.

(٧) الزوراء، العدد ١٤٤٧، (١٢ صفر ١٣٠٨هـ/ ٢٧ أيلول ١٨٩٠م).

(٨) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص٢٤٥.

مدحت باشا بإنشاء أول مدرسة عسكرية سنة ١٨٧٠م عرفت بالمدرسة الرشيدية العسكرية التي تقبل خريجي الكتاتيب وكان معظم كادرها التدريسي من الضباط الأتراك، وتمحور هدفها الأساس على تخريج الضباط لرفد الجيش السادس[١]، ثم تلتها مدرسة إعدادية عسكرية سنة ١٨٧٩م[٢] لغرض تأهيل خريجيها لدخول الكلية العسكرية في إسطنبول، حيث بلغ عدد المقبولين فيها تلك السنة (٢٥) تلميذاً[٣]. وكانت مدة الدراسة فيها (٤) سنوات تدرس فيها العلوم النظرية، والتطبيقية لأنها تدار من قبل الفيلق السادس، وقد أرسلت الدفعة الأولى من خريجي هذه المدرسة سنة ١٨٨١م إلى المدرسة الحربية في العاصمة إسطنبول[٤]. وإبان الحرب العالمية الأولى أنشئت مدرسة إعدادية عسكرية لتخريج نواب ضباط لمواجهة متطلبات الحرب من العسكريين عرفت بـ**(كوجك ضابطان مكتبي)** تشغل محلها اليوم **(إعدادية الكرخ للبنين)** مدة الدراسة فيها ستة أشهر، يرسل بعدها الخريجون إلى الالتحاق بإحدى الوحدات العسكرية في الجيش[٥] وقد خلت بغداد من المدارس العالية حتى سنة ١٩٠٠م عندما افتتحت دار المعلمين الابتدائية نتيجة الحاجة الماسة للكوادر التعليمية[٦]، وكانت مناهجها الدراسية بسيطة، وكانت مدة الدراسة فيها سنتان زادت مدة الدراسة فيها إلى (٤) سنوات بعد إعلان الثورة الدستورية سنة ١٩٠٨م[٧]، كما افتتحت مدرسة للحقوق ١٩٠٨م

(١) Al-Qaysi, op., cit., p:38.

(٢) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص٢٣.

(٣) الزوراء، العدد ٦١، (٢ ربيع الثاني ١٢٨٩هـ/ ٩ حزيران ١٨٧٢م).

(٤) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص٦٥.

(٥) عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعليم، ص١٧٣.

(٦) سالنامة ولاية بغداد، لسنة ١٣١٨هـ، ص٢٤٥؛ الزوراء العدد ١٨٧١، (٨ ربيع الأول ١٣١٨هـ/ ٥ تموز ١٩٠٠م).

(٧) صدى بابل، العدد ١٥٢، (٢٤ رمضان ١٣٣٠هـ/ ٦ أيلول ١٩١٢م)؛ عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعلم، ص١٧١.

مدّة الدراسة فيها (٤) سنوات يقبل فيها خريجو الإعدادية الملكية حيث بلغ عدد طلابها (١٠) طلاب، ثم ازداد عددهم في السنوات التالية حتى وصل إلى (١٥٠) حقوقياً سنة ١٩١٧م[١].

وتمثل التعليم المهني في مدرسة مهنية واحدة أسست على يد الوالي مدحت باشا معتمدة على الإعانات التي جمعت من وجهاء، وأثرياء المدينة[٢]، جميع طلبتها من الفقراء والأيتام مدة الدراسة فيها خمس سنوات تدرس فيها العلوم النظرية المختلفة إضافة إلى الحرف، والمهن المختلفة[٣] مستعينين ببعض الأسطوات المهرة من العراقيين في تدريب التلاميذ على هذه المهن[٤]، وقد بلغ عدد طلابها عند افتتاحها (١٤٤) طالباً[٥]، وقد استطاع منتسبو هذه المدرسة أن يساهموا في تركيب بعض السفن البحرية في ترسانة بغداد، والبصرة عوضاً عن الأيدي الأجنبية التي تقوم بالمهمة، كما عملوا في معامل النسيج وصناعة الأحذية إلى جانب إدارتهم وتشغيلهم مطبعة الولاية. غير أن المدرسة تعرضت لكثير من الإهمال في الفترات المتعاقبة، وعمل بعض الولاة على إصلاح أوضاعها، وتطوير أقسامها المختلفة كالوالي حسن رفيق باشا (١٨٩١-١٨٩٦م)[٦]، والوالي نامق باشا الصغير، إذ قام باستحداث أقساماً جديدة فيها وعمل على

---

(١) حسن الدجيلي، تقدم التعليم العالي في العراق، بغداد، ١٩٦٣م، ص٢٢-٢٤؛ علي البازركان، المصدر السابق، ص٢٧-٢٨؛ Al-Qaysi, op., cit., p:88.

(٢) الزوراء، العدد ١٤٦، ٣ صفر ١٢٨٨هـ؛ العدد ١٤٨، ١ ربيع الأول ١٢٨٨هـ؛ العدد ١٥٠، ١٧ ربيع الأول ١٢٨٨هـ؛ العدد ١٥٨، ربيع الثاني ١٢٨٨هـ، العدد ١٩٥، ٢٨ شعبان ١٢٨٨هـ.

(٣) جاسم محمد حسن العدول، تاريخ المدرسة الصناعية في العراق، بحث في كتاب ندوة بغداد في التاريخ، بغداد ١٩٩٠م، ص٤٦٠.

(٤) عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعليم، ص١٦٧.

(٥) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، ص١٧٨-١٧٩.

(٦) الزوراء، العدد ١٤٩٥، ٨ رجب ١٣٠٩هـ.

جلب مكائن لها من أوروبا لتأسيس معمل للغزل تابع للمدرسة[١].

وبعد سنة ١٩٠٨م اتبع الاتحاديون سياسة تعليمية اتضحت خطوطها الرئيسة في برنامجهم السياسي الذي نشر في أيلول ١٩٠٩م، مما خلق ظروفاً جديدة مشجعة للنشاط الثقافي وللتوسع في قطاع التعليم لتوسيع شبكة المدارس وخاصة الابتدائية، وعدها إحدى الوسائل النشيطة لنشر آرائهم وأهدافهم[٢]، والاهتمام بدوائر المعارف كما حظي الإشراف التربوي بالعناية، والاهتمام، وعرفت المدارس البغدادية الحركة الكشفية لأول مرة، وهذا يعني بداية الاهتمام بالنشاطات اللاصفية[٣].

وقد اتخذت بعض الإجراءات لرفع كفاءة الجهاز التعليمي أبرزها ما تحقق لدور المعلمين من تطوير وتحديث لمناهجها، وجعلها مشابهة لمناهج دور المعلمين في إسطنبول وتزويدهم بمعلمين أتراك، والتي كانت دروسهم لا تخلو من دعوة عنصرية[٤]، ووضعت مديرية معارف بغداد لائحة قانونية تتعلق بتنظيم واستيفاء الأجور المدرسية ومنها إعفاء (٢٥٪) من طلاب المدارس الإعدادية من دفع الأجور[٥]، وقرر مجلس المعارف تأسيس مكتبات (**كتب خانة**) تقوم بإعارة الكتب بموجب ضمان[٦]، وتأسس بعد ذلك عدد من المكتبات ووصل عددها إلى (١٢) مكتبة[٧] ودائماً تعلن عن استعدادها لاستقبال الطلبة لإعارتهم الكتب مثل المكتبة الموجودة في جادة القشلة وغيرها[٨].

---

(١) عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعليم، ص٢٠١-٢٠٢.

(٢) الغلامي، المصدر السابق، ص٢٢.

(٣) عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعليم، ص٢٣٧.

(٤) الغلامي، المصدر السابق، ص٧٤.

(٥) إبراهيم خليل أحمد، المصدر السابق، ص٥١.

(٦) الزوراء، العدد ٣١٥، ١٥ ذي الحجة ١٢٨٩هـ.

(٧) سالنامة ولاية بغداد، لسنة ١٣٢٩هـ، ص١٨٥.

(٨) صدى بابل، العدد ٧٣، كانون الأول ١٩١٠م.

واستمر التعليم الأهلي المتمثل بالكتاتيب والمدارس الدينية يمارس مهام التعليم إلى جانب مدارس التعليم الرسمية، فقد ازداد عدد المدارس الدينية، فوصل إلى أكثر من (٥٠) مدرسة دينية ملحقة بالمساجد، والجوامع. ولكن بعد سنة ١٩٠٨م أمرت السلطات العثمانية بغلق معظم الكتاتيب بحجة أن أماكنها غير صحيحة، ولا يراعي التعليم فيها بشكل صحيح ودعت إلى نقل الكتاتيب إلى المدارس الابتدائية الرسمية[١]، ولم تظهر المدارس الأهلية الخاصة بالمسلمين إلّا بعد سنة ١٩٠٨م حيث تم تأسيس مكتب الترقي الجعفري العثماني وقد أسسه جماعة من المثقفين في مقدمتهم علي البزركان، وجعفر أبو التمن وكان لهذه المدرسة نشاط واضح في التحرك الوطني، فقد أثرت كثيراً في تنوير الأذهان ونشر الوعي لأنها كانت ملتقى العديد من العناصر الوطنية، وكانت دراستها في بادئ الأمر بصفوف ابتدائية ثم رشدية ثم إعدادية، ويعد تأسيسها نتاج التعاون بين المثقفين ورجال الدين[٢]. إضافة إلى أنشئت المدارس الخاصة بالطوائف الدينية الأخرى، إذ تركت الدولة العثمانية الباب مفتوحاً لهم لإنشاء المدارس الخاصة بهم والتي كانت بالأساس مدارس دينية، وسرعان ما تحولت إلى مدارس حديثة تختلف مناهجها عن مناهج المدارس الحكومية[٣] تستمد مناهجها وإدارتها من المدارس الأجنبية، وتتلقى الدعم من أبناء الطوائف أنفسهم، أو من أبناء القناصل الأجنبية في المدينة[٤]. وتدرس علومها باللغات العربية، والإنكليزية، والفرنسية، لذا كان الإقبال على تلك

---

(١) إبراهيم خليل أحمد، المصدر السابق، ص٥٢-٥٣.

(٢) لمزيد من المعلومات انظر: علي البزركان، فصول من تاريخ التربية والتعليم في العراق، ص٢٧؛ صدى بابل العدد ٩، ٨ تشرين الثاني ١٩٠٩م؛ العدد ١٠، ١٥ تشرين الأول ١٩٠٩م.

(٣) غانم سعيد العبيدي، المصدر السابق، ص٤٣.

(٤) دي فوصيل، المصدر السابق، ص١٤٧.

المدارس أكثر من المدارس الحكومية[١]. وقامت الطائفة اليهودية وبسعي من جمعية الاتحاد الإسرائيلية، والأليانس التي تأسست في باريس سنة ١٨٦٠م إنشاء العديد من المدارس اليهودية في بغداد كمدرسة **(مدارش تلمود توراة)** سنة ١٨٦٥م والتي عنيت بالتعليم الديني[٢] ومدرسة الأليانس الابتدائية، والرشدية للذكور ومدرسة للإناث سنة ١٨٩٠م **(لوري خضور الابتدائية)**، ومدرسة الرشدية للإناث، ومدرسة رفعت روفائيل الابتدائية للإناث سنة ١٩٠٢م، ومدرسة راحيل شمعون الابتدائية للذكور[٣]، وقد تلقت هذه المدارس الدعم من قبل أثرياء اليهود، فقد قام السيد سبر البرد داود ساسون بالتبرع بألفي جنيه إنكليزي لبناء مدرسة على الطراز الجديد، وفعلاً بنيت هذه المدرسة ونقل الأطفال إليها من المكان السابق[٤] وقام كل من التاجرين اسحق الساعاتي، وهرمون الخياط بفتح مدارس للإناث[٥].

وقامت الطوائف المسيحية بفتح مدارس لهم وهي مدرسة الاتفاق الشرقي الكاثوليكية افتتحت سنة ١٨٧٨م[٦] وهي مدرسة ابتدائية مدة الدراسة فيها (٤) سنوات تألف منهاجها من الدين، والعربي، والتركي، والحساب، والتاريخ[٧]، وبلغ عدد طلاب هذه المدرسة (٢٠) طالباً من مختلف الأديان في سنة ١٨٨٠م[٨]،

---

(١) غانم سعيد العبيدي، المصدر السابق، ص٤٣.

(٢) فاضل البراك، المدارس اليهودية والإيرانية في العرق، بغداد، ١٩٥٨م، ص٥٦.

(٣) Al-Qaysi, op., cit., p:78.

(٤) الزوراء، العدد ٣١٦، ١٩ ذي القعدة ١٢٨٩هـ.

(٥) الزوراء، العدد ٢٨٢، ١٥ رجب ١٢٨٩هـ.

(٦) إبراهيم خليل أحمد، المصدر السابق، ص٤٣.

(٧) المصدر نفسه، ص٦٣.

(٨) المقتطف، ج١، حظيران ١٨٨٠م، ص٧١؛ Behnam F. Apas, Les Grands Penseur Dans la Renaissance Culturelle Irakienne an XIXE Siècle, Diplôme d'études Approfondies, Sorbonne Nouvelle, Université de Paris, 1976, p:35.



مجموعة من الطالبات من مدرسة الإليانس اليهودية سنة ١٨٤٠م.



التعليم قديماً.

كما افتتحت مدرسة السريان سنة ١٨٩٣م[١]، ومدرسة الكلدان سنة ١٨٩٧م[٢] إضافة إلى مدرسة الأرمن التي تعد من أقدم المدارس، ومدرسة الأرمن الأرثوذكس للذكور، إضافة إلى مدرسة أخرى للطائفة نفسها خاصة بالإناث تم افتتاحها في القرن التاسع عشر واستمرت حتى سنة ١٩٠٩م[٣].

وما أن ثبتت الإرساليات التبشيرية الأوروبية في البلاد حتى شعرت أن المجتمع في حاجة ماسة إلى التهذيب، وأنها لم تنجح أن لم تتخذ التعليم وسيلة من وسائلها التبشيرية وتلقت الدعم من القناصل الأجنبية الموجودة في بغداد وبذلك تم تأسيس العديد من المدارس الأجنبية في بغداد.

وفي سنة ١٨٥٧م ظهرت أول مدرسة تبشيرية في بغداد أسسها الآباء الكرمليون[٤] ومدرسة اللاتين المختلطة سنة ١٨٩٤م، ومدرسة اللاتين للصنائع، وافتتح البروتستانت أول مدرسة سنة ١٨٩٨م وبعد عامين افتتحوا مدرسة أخرى للبنين[٥]، كما قامت الإرساليات التبشيرية بفتح مدارس للبنات ففي سنة ١٨٦٨م أسس هنري التماينر أول مدرسة للبنات أشرفت على إدارتها الراهبات الفرنسيات[٦]، وفي سنة ١٨٧٨م افتتحت مدرسة ثانية للبنات، وفي سنة ١٨٨١م افتتحت الراهبات الفرنسيات مدرسة اخوان المحبة[٧]، وفي سنة ١٩٠٠م افتتح المبشرون مدرسة للبنات[٨]، وفي سنة ١٩٠٩م قام الألمان بتأسيس مدرسة خاصة بهم وفرض عليهم إدخال اللغة التركية، ودروس

---

(١) غانم سعيد العبيدي، المصدر السابق، ص٢٤.

(٢) عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعليم، ص١٩٣.

(٣) المصدر نفسه، ص١٩٦.

(٤) Al-Qaysi, op., cit., p:76; B. F. Afas, op., cit., p:35.

(٥) Al-Qaysi, op., cit., p:80.

(٦) Ibid, p:76.

(٧) عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعليم، ص٢٠١-٢٠٢.

(٨) Al-Qaysi, op., cit., p:80.

التاريخ، والجغرافية الخاصة بالدولة العثمانية، وتعهدت نظارة المعارف بإرسال المعلمين من قبلها لتدريس تلك الدروس[١].

وعلى الرغم من أهداف هذه المدارس وغاياتها المذهبية والطائفية إلّا أنها نبهت الأذهان إلى خير العلم، ومقام المعرفة في حياة الإنسان وإن كان لهذه المدارس من حسنة فإنها ساهمت في تعليم وتهذيب فئة قليلة من أبناء المدينة على نحو جيد. جلبت هذه المدارس معها تطوراً نوعياً كبيراً في أسلوب التدريس ومواده فإنها في الوقت الذي لم تهمل تدريس اللغة العربية التركية أيضاً أدخلت في منهاجها تدريس اللغات الأوروبية، ولا سيما الإنكليزية والفرنسية فضلاً عن الإدارة، والعلوم الصرفة، كما أن معظمها أدخلت الرسم والموسيقى بضمن مواد دراستها وأدخلت بعض التصميم والحرف اليدوية[٢]. وإن منهاج أكثرية المدارس مطابق عموماً مع منهاج المدارس الفرنسية مع بعض التعديلات التي تلائم الشرق[٣]. وكانت أوضاع المدارس التبشيرية أفضل من أوضاع المدارس الحكومية ففي الوقت الذي كانت الأخيرة تعاني من النقص، والإهمال كانت المدارس التبشيرية تتمتع بحماية الحكومات الغربية ورعايتها وقد تحولت هذه المدارس إلى أداة مهمة لتنبيه الأذهان، وفتح الأبصار فإن الإنجازات النوعية التي تحققت بين جدران هذه المدارس فتحت أمام المثقف آفاقاً جديدة يطل من خلالها على واقع المدارس في أوروبا فبهذا يستوعب ما كان يعانيه التعليم في ظل العثمانيين من تخلف ومكامن الخلل فيها[٤].

وعلى الرغم من تنوع المدارس الأهلية والحكومية والأجنبية إلّا أن

---

(١) حسان علي البازركان، المدرسة الألمانية في بغداد، مجلة بغداد، العدد ٤، ٣٠ مايس ١٩٦٧م، ص١٦.

(٢) Al-Qaysi, op., cit., p:80.

(٣) ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج٦، ص٤٤٤٢.

(٤) عبد الرزاق النصيري، المصدر السابق، ص٧٥.

التعليم لم يلق الاهتمام الكافي، ولم يكن الموظفون التابعون للإدارة التعليمية من ذوي الكفاءة، والمقدرة، كما كانت المناهج التعليمية مرتبكة لا تؤدي الغرض المطلوب من الدراسة، وجميعها كانت تدرس باللغة التركية مما كان يؤثر على مستوى فهم الطلبة مما يشكل عائقاً أمام تقدم المدارس وازدهارها[١]. وأن الطلاب الذين تعلموا في تلك المدارس كانوا غير قادرين على الكتابة باللغة العربية[٢] في حين كانت نسبة المتعلمين في المدارس الحكومية قليلة اتصف الكثير منهم بالفساد والجهل[٣]، وقد كان التعليم خاضعاً إلى مجلس المعارف المشكل من قبل مجلس إدارة الولاية للنهوض بالواقع التعليمي[٤]، وقد تعثرت أعمال المجلس بعد رحيل الوالي مدحت باشا وذلك لقلة موارده المالية، وعدم وجود مخصصات معينة له، ولم ينتظم مجلس ولاية بغداد في عمله إلّا بعد إعادة تشكيله سنة ١٨٨٣م[٥] عقب صدور المرسوم السلطاني ١٨٨٢م، وقد أسندت إدارة المعارف ورئاسة مجلس معارف الولاية لبعض الأشخاص من أبناء بغداد مثل محمد أفندي آل جميل، حكمت سليمان، وقام بعض مديري المعارف من ناحية أخرى بمهمة إدارة المدرسة الإعدادية المدنية علاوة على وظيفته الأصلية. أما أعضاء مجلس المعارف فقد وجد بينهم بعض علماء الدين، وكبار موظفي الدولة تراوح عددهم بين (٣-٧) أعضاء[٦]. ويبدو أن خلو هذه الإدارة من مدير متفرغ لشؤونها، وإسناد عضوية مجلس المعارف في أحيان أخرى لبعض الشخصيات الاجتماعية التي لا علاقة لها

---

(١) إبراهيم الوائلي، المصدر السابق، ص٩٦-٩٧.
(٢) ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون، ص٣٨٠.
(٣) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٢٦٠.
(٤) الزوراء، العدد ٣٠٤، ٦ شوال ١٢٨٩هـ.
(٥) سالنامة ولاية بغداد، لسنة ١٣٠٠هـ، ص٨٤-٨٥.
(٦) سالنامة ولاية بغداد، لسنة ١٣٠٣هـ، ص٨٤؛ ولسنة ١٣١٢هـ، ص١٤٨، لسنة ١٣٢٥هـ، ص٨٩.

بأمور التعليم الحديث كان سبباً من الأسباب التي أدت إلى إعاقة التعليم فانتاب المجلسُ الكثير من الضعف نتيجة إهمال أعضائه وعدم تفانيهم في الهدف الذي وجد من أجله المجلس(١)، وعلى الرغم من تأكيد دستور ١٨٧٦م على التعليم الإلزامي في المدارس الابتدائية ومطالبة المثقفين الابتدائيين من خلال صحيفة الزوراء إلّا أن إنشاء تلك المدارس قد تأخر إلى سنة ١٨٩٠م بسبب افتقاره إلى الإمكانات الفنية ونقص الكوادر التعليمية.

لم يكن للنساء نصيب في التعليم سوى مدرسة رشدية واحدة افتتحت سنة ١٨٩٩م بلغ عدد طالباتها حين افتتاحها (٩٥) طالبة، وافتتحت أربع مدارس ابتدائية للبنات، بسبب النظرة الاجتماعية الخاصة للمرأة. وتعليمها، لأن من يرسل بناته إلى المدرسة يوصف بالزندقة والإلحاد، كما واجه تعليم النساء مشكلة كبيرة تمثلت بقلة المعلمات المؤهلات وليس من اليسير استقدام معلمات من إسطنبول، لذلك استعين بزوجات الموظفين الأتراك، لأن التدريس باللغة التركية وممن تتوفر فيهن بعض المؤهلات الفنية، واستعين بزوجات بعض الأجانب في تدريس اللغات، وتعليم الخياطة، والتطريز(٢)، وقد حاولت المعارف لزيادة اهتمام الناس بمدارس الإناث إلى القيام بعرض أعمال البنات كالخياطة، والنقاشة، والتطريز، وقامت بجمع هذه الأعمال وحددت مكان بيعها ودعت الناس إلى شراء هذه الأعمال اليدوية، وقررت اللجنة أنها ستقوم بتوزيع الأموال التي تحصل عليها بتخصيص جزء من الأعمال الموقوفة وأخذ مقدار من المال لشراء الهدايا توزيعها على الطالبات المتفوقات(٣)، وقد كانت هذه خطوة فريدة من نوعها مع هذا فقد ظل التعليم النسوي ضعيفاً.

وقد كان للأجور العالية للدراسة الإعدادية، والعالية المدنية سبباً في

---

(١) الزوراء، العدد ١٠١٧، ١٧ جمادى الأول ١٢٩٩هـ، السنة الثالثة.

(٢) عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعلم، ص١٥٨-١٦٠.

(٣) صدى بابل، العدد ١٧٨، ١٦ مارس ١٩١٣م.

عزوف السكان عنها لذلك فضل العديد من الأسر إرسال أولادهم إلى المدارس، والمعاهد العسكرية، أو مدرسة الصنائع لكونها مدارس داخلية تتحمل فيها الدولة نفقاتها[١] إضافة إلى التسهيلات العديدة التي تقدمها الحكومة للشباب[٢] اقتصر التعليم الحكومي على بعض الخواص من أبناء الموظفين الأتراك، وأبناء الأغنياء، والوجهاء لتفضيلهم الأعمال، والوظائف الحكومية، ويبدو أن هناك نوعاً من التدريس الخصوصي لبعض المواد فقد وردت إشارات في إعلان بعض الأشخاص عن تدريسهم بعض المواد مقابل أجرة مقطوعة معلنين عن استعدادهم لاستقبال (٣) طلاب من الفقراء مجاناً.

ليس ثمة صلة بين النظام التعليمي، والظروف الاجتماعية، والأحوال الاقتصادية في المدينة، ولم يستمد البناء الهيكل التعليمي من هذه الظروف. ولا ريب أن واضعي أسسه لم يهدفوا إلى غايات معينة عند وضع أصوله، ولم يرسموا صورة للنتائج التي يتوخونها اللهم إلّا أعداد موظفين جدد. وليس ثمة صلة بين النظام التعليمي وبين تقاليد المجتمع وعقائده الدينية فهو نظام جديد على المجتمع ينزع بنواحيه المتعددة «**نزعات غربية ترعرعت جذورها من مادة النظام التعليمي الفرنسي وتغذت سوقه من أنظمة الأمم الأوروبية الأخرى**»[٣]. لقد تميزت ميزانية المعارف باستقلالها عن ميزانية الولاية إذ تألفت وارداتها من ضريبة حصة المعارف المضافة إلى ضريبتي الأعشار و(**الويركو**)[٤]، ومن

---

(١) عبد الرزاق الهلالي، تاريخ التعليم، ص١٦٥.

(٢) عبد العزيز نوار، التعليم وأثره في تكوين الفكر السياسي في العراق (١٨٧٢-١٩٠٨م)، دراسة غير منشورة، ص٥٧-٦٠.

(٣) حسن أحمد السلمان، التعليم في العهد العثماني، مجلة المعلم الجديد، ج١، شباط ١٩٤٧م، السنة الحادية عشر، ص١٠.

(٤) الويركو البيتية وهي ضريبة سنوية مقطوعة بلغ مقدارها (٥٠) قرش تفرض على الأسر أكثر منها على المنازل لأنها تفرض على كل رجل متزوج فإذا كان هناك رجلان متزوجان في بيت واحد تاخذ الويركو على واحد منهما نظام الويركو، الدستور، م٢، ص١٩-٢٦.

الرسوم الكمركية ومن بعض الرسوم التي فرضت في أوائل القرن العشرين وخصصت للمعارف كرسوم الشريعة[١] إضافة إلى الإعانات التي كانت تجبيها إدارة الولاية من مختلف مدنها لصالح المعارف[٢]، وكانت الواردات تفيض عن المصروفات بمبالغ كبيرة وصلت إلى ستة آلاف ليرة سنوية، ولكن الفائض لم يكن يستغل لبناء المدارس ودعم الخدمات التعليمية على الرغم من الانحطاط السائد في ميدان التعليم[٣]، وظل معظم المجتمع في معزل عن التعليم لا يفكر إلّا بقوته، ولا يسلك إلّا إلى أبسط سبل العيش[٤]. وحتى بعد الثورة الدستورية ورغم زيادة عدد المدارس وخاصة الابتدائية إلّا أنها لم تكن تكفي إلّا لعدد قليل من الأطفال[٥] وكانت سياسة التتريك وإجبار الناس على تعلم اللغة التركية ونبذهم لغتهم الأصلية[٦] قد أدى إلى نفرة الناس من مدارسهم ومعاهدهم، وحمل الكثير من الناس إلى إرسال أولادهم إلى المدارس الدينية، والأهلية[٧]. وعلى حسب تعبير صدى بابل أن المعارف في سنة ١٩١٣م «**أمست تائهة**»[٨]. وقد أدرك المثقفون أن الدولة هي التي تقف وراء مثل ذلك التأخر في التربية والتعليم ومن هذا المنطلق دعا سليمان فيضي حكومة إسطنبول لمعالجة الوضع العلمي المتردي وكتب يدعوهم قائلاً: «**أما إذا ما رأيتم العراق فلا معارف فيه، العراق الذي كان في ما مضى مصدراً ومركزاً للمعرفة الآن أصبح منبعاً للجهل فالالتفات إلى هذا الموضوع ضروري وأرجو**

(١) الرقيب، العدد ٨٧، ٢٦ محرم الحرام ١٣٢٨هـ.
(٢) الرقيب، العدد ٤، ٢٧ محرم الحرام ١٣٢٧هـ.
(٣) صدى بابل، العدد ٦٥، تشرين الثاني ١٩١٠م.
(٤) حسن أحمد السلمان، المصدر السابق، ص١٣.
(٥) الرقيب، العدد ٧، صفر ١٣٢٧هـ.
(٦) فيصل الأرحيم، المصدر السابق، ص١٢٨-١٣٢.
(٧) إبراهيم خليل أحمد، المصدر السابق، ص٤٧-٤٩.
(٨) صدى بابل، العدد ١٧٢، ٢ شباط ١٩١٣م.

من وزير المالية إيجاد السبل الكفيلة لمعالجة هذا الوضع»[١]. وقد ظهرت المقالات وهي تنتقد السياسة التعليمية للاتحاديين بموقف اتسم بقدر من الجرأة وقدر أكبر من التهكم فقد «**أمست مدارسنا يرثى لها**» وأصبحت معارف البلاد جميعها أولى بقراءة سورة الفاتحة من غيرها[٢]. ونظراً إلى أهميتها الكبيرة فقد اهتم المثقفون بكل ما يتعلق بمسيرة التعليم فانتقدوا إهمال الطلاب الذي فسروه بسوء الفهم، وقلة التدبير، وحملوا المدرسين الضعفاء وزره[٣]. كما انتقدوا مناهج التدريس وكتبها ودعوا إلى إجراء تعديل خطة التدريس سنوياً كما يجري في الغرب[٤]، وإلى نبذ ضرب الطلاب لأنه لا يليق حتى بالحيوانات ويصدر منه عواقب وخيمة تضر بالآداب، والصحة[٥]، ودعوا إلى تأسيس مكتبات تخدم المعرفة[٦]. ومع هذا كان للمدارس تأثير في تهيئة عناصر مثقفة سواء للوظائف المدنية، أو المهام العسكرية، وقد كانت الخطوة الأولى لرفد الجيش بالضباط العراقيين، ورفد الدوائر بالموظفين العراقيين بعد تهيئتهم إدارياً، وعسكرياً كما كان لهذه المدارس أثر في نمو فئة مثقفة بدأت تمارس دورها في تنمية الوعي الوطني، والقومي. ولقد أدرك المثقفون حاجتهم إلى المدارس فارتبطت دعوتهم بنشر التعليم بحركة إثارة الوعي القومي العربي تلك الحركة التي تهدف إلى إحياء التراث العربي الثقافي، وبعث كيانهم الثقافي، واللغوي، والسياسي لقد كان من نتائج هذه الحركة التعليمية أن انتشر الوعي القومي العربي، فقد اكتشفت السلطات سنة ١٩١٢م نشاطاً سرياً بين طلبة مدرسة الحقوق لذلك جاء قرار الوالي جمال بيك (١٩١١-١٩١٢م) بغلق المدرسة، وواجهت هذه المحاولة معارضة شديدة من

---

(١) مقتبس فيه، عبد الرزاق النصيري، المصدر السابق، ص١٥٦.
(٢) الرقيب، العدد ٥٠، ٨ رمضان ١٣٢٨هـ.
(٣) الروضة، العدد ١٥، (١٦ رمضان ١٣٢٧هـ/ ٢٥ أيلول ١٩٠٩م).
(٤) الرقيب، العدد ١٧٣، (٩ شوال ١٣٢٨هـ/ ١٢ تشرين الأول ١٩١٠م).
(٥) الروضة، العدد ٥، (٣ رجب ١٣٢٧هـ/ ٢١ تموز ١٩٠٩م).
(٦) صدى بابل، العدد ٨، (١٧ رمضان ١٣٢٧هـ/ ١ تشرين الأول ١٩٠٩م).

قبل أهالي بغداد، وطلبة المدرسة الذين ألفوا جمعية باسم جمعية حقوق بغداد للدفاع عن مستقبل مدرستهم، وأرسلوا برقيات احتجاج إلى المسؤولين في إسطنبول فتخلى الوالي عن فكرة غلق المدرسة[١]. وعلى الرغم من كل ما بذله المثقفون من جهود فإن ما تحقق في ميدان العلم والتعليم كان أمراً محدوداً للغاية ودون طموحهم المشروع إلى حد كبير.

٤ الخدمات القضائية والأمنية:

لقد اعتمدت الدولة العثمانية منذ ظهورها نظام القضاء الإسلامي الذي اتصف باليسر وعدم التعقيد فقد كان القضاة يجلسون في المساجد، أو بيوتهم للاستماع إلى المتخاصمين وإلى شهودهم وإصدار الأحكام فيها وتنفيذها في جلسة واحدة، ثم أصبحت المحاكم الشرعية بعد ذلك مكاناً يمارس فيه القضاة أعمالهم[٢] مدونين جميع المعلومات الخاصة بالأمور القضائية في سجلات خاصة تسمى سجلات المحكمة الشرعية وهي خاصة بالمسلمين فقط مستمدين قراراتهم، وأحكامهم العدلية من الشرع الإسلامي، والمذهب الحنفي، أو من الفرامين **(أوامر السلاطين)** بشأن بعض القضايا إضافة إلى العرف السائد. يرتبط قاضي بغداد المعين بموجب فرمان سلطاني من بعد ترشيح المشيخة الإسلامية له بقاضي عسكر الأناضول الذي يرتبط بدوره بشيخ الإسلام، وتحدد فترة رئاسة المحاكم الشرعية من قبل القضاة في سنة ١٨٧٣م بسنتين ونصف السنة ما لم يتم عزلهم لسوء تصرفاتهم، أو بطلب منهم[٣]، وقد خولت المحاكم الشرعية للنظر في قضايا الإرث، وتنفيذ الوصايا، والزواج والنفقة والعلاقات العائلية، وتوثيق المستندات التي تدرج بها نصوص الوقف والحكم بصحتها[٤]. أما بالنسبة للطوائف غير المسلمة فيتم

---

(١) إبراهيم خليل أحمد، المصدر السابق، ص٥٤-٥٥.

(٢) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص١٤٧.

(٣) الزوراء، العدد، ٣٤٤، ٦ ربيع الأول ١٢٩٠هـ.

(٤) إبراهيم الدروبي، المصدر السابق، ص٣٥٣؛ الدستور، م١، ص١٣٠-١٤١.

النظر بالقضايا الشرعية الخاصة بها أمام الإدارات الدينية المأذون بها والخاصة بتلك الطوائف. ودعي القاضي أحياناً بحاكم الشرع، أو نائب الشرع ويقوم القاضي بعد وصوله إلى بغداد، ومباشرته لوظيفته بتعيين نائب له يعرف باسم **(نائب الباب)** ليقوم بمساعدته في إجراء الأحكام الشرعية، والنظر في الدعاوي التي يحيلها إليه[١] ومن صلاحيات القاضي تعيين قضاة أول درجة وهم يدعون بـ**(نواب الشرع)** في المدن والقصبات التابعة للولاية[٢]، وقد جرت العادة على أن يفتح القاضي فور التحاقه بعمله سجل الدعاوي، وسجل الحجج الشرعية، ويحرر في أول صفحة فيها بخطه ما يفيد بدأ شروعه في أداء واجبه مبيناً أهمية هذا الواجب، وضرورة الحكم بالعدل[٣]. ولم يكن للإدارة الحكومية الحق في التدخل بشؤون القضاء، والمحاكم الشرعية. وإلى جانب القاضي كان هناك المفتي الذي يبقى في منصبه مدى الحياة، ومهمته إبداء الرأي للقضاة، وإصدار الفتاوى التي تقر وتمنع بعض القضايا الشرعية إلّا أنه أقل درجة من القاضي، ويتقاضى مرتباً شهرياً أقل منه[٤]. غير أن القضاة الذين تولوا رئاسة المحاكم تراوحت فترة رئاستهم بين بضعة أشهر وعدة سنوات[٥]. وقد أولت الدولة القضاة، ونوابهم عناية، واهتماماً فأصدرت في رجب (١٢٧١هـ-١٨٥٥م) نظامين تناول الأول نظام توجيهات مناصب القضاء، وتنظيم مواعيد انعقاد مجلس امتحان، وتعيين القضاة في مقام المشيخة الإسلامية، وضوابط اختيار القضاة وأمور تعيينهم في مناصبهم، وتصنيفهم إلى عدة أصناف، ودرجات بحسب أهمية الوحدة الإدارية التي يعينون فيها، وتناول الثاني الأمور التي تخص النواب وهي الأمور ذاتها التي تناولها النظام الأول[٦].

---

(١) جميل موسى النجار، المصدر السابق، ص٣٢٧.

(٢) إبراهيم الدروبي المصدر السابق، ص٣٦٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٦٩.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٦٧؛ مصطفى الواعظ، المصدر السابق، ص٣٧١-٣٩٠.

(٥) د. عماد بعد السلام رؤوف، الأسر الحاكمة، ص٨٨-٨٩.

(٦) نوفل، الدستور، م١، ص١٤٢-١٤٩.

وفي محرم سنة (١٢٩٠هـ-١٨٧٣م) صدر نظام الحكام الشرعيين الذي بقي مفعوله سارياً حتى نهاية الحكم العثماني، وقد تطرق هذا النظام إلى تحديد درجات، وأصناف القضاة وذكر طريقة الامتحانات التي تجري لتحديد مستوياتهم، ومعاشاتهم، وفترة بقائهم في مناصبهم والعقوبات التي تقع على المخالفين، والمرتشين منهم[١]. وتمتع قضاة الولاية بامتيازات كثيرة فقد كان قاضي المدينة من أركان الولاية، يجلس إلى جانب الوالي في مجلس الإدارة، ويوقع بعده مباشرة بختمة على القرارات التي يصدرها المجلس[٢]، كما أن هذا القاضي كان يرأس أحياناً «**مجلس معارف الولاية**»[٣] وقد أناب بعض الولاة القاضي ليحل محله عند غيابه من بغداد، وعهدت عاصمة الدولة بمنصب الوالي بالوكالة في أحيان أخرى إلى القاضي حينما كان يشغل للمدة التي تتخلل عزل والي وتعيين آخر بدل منه[٤]، ومعظم القضاة تقريباً من العراقيين من أشهرهم قضاة عائلة الألوسي، وبلغت رواتب القضاة (٦٠) ليرة أي (٦٠٠٠) قرش تقريباً[٥].

وعلى الرغم من تولي القضاء بعض العلماء والفقهاء وبعض المتخرجين من مدرسة القضاء الشرعي في العاصمة إسطنبول، وجد من بين هؤلاء من الذين وصفوا بالجهل والأمية وعدم التمكن من البت في القضايا المعروضة عليه[٦].

وبفعل التنظيمات الجديدة ظهرت قوانين، وأنظمة جديدة خاصة بالإدارة العدلية والمحاكم، مستمدة من القوانين الغربية وخاصة الفرنسية[٧] وهي قانون

---

(١) الزوراء، العدد ٢٥٥، ١٤ ربيع الآخر ١٢٨٩هـ.

(٢) Cuninet, op., cit., p:6.

(٣) الزوراء العدد ٤٦٦، ١٧ جمادى الثاني ١٢٩١هـ.

(٤) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص٨٤-١٤٧.

(٥) لوريمر، دليل الخليج، الجغرافي، ج٣، ص١٠٤٩.

(٦) مصطفى الواعظ، المصدر السابق، ص٤٣٠.

(٧) Bernard - Lewis, The Emergence of Modern Turkey, Oxford University Press, =

الجزاء الهمايوني (١٢٧٤هـ-١٨٥٨م)[(١)]، وقانون التجارة البرية (١٢٧٦هـ-١٨٦٠م)[(٢)]، وقانون البحرية (١٢٨٠هـ-١٨٦٣م)[(٣)]، ثم نظام الولايات لسنة (١٢٨١هـ-١٨٦٤م) الذي أكد على إقامة تشكيل مؤسسات قضائية مدنية في مدن الولايات إلى جانب المحاكم الشرعية، ثم صدر ديوان الأحكام العدلية لسنة (١٢٨٦هـ-١٨٦٩م)[(٤)]، وتم تأليف لجنة لوضع، وتطبيق مسودة الأحكام الشرعية لتكون بمثابة المرجع العام للأحكام الصادرة من المحاكم، والقضاة، وتم إكمال مجلداتها الستة عشر في سنة ١٨٧٧م[(٥)]، وصدر نظام المحاكم المدنية في سنة (١٢٨٨هـ-١٨٧١م) تم خلاله تقسيمها إلى محاكم بدائية، ومحاكم للاستئناف[(٦)]، في ما صدر قانون أصول المحاكمات الحقوقية في سنة (١٢٩٦هـ-١٨٧٩م)، وفي السنة ذاتها صدر قانون تشكيل المحاكم المدنية في مراكز الولايات، والسناجق، والأقضية[(٧)]، وأصبحت المحاكم النظامية تنظر في جميع الدعاوى والقضايا الخاصة بالمسلمين، وغير المسلمين أيضاً إلّا أن تطبيق الأحكام العدلية كان بطيئاً، وصعباً في بعض الأحيان. واتسمت أعمال موظفي المحاكم بالفساد الإداري وعدم الاستقامة، وتقاضي الرشوة، وقد اتهم عدد من القضاة ببيع أحكام تخليص المجرمين، وإطلاق سراحهم بحجة عدم توفر الأدلة والشهود[(٨)]، وكان الأعضاء الأهلون

London, 1961, p:116.

=

(١) نوفل، الدستور م١، ص٣٢٣-٣٧٤.

(٢) المصدر نفسه، ص١٩٢-٢٦٥.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٦٦-٣٢٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٨٥-٣٨٩.

(٥) جاسم محمد حسن العدول، المحاكم والقضاء، بحث في موسوعة الموصل الحضارية، ج٤، الموصل، ١٩٩٢م، ص٢١٥.

(٦) نوفل، الدستور، م١، ص١٧٣-١٧٦.

(٧) أحمد الصوفي، المصدر السابق، ص٢٥.

(٨) دي فوصيل، المصدر السابق، ص٤٦.

المعينون في هيئات المحاكم المختلفة والمنتخبون من المجالس الإدارية الموجودة في الولاية[١] كانت عضويتهم، وآراؤهم شكلية في تلك الهيئات، والقرارات المتخذة دائماً تكون من رئيس المحكمة[٢]. وكان قضاة المحاكم المدنية وبعض كبار موظفي العدلية يعينون في مناصبهم بموجب فرمان سلطاني، مما يعني أن معظم القضاة كانوا من الغرباء عن المدينة[٣]. ومع وجود عدد من العراقيين المتخرجين من مدرسة الحقوق بعد تأسيسها ١٩٠٨م إلّا أن الأغلبية كانت من الأتراك الجاهلين باللغة العربية، ويبدو أن استخدام اللغة التركية في المحاكم وخاصة بعد الثورة الدستورية من أسباب ضعف الجهاز القضائي، ولم يسمح باستخدام اللغة العربية في المرافعات إلّا في آب ١٩١٤م عندما أصدرت الوزارة الاتحادية قراراً يقضي بجواز المرافعة في المحاكم باللغة العربية مع العلم أن هذا القرار لم يطبق في بغداد فور صدوره بحجة عدم توفر العدد الكافي من القضاة المدنيين الذين يحسنون اللغة العربية ليحلوا محل غيرهم من القضاة الذين لا يحسنون التكلم بها[٤]. إضافة إلى هذا كان للتأثيرات التي يتعرض لها من قبل رؤساء الوحدات الإدارية، أو بعض ذوي النفوذ، والوجاهة أثر في سير المرافعات القضائية لصالح هؤلاء[٥] فقد أدت هذه السلبيات إلى انصراف الكثير من الناس عن تقديم الشكاوى إلى المحاكم المدنية لاحتمال ضياع حقوقهم. أما بالنسبة للخدمات الأمنية اعتمدت بغداد على قوات الهايتية غير النظامية في حفظ الأمن، والنظام حتى مجيء مدحت باشا عندما ألغى القوات السابقة، وشكل قوة ضابطة (**الباشي بوزق**) وفقاً لما نص عليه قانون نظام الولايات في

---

(١) Cuninet, op., cit., p:7.

(٢) سلمان فيضي، في غمرة النضال، بغداد، ١٩٥٢م، ص٥٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٥٥.

(٤) جميل موسى النجار، المصدر السابق، ص٣٤٢.

(٥) مصطفى الواعظ، المصدر السابق، ص٣٩٦.

١٨٦٤م[١] وكانت «**الآلاي عساكر ضبطة**» تتألف من (١٣) فوجاً موزعة على سناجق الولاية، وكان الفوج الأول حصة مدينة بغداد باعتبار الآلاي ضبطية، وضم المقر الآلاي بكي، أمين الإدارة ومعاونين له، وعدداً من الكتاب، أما الفوج فتألف من سريتين سرية مشاة، وسرية خيالة، تحت إمرة طابور أغاسي وقد بلغ عدد أفراد الفوج سنة ١٨٧٥م (١٣١٣) فرداً، وضابطاً[٢]، وقد تبدل اسم الآلاي عساكر ضبطية سنة ١٩٠٦م[٣] إلى دائرة الجاندرمة[٤] وقد استخدمت قوة (**آل جاندرمة**) ضباط الجيش للعمل فيها أما أفرادها فكان معظمهم ينتمي إلى قوات احتياط رديف الجيش النظامي[٥]، وكان بينهم عدد من الجنود المكلفين بالخدمة الإلزامية، والنظامية، وقد صدر نظام في سنة ١٩١٣م حددت بموجبه عملية استخدام المكلفين في قوات الجاندرمة، والإعداد السنوية التي تؤخذ منهم عند إجراء القرعة العسكرية عند الاستخدام في تلك القوات[٦] وكانت أسلحة المشاة والخيالة والاستراسوز طرازاً مختلفاً من البنادق القديمة[٧] التي حلت محلها منذ أواخر القرن التاسع عشر البنادق الحديثة المعروفة باسم آل مارتيني[٨].

وفي سنة ١٨٨٩م شكلت قوة شرطة «**بوليس**»[٩] خاصة بالمدينة تألفت

---

(١) نوفل، الدستور، م١، ص٣٨٤.

(٢) سالنامة ولاية بغداد، السنة ١٢٩٢هـ، ص٥٩-٦٢.

(٣) سالنامة ولاية بغداد، السنة ١٣٠٢هـ، ص٦٧-٦٨.

(٤) الجاندرمة: كلمة فارسية تعني الضبطية، مما يعني أن اسم الضبطية، الضابطة، الجندرمة، الورك، هي أسماء لمسمى واحد. علي إحسان البزركان، المصدر السابق، ص٣٧.

(٥) لوريمر، دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج٣، ص١٠٤٥.

(٦) الزوراء، العدد ٤١٨، ٧ شعبان ١٣٣١هـ.

(٧) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص١٤٥.

(٨) لوريمر، دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج٣، ص١٠٤٥.

(٩) بوليس، كلمة فرنسية تعني الشرطة.

في بداية تكوينها من إدارة بسيطة مكونة من قوميسير ثان، وقوميسير ثالث، وسبعة أفراد من البوليس[١] ثم بعد ذلك ازداد حجم هذه القوة التي كانت خاضعة لإشراف الوالي الذي يقوم بتعيين وعزل مديرها، وبقية منتسبيها، واستمر هذا الوضع حتى صدور قانون البوليس الجديد سنة ١٩١٣م فقد حصل أمر تعيين وعزل مدير هذه الدائرة بنظارة الداخلية[٢]، وقد شارك البوليس قوات الجاندرمة مقراتهم، وأعمالهم[٣]، **وبعد ذلك فتحت عدة مخافر في عدة محلات من المدينة منها الشورجة، دكان شناو الفضل، حيدر خانة، قنبر علي، أبو شبل، السنك، الجعيفر، والسور... الخ**[٤].

وكانت مهمة هذه القوات نشر الأمن، وتطبيق القوانين في ربوعها، وتعقب الأشقياء والخارجين عن القانون، وإلقاء القبض عليهم، والقيام بأعمال الحراسة التي تحتاج إليها مصالح الدولة وإدارتها[٥] وإطفاء الحرائق، ومراقبة عبور الطرق، والجسور، وإرسال الرسائل والأمانات، والضرائب المتعلقة بالميري من دائرة إلى أخرى، ومعاونة مأموري موظفين تذاكر السفر والجوازات، والمساهمة في جمع الأنفار عن طريق القرعة، وإيصالهم إلى مراكز التحاقهم. وهناك بين مشاة الجاندرمة صنف يسمى الشبانة **(يكجية)** يتم تعيينهم من أفراد المجتمع مقابل مرتبات معينة لا يرتدون الملابس العسكرية تنحصر مهمتهم في حفظ الأمن أثناء الليل[٦]. وكثيراً ما قدمت الصحف التشكرات إلى قوات الأمن في المحافظة على النظام، فمثلاً في

(١) سالنامة ولاية بغداد، السنة ١٣٠٩هـ، ص١٣٧-١٣٨.

(٢) صدى بابل، العدد ١٨٦، ١١ مايس ١٩١٣م.

(٣) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص١٣٢.

(٤) سالنامة ولاية بغداد، لسنة ١٣٢٩هـ، ص.ص٩٧-٩٨-٩٩.

(٥) الرقيب، العدد ١٠، ١٠ ربيع الآخر ١٣٢٧هـ؛ العدد ٧٩، ٢٧ ذي الحجة ١٣٢٧هـ؛ صدى بابل، العدد ١٥، ٢٧ شعبان ١٣٢٧هـ، العدد ١٣٨، ٧ حزيران ١٩١٢م.

(٦) صدى بابل، العدد ٦٩، ٢٥ ذي القعدة ١٣٢٨هـ؛ سالنامة ولاية بغداد لسنة ١٣٢٥هـ، ص١٧٠-١٨٢؛ لوريمر، دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج٣، ص١٠٤٤.

سنة ١٩١٢م قدمت صحيفة صدى بابل شكراً لدائرة البوليس لقيامها بجمع من عرفوا بمعاطاة الحشيشة وشرب الخمور، ولا عمل لهم سوى السرقة، وليس لهم محل إقامة معين، قدر عددهم بعشرين إيراني و(١٢) عثماني ألقي القبض عليهم وأرجعوهم إلى دولهم في الوقت نفسه[١]، ومع هذا وصفت القوات الأمنية بأنها غير نظامية ولم تدرب التدريب الذي يؤهلها للقيام بواجباتها على الوجه الأكمل، وكان لضآلة رواتبهم سبب دفعهم لتقاضي الرشوة وعدم التهذيب[٢] وعلى الرغم من محاولات إصلاح هذه القوات، ورفع كفاءتها في العصر الدستوري خاصة في عهد الوالي ناظم باشا[٣] إلّا أن هذه القوات لم تتمكن من حفظ الأمن داخل بغداد وضواحيها بل هي تعمل بنفسها أحياناً إلى إرباك الأمن، وسلب عابري الطرق وبخاصة الغرباء منهم فقد كان يستصحبون معهم السراق لسرقة البيوت. وإذا ما كان البيت المسروق لأحد من وجهاء بغداد يصدر أمر الوالي إلى قائد الجندرمة أو البوليس بوجوب القبض على السارقين فإنهم يخرجوا السرقة ويعيدونها إلى أهالها وإذا لم يحصل أمر من هؤلاء فإن السرقة تتوزع فيما بينهم[٤].

وقد ورد إحصاء بالجرائم المتنوعة فبلغت (٧٢٥) حادثة سنة (١٣٢٧هـ-١٩١٢م) و(٥٦٤) حادثة في سنة (١٣٢٨هـ-١٩١٣م)[٥]، و(٧٤٩) حادثة سنة (١٣٢٩هـ-١٩١٤م)[٦]. وقد تنوعت هذه الحوادث ما بين سرقة، وقتل، ونزاع، ومشاحنات، وغيرها من جرائم متنوعة. نستنتج من هذه الأرقام كثرة

---

(١) صدى بابل، العدد ١٣٨، ٧ حزيران ١٩١٢م.

(٢) ستيفن همسلي لونكريك، العراق الحديث، ج٢، ص٣٢؛

Noval Intelligence Division, op., cit., p:266.

(٣) Lady Bell, op., cit., p:283-284.

(٤) علي البزركان، المصدر السابق، ص٣٧.

(٥) صدى بابل، العدد ١٥٧، تشرين الأول ١٩١٢م.

(٦) لغة العرب، ج١، السنة ٣، (جمادى الأول ١٣٣٢هـ/ نيسان ١٩١٤م)، ص٦١٥.

الجرائم في بغداد رغم تنوع قوات الأمن لحفظ النظام وحتى السجون التي يشرف عليها قوات الجاندرمة اتصفت بعدم توفر الظروف الأمنية الجيدة فيها وإن حراسها كانوا من المرتشين[١].

٥ خدمات البريد والتلغراف:

لقد اقتصرت الخدمة البريدية في النصف الأول من القرن التاسع عشر على بريد الجمال الذي فتحته شركة الهند الشرقية البريطانية بعد سنة ١٨٣٠م ليقوم بربط مدينة بغداد بدمشق ومنها إلى أوروبا[٢]، وبريد السعاة المعروفين **(بالتاتارية)** الذي يقوم بنقل الرسائل بين بغداد، وإسطنبول، ويستغرق ذلك مدة



دائرة البريد والبرق في بغداد سنة ١٨٣٦م.

(١) ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون، ص٣٠١؛ جعفر الخياط، المصدر السابق، ص٢٦٩.

(٢) سر واليس بدج، المصدر السابق، ص٧٩-٨٠.

تتراوح بين (١٢-٢٠) يوماً مؤمن خدمة بريدية لـ(٤٢) مدينة بين بغداد، وإسطنبول[١]، واستمر ذلك حتى سنة ١٨٦٨م عندما شهدت بغداد خدمة بريدية منتظمة تابعة لحكومة الهند البريطانية[٢]. أما الحكومة العثمانية فلم تهتم بأمر البريد كخدمة من الخدمات العامة الضرورية إلّا في سنة ١٨٦٩م عندما أصدرت (**نظام إدارة البوسطة الأساسي**)، وأردفته بنظام آخر أكثر تفصيلاً دعي بنظام البوسطة نشرته في سنة ١٨٧١م[٣]. ثم شرعت الدولة بفتح دوائر للبريد والبرق في ولاياتها ومنها بغداد. وقد شاركت الحكومة العثمانية في سنة ١٨٧٨م في التوقيع على اتفاقية البريد العالمية التي أبرمت في باريس في تلك السنة[٤]. وقد استخدمت العجلات في نقل البريد، والمسافرين بين بغداد، وحلب[٥] وحسب ما تذكر الزوراء كان هناك بريد يعرف بالسورجي يبدأ من بغداد إلى الموصل ثم إلى إسطنبول تستغرق رحلته بين (٧-١٠) أيام، وبريد الهجن إلى حلب الذي يمر بمدن **الرمادي وعانة، ودير الزور**، قاطعاً الرحلة في (١٥) يوماً[٦]. أما البريد الداخلي بين بغداد ومدن الولاية فقد توسع في أواخر العهد العثماني ليشمل عدداً من المدن الصغيرة[٧].

لقد غدت الخدمات البريدية متكاملة سنة ١٨٩٠م عدا بريد الصحراء، شملت **نقل الرسائل، والطرود، والنقود، والإعانات**، وفقاً للتعريفة المحددة من قبل الاتحاد البريدي العالمي[٨] والتي بلغت قرشاً واحد عن كل رسالة

---

(١) سعاد العمري، المصدر السابق، ص٤٥.

(٢) CV. Cuninet, op., cit., p:9; Lanzoni, p:181.

(٣) ستيفن همسلي، أربعة قرون، ص٣٠٣.

(٤) الدستور، م٢، ص٣٦٨-٣٦٩.

(٥) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٢٤٧.

(٦) الزوراء، العدد ٢١٤٥، (٦ شعبان ١٣٢٥هـ/ ١٣ أيلول ١٩٠٧م).

(٧) الزوراء، العدد ٢١٥، (١٢ ذي الحجة ١٢٨٨هـ/ ٢٢ شباط ١٨٧٢م)؛ العدد ٣٥٤، (١٣ ربيع الأول ١٢٩٠هـ/ ١١ أيار ١٨٧٣م).

(٨) لغة العرب، ج٤، السنة الثانية، (شوال ١٣٣٠هـ/ تشرين الأول ١٩١٢م)، ص١٦٥.

لا يتجاوز وزنها (١٥) غراماً يضاف إليها قرش واحد عن كل (١٥) غرام زائداً[١].

وحدث تنافس كبير بين دائرة البريد العثمانية، ودائرة البريد البريطاني، غير أن المنافسة لم تستمر بعد تخلي الدائرة البريطانية عن عملها[٢]. وقد أولت الحكومة الخدمات البريدية الاهتمام، والرعاية ففي عهد الوالي ناظم باشا نظمت أعمال دائرة البريد في بغداد، وفي سنة ١٩١٣م قامت إدارة الحكومة بدفع مشاهرات «**رواتب شهرية**» وافية إلى العشائر الموزعة في العراق لتضمن **الراحة، والأمن للبريد، وناقليه، وحفظ الطريق من اللصوص وقطاع الطرق**[٣].

أما بالنسبة للبرق فقد تنبهت الحكومة العثمانية إلى أهمية الاتصالات الحديثة التي عرفتها أوروبا آنذاك أثناء حرب القرم، فقد أدركت الدولة ضرورة ربط الولايات بعاصمتها بواسطة التلغراف، لأن ذلك يؤدي إلى دعم الإدارة المحلية، وتحسين كفاءتها، وتأمين الأمن والاستقرار فيها. فأصدر نظام التلغراف في سنة (١٢٧٦هـ-١٨٦٠م) وقد نص هذا النظام على إعطاء الأولوية في استخدام التلغراف في المراسلات الدولية، ثم لشؤون القناصل الأجنبية، ومن بعدها مراسلات التجار[٤]، وقد شهدت بغداد إيصال أول خط برقي سنة ١٨٦١م عن طريق بريطانيا بالاتفاق مع الدولة العثمانية، وكان الخط قادماً من الهند في طريق البصرة، ومن ثم إلى بغداد ممتداً في قاع نهر دجلة[٥]، وبعد مجيء مدحت باشا سعى إلى ربط مدن الولاية بعضها بالبعض الآخر **بأسلاك التلغراف**[٦]. وفي نهاية القرن التاسع عشر كانت جميع المدن المهمة تقريباً

(١) V. Cuninet, op., cit., p:10.

(٢) واليس بدج، المصدر السابق، ج١، ص٨٠.

(٣) لغة العرب، ج٥، السنة الثالثة، (ذي الحجة ١٣٣٠هـ/ تشرين الثاني ١٩١٣م)، ص٢٨٠.

(٤) الدستور، م٢، ص٣٠٣.

(٥) نابليون الماريني، المصدر السابق، ص٥٦.

(٦) الزوراء، العدد ١٢، ٢٣ جمادى الأولى ١٢٨٦هـ، العدد ٣٣٣، ٦ محرم ١٢٩٠هـ.

ترتبط بوسيلة الارتباط البرقي، حيث بلغ مجموع المساحة التي تغطيها خطوط التلغراف سنة ١٩٠١م (١٢٤٠كم) في الولاية[١]، ثم ربطت بغداد بأوروبا عن طريق حلب[٢].

كانت استخدامات السكان للتلغراف أكثر من البريد خاصة بعد انتشار مراكز الخطوط في المدن المختلفة وسهولة الاتصال عن طريقها وخاصة بالنسبة للتجار[٣]، بلغت الأجور المستحصلة من المكالمات التلغرافية (١٠) قروش لكل (٢٠) كلمة في داخل الولاية، بينما تحدد الأجور الخاصة بالاتصال بين الولاية، والولايات الأخرى حسب المسافة، إذ كانت الأجرة بين ولاية بغداد، وولايات الموصل، وديار بكر، وحلب، واطنة، وسوريا، وأرض روم (١٥) قرش لكل (٢٠) كلمة وقد تصل إلى (٧٠) قرشاً لكل (٢٠) كلمة بالنسبة للولايات البعيدة كولاية البوسنة[٤]، وتم تخفيض أجور التلغراف في سنة ١٩٠٩م إلى نسبة (٥٠٪)[٥]. وقد كانت إدارة البرق والبريد في إدارة موحدة عرفت باسم (**مفتشية البرق والبريد**) وفي نهاية سبعينات القرن التاسع عشر تبدل أسمها وأصبحت تعرف بـ(**باشا مديرية البرق والبريد**) ونتيجة لتوسع أعمال البرق والبريد أنشئت بناية جديدة للبرق والبريد افتتحت في حزيران ١٩١٣م[٦]، وفي كانون الثاني من السنة نفسها افتتح مركز للبريد والبرق في جانب الكرخ في محلة السوق الجديد[٧]. وقد شهدت بغداد الاتصالات الهاتفية

(١) سالنامة ولاية بغداد، السنة ١٣١٨هـ، ص٤٠٥.
(٢) لوريمر، دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج٣، ص١٠٣٤.
(٣) غنيمة، تجار العراق، ص٨٦-٨٨.
(٤) سالنامة ولاية بغداد، لسنة ١٢٩٢هـ، ص١٢٧.
(٥) صدى بابل، العدد ٩، ٨ تشرين الأول ١٩٠٩م، السنة الأولى.
(٦) لغة العرب، ج٥، السنة ٣، (ذي الحجة ١٣٣١هـ/ تشرين الثاني ١٩١٣م)، ص٢٨٠.
(٧) لغة العرب، ج٧، السنة ٣، (صفر ١٣٣٢هـ/ كانون الثاني ١٩١٤م)، ص٣٨٨؛ صدى بابل، العدد ٢١٨، (٢٣ المحرم ١٣٣٢هـ/ ٢١ كانون الأول ١٩١٣م).

في أوائل سنة ١٩١٢م عندما ارتبطت بغداد عن طريق الهاتف بمدينة الكاظمية[١]، ثم مدت خطوط الهاتف لخمسة مواقع أخرى لتوفير الأمن والاستقرار داخل المدينة[٢].

لقد تطورت الخدمات البريدية، والتلغرافية خلال هذه الحقبة كثيراً، وقدمت خدمات واسعة للناس في إيصال شكواهم حول بعض الأمور الإدارية بسرعة إلى إسطنبول، ومع ذلك كله كانت تعاني كثيراً من السلبيات، منها قلة ثقة الناس بالبريد الحكومي لبطئه وعدم انتظامه وفتح الرسائل والاطلاع على أسرار الناس خاصة في العهد الدستوري[٣]، كما كانت رزم البريد العثمانية تتعرض إلى السرقة من قبل قطاع الطرق خاصة في أثناء امتناع الحكومة في دفع الأتوات الخاصة بحماية القوافل، ورزم البريد إلى العشائر القاطنة على محطاتها مما اضطر السكان إلى إرسال بريدهم عبر القناصل الأجنبية بدل البريد الحكومي[٤]، وحتى الأوراق الرسمية المرسلة من حكومة الولاية إلى الأستانة كانت تتم عن طريق البريد البريطاني المرسل عبر بومباي في الهند، لكون طريق بغداد - الموصل - حلب لم يكن آمناً[٥]، كما أن الموظفين العثمانيين كثيراً ما اضطروا إلى قبول الرشاوي عن أعمالهم لعدم تسلمهم المرتبات الشهرية لفترات طويلة وكانت رزم البريد لا تسلم إلى اصحابها إلا بعد أخذ مقدار من المال (**بقشيش**) مقداره (١٠) بارات لقاء ذلك[٦] علاوة على جهل الكثير من موظفي البرق باللغة العربية مما تصعب معه على الناس أو تتعذر عليهم قراءة البرقيات التي ترسل لهم[٧].

---

(١) لغة العرب، ج٨، السنة الأولى، (صفر ١٣٣٠هـ/ شباط ١٩١٢م)، ص٣٢٠.

(٢) صدى بابل، العدد ٢١٨، (٢٣ المحرم ١٣٣٢هـ/ ٢١ كانون الأول ١٩١٣م).

(٣) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص١٥٦.

(٤) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٢٤٢.

(٥) سرواليس بدج، المصدر السابق، ج١، ص٨٠.

(٦) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص١٥٦.

(٧) جميل موسى النجار، المصدر السابق، ص٤٤٢.

❻ خدمات النقل:

تستخدم الحيوانات الخيول، والحمير، والبغال، والجمال للتنقل، والحمل داخل وخارج طرق المدينة إذ كانت الإسطبلات الخاصة بحيوانات النقل، وفي أغلب الأحيان تحتوي بيوت الأثرياء على إسطبلات خاصة لحيواناتهم. **وكانت الحيوانات التي تستخدم للنقل داخل المدينة في الأغلب هي الخيول والحمير.** أما القوافل التجارية تستخدم الجمال والبغال. وتستخدم الخيول للتنقل من قبل الفئات العليا فقط. أما الفئة العامة ونساء الأثرياء فيفضلون ركوب الحمير وخاصة **(الحساوي)**[(١)]، لهذا ذكر الكثير من الرحالة بأن المدينة كانت تعج بالحمير[(٢)] ومن أراد السفر من ولاية إلى أخرى، فيجب عليه الاتفاق مسبقاً مع **(المكارية)** إذ توجد خانات مخصصة لهم فيحجز العدد المطلوب من الحيوانات المستخدمة للنقل، ويتفاوت سعر إيجارها تبعاً للفصل وحالة الطرق، وعدد الحيوانات المطلوبة، وعادة ما يدفع جزء من المبلغ في بداية السفر وبعد الانتهاء منه يدفع الجزء الباقي، وقد يتخلل الاتفاق بعض الصعوبات، فلا ينفذ السفر في الموعد المحدد، فقد يتأجل إلى عدة مرات لعدة أسباب منها قلة الحيوانات أو قلة العلف[(٣)]. وبصورة عامة كانت عملية المكارية شاقة بسبب ما يتخلل عملها من صعوبات ابتداءً بتحميل البضائع ثم الوصول إلى النقطة المحددة للراحة، وعليهم إنزال البضائع مرة أخرى، وسقي وإطعام الحيوانات، والتعامل مع صاحب الخان حول السعر للعلف، وحقوق الحصول على الماء، وعليه أن يحذر ليلاً لئلا يقوم اللصوص بسرقة حيواناته، أو أمتعتها، أو طعامها.

يسير المكاري على الأغلب أثناء الرحلة على أقدامه على الرغم من امتلاكه الحمار إلّا أنه كقاعدة يستخدمه لحمل بضائعه القليلة وأدوات

---

(١) الحساوي: وهو نوع من الحمير ضخم الجسم أبيض ناصع البياض.

(٢) جيمس فريزر، المصدر السابق، ص١٣٦.

(٣) H. V. Geere, op., cit., p:122.



«تخت ريوان» وسيلة نقل برية.



العربنجي وهو يجر العربة التي تقودها الأحصنة
وهي كانت بمثابة سيارة نقل داخل بغداد.

الطهي، وعلف الحيوان[١]، وعادة ما يصاحبه في الرحلة مكاري آخر وخاصة إذا كان المسافر شخصية معروفة كأحد الضباط لتوفير الحماية له ويمكن استبداله بآخر في كل مرحلة من مراحل الرحلة. وعلى الرغم من أن الحكومة مسؤولة عنه إلّا أنه يحصل على راتبه من المسافرين وفي حالة قرار الاستغناء عن خدماته فإن الحكومة ترفض التعهد بسلامة المسافرين.

عمل الوالي مدحت باشا على توسيع شبكات النقل بين بغداد، والولايات الأخرى بإدخال العربات المستوردة من أوروبا لنقل الأشخاص، والبضائع المختلفة بعد أن سير خطين لها أحدهما في جانب الكرخ الذي يصل إلى الحلة، والمسيب، وكربلاء، والآخر في جانب الرصافة الذي يصل بعقوبة، والخالص[٢]، وكانت العربات عبارة عن أداة نقل بدائية جداً شبيه بصندوق مستطيل مثبت على عجلات، ومغطى بسقف خشب مسند على قوائم رشيقة توجد على جوانب المركبة ومعلقة من السقف بستارة لغرض توفير الحماية من الشمس، ويوجد في مقدمة العربة مقعدان للسائق وشخص آخر، وعادة ما يكتظ المكان باثنين أو ثلاثة من المسافرين، بينما يجلس الآخرون في الجزء الخلفي حيث يعمل لوح خشبي ضيق كمقعد لهم، وأخذت تقاد هذه العربات بعدد من البغال، أو الخيول يبلغ عددها (٤) تسير جنباً إلى جنب لذلك صارت الرحلة تنجز بوقت أقل مما كانت في السابق[٣]. وكانت أماكن وجود هذه العربات في باب المدينة المتجه إلى جهة معينة، وقد قام الوالي نامق باشا (١٨٩٩-١٩٠٢م) بتأسيس شركة عربات تجرها الخيول كانت تعمل في نقل المسافرين بين بغداد وبعض المدن القريبة منها واشترك في تأسيسها بعض سراة بغداد، وكبار تجارها، وعرفت بـ(**عربانين بيت عارف آغا) أو (عربانين بيت جودي)** المسؤولة عن إدارتها[٤]، فشركة العجلات بين بغداد

---

(١) Ibid, p:121.

(٢) الزوراء، الأعداد ١٥٥، ١٨٨، ٥ ربيع الآخر و٢ شعبان ١٢٨٨هـ.

(٣) H.V. Geere, op., cit., p:126.

(٤) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٢٣٩.

وكربلاء في الجانب الغربي من بغداد، وشركة العجلات بين بغداد وبعقوبة، وبغداد وسامراء في باب المعظم[١]. كما أنشئت شركة العجلات العثمانية سنة ١٩٠٧م تقوم بنقل المسافرين بين مدينة بغداد وحلب وبالعكس قاطعة المسافة بينهما في (٨) أيام[٢]، واستخدمت مثل تلك العربات سنة ١٩١٣م في قطع جزء من الطريق الموصل بين بغداد، وإسطنبول إلّا أن السفر بين هاتين المدينتين كان محفوفاً بالمخاطر[٣]. وكانت هنالك منافسة بين الشركات التي تمتلك العربات وتتفاوت أجورها تبعاً لشدة الطلب، فترتفع في ذروة الحج[٤]. كما استخدمت العربات داخل المدينة من قبل الولاة وبعض الموظفين والوجهاء، عندما استوردت من ألمانيا سنة ١٨٩٠م والتي شاع استعمالها فيما بعد[٥]. وفي سنة ١٩١٢م دخلت السيارات لنقل المسافرين بين بغداد وبعقوبة، وكربلاء والنجف، والحلة[٦]. وقد قام الوالي مدحت باشا بربط بغداد بالكاظمية بالترامواي (**الكاري**) لتسهيل ذهاب، وإياب الناس[٧] في هذا الطريق، كما قام

---

(١) الزوراء، العدد ١٨٨، (٢ شعبان ١٢٨٨هـ/ ١٧ تشرين الأول ١٨٧١م).

(٢) المشرق، السنة ١١، العدد ٢، (٢٧ ذو القعدة ١٣٢٥هـ/ ١ كانون الثاني ١٩٠٨م)، ص٤٣.

(٣) لغة العرب، ج٣، سنة ٣، (شوال ١٣٣١هـ/ أيلول ١٩١٣م)، ص١٥٦.

(٤) للاطلاع على آجور العربات انظر: الرقيب، العدد ١٣١، (٢٢ جمادى الآخرة ١٣٢٨هـ/ ٢٩ حزيران ١٩١٠م).

(٥) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٢٣٩؛ هاشم النعيمي، بغداد بلا سيارات، جريدة البلاد، (٢٠ ربيع الأول ١٣٨٢هـ/ ٢٠ آب ١٩٦٢م)؛ بغدادي أصيل، من تقاليد أهل بغداد وعاداتهم، جريدة الشرق، (٢ رجب ١٣٨٢هـ/ ٢٩ تشرين الثاني ١٩٦٢م).

(٦) لغة العرب، ج٥، السنة الثانية، (ذي الحجة ١٣٣٠هـ/ تشرين الثاني ١٩١٢م)، ص٢١١.

(٧) أرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول، رقم الوثيقة ٤٣، رقم البحث ٢، دفتر مهمة ٢٦٣، تاريخ الوثيقة (٢٣ رجب ١٢٨٨هـ/ ٨ تشرين الأول ١٨٧١م)، مركز التوثيق الإعلامي، وزارة الثقافة والإعلام.

الوالي تقي الدين باشا (١٢٩٨-١٣٠٤م) بإصدار أوامره لتسوية الطريق ما بين بغداد، والأعظمية لأنه غير منتظم، وصعوبة المرور عليه وخاصة في فصل الشتاء على الناس، ولا سيما الزائرين وفعلاً سوى الطريق واستمر العمل فيه (٧) أيام، وساهم الكثير من كبار الموظفين، وأعيان المدينة في المشاركة بهذا المشروع[١].

أما بالنسبة للقوافل التجارية الكبيرة، فكانت هناك إسطبلات كبيرة تقع على الضفة اليمنى من المدينة بعيدة عن النهر وهي في شكلها عبارة عن سلسلة من المناطق الصغيرة، والكبيرة محاطة بالجدران مشيدة بالطابوق، أو الطين ارتفاعها (١٠) أقدام يتخللها باب واحد أو اثنان من البوابات الكبيرة تشغلها القوافل أثناء الليل، وفي الصباح تقاد الجمال إلى النهر لشرب الماء منه، ومن هناك تنتقل إلى ضواحي المدينة للتغذية على الأشجار والشجيرات وعند الغروب تعود إلى الإسطبلات وتستمر كذلك حتى موعد انطلاق القوافل من بغداد وهي محملة بالبضائع المتنوعة[٢]، وكانت قوافل الجمال تختلف عن بعضها الآخر من حيث الحجم والتنظيم، فهناك قوافل صغيرة تتكون (من ٨٠ إلى ٢٠٠) جمل تعمل على الطرق الداخلية للولاية تقوم بنقل البضائع، والمسافرين بين مدنها[٣]، وهناك قوافل كبيرة كانت تعمل على الطرق الخارجية وعادة ما تضم مثل هذه القوافل عدة آلاف من الجمال، وتحتاج لسيرها إلى ترتيبات، وتنظيمات كثيرة تتم قبل انطلاقها لضمان سلامة وصولها، وهي تستغرق وقتاً طويلاً في رحلاتها[٤]، وقد قدّر عدد القوافل التي كانت تنطلق من بغداد إلى دمشق وحلب في أواخر ثمانينات القرن التاسع عشر بـ(١٢) قافلة[٥]. على أن نشاط القوافل قد تقلص شيئاً فشيئاً حسب التطورات الملاحية.

---

(١) الزوراء، الأعداد (١٠١٦، ١٠١٨)، ١٣ جمادى الآخر و٢٤ جمادى الآخر ١٢٩٩هـ.

(٢) A. Locher, op., cit., p:158-159.

(٣) عبد الرزاق عباس حسين، المصدر السابق، ص٥٦.

(٤) Habib Chiha, op., cit., p:165.

(٥) نابليون الماريديني، المصدر السابق، ص٥٦.



أول سيارة دخلت إلى العراق سنة ١٩٠٨م.



محطة سكة قطار بغداد.

وفي حزيران ١٩١٤م انطلق أول قطار من بغداد إلى مدينة سميكة الواقعة إلى الشمال منها وقد بلغ طول سكة الحديد (٦٥كم) وبعد أسابيع قليلة من إعلان نشوب الحرب العالمية الأولى أوصل الخط إلى مدينة سامراء ليبلغ طول السكة الحديدية (١٣٠كم) وهو الجزء الوحيد الذي نفذ من مشروع سكة حديد بغداد[١].

وفي مجال النقل ما بين جانبي المدينة، فقد كان يربط بينهما جسر بني من الخشب على قوارب ضخمة **(عوامات، جساريات)** تثبت بسلاسل، ويصف عليها ألواح خشبية لتيسير السير عليها والعبور عليها، وتحت الجسر توجد عدد من المقاهي، وبائعي المأكولات، ودائماً ما كان الجسر ينقطع بسبب الأمطار، أو العواصف وظل هذا الجسر على وضعه إلى أن قام الوالي نامق باشا ١٩٠٢م بتجديد الجسر على الطراز الحديث قامت بصنعه مدرسة الصناعة، وقد فتح الجسر وسط احتفال كبير وأرّخ العديد من الشعراء افتتاحه[٢]، وكان العبور من الجسر مقابل أجور تعرف برسوم العبور تمنح بالالتزام[٣]، وعلى الرغم من جمع المبالغ الكبيرة من هذه الرسوم إلّا أنها لا تصرف لصيانة الجسر، أو تجديده باستمرار، فقد ظل الناس يعانون من انقطاعه المستمر، فمثلاً وردت شكوى من أحد الأفراد إلى صحيفة بابل عن انقطاع الجسر أربع مرات في شهر واحد[٤]، وكانت إعادة إيصال الجسر مناسبة كبيرة إذ يخرج الناس بالمزامير والطبول فرحين بإيصال الجسر، والعبور عليه[٥]، وبسبب انقطاعات الجسر المتكررة، وقلة عدد الجسور، فقد اعتمد الناس على الزوارق، والقفف في

---

(١) يوسف غنيمة، تجار العراق، ص٩١؛ ستيفن همسلي لونكريك، تاريخ العراق، ج١، ص٦٥.

(٢) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص١٤٧-١٤٨.

(٣) الرقيب العدد ٨٧، ٢٦ محرم ١٣٢٨هـ؛ Habib Chiha, op., cit., p:165.

(٤) صدى بابل، الأعداد ١٣٤ و١٤١، ٢٣ جمادى الأول و١٣ رجب ١٣٣٠هـ.

(٥) عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص١٤٧.

تنقلهم بين الجانبين[١]. ومهما كانت الخدمات التي تؤديها، والأغراض التي تحققها إلّا أنها لا تكفي للتعويض عن إقامة الجسور وخاصة أن الكلفة العامة للنقل فيها أرخص، وعدد الأيدي فيها أقل كما أن تحديد معرفتها وثباتها تكون قاعدة لتنظيم المواصلات وحياة الناس وتنقلاتهم، فمثلاً قد ورد إحصاء لعدد المارين من الجانبين ليوم واحد فبلغ (١٩) ألف عابر بين إنسان وحيوان من جانب الرصافة إلى الكرخ، و(٢٤) ألف عابر بين إنسان وحيوان من جانب الكرخ إلى الرصافة[٢].



«الكفه» القارب الصغير وسيلة نقل نهرية في العهد العثماني.

أما بالنسبة للنقل المائي بين بغداد، والولايات الأخرى وخاصة أن بغداد مركز تجاري وملتقى للطرق النهرية فإن البضائع المستوردة من طريق الموصل

(١) المصدر السابق، ص١٩.

(٢) لغة العرب، السنة الثامنة، ج١، (رجب ١٣٣٠هـ/ حزيران ١٩١٢م)، ص٣٩.

والبصرة إلى بغداد تتم بواسطة **السفن الشراعية والأكلاك**[١]، إلى أن أدخلت البواخر التابعة لشركة لنج، وإدارة عمان العثماني **(عمان عثمان إدارة سي)**. وكثيراً ما فضل الناس البواخر التابعة لشركة لنج لانتظام رحلاتها، وساعاتها على خلاف البواخر العثمانية التي تميزت بقلة كفاءتها، وعدم انتظام رحلاتها، وبطئها منذ بداية نشوئها فقد كانت بواخر الإدارة العثمانية تقطع المسافة بين بغداد والبصرة في مدة تتراوح ثلاثة إلى خمسة أيام، وفي رحلة العودة تستغرق وقتاً أطول، وربما تبلغ في موسم قلة المياه عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً لكثرة جنوحها، لكن بواخر شركة لنج الإنكليزية كانت تقطع المسافة نفسها في رحلة الذهاب في مدة تتراوح بين (٥٣-٦٠) ساعة، وفي العودة تستغرق رحلتها أربعة أيام إلى خمسة[٢]، إلى أن جاء مدحت باشا وقام بإعادة تشكيل شركة الإدارة العثمانية النهرية، وأصلح البواخر العائدة لها، واشترى بواخر جديدة لها تمشياً مع خطة البناء والتطور[٣]. حيث كانت هذه البواخر تقوم في عهد مدحت باشا برحلات منتظمة بين بغداد، وكل من إسطنبول، ولندن مارة بالبصرة، وموانئ الخليج العربي، وبحر العرب، والأحمر، والمتوسط[٤] وقد دأبت هذه الإدارة آنذاك عن الإعلان عن سفرات بواخرها، وأسعار نقل المسافرين، والبضائع التجارية إلى مختلف المناطق في جريدة الزوراء[٥]. على أن تلك الرحلات

(١) الأكلاك: وهي مجموعة من الخشاب تربط إلى بعضها مكونة مساحة مسطحة تطفو على قرب منفوخة توضع تحتها وتشد بها، فاعتمدت حركة النقل النهري بين بغداد والموصل على هذه المراكب، ولا تستطيع السير إلّا باتجاه مجرى الماء منحدرة إلى بغداد قاطعة المسافة التي تتراوح (٣٠٠) ميل في ستة أيام أو سبعة. عبد الكريم العلاف، المصدر السابق، ص١٨.

(٢) جميل موسى النجار، المصدر السابق، ص١٠٨.

(٣) ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون، ص٣٠٤؛ Al-Qaysi, op., cit., p:43.

(٤) لوتسكي، المصدر السابق، ص١٧٣.

(٥) الزوراء، الأعداد ١٣٢ و٢٠٩ و٤٢٣، ١٤ محرم و٢١ شوال ١٢٨٨هـ و٢٠ صفر ١٢٩١هـ.

قد ألغيت بالتدريج بعد عهد الوالي مدحت باشا، واقتصر نشاط البواخر تقريباً على السفر بين بغداد والبصرة، وقلت كفاءتها حتى قرر في أواخر سبعينات القرن التاسع عشر عرض البواخر للبيع، ولكن أحداً لم يتقدم لشرائها فواصلت نشاطها[1]. وفي سنة ١٩٠٤م أصبحت إدارة عمان العثمانية تابعة لدائرة السنية فأضاف للبواخر الأربع التي كانت لديها باخرتان كبيرتان وتميزت إدارة هذه البواخر خلال هذه المرحلة بكفاءة عالية ولكن عقب خلع السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٩م ألحقت إدارة البواخر الحميدية بنظارة النافعة[2] وصارت تعرف بالإدارة النهرية العثمانية وعلى الرغم من ارتفاع عدد البواخر إلى ثماني إلّا أنها عانت من سلبيات كثيرة منها عدم انتظام مواعيد سفر مراكبها وقلة كفاءتها.

وقد حاولت نظارة النافعة إلى عقد اتفاق مع شركة لنج يقضي بدمج الإدارة النهرية مع الشركة، وعندما وصل خبر الاتفاق إلى ولاية بغداد احتج أهلها بشدة لأن ذلك يؤدي إلى احتكار البريطانيين للملاحة، ورفعهم لأسعار النقل، وشحن البضائع مما دفع الحكومة إلى التخلي عن هذا المشروع[3] إلّا أنها في سنة ١٩١٤م وافقت عليه[4]، ولكن نشوب الحرب العالمية الأولى دفع الدولة إلى الاستيلاء على جميع البواخر لاستخدامها في الأغراض العسكرية[5].

من المعلوم أن استعمال **الزوارق والقفف والسفن** يتطلب وجود مشارع أي مناطق منخفضة ومستوية تصلح لوقوف المراكب، بحيث يستطيع الناس الركوب فيها، أو النزول منها بسهولة، ويسر، وتزداد أهمية المشرعة على مدى حاجة الناس إلى العبور من منطقة معينة دون أخرى، ولذا تزداد أهمية المشارع

(١) جميل موسى النجار، المصدر السابق، ص٤٣٣.

(٢) (٣) الرقيب، العدد ٧٩، ٢٧ ذي الحجة ١٣٢٧هـ.

(٤) لغة العرب، ج١٠، السنة الثالثة، (جمادى الأول ١٣٣٢هـ/ نيسان ١٩١٤م)، ص٥٦٠.

(٥) علي الوردي، لمحات اجتماعية، ج٣، ص٢٣٤.

في المناطق القريبة من الأسواق حيث تزداد الحاجة إلى نقل السلع، أو أهل الأعمال والمصالح بين الجانبين وتكون المشارع عادة متقابلة بين الجانبين، ولكن ليس من الضروري أن يكون التقابل تاماً، أو دائماً لأن وجود المشرعة يتوقف على طبيعة الشاطئ وعلى منافذ المسالك العامة. وكانت تستوفى رسوم الشريعة من كل واسطة من وسائط النقل النهرية المحملة بالبضائع، والتي تقوم بتفريغ حمولتها على المشارع والتي تراوحت قيمتها في سنة ١٩٠٩م بين عشر بارات وخمسة قروش حسب حجم ونوع الواسطة وحمولتها[(١)].

يتضح مما تقدم أن اهتمام الإدارة الحكومية بشبكة طرق المواصلات البحرية، والنهرية كان محدوداً، فقد ظلت تلك الطرق، خاصة البرية منها، تعاني حتى السنوات الأخيرة من الحكم العثماني من الإهمال، وعدم العناية مما جعل سير وسائط النقل البرية ذات العجلات فيها كالعربات، والسيارات أمراً عسيراً.



جسر الشهداء.

(١) الرقيب، الأعداد ١٠ و٨٧، ١٠ ربيع الأول ١٣٢٧ و٢٦ محرم الحرام ١٣٢٨هـ.

الخاتمة

اتسمت الحياة الاجتماعية في مدينة بغداد خلال الفترة (١٨٣١-١٩١٧م)، بكونها مرحلة تغير، وتحول مستمرين من مجتمع شبه منغلق إلى مجتمع متفتح على العالم يسير في طريق النهضة، والتقدم محاولاً مسايرة ركب التغيير، والتطور، والتجديد، والتحديث الذي عمّ العالم وبدت معالمه تأخذ طريقها إلى بغداد عاصمة الحضارة في العصور القديمة بطرق شتى، وقد ألحقت بها عهود الظلم والاحتلال الأجنبي مما عاق عجلة تطورها وازدهارها فعاشت انتهاكات وانحدارت الفترة المظلمة ثم استيقظت من رقدتها على نسمات فجر النهوض التي أخذت تلامس شواطئ دجلة فانتفضت بغداد تحث الخطى لدخول مرحلة مهمة من نهضتها شملت مختلف مجالات الحياة، فترتب عليها إعادة النظر في المواقف من الظواهر، والأفكار، والقيم الجديدة التي أخذت تبرز في المجتمع نتيجة للإجراءات، والتطورات الحضارية الحديثة. ففي مجال عمران المدينة اختفت الأسوار ورصفت بعض الطرق والأزقة لتجنب الطين، والأوحال وأضيء الكثير منها بالمصابيح النفطية والاهتمام بنظافتها بتوجيه الأمر بكنس الشوارع، والطرقات، ورشها بالمياه، فكانت رحاب بغداد مثلاً تكنس كل يوم، مع إيصال المياه إلى بعض جوانب المدينة لتزويد السكان بها، وأنشئت المتنزهات، والحدائق العامة، ووجدت الفرق الموسيقية في البعض منها لإضفاء المتعة والسرور على الزائرين، وأنشئت المباني الحديثة مع ازدياد أهمية الضفة اليمنى لبغداد في بداية القرن العشرين بفعل مشروع سكة حديد بغداد - برلين الذي كان

له أثر في نشوء عدد من المباني لخدمة هذا المشروع وازدادت قيمة الأراضي والعقارات فيها مما يدل على تغير وظائف المكان، فبعد أن كان المكان يكتسب قيمته العقارية من مقومات النسق الاجتماعي تحول لاكتسابها من النسق الاقتصادي، ولم يقتصر التأثير على الجانب الاقتصادي وخاصة النشاط التجاري، بل كان يمتد إلى العديد من جوانب المدينة فعلى سبيل الذكر فقد شهدت الخانات زيادة كبيرة في عددها.

وقد أدى النشاط الاقتصادي، وتنامي دور المدينة كعاصمة سياسية، وإدارية إلى تسارع أعمال النمو، وتدفق جموع المهاجرين إلى المدينة، فكانت الهجرة عاملاً هاماً في ازدياد حجم الفئة العامة، واتساع القاعدة السكانية التي يقوم عليها التكوين الاجتماعي ناهيك عما لعبته موجات الهجرة من تركيز مجموعات جديدة من الطارئين في القاعدة الاجتماعية، وظهور أنماط سلوكية تخل بتناغم أجزاء البناء الحضري للمدينة، وتسبب اضطراب معالم الصورة الحضرية بين سلوك ريفي، وسلوك حضري، وتداخلها بين الجديدة والتقليدية القديمة فتنشأ لذلك فئة جديدة تعمل على إعادة ربط أجزاء التنظيم الاجتماعي على نحو جديد. ولم تقتصر الهجرة على الفئة العامة بل شملت كثيراً من فئة التجار لتركز أعمالهم في المدينة بفعل التجارة وعلماء الدين الذين وجدوا في المجهودات الفكرية مجالاً للارتقاء الاجتماعي.

ولا شك في أن تلك التغيرات عملت في الوقت ذاته على تنامي اتجاهات وتيارات جديدة تحاول تغيير الترتيب الهرمي للتكوين الاجتماعي، وتعمل على خلخلة التنظيم الاجتماعي التقليدي، فقد ظهر على مسرح الحياة فئات اجتماعية جديدة لم يكن للمجتمع عهد بها من قبل نتيجة للتطورات المهنية، والثقافية، والاقتصادية بين الأفراد. هذا التغير في البنية الاجتماعية وفي مواقع الفئات الاجتماعية والعلاقات في ما بينها أدى إلى بروز دورها في الأحداث العامة للمجتمع بعد أن استطاع قسم منها التمتع بنفوذ اقتصادي عزز موقفهم الاجتماعي، وريادة البعض الآخر للزعامة الدينية.

وعلى العموم فقد كان البناء الاجتماعي للمدينة ينقسم إلى فئتين هما: الفئة العليا التي لا تشكل إلّا نسبة قليلة وتتكون من الولاة، وكبار الموظفين، وشريحة

رجال الدين، يتأرجح تأثيرها مع درجة ولائها، وقربها، أو بعدها عن السلطة أولاً مع نزعات وميول الولاة ثانياً وشريحة التجار، وصفوة المجتمع من الذين تمتعوا بأوضاع، ومراكز اجتماعية متميزة، والفئة الرئيسة الأخرى هي العامة والتي تضم عامة الناس والعاملين في مختلف المهن.

ومن ميزات هذا العهد الواضحة عدم حدوث أي نزاعات، أو صراعات تذكر بين الطوائف الدينية، والشرائح الاجتماعية رغم عيشهم في أحياء متجاورة دائماً، بل كانت مظاهر التعاون، والتآصر، والمحبة واضحة طيلة هذا العهد، مما انعكس على طبيعة الحياة في المدينة وعلى نسقها الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي. فقد تمتعت الأقليات الدينية وفقاً لمفاهيم الشريعة الإسلامية بنوع من الوضع المستقل ذاتياً داخل المدينة، فقد اعتبروا الفئة الخاصة في إدارتهم يرأس كل طائفة رئيس منهم، وقد زادت هذه الحريات بفعل التنظيمات الإصلاحية. وقد كان للتطورات الاقتصادية المختلفة، وتزايد العمليات التجارية، وتأسيس البيوتات التجارية وظهور التعامل النقدي المتنوع، وتطور النشاطات المصرفية أثر كبير على طائفة اليهود التي سيطرت على معظم الأعمال التجارية، والنشاطات المصرفية وغدا لبعض تجار اليهود بيوتاً تجارية في بومباي وإنكلترا.

أما بالنسبة للتنظيمات الاجتماعية فهي بصورة عامة لا تستقر على ما هي عليه دائماً في الأداء، بل إنها تتغير باستمرار لتتوافق مع تغير الظروف، ومتطلبات الحياة. فقد زاد تأثير نقابة الأشرف اكثر من السابق باعتبارها ممثلة لمصالح شرائح واسعة من المجتمع مستندة في ذلك على أسس اجتماعية مختلفة روحية صوفية، أو علمية، أو مادية. أما الطرق الصوفية فقد تعاظم دورها وخاصة القادرية، والرفاعية وكان لذلك أسباب عديدة تتعلق بواقعها السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي، فهذه العوامل عملت مجتمعة على خلق النزوع الصوفي لدى الناس، وجعلتهم يتوجهون للانتماء إلى هذه الطرق، وممارسة السلوكيات التي تقررها والتواجد المستمر في تكاياها التي انتشرت في المدينة بشكل لم يسبق له مثيل، وقد شجعت الحكومة العثمانية التشكيلات الصوفية، ورعت نشاطاتها، ويبدو أنها كانت مدفوعة في ذلك برغبتها في كسب ود الناس،

وجعلهم يلتفون حول الدولة لمواجهة التحديات المختلفة حتى إن بعض السلاطين، والولاة قد انتسب إلى هذه الطريقة، أو تلك وقد كانت آثارها واضحة فقد ساعدت في تماسك المجتمع، ونشر قيم الفضيلة والقناعة، وتحقيق قدر من الاطمئنان في مواجهة متطلبات الحياة، وتعقيداتها، ومسارها الاجتماعي، والاقتصادي، وكانت مؤسساتها تعليمية، وتهذيبية للمجتمع آنذاك اعتمدت على وحدة الجوهر ورفض الخلاف، والانقسام ولكن هذا لم يمنع الحركة الصوفية من أن تدخل في صراع فكري مع بعض التوجهات الفكرية التي بدأت تسود المجتمع، وأبرزها النزعة السلفية. وكان السعي للجمع بين السلفية والصوفية واحد من بين المناهج التي اعتمدتها النقشبندية في دعوتها إلى العودة إلى روح التصوف الأولى المتمثلة بسلوك التقوى المثالي الذي يمثله الرسول محمد (ﷺ) إلّا أن هذه الطريقة لم تبلغ ما بلغته الطرق الأخرى، فظلت مقتصرة على فئة قليلة من الإصلاحيين. وكذلك كان هناك صراع بين التصوف والحركات الاجتماعية والسياسية الحديثة. وقد شهدت التنظيمات الحرفية بداية ضعف علاقاتها بسبب التطورات الاقتصادية التي أدت إلى ازدهار تجاري والتي ساهمت في نهاية الكثير من الحرف، والصناعات، فأقفلت معظم الورش، وسرح أكثر الحرفيين وبذلك شهد هذا العهد نهاية التنظيمات الحرفية التي كانت أساليب العمل تنظم على أساسها، وظهرت علاقات عمالية جديدة تقوم على أساس العامل الأجير.

ولا شك أن للنهضة الفكرية والأدبية أثراً في تنامي اتجاهات وتيارات جديدة فظهرت الأندية الثقافية، والجمعيات السياسية، والتي غدت مراكز لمثقفي المجتمع الذين بدءوا يتحدثون في مواضيع لم يكن يألفها المجتمع في السابق، من ذلك مفاهيم الدستور، والقومية، والوطنية، والحرية، والمساواة، ولهم مواقفهم وآراؤهم من السلطان، واستبداده، والتصوف، والفرق، والبدع، والخرافات، والمطالبة بتحرير المرأة، وتحقيق المساواة مما ساهم في ظهور ملامح فكر جديد نقيض للفكر التقليدي السائد باتجاه إصلاحي لا تغير ثوري لكنه بقي محصوراً بين مجالس المثقفين الخاصة، ويعزى ذلك إلى ضعف الفئة الوسطى التي كان بمقدورها أن تتحول إلى حلقة وصل بين فكر المجددين،

وجماهير الشعب، وفي سنة ١٩٠٨م حققت الفئة المثقفة قفزة نوعية في تطورها الفكري، والسياسي، فقد اندمجت بتيار الإصلاح الاجتماعي باعتبارها جزءاً من تيار التجديد، كما تكونت لها مطالب واعية تمثل خطوة إلى الأمام والتي كان لها أثر في ظهور تنظيمات اجتماعية، وسياسية أكثر وعياً بآليات الصراع السياسي، وكان لها الدور الحاسم في رسم مسارات الحياة السياسية ومستقبل المدينة فيما بعد.

عندما نستعرض الحياة الاجتماعية في بغداد نخرج بانطباع عام أن المدينة كانت في العقود الخمسة الأخيرة من العهد العثماني زاخرة بالنشاطات، والمظاهر الاجتماعية المتنوعة إذ كانت الحياة تدب في كل بقعة من بقاع المدينة ولو ببطء، مما يدل على تفاعل السكان وتعاونهم مع المظاهر الحضارية، وقد تبين من دراسة المظاهر الاجتماعية أن مظاهر النشاط الإنساني متداخلة لا يمكن عزلها عن بعضها مهما بدت تعابيرها الظاهرية مستقلة فالنشاط الاقتصادي مثلاً على ماله من فعاليات ظاهرية مستقلة عن بقية النشاطات الأخرى، وعلى ما لنسقه من استقلالية نسبية إلّا أن ذلك النشاط يرتبط بالنظم الاجتماعية الأخرى كالدين، والسياسة، والعرف، والعادات، والأسرة، وبالتالي يصعب عزل الجوانب الاقتصادية للحياة عن ظواهر الحياة الاجتماعية.

وأهم ما يميز العلاقات الاجتماعية وضوح سيطرة النسق القرابي، والنسق الديني وتأثيرهما على بقية الأنساق الأخرى. فهي قائمة على تأكيد صلة الرحم، وأهمية العائلة واحترام خصوصيتها وقد عزز ذلك روابط الجوار، والإقامة وكان لتغلغل المبادئ الإسلامية في كل نواحي الحياة الفكرية، والمادية أثر في تنظيم حياة المجتمع التي تستند إلى تلك المبادئ في معاملاتها التجارية، والمعاشية، وفي علاقاتها الدينية، والدنيوية، وقد عكست محلات بغداد المتراصة والمتلاصقة التضامن الاجتماعي بين الناس. وبفعل التطورات الاقتصادية والتغيرات الاجتماعية بدأ بعض التغير يطرأ على العادات، والقيم، والأعراف، وأنماط المعيشة والأزياء لتأخذ شكلاً جديداً يتناسب مع ما تفرضه الحياة الحضرية في المدينة، إلّا أنه لم يصل إلى حد التغير الجذري الشامل، وعلي سبيل المثال ظهور بعض مظاهر السلوك الأوروبي كالتردد على السينما، والمسرح،

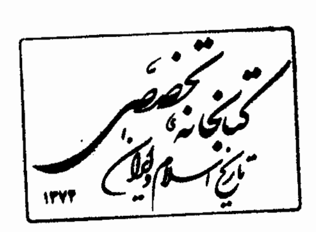
والملاهي، ولبس الأزياء الأوروبية، كما فقدت العائلة الكثير من وظائفها وغدت وحدة استهلاكية بعد أن كانت وحدة إنتاجية واستهلاكية.

وقد شهد هذا العهد ظهور الخدمات الاجتماعية في مختلف جوانب الحياة فقد تم توزيع البلدية في المدينة إلى بلديتين بلدية واحدة في الرصافة وبلدية واحدة في الكرخ لتكون مسؤولة عن نظافة المدينة والعناية بجماليتها، وتقديم خدماتها في مجال اختصاصها لجميع سكان المدينة.

أما من الناحية التعليمية فبعد أن كانت الأسرة مسؤولة عن منح أبنائها التعليم الذي يقتصر على الكتاتيب والمدارس الدينية أصبحت الحكومة في هذا العهد مسؤولة عن تعلم أبناء المجتمع وتمثل ذلك بفتح العديد من المدارس المدنية والعسكرية، والدعوة لتعليم جميع الأطفال، مما أدى إلى زيادة نسبة المتعلمين وإن كانت ضئيلة. وفي الناحية الصحية افتتح لأول مرة مستشفيات وصيدليات عامة لمعالجة جميع المواطنين، ومنحهم الدواء مجاناً.

ومن الناحية القانونية أنشئت المحاكم المدنية إلى جانب المحاكم الشرعية السابقة وتبني نظام معقد من القوانين المستمدة من القوانين الغربية التي تنظم جوانب الحياة المختلفة. وفي مجال النقل أدخلت العربات التي تجرها الخيول ثم السيارات والبواخر النهرية.

وفي تحليل الوقائع والأحداث الاجتماعية نجد أن البعد التاريخي لمدينة بغداد لم يكن مجرد أحداث تاريخية مرت دون أن تخلف وراءها آثاراً بل كانت أحداثاً تركت آثارها على تجمعات السكان، ونشاطاتهم فيها، فضلاً عما أفرزته من مشاعر نفسية ارتبطت بالمكان وخلقت جذوراً لها في البيئة البغدادية، وتبلورت في مشاعر الانتماء إلى المجتمع في وإفراز مجموعة من الخصائص، أو العادات، والموروثات الشعبية التي طبعت الحياة البغدادية بطابع خاص يميزها عن غيرها. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ، الآية: ١].



الكشاف العام

[ب]

[ت]

[ث]

[ج]

[ش]

[ص]

[ض]

[ط]

[ع]

[غ]

[ف]

[ق]

[ل]

[م]

[ن]

[هـ]

[و]

[ي]



المصادر والمراجع

❶ الوثائق غير المنشورة:

● الوثائق العثمانية:

أ) أرشيف الوزراء «إسطنبول» Bas bank anli; Arsivi:

- □ الرقم E-٢٢٦٤٥، والخط الهمايوني، بتاريخ ١ محرم ١٢٤٧هـ.
- □ دفتر مهمة، رقم ٢٥٥، رقم البحث ١٤٥، الصفحة ٢٥، أواخر شعبان ١٢٥٨هـ.
- □ رقم ٤٦٢٦، بتاريخ أوائل رمضان ١٢٧٨هـ.
- □ رقم ٤٣، دفتر مهم ٢٦٣، رقم البحث٢، تاريخ ٢٣ رجب ١٢٨٨هـ.
- □ دفتر مهمة رقم ٢٥٤، رقم البحث ١٧٤، الصفحة ٧٦، بتاريخ أواخر رمضان ١٢٥٦هـ.

ب) أوراق قصر يلدز «إسطنبول»:

- □ رقم ٣٩٣٠، رقم الأوراق ٢٠٥، رقم القسم ١١، رقم الظرف ٢٦، رقم الكارتون ٧، تاريخ الوثيقة (٢٤ شوال ١٢٩٧هـ/ ١٧ أيلول ١٢٩٦ رومية).
- □ رقم الأوراق ٢٢٥٦، رقم القسم ١١٤، رقم الظرف ١٢٦، رقم الكارتون ١١، غير مؤرخة.

ج) السجلات العثمانية:

- □ سجل يقيد فيه الأزنامات السجل ١٨، بتاريخ ١٣٠١هـ.
- □ سجل يقيد فيه الأزنامات في زمن العالم المحقق المدقق محمد عطا الله أفندي، رقم السجل ١٦، بتاريخ محرم الحرام ١٢٩٠هـ.
- □ سجلات تجارية لعبد الوهاب للسنوات (١٣٠٢-١٣١٢هـ)، بحوزة الدكتور عماد عبد السلام رؤوف.

● **الوثائق البريطانية:**

- Despatches from United States Cenin Baghdad the National Archives of United States ed. Washington 1961. Microcopy No. T. 50, Roll. 1, 1900-1906, Document No. 147, Date May 24, 1900.
- F. O. 371 - 560 - 3717. From Lieutenant Colonel J. Ramsav in Turkish Arabia and his Britannic Majesty's Consul - General Baghdad to the Government of India in the Foreign Department Simla, No. 142, October 19, 1908.
- I. O. R. File No. 385, Document N. 1005, Date December 29, 1909.

❷ الوثائق المنشورة:

● **الوثائق العثمانية:**

- □ الدولة العثمانية، مجموعة التنظيمات العثمانية «الدستور» مجلد ١، ترجمة نوفل نعمة الله نوفل، بيروت، ١٨٨٣م.
- □ الدولة العثمانية، مجموعة التنظيمات العثمانية «الدستور» مجلد ٢، طبع المنشدر، ١٢٨٩هـ.
- □ الدولة العثمانية، مجموعة التنظيمات العثمانية، «الدستور»، مجلد ٦، توثيق صنايع مؤقتي، (١٤ محرم ١٣٣٢هـ/ ١ كانون الأول ١٣٢٩).

● **الوثائق البريطانية:**

- Noval Intelligence Division, Iraq and the Persian Gulf September 1944, Oxford University Press, Oxford, 1944.
- Special Report by his Majesty's Government in the United Kingdom of Great Britain and Northern Ireland to the Council of the League of Nations in the Progress of Iraq During The Period 1920-1931; Issued by the Co. London, 1931.

٣ المطبوعات الرسمية:

□ بغداد سالنامة، سنة ١٣١٠هـ، ولايت مطبعة سند طبع أولمنشدر.

□ بغداد ولايت جليلة سنة مخصوص، سالنامة در، أون التنجي دفعة در، سنة قمرية ١٣١٨، سنة شمسية (١٣١٦-١٣١٧)، ولايت مطبعة سند طبع أولمنشدر.

□ بغداد ولايت جليلة سنة مخصوص، سالنامة در، أون سكرينجي دفعة در، سنة قمرية ١٣٢١، سنة شمسية ١٣١٩، ولايت مطبعة سنده طبع أولمنشدر.

□ بغداد ولايت جليلة سنة مخصوص، سالنامة در، أون يدنجي دفعة در، سنة قمرية ١٣١٩، سنة شمسية (١٣١٧-١٣١٨)، ولايت مطبعة سنده طبع أولمنشدر.

□ بغداد ولايت جليلة سنة مخصوص، سالنامة در، دفعة ١٢، قمرية (١٣١٣-١٣١٤)، شمسية ١٣١٢.

□ بغداد ولايت جليلة سنة مخصوص، سالنامة در، دفعة ١٣، قمرية ١٣١٥، شمسية ١٣١٣، ولايت مطبعة سند طبع أولمنشدر.

□ بغداد ولايت جليلة سنة مخصوص، سالنامة در، دفعة ١٤، سنة قمرية ١٣١٦، وشمسية (١٣١٤-١٣١٥)، بغداد ولايتي مطبعة سند طبع أولمنشدر.

□ بغداد ولايت جليلة سنة مخصوص، سالنامة در، دفعة ١٥، سنة قمرية ١٣١٧، وشمسية (١٣١٥-١٣١٦)، بغداد ولايتي مطبع سند أولمنشدر.

- □ بغداد ولايت جليلة سنة مخصوص، سالنامة در، دفعة ١٩، سنة قمرية ١٣٢٣، سنة مالية ١٣٢١، مطبعة ولايتده طبع أولمنشدر.
- □ بغداد ولايت جليلة سنة مخصوص، سالنامة در، يكرمنجي دفعة در، سنة هجرية ١٣٢٤، سنة رومية (١٣٢١-١٣٢٢)، مطبعة ولايتده سند طبع أولمنشدر.
- □ بغداد ولايت جليلة سنة مخصوص، سالنامة در، يكرمي برنجي دفعة در، سنة هجرية ١٣٢٥، سنة رومية (١٣٢٢-١٣٢٣).
- □ بغداد ولايت سالنامة سيدر، سنة هجرية سنة مخصوص ١٣٠٠، دفعة ٤.
- □ بغداد ولايت مخصوص سالنامة، بغداد سالنامة سي، سنة ١٣١١هـ، طبع أولمنشدر.
- □ بغداد ولايت مخصوص سالنامة، بغداد سند، سنة ١٣١٢هـ، ولايت بغداد طبع أولمنشدر.
- □ بغداد ولايتي سالنامة سيدر، ١٣٠١ سنة هجرية سنة مخصوص، دفعة ٥.
- □ سالنامة بغداد، ١٢٩٢هـ، دفعة ١١، مطبعة ولايت بغداد.
- □ سالنامة ولاية بغداد، ١٢٩٩هـ، دفعة ٣.
- □ سالنامة ولاية بغداد، ١٣٠٩ سنة هجرية سنة مخصوص، دفعة ٨، ولايت مطبعة سند طبع أولمنشدر.
- □ سالنامة ولايت بغداد، سنة ١٣٠٣هـ، دفعة ٧.
- □ سالنامة، ١٣٠٢هـ، دفعة ٦.

٤ المخطوطات:

١ • إبراهيم فصيح الحيدري

- □ إلقام الحجر في فم من هذى وفجر، مخطوطات الأوقاف، رقم ١٣٧٥٣/٢.
- □ فصيح البيان في تفسير القرآن، مخطوطات الأوقاف، رقم ٢٣٢٢.

٢ • **أبو الثناء الألوسي**

□ شرح البرهان في إطاعة السلطان، مخطوطات الأوقاف، رقم ٥٦١٦.

٣ • **أحمد عبدالله البغدادي**

□ عيون أخبار الأعيان مما مضى في سالف العصور والأزمان، مخطوطات د.ص.م، رقم ٩٣١٠١.

٤ • **أنستاس ماري الكرملي**

□ مزارات بغداد، بحوزة الدكتور عماد عبد السلام رؤوف.

٥ • **حياة الأب ماريا يوسف الكرملي**

□ ترجمة أنستاس الكرملي، مخطوطات د.ص.م، رقم ٩١٩٠٦.

٦ • **جبرائيل يوحنا آصفر**

□ مختصر المستفاد في تاريخ بغداد أو منتجع المرتاد من تاريخ بغداد، مخطوطات د.ص.م، الرقم ١١٠٤.

٧ • **خلاصة سفر المستر أنطوان نورس كروفس**

□ مخطوطات د.ص.م، رقم ١١٤٠٩٣١.

٨ • **خالد النقشبندي**

□ رسالة في الطريقة النقشبندية، مخطوطات د.ص.م، رقم٥/ ٥٣٨٧.

٩ • **عباس العزاوي**

□ تاريخ التكايا والطرق الصوفية، مخطوطات د.ص.م.

١٠ • **عباس ابن السيد جواد البغدادي**

□ نيل المراد في العراق وبغداد، مخطوطات د.ص.م، رقم ٩٠٩٣.

١١ • **عماد عبد السلام رؤوف**

□ مواقف سياسية وعسكرية لعلماء بغداد في العصر العثماني، عن مخطوط في مكتبة الدكتور عماد عبد السلام رؤوف.

١٢ • **محمد أمين السويدي**

□ دفع الظلوم من الوقوع في عرض المظلوم، مخطوطات المجمع العلمي.

١٣ • **محمد بيك سلطان بيك عبد القادر بن حبيب بن عبدالله بيك بن شاوي**

□ مخطوطات د.ص.م، رقم ١٠٦٥.

١٤ • **محمود شكري الألوسي**

□ أخبار بغداد وما جاورها من البلاد، مخطوطات د.ص.م، رقم ٦٢٨٧.

□ بدائع الإنشاء، السنة الثاني، مخطوطات د.ص.م، رقم ٨٥٥١.

١٥ • **نعمان الألوسي**

□ الإصابة في منع النساء من الكتابة، د.ص.م، رقم ٧٩١، ١٣٢٣هـ.

٥ الرسائل العلمية غير المنشورة:

١ • **أحمد عبد القادر القيسي**

□ الدور الاقتصادي اليهودي في العراق (١٩٢١-١٩٥٤م)، أطروحة دكتوراه، كلية التربية، جامعة المستنصرية، ١٩٩٨م.

٢ • **أدهام محمد حسن**

□ الخط العربي في الوثائق العثمانية، رسالة ماجستير، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي، بغداد، ١٩٩٦م.

٣ • **حسن دخيل الطائي**

□ النثر العراقي موضوعاته واتجاهاته من بداية القرن التاسع عشر حتى سنة ١٩١٨م، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، ١٩٨٩م.

٤ • **حميد محمد حسن**

□ البيت البغدادي العراقي في العصر العثماني، رسالة ماجستير، قسم الآثار، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٢م.

□ الربط والتكايا البغدادية في الفترة العثمانية، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٦م.

٥ • **خديجة أنس الحريري**

□ أثر التصنيع في العائلة العراقية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٢م.

٦ • **عبد الرزاق مطلك الفهد**

□ تاريخ الحركة العمالية في العراق (١٩٢٢-١٩٥٨م)، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٧م.

٧ • **عبد الرزاق النصيري**

□ دور المجددين في الحركة الفكرية السياسية في العراق (١٩٠٨-١٩٣٥م)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٠م.

٨ • **عبد الكريم حسين عبد الشيباني**

□ الاتجاهات الإصلاحية في بغداد للفترة من (١٨٠٨-١٩٠٨م)، أطروحة دكتوراه، معهد الدراسات القومية والاشتراكية، الجامعة المستنصرية، ١٩٩٨م.

٩ • **عماد عبد السلام رؤوف**

□ الحياة الاجتماعية في العراق (١٧٤٩-١٨٣١م)، أطروحة دكتوراه، جامعة القاهرة، ١٩٧٥م.

١٠ • **عبد الإله ناصر الوائلي**

□ الوظيفة التعليمية للجانب الغربي لمدينة بغداد، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، أيلول ١٩٨١م.

١١ • **يونس عباس حسن الجنابي**

□ ملامح الوعي القومي في الشعر العراقي في القرن التاسع عشر، رسالة ماجستير، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، ١٩٨٦م.

- Abdul Wahhab Abbas Al-Qaysi, The Impact of Modernization on Iraqi Society During the Ottoman Era, A study of Intellectual development in Iraq 1869-1917, A dissertation Submitted in

Partial Fulfilment of the Requirements for the Degree of ph. D. Michigan, 1958.

- Behnam Afas, Les Grands Penseurs Dans La Renaissance Culturelle Irakienne an XIXE Siècle Diplôme d'études Approfondies, Sorbonne Nouvelle, Université de Paris, 1976.
- Diskin, John, The Genesis of the Government Educational System in Iraq A doctoral Dissertation Submitted to the Graduate Faculty in the School of Education, University of Pittsburgh, 1971.

❻ الكتب العربية والأجنبية:

١ • **إبراهيم خليل أحمد**

□ تطور التعليم الوطني في العراق (١٨٦٩-١٩٣٢م)، البصرة، ١٩٨٢م.

٢ • **إبراهيم الوائلي**

□ الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر، بغداد، ١٩٦١م.

٣ • **إبراهيم الرفاعي**

□ بلوغ الإرب في ترجمة السيد رجب وذرية أهل الحسين، بيروت، ١٩١٠م.

٤ • **إبراهيم فصيح الحيدري**

□ المجد التالد في مناقب الشيخ الخالد، إسطنبول، ١٨٧٢م.

□ عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد، بغداد، بلا.

٥ • **إبراهيم الطباطبائي**

□ ديوان الطباطبائي، صيدا، ١٣٣٢هـ.

٦ • **ابن منظور**

□ لسان العرب، ج٣، القاهرة، بلا.

٧ • **ابن تيمية**

□ شرح كلمات الشيخ عبد القادر الكيلاني من فتوح الغيب، تحقيق أياد عبد اللطيف إبراهيم، بغداد، ١٩٨٣م.

٨ ● **ابن بطوطة**

□ تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأمصار، ج١، القاهرة، ١٩١٤م.

٩ ● **ابن تغري بردي**

□ النجوم الزاهرة، ج٥، مصر، ١٩٢٩م.

١٠ ● **أبو الثناء الألوسي**

□ غرائب الاغتراب ونزهة الألباب، بغداد، ١٣٢٧هـ.

□ نشوة الشمول في السفر إلى إسلامبول، بغداد، ١٢٩١هـ.

□ مقامات ابن الألوسي، كربلاء، ١٢٧٣هـ.

١١ ● **أبو نصر السراج الطوسي**

□ جمع وتحقيق عبد الكريم محمد وآخرون، مصر، ١٩٦٠م.

١٢ ● **أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري**

□ الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحقيق الحاج محمود عبد الباقي، ج٢، مصر، ١٩٦٦م.

١٣ ● **أبو طالب خان**

□ رحلة أبو طالب خان إلى العراق، ترجمة مصطفى جواد، بغداد، ١٩٦٩م.

١٤ ● **أحمد بن الخياط الموصلي**

□ ترجمة الأولياء في الموصل الحدباء، تحقيق سعيد الديوه چي، الموصل، ١٩٦٦م.

١٥ ● **أحمد زكي بدوي**

□ معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، لبنان، ١٩٧٧م.

١٦ ● **أحمد فكري**

□ مساجد القاهرة ومدارسها، ج٢، بغداد، ١٩٦٥م.

١٧ ● أحمد قدوري

□ مذكرات عن الثورة العربية، دمشق، ١٩٥٦م.

١٨ ● أحمد علي الصوفي

□ تاريخ بلدية الموصل، ج١، ١٩٧٠م.

١٩ ● أحمد عزة العربي

□ العقود الجوهرية في مدائح الحضرة الرفاعية، القاهرة، (ب.ت).

٢٠ ● آدم متز

□ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي، ج٢، القاهرة، ١٩٤٧م.

٢١ ● أديب توفيق الفكيكي

□ تاريخ أعلام الطب العراقي الحديث، ج١، بغداد، ١٩٨٩م.

٢٢ ● أمين المميز

□ بغداد كما عرفتها، بغداد، ١٩٨٥م.

٢٣ ● أنستاس ماري الكرملي

□ خلاصة تاريخ العراق منذ نشوئها إلى يومنا هذا، البصرة، ١٩٩١م.

٢٤ ● أورخان محمد علي

□ السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عصره، الأنبار، ١٩٨٧م.

٢٥ ● باقر أمين الورد

□ أعلام العراق الحديث (١٨٦٩-١٩٦٩م)، ج١، بغداد، ب.ت.

٢٦ ● بطرس البستاني

□ محيط المحيط، مجلد١، بيروت، ١٨٧٠م.

٢٧ ● بطرس الكلداني

□ ذخيرة الأذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة والسريان، المجلد ٢، الموصل، ١٩١٣م.

٢٨ • **بكري الشيخ أمين**

□ مطالعات في الشعر المملوك العثماني، بيروت، ١٩٨٠م.

٢٩ • **بيير دي فوصيل**

□ الحياة في العراق منذ قرن (١٨١٤-١٩١٤م)، ترجمة أكرم فاضل، بغداد، ١٩٦٨.

٣٠ • **بوريوفتش لوتسكي**

□ تاريخ الأقطار العربية الحديثة، ترجمة عفيفة البستاني، موسكو، ١٩٧١م.

٣١ • **تحسين العسكري**

□ مذكرات عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية، ج١، بغداد، ١٩٣٦م.

٣٢ • **توفيق علي بدو**

□ العرب والترك في العهد الدستوري العثماني (١٩٠٨-١٩١٤م)، القاهرة، ١٩٦٠م.

٣٣ • **توفيق حمد عبد الجواد**

□ تاريخ العمارة والفنون الإسلامية، ج٣، بغداد، ١٩٦٠م.

٣٤ • **توفيق السويدي**

□ مذكراتي - نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية، بيروت، ١٩٦٩م.

٣٥ • **جان باتيست تافرنيه**

□ العراق في القرن السابع عشر، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد، ١٩٤٤م.

٣٦ • **جبرا إبراهيم جبرا وإحسان فتحي**

□ بغداد بين الأمس واليوم، بغداد، ١٩٨٧م.

٣٧ • **جعفر الخياط**

□ صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة، ج١، بيروت، ١٩٧١م.

٣٨ • **جعفر الشيخ باقر محبوبة**

□ ماضي النجف وحاضرها، ج١، النجف، ١٩٥٨م.

٣٩ • **جلال الحنفي**

□ معجم اللغة العامية البغدادية، ج١، بغداد، ١٩٧٨م.

□ المغنون البغداديون والمقام العراقي، بغداد، ب.ت.

٤٠ • **جميل موسى النجار**

□ الإدارة العثمانية في ولاية بغداد (١٨٦٩-١٩١٧م)، القاهرة، ١٩٩١م.

٤١ • **جورج كورفتش**

□ دراسات في الطبقات الاجتماعية، ترجمة أحمد رضا وعز الدين فودة، مصر، ١٩٧٣م.

٤٢ • **جورج كيرك**

□ موجز تاريخ الشرق الأوسط منذ ظهور الإسلام حتى الوقت الحاضر، ترجمة عمر الإسكندري وسليم حسن، القاهرة، ١٩٥٧م.

٤٣ • **جون غوردن لوريمر**

□ دليل الخليج، القسم التاريخي، ترجمة المكتب الثقافي لحاكم قطر، ج٤ - ج٦، الدوحة، ١٩٦٧م.

□ دليل الخليج، القسم الجغرافي، ترجمة المكتب الثقافي لحاكم قطر، ج٣، بيروت، ١٩٧٠م.

٤٤ • **جيمس بيلي فريزر**

□ رحلة فريزر إلى بغداد سنة ١٨٣٤م، ترجمة جعفر الخياط، بغداد، ١٩٦٤م.

٤٥ • **جيمس ريموند وليستيد**

□ رحلتي إلى بغداد في عهد الوالي داود باشا، ترجمة سليم طه التكريتي، بغداد، ١٩٨٤م.

٤٦ • **حارث يوسف غنيمة**

□ البروتستانت والإنجيليون في العراق، بغداد، ١٩٩٨م.

٤٧ • **حسن الباشا**

□ الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار القديمة، ج٢، القاهرة، ١٩٦٦م.

٤٨ • **حسن الدجيلي**

□ تقدم التعليم العالي في العراق، بغداد، ١٩٦٣م.

٤٩ • **حمودي الوردي**

□ عالم التكايا ومحافل الذكر، بغداد، ١٩٧٣م.

٥٠ • **حميد جاسم محمد وآخرون**

□ الاقتصاد الصناعي، د.م.، ب.ت.

٥١ • **خالص الأشعب**

□ مدينة بغداد ونموها وبنيتها وتخطيطها، بغداد، ١٩٨٤م.

□ المؤثرات المناخية الاجتماعية وأثرها في تطور البيت العربي، ندوة العمارة والبيئة المناخية في العراق، مؤسسة اللجنة العلمية، بغداد، ١٩٧٠م.

٥٢ • **خلدون ناجي معروف**

□ الأقلية اليهودية في العراق بين سنة (١٩٢١-١٩٥٤م)، ج١، بغداد، ١٩٧٥م.

٥٣ • **خيري العمري**

□ حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث، بغداد، بلا.

٥٤ • **ديولافوا**

□ رحلة مدام ديولافوا إلى كلده العرق ١٨٨١م، ترجمة مير البصري، بغداد، ١٩٥٨م.

● ٥٥ **رسول الكركوكلي**

□ دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء، ترجمة موسى كاظم نورس، بيروت، ب.ت.

● ٥٦ **رضا محسن القريشي**

□ الموشحات العراقية منذ نشأتها حتى نهاية القرن التاسع عشر، بغداد، ١٩٨١م.

● ٥٧ **رفائيل بطي**

□ الصحافة في العراق، القاهرة، ١٩٥٥م.

● ٥٨ **رفائيل بابو إسحق**

□ تاريخ نصارى العراق، بغداد، ١٩٤٨م.

● ٥٩ **ريجارد كوك**

□ بغداد مدينة السلام، ترجمة مصطفى جواد، ج٢، بغداد، ١٩٦٧م.

● ٦٠ **زكي محمد حسن**

□ الفنون الإسلامية في العصر الإسلامي، القاهرة، ١٩٤٠م.

● ٦١ **ز. ي. هرشلاغ**

□ مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، ترجمة مصطفى الحسيني، بيروت، ١٩٧٣م.

● ٦٢ **زهير حطب**

□ تطور بني الأسرة العربية، بيروت، ١٩٧٦م.

● ٦٣ **الزهاوي**

□ دراسات ونصوص، إعداد عبد الحميد الرشودي، بيروت، ١٩٦٦م.

● ٦٤ **ستيفن همسلي لونكريك**

□ أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، بغداد، ١٩٤٥م.

□ تارخ العراق الحديث (١٩٠٠-١٩٥٠م)، ترجمة سليم طه التكريتي، ج٢، بغداد، ١٩٨٨م.

٦٥ • **سعاد خيري**

□ المرأة وآفاق التطور في العراق، بغداد، ١٩٧٥م.

٦٦ • **سعاد هادي العمري**

□ بغداد كما وصفها السواح الأجانب، بغداد، ١٩٥٤م.

٦٧ • **سعيد عبود السامرائي**

□ مقدمة في التاريخ الاقتصادي، النجف، ١٩٧٣م.

٦٨ • **سليمان فائق**

□ تاريخ المماليك «الكولة مندة»، ترجمة محمد أرمنازي، بغداد، ١٩٦١م.

□ تاريخ بغداد، ترجمة موسى كاظم نورس، بغداد، ١٩٦٢م.

٦٩ • **سليمان فيضي**

□ في غمرة النضال، بغداد، ١٩٥٢م.

٧٠ • **شاكر مصطفى سليم**

□ المدخل إلى الأنثروبولوجية، بغداد، ١٩٧٥م.

٧١ • **شارل عيساوي**

□ التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب (١٨٠٠-١٩١٤م)، ترجمة رؤوف عباس حامد، بيروت، ١٩٩٠م.

٧٢ • **شريف عسيران**

□ علم الصحة، ج١، بغداد، ١٩٤٩م.

٧٣ • **ش. سامي**

□ قاموس تركي، إسطنبول، ١٣٧١هـ.

٧٤ • **صالح عبدالله سرية**

□ تطور التعليم الصناعي في العراق، بغداد، ١٩٦٩م.

٧٥ • صادق مهدي السعيد

□ مذكرات أولية تشريع للعمال، بغداد، ١٩٥٦م.

٧٦ • صباح إبراهيم الشيخلي

□ الأصناف في العصر العباسي، بغداد، ١٩٧٦م.

٧٧ • صديق الدملوجي

□ مدحت باشا، بغداد، ١٩٥٢م.

٧٨ • طارق نافع الحمداني

□ ملامح سياسية وحضارية في تاريخ العراق الحديث، لبنان، ١٩٨٩م.

٧٩ • طالب مشتاق

□ أوراق أيامي (١٩٠٠-١٩٠٨م)، ج١، بيروت، ١٩٦٨م.

٨٠ • عاطف غيث

□ قاموس علم الاجتماع، الإسكندرية، ١٩٧٩م.

٨١ • عادل البكري

□ عثمان الموصلي قصة حياته وعبقريته، بغداد، ١٩٩٠م.

٨٢ • عباس العزاوي

□ تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، بغداد، ١٩٥٥م.

□ تاريخ العراق بين احتلالين، ح٨، بغداد، ١٩٥٦م.

□ ذكرى أبي الثناء الألوسي، بغداد، ١٩٥٨م.

□ تاريخ الأدب العربي في العراق، ج٢، بغداد، ١٩٦٢م.

٨٣ • عباس التميمي

□ مركز صناعة الطابوق في محافظة بغداد، بغداد، ١٩٧٦م.

٨٤ • عبد الحميد العلوجي

□ تاريخ الطب العراقي، بغداد، ١٩٦٧م.

٨٥ • **عبد المجيد محمد الخالدي**

□ الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية، دمشق، ١٩٨٩م.

٨٦ • **عبد الرزاق عباس حسين**

□ نشأة مدن العراق وتطورها، بغداد، ١٩٧٧م.

٨٧ • **عبد الرزاق الدراجي**

□ جعفر أبو التمن ودوره في الحركة الوطنية في العراق (١٩٠٨-١٩٤٥م)، بغداد، ١٩٨١م.

٨٨ • **عبد الرزاق الهلالي**

□ دراسات وتراجم عراقية، بغداد، ١٩٧٢م.

□ الشاعر محمد باقر رضا الشبيبي، بغداد، ١٩٦٥م.

□ تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني (١٦٣٨-١٩١٧م)، بغداد، ١٩٥٩م.

٨٩ • **عبد الرزاق الحسيني**

□ تاريخ الصحافة العراقية، ج٢، بغداد، ١٩٥٧م.

٩٠ • **عبد الرزاق أحمد محمد الكاشاني**

□ معجم مصطلحات الصوفية، تحقيق عبد اللطيف العبد، القاهرة، ١٩٩٨م.

٩١ • **عبد الرحمن السويدي**

□ تاريخ حوادث بغداد والبصرة، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف، بغداد، ١٩٧٨م.

٩٢ • **عبد الرحمن بدوي**

□ شخصيات قلقة في الإسلام، دار النهضة العربية، ١٩٦٤م.

□ تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثامن الهجري، الكويت، ١٩٧٥م.

٩٣ • عبد الرحمن حلمي العباس السهروردي

□ تاريخ بيوتات بغداد في القرن الثالث عشر الهجري، تحقيق عماد عبد السلام، بغداد، ١٩٩٦م.

٩٤ • عبد الرحمن سلمان الدربندي

□ المرأة العراقية المعاصرة، ج١، بغداد، ١٩٦٨م.

٩٥ • عبد السلام الجنابي

□ جلال الدين الرومي حياته وشعره، بيروت، ١٩٩٣م.

٩٦ • عبد العزيز القصاب

□ من ذكرياتي، بغداد، ١٩٦٢م.

٩٧ • عبد العزيز سليمان نوار

□ تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، القاهرة، ١٩٦٨م.

□ داود باشا والي بغداد، القاهرة، ١٩٦٨م.

□ المصالح البريطانية في أنهار العراق (١٦٠٠-١٩١٤م)، القاهرة، ١٩٨٥م.

٩٨ • عبد علي سلمان

□ المجتمع الريفي في العراق، بغداد، ١٩٨٠م.

٩٩ • عبد الغفار الأخرس

□ الطراز الأنفس في شعر الأخرس، جمع أحمد عزت الفاروقي، إسطنبول، ١٩٠٤م.

١٠٠ • عبد القادر الريحاوي

□ العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، دمشق، ١٩٧٩م.

١٠١ • عبد الكريم العلاف

□ بغداد القديمة، بغداد، ١٩٦٠م.

□ قيان بغداد في العصر العباسي والعثماني الأخير، بغداد، ١٩٦٩م.

١٠٢ ● **عبد الكريم هوزان القشيري**

□ الرسالة القشيرية، تحقيق الفير محمد حسن، باكستان، ب.ت.

١٠٣ ● **عبد الكريم غرايبة**

□ مقدمة في تاريخ العرب، بيروت، ١٩٨٤م.

١٠٤ ● **عبد اللطيف بندر أرغلو وآخرون**

□ المعجم التركي العربي، ج٢، بغداد، ١٩٨١م.

١٠٥ ● **عبدالله حنا**

□ الحركة العمالية في سوريا ولبنان، دمشق، ١٩٧٣م.

١٠٦ ● **عبدالله محمود الحاج قاسم**

□ مؤسسات الموصل الصحية منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية العهد العثماني، بغداد، ١٩٩٠م.

١٠٧ ● **عبدالله فتح البغدادي الغياثي**

□ التاريخ الغياثي (١٢٥٨-١٤٨٦م)، تحقيق طارق الحمداني، بغداد، ١٩٧٥م.

١٠٨ ● **عبد المنعم شوقي**

□ مجتمع المدينة، الاجتماع الحضري، القاهرة، ١٩٦٦م.

١٠٩ ● **عبد المالك خلف التميمي**

□ التبشير في منطقة الخليج العربي، الكويت، ١٩٨٨م.

١١٠ ● **عثمان بن سند الوائلي البصري**

□ مطالع السعود، تحقيق عماد عبد السلام، سهيلة عبد المجيد القيسي، الموصل، ١٩٩١م.

١١١ ● **عدنان حسين العوادي**

□ الشعر الصوفي حتى أفول المدرسة في بغداد وظهور الغزالي، بغداد، ١٩٧٩م.

١١٢ • **عزيز جاسم الحجية**

□ بغداديات، ج١، بغداد، ١٩٦٦م.

□ بغداديات، ج٢، بغداد، ب.ت.

□ بغداديات، ج٤، بغداد، ١٩٨١م.

□ بغداديات، ج٦، بغداد، ١٩٩١م.

١١٣ • **علاء موسى كاظم نورس**

□ أحوال بغداد من القرن الثامن عشر والتاسع عشر، بغداد، ١٩٨٩م.

١١٤ • **علي الوردي**

□ لمحات اجتماعية، ج٣، بغداد، ١٩٧٢م.

□ لمحات اجتماعية، ج٤، بغداد، ١٩٧٤م.

□ دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، بغداد، ١٩٦٥م.

١١٥ • **علي البازركان**

□ فصول من تاريخ التربية والتعليم في العراق، بغداد، ١٩٩١م.

١١٦ • **علي ظريف الأعظمي**

□ مختصر تاريخ بغداد، بغداد، ١٩٢٦م.

١١٧ • **علي إبراهيم عبد وخيرية قاسم**

□ يهود البلاد العربية، بيروت، ١٩٧١م.

١١٨ • **علي النشار**

□ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج٣، القاهرة، ١٩٧٨م.

١١٩ • **عماد عبد السلام رؤوف**

□ معالم بغداد العمرانية في القرون المتأخرة، بغداد، ٢٠٠٠م.

□ التاريخ والمؤرخون العراقيون في العصر العثماني، بغداد، ١٩٨٣م.

□ إدارة العراق والأسرة الحاكمة ورجال الإدارة والقضاة في العراق في القرون المتأخرة (٦٥٦-١٣٣٧هـ/ ١٢٥٨-١٩١٨م)، بغداد، ١٩٩٢م.

□ عادلة خاتون وصفحة من تاريخ العراق في بغداد، بغداد، ١٩٩٧م.

١٢٠ • **غانم سعيد العبيدي**

□ التعليم الأهلي في العراق لمرحلتي الابتدائية والثانوية وتطور مشكلاته، بغداد، ١٩٧٠م.

١٢١ • **فائق بطي**

□ صحافة العراق تاريخ كفاحها، بغداد، ١٩٦٩م.

١٢٢ • **فاضل البراك**

□ المدارس اليهودية والإيرانية في العراق، بغداد، ١٩٨٥م.

١٢٣ • **فتاح عبد السلام**

□ ديوان ملة حسن البزاز، بغداد، ١٩٨٨م.

١٢٤ • **فخري الزبيدي**

□ بغداد، من ١٩٠٠ حتى سنة ١٩٣٤م، ج١، بغداد، ١٩٩٠م.

١٢٥ • **فرنسيس صائغيان البغدادي**

□ تاريخ الأرمن الكاثوليك في العراق، بيروت، ١٩٤٤م.

١٢٦ • **فيليب حتي**

□ تاريخ العرب، ج٢، بيروت، ١٩٧٤م.

١٢٧ • **فيصل الأرحيم**

□ تطور العراق تحت حكم الاتحاد بين (١٩٠٨-١٩١٤م)، الموصل، ١٩٧٥م.

١٢٨ • **قدري قلعجي**

□ مدحت باشا أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين، بيروت، ١٩٥١م.

١٢٩ • **كامل الجادرجي**

□ من أوراق كامل الجادرجي، بيروت، ١٩٨١م.

١٣٠ • **كارستن نيبور**

□ رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر، ترجمة محمود حسين الأمين، بغداد، ١٩٦٥م.

١٣١ • **كاثلين لانكلي**

□ تصنيع العراق، ترجمة محمد حامد الطائي وخطاب صكار العاني، بغداد، ١٩٦٣م.

١٣٢ • **كلايد كلاكهون**

□ الإنسان في المرآة، ترجمة شاكر مصطفى سليم، بغداد، ١٩٦٤م.

١٣٣ • **كلارك كير وآخرون**

□ الصناعة وأثرها في المجتمعات والأفراد، ترجمة برهان دجاني، بيروت، ١٩٦٢م.

١٣٤ • **كليمان هوار**

□ خطط بغداد، ترجمة ناجي معروف، بغداد، ١٩٦١م.

١٣٥ • **كمال السامرائي**

□ الأمراض النسوية في التاريخ القديم وأخبارهم في العراق الحديث، بغداد، ١٩٨٠م.

١٣٦ • **كمال لطيف سالم**

□ أعلام المقام العراقي ورواده، بغداد، ١٩٨٥م.

١٣٧ • **كمال مظهر أحمد**

□ أضواء على قضايا دولية في الشرق الأوسط، بغداد، ١٩٧٨م.

١٣٨ • **لسترنج كي**

□ بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة كوركيس عواد، بغداد، ١٩٥٤م.

١٣٩ • **ل. ن. كوتلوف**

□ ثورة العشرين الوطنية التحريرية في العراق، ترجمة عبد الواحد كرم، بغداد، ١٩٨٥م.

□ تكون حركة التحرر الوطني في المشرق العربي من منتصف القرن التاسع عشر - ١٩٠٨م، ترجمة سعيد أحمد، دمشق، ١٩٨١م.

١٤٠ • لؤي بحري

□ سكة حديد بغداد دراسة في تطور ودبلوماسية قضية سكة حديد برلين - بغداد سنة ١٩١٤م، بغداد، ١٩٦٧م.

١٤١ • ليلى الصباغ

□ المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، دمشق، ١٩٧٣م.

١٤٢ • التونتجي

□ المعجم الذهبي فارسي - عربي، بيروت، ١٩٦٧م.

١٤٣ • المثنوي

□ ترجمة عبد السلام الخفاجي، بيروت، ١٩٦٦م.

١٤٤ • متعب مناف جاسم

□ الخطط وخلفيته السلوكية، بغداد، ١٩٧٦م.

١٤٥ • محسن عبد الحميد

□ الألوسي مفسراً، بغداد، ١٩٦٨م.

١٤٦ • محفوظ العباسي

□ الإمام محمد الرضواني، الموصل، ١٩٨٢م.

١٤٧ • محمد أبو الهدى الصيادي

□ قلادة الجواهر في ذكرى الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر، بيروت، ١٩٧٠م.

١٤٨ • محمد أنيس

□ الدولة العثمانية المشرق العربي (١٥١٤-١٩١٤م)، القاهرة، ب.ت.

١٤٩ • محمد بهجت الأثري

□ محمود شكري الألوسي وآراؤه اللغوية، القاهرة، ١٩٥٨م.

□ المدخل في تاريخ الأدب العربي، بغداد، ١٩٣٢م.

١٥٠ ● محمد بن خليفة بن حمد بن موسى النبهاني

□ التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، مصر، ١٣٤٢هـ.

١٥١ ● محمد الخال

□ الشيخ معروف التورجي البرزنجي، بغداد، ب.ت.

١٥٢ ● محمد رؤوف الشيخلي

□ مراحل الحياة في بغداد في القرون المظلمة وما بعدها، ج١، البصرة، ١٩٧٢م.

□ المعجم الجغرافية لمدينة بغداد القديمة بين سنتي (١٢٧٠-١٣٦٠هـ)، البصرة، ١٩٧٧م.

١٥٣ ● محمد سلمان حسن

□ التطور الاقتصادي في العراق، ج١، بيروت، ١٩٦٥م.

١٥٤ ● محمد سلمان البغدادي

□ الحديقة الندية في آداب الطريقة النقشبندية الخالدية، مصر، ب.ت.

١٥٥ ● محمد صالح السهروردي

□ لب الألباب، بغداد، ١٩٣٣م.

١٥٦ ● محمد طاهر العمري

□ تاريخ مقدرات العراق السياسية، بغداد، ١٩٢٥م.

١٥٧ ● محمد عبد الستار عثمان

□ المدينة الإسلامية، الكويت، ١٩٨٨م.

١٥٨ ● محمد علي أحمد العمري الموصلي

□ الجواهر العمرية في الموالات الإلهية وحب السادة الصوفية، تحقيق ذاكر العثمان، الموصل، ١٩٨٦م.

١٥٩ ● محمد فريد بك

□ تاريخ الدول العثمانية، مصر، ١٨٨٩م.

١٦٠ • **محمد مصطفى الفلاحي**

□ شمامة العنبر والزهر المعبر، تحقيق سليم النعيمي، بغداد، ١٩٧٧م.

١٦١ • **محمد مكية**

□ الدور البغدادي والتراث السكني «عرض تاريخي مصور قامت بنشره نقابة المهندسين العراقية على نفقة مؤسسة كوولينكيان»، بغداد، ١٩٦٨م.

١٦٢ • **محمد مهدي البصير**

□ تاريخ القضية العراقية، بغداد، ١٩٢٣م.

□ سوانح، ج٢، بغداد، ١٩٧٦م.

١٦٣ • **محمود شكري الألوسي**

□ مختصر التحفة الاثني عشر، القاهرة، ١٢٧٣هـ.

□ مساجد بغداد وآثارها، تهذيب بهجة الأثري، بغداد، ١٣٤٦هـ.

١٦٤ • **مرتضى نظمي زادة، كلش خلفا**

□ ترجمة موسى كاظم نورس، بغداد، ١٩٧٦م.

١٦٥ • **مصطفى جواد وأحمد سوسة**

□ دليل خارطة بغداد، بغداد، ١٩٥٨م.

١٦٦ • **مصطفى الخالدي وعمر فروخ**

□ التبشير والاستعمار في البلاد العربية، بيروت، ١٩٧٣م.

١٦٧ • **مصطفى نور الدين الواعظ**

□ الروض الأزهر في تراجم السيد جعفر، الموصل، ١٩٤٨م.

١٦٨ • **مصطفى الخشاب**

□ الاجتماع العائلي، القاهرة، ١٩٦٦م.

١٦٩ • **منير بكر التكريتي**

□ الكاتب الصحفي الأديب فهمي المدرس، بغداد، ١٩٨١م.

١٧٠ • **منيب الباجچي**

□ زنابق الحقل، بغداد، ١٣٥٧هـ.

١٧١ • **موفق بن المرجة**

□ صحوة الرجل المريض، الكويت، ١٩٨٤م.

١٧٢ • **ميخائيل عواد**

□ صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي، بيروت، ١٩٨٢م.

١٧٣ • **ناجي جواد**

□ بغداد سيرة ومدينة، بيروت، ٢٠٠٠م.

١٧٤ • **ناجي زين الدين**

□ مصدر الخط العربي، بغداد، ١٩٧٤م.

١٧٥ • **نابليون المارديني**

□ تنزه العباد في مدينة بغداد، بيروت، ١٨٨٧م.

١٧٦ • **نجم الدين محي الدين الكيلاني**

□ سيرة ومناقب أئمة التصوف، بغداد، ١٩٩٠م.

١٧٧ • **نعمان خير الدين الألوسي**

□ جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، مصر، ١٢٩٨هـ.

□ فهرست مكاتب بغداد الموقوفة، دراسة وتقديم عماد عبد السلام، بغداد، ١٩٨٥م.

١٧٨ • **نيكلسون**

□ التصوف الإسلامي وتاريخه، ترجمة أبو العلاء عفيفي، القاهرة، ١٩٥٦م.

١٧٩ • **هاشم الوتري ومعمر الشابندر**

□ تاريخ الطب في العراق، بغداد، ١٩٣٩م.

١٨٠ • **هاملتون جب وهارولد هاملتون**

□ المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة أحمد عبد رحيم مصطفى، القاهرة، ١٩٧١م.

١٨١ • **هاشم خضر الجنابي**

□ التركيب الداخلي لمدينة الموصل القديمة، دراسة في جغرافية المدن، الموصل، ١٩٨٢م.

١٨٢ • **هشام جواد**

□ مقدمة في كيان العراق الاجتماعي، بغداد، ١٩٤٦م.

١٨٣ • **هند فتال عسكري**

□ تاريخ المجتمع العربي الحديث، والمعاصر، مصر، ١٩٨٨م.

١٨٤ • **وليس بدج**

□ رحلات إلى العراق، ترجمة فؤاد جميل، بغداد، ١٩٦٦م.

١٨٥ • **وليد الأعظمي**

□ مجموعة الخطاطين البغداديين، ج٢، بغداد، ١٩٨٩م.

١٨٦ • **ياسين خير الله العمري**

□ زبدة الإثارة الجليلة في الحوادث الأرضية، حققه عماد عبد السلام، النجف، ١٩٧٤م.

١٨٧ • **إلياهو دنكور ومحمد فهمي درويش**

□ الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦م، بغداد، ١٩٣٦م.

١٨٨ • **يوسف أيش**

□ المؤسسات الاقتصادية في المدينة الإسلامية، اليونسكو، ١٩٨٠م.

١٨٩ • **يوسف رزق الله غنيمة**

□ نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، بغداد، ١٩٢٤م.

□ تجارة العراق قديماً وحديثاً، بغداد، ١٩٢٢م.

١٩٠ • **يوسف عز الدين**

□ الشعر العراقي أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر، القاهرة، ١٩٦٥م.

□ خيري الهنداوي - حياته وديوانه الشعري، بغداد، ١٩٧٤م.

١٩١ • **يوسف كمال بيك حتاتة**

□ مذكرات مدحت باشا، مصر، ١٩١٣م.

١٩٢ • **نوري خليل البرازي**

□ الصناعة ومشاريع التصنيع في العراق، د.م، ١٩٧٧م.

• **الكتب الأجنبية:**

- A. Blunt, Tribes of the Euphrates, Vol.1 1968.
- A. Locher, Star and Crescent, Company, 1889.
- American University of Beirut - Festival Book, Beirut, 1967.
- Arnold T. Wilson, Loyalties Mesopotamia, 1914-1917, 2ed, Vol.1, London, 1937.
- B. Lewis, The Emergence of Modern Turkey, London, 1967.
- E. Kedourie, Arabic Political A Memories and other Studies, London, 1974.
- F. C. Webb, Up the Tigris to Baghdad, London, 1870.
- F. J. Jones, Selecting from the Records of the Bombay Government, Bombay, 1857.
- F. J. Moberly, The Campaign in the Mesopotamia, London, 1993.
- Friedrich Rosen, Oriental Memories of A Grown Diplomatist, London, 1930.
- D. R. Ali Gay, Iraq 1908-1921 A Socio-Political Study, Beirut, 1973.
- Gerald Reit Leger, A Tower of Skuns A Journey Through Persia, London, 1932.
- Goknil, Living Archive Heather Ottoman, London, 1966.

- Grotten Geary, Through Asiatic Turkey, Vol.1, London, 1876.
- H. Swainson Through Turkish Arabia A journey from the Mediterranean to Bombay by the Euphrates and Tigris, London, 1894.
- H. T. Norris, Islam in the Balkans, Religion and Society between Europe and the Arab World, London, 1950.
- H. Valentine Geere, By nile and Eupherates A record of discovery and Adventure, Edinburgh, TXT Clark, 1904.
- Habib Chiha, Province de Bagdad son passé, son présent, S. N. Avenir, Paris, 1905.
- Hashim Alwitry, Health Service in Iraq, Baghdad, 1966.
- Inyenievr Joseph Germk, Euphrates and Tigris, Gothey, 1875.
- J. A. Saldonhg, Precis of Turkish Arabia Affairs, Part 2.
- Lady Bell, The Letter of Gertrude Bell, Selected and Edited by Lady Bell, D. B. E. Vol.1, Sixth Impression, Ernest Benn Limited, London, 1927.
- Lewis Hertslet, Collection of the Treaties and Conventions, V (London), 1840, 509 ff.
- Muller, Simonis, Dugaucase on Gofe Perslove Larmenle Le Kurdistan et Mesopotamte, Paris, 1892.
- R. Bedwen, The affaires of Arabia 1905-1906. Vol.1, London, 1971.
- R. H. Davison, Reform in the Ottoman Empire 1856-1876, Princeton, 1965.
- Reader Butlared, Britain and the Middle East, Third edition, London, 1964.
- Rev. Jacot Samolle, Journal A missionary Tour Through the desert Arabia to Baghdad, London, 1811.
- Roger Owen, The Middle East in the World Economy 1804-1971, Methuen Gold, Beirut, 1981.
- Schimmel Annemarie, Islamic Celliye Phys, Leiden 1970.

- Stanford J. Show and Ezal Kurel Show, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Vol.11, Cambridge, 1977.
- The Han, William. N. Bruce, With Sir. A. Henry Layard, in two Lowmo - Vol 11, London, 1903.
- The Reu Horaik South gate, Narrative of A tour Through Apmenia, Kurdistan, Persia, and Mesopotamia, Vol. 11, New York, 1840.
- Vitae Coninet, La Twyui Dasie, 3ed Tome, Paris, 1894.
- W. K. Loftus, Travels and Researches in Chaldea and Suslana, London, 1857.
- Walter. B. Harkis, From Batum to Baghdad Via Tiflis, Tabriz, and Persian Kurdistan, London.
- William Fogg, Arabista ninths, Being trees through Egypt Arabic and Persian to Baghdad Tour, London, 1875.

 البحوث والمقالات العربية والأجنبية:

١ • إبراهيم خليل أحمد

□ حركة التربية والتعليم والنشر، لجنة من الباحثين، كتاب حضارة العراق، ج١١، بغداد، ١٩٨٥م.

٢ • إبراهيم حلمي العمر

□ أندية العراق، مجلة المقتبس، دمشق، ج٢، ١٩١٢م.

□ أسرة الألوسي، مجلة لغة العرب، ج٢، السنة ٣، ١٩١٣م.

٣ • أحمد سوسة

□ ملامح من التاريخ القديم يهود العراق وصلته بيهود الشرق، مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد ٣، العدد ٤، السنة ٢، ١٩٧٥م.

٤ • أحمد حامد الصراف

□ الدرويش، مجلة لغة العرب، ج٢، السنة الأولى، شباط، ١٩٢٨م.

٥ • **أدموند كاندلر**

□ بغداد سنة ١٩١٧م، ترجمة محمد مظفر الأدهمي، مجلة المورد، المجلد ٨، العدد ٤، ١٩٧٩م.

٦ • **أنستاس الكرملي**

□ الزوار والتجار في العراق سنة ١٩٠٣م، مجلة غرفة تجارة بغداد، ج٨، السنة ٤، تشرين الثاني ١٩٤١م.

٧ • **بطرس الأب حداد**

□ كنائس بغداد عبر التاريخ، مجلة ما بين النهرين، العدد ٣١-٣٢، بغداد، ١٩٨٠م.

٨ • **تاريخ فتح الجادة**

□ مجلة الزنبقة، العدد ٧، ١ كانون الثاني، ١٩٢٣م.

٩ • **جاسم محمد حسن العدول**

□ أول مدرسة صناعية في بغداد، بحث في كتاب بغداد في التاريخ، الندوة العلمية الأولى التي عقدها قسم التاريخ، كلية التربية، جامعة بغداد، ١٩٩٠م.

١٠ • **جاسم محمد حسن**

□ المحاكم والقضاء، بحث منشور في موسوعة حضارة الموصل، ج٤، الموصل، ١٩٩٤م.

□ وقائع احتفالات ولاية بغداد بالمناسبات الرسمية والدينية أبان حكم السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م)، مجلة المورد، مجلد١١ ، عدد ٣، ١٩٨٢م.

١١ • **جعفر الخياط**

□ من حوادث التغلغل الفرنسي في العراق على عهد العثمانيين، مجلة بغداد، العدد ٢٣، كانون الأول ١٩٦٥م.

□ مشاهدات جون آشر في العراق، مجلة سومر، العدد ٢١، ١٩٦٥م.

١٢ • **جلال الحنفي**

□ التمن في الألفاظ العامية، مجلة بغداد، العدد ١٠، شباط - آذار ١٩٦٤م.

١٣ • **جميل الجبوري**

□ وسائط النقل في بغداد القديمة، مجلة بغداد، العدد ٢٣، ١٩٦٥م.

١٤ • **حارث يوسف غنيمة**

□ يوسف رزق الله غنيمة، (١٨٨٥-١٩٥٠م) حياته الفكرية، مجلة بين النهرين، العدد ٥١-٥٢، ١٩٨٥م.

١٥ • **حسان علي البزركان**

□ المدرسة الألمانية في بغداد، مجلة بغداد، العدد ٤، ٣٠ مايس ١٩٦٧م.

١٦ • **حسين علي محفوظ**

□ صورة بغداد في التراث، بحث بمناسبة انعقاد الدورة التاسعة لمجلة الإدارة لمنظمة العواصم والمدن الإسلامية في بغداد، أمانة العاصمة، بغداد، ١٩٨٦م.

١٧ • **حسن أحمد السلمان**

□ التعليم في العهد العثماني، مجلة المعلم الجديد، ج١، السنة ١١، شباط ١٩٤٧م.

١٨ • **حديث عن الزورخانة مع البطل عباس الديك**

□ مجلة بغداد، العدد ١٨، آذار ١٩٦٥م.

١٩ • **خالص الأشعب**

□ الأثر الوظيفي في طراز البيت العربي، مجلة الكتاب، العدد ٨١، آب ١٩٩٧م.

٢٠ • **خرافات عوام بغداد**

□ لغة العرب، ج٩، السنة ٣، (ربيع الثاني ١٣٣٢هـ/ آذار ١٩١٤م).

٢١ ● **خليل حسن البزركاني**

□ الأسواق في بغداد، أبحاث الندوة التي أقامها مركز إحياء التراث العلمي، جامعة بغداد، ٢٢-٢٤ نيسان ١٩٩٠م.

٢٢ ● **داود أفندي صليوا**

□ بغداد، مجلة المقتطف، السنة ٥، ج٥-٦، تشرين الأول - تشرين الثاني ١٨٨٠م.

٢٣ ● **رزوق عيسى**

□ نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر، مجلة الرسالة، العدد ٧٠٧، القاهرة، ١٩٤٧م.

□ نظرة عامة في لغة بغداد العامية، مجلة لغة العرب، ج٢، ١٩١١م.

٢٤ ● **رضا محسن القريشي**

□ الأساطير والملا عبود الكرخي، مجلة التراث الشعبي، العدد ٤، السنة ٦، ١٩٧٥م.

٢٥ ● **روبير مانتران**

□ بغداد في آثار المستشرقين الفرنسيين، ترجمة أكرم فاضل، مجلة المورد، المجلد ٨، العدد ٤، ١٩٧٩م.

٢٦ ● **الراهبات في العراق**

□ مجلة الفكر المسيحي، السنة ٣، ١٩٧٧م.

٢٧ ● **زهير أحمد**

□ الأخويات العمالية في التراث، وعي العمال، العدد ١٢٧، السنة ٨، ٢٨-٧-١٩٧٦م.

٢٨ ● **سعيد الديوه چي**

□ البيت الموصلي، مجلة التراث الشعبي، العدد ٦، السنة ٦، بغداد، ١٩٧٥م.

٢٩ • **شريف يوسف**

- البيت البغدادي القديم، مجلة التراث الشعبي، العدد ٦، السنة ٦، ١٩٧٥م.

٣٠ • **صادق محمود الجميلي**

- الطريقة المولوية والمولويين في بغداد، مجلة التراث الشعبي، العددين ٥-٦، ١٩٧٦م.

٣١ • **صبري فارس الهيتي**

- تخطيط مدينة بغداد، مجلة المورد، العدد ٧، المجلد ٧، ١٩٧٩م.

٣٢ • **صفاء الحيدري**

- مجالس بغداد القديمة، مجلة المجلة، العدد ٢٠، السنة ٢، أغسطس ١٩٥٨م.

٣٣ • **ضمياء محمد جاسم السامرائي**

- الطلبة المدرسون في بغداد أيام وزارة داود باشا، مجلة معهد المخطوطات العربية، ج٢، بغداد، ١٩٨٨م.

٣٤ • **طارق الحمداني**

- مظاهر الحياة الاجتماعية في العصر العثماني، بحث في كتاب حضارة العراق، ج١٠، بغداد، ١٩٨٥م.
- الحركة الشعوبية، بحث في كتاب حضارة العراق، ج٣، بغداد، ١٩٨٥م.

٣٥ • **عادل الألوسي**

- لوازم الدراويش، مجلة التراث الشعبي، العدد ٦٥، ١٩٧٤م.

٣٦ • **عباس العزاوي**

- الطريقة النقشبندية في العراق، مجلة المعرفة، ج٢٦، السنة ٢، بغداد، شباط ١٩٦٢م.
- خلفاء مولانا خالد، مجلة المجمع العلمي الكردي، العدد ٢، السنة ٢، ١٩٧٤م.

□ صفحة من تاريخ الخط في العراق، مجلة الأدب والفنون، ج٣، السنة ٣، ١٩٤٥م.

٣٧ • عبد الحميد العلوجي

□ السعلاة في الخيال الشعبي العراقي، مجلة العراق، العدد ٣، السنة ٣، آذار ١٩٦٢م.

٣٨ • عبد العزيز نوار

□ التبشير البروتستانتي في العراق، مجلة الهلال، العدد ٦، ١٠ حزيران ١٩٦٥م.

□ مواقف سياسية لأبي الثناء الألوسي (١٨٠٢-١٨٥٥م)، المجلة التاريخية، المجلد ١٤، القاهرة، ١٩٦٨م.

٣٩ • عبد العزيز الدوري

□ نشوء الأصناف والحرف في الإسلام، مجلة كلية الآداب، بغداد، ١٩٥٢م.

٤٠ • عبد الرحمن الوجيه

□ تعقيب على الطريقة المولوية، مجلة التراث الشعبي، العدد ٥-٦، ١٩٧٤م.

٤١ • عبدالله الجبوري

□ عبد القادر شنون العيادي، مجلة الأقلام، ج٢، السنة ١، تشرين الأول ١٩٦٤م.

٤٢ • عبد الوهاب بلال

□ من أعلام المقال العراقي «رشيد القندرجي»، منشورات أمانة العاصمة، العدد ١٦، ١٩٧٨م.

٤٣ • علي الوردي

□ اليهود العراقيون «لمحات اجتماعية»، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٢٢، أيار - حزيران ١٩٧٧م.

٤٤ • **علي عجيل منهل**

□ انتفاضة سنة ١٨٣٠م في العراق ضد العثمانيين، مجلة المورد، المجلد ٧، العدد ١ ، ١٩٧٨م.

٤٥ • **علي الزبيدي**

□ المسرحية العربية في العراق في العهد العثماني، مجلة الأقلام، ج٩، السنة ١ ، مايس ١٩٦٥م.

٤٦ • **عماد عبد السلام**

□ الجمعيات العربية وفكرها القومي، بحث في تطور الفكر القومي العربي، بيروت، ١٩٨٦م.

□ تاريخ مياه الشرب القديمة في بغداد، مجلة المورد، المجلد ٨، العدد ٤ ، ١٩٧٩م.

□ مساجد بغداد في أواخر العهد العثماني، مجلة الرسالة الإسلامية، السنة ١١ ، الأعداد ١١٧-١٢٢ ، السنة (١٩٧٨-١٩٧٩م).

□ من تاريخ الخدمة النسوية في بغداد، بحث في كتاب ندوة بغداد في التاريخ، قسم التاريخ، كلية التربية، جامعة بغداد، ١٩٩٠م.

٤٧ • **غسان العطية**

□ التنظيم الحزبي في العراق قبل الحرب العالمية الأولى، دراسات عربية، مجلة بيروت، عدد ١٢ ، تشرين الأول ١٩٧٢م.

٤٨ • **كاظم الدجيلي**

□ طوب أبو خزامة، لغة العرب، ج٨، السنة ٣، ١٩١٤م.

٤٩ • **كمال مظهر أحمد**

□ حول نشوء حركة التحرر الوطني العربي في دراسة سوفيتية جديدة، آفاق عربية، العدد ٢ ، تشرين الأول ١٩٧٥م.

□ الإطار الزمني لتاريخ العراق الحديث والمعاصر، مجلة الحكمة، السنة ١ ، تشرين الأول وكانون الأول ١٩٩٨م.

٥٠ • **كنيسة العذراء في بغداد**

□ مجلة الآثار الشرقية، العدد ٣، ١٩٢٨م.

٥١ • **محمد الهاشمي البغدادي**

□ بغداد الحاضر، مجلة المقتطف، المجلد ٥، أبريل ١٩١٧م.

٥٢ • **محمد رؤوف المسعودي**

□ مذكرات بغدادي، مجلة المورد، المجلد ٨، العدد ٤، ١٩٧٩م.

٥٣ • **محمد توفيق حسن**

□ اليهود الماسونيين في الانقلاب العثماني ١٩٠٨م، مجلة آفاق عربية، العدد ١١، أيار ١٩٧٨م.

٥٤ • **محمد أفندي درويش**

□ بغداد وحالتها الحاضرة، مجلة الهلال، العدد ١، ١٨٩٣م.

٥٥ • **محمود شبيب**

□ مشاهدات أسير إنكليزي في بغداد، مجلة آفاق عربية، العدد ٦، شباط ١٩٧٦م.

٥٦ • **مسلم مطلع**

□ بعض خرافات البغداديين، مجلة لغة العرب، السنة ١، ج١، (شعبان ١٣٣٢هـ/ تموز ١٩١٤م).

٥٧ • **معاد ظافر الألوسي**

□ المنجزات البارزة في البيت العراقي، مجلة العاملون في النفط، العدد ٣٦، ١٩٦٥م.

٥٨ • **مهدي صميدي الأنصاري**

□ الزورخانة، منشور أمانة العاصمة، العدد ١٦، ١٩٧٨م.

٥٩ • **ناجي معروف**

□ خطط بغداد، مجلة كلية الآداب، العدد ٤، آب ١٩٦١م.

٦٠ • **نبيل بدران**

□ صفحات من تاريخ السينما العراقية، مجلة آفاق عربية، العدد ٦، شباط ١٩٨٢م.

٦١ • **نجلة إسماعيل**

□ سراي بغداد والقشلة، مجلة سومر، ج١-٢، مجلد ٣٤، ١٩٧٨م.

٦٢ • **نشرة عن الهيضة**

□ أعدها القسم الطبي الوقائي والصحة العامة، جامعة بغداد، ب.ت.

٦٣ • **هادي توريس**

□ الإسلام في البلقان، مجلة اليرموك، عمان، العدد ٤٦، كانون الأول ١٩٩٤م.

٦٤ • **هلكوت حكيم**

□ أنصار ظهور الطريقة النقشبندية، كردستان، أوائل القرن التاسع عشر، مجلة الدراسات الكردية، باريس، كانون الثاني ١٩٨٤م.

٦٥ • **يوسف عز الدين**

□ مكانة المرأة العراقية وتعليمها في القرن التاسع عشر، مجلة المعلم الجديد، جزء خاص عن التعليم النسوي في العراق، ج١، السنة ١٧، أيلول ١٩٥٣م.

□ الحياة الفكرية في بغداد، مجلة المجمع العلمي، مجلد ٣١، ج١، ١٩٨٠م.

- Al - Lanzoni, Le Mesopotamica Economica, CB. GIXLV11, 1970.

- Kedourie, The Jews of Baghdad in 1910, Middle Eastern Studies, October 1971, No1. 7.

❽ الصحف:

- □ **الأيام**، ١٩٦٢؛ البلد، ١٩٦٧م، البلاد، (١٩٢٩-١٩٣٥م).
- □ **الحارس**، ١٩٥٤م.
- □ **الرقيب**، (١٣٢٧-١٣٢٨هـ).
- □ **الرياض**، ١٩١٢م.
- □ **الزوراء**، (١٨٦٩-١٩١٧م).
- □ **الشرق**، ١٩٦٢م.
- □ **العاصمة**، (١٩٢٢-١٩٢٣م).
- □ **العراق**، (١٩٢٠-١٩٣٢م).
- □ **العهد الجيد**، ١٩٦١م.
- □ **القرندل**، ١٩٥٣م.
- □ **الهاتف**، (١٩٤٥-١٩٥٢م).
- □ **روضة**، ٧٢٣١.
- □ **صدى الإسلام**، (١٩١٥-١٩١٦م).
- □ **صدى بابل**، (١٩٠٩-١٩١٣م).
- □ **كل العرب**، ١٩١٨م.



فهرس المحتويات

